



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية اللغة العربية
قسم الأدب

الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي

إعداد
محمد بن سليمان بن عبدالرحمن القسومي

إشراف
أ. د. أحمد بن حافظ بن أحمد الحكمي
الأستاذ في قسم الأدب

العام الجامعي
1424 - 1425 هـ



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية اللغة العربية
قسم الأدب

الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي

إعداد
محمد بن سليمان بن عبدالرحمن القسومي

إشراف
أ. د. أحمد بن حافظ بن أحمد الحكي
الأستاذ في قسم الأدب

العام الجامعي
1424 - 1425 هـ

المقدمة

الحمد لله ولي كل نعمة وتوفيق ، والصلاة والسلام على أفصح الناطقين بالضاد نبينا محمد الكريم الذي أرسله الله حفظاً للعربية ورحمة للعالمين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فمما لا شك فيه أن بيئة الحرمين الشريفين كانت منذ فجر الإسلام وما تزال مهوى أفئدة المسلمين ، يهرعون إليها للحج والعمرة وزيارة مسجد الرسول – صلى الله عليه وسلم - [رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ] (1) .

وقد استجاب الباري – جلت قدرته – لإبراهيم – عليه السلام – فما لبثت هذه البقاع الطاهرة إلا يسيراً حتى امتلأت أرجاؤها بالمسلمين الذين ظلوا يتوافدون إليها من مشارق الأرض ومغاربها عبر السنين ؛ حيث ارتبطت قلوبهم بهذه البقعة المقدسة ، وزاد ذلك الارتباط بعد أن اختارها الله هي ومدينة رسوله الكريم موطناً للدعوة الإسلامية . يقول الدكتور طه حسين : "كل مسلم وطنان لا يستطيع أن يشك في ذلك شكاً قوياً أو ضعيفاً ؛ وطنه الذي نشأ فيه ، وهذا الوطن المقدس الذي أنشأ أمته وكوّن قلبه وعقله وذوقه وعواطفه جميعاً ، هذا الوطن المقدس الذي هداه إلى الهدى ، والذي يسره للخير ، والذي عزّفه نفسه وجعله عضواً صالحاً مصلحاً في هذا العالم الذي نعيش فيه" (2) .

ولا شك أن لهذا كله الأثر الكبير في ازدهار الحياة الفكرية في المدينتين المقدستين ؛ ذلك أن عدداً كبيراً من الوافدين كانوا من علماء الأمة الإسلامية ، وقد طاب لبعضهم المقام سنين عديدة في ظلال الحرمين الشريفين ، فكان لذلك أثره الكبير في إثراء الحركة العلمية في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .

وكانت تلك الحياة العلمية المزدهرة مادة لدراسات نهض بها عدد من الباحثين ، كما تناول عدد آخر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية آنذاك ، وبقيت الناحية الأدبية في القرنين التاسع والعاشر الهجريين في مكة والمدينة بعيدة عن عناية الدارسين .

على أن ثمة جهوداً سابقة قام بها بعض الباحثين ، كالدكتور عائض الرادادي الذي درس الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري ،

(1) سورة إبراهيم ، الآية (37) .

(2) العميد في الحجاز – صفحات مجهولة من أيام طه حسين ، عبدالفتاح أبو مدين (علامات في النقد الأدبي : مج 1 ، ج 3 ، شعبان 1412هـ) .

والأستاذ محمد الحسيني الذي درس الشعر في المدينة المنورة في القرن الثاني عشر الهجري ، ودراسة الأستاذ عبدالرحيم أبوبكر في بحثه المعنون بـ(الشعر الحديث في الحجاز) ، وعلى الرغم من أنه يدرس الشعر الحجازي ما بين (1334هـ/1916م – 1365هـ/1948م) ؛ فإنه قد أفرد باباً للحديث عن الشعر في العصر العثماني ، متناولاً حالة الشعر وبعض الشعراء الذين عاشوا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين . وهناك دراسة للدكتورة إنصاف بخاري عنوانها : (مكة المكرمة والمدينة المنورة في الشعر في المملكة العربية السعودية – دراسة موضوعية فنية). ومن الواضح أن البحث يتناول الشعر المعاصر الذي أنتجه الشعراء بعد توحيد المملكة العربية السعودية . ومن أشمل الدراسات القائمة حول الأدب الحجازي الحديث دراسة الدكتور إبراهيم الفوزان المعنونة بـ(الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد) ؛ حيث تناول الأدب الحجازي المعاصر شعره ونثره ، وألمح إلى الفترة السابقة وما فيها من نشاط شعري .

وقد تزامن عملي هذا مع عمل الزميل الدكتور مجدي خواجي ، الذي أنجز بحثه عن الشعر في مكة والمدينة في القرنين السابع والثامن الهجريين ، بإشراف أستاذه الدكتور أحمد ابن حافظ الحكمي .

ويأتي هذا البحث إكمالاً للدراسات السابقة ، التي على الرغم من جهود أصحابها ؛ ظل الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين بعيداً عن عنايتهم ؛ فدراسة الشعر في هذين القرنين إذن تمثل أهمية للتأريخ لمسار الحركة الشعرية في هاتين المدينتين خاصة ، وللأدب العربي في العهدين المملوكي والعثماني عامة .

والحدود المكانية والزمانية لهذا البحث تنبئ عن أهميته ؛ إذ إنه في بيئة تعد مهوى أفئدة المسلمين ، وفي زمن أهمله كثير من الباحثين ، وحكم عليه بعضهم بأنه عصر ضعف أو انحدار ، وهونوا من شأنه .

ومهما يكن من أمر الشعر في ذين القرنين في هذه البيئة المباركة ؛ فإن من الأجدر التصدي لتأريخه ودراسته وتقويمه . والإنصاف يقضي بأن نولي دراسة تأريخ الأدب في عصور فتوره من الأهمية مثلما نفعل في عصور ازدهاره ؛ لأن تلك الحقب جزء من تاريخ أدبنا العربي ، والمساهمة في إضاءة جانب من جوانبه عمل يستحق عناية الباحثين .

لقد ظل أدبنا العربي في ذلك العصر يعاني من زيف التقويم وإصدار الأحكام العجلى ، لكن الأمر لم يستمر طويلاً ؛ إذ انبرت أقلام تكشف عن معالمه وتبرز خصائصه ، فظهرت دراسات عن الأدب في العهدين المملوكي والعثماني في مصر والشام تجلو ملامح العصر ، متناولة مظاهر الأدب

وأبرز أعلامه .

ومما يحز في النفس أن تصدر أبحاث عن الأدب العربي في العصر المملوكي والعثماني فتقصر دراساتها على أدباء مصر والشام ، ناسية أو متناسية شعراء المدينتين المقدستين وكأنهما خارج الحدود العربية .

ويبدو أن من أسباب ذلك أن نتاج شعراء مكة والمدينة ليس متوافراً في المصادر المتداولة ؛ إذ إن الكتب التي تحتوي ذلك النتاج إما مخطوطة ، أو مطبوعة منذ مدة طويلة طباعة قديمة قد ندر وجودها حتى غدت كالمخطوطة .

لذلك عقدت العزم على التصدي لدراسة الشعر في مكة والمدينة في هذين القرنين ، وإمالة اللثام عن مظاهره الموضوعية والفنية ؛ فأخذت أروده في كل مصدر وأتعبه في كل مرجع ، لا أدخر في ذلك وسعاً ولا أضن بجهد .

وكانت المادة متفرقة في كتب التراجم والرحلات وكتب التاريخ وبعض المصادر الأخرى ، وكثير منها مخطوط ، وأغلب المطبوع غير محقق ، وطباعته مليئة بالأخطاء ، بل إن بعض المحقق من المصادر لا يقل أخطاءً عن المخطوطات .

من أجل ذلك كنت أقضي أياماً في قراءة مصدر من المصادر فلا أجد ضالتي ، وقد تتحدث المصادر عن ديوان شعر أو مجموعة شعرية لشاعر من الشعراء فأجهد نفسي في البحث عنها دون طائل ، وقد يومئ بعض المؤرخين لقصيدة من القصائد فتضمن المصادر بتدوينها ، وربما أوردت بعض كتب التراجم أو التاريخ البيت والبيتين استشهداً على حادثة من الحوادث أو للاستدلال على قضية مطروحة ، فلا تذكر القائل ، وقد أقلب المصادر بحثاً عن معلومة تكشف الغموض المحيط ببعض الشعراء ؛ فلا أظفر ببغيتي في كثير من الأحيان .

ويبدو أن من أهم الأسباب المؤدية إلى ضياع تلك المادة الشعرية هو ما تتابع على المدينتين من حروب واضطرابات سياسية وجوائح وأحوال اجتماعية متقلبة .

وقد ألجأني ذلك إلى العكوف في المكتبات المهمة ومواصلة البحث ، متتبِعاً المخطوطات التي تعرضت لأحداث العصر ، مستقصياً كتب التاريخ والتراجم والرحلات والمصادر الأدبية (مخطوطها ومطبوعها) حتى تكونت بتوفيق الله - جل شأنه - مادة شعرية غزيرة يمكن من خلالها تكوين صورة واضحة لمستوى الشعر واتجاهات الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .

ثم شرعت في هذه الدراسة وفق منهج تتبعت من خلاله كل ما يتصل بالشعر وحياة الشعراء من مؤثرات . واقتضى هذا المنهج أن أدرس الشعر دراسة موضوعية أتبين فيها أغراضه المختلفة ، ثم أتعرف على الخصائص الفنية العامة لهذا الشعر .

ويتضح للناظر في هذا البحث أنه يسير في ضوء المنهج المتكامل الذي لا يغفل أي منهج من مناهج الدراسة الأدبية المعروفة ؛ حيث جاء عملي هذا في تمهيد وستة فصول وخاتمة .

تضمن التمهيد لمحة موجزة عن الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية في مكة المكرمة والمدينة المنورة ؛ للتعرف على البيئة التي نما هذا الشعر وترعرع في أحضانها.

وتناول الفصل الأول المؤثرات العامة في الشعر المتمثلة في مجاورة الحرمين الشريفين ، والتأليف ، والمدارس والأربطة والمكتبات ، والرحلات والمواسم الدينية ، والأحداث السياسية ، وتشجيع الأمراء والحكام ، والدوافع الذاتية والنفسية .

واختص الفصل الثاني بالحديث عن مصادر الشعر في هذين القرنين ، اتضح فيه أنها تتوزع بين كتب التراجم والمصادر التاريخية والدواوين الشعرية وعدد من المصادر الأخرى التي جاء فيها بعض كتب الأدب والنقد والبلاغة . وهي مرتبة ترتيباً زمنياً حسب وفيات مؤلفيها ، وقد بيّنت من خلال هذه المصادر موضوعاتها ، ومناهج أصحابها ، ومقدار المادة الشعرية التي يحتويها كل مصدر .

واحتوى الفصل الثالث أغراض الشعر التي طرّقها الشعراء مرتبة حسب كثرة الشعر في كلّ منها ، حيث وردت على النحو التالي : المديح ، الشعر الديني ، الرثاء ، الشعر السياسي ، الإخوانيات ، الحنين والشكوى ، الغزل ، الفخر والحماسة ، الهجاء ، الوصف ، الحكمة ، الشعر التعليمي .

وقد كشفت الدراسة عن الأفكار التي كانت تشغل أذهان الشعراء آنذاك من خلال عرض النصوص الشعرية ، والتحليل لكل غرض ، وربط النص بجوهر العام دون اللجوء إلى عرض الحوادث التي لا يستدعيها فهم النص .

وجاءت الدراسة الفنية للشعر في الفصل الرابع ، حيث الحديث عن المعاني التي أفصح عنها الشعراء ، وطرائقهم في بناء القصيدة ، ومستوى أدائهم اللغوي من خلال تناول الألفاظ والتراكيب التي استخدمها

الشعراء للتعبير عن أفكارهم ، كما تناول هذا الفصل الأخيلة والصور ومدى ما اتخذته الشعراء من وسائل لتشكيلها ، وكذلك الأوزان التي نظم عليها الشعراء ، وأنماط القوافي التي احتواها نتائجهم الشعري . ويركز الفصل الخامس على دراسة ثلاثة من شعراء القرنين تبرز لديهم أهم الاتجاهات الشعرية لمعاصريهم من شعراء مكة والمدينة ، هؤلاء هم : محمد بن عبد القوي ، وأحمد العليف ، وعبد العزيز الزمزمي . وقد أفردت كل واحد منهم بحديث يتناول حياته ، وأغراض شعره ، وخصائصه الفنية .

أما الفصل السادس (وهو آخر فصول الدراسة) فيتناول الشعر في ميزان النقد ، وفيه عرض لآراء النقاد في ذلك العصر ، وآراء النقاد المحدثين ، ثم نقد وتقويم للشعر ونقده . وفي الخاتمة إيجاز لأبرز ما أسفرت عنه الدراسة من ملامح وأهم ما توصل إليه البحث من نتائج .

وقد تَرَجَمْتُ في هوامش صفحات البحث لشعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين المتناولين في هذا البحث ، مرتضياً عدم الترجمة لغيرهم ؛ لكثرة الأعلام الواردين في ثنايا الدراسة ، وتحديد المهم منهم أمر تختلف فيه وجهات النظر ، ولو عمدت إلى ترجمة كل من ورد اسمه من الأعلام ؛ لصار العمل أشبه بكتب التراجم .

والشاعر المكي والمدني الذي يتناوله هذا البحث هو من ولد في مكة أو المدينة وعاش فيهما ، أو ولد خارجهما ثم جاء في صغره ونشأ وتعلم في إحدى المدينتين . أما المجاورون الذين رحلوا إلى مكة والمدينة فلم تشملهم الدراسة ، وإن أقاموا سنين عديدة ؛ لأن تكوينهم الثقافي كان في بلادهم ، على أن منهم مَنْ قدم إلى مكة أو المدينة فتعلم فيهما ، ثم انتظم في سلك علمائهما ولم يبرحهما حتى وفاته ، ومثل هؤلاء - وهم قلة - أدرجوا ضمن شعراء مكة والمدينة ؛ لأنهم لم يعرفوا بعلمهم أو شعرهم إلا في هاتين المدينتين .

والجدير بالذكر أن هذا البحث لم يتخذ من الإطار الإقليمي لكل مدينة منهجاً للدراسة ؛ لأن البيئتين في مكة والمدينة تشتركان في المؤثرات والطوابع العامة .

وأخيراً أحمد الله الميسر لكلّ مأمول ، المستحق للشكر جزاء ما أمدني من عون وحاطني من رعاية حتى أتممت هذا البحث ، ثم الشكر لمن تعهد هذا العمل بالإشراف والتقويم ، شيخي الفاضل الأستاذ الدكتور

أحمد بن حافظ الحكمي ؛ حيث أتاح لي أن أنهل من علمه ، وأستنير بأرائه السديدة وتوجيهاته القيّمة التي أضاءت لي - بتوفيق الله - دروباً معتمة ، وفتحت لي أبواباً كانت موصدة . وقد غمرني بفضلته طوال مدة البحث ؛ يشجع ويحفز بروح الأديب الحصيف وتواضع العالم الجليل . وأحسب أن كلمة الشكر هذه لا تفي قدر أستاذي الذي أفدت من علمه وتأثرت بخلقه وحسن تعامله ، وربما لا أجد أفضل من الدعاء أكافئه به (فجزاه الله عني خير الجزاء) .

وأشكر القائمين على المكتبات الذين لقيت منهم تعاوناً ، وأخص بالذكر مسؤولي مكتبة الحرم المكي ، ومكتبة معهد البحوث وإحياء التراث الإسلامي في جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، والمكتبة المركزية في جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ومكتبة ابن عباس بالطائف ، والمكتبة المركزية في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة ، ومكتبة الشيخ عارف حكمت بالمدينة المنورة ، والمكتبة المركزية بجامعة الملك سعود بالرياض ، والمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ومكتبة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض .

كما أشكر كل من مدّ لي يد العون من زملاء أعزاء وأساتذة أجلاء ، وأخص بالشكر والتقدير الدكتور عائض الرادادي الذي غمرني بفضلته وأريحته ؛ حيث أكرمني ببعض المصادر ، وزودني بمعلومات مهمة عن بعضها ، أفدت منها في أثناء جمع المادة العلمية .

أرجو أن يكون جهدي هذا لبنة تساهم في سد ثغرة من ثغرات ما زالت بحاجة إلى جهد الباحثين ؛ لإحياء تراثنا الشعري وكشفه للناس . وأسأل الله أن يرزقني الإخلاص في القول والعمل ، إنه - جلّت قدرته - الهادي إلى سواء السبيل .

محمد بن سليمان القسومي
المحاضر في قسم الأدب / كلية اللغة

العربية



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية اللغة العربية
قسم الأدب

الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين **ملخص**

الرسالة المقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي

إعداد

محمد بن سليمان بن عبدالرحمن القسومي

إشراف

أ. د. أحمد بن حافظ بن أحمد الحكي
الأستاذ في قسم الأدب

العام الجامعي

1424 - 1425 هـ

يتناول هذا البحث الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين) وفق منهج تتبع من خلاله كل ما يتصل بالشعر وحياة الشعراء من مؤثرات . واقتضى هذا المنهج أن أدرس الشعر دراسة موضوعية أتبين فيها أغراضه المختلفة ، ثم أتعرف على الخصائص الفنية العامة لهذا الشعر . ويتضح للناظر في هذا البحث أنه يسير في ضوء المنهج المتكامل الذي لا يغفل أي منهج من مناهج الدراسة الأدبية المعروفة ؛ حيث جاء عملي هذا في تمهيد وستة فصول وخاتمة .

تضمن التمهيد لمحة موجزة عن الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية في مكة المكرمة والمدينة المنورة ؛ للتعرف على البيئة التي نما هذا الشعر وترعرع في أحضانها.

وتناول الفصل الأول المؤثرات العامة في الشعر المتمثلة في مجاورة الحرمين الشريفين ، والتأليف ، والمدارس والأربطة والمكتبات ، والرحلات والمواسم الدينية ، والأحداث السياسية ، وتشجيع الأمراء والحكام ، والدوافع الذاتية والنفسية .

واختص الفصل الثاني بالحديث عن مصادر الشعر في هذين القرنين ، اتضح فيه أنها تتوزع بين كتب التراجم والمصادر التاريخية والدواوين الشعرية وعدد من المصادر الأخرى التي جاء فيها بعض كتب الأدب والنقد والبلاغة . وهي مرتبة ترتيباً زمنياً حسب وفيات مؤلفيها ، وقد بينت من خلال هذه المصادر موضوعاتها ، ومناهج أصحابها ، ومقدار المادة الشعرية التي يحتويها كل مصدر .

واحتوى الفصل الثالث أغراض الشعر التي طرقتها الشعراء مرتبة حسب كثرة الشعر في كلٍ منها ، حيث وردت على النحو التالي : المديح ، الشعر الديني ، الرثاء ، الشعر السياسي ، الإخوانيات ، الحنين والشكوى ، الغزل ، الفخر والحماسة ، الهجاء ، الوصف ، الحكمة ، الشعر التعليمي .

وقد كشفت الدراسة عن الأفكار التي كانت تشغل أذهان الشعراء آنذاك من خلال عرض النصوص الشعرية ، والتحليل لكل غرض ، وربط النص بجوهر العام دون اللجوء إلى عرض الحوادث التي لا يستدعيها فهم النص .

وجاءت الدراسة الفنية للشعر في الفصل الرابع ، حيث الحديث عن المعاني التي أفصح عنها الشعراء ، وطرائقهم في بناء القصيدة ،

ومستوى أدائهم اللغوي من خلال تناول الألفاظ والتراكيب التي استخدمها الشعراء للتعبير عن أفكارهم ، كما تناول هذا الفصل الأخيلة والصور ومدى ما اتخذ الشعراء من وسائل لتشكيلها ، وكذلك الأوزان التي نظم عليها الشعراء ، وأنماط القوافي التي احتواها نتاجهم الشعري.

ويركز الفصل الخامس على دراسة ثلاثة من شعراء القرنين تبرز لديهم أهم الاتجاهات الشعرية لمعاصريهم من شعراء مكة والمدينة ، هؤلاء هم : محمد بن عبد القوي ، وأحمد العليف ، وعبد العزيز الزمزمي . وقد أفردت كل واحد منهم بحديث يتناول حياته ، وأغراض شعره ، وخصائصه الفنية .

أما الفصل السادس (وهو آخر فصول الدراسة) فيتناول الشعر في ميزان النقد ، وفيه عرض لآراء النقاد في ذلك العصر ، وآراء النقاد المحدثين ، ثم نقد وتقويم للشعر ونقده . وفي الخاتمة إيجاز لأبرز ما أسفرت عنه الدراسة من ملامح وأهم ما توصل إليه البحث من نتائج .

محمد بن سليمان القسومي
المحاضر في قسم الأدب / كلية اللغة

العربية

نهاية الملخص

التمهيد

بيئة مكة والمدينة في القرنين

- 1- الحياة السياسية .
- 2 - الحياة الاجتماعية.
- 3 - الحياة الفكرية والأدبية .

- 1 -

أضفى الحرمان الشريفان على مكة والمدينة مكانة سياسية مرموقة ؛ إذ حرص حكام مصر منذ الدولة الطولونية أن يخطب لهم على منابر مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وكانوا يعدون ذلك تشريفاً لهم . وقد رأى سلاطين المماليك - منذ اعتلائهم عرش مصر - أن سيادتهم على مكة تضفي على حكمهم نوعاً من الشرعية والهيبة لدى العالم الإسلامي ؛ فأولوا ذلك عنايتهم ، وبدأ نفوذهم السياسي يظهر جلياً في العقد السابع من القرن السابع الهجري ، منذ تدخل السلطان بيبرس لفض النزاع الذي كان قائماً بين الشريف أبي نمي وعمه الشريف إدريس (أميري مكة المكرمة سنة 667) (1) .

وساعد المماليك في تحقيق ما يرمون إليه من بسط النفوذ والسيطرة على الحرمين الشريفين ما كان يحدث في مكة المكرمة من انقسامات وصراع داخلي بين أشرافها وأمرائها من أجل اعتلاء العرش وتسلم زمام الأمور فيها (2) .

وعلى الرغم من أن المماليك قد أحكموا القبضة على بلاد الحجاز وتدخلوا في شؤونه من عزل وتولية ، فإن ذلك لم يؤد إلى تغيير جذري في نظام الوراثة في الحرمين ؛ إذ بقي الأشراف الحسنيون يحكمون مكة ، والأشراف الحسينيون يحكمون المدينة (3) . فالدولة المملوكية لم تلتزم بالتسلسل الوراثي في الحكم لأسر الأشراف ، بل عمدت إلى فرض من تراه أكثر خضوعاً لها ؛ تحقيقاً لمصالحها السياسية والاقتصادية (4) .

وقد لا يعنينا في هذا البحث الحديث عن تلك الصراعات الجارية بين الأشراف قبل القرن التاسع الهجري ؛ بل حسبنا الإشارة إلى أنها كانت سبباً لتوطيد نفوذ الدولة المملوكية في مكة والمدينة ؛ حيث أتاحت

(1) انظر: المماليك وعلاقاتهم الخارجية ، أحمد عدوان ، ص 143-152 .

(2) نظام المشاركة في الحكم ، أحمد الزيلعي (مجلة الدارة : س 14 ، العدد 3 ، 1409 هـ)

(3) الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ريتشارد مورتيل ، ص 95

(4) الحجاز في عهد الشريف حسن بن عجلان ، عائض الزهراني (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ، ص 44 .

لهم التدخل في تولية الأشراف وعزلهم واعتقالهم .

-2-

فقد كانت مكة في الربع الأخير من القرن الثامن الهجري ميداناً للاضطرابات ، وربما يعنينا منها ما كان بين أبناء الشريف عجلان بن رميثة ، وخاصة الصراعات التي كان حسن بن عجلان طرفاً فيها ؛ لأنه الأمير الذي استمرت ولايته إلى القرن التاسع الهجري – بداية الفترة المدروسة في هذا البحث – حيث تولى إمرتها بعد مقتل أميرها أخيه علي في شهر ذي القعدة سنة 797هـ . وكانت بينهما منافرة أدت إلى محاولته اقتحام مكة مرتين ، أولاهما سنة 792هـ ، والأخرى سنة 797هـ ، ولما أدرك صعوبة ذلك ؛ سافر إلى القاهرة يروم إمرة مكة ، لكن السلطان المملوكي الظاهر برقوق لم يستجب لرغبته ، بل واعتقله في شهر رمضان من سنة 797هـ ، غير أن علياً قتل ، وبلغ النبأ السلطان في التاسع من ذي القعدة من السنة نفسها ، فأطلق الشريف حسن وولاه إمرة مكة خلفاً لأخيه (1) .

ويمثل عهد الشريف حسن بن عجلان نقطة تحول مهمة في تاريخ إمارة مكة في عصر المماليك ؛ ففي الشطر الأول من عهده تمكن من السيطرة على طوائف الأشراف والقواد العُمرة التي كانت تثير الاضطرابات في الإمارة ، وأخضعها لحكمه ، كما قام بتوسيع نطاق نفوذه السياسي في الحجاز . وكان من أهم أسباب نجاح الشريف حسن بن عجلان في ذلك تأييد الدولة المملوكية له ، ومن مظاهر هذا التأييد تولية السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق الشريف حسن منصب نائب السلطنة في الأقطار الحجازية ؛ مما وثق الروابط القائمة بين إمارة مكة وسلطنة المماليك (2) .

وكان مستجاب الطلب من لدن السلطان المملوكي ؛ فقد سعى الشريف حسن ليكون ابنه الشريف بركات شريكاً له في إمرة مكة ، فتحقق له ذلك ، ووصل لابنه تقليد مؤرخ في شعبان سنة 809هـ (3) .

(1) انظر: العقد الثمين ، الفاسي 88-86/4 ؛ 215-206/6 ؛ وإنباء الغمر ، ابن حجر 501/1 .

(2) الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ريتشارد مورتيل ، ص2

(3) العقد الثمين ، الفاسي 103/4 .

وفي سنة 811هـ ، رغب الشريف حسن في أن يكون ابنه أحمد شريكاً لأخيه بركات في إمرة مكة ، فأجيب إلى ذلك ، فكانت لهما إمرة مكة ، وولي الشريف حسن نيابة السلطنة في الأقطار الحجازية في ربيع الأول سنة 811هـ ، وجرى توقيعهم بذلك في أوائل النصف الثاني من شهر ربيع الآخر من السنة نفسها ، وصار يدعى للشريف حسن في الخطبة بمكة وعلى قبة زمزم ، ويدعى له أيضاً في الخطبة بالمدينة المنورة (1) . وفي شهر صفر من سنة 818هـ قرر سلطان المماليك الملك المؤيد شيخ عزل الشريف حسن بن عجلان من نيابة السلطنة بالأقطار الحجازية ، وعزل ابنه بركات وأحمد من إمرة مكة ، وأصدر مرسوماً بتولية رميثة بن محمد بن عجلان هذين المنصبين . ويظهر أن الاضطرابات التي حدثت بمكة في موسم الحج سنة 817هـ كان لها أكبر الأثر في هذا التطور ، فضلاً عن عجز حسن بن عجلان عن حسم الخلاف القائم بينه وبين رميثة بن محمد منذ سنة 815هـ ، الذي أدى إلى عدم استقرار الأمور في الحجاز ، وتعرض مصالح الحجاج والتجار للخطر (2) .

وفي سنة 819هـ أعاد سلطان مصر الشركسي الشريف حسن بن عجلان إلى إمرة مكة ، واستمر إلى أول سنة 827هـ (3) ، ثم ولي مكة الشريف علي بن عنان ابن مغامس بن رميثة بن أبي نمي ؛ حيث ورد مكة من مصر ومعه عسكر جرار بعهد من السلطان برسباي ، فدخل مكة في جمادى الأولى من سنة 827هـ لابساً خلعة السلطان . وقد تولى نيابة

(1) شفاء الغرام ، الفاسي 208/2 . ونيابة السلطنة في الحجاز تختلف عن نيابة السلطنة في الأقاليم الأخرى ؛ فنائب السلطنة في الشام وفلسطين أحد موظفي السلطان ، وغالباً ما يكون من أمراء المماليك ، ولا تستمر النيابة في أسرته ، ويكون مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالنظام الإداري للسلطنة المملوكية في القاهرة ، ويعتمد هؤلاء النواب على جيوش منظمة يدينون بالولاء للسلطان المملوكي ، أما نائب السلطنة في الحجاز فيعين في أسرة الأشراف الحاكمة في إمرة مكة ، ويتمتع بنفوذ واسع غير مقيد بالنظام الإداري المفروض من سلاطين المماليك ، ويعتمد في بسط سيادته وفرض نفوذه على قواته من الأشراف والقواد ورجال القبائل .

- الحجاز في عهد الشريف حسن بن عجلان ، عائض الزهراني (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ، ص 228 .

(2) الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ريتشارد مورتيل ، ص 13 .

(3) تاريخ أمراء البلد الحرام ، عبد الفتاح راوه ، ص 186-188 .

السلطنة عن عمه الشريف حسن ، وإمرة مكة عن ابني عمه بركات وأحمد ، واستمر إلى أول ذي الحجة سنة 828هـ (1) ؛ حيث ورد التفويض من السلطان بَرَسْبَاي للشريف حسن وعزل علي بن عنان ، فدخل الشريف حسن مكة في الرابع من ذي الحجة من السنة نفسها (2) ، وبعد موسم سنة 828هـ ، توجه الشريف حسن إلى مصر للقاء السلطان بَرَسْبَاي ، فاجتمع به ، وأجلّه ، وقرّره في إمرة مكة في جمادى الأولى سنة 829هـ . وقد أصابت الشريف حسن علة ، فتجهز للرجوع إلى مكة ، لكن المنية أدركته ، فتوفي في جمادى الآخرة من السنة نفسها ، ودفن في القاهرة (3) .

وبعد وفاته أمر السلطان بَرَسْبَاي الشريفين بركات وإبراهيم ابني الشريف حسن ابن عجلان بالحضور إليه في القاهرة ، فاستجابا لذلك ووصلا في شهر رمضان سنة 829هـ ، فأكرمهما ، وخلع عليهما خلعتين ، وفوض أمر مكة للشريف بركات ، وألزم الشريف إبراهيم بموافقة أخيه ، وعاهد بينهما (4) .

تمتعت مكة المكرمة في عهد الشريف بركات بالطمأنينة والرخاء ، على أن عهده لم يخل من بعض الحركات التي قام بها أخواه إبراهيم وأبو القاسم طمعاً في الحكم ، مما حدا بالشريف بركات أن يستتجد بالسلطان بَرَسْبَاي لمّا اشتد الخلاف بينهم في سنة 831هـ ، فأرسل بَرَسْبَاي الأمير أَرْنُبْغا إلى مكة على رأس عسكر من مصر ، وحينما علم إبراهيم وأبو القاسم بهذا الخبر سارا إلى ينبع في نهاية سنة 831هـ ، ومنها توجهوا إلى عُسْفان (5) .

وفي سنة 832هـ اصطلح الشريف بركات مع أخيه إبراهيم (6) ، ثم اصطلح مع أخيه أبي القاسم في السنة التالية (7) ، وظل الوئام سائداً بين

(1) منائح الكرم ، السنجاري 431/2 ، 432 .

(2) خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، أحمد دحلان ، ص 41 .

(3) منائح الكرم ، السنجاري 436/2 ، 437 .

(4) إتحاف الوري ، عمر بن فهد 630/3 ، 632 .

(5) تاريخ أم القرى ومكانة المرأة العلمية فيها من خلال الدر الكمين لابن فهد ، المشيخ ، ص 25 . وعُسْفان: بلدة تبعد عن مكة ثمانين كيلاً من الجهة الشمالية على طريق المدينة .

- انظر: معالم مكة ، البلادي ، ص 188 ، 189 .

(6) إتحاف الوري ، عمر بن فهد 42/4 .

(7) المصدر نفسه 49/4 .

الشريف بركات وإخوته خلال المدة من سنة 833هـ إلى سنة 841هـ (1) . وفي هذه السنة (841هـ) قام أخوه الشريف علي بن حسن بن عجلان بقتل خمسة من كبار قبيلة حرب بجدة ؛ وفرّ خوفاً من أخيه بركات الذي لحقه حين علم بذلك ، لكنهما في نهاية الأمر اصطلحا بعد موسم الحج من السنة نفسها (2) .

وفي جمادى الأولى من سنة 845هـ عزل الملك الظاهر جَفَمَق الشريف بركات وولّى إمرة مكة أخاه علي بن حسن بن عجلان ؛ فدخلها في شعبان من غير قتال ، بعد أن نزح عنها الشريف بركات . وقد عاد في المحرم من سنة 846هـ ، ثم وقع بينه وبين أخيه علي وقعة هُزم فيها الشريف بركات وقُتل من أصحابه جمعٌ كثيرٌ (3) .

لم تطل مدة حكم الشريف علي بن حسن بن عجلان في مكة ، إذ انتهت في شوال من السنة نفسها (846هـ) ؛ فقد كثرت الشكوى منه ، واختلف مع قائد الجند الشراكسة (تَمْران) في مكة ، فاستصدر أمراً بالقبض عليه وعلى أخيه إبراهيم الذي كان يساعده في إمرة مكة ، فقبض عليهما وأرسلا إلى القاهرة والأغلال في أعناقهما (4) .

وهذه الحادثة وأمثالها ذات أثر في شحذ عواطف الشعراء ، وقد عبر بعضهم عن استياء المجتمع لمثل هذه الإهانة للشريرين (5) .

أعلن مرسوم بتولية أبي القاسم بن حسن بن عجلان بعد القبض على أخويه ، وكان حينذاك بمصر ، فتولى الأمر ابنه زاهر حتى وصل

(1) الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ريتشارد مورتيل ، ص 141 .

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1016/2 ؛ غاية المرام ، عبد العزيز بن فهد 489،490/2 .

(3) المنهل الصافي ، ابن تغري بردي 343/3 ، 344 ؛ بدائع الزهور ، ابن إياس 331/2 ؛ غاية المرام ، عبد العزيز بن فهد 494/2 ، 495 . وفيه : أن الشريف بركات ثبت هو وعبيده ، فغلبتهم الكثرة ؛ فتوجه هو وعسكره صوب اليمن ، وأن الشريف إبراهيم عقد هدنة بين أخويه بقية صفر وربيع الأول .

(4) المنهل الصافي ، ابن تغري بردي 344/3 ؛ تاريخ مكة ، أحمد السباعي 303/1 ، 304 .

(5) سيأتي في مبحث الشعر السياسي (في الفصل الثالث من هذه الدراسة) ذكر أبيات الشاعر محمد بن عبد القوي التي خاطب بها القائد (تمراز) مُعْتَفاً إياه على فعلته . وهناك شواهد على أثر الأحداث السياسية على شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .

الشريف أبو القاسم إلى مكة في ذي القعدة من سنة 846هـ لابساً الخلعة (1).

وقد شهد عهده كثيراً من الاضطرابات . ولعل أهم الأسباب المؤدية إلى ذلك خلفه مع ابنه زاهر ، وطموح أخيه بركات في استعادة ولايته (2).

وفي سنة 850هـ أدرك السلطان جَفَقَ عدم صلاحية الشريف أبي القاسم ، فأصدر قراراً بعزله وتولية أخيه بركات ؛ فدخل الشريف بركات مكة المكرمة في جمادى الأولى وتقلد إمرتها (3).

استمر الشريف بركات حتى سنة 859هـ ، حيث داهمه المرض ، وأحس بعدم قدرته على أداء مهام عمله ؛ فأرسل إلى السلطان بمصر يلتمس منه تولية ابنه محمد إمرة مكة بدلاً منه ، فحاز ذلك قبول السلطان وكتب إليه تأييده ، ولكن المرض لم يمهل الشريف بركات ؛ إذ توفي في شهر شعبان من السنة نفسها . وبعد موته بمدة وجيزة وصل التأييد (4).

ولما تولى الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان إمرة مكة إثر وفاة أبيه - في سنة 859هـ - قام بالقضاء على معارضيهِ داخل مكة ، ثم وجه حملاتٍ ضد قبائل عرب الحجاز ؛ ليخضعها لحكمه ، كما قاد حملات أخرى ضد ينبع في شمالي الحجاز ، وجازان في تهامة . ويعد تأييد سلطان المماليك (الملك الأشرف قايتباي) المطلق له من أهم أسباب نجاحه في تنفيذ سياسته (5).

ولعل من مظاهر هذا التأييد للشريف محمد بن بركات موافقة السلطان على أن يكون ابنه بركات شريكاً له في الحكم ابتداءً من سنة 878هـ (6) ، وقيام السلطان قايتباي بإصدار مرسوم - سنة 888هـ - يقضي بتولية الشريف محمد بن بركات حكم بلاد الحجاز جميعها (7).

-
- (1) خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، أحمد دحلان ، ص 42 .
 - (2) انظر: إتحاف الوري ، عمر بن فهد 207/4-216 ، 227-230 ، 243-247 .
 - (3) تاريخ أم القرى ومكانة المرأة العلمية فيها من خلال الدر الكمين لابن فهد ، المشيخ ، ص 27 ، وانظر: إتحاف الوري ، عمر بن فهد 252/4-258 .
 - (4) سمط النجوم العوالي ، العصامي 275/4 .
 - (5) الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ريتشارد مورتيل ، ص 3 ، وانظر: ص 151-161 .
 - (6) غاية المرام ، عبد العزيز بن فهد 520/2 .
 - (7) المصدر نفسه 542/2 .

وقد توفي الشريف محمد بن بركات في المحرم من سنة 903هـ (1) ، فخلفه ابنه بركات متقلداً أمر الأقطار الحجازية والحرمين ؛ حيث جاءه التفويض من السلطان محمد بن قايتباي ، ثم أشرك معه أخاه هزاعاً (2) . وكانت مدة إمارة الشريف محمد بن بركات للحجاز من أطول الفترات التي ساد فيها الأمن والطمأنينة ، لكن ذلك الاستقرار لم يدم طويلاً بعد وفاته ؛ ويرجع سبب ذلك إلى الفتن والخصومات والمعارك التي دارت بين حاكم الحجاز الشريف بركات بن محمد وإخوته على السلطة (3) ، فقد دب الخلاف بين الأخوين بركات وهزاع بعد سنة من وفاة والدهما ؛ إذ طمع هزاع في الاستقلال بإمارة مكة ، فرحل عنها إلى ينبع بصحبة أخيه أحمد الملقب بـ(جازان) ، ثم عاد هاجماً على أخيه بركات الذي خرج لملاقاته ، لكنه هزم ففر إلى جدة ، ودخل هزاع مكة منتصراً . وقد اضطربت أحوال الناس في مكة من الحجاج وغيرهم ، وعاث أهل الفساد فيها ، فضج الناس ، ومضى كبارؤهم إلى الشريف هزاع مشتدين في لومه ، حتى استجاب للأصوات المنادية بالصلح مع أخيه ، فعاد الشريف بركات إلى مكة في أواخر ذي الحجة سنة 904هـ (4) .

على أن الأحوال السياسية في إمارة مكة ، ما لبثت أن اضطربت في موسم الحج من سنة 906هـ ، بسبب التطورات السياسية التي حدثت بمصر في تلك السنة ؛ حيث عاد النزاع بين الأخوين بركات وهزاع ، وظلا في صراع على السلطة ، انتهى بتولي هزاع في جمادى الأولى من سنة 907هـ ، يعاونه في ذلك أخوه أحمد (جازان) ، لكن الشريف هزاعاً لم ينعم طويلاً بولايته ؛ إذ توفي في منتصف شهر رجب من سنة 907هـ ، فخلفه أخوه أحمد (جازان) في الإمارة (5) .

- (1) المصدر نفسه 596/2 .
- (2) منائح الكرم ، السنجاري 101/3 ، 102 ، وانظر: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ريتشارد مورتيل ، ص 161 ، 162 .
- (3) الحجاز ، محمد بكري (رسالة ماجستير لم تنتشر بعد) ، ص 28 ، 29 .
- (4) انظر: غاية المرام ، عبد العزيز بن فهد 83/3 ؛ سمط النجوم ، العصامي 282/4 ، 283 ؛ منائح الكرم ، السنجاري 105/3-109 ؛ خلاصة الكلام ، دحلان ، ص 46 ؛ تاريخ مكة ، السباعي 309/1 .
- (5) انظر: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ريتشارد مورتيل ، ص 162-164 .

وقد علم الشريف بركات ب وفاة أخيه هزاع وولاية أخيه أحمد ، فعاد إلى مكة ودخلها في بداية شعبان من السنة نفسها ، فوصله تقليد بولايتها من السلطان الغوري⁽¹⁾ .

واستمرت الفتن بينه وبين أخيه أحمد ، وتحارباً مراراً ، وكان ابتداء ذلك في أواخر ذي الحجة سنة 907هـ . ولم تنته إلا بقتل الشريف أحمد في يوم الجمعة العاشر من رجب سنة 909هـ ، بعد أن نهب عسكره مكة وفعلوا أفعالاً قبيحةً ، وانتهكوا حرمة البيت ، وجرت منهم على مكة وأهلها أمور شنيعة⁽²⁾ .

وبوفاته تولى الأمر أخوه حميضة ، ونودي به في البلاد دون أن يناوئه أحد ، لكنه لم يهنأ ؛ إذ فاجأه أخوه بركات – العائد من مصر – بجيش في الثامن من ذي الحجة سنة 909هـ (يوم التروية) . وقد شعر حميضة باستحالة ثباته أمام المهاجمين ، فغادر مكة فراراً من سيف أخيه ؛ وبذلك استولى بركات على مكة في الثاني عشر من ذي الحجة سنة 909هـ⁽³⁾ .

ثم فوض السلطان الغوري إلى الشريف بركات إمرة الحجاز ؛ فقدم أخاه قايتباي في ولاية مكة وأشرك معه ولده علي بن بركات ، ثم توفي علي فجعل الشريف بركات ابنه محمداً في مكان أخيه . وكان الدعاء في خطبة الجمعة للشريف بركات طوال ولاية أخيه قايتباي التي انتهت بوفاته في شهر ربيع الأول من سنة 918هـ⁽⁴⁾ .

(1) انظر: غاية المرام ، عبد العزيز بن فهد 117، 118/3 ؛ منائح الكرم ، السنجاري 114/3

(2) الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، محمد بن ظهيرة ، ص 322، 323 . وقد ذكر عبد العزيز بن فهد في غاية المرام 166/3: أن قتل الشريف أحمد كان في يوم الجمعة التاسع من رجب سنة 909هـ ، وكذلك في سمط النجوم العوالي 288/4 ، وفيه ذكر العصامي أن جماعة من الأتراك قتلوه في المطاف بمواطاة من أخيه حميضة ، وجاء ذلك أيضاً في إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 322/1 .

(3) انظر: تاريخ مكة ، السباعي 313-315 .

(4) سمط النجوم العوالي ، العصامي 289/4 . وقد ذكر المؤلف أن هناك صداقة عظيمة كانت تجمع بين الأخوين بركات وقايتباي دامت حتى توفي قايتباي سنة 918هـ . يؤكد هذا كلام ابن ظهيرة (في الجامع اللطيف ، ص 323) ؛ حيث ذكر أن الشريف قايتباي ولي الإمارة بإشارة من أخيه بركات ، وأنه استمر متولياً ، موافقاً لأخيه بركات ، مستضيئاً برأيه إلى أن توفي ، خلافاً لما جاء في (الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ريتشارد مورتيل ، ص 170 – نقلاً عن بلوغ القرى ، عبد

تولى بعده الشريف بركات ، وبعث ابنه محمداً (أبانمي) إلى مصر
تلبية لدعوة السلطان الغوري ، فلما وصل أكرمه السلطان وأعجب بذكائه
وأشركه مع والده الشريف بركات في الولاية ؛ فصار يخطب له مع أبيه
على منابر الحرمين (1) .

ولما انتصر السلطان سليم خان (سلطان الدولة العثمانية) على
السلطان الغوري ودخل مصر في غرة المحرم سنة 923هـ ؛ رأى أن
تمام ملكه أن يدعى له على منابر الحرمين الشريفين ، فشرع في تجهيز
جيش كثيف للحرمين ، لكنه عدل عن ذلك ؛ أخذاً بمشورة القاضي صلاح
الدين بن ظهيرة - قاضي مكة الذي كان معتقلاً بمصر آنذاك بأمر من
السلطان الغوري - حيث بيّن ابن ظهيرة منزلة الشريف بركات وحسن
سياسته ، ورأى أن الشريف بركات سيبادر إلى طاعة السلطان إن هو
أقرّه في منصبه ؛ فبعث السلطان سليم إلى الشريف بركات يخبره بما
حدث ويأمره بإرسال ابنه أبي نمي للتأكد من ولاءه (2) .

وقد استجاب الشريف بركات لطلب السلطان سليم ؛ إذ بعث ابنه أبا
نمي ، فوصل إلى القاهرة في منتصف جمادى الآخرة من السنة نفسها ،
وهنا بملك مصر (3) ، فأقرهما السلطان العثماني على حكم الحرمين
الشريفين (4) .

العزیز بن فہد ، ورقۃ 144/ب ، 145/أ-) حيث ذکر أن السلطان قانصوہ الغوری
أمر بعزل الشريف حمیضة من إمرة مكة وتولية أحد أخوة بركات أو قاینبای مکانہ ،
فاستقر الرأي - بعد اجتماع بعض زعماء القبائل بالأمیر (بك باي) قائد العسكر
المملوكي المرابط بمكة - على تولية الشريف قاینبای الإمرة . وقد جاء في المصدرين
السابقين أن وفاته في شهر صفر من سنة 918هـ ، والأرجح - كما جاء في مناج
الكرم 173/3 (هامش 3) - ما أثبتہ .

(1) انظر: غاية المرام ، عبد العزيز بن فهد 247/3-252 ؛ سمط النجوم العوالي ،
العصامي 289/4 .

(2) انظر: سمط النجوم العوالي ، العصامي 318/4 ؛ خلاصة الكلام ، دحلان ، ص 50 .

(3) بدائع الزهور ، ابن إياس 190/5 .

(4) الحجاز ، محمد بكري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ، ص 58 . وقد أشار المؤلف
إلى أن الشريف بركات يهدف من هذه التهنئة اعترافه بالتبعية للدولة العثمانية ؛ لكي
تقوم بوظيفتها في صد الهجوم الصليبي البرتغالي على الحجاز ، كما بين أن علاقة
أشراف الحجاز بالعثمانيين حسنة من قبل أن يستولوا على الحجاز (انظر: 76-78 من
هذا المرجع) . وفي الفصل الثالث من هذه الدراسة (في الحديث عن مدائح السلاطين)
كلام على علاقة العثمانيين بالحجاز ، وبيان أن سلاطينهم اتصلوا بأصحاب مكة بما

وعلى الرغم من أنه بدأ عصر جديد في تاريخ مكة والمدينة ، حيث أصبحتا ضمن الأقاليم التابعة للدولة العثمانية ، فإن الأمر ظل كما كان في عصر المماليك ؛ إذ بقي الأشراف الحسنيون في حكم مكة المكرمة ، وكان نفوذ الشريف الحاكم يمتد إلى المدينة المنورة ، وقد تتسع دائرة حكمه أو تضيق حسب قوته .

والسلاطين حريصون على بقاء الحاكم الأقوى من الأشراف ، القادر على إشاعة الأمن والاستقرار في الحجاز ؛ فحينما توفي السلطان سليم في سنة 926هـ ، تولى بعده السلطان خان ، فبادر بإرسال التأييد للشريف بركات وابنه أبي نمي ، واستمر الشريف بركات إلى أن توفي في ذي القعدة من سنة 931هـ ، ليتولى الأمر بعده شريكه بالأمس ابنه أبو نمي مؤيداً من السلطان سليمان خان⁽¹⁾ .

وحصر أبو نمي إمارة مكة في نسله ، فظلوا يتوارثونها أجيالاً متعاقبة⁽²⁾ ؛ ففي سنة 947هـ اشترك أحمد بن أبي نمي مع والده في الحكم بعد أن استصدر له أمراً من السلطان سليمان بن سليم خان⁽³⁾ ، ثم توفي الشريف أحمد بن أبي نمي في سنة 961هـ ، فالتمس الشريف أبو نمي من السلطنة أن يحل ابنه حسن محل أخيه ، فتم له ذلك⁽⁴⁾ . استمر الشريف أبو نمي في رعاية الحرمين الشريفين إلى سنة 974هـ ؛ حيث وهنه الكبر ، فتنازل عن الأمر كله لابنه الحسن ، وكتب بذلك إلى السلطان العثماني ؛ فأقره . وباشر الشريف حسن الإمارة ، فعالج أمور ولايته بحزم وقوة ، وكان لا يقل عن أبيه كفاءة ، غير أنه أكثر تسامحاً

=

يزيد على قرن كامل قبل فتح مصر .

- (1) انظر: منائح الكرم ، السنجاري 239/3-247 .
- (2) تاريخ مكة ، السباعي 346/2 . وقد تناول الأستاذ السباعي شخصية أبي نمي ذاكراً أنه امتاز بحزمه في إدارة الأمور وصرامته في الحكم ، وبذلك هابته الأعراب والأهالي ، واحترمه الحجاج والمجاورون ، وقدر منزلته أصحاب السلطة من العثمانيين . وفي مبحثي المديح والشعر السياسي (في الفصل الثالث من هذه الدراسة) نماذج من إشادة الشعراء بشخصية أبي نمي وابنه حسن - الذي يعد من أبرز أبناء الشريف أبي نمي - مصحوبة ببعض الأحداث السياسية التي حفزت الشعراء إلى القول

- (3) سمط النجوم العوالي ، العصامي 293/4 ، 294 ؛ منائح الكرم ، السنجاري 270، 271/3 ؛ إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن ، محمد بن علي الطبري 459، 460/1 .
- (4) خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، دحلان ، ص 55 .

وأوسع عدلاً⁽¹⁾ .

وقد توفي الشريف أبو نمي في بداية سنة 992هـ ، فظل ابنه حسن متولياً أمر الحرمين إلى أن خرج في عام 1010هـ مقاتلاً ، فوافته منيته⁽²⁾ .

والمتابع للحالة السياسية لإمارة الأشراف في مكة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين – الفترة المدروسة في هذا البحث – يلحظ أن ذلك الصراع المرير على السلطة الذي شهده عصر المماليك ، والتقاتل بين الإخوة ، قد بات مفقوداً في عهد العثمانيين ؛ ويبدو أن من أهم الأسباب المؤدية إلى ذلك ما كان يتمتع به الشريف أبو نمي من شخصية ذات فكر نافذ وقدرة على إدارة الأمور بحزم وعزيمة صادقة ، ورثها أبناؤه ، وبخاصة الشريف حسن⁽³⁾ .

يضاف إلى ذلك أن العثمانيين يرون أن من الخير لسياستهم ألا يتعرضوا لسياسة الولاة الداخلية ، وأن يقنعوا بأسمائهم تتلى على المنابر ، وتواقعهم بالموافقة على الأمير المنصوب⁽⁴⁾ .

-3-

وعلى نحو من تلك الحالة السياسة المضطربة التي عاشتها مكة ، أهّل القرن التاسع الهجري على مدينة المصطفى ع والصراع حول

(1) منائح الكرم ، السنجاري 3/363، 364 ؛ تاريخ مكة ، السباعي 2/348 ؛ تاريخ أمراء البلد الحرام عبر عصور الإسلام ، عبد الفتاح راوه ، ص 217، 218 .

(2) سمط النجوم العوالي ، العصامي 4/355 ؛ تاريخ مكة ، السباعي 2/355، 354 .

(3) يعد المؤرخون أبا نمي هذا من رؤوس أشراف بني بركات ، كما يعدونه زعيماً قل من يضاهيه شهرة من طبقات الأشراف الأخرى . وكان إلى جانب هذا مشهوراً بنظامه الذي شاع حينذاك ، الذي قالوا عنه: إنه يجعل دية الرجل من الأشراف تعادل أربعة أمثالها من غير الأشراف .

وقد ذكر الأستاذ أحمد السباعي أنه حاول أن يعثر على نسخة من هذا النظام ، لكنه لم يستطع ، غير أنه - كما ذكر - وجد نص اتفاقية أبرمها بعض الأشراف من أحفاد أبي نمي تشتمل على ما يحدد العلاقات بين أبناء أبي نمي ، وينظم أمر العقوبات في حالة اعتداء أحدهم على الآخر ، أو اعتداء أحدهم على ملتجئ من غيرهم إليهم ، أو تابع محسوب عليهم . وهي تفرض العقوبة في الغالب غرامات من الخيل والإبل والعبيد .

- انظر: تاريخ مكة 2/346 .

(4) المرجع نفسه 2/349، 348 .

السلطة بين أشرافها من بني مهنا الحسينيين (1) على أشده .
وقد تبين من خلال الحديث عن الحالة السياسية في مكة المكرمة
أن نفوذ أشراف مكة الحسينيين قد امتد إلى المدينة المنورة في أغلب سني
القرنين التاسع والعاشر الهجريين - الفترة المدروسة في هذا البحث -
حيث كان أمير مكة نائباً عن السلطنة في الحجاز ؛ لذلك وجدناه يتدخل
في تولية الأمراء وعزلهم ، حتى إن السلطنة قد تشترط حين تزمع اختيار
أمير للمدينة رضا نائبها في الحجاز ، كما حصل حينما أراد السلطان
المملوكي فرج بن برقوق تعيين عجلان بن نعيم أميراً للمدينة في سنة
811هـ ؛ حيث أرسل إليه توقيعاً بإمرتها - بعد وفاة أخيه ثابت - بشرط
رضا الشريف حسن بن عجلان (2) (أمير مكة ونائب السلطنة في الأقطار
الحجازية) .

وكان ثابت بن نعيم بن منصور بن جمار قد تولى إمارة المدينة
منذ سنة 789هـ بعد انتزاعها من جمار بن هبة . استمر ثابت حتى
سنة 805هـ ؛ حيث أعيد جمار بن هبة (3) ، لكن ثابتاً عاد للإمارة في ذلك
العام ، ثم اقتتل وجماراً في سنة 809هـ ، فكانت الغلبة لجمار ،
وأصبح أميراً على المدينة حتى عزل عنها سنة 811هـ (4) ، ليتولى أمر
المدينة عجلان بن نعيم - كما ذكر آنفاً - بدلاً من أخيه ثابت المتوفى (5) .
وقد اضطربت الأحوال في المدينة في عهد عجلان بن نعيم ؛ لأن
آل جمار بن هبة حاربوه ، حيث هجموا على المدينة وظفروا به وسلموه
لأمير الحاج الشامي ، ثم حمل إلى مكة ، لكن أميرها أمر بإطلاق سراحه

-
- (1) أسرة بني مهنا تنسب للحسين بن علي بن أبي طالب .
- انظر: المدينة المنورة في العصر المملوكي دراسة تاريخية ، عبد الرحمن
المديرس ، ص 21-26 .
- (2) التحفة اللطيفة ، السخاوي 176، 177/3 .
- (3) المنهل الصافي ، ابن تغري بردي 198/4 .
- (4) التحفة اللطيفة ، السخاوي 396/1 ؛ المدينة المنورة في العصر المملوكي دراسة
تاريخية ، المديرس ، ص 41 .
- (5) إنباء الغمر ، ابن حجر العسقلاني 403/2 . لقد "أعيد ثابت في ربيع الأول سنة
811هـ ، وجعل السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق النظر على ثابت هذا وعلى
أمير ينبع وجميع بلاد الحجاز للشريف حسن بن عجلان بن رميثة الحسني ، فلم يصل
الخبر بذلك حتى مات ثابت في صفر سنة 811هـ ، ففوض ابن عجلان (أمير مكة)
إمارة المدينة لعجلان بن نعيم بن منصور في آخر شهر ربيع الآخر" .
- المنهل الصافي ، ابن تغري بردي 198/4 .

(1)

وكانت ولاية عجلان بن نعيم قد انتهت في أواخر ذي القعدة من سنة 812هـ ، وولي المدينة بعده سليمان بن هبة بن جمار بن منصور ، ودامت ولايته إلى أن قبض عليه في المدينة النبوية بعد الحج من سنة 815هـ ؛ لسوء سيرته . وجاء عوضه في إمرة المدينة ابن أخيه غريّر بن هيزاع بن هبة ، الذي دامت ولايته إلى شهر ذي الحجة من سنة 819هـ⁽²⁾ ، حيث أعيد عجلان بن نعيم بعد عزل غريّر ، لكن غريراً أعيد في سنة 821هـ⁽³⁾ ، واستمر حتى عزل في ذي الحجة من سنة 824هـ⁽⁴⁾ .

وُلّي بعده عجلان بن نعيم أيضاً ، ثم عزل وعين بدلاً منه ثابت بن نعيم بن هبة ابن جمار سنة 829هـ ، ثم عزل ثابت في العام نفسه ، وعين خشرم بن دوغان ابن هبة بدعم من السلطان المملوكي الأشرف برّسباني . على أن مدته في الإمارة لم تطل ؛ إذ إن السلطان المملوكي ما لبث أن غضب عليه ، وأمر بالقبض عليه وتعيين مانع بن علي بن عطية⁽⁵⁾ . ظل مانع في إمارة المدينة حتى مقتله سنة 839هـ⁽⁶⁾ . ثم وقع في السنة نفسها صراع على الإمارة بين علي بن مانع ، والعجل بن عجلان بن نعيم ، لكنها لم تحصل لأي واحد منهما ؛ إذ استقر بعد مانع ابنه الآخر أميان⁽⁷⁾ .

وقد أدى هذا الصراع بين أشرف المدينة للاستحواذ على السلطة إلى إضعاف مركز المدينة السياسي والعسكري في مواجهة القوى المحلية وخاصة القبائل ، وفي مواجهة أشرف مكة ، كما أدى إلى تعزيز سلطة السلطنة المملوكية ؛ فتدخلت في شؤون أشرف المدينة بالعزل والتعيين⁽⁸⁾ .

(1) التحفة اللطيفة ، السخاوي 177/3 .

(2) العقد الثمين ، الفاسي 440/3 .

(3) التحفة اللطيفة ، السخاوي 177/3 .

(4) العقد الثمين ، الفاسي 440/3 .

(5) المدينة المنورة في العصر المملوكي دراسة تاريخية ، المديرس 42، 43 .

(6) الضوء اللامع ، السخاوي 236/6 .

(7) إنباء الغمر ، ابن حجر 33/4 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 145، 146/5 . وقد سماه

ابن تغري بردي (الدليل الشافي 571/2) : وميان ، كما ذكر السخاوي (الضوء اللامع

321/2 ؛ التحفة اللطيفة 338/1) : أن المقرئ في أكثر من موضوع سماه : وميان .

(8) المدينة المنورة في العصر المملوكي دراسة تاريخية ، المديرس ، ص 44 .

وقد لا يستسلم الأمير المعزول للأمر ، فيحاول استعادة سلطته بالسيف ، أو بإشاعة الفوضى في البلاد ، كما فعل أميان بن مانع حينما عزل في آخر سنة 842هـ ، وعين بدلاً منه سليمان بن غرير ، حيث حشد أميان كثيراً من الأعراب محاولاً دخول المدينة في سنة 844هـ ، لكن أميرها سليمان بن غرير خرج إليه وتمكن من صدّه ومنّ معه (1) ، واستمر ابن غرير في إمارة المدينة حتى وفاته في ربيع الآخر سنة 846هـ (2) ، وخلفه بقية السنة موسى بن كبيش بن جمار . وفي المحرم سنة 847هـ تولى الإمرة ضيغم بن خشرم بن نجاد ، ثم عزل في أواخر المحرم سنة 850هـ ، وأعيد أميان بن مانع إلى إمارة المدينة (3) ، فأقام نحو ثلاث سنين ، ثم توفي بها سنة 853هـ ، فولي بعده زبيري بن قيس بن ثابت (4) ، وظل إلى سنة 865هـ ، ثم عزل وعين بدلاً منه زهير بن سليمان بن هبة (5) . وبعد وفاته سنة 874هـ تولى الأمر ضيغم بن خشرم بن ثابت بن نعيم ، فاستمر إلى رمضان سنة 883هـ (6) ، حيث تم

(1) التحفة اللطيفة ، السخاوي 338،339/1 . وقد جاء فيه : "ويقال : إنه [أي: أميان] قصد نهبها" .

(2) الضوء اللامع ، السخاوي 268/3 .

(3) التحفة اللطيفة ، السخاوي 254/2 .

(4) المصدر نفسه 339/1 . وفي شذرات الذهب ، ابن العماد الحنبلي 416/9 : وفاته سنة 855هـ ، وقد ذكر السخاوي (في الضوء 232/3) : أن زبيري بن قيس بن ثابت تولى المدينة بعد ابن عمه أميان ابن مانع في رمضان سنة 854هـ ، كما ذكر (في التحفة اللطيفة 81/2) : أن زبيري بن قيس ولي المدينة بعد ابن عمه أميان بن مانع سنة 855هـ ، على أنه (في المصدر نفسه 96/1) قد ذكر أن زبيري بن قيس ولي سنة 854هـ .

(5) الضوء اللامع ، السخاوي 232/3 . وقد ذكر السخاوي (في التحفة اللطيفة 252/2 ، 253) : أن ضيغم بن خشرم بن نجاد بن ثابت ولي المدينة في شوال سنة 869هـ ، فأقام نحو أربعة أشهر ، ثم انفصل بزهير بن سليمان ، ورام اقتحام المدينة ، فجاء بعسكر كثير من الأشراف والعربان ، وتسوروا من سورها ليلاً ، وأشار إلى أنهم نهبوا بعض بيوتها وعاثوا فيها خراباً .

(6) التحفة اللطيفة ، السخاوي 253/2 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 2/4 . وقد ورد اسمه في التحفة اللطيفة (ضيغم) ، وكذلك في كتاب المديرس (المدينة المنورة في العصر المملوكي ، ص 45،46) . وضيغم : أخ له تولى إمرة المدينة - كما سبق - في المحرم سنة 847هـ ، ثم عزل في أواخر المحرم سنة 850هـ . وقد ذكر السخاوي (الضوء 2/4) : أنه قتل بعد عزله بمدة قليلة . وقد جاء ذكر (ضيغم) في غاية المرام لعبد العزيز بن فهد في أكثر من موضع . انظر - مثلاً - ج 2 ، ص 531 ؛ ج 3 ، ص 280 .

عزله وتعيين قسيطل بن زهير بن سليمان بن هبة بدعم من أمير مكة الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان⁽¹⁾. لكن أمير مكة أعاد زبير بن قيس بن ثابت بن نعيم للإمارة في أثناء زيارته للمدينة سنة 887هـ بعد مشورة أهلها⁽²⁾، على أنه لم يدم طويلاً؛ إذ توفي سنة 888هـ، فخلفه ابنه حسن⁽³⁾.

وقد دامت إمارة حسن قرابة ثلاث عشرة سنة، غير أن حكمه ساء أواخر القرن التاسع الهجري، حتى إنه سطا على المسجد النبوي وسرق حاصل الحرم من النقود وقناديل الذهب والفضة، وسبك تلك القناديل، وارتحل عنها سنة 901هـ، فأرسل الشريف مكة جيشاً لحفظ الأمن بصحبة فارس بن شامان بن زهير بن سليمان الذي عينه أمير مكة نائباً عنه في المدينة بعد أن صدر الأمر بعزل أميرها حسن. ثم عين الشريف مكة في العام نفسه مانع بن زبير بن قيس أميراً على المدينة⁽⁴⁾. وقد استطاع مانع أن يدير شؤون المدينة المنورة مدة طويلة؛ بسبب انشغال أشرف مكة حول إمارتها، وانصرافهم في أثناء ذلك عن التدخل في شؤون المدينة، أو في تعيين أمير لها.

استمر مانع بن زبير في إمارة المدينة، ثم خلفه أبناؤه قايثباي، ثم سليمان، ثم إيسان، حتى سنة 918هـ؛ حيث استتب الأمر في مكة المكرمة للشريف بركات ابن محمد بن بركات⁽⁵⁾.

وفي بداية سنة 919هـ أرسل السلطان قانصوّه الغوري إلى الشريف بركات مرسوماً استفتحه بالثناء عليه، ثم كلفه بالنظر في مسألة تعيين أمير جديد للمدينة بالاشتراك مع شيخ الحرم النبوي وقضاة المدينة

(1) التحفة اللطيفة، السخاوي 416، 417/3. وقد ورد فيه: قسيطل بن زهير بن زبير بن سليمان، والصحيح ما أثبتته.

(2) غاية المرام، عبد العزيز بن فهد 539، 540/2.

(3) الضوء اللامع، السخاوي 233/3.

(4) المدينة المنورة في العصر المملوكي، المديرس، ص 46. وانظر: التحفة اللطيفة، السخاوي 479/1. وقد ذكر عبدالباسط بدر (في التاريخ الشامل للمدينة المنورة 328/2): أن الشريف فارس بن شامان لم يطل المكث في المدينة؛ إذ استدعي إلى مكة بعد موت الشريف محمد بن بركات سنة 903هـ.

(5) التاريخ الشامل للمدينة المنورة، عبدالباسط بدر 328، 329/2. وقد سبق الحديث عن الصراع العنيف على الإمارة الذي تم بين أبناء الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، بعد وفاة والدهم في سنة 903هـ.

، لكن السلطان جعل رأي الشريف بركات هو المعول عليه (1) .
وفي رجب من السنة نفسها ، أرسل الشريف بركات وفداً إلى
المدينة برئاسة ابنه أبي نمي ، فاجتمعوا بشيخ الحرم والقضاة ، واتفق
رأيهم على ثابت بن ضغيم بن خشرم ، فولوه وعادوا إلى مكة (2) .
وفي سنة 923هـ ، دخلت المدينة – كبقية المدن الحجازية – تحت
السلطة العثمانية ، لكنها ظلت مجردة من استقلالها السياسي ، تابعة
لإمارة مكة ، وظلت حالة أمرائها على ما كانت عليه من الضعف ،
واستمر ترتيب أمير المدينة في خطبة المسجد النبوي في المرتبة الثالثة ؛
حيث يسبقه ذكر السلطان العثماني - بدلاً من المملوكي - ثم أمير مكة .
وقد بلغ الضعف في أمير المدينة إلى أن أمير مكة كان يرسل أحياناً
بعض أقاربه ؛ ليكونوا نوابه في المدينة ، ويكون لهم سلطة فعلية في
تصريف الأمور ، على الرغم من وجود الأمير الحسيني العاجز عن
فعل شيء . وفي ظل هذا الضعف للأمير الحسيني في المدينة ؛ أضحت
السلطة موزعة بين شيخ الحرم ، ورئيس الحامية العسكرية ، والقضاة (3)

ولا يكاد المتابع للحوادث إدراك التسلسل التاريخي لأمراء المدينة
في العهد العثماني ؛ وذلك لقلة شأنهم ، وبعدهم عن الأحداث المهمة التي
دونتها المصادر ، حتى إن من كتبوا عن تاريخ المدينة لم يستطيعوا
ذكر أسمائهم بصورة دقيقة وتحديد السنين التي ظل فيها كل واحد من
أولئك في الإمارة (4) ، فمثلاً الشريف ثابت بن ضغيم – السالف الذكر –
نعرف أنه تولى في سنة 919هـ ، لكننا لا نجد في المصادر المتوافرة من
تحدث عن نهاية إمارته ، حتى الذين عنوا بدراسة الحالة السياسية للمدينة
في ذلك العصر لم يبينوا عن شيء ذي بال ؛ فالمديرس يكتفي بالقول :
ويبدو أن المذكور استمر في منصبه حتى نهاية العصر المملوكي سنة
923هـ (5) ، وعارف عبدالغني يقول : وليس بين أيدينا معلومات عن مدة

(1) الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ريتشارد مورتيل ،
ص 171، 172 .

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 280، 281/3 .

(3) انظر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة ، عبدالباسط بدر 341-333/2 .

(4) انظر: المرجع نفسه 341/2 .

(5) المدينة المنورة في العصر المملوكي دراسة تاريخية ، ص 46 .

ولايته على المدينة⁽¹⁾ ، ثم ذكر أن حسن بن مانع بن زبيري بن قيس تولى بعد ثابت بن ضغيم ، وانتهت ولايته في سنة 933 هـ ، دون معرفة مدة البداية⁽²⁾ . وفي تأريخه لأمراء المدينة في القرن العاشر الهجري ذكر بعض الأمراء الحسينيين ، كضغيم بن زهير أمير المدينة المنورة في حوالي سنة 947 هـ ، المتوفى سنة 1000 هـ بعد أن تولى الإمارة ستاً وعشرين سنة ، وأخيه قسيطل بن زهير الذي تولى الأمر بعد وفاة أخيه ، وغيرهما⁽³⁾ .

وقد يمر بنا أسماء بعض أمراء المدينة الحسينيين - عرضاً - في بعض المصادر التي تدون حوادث السنين ، لكنها إشارات عابرة لا تغني كثيراً في معرفة الأمراء وولاياتهم . من ذلك ما جاء في تأريخ الجزيرة لسنة 969 هـ ، حيث قال : "وفيها عزل الشريف جماز عن إمرة المدينة المنورة ، ووليها الشريف مانع"⁽⁴⁾ .

واستمر ضعف الأمراء الحسينيين - الذي ظهر جلياً في القرن العاشر الهجري - وقلّ شأنهم . وقد ذكر العياشي ، حين حلّ بالمدينة في القرن الحادي عشر الهجري أنه : "لم يبق لبني حسين إلا رسوم قليلة من ولاية المدينة ، وصاروا إلا القليل منهم بادية يرحلون وينزلون بنواحي المدينة ... وكبيرهم الموسوم بولاية المدينة نازل بالمدينة وبعض أقاربه"⁽⁵⁾ .

وأشار إلى تداخل السلطات الذي انعكس بآثاره السلبية على الحالة السياسية والأمنية في المدينة - وهو ما كان سائداً في القرن العاشر - إذ يقول : "وعلى طول إقامتي بالمدينة لم أدر كيف تصرف الولاة فيها ، ولا من له التصرف التام بها ؛ فإن شيخ الحرم وهو كبير الخدام تنفذ أحكامه ، وكبير العسكر الساكنين بالقلعة أميراً أيضاً ، وابن عم السلطان ... النائب عنه في النظر في مصالح البلد كذلك ، والأمير الذي تنسب إليه إمرة المدينة من الشرفاء الحسينيين كذلك ، والحاكم الذي يسجن ويضرب

(1) تاريخ أمراء المدينة المنورة ، ص 320 .

(2) المرجع السابق ، ص 331 .

(3) المرجع نفسه ، ص 334، 335 . وقد نقل المؤلف معلوماته من مخطوط لمؤلف مجهول أشار إلى أن معلوماته فيما يتعلق بأمراء المدينة قد لا تكون دقيقة .

(4) الدرر الفرائد 1070/2 .

(5) مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد) ، حمد الجاسر ، ص 181 .

ويقتل ويؤدب ، وهو من خدام السلطان أيضاً..."(1) .
هكذا كانت أحوال المدينة المنورة في القرنين التاسع والعاشر
الهجريين ؛ ألوان من الاضطراب السياسي والفوضى الداخلية في القرن
التاسع ، حيث الصراع المرير على إمارتها بين الأشراف الحسينيين ،
واستمرار سياسة العزل أو الإطاحة بالأمير من قبل منافسيه ، كما عاشت
في القرن العاشر تدهوراً سياسياً واضطراباً في الأمن ، وخاصة في
العهد العثماني الذي شهد تداخلاً في السلطات ، أدى إلى ضياع الأمن في
دوامة المسؤوليات المتعددة .

(1) المصدر السابق ، ص 181 .

2- الحياة الاجتماعية:

-1-

كان المجتمع المكي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين يتكون من طبقات مختلفة ؛ فهناك الطبقة الحاكمة من الأشراف ، أحفاد قتادة بن إدريس الحسني⁽¹⁾ ، وهناك القواد ، وهم من أتباع أمراء مكة ، مثل : القواد العُمرة والْحُمِيضَات وغيرهم⁽²⁾ . وكانوا قوة يحسب حسابها ، تستطيع ترجيح كفة أحد الأطراف المتنازعة عندما يختصم أخوان من سلالة قتادة على الإمارة⁽³⁾ ، تأتي بعد ذلك بقية فئات المجتمع من العلماء والقضاة وطلاب العلم وأهل الحرف .

وهؤلاء من أجناس مختلفة وأمم متباينة ؛ إذ لم يبق من القرشيين الأصليين في مكة إلا القليل⁽⁴⁾ ؛ لذلك نجد المكي الصميم ، وأعراب البوادي الذين توطنوا مكة⁽⁵⁾ ، كما نجد الوافدين الذين قدموا من بقاع العالم الإسلامي ، واستقروا بمكة ، واندمجوا في مجتمعها حتى صاروا جزءاً من هيكلها الاجتماعي . ويشكل هؤلاء حوالي ثلثي أو ثلاثة أرباع سكان مكة⁽⁶⁾ .

وقد أدى هذا التنوع في أصول أفراد المجتمع المكي إلى امتزاج هذه الأجناس بعضها ببعض بالزواج والمصاهرة والمعاشرة ، كما أحدث تنوعاً في الملبس ؛ فالعمامة الهندية إلى جانب القفطان المصري ، والجبّة الشامية ، والمنطقة التركية ؛ فتراك تعيش في وسط يكتظ بمجموعات

-
- (1) انظر: سمط النجوم العوالي ، العصامي 207/4 ، 208 .
 - (2) القواد العمرة ينسبون إلى عمر بن أبي مسعود مولى الشريف أبي سعيد بن علي بن قتادة (أمير مكة المكرمة) ، أما القواد الحميضات فينسبون - ولاءً - إلى حميضة بن أبي نمي الأول . ومن القواد أيضاً أفراد ولاؤهم لأفراد ، وليسوا بجماعات ، مثل : شُكْر وزير الشريف حسن بن عجلان ، وبُدَيْد بن شكر وزير الشريف بركات ، وغيرهما . وهناك أشراف ينسبون إلى فروع أخرى للأسرة غير فرع الشريف قتادة . - الحجاز ، محمد بكري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ، ص 182 .
 - (3) العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، علي السليمان ، ص 208 . وانظر - مثلاً - : إتحاف الوري ، عمر بن فهد 405/3 ، 410 ؛ غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 428-438 ؛ الدرر الفرائد ، الجزيري 700/1 ، 701 .
 - (4) الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة ، طرفة العبيكان ، ص 242 .
 - (5) مرآة الحرمين ، إبراهيم باشا 201/1 .
 - (6) العلاقات الحجازية المصرية ، علي السليمان ، ص 209 .

متباينة من الأمم المختلفة ، لها رباط ديني واحد هو الإسلام⁽¹⁾ .
أما لباس أمرائها الحسنيين ، فهو "وإن كان في غاية الرفع
واللطافة ، فإنه على زيّ ... العرب في تعميمهم وتقمصهم ؛ يلبسون
العمائم القصار ، ذوات الأهداب الطويلة ، ويرسلون لها العذبة إلى قريب
من ذراع ، ويلبسون الدشوت الرفيعة ، إلا أنها على هيئة دشوت
الأعراب ، ولا يلبسون الجوخ التي تلبسها العجم ، ولا الأقبية التي هي
على زيهم ، ويلبسون النعال ذات السيور التي على ظهر القدم ، دون
السر موجه التي تلبسها الأعاجام"⁽²⁾ .

وقد عرف المكيون باهتمامهم بحفلات الزواج ، وهم معتادون على
عمل عقد النكاح في المسجد الحرام⁽³⁾ .

وكان أهل مكة المكرمة يحتفلون ببعض الإصلاحات في المسجد
الحرام ، ويحتفلون بأبنائهم عند إتمام حفظ القرآن الكريم ، وقيمون
الاحتفالات عند تولي سلطان جديد ، أو عند تولي حاكم جديد بمكة
المكرمة⁽⁴⁾ .

وحياة مكة اليومية حياة مملوءة بأسباب البهجة والسرور ، إلا أن
غمامات من حزن وخوف ، تعكر - أحياناً - صفو المدينة المقدسة أزمنة
القحط والسيول والأوبئة . وانتشار الأوبئة - غالباً - بسبب قلة الماء
والمخلفات التي تملأ الشوارع بمكة في مواسم الحج⁽⁵⁾ .

ففي سنة 827هـ وقع بمكة وباء عظيم عام ، دام أشهراً ، ذكر ابن
فهد أنه مات بسببه خلق كثير ، حتى إن من يعرف اسمه ومكانه يزيّدون
على ألفين أو يقاربون ذلك⁽⁶⁾ ، كما أن سيل سنة 837هـ بمكة قد أحدث
وباءً استمر شهراً ، راح ضحيته المئات⁽⁷⁾ . وذكر ابن إياس في حوادث
سنة 881هـ "أن الموت كثير بمكة بعلّة البطن ، وكان قبل دخول الحجاج

(1) المرجع السابق ، ص210 .

(2) مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد) ، حمد الجاسر ، ص201 .

(3) انظر: غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 2/593،592،581،572،570؛ 281/3 .

(4) الحجاز ، محمد بكري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ، ص185 . وكان الشعراء

يستقبلون الحاكم الجديد بقصائد ، سيرد شيء منها في (شعر المديح) في الفصل الثالث
من هذه الدراسة .

(5) العلاقة الحجازية المصرية ، علي السليمان ، ص214 .

(6) إتحاف الوري 3/607 .

(7) العلاقات الحجازية المصرية ، علي السليمان ، ص215 .

يموت بها نحو من أربعين إنساناً في كل يوم" (1).
ولا شك أن انتشار الأوبئة أياً كان نوعها ، ووقوع القحط ، من أهم الأسباب المؤدية إلى غلاء الأسعار الذي كان متفشياً في مكة في عدد من سني القرنين التاسع والعاشر الهجريين .

وقد بالغ المؤرخون في ذكر ما جرى في مكة في بعض السنين من شدة القحط والجوع والفقر ، حتى إنه في سنة 969هـ "وجد شخص قد سلخ هرة ليأكلها" (2) . وذكر الشلي في حوادث سنة 979هـ أنه "وقع القحط والغلاء في أرض الحجاز ، وانقطعت المأكولات في الأسواق ، وهلك الدواب ، وأطلق شخص حماره للعجز عن إطعامه ، فذبحه جماعة من البادية وأكلوه ، وكثر الموت في الفقراء ، حتى عجزوا عن أكفانهم" (3) .

ومثل هذه السنين العجاف أشد ما تكون على الفقراء ، أما ميسورو الحال من أفراد المجتمع المكي آنذاك ، فإنهم أكثر تعايشاً مع الأزمات الاقتصادية التي قاست منها المدينة المقدسة .

بل إن من طبقات المجتمع من يعيشون الترف ، حتى إن أحد أعيان مكة - كما ذكر أحد المؤرخين - أقام حفلة بمناسبة زواج ابنته ، بلغ جملة ما صرف في الطيب من مسك وعنبر وزعفران وعود ألف دينار ذهباً ، وما صرف من السكر للشرب عشرة قناطير ، وللحلى ثلاثون قنطاراً ، وضعفها عسلاً . وقد مدت مائدة ، على كل سماط منها أربعون خروفاً مشوياً ، ومئة للطعام ، وخمسمئة صحن حلوى ، وألف وخمسمئة صحن للطعام ، واستمر ذلك سبعة أيام (4) .

وقد ساد التكاتف بين فئات المجتمع المكي - آنذاك - تحقيقاً لقول الرسول ع: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (5) ؛

(1) بدائع الزهور 124/3 .

(2) الدرر الفرائد ، الجزيري 1036/2 .

(3) السنا الباهر ، ورقة 358/أ ، 358/ب . وانظر: إتحاف الوري ، عمر بن فهد 432/3 ؛ 219/4 ؛ الدرر الفرائد ، الجزيري 695/1 ، 700 ، 703 ، 765-767 ؛ الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، النهروالي ، ص 223 ؛ منائح الكرم ، السنجاري 460/3 .

(4) السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 389/ب ، 390/أ .

(5) صحيح مسلم 2000/4 ، 1999 . وما ذكره بعض المؤرخين من قصص في حالات القحط والجوع فيها مبالغات ، وإن صحت ؛ فهي حالات نادرة حصلت في البادية .

حيث نجد من الموسرين من يواسي الفقراء ، ويبذل ما في وسعه لمساعدتهم على تجاوز الأحوال المعيشية العسيرة في سني الجذب . وقد ذكر الشلي أن قاضي مكة حسين المالكي - بعد قحط سنة 979هـ واشتداد الأمر على الفقراء - "جمع التجار وأمرهم بمواساة الفقراء ، فاحتمل كل تاجر منهم بحسب حاله"(1) .

وكانوا لا ينسون الفقراء من أوقافهم ، من ذلك ما أشار إليه جار الله بن فهد في معرض حديثه عن إحدى القرى المجاورة لمكة ، حيث ذكر أن فيها نخيلاً ومزارع وعيناً جارية ، ثم قال : "وكان لأجداد والدي من جهة أمه بني العجمي أملاك بها ، وأوقاف على فقرائها"(2) . وحول مكة أودية تشتمل على قرى كثيرة ، فيها نخيل وأشجار وعيون جارية . وكانت بساطينها وبركها العامرة مهوى أفئدة المتنزهين وطالبي الراحة والاستجمام من أهل مكة (3) .

وقد كشف عدد من شعراء مكة عن جانب من جوانب المجتمع المكي آنذاك ؛ إذ وصفوا تلك البساتين والبرك ، متحدثين عن خضرتها اليانعة ، ومياها العذبة الجارية التي يؤمها الناس في الصيف ، وأشار الشعراء إلى ما اعتاده المكيون من التمتع بتلك الأودية الخصيبة في أيام الربيع(4) .

وما يزرع فيها من حبوب وخضر وفواكه ونحوها يومئ إلى شيء من معيشة أهل مكة . يقول جار الله بن فهد بعد أن ذكر بعض أودية مكة وقراها : "وفي جميعها يزرع جميع الحبوب على أنواعه ، كالحنطة والشعير والدخن والذرة ... وفي أودية مكة يزرع جميع أنواع الخضرة ؛ لأدم سكانها ... ، وهي : الموز ؛ أعني الطلح المنضود — كما

-
- (1) السنا الباهر ، ورقة 358/ ب .
(2) حسن القرى في ذكر أودية أم القرى ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب: س 18 ، ج 4، 3 ، رمضان وشوال 1403هـ) .

- (3) انظر: حسن القرى (مجلة العرب: س 18 ، ج 1، 2 ، رجب وشعبان 1403هـ ؛ ج 3، 4 ، رمضان وشوال 1403هـ ؛ ج 5، 6 ، ذوا القعدة والحجة 1403هـ) . وقد ذكر ابن فهد أن بعض أمراء مكة الحسينيين ، وبعض سراة المجتمع يملكون بساطين هنالك .

- (4) في شعر الوصف (في الفصل الثالث من هذه الدراسة) نماذج من تصوير الشعراء لمشاهد الطبيعة في تلك النواحي ، كما تناولوا ذلك في إخوانياتهم التي سيأتي الحديث عنها في الفصل الثالث أيضاً .

وصفه الله - والبطيخ الأخضر المسمى الحبيب ، والبطيخ الأصفر المسمى بالخربز ، والقثاء ، والخيار ، والرطب على النخيل بجميع أنواعه ، والباذنجان ، واليقطين المسمى بالدُّبَّا ، والبامية ، والجزر ، واللفت ، والفجل ، والملوخية ، والكراث ، والثوم ، والكزبرة ، والليم ، والليمون ، ومن المشموم الرياحان والفاغية والكادي ... إلى غير هذا مما تفضل الله به على جيرانه" (1) .

وقد ذكر الجزيري أن أسواق مكة تزخر بألوان من الحبوب والفاكهة الآتية من بعض القرى التي يجلب فيها الحب والفاكهة لأهل مكة ، فيتمتعون بها ، ويبتهجون بأكلها - كما ذكر - وهي : الرمان ، والعنب ، والتوت ، والتين المسمى بالحماط ، والخوخ المسمى بالفرسك ، والتفاح ، والمشمش ، والموز ، واللوز ، والزبيب ، والحب اللقيمية ، والشعير ، والأرز ، والفل ، والحمص ، والعدس . كما أشار الجزيري إلى ما يتوافر في أسواق مكة من الخبز واللحم والسمن والعسل وغيرها (2) .

-2-

والمجتمع في المدينة المنورة ذو تركيبة سكانية متنوعة أيضاً ؛ حيث يتكون من الطبقة الحاكمة من الأشراف الحسينيين ، أحفاد شيعة بن هاشم بن قاسم بن مهنا (3) ، ثم تأتي فئات المجتمع الأخرى ، كالأغوات (الطواشية) الذين يشكلون مجتمعاً له عاداته وتقاليده الخاصة ، كما أن لكبيرهم (شيخ الحرم) ، كلمة نافذة في المدينة ؛ تنفذ أحكامه ، وتمضي تصرفاته في القوي والضعيف (4) ، وهناك القضاة ، والعلماء ، وطلبة العلم ، وأرباب الوظائف المعينين من قبل السلطة المركزية ، وأصحاب الحرف والمهن المختلفة .

وهؤلاء من المجاورين وغيرهم ، على أن المجاورين من أكبر شرائح مجتمع المدينة ، وأغلبهم من مصر ، والشام ، والعراق ،

(1) حسن القرى ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب: س 18 ، ج 2 ، 1 ، رجب وشعبان 1403هـ) .

(2) انظر: الدرر الفرائد 1/766، 703، 695 ؛ 2/1008، 1065 ، 1100 ، 1124 ، 1154

(3) انظر: التحفة اللطيفة ، السخاوي 2/225-227 .

(4) مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد) ، حمد الجاسر ، ص 173 ، 177 ، 180 .

والمغرب ، واليمن ، والهند ، وفارس ، وبلاد ما وراء النهر⁽¹⁾ . أما ذرية الأنصار من الأوس والخزرج فكانوا قلة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين⁽²⁾ .

وأهل المدينة أطف أمزجة ، وأرق طبعاً من أهل مكة . وقد بلغ من كرم أخلاقهم أنهم يستقبلون الزوار قبل دخولهم المدينة مستبشرين بمقدمهم ، مرحبين بحلولهم ، يفعلون ذلك على الرغم من أنهم لم يعرفوهم ، أو يلتقوا بهم من قبل⁽³⁾ .

ولموقع المدينة الجميل - الذي تحيط به البساتين والينابيع ووديان السيول الخصبة - أثر في أخلاق أهلها ، كما أن مجاورة الحبيب ع قد أكسبت أهل المدينة كثيراً من الأخلاق الحسنة ؛ فمالوا إلى السهولة والسماحة واليسر في أمزجتهم ومعاملاتهم ، وإلى الفرح والسرور وحسن المعاشرة⁽⁴⁾ .

وسكان المدينة - كأهل الحجاز على مر العصور - يلبسون ثياباً بيضاء تصنع في الغالب من الكتان أو القطن في الصيف ، ومنهم من يستعمل الحرير في لباسه ، أما في فصل الشتاء فإن المدنيين يلبسون الثياب الصوفية ، ومن بين أنواع الملابس : العمامة ، والبردة ، وجبة بيضاء من القطن تدعى قفطان . أما نساؤهم فكان يحبن التطيب ، واستعمال الذهب ، كالخلاخل والخواتم وغيرها⁽⁵⁾ .

وأهل المدينة - كما ذكر العياشي - أهل رفاهية وتوسع في المعيشة ، وتغال في الملابس الفاخرة ؛ فصار كبارؤهم أرفه الناس عيشاً ، وأكثرهم في المآكل والملابس إسرافاً ، أما الفقراء وغالب المجاورين فهم على حالهم من الفقر والمسكنة⁽⁶⁾ .

وقد ذكر العياشي أنه سأل شيخه الثعالبي عن سبب إثارة سكنى

- (1) انظر: المدينة المنورة في العصر المملوكي ، المديرس ، ص134، 135 .
- (2) العلاقات الحجازية المصرية ، السليمان ، ص218 ؛ المدينة المنورة في العصر المملوكي ، المديرس ، ص132، 133 .
- (3) انظر: ملء العيبة ، ابن رشيد 16/5 ؛ مرآة الحرمين ، إبراهيم باشا 439، 440/1 .
- (4) الرحلة الحجازية ، البتوني ص259 ؛ مظاهر الحياة الاجتماعية في مكة والمدينة إبان القرن الثامن الهجري من خلال كتب الرحالة ، أحمد هاشم بدرشيني (مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة : العدد 8 ، محرم - ربيع الأول 1425هـ) .
- (5) المدينة المنورة في العصر المملوكي ، المديرس ، ص154، 155 .
- (6) مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد) ، حمد الجاسر ، ص149 . وانظر: المدينة المنورة في العصر المملوكي ، المديرس ، ص154 .

مكة على المدينة ، فقال : "إن أهل هذه المدينة قد تحضروا وغلب عليهم طبع الأعاجم ، ورفاهيتهم ، وإسرافهم ، وتشبهوا بهم في ملبسهم في غالب أحوالهم ، وأنا امرؤ مسكين ، فقير ؛ أخاف أن ينشأ أولادي وأزواجي ، ويتطبعوا بطبعهم في ذلك ، بخلاف أهل مكة ؛ فإنهم لم يزلوا على أعرابيتهم واستعمال البداوة ، وعدم المبالاة والاعتناء بالملبس والمأكـل"(1) .

وأهل المدينة - حينذاك - يتناولون أنواعاً عديدة من الأطعمة ؛ فقد كانوا يصنعون الخبز من القمح ، كما أن لديهم طعاماً يصنع من الدقيق يسمى الرشدة(2) ، وغالب ما يطبخون الأرز ، والهريسة باللحم ؛ وهي عند أهل الحجاز - كما ذكر العياشي - من أشهى الأطعمة(3) . ومن أطعمتهم الإدام ، والباذنجان ، واللحم(4) . و"لأهل المدينة ولوعٌ وغرامٌ بأكل اللحم ، زاعمين أنهم يستضرون بتركه ؛ لحرارة أبدانهم وبيسها ، فيحصل لهم الترطيب به ، فإذا أكلوا غيره حصل لهم بيسٌ في الطبيعة ، حتى إن من نسائهم من لا يطبخ غداءً ولا عشاءً إلا أن يكون لحماً"(5) .

أما التمر ، فهو مادة أساس في طعام أهل المدينة ؛ لانتشار النخيل فيها . وهو إما رطب يؤكل في وقته ، أو تمر يتم تخزينه ؛ ليؤكل طوال العام . وهو طعام الأغنياء والفقراء على السواء"(6) .

والخضر والفواكه متوافرة في أسواق المدينة ، كالجزر ، والباقلاء ، والملوخية ، والبامية ، والبصل ، واللفت ، والعنب والرمان وغيرها(7) .

ولأهل المدينة عادات وتقاليد تتكرر في أيام محددة من السنة ، توزع فيها الرياحين والأزهار ، ثم يؤتى بأطباق من اللوز ، والسكر ، وأنواع الحلوى ؛ فتفرق ، وينثر ما بقي منها على عامة الناس . وكان

- (1) المدينة المنورة في رحلة العياشي ، محمد أمحزون ، ص227، 228 . وانظر: المدينة المنورة عاداتها وتقاليدها ، عبدالله فرج ، ص17-25 .
- (2) المدينة المنورة في العصر المملوكي ، المديرس ، ص152 .
- (3) المدينة المنورة في رحلة العياشي ، محمد أمحزون ، ص176 .
- (4) المدينة المنورة في العصر المملوكي ، المديرس ، ص151 .
- (5) المدينة المنورة في رحلة العياشي ، محمد أمحزون ، ص226 .
- (6) المدينة المنورة في العصر المملوكي ، المديرس ، ص153 .
- (7) المدينة المنورة في رحلة العياشي ، محمد أمحزون ، ص224 .

وجهاء المجتمع يفعلون ذلك في حفلات الزواج وبعض المناسبات الاجتماعية الأخرى .

وكما كان المكيون يعقدون أنكحتهم في المسجد الحرام - كما سبق - اعتاد أهل المدينة على أن يكون ذلك في المسجد النبوي ، ولكنهم يختلفون في التقاليد المصاحبة لذلك (1) .

(1) انظر: المرجع السابق ، ص 197-217 .

3 - الحياة الفكرية والأدبية: (1)

لقد نشطت الحياة الفكرية والأدبية في مكة المكرمة والمدينة المنورة إبان القرنين التاسع والعاشر الهجريين . وازدهار الحركة العلمية نتيجة طبيعية لكثرة العلماء في الحرمين وتنوع ثقافتهم ونشاطهم الذي كان واضحاً من خلال الحلقات العلمية في الحرمين وفي الأربطة والمدارس التي لقيت دعماً من السلاطين والأمراء ، وكذلك من خلال المؤلفات العديدة التي نشط أولئك العلماء في تأليفها ، أو تقريبها لطلاب العلم .

وأغلب تلك المؤلفات في العلوم الشرعية واللغوية ، على أن من العلماء من كان شاعراً ، أو له اهتمام بالناحية الأدبية ؛ لذلك وجد الأدب نصيباً من ذلك النشاط .

وثمة عوامل عديدة تضافرت للنهوض بالحياة الفكرية والأدبية ، من أهمها وجود الحرمين اللذين يعدان من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي ؛ ذلك أن عدداً من علماء الإسلام النابهين يؤمون المدينتين المقدستين للحج والعمرة والزيارة ، منهم من يعود إلى بلاده بعد أن يلتقي العلماء وطلبة العلم من أقطار العالم الإسلامي ، ومنهم من يمكث سنين معدودة ، على أن هناك من يطيب له المقام بقية حياته .

ولهؤلاء المجاورين أثر كبير في ازدهار الفكر والأدب في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ حيث أسهموا في التدريس والتأليف وتداول الكتب وتدارسها مع علماء الحرمين وطلبة العلم فيهما .

وكانت حلقات العلم في المسجد الحرام والمسجد النبوي عامرةً بالعلماء وطلبة العلم من المجاورين ومن أهل مكة والمدينة .

على أن الأمر لم يكن مقصوراً على حلقات العلم في المسجدين الشريفين ، بل كثرت الحلقات العلمية والدروس في فنون عديدة في المدارس والأربطة التي كان لها أثر واضح في إثراء الحركة العلمية ؛ حيث "أتاحت الفرصة للعلماء في التأليف وإلقاء الدروس في جوٍّ مفعم

(1) في الفصل التالي ذكر للمؤلفات العلمية والأدبية ، وتناول للمدارس والأربطة والمكتبات في المدينتين المقدستين في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وبعض العوامل الأخرى المؤثرة في الشعر ، كمجاورة الحرمين وتشجيع الأمراء والحكام وغيرهما مما يعد جانباً من جوانب الحياة الفكرية والأدبية . أما هذه ففقرة تمهيدية روعي فيها الاختصار .

بالراحة والهدوء ، وأتاحت الفرصة للراغبين في التعلم بحضور الدروس الملقاة في الأربطة ، والتتلمذ على الشيوخ ، والدراسة في المدرسة المقامة في الرباط ، أو المدارس المقامة بجوار الأربطة التي يسكنها طلاب العلم" (1) .

وقد زخرت تلك المدارس والأربطة بالكتب في مختلف الفنون "واشتهرت بعض الأربطة بنشاطها التعليمي ، ووجود العديد من الكتب المهمة فيها . وقد كثرت هذه الكتب في بعض الأربطة ، حتى أصبحت تضم مكتبات ضخمة فيها جميع فنون العلم" (2) .

وحب السلاطين والأمراء للعلم والعلماء ذو أثر واضح في إنعاش الحياة الفكرية والأدبية في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ فقد أنشأ السلاطين المدارس المتعددة فيها ؛ لكي تكون ملتقى لطلبة العلم من أهل مكة والمدينة وأطراف الحجاز ، ومن يفد إليهما من العلماء والتلامذة من خارجه ، كما أجزلوا العطاء لأهل الحرمين والمدرسين والقضاة (3) .

ومن مظاهر رعايتهم لأهل العلم في الحرمين حرصهم على إرسال الصدقات من القمح والذهب والدراهم ؛ لتوزيعها على العلماء والفقهاء وعلى الأربطة والمجاورين وغيرهم (4) .

فقد كان السلطان بايزيد - مثلاً - "يجهز إلى أهل الحرمين الشريفين في كل عام أربعة عشر ألف دينار ذهباً ، يصرف نصفها على فقهاء مكة والآخر للمدينة" (5) . وكان يجزل العطاء للشعراء (6) ، ومثل ذلك كان السلطان سليم بن سليمان وابنه السلطان مراد ، وغيرهم (7) .

ومن عوامل نهضة العلم والاهتمام بالأدب في القرنين التاسع والعاشر الهجريين في مكة والمدينة اهتمام الأمراء الأشراف في ذلك ؛

-
- (1) الرباط في مكة المكرمة ، حسين شافعي (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ، ص 316 .
 - (2) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، خالد الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 1/3 .
 - (3) المرجع نفسه 117/1 .
 - (4) انظر: العقد الثمين ، الفاسي 3/388 ، 389 ؛ إتحاف الوري ، عمر بن فهد 3/521،529،634 .
 - (5) سمط النجوم العوالي ، العصامي 4/68 .
 - (6) المصدر نفسه 4/68،69 .
 - (7) انظر: نزهة الخواطر ، عبد الحي الحسني 4/288،289 .

فقد كان كثير منهم من محبيه والمشاركين فيه ، وكان لبذلهم في سبيله كبير الأثر في دفع عجلة الفكر والأدب .

ومجالس بعض الأمراء ندوة لكبار العلماء ، يتجلى فيها روح البحث العلمي . ومن أشهرها مجالس الشريف حسن بن عجلان ، وابنه بركات ، وحفيده محمد (1) . وكان للأدب نصيب في تلك المجالس ؛ ذلك أن من الأمراء من يقرض الشعر ويتذوقه ، كالشريف حسن بن عجلان ، وبركات بن حسن بن عجلان ، وعلي بن حسن بن عجلان ، وإبراهيم بن حسن بن عجلان ، وبركات بن محمد بن حسن بن عجلان ، وأبي نمي (محمد بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان) .

وقد قربوا الشعراء ، وأفسحوا لهم مجالسهم . وهي مجالس تحظى بعلية القوم من رجال الدولة والعلماء والأدباء . وكان الأمراء الأشراف على جانب من العلم والذائقة الأدبية ؛ لذلك شجعوا أهل العلم والأدب ، وشاركوا في الحوار العلمي في تلك المجالس ، وبرزت ثقافتهم في كثير من المواقف التي لم تخل من الطرف والروح الأدبية في بعض الأحيان ، كالذي حصل في مجلس الشريف حسن بن أبي نمي الذي عرف بجوده وتشجيعه لأهل العلم والأدب ؛ إذ إن "الشيخ عبد الرزاق الشيباني استأذنه مرةً للسفر إلى الهند ، فأنشده بيت الطغرائي المعروف :

فِيمَ اقْتَحَامُكَ لُجَّ الْبَحْرِ تَرْكِبُهُ وَأَنْتَ تُغْنِيكَ عَنْهُ مَصَّةُ الْوَشَلِ

فأجابه الشيباني من القصيدة نفسها:

أُرِيدُ بَسْطَةَ كَفِّ اسْتَعِينُ بِهَا عَلَى قَضَاءِ حُقُوقِ الْعُلَا قِبَلِي

فاستحسن بديهته ، وأمر له بألف دينار (2) .

والأسر العلمية ظاهرة في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ حيث يجد المتابع للحالة الفكرية والأدبية ، بروز عدد من العلماء والأدباء من أسرة واحدة . "وتوارث العلم في الأسرة الواحدة ليس من الأب لابن فحسب ، بل لأجيال قد تمتد قروناً" (3) ، أما الأسر التي تتكون من الابن والأب والجد ثم تنقطع السلسلة ؛ فكثيرة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .

"وتعد الأسر المكية والمدنية مظهراً من المظاهر التي ساعدت في

(1) تاريخ مكة ، السباعي 328/1 .

(2) المرجع نفسه 352/2 ، 352 .

(3) الأسرة الطبرية المكية ، عائض الراددي ، ص 7 .

إثراء الحركة العلمية وتنشيطها ؛ فقد تخصصت بعض البيوت المشهورة في مكة والمدينة في طلب العلم والتأليف ، وحظيت بنصيب وافر من المعرفة ، وعدد أكبر من العلماء ، عرفوا بحبهم للعلم . وعند تتبع تلك الأسر العلمية التي تتابعت حلقاتها قرناً بعد قرن ؛ نجد أن البعض منها نشأت منذ قرون عديدة ، وامتدت حتى القرن التاسع والعاشر⁽¹⁾ ، بل إن منها ما امتد إلى القرن الثاني عشر ، كأسرة الطبري⁽²⁾ ، وأسرة المرشدي⁽³⁾ ، وغيرهما .

ومن أهم هذه الأسر في مكة: أسر الطبري ، القسطلاني ، الفاسي ، ابن ظهيرة ، ابن فهد ، النويري ، المرشدي ، الذروي ، وغيرها⁽⁴⁾ . أما في المدينة ، فمن أهم الأسر العلمية : المطري ، الزرندي ، الخجندي ، الكازروني ، المراغي ، ابن فرحون ، ابن صالح ، وغيرها⁽⁵⁾ .

وكان للمرأة إسهام في النشاط العلمي ، وقد ذكرت كتب التراجم أسماء عديدة من عالمات العصر ، ومعظمن نشأن في منازل الأسر العلمية السابقة ، وقد كثرن في بعض الأسر ، كالأسرة الطبرية ؛ حتى إن عدد من ترجم لهن في كتاب (نشر النور والزهر) قد بلغ 38 عالمة ، وهن بذلك يفقن العلماء الطبريين المترجم لهم في هذا الكتاب ؛ إذ بلغ عددهم فيه 35 عالماً⁽⁶⁾ .

وقد علق على ذلك الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري في معرض تصديره للكتاب ، قائلاً: "وهذا أمر يدلنا على أن النساء قد كُنَّ ينصرفن للعلم بإخلاص ؛ فينجحن نجاحاً ملموساً ، ويبرزن بروزاً مشهوداً ... ومما يلاحظ حيال بروز علم الطبريات في تلك القرون أنهن قد كن محافظات على آداب الإسلام ، وأخلاق الإسلام . وكن مع علمهن

(1) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، خالد الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 163/1 .

(2) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص17 (تصدير الكتاب) .

(3) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 201/1 .

(4) انظر: الأسرة الطبرية ، عائض الراددي ؛ الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 164/1-204 .

(5) انظر: المرجع السابق 204/1-218 ؛ المدينة المنورة في العصر المملوكي ، المديرس ، ص261-286 .

(6) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص16، 17 (تصدير الكتاب) .

متحجبات ذوات دين عميق وأخلاق فاضلة ، ولم يكن الحجاب أو التخلق بأخلاق الإسلام يحول بينهن وبين تحصيل العلم أو إيصاله لمن يستحقه من الرجال علماء وطلاباً ، وكن يُجْزَن لمن يرغب في نيل إجازتهن في شتى العلوم ؛ ليكون لديه فيها سند متصل سواء أكان هذا الرجل وافداً في مواسم الحج إلى مكة ، أم مقيماً بها إقامة دائمة" (1) .

وإجازة العالمات وأخذهن العلم "كان على أيدي آبائهن ، أو أجدادهن ، أو إخوانهن ، أو أزواجهن ، أو أبنائهن ، أو غيرهن من المحارم ، وإذا كان هناك بعض النساء أجاز لهن بعض العلماء من غير هؤلاء المحارم ؛ فإن هذه الإجازات طلبها لهن أبائهن في صغرهن" (2) . هذه أبرز ملامح الحياة الفكرية والأدبية في مكة والمدينة خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين . وقد يتضح في الفصل التالي مدى ما بلغته من تطور ؛ حيث يتم عرض جانب من المؤلفات العلمية والأدبية ، وتناول المدارس والأربطة والمكتبات التي كانت تزخر بها المدينتان المقدستان ، وكذلك الحديث عن أهم المؤثرات في النهضة الأدبية ، كمجاورة الحرمين ، وتشجيع الحكام ، وغيرهما .

(1) المصدر نفسه ، ص17 (تصدير الكتاب) .

(2) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 233،234/1 .

الفصل الأول

المؤثرات العامة في الشعر

- 1- مجاورة الحرمين الشريفين.
- 2- التأليف.
- 3- المدارس والأربطة والمكتبات.
- 4- الرحلات والمواسم الدينية.
- 5- الأحداث السياسية.
- 6- تشجيع الأمراء والحكام.
- 7- الدوافع الذاتية والنفسية.

1- مجاورة الحرمين الشريفين :

- 1 -

المجاورون هم : الذين هاجروا من بلادهم إلى مكة والمدينة يبتغون جوار المسجدين الشريفين .

وقد أفاضت مصادر القرنين التاسع والعاشر الهجريين (1) في ذكر المجاورين من العلماء وطلبة العلم الذين جاءوا من مختلف أقطار العالم الإسلامي إلى مكة أو المدينة.

وليس للمجاورة مدة زمنية محددة "إذ كانت حسب ظروف المجاور ورغبته ، فكانت تتراوح بين شهر واحد وسنة ، وهي التي غالباً ما تكون بعد أداء فريضة الحج ، وأحياناً كثيرة تمتد مدة المجاورة لسنوات عديدة من عشر إلى عشرين وثلاثين وخمسين سنة" (2) ، بل إن من المجاورين من جاوز خمسين سنة (3) .

وعلى الرغم من كثرة المجاورين الذين تمتلئ كتب التراجم بأسمائهم ، فإن الواقع أن المذكورين هم المشهورون منهم ؛ لأن "المؤرخين لا يذكرون من المجاورين إلا العلماء الذين اشتهروا بخصلة أو حادثة معينة ... ولولا كثرة المجاورين لما احتاج الأمر إلى شيخ لهم ينظم أمورهم ... أما العلماء الذين زاروا مكة ، أو جاوروا بها مدة قصيرة ، أو درسوا على علمائها دون أن يجاوروا ، فهم لا يحصون كثرة" (4) .

وكان للمجاورين أثر كبير في جميع نواحي الحياة في مكة والمدينة ؛ سواء الحياة السياسية ، أو الاجتماعية ، أو العلمية . ويكاد يكون تأثيرهم العلمي في مكة والمدينة أقوى من تأثير علماء المدينتين أنفسهم (5) ؛ لما عرف عنهم من النشاط العلمي الذي أفاد منه شعراء مكة والمدينة وغيرهم من المسلمين الذين قطنوا المدينتين الكريمتين .

(1) منها : العقد الثمين ، الدر الكمين ، معجم الشيوخ ، التحفة اللطيفة ، الضوء اللامع ، نظم العقيان ، البدر الطالع ، الكواكب السائرة ، درة الحجال ، ريحانة الألبا .

(2) المجاورون في مكة والمدينة في العصر المملوكي ، منى آل مشاري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ص 87 .

(3) انظر : الكواكب السائرة ، الغزي 217/1 .

(4) العلاقات الحجازية المصرية ، السليمان ، ص 236 .

(5) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 162/1 .

وقد تمثل هذا النشاط في التأليف والتدريس في علوم مختلفة . ومن أولئك العلماء وطلبة العلم المجاورين من كان شاعراً ينشد من نظمه في بعض الحلقات أو المجالس التي كانوا يتبادلون فيها المطارحات الشعرية .

فمحمد بن عبد القادر السنجاري ، الشيرازي الأصل ، الواسطي المولد ، المعروف بالسكاكيني جاور في مكة ، ثم المدينة ، ثم استقر في مكة في آخر حياته حتى توفي بها في سنة 838 هـ . وكان عالماً جليلاً ، متواضعاً ، حريصاً على نفع الطلبة . درّس في الحرمين وأفتى فيهما وانتفع به كثيرون . وهو شاعر أسهم في الحياة الأدبية في مكة والمدينة ؛ حيث خَمَسَ بانث سعاد ، والبردة ، وقرأ عليه تقي الدين محمد بن فهد تخميسه للبردة ، وشيئاً من نظمه ، ونظم (بقية القراءات العشر) تكملة للشاطبي ، وكان يستمع إلى الطلاب الذين يقرءون عليه من نظمه (1) .

وقد كشفت عاطفته الدينية عما يخالط شعوره من إلف وحب لتلك البقاع الطاهرة التي درج عليها أفضل الخلق وعاش بين جنباتها صحابته الكرام . يقول في إحدى قصائده :

يَا كَعْبَةَ أَوْجَبَ اللَّهُ الطَّوَافَ مَا ضَلَّ مَنْ ظَلَّ يَسْعَى فِي
عَلَى صَفَاكَ صَفَا قَلْبِي كَمَا دَعَانَا لِنَادِيكَ مُنَادِيكَ⁽²⁾

وتأثر مما وقع في المدينة من نهب ، وشارك أهلها مشاعرهم ؛ فرثاها بقصيدة تقارب الأربعين بيتاً (3) . كما أسهم بشعره في تقرير الكتب والكتابة على بعض الاستدعاءات . وقد ذكر عمر بن فهد الشعر الذي قرظ به السكاكيني كتاب والده (نهاية التقريب وتكميل التهذيب بالتذهيب) وما نظمه وكتبه على استدعاء له (4) .

وجاور بمكة العالم الدمشقي عبدالرحمن بن أحمد بن عيَّاش ، وانتصب لإقراء القرآن الكريم بالقراءات بالمسجد الحرام وتردد بين

(1) انظر : إنباء الغمر ، ابن حجر العسقلاني 561/3 (وفيه محمد بن عبد الله) ؛ الدر الكمين ، عمر بن فهد 159/1-163 ؛ والتحفة اللطيفة ، السخاوي 648/3-651 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 67/8-69 .

(2) التحفة اللطيفة ، السخاوي 651/3 .

(3) الضوء اللامع ، السخاوي 69/8 .

(4) الدر الكمين 162/1 ، 163 .

مكة والمدينة مرات وجاور فيهما ، وتصدر للإقراء أيضاً ، فانتفع به جماعة من أهل الحرمين وغيرهم من المجاورين . وكان يُدرّس أيضاً ألفية ابن مالك ، ونظم غاية المطلوب في قراءة خلف وأبي جعفر ويعقوب ، أخذها الناس عنه . وقد ذكر السخاوي شيئاً من نظمه وقال : إن له غير ذلك ، كما أن النجم بن فهد قد أثبت شيئاً مما أنشده إياه في المسجد الحرام (1) .

ومن العلماء المجاورين : علي بن إبراهيم الإبي الفقيه الأديب . وقد كان يتردد إلى مكة منذ صغره ويزور المدينة ؛ طالباً للعلم ، وكان إبان ذلك ينظم الشعر وينشده في مكة والمدينة . وفي آخر حياته استقر بمكة منذ سنة 840هـ إلى أن توفي بها سنة 859هـ . أشار النجم بن فهد إلى أن الإبي أنشده كثيراً من شعره ، وأنه طارح الشيخ ابن حجر العسقلاني وغيره (2) .

ومثل تلك المطارحات الشعرية التي كان يتداولها المجاورون فيما بينهم ، أو فيما بينهم وبين شعراء مكة والمدينة من عوامل انتعاش الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين . لقد وجد الشعراء المجاورون آذاناً صاغية تستقبل ما ينظمون ؛ فأنشدوا أشعارهم في منتدياتهم ، وفي مجالس علمهم في المسجد الحرام وفي الأربطة وغيرها . من هؤلاء : محمد بن عمر التميمي التونسي ، الذي جاور بالمدينة مدة ، ثم قطن مكة منذ سنة 849هـ حتى توفي فيها في سنة 891هـ . وقد ذكر النجم بن فهد أنه أنشده من شعره كثيراً ، ومنه هذين البيتين اللذين أنشده إياهما في خلوته برباط المغاربة في مكة المكرمة سنة 864هـ ، يقول فيهما :

إِنْ رُمْتَ لِلْحَرَمِ الْمَكِّيِّ مَعْرِفَةً فَاسْمَعْ وَكُنْ وَاِعْيَا قَوْلِي وَمَا
وَاعْلَمْ بِأَنْ سَيُولَ الْحِلَّ قَاطِبَةً إِذَا جَرَتْ نَحْوَهُ فِدْوَنُهُ تَقِفُ (3)

(1) انظر : المصدر السابق 798/2-803 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 4/59-61؛ علم الحديث في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي ، صالح معتوق (رسالة دكتوراه لم تنشر بعد) ، ص 47-51 .

(2) انظر : الدر الكمين 2/994-1002 .

(3) المصدر السابق 1/251 ، وأحلّ الرجلُ ، إذا خرج إلى الحِلِّ عن الحرم . ويقال للنازل في الحرم : محرم ، والخارج منه : مُجَلِّ . - لسان العرب : مادة (حل) .

ومنهم : عطاء بن عبدالعزيز البصري ، الشهير بابن اللوكة ، الذي ولد بالبصرة ونشأ بها ، وحفظ بعض القرآن الكريم ، وعني بالأدب ، وطالع الدواوين ؛ فنظم الشعر الجيد ، ثم قطن مكة ، وزار المدينة ثلاث مرات ، ومدح النبي ع بقصائده ، واعتاد على إنشاد شعره بزيادة دار الندوة (1) .

ومنهم أيضاً : محمد بن علي اللواتي ، الذي سكن المدينة بعد أن أقام بمكة قليلاً . وقد أثبت السخاوي شيئاً من شعره ، وقال : إنه امتدحني بقصيدة طويلة (2) .

لقد وفد عدد من المجاورين إلى مكة والمدينة بثقافتهم ؛ فأصبح لذلك الأثر الكبير في إثراء الحياة العلمية والتكوين الثقافي للشعراء بالمدينتين ؛ إذ إن منهم علماء لهم نتاج فكري في مختلف العلوم ، وشعراء طرّقوا فنون عديدة .

ومن المجاورين من كان يتاجر بالكتب ، كالشاعر أحمد بن محمد المقدسي الشهير بابن الشريفة ، الذي جاور بمكة ، وتكسب فيها بشراء الكتب وبيعها ، وله نظم في ابن حجر العسقلاني وغيره (3) .

وكانت حبال الود موصولة بين علماء مكة وشعرائها وكثير من المجاورين ، كالعلاقة الحميمة التي كانت بين شمس الدين السخاوي والنجم بن فهد ، حيث "إن السخاوي صحب النجم عمر بن فهد صحبة ود واحترام ، ويكفيك شاهداً على هذا أنه لا يشير إلى النجم دون أن يردف قبل اسمه لفظة صاحبنا ، وهو يعتز بهذه الصحبة... وكان بينهما من المودة والاحترام ما يعجز المرء عن تصويره ، يشتاقي أحدهما إلى الآخر اشتياقه إلى ولده ؛ إذ إن صداقتهما بنيت على أساس من الصحبة والأستاذية وتحصيل العلم ... وكانت بينهما مراسلات أخوية وعلمية

(1) انظر : الدر الكمين ، عمر بن فهد 969/2 ، 971؛ والضوء اللامع ، السخاوي 147/5 .

(2) الضوء اللامع 166/8؛ التحفة اللطيفة 674/3 .

(3) الدر الكمين ، عمر بن فهد 553/1 .

تفيض شوقاً وتودداً" (1) .

وظل الشعراء منهم يعبرون عن مشاعرهم من خلال قصائد المديح وتقريظ الكتب شعراً . وقد حفظ النجم بن فهد كثيراً من أسماء المجاورين الذين مدحوا والده تقي الدين بن فهد ، منهم : محمد بن قاسم المصري السيوطي ، الذي قدم من أسيوط إلى مكة ، وتأهل بها ، ووعظ بالمسجد الحرام ، ونظم شعراً كثيراً ، ومن ضمنه مديح للتقي بن فهد (2) .

ومنهم : محمد بن أحمد الأسيوطي الذي جاور بمكة ، ونشأت بينه وبين ابن فهد صداقة عميقة ، حيث كان الشيخان يتبادلان الكتب والهدايا وكثيراً من مقتضيات الصداقة (3) .

وقد تنتج الصحبة شعراً إخوانياً يبرز تفاعل الشعارين ، ويؤكد أثر المجاورين في تنشيط الحركة الشعرية في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، كالإخوانيات التي كانت بين الشاعر محمد بن موسى والشيخ ابن الجزري (قاضي شيراز) ، الذي قدم مكة من شيراز للحج والمجاورة (4) ؛ وما كان بين الشاعر علي ابن أحمد بن سلامة وابن الجزري أيضاً (5) .

(1) بنو فهد مؤرخو مكة ، ناصر الرشيد (مجلة العرب : س11 ، ج11 ، 12 ، جماديان 1397هـ) .

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 262/1 ، 263 .

(3) العلاقات الحجازية المصرية ، السليمان ، ص235 .

(4) انظر : العقد الثمين ، الفاسي 370/2 ، 371 . والشاعر ابن موسى ، هو : محمد بن موسى بن علي بن عصمد ، المراكشي الأصل ، المكي ، ويعرف بابن موسى . ولد في مكة سنة 789هـ ، ونشأ بها ، فحفظ القرآن الكريم وكثيراً من المتون في فنون من العلم ، وبرع في الحديث . وكان قد قرأ على جماعة في مكة والمدينة والشام ومصر واليمن ، ودرّس ، وأفتى ، وألف كتباً ، منها : تاريخ المدينة ، تخريج مشيخة المراغي . توفي في مكة سنة 823هـ .

انظر ترجمته في : العقد الثمين ، الفاسي 364/2-371 ؛ إنباء الغمر ، ابن حجر 234/3 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 58-56/10 ؛ هدية العارفين ، البغدادي 183/2 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 65/12 ؛ الأعلام ، الزركلي 118/7 ، 119 ؛ التاريخ والمؤرخون بمكة ، الهيلة ، ص97-99 .

(5) انظر : الضوء اللامع ، السخاوي 183/5 ، 184 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 367/9 ، 368 . والشاعر ابن سلامة هو : علي بن أحمد بن محمد بن سلامة بن عطوف السلمي المكي ، المعروف بابن سلامة . ولد سنة 846هـ بمكة ، ونشأ بها متلمذاً على بعض علمائها ، ثم رحل إلى العراق ، والشام ، ومصر أخذاً عن عدد

ومن الصداقات بين المجاورين وشعراء مكة والمدينة تلك الصحبة الحميمة التي جمعت عبدالقادر الجزيري والشاعر المكي أبا بكر اليتيم . يحدثنا عنها الجزيري قائلاً : "أبو بكر اليتيم الشاعر المكي المطبوع ، كان لطيف الذات ، رقيق الطبع ، حسن المعاشرة ، ولنا به صحبة وأنس ومرافقة في بعض الأسفار المكية"⁽¹⁾ وذكر شعراً لليتيم لما كان بصحبته في أبار الوجه . ولا شك أن مثل هذه الرحلات والجلسات الإخوانية عامل من عوامل إثارة المشاعر لدى الشعراء الذين وجدوا من أصحابهم قبولاً وارتياحاً لما ينشدون .

وكثير من شعراء مكة والمدينة من العلماء وطلبة العلم ؛ فلا عجب أن نجدهم يتنقلون بين مجالس العلم ، ويتبادلون علاقات الود مع العلماء والطلبة المجاورين . ومن الشعراء من دفعه حبه لشيخه إلى مديحه ، كالشاعر محمد بن ظهيرة⁽²⁾ الذي مدح شيخه البساطي بقصيدة ، منها قوله :

طَبَّ أَيُّهَا الْحَبْرُ الْإِمَامُ مُقَامَا وَاعْنَمَ بِمَكَّةَ سَيِّدِي أَيَّامَا
وَتَهَنَّ يَا قَاضِي الْقَضَاةِ بِحَضْرَةِ مَلَأَتْ قُلُوبَ الْعَاشِقِينَ غَرَامَا

=
من العلماء هنالك . درّس وأفتى ، وكان عالماً بالقراءات السبع والفقّه . عني بطلب الحديث ، وصار بأخرة مسند الحجاز . توفي بمكة في سنة 828هـ .
انظر ترجمته في : العقد الثمين ، الفاسي 139/6-141 ؛ إنباء الغمر ، ابن حجر 356/3 ، 357 ؛ الدليل الشافي ، ابن تغري بردي 450/1 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 183/5 ، 184 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 267/9 ، 268 .
(1) الدرر الفرائد 1155/2 . وقد جاء فيه أن اليتيم توفي بمكة في سنة 971هـ .

(2) محمد بن ظهيرة ، هو جلال الدين أبو السعادات محمد بن محمد بن ظهيرة المخزومي المكي . ولد في مكة سنة 795هـ ، ونشأ بها . برع في الفقّه حتى صار عالم الحجاز ، وانتهت إليه رئاسة الفقهاء في مكة . عمل في القضاء ، والتدريس ، وولي نظر المسجد الحرام ، والخطابة ، والحسبة . وله تصانيف ، منها : تكملة شرح الحاوي ، وذيّل على طبقات السبكي ، وغيرهما . توفي في مكة سنة 861هـ .
- انظر ترجمته في : الدليل الشافي ، ابن تغري بردي 829/2 ؛ الدرر الكمين ، عمر بن فهد 335-343/1 ؛ معجم الشيوخ ، عمر بن فهد ، ص 276 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 214-216/9 ؛ نظم العقيان ، السيوطي ، ص 167 ، 168 .

أُحْيِيَتْ لِلْعِلْمِ الشَّرِيفِ مَآثِرًا وَمَلَكَتْ فِيهِ شَكِيمَةٌ وَزَمَامًا (1)

والشيخ البساطي كان إماماً ، علامة ، عارفاً بفنون المعقول ،
والعربية ، والمعاني ، والبيان . وعلى الرغم من أنه جاور سنة
واحدة ؛ فإنه أقرأ كتباً وانتفع به جماعة (2) .

ومثله كثيرون جاوروا سنة واحدة ، كان لها أصداء طيبة ، منهم:
محمد بن أحمد الهواري الأندلسي ، وأحمد بن يوسف الرعيني
الغرناطي اللذان جاورا بالمدينة سنة 856 هـ . ولم تكن هذه المدة على
قلتها حائلاً دون الاستفادة من علمهما ؛ إذ قرئت عليهما كتب عديدة في
اللغة ، والعروض ، والبديع ، وغيرها من فنون العربية (3) .

ومن أبرز العلماء المجاورين في مكة والمدينة اللغوي الكبير
محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزآبادي ، الذي "ترك في مكة
كثيراً من الطلاب الذين أثروا الحركة العلمية في الحجاز" (4) ؛ فقد أخذ
عنه أعلام مشهورون ، منهم : التقي الفاسي ، وجمال الدين بن ظهيرة
(5) ، والتقي بن فهد (6) ، وشاعر مكة ابن العلي (1) ، وغيرهم كثير (2) .

(1) الضوء اللامع ، السخاوي 216/9 . وقد كره بعض العلماء الوصف بـ(قاضي
القضاة) قياساً على ما يبغضه الله ورسوله من الوصف بملك الملوك .
- انظر : معجم المناهي اللفظية ، بكر أبو زيد 53/1 ، 54 ، 260 ، 311 ،
312 .

(2) الضوء اللامع ، السخاوي 6/7 .
(3) التحفة اللطيفة ، السخاوي 482/3 .
(4) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، خالد الجابري (رسالة ماجستير
لم تنشر بعد) 506/2 .

(5) هو محمد بن عبدالله بن ظهيرة المخزومي المكي . ولد سنة 751 هـ بمكة ، ونشأ بها
متلقياً العلم على عدد من علمائها ، ثم رحل في سبيله إلى الشام ومصر ، وعاد إلى
مكة ، فتصدى لنشر العلم . وقد نظم الشعر ، وبرع في الفقه والحديث ؛ فدرّس وأفتى
، ورحل إليه الطلاب . تولى قضاء مكة ، وخطبتها ، ونظر الحرم ، والأوقاف ،
والربط ، والحسبة . توفي في مكة سنة 817 هـ .

- انظر ترجمته في: إنباء الغمر ، ابن حجر 45/3 ، 46 ؛ الضوء اللامع ،
السخاوي 95-92/8 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 185/9 ، 186 .

(6) هو محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عبدالله ، أبو الفضل ، بن فهد ، الهاشمي ،
المكي . ولد بأصفون من صعيد مصر ، حيث سافر والده إلى مصر ؛ فتزوج هناك ،
ثم ولد التقي بن فهد سنة 787 هـ ، وعاد مع أبيه إلى مكة موطن أسرته وأجداده .
حفظ في مكة القرآن الكريم وبعض المتون ، وسمع من شيوخها والقادمين إليها ، كما
أخذ عن علماء المدينة واليمن . له نظم قليل ، وقد برع في الحديث ، وفاق أقرانه ،
=

وجاور بمكة الحافظ بن حجر العسقلاني عالم عصره في الحديث . وهو راوية للشعر وأيام مَنْ تقدمه وعصره ، وشاعرٌ خَلَفَ ديوان شعر في جملة ما خلفه من مصنفات عديدة (3) . وقد جاور بمكة أكثر من مرة والتقى في أثنائها ببعض شعرائها ، كالشاعر إسماعيل بن علي الزمزمي (4) الذي لقيه وأسمعه شيئاً من شعره ومدحه بقصيدة منها قوله :

إِنْ لَمْ تَجُودُوا بِالْوَصَالِ وَطَابَ هَجْرَانِكُمْ لَيْلِي الْبَهِيمُ مِنَ السَّهْرِ
فَدُجَاهُ يَجْلُوهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ مِنْ جَدِّهِ كَيْدَ الْعِدَى عَنِّي

وصار المعول عليه في هذا الشأن ببلاد الحجاز قاطبة ، وانتفع به الناس . ألف مؤلفات عديدة ، منها : الدرر العوالي والجواهر الغوالي ، سيرة الخلفاء والملوك ، لحظ الألاحظ بذيّل طبقات الحفاظ . توفي في مكة سنة 871هـ .

- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 385/1-395 ؛ معجم الشيوخ ، عمر بن فهد ، ص 280-284 (وانظر مقدمة المحقق) ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 283-281/1 ؛ نظم العقيان ، السيوطي ، ص 170 ، 171 ؛ البدر الطالع ، الشوكاني 259/2 ، 260 ؛ هدية العارفين ، البغدادي 205/2 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 291/11 ؛ الأعلام ، الزركلي 48/7 ؛ التاريخ والمؤرخون بمكة ، الهيلة ، ص 137-146 ؛ بنو فهد : مؤرخو مكة المكرمة ، ناصر الرشيد (مجلة العرب : س 11 ، ج 11 ، 12 ، جماديان 1397هـ) .

(1) هو أحمد بن الحسين وسيأتي الحديث عن حياة هذا الشاعر وشعره في الفصل الخامس من هذه الدراسة .

(2) التاريخ والمؤرخون بمكة ، الهيلة ، ص 90 . وقد أشار المؤلف إلى جملة من مصادر ترجمة الفيروزآبادي ، بعد أن ترجم له وذكر شيئاً من شعره ؛ انظر : ص 90-96 من هذا المرجع .

(3) انظر : الضوء اللامع ، السخاوي 36/2-40 ؛ الدليل الشافي ، ابن تغري بردي 64/1 ؛ نظم العقيان ، السيوطي ، ص 45-53 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 395/9-399 .

(4) هو إسماعيل بن علي بن محمد بن داود ، البيضاوي الأصل ، المكي ، الشهير بالزمزمي . ولد في مكة سنة 766 ، أو 767هـ ، ونشأ بها ؛ حيث تتلمذ على علمائها ، ثم على بعض علماء القاهرة ، وأجاز له عدد منهم . اشتغل بعلم الحديث ، وبرع في علم العروض . وكان فاضلاً ، مشكور السيرة . توفي بمكة سنة 838هـ . - انظر ترجمته في : إنباء الغمر ، ابن حجر 556/3 ؛ الدر الكمين ، عمر بن فهد 627/1-631 ؛ إتحاف الوري ، عمر بن فهد 88/4 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 302/2 ، 303 .

(5) الضوء اللامع ، السخاوي 303/2 . ومن جدّه ، أي : من عظمته . "وَجَدَّ فُلَانٍ فِي عَيْنِي يَجِدُّ جَدًّا ، بِالْفَتْحِ : عَظْمٌ" .

وكان لشعر ابن حجر صدّي لدى بعض الشعراء ، كأحمد بن علي البسكري الذي خمس شيئاً منه (1) .

ومن أشهر العلماء المجاورين الذين كان لهم الأثر الكبير في أهل مكة والمدينة العالم المؤرخ شمس الدين السخاوي الذي "حمل الناس من أهلها والقادمين عليهما عنه الكثير جداً رواية ودراية ، وحصلوا من تصانيفه ، مع ملازمة الناس في منزله للقراءة دراية ورواية في تصانيفه وغيرها بحيث خُتم عليه ما يفوق الوصف في ذلك ، وأخذ عنه من الخلائق ما لا يحصى كثرة"(2) .

وقد درس عليه بعض شعراء مكة والمدينة ، كعلي بن ناصر الحجازي (3) الذي ذكر السخاوي أنه لازمه في قراءة شرح ألفية

=

- لسان العرب : مادة (جدد) .

(1) انظر : النور السافر ، العيدروس ، ص559 . وأحمد بن علي بن محمد البسكري من أهل العلم والصلاح ، لا يرى في أكثر الأوقات إلا مشغولاً بمطالعة أو كتابة . وكان والده - وهو أحد علماء عصره - قد توفي وتركه صغيراً ، فتولى تربيته وتعليمه تلميذ والده الشيخ محمد بن عبدالحق العقيلي المالكي المكي - ت993هـ بمكة - ، فأخذ عنه وعن غيره حتى برع . له جملة مصنفات ، منها رسالة في القهوة . توفي في أحمد آباد وعمره سبعون سنة وكان قد كف بصره قبل وفاته بقليل .
- انظر ترجمته في : النور السافر ، العيدروس ، ص554 ، 555 ؛ خلاصة الأثر ، المحبي 243/1 ؛ المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص79 . وهناك اختلاف في المصادر في اسم أبيه وجده ، والمثبت عن النور السافر

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص42 ، 43 . وانظر: الضوء اللامع ، السخاوي 2/8-32 .

(3) هو نور الدين علي بن ناصر المكي الواعظ ، ويعرف بالحجازي ، وبابن ناصر . ولد سنة 841هـ بمكة ، ونشأ بها ، فحفظ القرآن الكريم وبعض الكتب ، واشتغل في الفقه وأصوله ، والعربية ، وغيرها من الفنون ، ودرّس في المسجد الحرام ، وألف في الحديث والتفسير والأصول ، وكتب المقامة . من مؤلفاته : النور الطالع من أفق الطوالع ، إدراكات الورقات ، وغيرهما . ذكرت بعض المصادر أنه توفي في ذي القعدة سنة 915هـ . ويبدو أن ثمة لبساً في ذلك ؛ فقد جاء في الكواكب السائرة أنه أجاز البرهان العمادي الحلبي في ذي القعدة سنة 915هـ . يتضح من ذلك أن وفاته قد تكون بعد هذا التاريخ ، وقد حاولت أن أجد تحديداً دقيقاً لسنة وفاته ؛ لكنني لم أهتد إلى ذلك ، وأقصى ما وصلت إليه أنه كان حياً سنة 916هـ ؛ حيث ذكر البغدادي في هدية العارفين وهو يعدد مصنفات هذا العالم الشاعر - أنه فرغ من تأليف كتابه (مدارك الأصول شرح منهاج الوصول للبيضاوي) في سنة 916هـ .

- انظر ترجمته في : الضوء اللامع ، السخاوي 45/6-47 ؛ غاية المرام ،

=

العراقي للناظم ، وأنه أخذ عنه غير ذلك ، وامتدحه غير مرة (1) .
وممن تتلمذ على السخاوي الشاعر محمد بن أحمد الخجندي (2) ،
إذ يقول السخاوي : "لازمني حتى قرأ علي ألفية الحديث بحثاً ، وغيرها
من الكتب رواية ، حتى في مجاورتي الأولى بالمدينة ، ثم قرأ علي في
سنة 894هـ بمكة قطعة من شرحي على الألفية... وكتبت له إجازة
حافلة" (3) . ثم يقول السخاوي : "وكتب إلي بخطه عدة قصائد وغيرها
من نظمه" (4) .

ومن الذين جاوروا مدة طويلة بالمدينة عالمها ومؤرخها العلامة
علي بن أحمد السمهودي ، الذي انتفع به جماعة من الطلبة في الحرمين
الشريفين . وهو من المكثرين في التأليف ، كما أنه شاعر ذكرت
المصادر بعض شعره (5) .

كما أن العالم الجليل ابن حجر الهيتمي قد جاور في مكة أكثر من
ثلاثة عقود يؤلف ويفتي ويُدَرِّس إلى أن توفي فيها - يرحمه الله -

=

عبدالعزیز بن فهد 620/2 ، 621 ؛ 139/3 ؛ الكواكب السائرة ، الغزي 278/1 ؛
شذرات الذهب ، ابن العماد 102/10 ، 103 ؛ إيضاح المكنون ، البغدادي 383/1 ؛
453/2 ، 470 ، 685 ؛ هدية العارفين ، البغدادي 741/1 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة
252/7 ؛ الأعلام ، الزركلي 27/5 .

(1) الضوء اللامع 45/6 . وانظر : الدر الكمين ، عمر بن فهد 1059/2 .
(2) هو محمد بن أحمد بن طاهر الخُجَنْدي المدني ، ويعرف بابن جلال . ولد في سنة
851هـ بطيبة ، ونشأ بها ، فحفظ القرآن الكريم وغيره ، وأقبل على التحصيل على
عدد من علمائها ، كما درس على بعض علماء مكة ، وارتحل إلى القاهرة أكثر من
مرة ؛ فحصل علوماً كثيرة ، كالفقه والحديث وعلوم العربية والمنطق والفلك
والفرائض ، ثم درّس وأفاد في المسجد النبوي وغيره في الفقه والعربية وغيرهما .
توفي بالمدينة سنة 899هـ .

- انظر ترجمته في : التحفة اللطيفة ، السخاوي 472-469/3 ؛ الضوء اللامع ،
السخاوي 315 ، 314/6 .

(3) التحفة اللطيفة 470/3 .
(4) المصدر نفسه 472/3 .
(5) انظر : الضوء اللامع ، السخاوي 248-245/5 ؛ وفاء الوفاء ، السمهودي 4 ، 5
(تصدير التحقيق) ؛ النور السافر ، العيدروس ، ص 94-98 ؛ شذرات الذهب ، ابن
العماد 73/10 ، 74 ؛ البدر الطالع ، الشوكاني 470/1 ، 471 ؛ السمهودي أشهر
مؤرخي المدينة ، حمد الجاسر (مجلة العرب : س 7 ، ج 3 ، رمضان 1392هـ) .

سنة 973 ، أو 974هـ⁽¹⁾ .
وعلى الرغم من تبحره في الفقه وكثرة مصنفاته ، فإنه لم يغفل
الأدب ؛ إذ إنه نظم الشعر وتصدى لبعض المنظومات بالشرح ،
كالهمزية البوصيرية .
وقد مدحه الشعراء ؛ إعجاباً بسعة علمه ، كعبدالعزیز بن علي
الزمزمي وغيره⁽²⁾ .

- 2 -

ولخصوصية المكان الذي نشأ فيه شعراء مكة والمدينة أثر كبير
في نظرتهم إلى الكون والحياة . وهي نظرة ذات أبعاد دينية ، تتجاوز
المتعة المادية الخالية من الهدف النبيل ، يتضح ذلك جلياً في غلبة السمو
على معاني الشعر ؛ وقد تحققت هذه السمة بنزاهته عن الهبوط
الأخلاقي ، وبالتجاء الشعراء إلى خالقهم في كل أمورهم ، وارتباطهم
الروحي بـ"مهبط الوحي الإلهي ومنطلق الرسالة المحمدية الإسلامية
الراشدة الخالدة التي جاءت إلى العالم نوراً وهدى لأفكاره ووجداناته
وأخلاقه"⁽³⁾ .

فمجاورة البيت الحرام والمسجد النبوي الشريف ذات أثر كبير
في كثرة الشعر الديني وقرب الشعراء من بارئهم في كل أمر يحزبهم .
وقد نعثر في بيئات أخرى في العالم الإسلامي على شعراء يفرعون إلى
الله في أمور كثيرة ، ولكننا لا نجد ما يشبه الاتجاه أو النزعة لدى كل
شاعر مثل ما هو كائن في بيئة الحرمين ؛ ذلك أن أجواء المدينتين
العزیزتين على كل مسلم قد أظلت أولئك الشعراء بظلالها الوارف ؛
فاطمأنت قلوبهم ، وزادت صلتهم بربهم ، وأصبحنا نتلقى ذلك كله
شعراً معبراً عن الحالات النفسية المختلفة ، فهذا - مثلاً - الشاعر

(1) انظر: النجمة الزاهرة في أفاضل المئة العاشرة ، عبد الوهاب الشعراني ، ورقة 14/أ ،
14/ب ؛ النور السافر ، العيدروس ، ص 390 - 396 ؛ الكواكب السائرة ،
الغزي 111/3 ، 112 ؛ ريحانة الألبا ، الخفاجي 435/1 ، 436 ؛ البدر الطالع ،
الشوكاني 109/1 ؛ المنح المكية في شرح الهمزية ، ابن حجر الهيتمي 15/1 - 21 .

(2) النور السافر ، العيدروس 396/1 .

(3) محاولات جديدة في النقد الإسلامي ، عماد الدين خليل ، ص 183 .

إبراهيم الزمزمي (1) قد تقدم في عمره فبدأ ، يفقد أغلى ما يملك من حواسه ، إنه بصره الذي أخذ يتلاشى حتى أصبح لا يقدر على القراءة والكتابة ؛ ليفقد بذلك أنسه وما اعتاده في حياته العلمية ، لكنه مع ذلك كله قد أذعن لخالقه وسلّم بقضائه ، معبراً عن ذلك بقوله :

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَجَاوَزْتُهَا قَدْ أَعْقَبْتُ عَيْنِي بِمِثْلِ الدُّخَانِ
بِحَيْثُ لَا أَكْتُبُ خَطًّا وَلَا أَقْرَأُ وَرَبِّي الْمُسْتَعَانُ
وَحُكْمُهُ فِي خَلْقِهِ نَافِذٌ لَا مَانِعٌ يَمْنَعُهُ فِي أَذَانِ
تَبَارَكَ اللَّهُ إِلَهُ الْوَرَى سُبْحَانَهُ قَدَّرَ شَيْئاً وَكَانَ (2)

ونشأة الشعراء في ظل الحرمين ذات أثر في نزاهة الشعر من الخلاعة والمجون ، وكذلك في قلة شعر الهجاء في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ حيث يلحظ المتابع للشعر على مدى هذين القرنين خلوه من شعر الخلاعة والمجون ، وإن وجد شيء من ذلك فإنه على سبيل الندرة ، كما يتضح قلة شعر الهجاء ، وندرة المقذع منه . وتلك البيئة الدينية ذات أثر في تغذية الشعراء بالأفكار الخيرة التي قادتهم إلى الاستقامة في السلوك ، حتى أصبح الشاعر منهم يفاخر بعفته ونزاهة لسانه ، وبغفوه عن المسيء ؛ احتساباً للأجر عند الله ، ولم ينهج سنن مَنْ قبله من الشعراء الذين عاشوا في بيئات تنادي بالأخذ بالثأر ، وتحتضن شاعرها ، وتذيع شعره مفاخرة به حين يقول :

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ (3)

(1) هو إبراهيم بن علي بن محمد بن داود ، البضاوي الأصل ، المكي ، الشهير بالزمزمي - نسبة لبئر زمزم ؛ لكونه كأبيه كان يلي أمرها - ولد في مكة سنة 777هـ ، ونشأ بها ؛ حيث أخذ عن علمائها الفقه والحديث والعربية والحساب والجبر والهندسة والتحرير وعلم الميقات والمنطق وغيرها ، كما درس التصوف وأجاد العروض ، وصنف في علم الميقات وكذلك في الفرائض ، وكان أعلم أهل مكة بها . وقد درّس وأفاد ، ثم كف بصره في سنة 848هـ ، فتلاشى نشاطه . لم يتزوج قط ، وكان عفيفاً ، متواضعاً ، ذا وقار وبهاء ومهابة . توفي في مكة سنة 864هـ .
- انظر ترجمته في : درر العقود الفريدة ، المقرئ 160/1 ؛ الدر الكمين ، عمر بن فهد 606-602/1 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 86/1 ، 87 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 446/9 .

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 606/1 .

(3) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم . (ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي ، ص330) .

ويتضح أثر المكان في الشعر لدى شعراء مكة والمدينة بالنظر إلى البيئات المجاورة حينذاك ، حيث نجد الشعراء في مصر والشام قد أقبلوا على الخمرة - مثلاً - وشغفوا بها ؛ فازدهر الشعر الخمري في العصر المملوكي ، وتناول الشعراء مختلف عناصر الخمر ، متحدثين عن نوعها ، وطعمها ، ورائحتها ، ولونها ، وأنيتها ، عارضين أحوالها وأحوال شاربها ، داعين إلى شربها (1) . واستمر ذلك في العهد العثماني (2) .

وكان أهم أسباب ازدهار شعر الخمر في حلب المملوكية - مثلاً - وجود أهل الذمة الذين كانوا يصنعون الخمر في أحيائهم ، ويعتقونها في كنائسهم وأديرتهم ، وانتشار فلسفة الاستمتاع بالحياة قبل زوالها ، واستغلال فرصة العيش لاغتنام لذاته قبل الموت (3) . كما أن التغزل بالمذكر قد غدا شائعاً شيوعاً لافتاً للنظر جعله بدعة ذلك العصر ؛ إذ أكثروا منه تظرفاً وتماجناً (4) .

وإذا كان في البيئات المجاورة للحرمين في ذلك العصر مصنفات في شعر الهجاء (5) ؛ فإننا لا نكاد نجد إلا أبياتاً قليلة لشعراء معدودين في مكة والمدينة على مدى قرنين من الزمان .

ولقداسة المكان أثر كبير في إعراض شعراء مكة والمدينة عن مثل هذه الألوان الشعرية التي لا تجد رواجاً في تلك البيئة العلمية التي تعج بطلاب العلم الذين ينتقلون بين أروقة الحرمين الشريفين . وفيهم كثير من الشعراء الذين شبوا وترعرعوا في جنباتهما حتى جبلوا على حب الخير ، وأصبح شذاه يفوح من أشعارهم ، على نحو قول الشاعر عبدالكريم بن ظهيرة :

(1) انظر: آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، ياسين الأيوبي ، ص 339 - 349 .

(2) انظر: تاريخ الأدب العربي (العصر العثماني) ، د. عمر موسى باشا ، ص 188-196 ، 395-401 .

(3) الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، فوزي الهيب ، ص 317 .

(4) تاريخ الشعر العربي ، الكفراوي 108/4 .

(5) مثل : مصنف يحيى بن العطار المسمى (حوائج العطار في عقر الحمار) ، ومصنف زين الدين بن الخراط المسمى (سوط العذاب على شعر الدواب) ، ولابن حجة الحموي مصنف في هجاء ابن العطار وحده سماه (لزقة البيطار في عقر يحيى بن العطار) .

- ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً ، محمود الربدادي ، ص 165 ، 166 .

أَنزَرَهُ نَفْسِي عَنْ أَذَى الْقَوْلِ وَإِنِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَالسَّلَامِ أَجْنَحُ
وَأُغْضِي احتساباً إِن تَجَاهَلَ وَإِنِّي كَرِيمٌ قَدْ أَضُرُّ وَأَنْجِحُ
وَعَقْلِي وَدِينِي وَالْحَيَاءُ يَرُدُّنِي عَنِ الْجَهْلِ لَكِنِّي عَنِ الذَّنْبِ أَصْفَحُ

وفي مبحث الشعر الديني الآتي ما يؤكد صلة الشعراء القوية بربهم . وهي سمة اصطبع بها الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ فالنشأة الدينية في هذه البقعة المباركة قد عودت الشعراء على تفويض أمورهم إلى الله ، مؤمنين بأن الدواء الشافي لكل علة تحل بهم في اللجوء إلى العزيز الرحيم – جلّت قدرته – يقول عبدالرحمن الواحدي :

أَنْتَ الطَّبِيبُ لِعَلَّتِي وَالْمَرْهُمُ وَبَدَاءِ نَفْسِي أَنْتَ مِنِّي أَعْلَمُ
هَبْ لِي الشِّفَاءَ وَعَافِنِي يَا فَلَأَنْتَ لِي مِمَّنْ وَلَدْنِي أَرْحَمُ (2)

والشاعر في كل مكان وزمان يحن إلى أهله حين يغترب ، فيصدق بعواطفه ، معبراً عن ألم الفراق ، وقد يستبد به القلق ؛ فيذيع شكواه التي ربما استبان منها تمرده على المجتمع وقيمه ، بل إن من الشعراء من ينكفي على ذاته . ولكننا لا نجد ذلك لدى شعراء مكة والمدينة ؛ ذلك أن تلك البيئة الطاهرة قد استحوذت على أفئدة الشعراء ومنحتهم الأمل بالجوار الهنيء ، حتى باتوا لا يذكرون أهليهم في حنينهم إلا قليلاً ، ويبقى الحديث عن الشوق إلى تلك الأماكن الطاهرة هو المسيطر على عواطفهم ، نلقى ذلك في كثير من أشعارهم التي

(1) الضوء اللامع ، السخاوي 310/4 ، 311؛ السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة ، ابن حميد 590-588/2 . وقد ولد عبدالكريم بن عبدالرحمن بن أبي بكر بن عبدالله بن ظهيرة بزبيد سنة 835هـ ، وأكثر من الارتحال إلى القاهرة متتلماً على عدد من علمائها ، كما درس على علماء مكة حتى أذن له بالفتيا والتدريس فيها . توفي سنة 899هـ بمكة .

- انظر: المصدرين السابقين .

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 814/2 . والشاعر عبدالرحمن بن علي بن أبي بكر الواحدي مولود في مكة ، وفيها نشأ . ولم تذكر المصادر التي تحدثت عنه – حسب اطلاعي – سنة ولادته ، لكنها أشارت إلى أنه كان يتلقى العلم في مكة في سنة 788هـ ؛ حيث حضر بعض الدروس في الحديث . وقد أجاز له عدد من العلماء . وكان صالحاً ، كثير الصدقة والإحسان للفقراء ، ملازماً للعبادة .

- انظر ترجمته في : المصدر السابق 812/2-815 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي

رددوا فيها مواضع ومشاعر أخذت بمجامع قلوبهم ، كقول الشاعر علي بن أيوب (1) :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَ لَيْلَةً بُوَادِي مَنِ حَيْثُ الذُّنُوبُ تَزُولُ
وَهَلْ أَرَدَنَ مِنْ مَائِهَا الصَّافِي عَلَى صَخَرَاتِ الْفَضْلِ ثُمَّ يَسِيلُ
بِهَا مَسْجِدُ الْخَيْفِ الَّذِي شَاعَ لِحُجَّاجِ بَيْتِ اللَّهِ فِيهِ مَقِيلُ (2)

بل إن استحضار اليوم الآخر قد استحوز على تفكير كثير منهم في لحظات أنسه وأيام سعه ؛ فهذا الشاعر المدني عبدالعزيز المغربي (3) يزور دمشق فيجد فيها من جمال الطبيعة ومن النعيم ما تتوق له النفس ، لكنه لا يقف مبهوراً ، ولا يمضي لاهياً ، بل إنه في خضم متعته بأنهارها الجارية ومناظرها المبهجة قد تذكر قول الرسول ع: «حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات» (4) ، فأنشد :

(1) هو علي بن أيوب بن إبراهيم البرماوي ، ويعرف بابن الشيخة ؛ لكون أمه كانت شيخة رباط الظاهرية بمكة . ولد سنة 817هـ بمكة ، ونشأ بها . درس الفقه والحديث والعربية في مكة ، ثم درس على بعض علماء المدينة . ولي مشيخة المدرسة المعروفة بالزمامية بمكة ، وكان شجي الصوت ، حسن الهيئة ، يغلب عليه الهزل . توفي بمكة سنة 878هـ .

- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 1003/2-1005 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 195/5 ، 196 .

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1005/2 ، وكلمة (تزول) التي جاءت منها قافية البيت الأول ؛ في المصدر : نزول (بالنون) ، كما أن كلمة (مقيل) التي جاءت منها قافية البيت الثالث ؛ في المصدر : (تقيل) ، وقد رجعت إلى الأصل المخطوط (ورقة 150/ب) ؛ فألفيتهما كما أثبت .

(3) هو عبدالعزيز بن عبدالواحد بن محمد المغربي ، الأديب ، العالم ، شيخ القراء بالمدينة المنورة . برز في المدينة المنورة في أواخر العهد المملوكي وأوائل العهد العثماني ، وكان مهتماً بعلوم مختلفة ، كأصول الفقه ، والتفسير والمعاني والبيان والنحو والصرف والجدل والمنطق والحساب ، وله فيها منظومات عديدة ، منها : نظم جواهر السيوطي (في التفسير) ، تحفة الأحباب (في الصرف) ، الدر (همزية في المنطق) . وكان دمث الأخلاق ، كثير التواضع . توفي في المدينة المنورة سنة 964هـ .

- انظر ترجمته في : الكواكب السائرة ، الغزي 169/2 ، 170 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 496/10 ، 497 ؛ هدية العارفين ، البغدادي 584/1 ؛ المختار المصون من أعلام القرون ، محمد ابن حسن 784/2 ، 785 ؛ المدينة المنورة في العصر المملوكي ، المديرس ، ص 311 .

(4) صحيح مسلم 2174/4 .

قَالُوا دِمَشْقُ جَنَّةٍ زُخْرِفَتْ مِنْ كُلِّ مَا تَهْوَى نَفُوسُ الْبَشَرِ
أَمَا تَرَى الْأَنْهَارَ مِنْ تَحْتِهَا تَجْرِي فَقُلْتُ مُجَابِباً بَلْ سَقَرُ
لَأَنَّهَا حُقَّتْ بِمَا يُشْتَهَى فَهِيَ إِذَنْ نَارٌ كَمَا فِي الْخَبَرِ (1)

فنزعتة الإسلامية قد قادتة إلى التفكير بهذا النعيم ، وتذكر أن الدنيا جنة الكافر ، وأنها للمؤمن دار ممر إلى جنة عرضها كعرض السموات والأرض .

2- التأليف :

- 1 -

نشطت حركة التأليف في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين و"حركة التصنيف في العلوم الدينية - كالفقه بمذاهبه ، والحديث بمختلف دراساته متناً ومصطلحاً وشيوخاً وشرحاً ، وكتب التصوف ، والتفسير ، والقراءات ، وأصول الفقه - كانت أقوى من غيرها من العلوم ، ويأتي بعدها التصنيف في علوم العربية ، ككتب النحو والصرف والبلاغة ومتن اللغة وكتب الأدب والنقد" (2) ولم يكن حظ التاريخ من التأليف قليلاً ؛ إذ تعددت المؤلفات التاريخية وتنوعت ، فمنها كتب في التاريخ العام وأخرى في تاريخ الحجاز ، ومنها ما خصص لتراجم الأعلام في سائر الأقطار أو ما تناول أعلام الحجاز خاصة . "وفي الحجاز ندرت المؤلفات في العلوم العقلية ، ولم يهتم بها إلا القليل من أهله والمجاورين به" (3) .

ومن ينعم النظر في مصنفات العلماء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ يلحظ أن للشعراء في المدينتين نصيباً من التأليف ، بل إن منهم من أكثر من ذلك ، كالشاعر عبدالقادر بن أحمد الفاكهي الذي قال عنه العيدروس : "ومصنفاته كثيرة لا تنحصر ، ورأيت منها جملة عديدة في فنون شتى ، ولعمري إنه يشبه الجلال

(1) الكواكب السائرة ، الغزي 169/2 ، 170 . وعجز البيت الثاني غير مستقيم الوزن .

(2) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، خالد الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 442/2 .

(3) المرجع نفسه 571/2 .

السيوطي في كثرتها ؛ بحيث إنه يكتب على كل مسألة رسالة" (1).
وممن تعددت مؤلفاته أيضاً محمد بن يعقوب (النجم أبو المعالي) ، إذ
قال عنه السخاوي : "وله نظم ونثر و عدة مؤلفات كتبتها من إملائه" (2).

- 2 -

وأكثر المؤلفات في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر
الهجريين في الفقه "وكانت أهم الكتب التي ألفها علماء الحجاز
ومجاوروه تختص بكتب المناسك ؛ لأن كثيراً من الحجاج والمعتمرين
يحتاجون إلى تلك الكتب ، لتوضيح مناسك الحج وما ينبغي على الحاج
أن يفعله" (3) ، منها : إرشاد الناسك إلى معرفة المناسك على مذهب
الإمام الشافعي ومالك لمحمد بن أحمد الفاسي (4) ، والبحر العميق في

(1) النور السافر، ص465 . وقد ولد عبدالقادر بن أحمد بن علي الفاكهي بمكة في سنة
919هـ ، وقيل سنة 920هـ ، وكان عالماً بارعاً في فنون شتى من الحديث والفقه
والتفسير والأدب والتاريخ . وله مؤلفات كثيرة ، منها : نفحات العناية في شرح
الهداية ، عقود اللطائف في محاسن الطائف ، فتح المغلفات لأبيات السبع المعلقات ،
وله كتاب في فضل شيخه ابن حجر الهيتمي ، وحاشية على تفسير البيضاوي ،
وغيرهما . توفي بمكة سنة 989هـ.

- انظر ترجمته في : النور السافر ، العيدروس ، ص353 ، 354 ؛ الكواكب
السائرة ، الغزي 169/3 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 582/10 ؛ البدر الطالع ،
الشوكاني 360/1 ؛ هدية العارفين ، البغدادي 598/1 ؛ المختصر من نشر النور
والزهر ، أبو الخير ، ص272 ، 273 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 283/5 ؛ الأعلام ،
الزركلي 36/4 ؛ معالم الأدب العربي في العصر الحديث ، عمر فروخ 465/1-
469 ؛ التاريخ والمؤرخون بمكة ، الهيلة ، ص238-242 .

(2) التحفة اللطيفة 661/3 . وقد ولد محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن يعقوب -
المغربي الأصل ، المدني - بالمدينة المنورة سنة 851هـ ، وبها نشأ ، ودرس على
علمائها والقادمين إليها علوم الحديث والفقه والفرائض والحساب . ولي قضاء
المدينة ، ثم قضاء مكة ، ودرّس وأفتى وألف . توفي سنة 918هـ .

- انظر ترجمته في : غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 222/3 ؛ التحفة اللطيفة ،
السخاوي 661-659/3 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 137/8 .

(3) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، خالد الجابري (رسالة ماجستير
لم تنشر بعد) 474/2 .

(4) الدر الكمين ، عمر بن فهد 8/1 .

مناسك حج بيت الله العتيق لأبي البقاء محمد بن أحمد بن الضياء (1) . ولم يكن الأمر مقصوراً على ما يختص بالمناسك ؛ إذ كثرت المؤلفات في مسائل الفقه المختلفة ، مثل : القول الفاصل بين ما يكره ويستحب من النوافل لمحمد بن أحمد الخُجَندِي (2) ، وغيره من المؤلفات الفقهية .

ومن المؤلفات في الحديث : الترغيب والاجتهاد في الباعث لذوي الهمم العالية على الجهاد لعمر بن فهد (3) ، وشرح الأربعين النووية لإبراهيم الخُجَندِي (4) ، كما ألف تقي الدين بن فهد مؤلفات عديدة في علوم الحديث ، منها : الجنة بأذكار الكتاب والسنة ، والمنتهى من

(1) معجم الشيوخ ، عمر بن فهد ، ص214 . وأبو البقاء بن الضياء أحد شعراء مكة في القرن التاسع الهجري ، وهو بهاء الدين محمد بن أحمد القرشي العمري ، ويعرف بابن الضياء ، والضياء هو أحد أجداده (ضياء الدين أبو عبدالله) . ولد صاحب الترجمة في مكة المكرمة سنة 789هـ ، ونشأ فيها ، فحفظ القرآن الكريم وكثيراً من المتون ، ودرس على والده وعلى علماء مكة والوافدين إليها ، كما درس على بعض العلماء في القاهرة وبيت المقدس . تولى في مكة القضاء ونظر المسجد الحرام والحسبة ، وحدث ، ودرس في المسجد الحرام ، وأفتى ، وصنّف . ومن مصنفاته : تفسير القرآن الكريم ، تنزيه المسجد الحرام عن بدع جهلة العوام . مات في مكة سنة 854هـ .

- انظر ترجمته في : الدليل الشافي ، ابن تغري بردي 585/2 ، 586 ؛ الدر الكمين ، عمر بن فهد 54/1-60 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 84/7 ، 85 ؛ التبر المسبوك ، السخاوي ، ص334 ؛ نظم العقيان ، السيوطي ، ص137 ؛ البدر الطالع ، الشوكاني 120/2 ، 121 ؛ هدية العارفين ، البغدادي 197/2 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 15/9 ، 16 ؛ الأعلام ، الزركلي 332/5 ؛ التاريخ والمؤرخون بمكة ، الهيلة ، ص130-133 .

(2) هدية العارفين ، البغدادي 228/2 .

(3) الكواكب السائرة ، الغزي 239/1 .

(4) نظم العقيان ، السيوطي ، ص15 . وإبراهيم بن أحمد بن محمد الخُجَندِي مولود بالمدينة سنة 779هـ ، ونشأ بها ، فحفظ القرآن الكريم ، وأخذ عن أبيه وعن علماء المدينة الفقه والحديث والنحو ، وبرع في العربية والأدب ، وجمع لنفسه ديواناً ، وأنشأ عدة رسائل ، وصنّف . كان فكهاً ، لطيف المحاضرة ، ذا كرم ، توفي بالمدينة سنة 851هـ .

- انظر ترجمته في : درر العقود الفريدة ، المقرئ 163/1 ؛ التحفة اللطيفة ، السخاوي 105/1-107 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 24/1 ، 25 ؛ التبر المسبوك ، السخاوي ، ص188 ؛ نظم العقيان ، السيوطي ، ص15 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 9/1 .

الثقفيات ، وطرق الإصابة بما ورد في الصحابة (1) .
واهتم العلماء في مكة والمدينة بكتاب الله ؛ فصنفوا بعض الكتب
في القراءات ، ومن أولئك العلماء محمد بن عبدالقادر السكاكيني ، الذي
ذكر عمر بن فهد أنه "نظم بقية القراءات العشر مكملة للشاطبي على
طريقته ، جعلها كالتسميط بين أبيات الشاطبية حتى يغلب على سامعه
أنه نظم الشاطبي" (2) .

وظهرت مصنفات عديدة في تفسير القرآن الكريم ، مثل : التفسير
لأبي البقاء ابن الضياء (3) وفتح الحميد (في ستة أسفار) لعبدالمعطي بن
أحمد السخاوي (4) وغيرهما .

- 3 -

وتعددت المؤلفات في اللغة والنحو ؛ لتوافر العلماء الأجلاء
،كنجم الدين المرجاني (نحوي مكة) الذي يعد من مشاهير علماء اللغة
والنحو في الحجاز ، حيث برع في اللغة العربية بحيث لم يبق في
الحجاز من يدانيه فيها مع معرفة بالأدب والنظم والنثر (5) .
وليس الأمر مقصوراً على علماء مكة والمدينة ، بل إن للآثار
اللغوية والنحوية التي خلفها بعض المجاورين الأثر الكبير في تنشيط
الحركة العلمية في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين

(1) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، خالد الجابري (رسالة ماجستير لم
تنتشر بعد) 463/2 .

(2) الدر الكمين ، 161/1 ، 162 .

(3) نظم العقيان ، السيوطي ، ص 137 .

(4) نيل الابتهاج ، التنبكتي ، ص 287 .

(5) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، خالد الجابري (رسالة ماجستير
لم تنتشر بعد) 506/2 . والنجم المرجاني هو : محمد بن أبي بكر بن علي بن
يوسف الذروي الأصل ، المكي ، المعروف بالمرجاني . ولد سنة 760هـ بمكة ،
وبها نشأ ، وتلقى العلم على علمائها ، ورحل إلى دمشق والقاهرة واليمن ، فأجاز له
جمع من العلماء . حدّث قليلاً ، وتميز في الفقه ، ومهر في العربية ، حتى إنه يعد
نحوي مكة . وهو أحد شعرائها ، وعلمائها ؛ تولى التدريس والنظر في بعض
المدارس بمكة ، وكان ذا تأثير في متلقيه ، حسن العبارة في كتابته ؛ وذلك لقوة
معرفته بالعربية . وقد عرف عنه الحياء والتواضع والمروءة . توفي بمكة سنة
827هـ .

- انظر ترجمته في : العقد الثمين ، الفاسي 429/1-432 ؛ إنباء الغمر ، ابن
حجر 338/3 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 182/7 ، 183 ؛ شذرات الذهب ، ابن
العماد 264/9 .

"ومن مشاهير علماء اللغة المجاورين الذين كان لهم مشاركة فاعلة ، أثرت في تطور علوم اللغة وغيرها في الحجاز محمد بن يعقوب بن محمد ابن إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي"⁽¹⁾ صاحب القاموس المحيط الذي ذاع صيته . وقد ألف كتباً عديدة ، منها : كتاب البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، الذي ذكر السيوطي أنه رآه في مكة المكرمة حين مجاورته فيها ⁽²⁾ ، كما أن للفيروزآبادي رسالة في أسماء مكة⁽³⁾ .

وقد جمع كثير من علماء مكة والمدينة بين العلوم الدينية والعربية ، وذلك واضح في كثير من كتب التراجم ؛ فالسخاوي – مثلاً – تحدث عن معمر بن عبد القوي قائلاً : "انتفع به الطلبة في الفقه وأصوله ، والعربية ، وكذا أقرأ بالمدينة النبوية حين مجاورتيه بها... وكتب على القطر شرحاً بديعاً قرظه له غير واحد من المعتمدين ، وكنت ممن قرظه"⁽⁴⁾ .

وكان عبدالله بن أحمد الفاكهي "من أكابر العلماء ، مشاركاً في جميع العلوم ، له مصنفات مفيدة ، منها : شرح الأجرومية ، وشرح على متممها للحطاب ، أجاد فيهما كل الإجادة ، وشرح على قطر ابن هشام في غاية الحسن ، صنفه سنة ست عشرة وتسعمئة ، وكان عمره حينئذ ثمانين سنة ، واستنبط حدوداً للنحو ، وجمعها في نحو كراسة ، ثم شرحها أيضاً في كراريس ، ولم يسبق إلى مثل ذلك"⁽⁵⁾ .

ولحسن المرجاني شرح على منظومة والده (مساعد الطلاب في الكشف عن قواعد الإعراب) ذكر أنها "عبارة عن أربعين كلمة ، واشتملت على كلمات قواعد المغني لابن هشام ، ثم ألحق بها نظاماً على ردها ما لم يذكره والده من المغني ، وسماه تنمة كلمات المغني ، وشرح ذلك أيضاً"⁽⁶⁾ أما أبو زرعة المدني (أحمد بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر) فقد برع في العربية والعروض ، وله تأليف فيهما

(1) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، خالد الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 504/2 .

(2) بغية الوعاة 274/1 .

(3) العقد الثمين ، الفاسي 35/1 .

(4) الضوء اللامع 163/10 ، وانظر : الدر الكمين ، عمر بن فهد 1204/2 .

(5) المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 312 ، 313 .

(6) الدر الكمين ، عمر بن فهد 690/1 .

وفي غيرهما (1) .

- 4 -

ولمؤلفات بعض الأدباء في مكة والمدينة أثر في انتعاش الحياة الأدبية في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، مثل : كتاب كشف القناع في وصف الوداع (في الأدب) لمحمد بن حسن العليّيف (2) وكذلك ما أنتجه الأديب محمد بن عليّ العبدري الشيبّي (3) من مصنفات أثرت الحياة الأدبية ، منها : ظرف الظرفاء في أشعار الخلفاء (في عشر كراريس) وإزالة الشكوك في شعر الملوك (في ثمانى كراريس) ، ونور الأعيان في شعر العميان (في عشرين كراساً) ، وعلامة العنوان في شعر النسوان (في مجلد واحد) (4) .

ومن المؤلفات الأدبية أيضاً نثر البديع من الأدب في زهر المراثي والندب للشاعر المدني أحمد بن مسدد الكازروني (5) .

(1) التحفة اللطيفة ، السخاوي 237/1 .

(2) إيضاح المكنون ، البغدادي 364/2 . وقد ولد محمد بن حسن بن عيسى بن محمد العليّيف بمدينة حلي بن يعقوب سنة 742هـ ، وفي سن الشباب الباكر سار إلى مكة لطلب العلم ، فقرأ على عدد من العلماء فيها ، ثم برزت شاعريته ، ومدح أمراء مكة ، وكان له مدائح كثيرة في الشريف حسن بن عجلان ، وقد نال من الشريف حسن صلات جيدة ، حتى إنه انقطع إليه في آخر عمره نحو اثنتي عشرة سنة . توفي بمكة سنة 815هـ .

- انظر ترجمته في : العقد الثمين ، الفاسي 471/1 ، 472 ؛ البدر الطالع ، الشوكاني 157/2-159 ؛ هدية العارفين ، البغدادي 180/2 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 251/8 ؛ بليغ البطحاء الشاعر محمد بن حسن العليّيف ، محمد بن أحمد العقيلي (جريدة المدينة المنورة / ملحق الأربعاء : العدد 55 ، في 1404/6/5هـ) .

(3) هو محمد بن علي بن محمد بن أبي بكر القرشي العبدري الشيبّي . ولد بمكة سنة 779هـ ، ونشأ بها ، وسمع من علمائها ، كما أخذ عن مشايخ ذلك الوقت بمصر والشام ، وارتحل إلى شيراز وبغداد واليمن ، واشتغل في فنون عديدة ، لكنه اهتم بالأدب وألف فيه كثيراً . ولي سدانة الكعبة ثم قضاء مكة ونظر الحرم . وكان لطيف المحاضرة والمحادثة ، لا تمل مجالسته . توفي بمكة سنة 837هـ .

- انظر ترجمته في : إنباء الغمر ، ابن حجر 530/3 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 13/9 ، 14 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 325/9 ؛ البدر الطالع ، الشوكاني 214/2 .

(4) أنظر : الدر الكمين ، عمر بن فهد 218/1 ، 219 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 13/1 .

(5) التحفة اللطيفة ، السخاوي 268/1 . وقد ولد أحمد بن مسدد بن محمد بن عبدالعزيز الكازروني في المدينة سنة 757 أو 758هـ ، ونشأ بها ؛ حيث حفظ القرآن الكريم

وحرصوا على تسجيل ما قيل من نظم ونثر في الحوادث المثيرة للمجتمع آنذاك ، من ذلك ما قام به محمد بن إبراهيم الخندي من جمع لما قيل في سرقة قناديل المدينة في سنة 860هـ (نظماً ونثراً) حيث سمي هذا المجموع (عجائب القرن فيمن تهجم على قناديل الحجرة)⁽¹⁾ . وممن شارك في الأدب يحيى بن عمر بن فهد ، إذ كان "خبيراً بالشعر ، له فيه ذوق حسن بحيث انتخب من دواوينه شيئاً كثيراً وجمع مجاميع في ذلك ، بل جمع فوائد كثيرة من النكت والغرائب واختصر الأمثال للميداني"⁽²⁾ .

- 5 -

ولم يكن حظ المؤلفات التاريخية – في القرنين التاسع والعاشر الهجريين – في مكة والمدينة قليلاً ، كما أن الاهتمام بكتب التراجم كان واضحاً . "ويعد القرنان التاسع والعاشر الهجريان من أثرى القرون إنتاجاً فيما كتبه أبناء مكة وعلماؤها من تاريخ البلد الأمين . وكان من أشهر أعلام المؤرخين المكيين خلال هذين القرنين خمسة من كبارهم بفضل ما تركوه من مؤلفات وآثار علمية عظيمة ، وهم : التقي الفاسي ، النجم بن فهد ، العز بن فهد ، جار الله بن فهد ، القطب النهروالي"⁽³⁾ "ويعد تقي الدين الفاسي من أغزر المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ مكة إنتاجاً ، وأقومهم منهجاً ، وأوسعهم علماً . وقد استفاد جميع من أتى بعده من مؤرخي مكة من كتبه أمثال : النجم بن فهد ، وابن ظهيرة ،

=

ودرس على بعض العلماء في المدينة الفقه والحديث وغيرهما . له مؤلفات منها : الحقائق الغوالي في قبا والعوالي ، ورود النعم وصدور النقم ، وغيرهما . كان حياً سنة 887هـ .

- انظر ترجمته في : التحفة اللطيفة ، السخاوي 267/1-269 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 225/2 ، 226 ؛ الأعلام ، الزركلي 257/1 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 175/2 .

(1) التحفة اللطيفة، السخاوي 451/3 . ومحمد بن إبراهيم بن أحمد بن محمد الخندي أحد شعراء المدينة في القرن التاسع الهجري . وقد ولد فيها سنة 810هـ ، ونشأ ، فحفظ القرآن الكريم ، وبعض المتون ، وسمع من علمائها ، ومن بعض علماء مصر والشام . ولي إمامة المقام الحنفي بالمدينة . توفي فيها سنة 870هـ .
- انظر ترجمته في : التحفة اللطيفة ، السخاوي 450/3-452 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 245/6 ، 246 .

(2) الضوء اللامع ، السخاوي 239/10 .

(3) نيل المنى ، جار الله بن فهد 1/1 (مقدمة التحقيق).

والنهروالي ، كما استفاد منه ونقل عنه ابن حجر والسخاوي⁽¹⁾ .
ومن آثار الفاسي : تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام⁽²⁾ ، وشفاء
الغرام بأخبار البلد الحرام في جزأين⁽³⁾ ، والعقد الثمين في تاريخ البلد
الأمين (في ثمانية أجزاء)⁽⁴⁾ .

ولآل فهد جهود وافرة في كتابة تاريخ مكة المكرمة وتاريخ
رجالها والوافدين إليها⁽⁵⁾ . ومن الآثار التاريخية التي خلفوها : إتحاف
الورى بأخبار أم القرى ، والدر الكمين بذييل العقد الثمين في تاريخ
البلد الأمين ، وهما لنجم الدين بن فهد ، كما ألف ابنه عبدالعزيز في هذه
السبيل مؤلفات عديدة منها : نزهة ذوي الأحكام بأخبار الخطباء والأئمة
وقضاة بلد الله الحرام ، وغاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ،
ولجار الله بن عبدالعزيز بن فهد كتاب نيل المنى بذييل بلوغ القرى
لتكملة إتحاف الورى ، والتحفة اللطيفة في بناء المسجد الحرام والكعبة
الشريفة .

ومن مؤلفات قطب الدين النهروالي⁽⁶⁾ في التاريخ : الإعلام
بأعلام بيت الله الحرام ، وتاريخ كُتبه لمكة المكرمة ذكر الغزي أنه
وقف عليه⁽⁷⁾ .

وقد اشتدت عناية العلماء بالكتابة في تاريخ المدينة سواء من
أهلها أو ممن حلّ بها خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين . ويعد
علي السمهودي أبرز من تحدث عن تاريخ المدينة ؛ حيث "صرف همه
وحصره في تدوين كل ما يتعلق بالمدينة من تأريخها ، وإيضاح
مواضعها الأثرية ، ووصفها ، وتحديد معالمها ؛ فأتى من جميع ذلك بما

(1) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، خالد الجابري (رسالة ماجستير
لم تنشر بعد) 545/2 .

(2) انظر : تقي الدين الفاسي مؤرخ مكة في القرن التاسع الهجري ، حمد الجاسر (مجلة
المنهل : س8 ، مج8 ، ج1 ، محرم 1367هـ) .

(3) انظر : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، الفاسي 1/ط ، ي .

(4) انظر : المصدر نفسه 1/ط ، ي .

(5) انظر : بنو فهد مؤرخو مكة المكرمة ، ناصر الرشيد (مجلة العرب : س11 ، ج11
، 12 ، جماديان 1397هـ) .

(6) انظر : قطب الدين النهروالي مؤرخ مكة ، حمد الجاسر (مجلة العرب : س1 ، ج7 ،
محرم 1387هـ ؛ ج8 ، صفر 1387هـ ؛ ج9 ، ربيع الأول 1387هـ ؛ ج11 ، جمادى
الأولى 1387هـ) .

(7) الكواكب السائرة 45/3 .

لم يأت به غيره ، وجمع منه ما لم يتيسر لأحد جمعه" (1) .
ومن أهم مؤلفاته : وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى (في ثلاثة مجلدات) ، وهو مختصر كتاب اقتضاء الوفاء بأخبار دار المصطفى .
وقد كانت مسودة هذا الكتاب مع المؤلف حينما احترق المسجد النبوي وهو في مكة ؛ ولذلك سلم من الحريق . وقد أضاف إليه أموراً لا توجد في أصله (2) .

ولشمس الدين السخاوي التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (في ثلاثة مجلدات) ، تعد ثلثي الكتاب "وبقي الثلث الثالث لم يعرف خبر نسخة منه" (3) .

والكتاب تراجع لعلماء المدينة المنورة منذ عهد الرسول ع إلى زمن المؤلف (ت 902هـ) . وللسخاوي كتاب كبير في التراجع لأهل القرن التاسع سماه : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (في اثني عشر جزءاً) شملت أقطاراً عديدة .

ومن المؤلفات عن المدينة في القرن العاشر كتاب تاريخ المدينة لعبدالمعطي بن أحمد السخاوي المدني (4) ، وعمدة الأخبار في مدينة المختار لأحمد بن عبد الحميد العباسي .

- 6 -

ولم تحظ العلوم العقلية بمكة والمدينة بنشاط يذكر إلا قليلاً ؛ ولذلك قلت المؤلفات فيها . وممن برع في الرياضيات والفرائض وألف فيهما علي بن محمد الزمزمي ؛ حيث ألف في الحساب ثلاث منظومات هي : تحفة الطلاب ، وفتح الوهاب ، وكنز الطلاب (5) . وله في الفرائض : المشرع الفائض في الفرائض (في أكثر من ألف بيت) (6) . كما أن أبا الفتح بن إسماعيل الزمزمي قد كتب شرحاً على الدرر اللوامع في الفلك لعمه إبراهيم بن علي الزمزمي (7) . ومن المؤلفات

(1) السمهودي أشهر مؤرخي المدينة ، حمد الجاسر (مجلة العرب : س7 ، ج3 ، رمضان 1392هـ) .

(2) المصدر نفسه .

(3) التحفة اللطيفة 723/3 .

(4) ذكره التنبكتي في نيل الابتهاج ، ص287 .

(5) هدية العارفين ، البغدادي 737/1 .

(6) الضوء اللامع ، السخاوي 292/5 .

(7) المصدر نفسه 123/11 .

أيضاً : نزهة الألباب في الحساب لعبدالعزیز المغربي (1) .
ولم تسعفنا المصادر بمزيد من المؤلفات في العلوم العقلية ، بل
غاية ما نجده فيها إرشادات إلى أن هذا العالم أو ذاك قد عمل في هذا
العلم أو اهتم به على نحو قول ابن حجر عن الشيخ أحمد بن عبدالرحمن
المطري : "وكان ينسب إلى معاناة الكيمياء" (2) .

- 7 -

وهذه المؤلفات المختلفة نتاج طبعي لتلك الحركة العلمية النشطة
التي سادت بيئة مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .
وقد أفاد الشعراء من ذلك الجو العلمي ؛ حيث كانوا يتلقفون ما ينتجه
علماء عصرهم ويتابعون ما يجد من ألوان الفكر والأدب . وقد حرص
كثير من المؤرخين على إيراد نماذج شعرية كثيرة في مؤلفاتهم
التاريخية ، سواء كتب التراجم أم كتب الحوادث ؛ مما أدى إلى إذاعة
لما أنشأه الشعراء ، وانتعاش للحركة الأدبية . والتأليف شجع الأدباء
على تقديم أشعارهم إلى المؤلفين ، وحفظ أشعاراً كثيرة ما كان لها أن
تصل إلينا ؛ ذلك أننا قلّ أن نجد ديواناً لشاعر من شعراء مكة والمدينة
في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، ولكننا نجد شعراً مفرقاً في
مؤلفات متنوعة في مادتها ومنهجها . هذه المؤلفات انتشرت بين طلاب
العلم وكثير من فئات المجتمع آنذاك ؛ فكانت سبيلاً للتعريف ببعض
الشعراء ، وتقريب الشعر إلى متناول القراء ، فضلاً عن أنها أمدت
الشعراء بعلوم مختلفة وظفوها في أشعارهم ، فبدت متنوعة المضامين
، مختلفة الأساليب ، موافقة لذوق العصر . وكثرة المؤلفات في العلوم
الدينية ذات أثر في نتاج الشعراء ؛ حيث شكلت أفكارهم ، حتى إن من
الشعراء من أكثر من الشعر الديني ، كما أن بعض أشعارهم لم تخل من
أفكار صوفية ، وربما كان ذلك من تأثير المؤلفات التي لم يخل بعضها
من الفكر الصوفي . وسيتضح ذلك في الحديث عن الشعر الديني ،
وخاصة المدائح النبوية وما فيها من غلو جاوز الحد المشروع .

3 - المدارس والأربطة والمكتبات :

أ - المدارس :

(1) الكواكب السائرة ، الغزي 169/2 .

(2) إنباء الغمر 204/3 .

كان الرسول ع يعلم أوائل المسلمين تعاليم دينه الحنيف في دار الأرقم بن أبي الأرقم . وقد كانت تلك الدار أول مدرسة في تاريخ الإسلام ، وظلت مكة والمدينة مركزين مهمين من مراكز العلم في الدولة الإسلامية (1) .

ولقد تأخر إنشاء المدارس بطابعها النظامي في الحرمين الشريفين إلى بداية القرن السادس الهجري ؛ حيث بدأت المدارس تظهر وتزداد . وتسابق السلاطين والأمراء والمقتدرون من العلماء وغيرهم في إنشاء المدارس ؛ فتعددت وزادت العناية بها (2) .

ومن المدارس التي كانت قائمة في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين مدرسة الزنجيلي التي أسسها الأمير عثمان بن علي الزنجيلي . وهي عند باب العمرة ، أوقفها لأتباع المذهب الحنفي . وقد ذكر عمر بن فهد أنها تعرف في القرن التاسع بدار السلسلة ، كما أنها أصبحت آنذاك بأيدي بعض الأشراف من أولاد أمراء مكة (3) .

وكان لأسرة الصاغانى الحنفية نصيب كبير في تولي التدريس بهذه المدرسة ، ومنهم : أحمد بن محمد الصاغانى (4) الذي توارث أبناؤه وأحفاده التدريس في هذه المدرسة ، ثم نقلوا دروسهم إلى المسجد الحرام . وتعد هذه المدرسة من المدارس التي أدت وظيفتها العلمية لمدة طويلة تقترب من ثلاثة قرون (5) .

ومن المدارس في مكة المدرسة التي عمرها الملك المنصور عمر بن علي بن رسول ، الواقعة بالجانب الغربي من المسجد الحرام ، حيث أوقفها على الفقهاء الشافعية (6) . قال عبدالعزيز بن فهد : "وقد

-
- (1) التعليم في مكة المكرمة ، عبدالرحمن صالح ، ص 36 ، 37 .
 - (2) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، خالد الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 366/2 ، 367 .
 - (3) إتحاف الوري 549/2 . وانظر : الدارس في تاريخ المدارس ، النعيمي 526/1 .
 - (4) يعرف بابن الضياء ، وهو والد الشاعر أبي البقاء بن الضياء (انظر: المنهل الصافي ، ابن تغري بردي 179/2 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 179/2) .
 - (5) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، خالد الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 372/2 . وقد أشار المؤلف في ص 371 إلى أنها أسست في سنة 579هـ .
 - (6) إتحاف الوري ، عمر بن فهد 60/3 .

استأجرها القاضي بدر الدين محمد كاتب السر وابن كاتبه المقر الزيني أبي بكر بن مَزْهر المصري في أوائل القرن العاشر ، وعمرها قاعة ومرافق وحوشاً ، وأضاف إليها غيرها ، وجعل لها باباً من المسجد وباباً من خارج المسجد⁽¹⁾ . وكانت هذه المدرسة سكناً للرحالة ابن بطوطة إبان إقامته في مكة . وقد درّس بهذه المدرسة عدد من العلماء في القرن التاسع ، منهم عبدالرحمن ابن علي بن خلف الذي درّس بها في سنة 803 هـ ، ومحمد النجم الأنصاري الذروي ، ومحمد المرجاني ، وعلي بن محمد بن أحمد النويري ، ومحمد ابن أبي بكر بن علي بن يوسف الأنصاري الذي درس الحديث والفقه معاً بهذه المدرسة ، كما تولى الإعادة بهذه المدرسة العالم الشاعر علي بن أحمد بن سلامة السلمي الذي تصدى لإقراء القراءات والفقه وغيرهما بمكة . وقد أدت هذه المدرسة عملاً جليلاً من خلال تدريس العلوم الشرعية ، خاصة الفقه والحديث . وكان لأسرة النويري النصيب الأكبر في التدريس فيها⁽²⁾ .

أما مدرسة غياث الدين أبي المظفر أعظم شاه بن إسكندر شاه ، فقد ابتدأ التدريس فيها في سنة 814 هـ . وكان السلطان قد بعث خادمه ياقوت الحبشي في سنة 813 هـ بأموال كثيرة إلى مكة ؛ لتوزيعها على أهل مكة ، ولعمارة مدرسة بمكة وشراء أوقاف لها ، كما بعث هدية إلى الشريف حسن بن عجلان وكتاباً يرجوه فيه أن يعين مخدومه على عمارة المدرسة . وقد أقيمت في الجانب اليماني من المسجد الحرام ، وقرر فيها أربعة من المدرسين هم قضاة مكة الأربعة يومئذ ، وستين نفرًا من المتفقهين (عشرين من الشافعية ، وعشرين من الحنفية ، وعشرة من المالكية ، وعشرة من الحنابلة) . ولم يكن التدريس في هذه المدرسة للمذاهب الأربعة في وقت واحد⁽³⁾ .

وممن درّس في هذه المدرسة عبدالقادر بن أبي القاسم بن أبي العباس الأنصاري الخزرجي المكي الذي أفاد الطلاب في الفقه واللغة

(1) غاية المرام ، 605/1 ، 606 .

(2) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، خالد الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 378/2 .

(3) انظر : شفاء الغرام ، الفاسي 328/1 ، 329 ؛ إتحاف الوری ، عمر بن فهد 481/3 .

العربية ، وعبدالقادر بن أبي الفتح الحسن الفاسي الذي درّس الفقه
والعربية والمعاني والبيان (1) . وقد هدمت هذه المدرسة في سنة 894هـ
(2) .

وأسهم السلطان شهاب الدين أبو المغازي أحمد شاه في بناء
المدارس في مكة ؛ حيث بعث مالا جزيلاً ، ليعمر له مدارس في مكة
والمدينة ، وكلف من يقوم بذلك ، فاشترى له من الشريف بركات داره
التي على باب الصفا (3) ، وعمرت في مكانها المدرسة التي اكتمل
بناؤها في سنة 832هـ (4) . وتولى الشيخ عبدالواحد المرشدي أمر
المدرسة ، فقرر فيها أربعين طالباً من أي مذهب كان ، وتدرّس أي فن
أراد من تفسير وفقه ونحو وغير ذلك (5) . وقد آل أمر المدرسة في
القرن العاشر إلى الشيخ محمد بن أحمد النهروالي (6) .

وأنشأ القاضي عبدالباسط بن خليل في مكة مدرسة اكتمل بناؤها
في سنة 836هـ ، وهي ملاصقة للحرم من الناحية الشمالية حيث الباب
الذي يعرف بباب العجلة (7) . ولم تقدم المصادر معلومات محددة عن
نظام المدرسة ، وما يرد في هذا الإطار لا يتجاوز ذكر من تولوا
مشيختها . ويتضح من خلال تاريخ من تولوا هذه المشيخة أنها كانت
في بادئ الأمر بيد الشافعية ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى أئمة المقام الحنفي
(8) .

وللأشرف قايتباي مدرسة أمر ببنائها في سنة 882هـ واكتمل
البناء بعد عام واحد . وكانت هذه المدرسة مقابل مقام إبراهيم ، قرر بها

(1) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، خالد الجابري (رسالة ماجستير لم
تنتشر بعد) 39/2 .

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 558/2 .

(3) إتحاف الوری ، عمر بن فهد 643/3 .

(4) المصدر نفسه 45/4 .

(5) المصدر نفسه 25/4 ، 26 .

(6) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، النهروالي ، ص 350 .

(7) انظر : عمارة المدرسة في مصر والحجاز في القرن التاسع الهجري ، عدنان
الحارثي 180-171/1 . وباب العجلة أحد أبواب المسجد الحرام بجوار دار تسمى
العجلة . وقد عرف هذا الباب بعد ذلك بباب الباسطية؛ لاتصاله بمدرسة عبدالباسط .
(أخبار مكة ، الأزرق 93/2) .

(8) عمارة المدرسة في مصر والحجاز ، الحارثي 176/1 ، 177 .

أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة ، وأربعين طالباً (1) .
ومن أشهر المدارس التي أنشئت في مكة في القرن العاشر
الهجري المدارس السليمانية التي أنشأها السلطان سليمان خان ، وهي
أربع مدارس : شافعية وحنفية ومالكية وحنبلية ، لكن حينما لم يكن في
زمن بنائها حنبلي متأهل للتدريس جعلت داراً للحديث ، فصار يقرأ فيها
الصحيح الستة . وكان ابتداء العمارة في سنة 972 هـ ، وما كملت
عمارة هذه المدارس إلا في زمن السلطان سليم بن سليمان خان (2) . وقد
بنيت هذه المدارس في الجانب الجنوبي من المسجد الحرام المتصل من
ركن المسجد الشريف إلى باب الزيادة (3) . وقد أشار محمد النهروالي
إلى أنه درّس فيها (4) .

وكان حظ المدينة من المدارس في القرنين التاسع والعاشر
الهجريين وافراً . ومن أبرز المدارس التي قامت فيها المدرسة الشهابية
التي أنشأها الملك المظفر شهاب الدين غازي في النصف الأول من
القرن السابع الهجري ، وأوقفها على المذاهب الأربعة (5) . وظلت هذه
المدرسة قائمة في القرن التاسع الهجري ؛ فقد ذكر السخاوي في ترجمة
رشيد بن عبدالله الفهدي (أحد الفراشين في الحرم النبوي) أنه سمع على
العز بن جماعة جزءاً قرأه عليه الشرف أبو الفتح المراغي في سنة
812 هـ بمبرك الناقة النبوية من دار أبي أيوب الأنصاري المعروفة
بالمدرسة الشهابية (6) .

ومن أشهر المدارس في المدينة في القرنين التاسع والعاشر
الهجريين المدرسة الجوبانية التي أنشأها جوبان تداون في سنة 724 هـ
في الناحية القبليّة من الحصن الضيق عند باب الرحمة ، وهي ملاصقة

(1) انظر : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، النهروالي ، ص 243 ، 244 ؛ سمط النجوم ،
العصامي 44/4 ؛ منائح الكرم ، السنجاري 81/3-84 ؛ الحياة العلمية في الحجاز
خلال العصر المملوكي ، خالد الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 402/2 ،
403 .

(2) الأراج المسكي في التاريخ المكي ، على الطبري ، ص 80 . وقد تولى السلطان سليم
بعد وفاة والده (سنة 974 هـ) .

(3) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، النهروالي ، ص 350 .

(4) المصدر نفسه ، ص 352 .

(5) المدينة المنورة في العصر المملوكي ، عبدالرحمن المديرس ، ص 250 .

(6) الضوء اللامع 225/3 ، 226 .

لجدار المسجد النبوي⁽¹⁾ .

وقد هدمت هذه المدرسة وحل محلها مدرسة السلطان الأشرف قايتباي⁽²⁾ ، التي بدأ العمل في بنائها في سنة 887هـ واكتمل في سنة 888هـ⁽³⁾ . ومدرسة السلطان قايتباي قائمة في مواجهة المدرسة الباسطية التي أقامها القاضي عبدالباسط بن خليل (صاحب المدرسة الباسطية بمكة) في سنة 840هـ . وقد تولى الشيخ علي بن إبراهيم الشيرازي مشيخة هذه المدرسة ، فعني بتعليم الطلاب القراءة والخط العربي وبعض العلوم الأخرى⁽⁴⁾ .

ومن المدارس التي أدت رسالتها العلمية في المدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين مدرسة ابن مزهر التي أنشأها أبو بكر بن مزهر في سنة 893هـ في جهة باب الرحمة⁽⁵⁾ . وقد ذكر السخاوي أنه نزل بهذه المدرسة سنة 902هـ⁽⁶⁾ .

وهناك مدارس عديدة سواء في مكة أو المدينة أشارت إليها المصادر⁽⁷⁾ وهي في الغالب متشابهة في الموضوعات التي تدرس بها ، وفي النظام القائم في كل منها .

ب - الأربطة :

حفلت المدينتان المقدستان بالعديد من الأربطة التي كانت مأوى لكثير من القادمين إليهما علماء ، أو متعلمين ، أو متعبدين . ولم يكن السكن في الأربطة مقصوراً على الفقراء والمساكين ؛ إذ إن المتابع للمصادر يلحظ أنها تؤوي فئات مختلفة من ذلك المجتمع المسلم "ومنهم

(1) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 405/2 .

(2) وفاء الوفاء ، السمهودي 643/2 .

(3) التعليم في المدينة المنورة ، ناجي الأنصاري ، ص 290 ، 291 .

(4) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 406/2 .

(5) المرجع نفسه 411/2 .

(6) هكذا ورد في التحفة اللطيفة 64/1 ، والمعروف أن السخاوي متوفى في الثامن والعشرين من شهر شعبان سنة 902هـ .

(7) انظر : شفاء الغرام ، الفاسي 328/1-330؛ التحفة اللطيفة ، السخاوي 64/1؛ الأرج المسكي ، الطبري ، ص 80 ، 81؛ تاريخ التعليم في مكة ، عبدالرحمن صالح ، ص 60-77؛ التعليم في المدينة المنورة ، الأنصاري ، ص 290-292؛ المدينة المنورة في العصر المملوكي ، المديرس ، ص 250 .

العلماء . وكان وقف الكتب على الأربطة حافزاً قوياً للعلماء للنزول في الأربطة ؛ فقد وجدت في بعض الأربطة... مكتبات يرتادها طلاب العلم والعلماء للبحث والمناقشة [ومن هؤلاء وأولئك عدد من شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين] ، وكان العلماء النازلون في هذه الأربطة يقومون بعقد حلقات علمية ؛ فيلقون الدروس ، ويمنحون الإجازات العلمية ، ويفتخرون في المسائل ، ويقومون بالتصنيف والتأليف" (1) .

وكان لاهتمام السلاطين والأمراء والعلماء والأثرياء الأثر الكبير في كثرة الأربطة في مكة والمدينة . وقد حرص أولئك المحسنون على إنشائها بجوار الحرمين الشريفين (2) ، فكان لذلك أثره في توافر الجو المريح للمقيمين في تلك الأربطة .

وكان لكل رباط شيخ يدير شؤونه ، وهو أحد المجاورين المقيمين في الرباط (3) ، كما أن هناك شيخاً يتولى النظر في الأربطة كلها ويتفقدتها . أما الإدارة العليا للأربطة فبيد قاضي الحرمين الشريفين الذي كان من ضمن اختصاصه نظر المسجد والأوقاف والربط (4) .

ومن الأربطة التي كان لها أثر في إثراء الحركة العلمية في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين : رباط السدرة الواقع بالجانب الشرقي من المسجد الحرام على يسار الداخل إلى المسجد الحرام من باب بني شيبه (5) . وهو أحد الأربطة التي كان لها دور فعال في رفع المستوى العلمي بمكة المكرمة (6) ؛ حيث إنه من الأربطة

(1) الرباط في مكة المكرمة منذ البدايات حتى نهاية العصر المملوكي ، حسين شافعي (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ، ص 291 .

(2) هناك أربطة لم تكن قريبة جداً من المسجدين الشريفين ؛ لكنها قليلة ، كرباط الظاهرية - مثلاً - الواقع في أسفل مكة كما ذكر السخاوي (في الضوء 77/12) في أثناء ترجمته لمنشئة الرباط عائشة الظاهرية .

(3) المجاورون في مكة والمدينة في العصر المملوكي ، منى المشاري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ، ص 83 .

(4) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 417/2 .

(5) شفاء الغرام ، الفاسي 330/1 .

(6) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 420/2 .

التي كانت تعقد فيها الحلقات العلمية ويسكنه كبار العلماء (1) ، بل إن من شعراء مكة و علمائها من تولى نظارته ، كالشاعر محمد بن أحمد بن الضياء (أبي البقاء) (2) .

ومنها : رباط العباس الواقع بين الصفا والمروة مقابل باب العباس ط وكانت مشيخته لبعض علماء وشعراء مكة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ فقد تولى محمد بن أحمد بن الضياء (أبو البقاء) النظر على هذا الرباط ستة عشر عاماً (827-843هـ) (3) ، كما تولى نظارة هذا الرباط وأوقفه الشاعران العالمان محمد ابن إبراهيم بن ظهيرة (جمال الدين أبو السعود) (4) وعبد العزيز بن عمر بن فهد (5) وغيرهما من علماء مكة (6) ، وهناك أربطة عديدة كانت قائمة

- (1) الرباط في مكة المكرمة ، حسين شافعي (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ، ص 291 .
- (2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 57/1 .
- (3) المصدر نفسه 57/1 .
- (4) هو محمد بن إبراهيم بن علي بن ظهيرة القرشي . ولد بمكة سنة 859هـ ، ونشأ بها ، حيث درس على والده (عالم الحجاز) ، وعلى عدد من علماء عصره المكيين والقادمين إلى بلده الحديث والفقه والتفسير والنحو والمعاني والبيان . تولى مشيخة المدرسة الجمالية الیوسفية وغيرها بمكة ، وتصدى لتدريس الفقه والحديث والعربية والمعاني والبيان بالمسجد الحرام وغيره ، كما تولى قضاء مكة بعد أبيه ، واستمر في ذلك حتى قبض عليه الشريف بركات بن محمد ؛ لزعمه أنه السبب في الفتنة بينه وبين أخيه أحمد (جازان) ، فأمر بتغريقه في البحر ، فمات - رحمه الله - في ذي الحجة سنة 907هـ .
- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 80/1 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 271-264/6 ؛ البدر الطالع ، الشوكاني 80/2 ؛ المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 162 .
- (5) هو العالم المؤرخ عز الدين عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن فهد . ولد بمكة سنة 850هـ ، وفيها نشأ ، إذ تتلمذ على والده وجده وجماعة من علماء مكة والمدينة والقادمين إليهما ، وسمع من عدد من العلماء في مصر والشام علوماً كثيرة ، كالفقه والحديث والتفسير والنحو ، وبرع في الحديث وتميز فيه بالحجاز بعد والده ، ودرّس الفقه والنحو وغيرهما . له نظم قليل ، ومؤلفات عديدة ، منها : ترتيب طبقات القراء للذهبي ، نزهة ذوي الأحكام بأخبار الخطباء والأئمة وقضاة البلد الحرام ، وغيرهما . توفي بمكة سنة 922هـ .
- انظر ترجمته في : الضوء اللامع ، السخاوي 226-224/4 ؛ الكواكب السائرة ، الغزي 238/1 ، 239 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 146-144/10 ؛ غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد ، 13-7/1 (مقدمة المحقق) .
- (6) انظر : الرباط في مكة المكرمة ، حسين شافعي (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ، ص 140-142 .

في مكة (1) .

ومن الأربطة بالمدينة : رباط دكالة ، ويقال له : رباط المغاربة (2) . وكان سكناً لبعض طلبة العلم والصالحين والصوفية (3) .

ومن الأربطة التي سكنها بعض طلبة العلم في المدينة : رباط الأصفهاني ، ورباط الشيرازي ، ورباط التستري ، ورباط السبيل ، وغيرها من الأربطة (4) . وهي مأوى لمن جاءوا لطلب العلم وأعرضوا عن الدنيا من أجله ؛ لذلك لم تكن مقراً لمبيتهم فحسب ، بل ملتقى للساكنين ، ولمن يأتي إليهم ؛ يتدارسون فيه ، ويتباحثون في العلم ومسائله .

ومن الأربطة ما أوقف على الصوفية ، كرباط رامشت (5) في مكة الذي قام الشريف حسن بن عجلان بعمارته في سنة 818هـ إثر الحريق الذي أصابه (6) ، والرباط الواقع عند باب المسجد الحرام المعروف بباب الجنائز ، ويعرف هذا الرباط في القرنين التاسع والعاشر الهجريين برباط القيلاني . وهو موقوف على الصوفية الواصلين إلى مكة ، المقيمين والمجتازين من العرب والعجم (7) ، وكذلك رباط الخاتون الذي كان يعرف في القرنين التاسع والعاشر الهجريين برباط ابن محمود ، وهو وقف على الصوفية الرجال الصالحين من العرب والعجم (8) .

ومن الأربطة التي أقام بها الصوفية في المدينة رباط الفاضل ، ورباط المراغة الذي أوقف على فقراء الصوفية ، وغيرهما (9) . وفي تعداد الأربطة في مكة والمدينة خروج عن الهدف من هذه

(1) انظر : شفاء الغرام ، الفاسي 330/1-336؛ الأرج المسكي ، علي الطبري ، ص75-78 .

(2) التحفة اللطيفة ، السخاوي 65/1 .

(3) المدينة المنورة في العصر المملوكي ، عبدالرحمن المديرس ، ص146 .

(4) ذكرها السخاوي في التحفة اللطيفة 65/1 .

(5) هو الشيخ أبو القاسم ، واسمه إبراهيم بن الحسين الفارسي ، من أعيان التجار العجم ، توفي سنة 534هـ .

- شفاء الغرام ، الفاسي 332/1؛ العقد الثمين ، الفاسي 385/4 ، 386 .

(6) شفاء الغرام ، الفاسي 332/1 .

(7) المصدر السابق 331/1 .

(8) المصدر نفسه 331/1 .

(9) انظر : المدينة المنورة في العصر المملوكي ، المديرس ، ص146 ، 147 .

الدراسة ؛ فقد كثرت حتى إننا لا نكاد نجد مدرسة إلا وثمة رباط موقوف عليها . وكانت تلك الأربطة مأوى لأجناس وطبقات مختلفة من المجتمع ؛ فمنها ما وقف على الصوفية – كما سبقت الإشارة إليه – ومنها ما وقف على أتباع مذهب من المذاهب ، ومنها ما وقف على القادمين من قطر معين ، ومنها ما وقف على كافة المسلمين من كل الأجناس ، وبعضها موقوف على الرجال وبعضها على النساء (1) .

والجنسيات المتعددة للساكين ذات أثر في تلاحق الثقافات المختلفة ؛ حيث يأخذ بعضهم من بعض ، وينشرون علومهم في مكة والمدينة ، سواء في الأربطة أم في حلقات العلم في الحرمين ، فيفيد منها طلبة العلم والعلماء في مكة والمدينة .

وقد عاش شعراء مكة والمدينة في هذا الوسط العلمي ، واجتمعوا بكثير من طلاب العلم المقيمين في تلك الأربطة ، كما أن منهم من تتلمذ على بعض العلماء وحملوا بعض أفكار المتصوفة .

ج- المكتبات :

ظل المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف مركزين علميين يقبل عليهما الطلاب من أنحاء متفرقة من الأرض ؛ لذا اهتم بهما السلاطين والأمراء والعلماء وغيرهم ، فأوقفوا عليهما مجموعة ضخمة من الكتب في أغلب فروع العلم . وقد نشأت خزائن الكتب على مر العصور الإسلامية في أنحاء متفرقة من الحرمين (2) .

وقد "تزامن بدء المكتبات [في مكة والمدينة] مع بدء إنشاء المدارس والأربطة ؛ لقوة الصلة بينها ، واتحاد الهدف ، وهو الطمع في ثواب الله الذي يتضاعف في الأرض المقدسة ؛ لذا بدأت بواكير المكتبات في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس ، وكانت مكتبات صغيرة موقوفة ، وحبس عليها شيء من الممتلكات ؛ ليضمن لها البقاء ، ثم تطورت شيئاً فشيئاً وتكاثرت بين مكتبات خاصة وعامة" (3) .

(1) انظر : شفاء الغرام ، الفاسي 330/1-336 .

(2) انظر : وفاء الوفاء ، السمهودي 634/2 ، 635 ؛ الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، النهروالي ، ص 245 ، 247 ؛ المدينة المنورة في رحلة العياشي ، محمد أمحزون ، ص 40 ؛ الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 300-294/1 .

(3) الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري ، الردادى 165/1 ، 166 .

ولعل أول مكتبة عامة منظمة أسست في مكة هي المكتبة التي أوقفها السلطان قايتباي في سنة 882هـ وجعل مقرها مدرسته المعروفة (1) وجعل لها خازناً عين له مبلغاً . وقد استولت عليها أيدي المستعيرين وضيعوا فيها جانباً كبيراً ، وبقي منها ثلاثمئة مجلد (2) . وقد ذكر النهروالي أنه تولى صيانتها وتكميل بعض ما فات منها وتجليد ما يحتاج إلى تجليد (3) . ومدرسة قايتباي أيضاً في المدينة تحوي خزانة كتب ضخمة موقوفة على طلبة العلم (4) . وقد نالت المدارس الموجودة في المدينة نصيبها من وقف الكتب فيها (5) .

واشتهرت بعض الأربطة بنشاطها التعليمي ووجود العديد من الكتب المهمة فيها . وقد كثرت هذه الكتب في بعض الأربطة حتى أصبحت تضم مكتبات ضخمة فيها جميع فنون العلم (6) . ومن أسباب وفرة الكتب أن أغلب المحسنين يدفعون بمجموعات من الكتب ؛ لإيقافها في هذه البيئة العلمية التي يرون أنها أكثر حاجة ، بل وأكثر تقديراً لها .

ومن أشهر المكتبات في تلك الأربطة مكتبة رباط ربيع في مكة الزاخرة بالكتب القيمة التي كانت وقفاً لأهل الخير ؛ فقد اقتنى علي بن محمد بن سند المصري (الفراش في المسجد الحرام ، المتوفى سنة 827هـ) كتباً أوقفها على هذا الرباط (7) ، كما أن الشيخ عبدالرحمن بن عياش قد جمع جملة من الكتب أوقفها وأوصى أن تنقل بعد وفاته إلى رباط ربيع بمكة ؛ فنقلت بعد وفاته سنة 853هـ (8) . وكتب الشيخ محمد بن علي الهاشمي بخطه الحسن كتباً كثيرة ، وجمع مجاميع مفيدة ، وأوقف محاسن كتبه ؛ فوضعت بعد موته - سنة 859هـ - في رباط

(1) التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية ، عبدالله عبدالجبار ، ص 188 .

(2) انظر : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، النهروالي ، ص 243 .

(3) المصدر نفسه ، ص 243 .

(4) المصدر نفسه ، ص 247 .

(5) المدينة المنورة في العصر المملوكي ، المدير ، ص 312 ، وانظر : الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 304/1 .

(6) المرجع السابق 300/1 .

(7) الضوء اللامع ، السخاوي 307/5 .

(8) معجم الشيوخ ، عمر بن فهد ، ص 124 .

ربيع (1) .

واحتوى رباط الموفق في مكة مكتبة كبيرة ، بلغت الكتب فيها حدّاً أحوج القائمين عليها للفهرسة ؛ لتمام الفائدة منها . وقد ذكر السخاوي أن صالح بن عبدالله السلجماسي المغربي (نزىل مكة) فهرس كتب هذا الرباط في سنة 878هـ (2) .

وفي رباط الخوزي في مكة كتب وفيرة موقوفة فيه ؛ مما شجع العلماء والطلاب على تفضيله على غيره (3) . وممن شارك في تزويد هذا الرباط بالكتب أحمد بن سليمان التروجي (ت 812هـ) حيث أوقف فيه عدة كتب (4) .

وفي سنة 827هـ أوقف السلطان شاه شجاع (ملك بلاد فارس) كتباً كثيرة في رباطه المعروف في مكة (5) .

والناظر في تراجم علماء مكة والمدينة وشعرائهما وبعض المجاورين فيهما ؛ يلحظ أن لكل واحد منهم مكتبة خاصة . وقد اشتهر بعضهم بحب اقتناء الكتب وبوفرته ، ومنهم من يسمح بإعارتها لطلبة العلم ، كالنجم المرجاني الذي يملك كتباً كثيرة نفيسة ويسمح بإعارتها (6) ، وكثقي الدين محمد بن فهد الذي "اجتمع له من الكتب ما لم يكن في وقته عند غيره من أهل بلده ، وكثر انتفاع المقيمين والغرباء بها" (7) . وقد اطلع الشاعر علي بن محمد الفاكهي (8) على فهرست كتب

(1) الدر الكمين ، عمر بن فهد 246/1 .

(2) الضوء اللامع 311/3 ، 312 .

(3) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 430/2 .

(4) التحفة اللطيفة ، السخاوي 181/1؛ الضوء اللامع ، السخاوي 308/1 .

(5) الحجاز ، محمد بكري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ، ص 201 .

(6) الضوء اللامع ، السخاوي 183/7 .

(7) المصدر نفسه 282/9 .

(8) هو علي بن محمد بن علي بن محمد بن عمر الفاكهي . ولد بمكة سنة 836هـ ، ونشأ بها ، فحفظ القرآن الكريم وبعض المتون ، وأخذ عن علماء مكة والقادمين إليها ، كما رحل في سبيل العلم إلى المدينة المنورة والقاهرة ودمشق ، ودرس عدة علوم ، كالحديث والفقه والنحو والصرف والمعاني والبيان ، وبرع فيها ، فأذن له غير واحد من العلماء بالتدريس والإفتاء . وقد تصدى لإقراء الطلاب في الحرمين ،

ابن فهد ، فرأى ما يدل على أن عدتها ثلاثة آلاف ؛ فقال :
وَقَفْتُ عَلَى فِهْرَسْتِ كُتُبٍ بِهَا ذِكْرُهُ بَيْنَ الْبَرِيَّةِ قَدْ فَشَا
فَأَلْفَيْتُهَا أَلْفًا وَأَلْفًا وَثَلَاثًا **وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ (1)**

وكانت مكتبة آل فهد مكتبة نفيسة ، وهم من أشهر البيوت العلمية في مكة ، منهم تقي الدين ، وابنه عمر ، وعبدالعزیز بن عمر ، وجار الله محمد بن عبدالعزیز بن عمر . وللمؤرخ السخاوي بهم صلة قوية مكنته من الانتفاع بمكتبتهم في أثناء مجاورته بمكة (2) . ومن أجمع المكتبات وأنفسها في مكة في القرن التاسع مكتبة تقي الدين الفاسي (3) . كما أن مكتبة محمد بن أحمد النهروالي من أنفس المكتبات في مكة في القرن العاشر الهجري وأكثرها كتباً ، فقد كان النهروالي "عظيم الجاه عند الأتراك... وكانوا يعطونه العطاء الواسع ، وكان يشتري بما يحصله منهم نفائس الكتب ويبذلها لمن يحتاجها ، واجتمع عنده ما لم يجتمع عند غيره" (4) . وقد أشار إلى عددها في أثناء حديثه عن الحريق

=

فانتفع به كثير من طلاب العلم . توفي بمكة سنة 880هـ .
 - انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 1067/2-1073 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 324/5 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 493/9 .
 (1) الدر الكمين ، عمر بن فهد 395/1 .
 (2) التيارات الأدبية ، عبدالله عبدالجبار ، ص 188 .
 (3) المرجع نفسه ، ص 187 ، 188 .
 (4) البدر الطالع ، الشوكاني 57/2 . وهو قطب الدين محمد بن أحمد بن محمد بن محمود النهروالي ، الشهير في مكة بالقطبي ، ولد في لاهور سنة 917هـ ، ورحل إلى مكة مع والده في حوالي الرابعة عشرة من عمره . أخذ العلم عن والده ومجموعة من العلماء في مكة ، ورحل إلى القاهرة وإستانبول ؛ فأخذ عن بعض الشيوخ في مصر وتركيا . وهو شاعر ، مؤرخ ، فقيه ، محدث ، مفسر ، عالم بالعربية ، وأحد المدرسين في المسجد الحرام . له مؤلفات عديدة منها : طبقات الحنفية ، التمثيل والمحاضرة بالأبيات المفردة النادرة ، وغيرهما ، توفي بمكة سنة 990هـ .

- انظر ترجمته في : النور السافر ، العيدروس ، ص 499-505 ، إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن ، الطبري 553/1 ؛ الكواكب السائرة ، الغزي 48-44/3 ؛ ريحانة الألبا ، الخفاجي 416-407/1 ؛ المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 395-398 ؛ فهرس الفهارس ، الكتاني ، ص 299-313 ؛ نزهة الخواطر ، عبدالحی الحسني 290-285/4 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 17/9 ؛ الأعلام ، الزركلي 6/6 ، 7 ؛ معالم الأدب العربي في العصر الحديث ،

=

الذي أصاب داره بمكة في سنة 959هـ ؛ حيث قال : "وقع الحريق في داري بمكة ولا أدري كيف وقع ، غير أنه ابتداءً من القاعة التي بها أسباني وكتبي ، وكانت زهاء ألف وخمسمئة مجلد من نفائس الكتب التي ملكتها ، وورثت بعضها عن أبي - رحمه الله - " (1) .

ولم تكن هذه فحسب حصيلة مكتبته ؛ إذ إن ثمة كتباً أخرى نفيسة كانت لدى أخيه محب الدين الذي كان قاضياً في مدينة جبلة باليمن ، ذكر أنها نهبت حين انتزاع هذه المدينة من أيدي الأتراك سنة 975هـ ، إذ قال : "وكان من المنهوبين قاضي جبلة الأخ الصديق الشقيق محب الدين بن علاء الدين - رحمه الله تعالى - ... فأصيب بطارفه وتليده ، وكتبه وأثاث بيته وعبيده ، وما كان لي من الكتب النفيسة وغيرها عنده" (2) .

ويبدو أن مكتبته - بعد حريق سنة 959هـ - قد تكونت بصورة طيبة ؛ فله من السعة في المال والمكانة الاجتماعية ما يساعده على اقتناء الكتب النفيسة ، ولكننا لا نعرف الصورة التي أصبحت عليها هذه المكتبة . وقد ذكر الأستاذ حمد الجاسر أن من أسباب غنى هذه المكتبة "أن القطبي بحكم مركزه الاجتماعي وكونه تولى وظائف كبيرة في مكة ، كان ذا صلة قوية بالمكتبات الموجودة في الحرمين الشريفين" (3) .

وقد آلت هذه المكتبة بعد وفاته إلى ابن أخيه عبدالكريم بن محب الدين القطبي ، فنمت معه حتى بلغت أربعة عشر ألف كتاب ما بين مجلد ومجلدين وثلاثة وأكثر (4) .

ومن أشهر المكتبات الخاصة بالمدينة مكتبة الشيخ علي السمهودي التي احترق عدد من كتبها في الحريق الذي أصاب المسجد

=

عمر فروخ 507-499/1 ؛ الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، النهروالي ، ص 11-15 (مقدمة المحقق) ؛ قطب الدين النهروالي مؤرخ مكة ، حمد الجاسر (مجلة العرب : س 1 ، ج 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 ، 9 ، 11 ، رجب 1386هـ - جمادى الأولى 1387هـ) .

(1) قطب الدين النهروالي مؤرخ مكة ، حمد الجاسر (مجلة العرب : س 1 ، ج 3 ، رمضان 1386هـ) .

(2) البرق اليماني ، محمد النهروالي ، ص 178 .

(3) قطب الدين النهروالي مؤرخ مكة (مجلة العرب : س 1 ، ج 4 ، شوال 1386هـ) .

(4) إعلام العلماء بالأعلام ببناء المسجد الحرام ، عبدالكريم القطبي ، ص 22 .

النبوي في سنة 886هـ . وكان خبر احتراقها قد جاء إلى السمهودي وهو في مكة لأداء العمرة في رمضان ، يحدثنا عن ذلك قائلاً : "كنت تركت كتبي بالخلوة التي كنت أقيم بها في مؤخرة المسجد ، فكتب إليّ باحتراقها ، ومنها أصل هذا التأليف [وفاء الوفاء] وغيره من التأليف والكتب النفيسة نحو ثلاثمئة مجلد" (1) .

ومن المكتبات الخاصة المهمة في المدينة في القرن العاشر مكتبة الشاعر الشريف محمد بن الحسين السمرقندي الحسيني ؛ فقد أحصيت كتبه بعد موته فكانت ألفاً وتسعين كتاباً (2) .

وقد نهل شعراء مكة والمدينة من تلك المكتبات ؛ حيث تيسر لهم الاطلاع على خزائنها التي حفظت كثيراً من العلوم التي كانت زاداً لأولئك الشعراء ، بل إنها قد أتاحت لكثير منهم قراءة شعر الأسلاف وبعض معاصريهم ، فكانت بحق ذات أثر في التكوين الثقافي لكثير من شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .

4- الرحلات والمواسم الدينية :

رحل بعض العلماء والشعراء من مكة والمدينة أمين بعض الأقطار الإسلامية ، فأخذوا عن علمائها والتقوا بعض الشعراء ، والتقت ثقافتهم مع أولئك ، فكان لذلك أثره عليهم ، بل وعلى الشعراء في مكة والمدينة ؛ حيث نقلوا ما تلقوه من علوم أفادوا فيها قومهم .

كما أنه "قصد الحرمين الشريفين عدد كبير من الطلبة والعلماء من البلدان الإسلامية ؛ لسماع الحديث من علمائه بالإضافة إلى حضورهم مجالس العلم والأدب والتاريخ وغيرها من العلوم ، وسماع الفقه والأصول والتفسير والقراءات في حلقات العلم بالمسجد الحرام

(1) وفاء الوفاء ، السمهودي 635/2 .

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص 565 . وهو الشريف محمد بن الحسين بن عبد الله السمرقندي الحسيني ، من أهل المدينة المنورة . كاتب جيد الإنشاء ، يعرف - فضلاً عن اللغة العربية - اللغات الفارسية والرومية والهندية والحشية ، وله علم بالأنساب . صنف تحفة الطالب (في نسب بعض الطالبين) ، وإتحاف مولانا الحسن بأخبار ملوك الزمن . توفي بالمدينة المنورة سنة 996هـ .

- انظر ترجمته في : النور السافر ، العيدروس ، ص 565 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 642/10 ، 643 ؛ الأعلام ، الزركلي 102/6 ؛ منائح الكرم ، السنجاري 112/3 (الهامش) .

والمسجد النبوي ، وكانوا يمكثون زمناً طويلاً للدراسة فلا يغادرون حتى يحصلوا على الإجازات العلمية من رواة الحديث والفقهاء والأدب والتاريخ... وكثرت رحلات العلماء إلى الحرمين الشريفين ، كما كثر ارتياد طلاب العلم فيهما . ومما شجعهم على ذلك وجود الأربطة العديدة بمكة والمدينة" (1) .

وقد يكون القدوم لقصد الحج أو العمرة والزيارة ، فيطيب لهم المقام في تلك الأجواء العلمية التي كانت تظل سماء الحرمين ، فيمكثون مدة للمجاورة . ولا شك أن من هؤلاء من كان عالماً أفاد بعلمه العلماء وطلبة العلم في مكة والمدينة . وقد أومات إلى شيء من ذلك في الحديث عن المجاورة .

وما يمكن أن يشار إليه هنا هو من يقدم للحج والعمرة ويرجع بانتهاء الموسم الديني ، حيث إن من شعراء المدينتين الكريمتين من كان يلتقي أولئك ، وربما ازداد بعضهم ثقافة من هؤلاء الغادين والرائحين ، فهناك طبقات من المسلمين لا يأتون إلا في الحج أو العمرة . "وعلى الرغم من وجود جميع مقومات التعليم في الحرمين الشريفين ، فإن علماء الحجاز لم يكتفوا ولم يقنعوا بذلك ؛ حيث ارتحلوا إلى مراكز العلم في العالم الإسلامي ، فكانت مصر والشام وبيت المقدس واليمن هي البلدان الرئيسة التي رحلوا إليها في ذلك العصر" (2) .

وقل أن يوجد عالم أو شاعر لم يرحل لطلب العلم . وأشهر العلماء الذين رحلوا في طلب العلم هو النجم عمر بن فهد ؛ فقد رحل إلى القاهرة ودمياط والمنصورة وأشموم وسمنود والمحلة الكبرى ودمنهوور وغيرها من المدن الصغيرة والقرى بمصر ، كما كان له رحلات إلى غزة والقدس والرملة ودمشق وبعبك وحلب وطرابلس وحماة وغيرها من بلاد الشام (3) . وقد أفاد منه طلاب العلم في الحرمين الشريفين ، وتتلذذ عليه بعض الشعراء ، ومن أشهرهم أحمد العليف (أحد الشعراء الكبار في ذلك العصر) (4) .

(1) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 253/1 .

(2) المرجع نفسه 256/1 .

(3) انظر : المرجع السابق 268-226/1 .

(4) البدر الطالع ، الشوكاني 54/1 .

والعالم المؤرخ تقي الدين الفاسي طلب العلم في القاهرة والإسكندرية ودمشق والقدس وغزة والرملة ونابلس ، كما رحل إلى اليمن ودخل مدينة عدن وغيرها من المدن اليمنية ، ورحل إلى كثير من البلدان العربية لطلب العلم ، واجتمع بمشاهير علماء تلك البلدان في ذلك العصر ، وكان في أسفاره دؤوباً على الاستفادة والإفادة ، مشغلاً بالتأليف⁽¹⁾ . وقد ذكر في خاتمة كتابه (شفاء الغرام) أنه زاد في هذا الكتاب فوائد كثيرة وهو بمرسى جزيرة كَمَران ، وفيما بينها وبين المنذب من البحر الملح ببلاد اليمن ، وأشار إلى أن ذلك كان في أعوام 817هـ ، 818هـ ، 819هـ⁽²⁾ .

كما أن الشيخ الشاعر محمد بن أبي بكر المراغي⁽³⁾ قد رحل إلى القاهرة ودخل اليمن مراراً وسمع من جماعة من أعيانها ، أخذ عنهم التصوف ، كما سمع من أعيان العلماء في جهات مختلفة ، فبرع في الفقه وأصوله والنحو والتصوف . وقد درس في المدينة وفي مكة فأفاد طلاب العلم في الحرمين⁽⁴⁾ .

ولا شك أن كثيراً من شعراء مكة والمدينة قد أكبوا على طلب العلم على هؤلاء العلماء الذين ارتحلوا فنقلوا إليهم ما تلقوه من أساتيدهم ، وما جنوه في رحلاتهم من علوم ومعارف وما اكتسبوه من خبرات . بل إن أغلب الشعراء قد ارتحلوا ، فكان لذلك أثره في تكوينهم العلمي وفي ثراء التجربة عندهم ؛ إذ إنها تزداد سعة من خلال المشاهدات والعيش في بيئات مختلفة .

(1) انظر : المصدر نفسه 114/2 ؛ تقي الدين الفاسي مؤرخ مكة في القرن التاسع الهجري ، حمد الجاسر (مجلة المنهل : س7 ، مج7 ، ج12 ، 11 ، ذوا القعدة والحجة 1366هـ) .

(2) شفاء الغرام 296/2 .

(3) هو أبو اليمن محمد بن أبي بكر بن الحسين بن عمر ، المراغي الأصل ، المدني المولد والمنشأ ، ويعرف بابن المراغي . ولد سنة 764هـ ، أو التي تليها ، ونشأ

في مدينة المصطفى ع وحفظ بعض المتون ، ودرس على شيوخ بلدته والقادمين إليها ، وأجازه مجموعة منهم ، كما أجازه عدد من العلماء في الديار المصرية . كان عالماً ، أديباً ، ناب في القضاء والإمامة والخطابة بالمدينة عن والده . قتله لصوص لما سافر إلى الشام سنة 819هـ .

- انظر ترجمته في : التحفة اللطيفة ، السخاوي 531/3-534 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 161/7 ، 162 ؛ البدر الطالع ، الشوكاني 147/2 .

(4) البدر الطالع ، الشوكاني 146/2 ، 147 .

فقد ذكر السخاوي أن الشاعر جمال الدين بن يعقوب قد ارتحل إلى بلاد العجم ، وأقام هناك أربع سنين ، وأخذ عن شيوخه في العقليات ، واشتغل بالمنطق (1).

وقد يجد الشاعر من الخصال في شيخه ما يدفعه إلى التعبير عن مشاعره تجاهه ،

فيطلق العنان لشاعريته للإفصاح عن ذلك كما فعل الشاعر نجم الدين بن يعقوب حينما ارتحل إلى القاهرة ، حيث مدح شيخه الديمي وكتّبه (2) . وكذلك الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي (3) في رحلته إلى عدن ، حيث مدح الشيخ المزجد (4) .

ومن الرحلات ما تهدف إلى غرض آخر غير طلب العلم ، وقد يلتقي الشاعر بعض العلماء فيمدح من يراه يستحق المدح ، وإن لم يكن قد تتلمذ عليه هناك ، كما فعل الشاعر محمد النهروالي في رحلته إلى البلاد التركية ؛ حيث اجتمع بكبار العلماء ، منهم الشيخ العمادي الذي مدحه بقصيدة في ثلاثين بيتاً أعجب بها الممدوح (5) .

ومحمد النهروالي من أكثر الشعراء في مكة والمدينة ارتحالاً ، وكان حريصاً على تدوين رحلاته ، سواء كانت داخل الجزيرة العربية أم خارجها "وهو في كل مدينة من المدن التي يمر بها يعنى عناية كبيرة بالاتصال بالعلماء والشعراء وبالتباحث معهم ، وبمساجلة من يساجله الشعر منهم" (6) . وكان حريصاً على تدوين كل ما يراه مفيداً ؛ إذ إنه "لا يكتفي – في وصفه وتسجيله – بما يتعلق بالعلم والشعر ، بل كثيراً ما أشار إلى ما للبلدة التي يمر بها من مظاهر ، وما فيها من آثار ، وما

(1) الضوء اللامع 87/10 . وهو محمد بن يعقوب بن يحيى بن عبدالله ، المغربي الأصل ، المدني ، المالكي ، جد الشاعر المدني النجم أبي المعالي ، المعروف – مثله – بابن يعقوب . عمل في التدريس والقضاء بالمدينة المنورة ، وألف في الفقه والمنطق . توفي بالمدينة المنورة في سنة 830 هـ (تقريباً) .

- انظر ترجمته في : المصدر السابق 87/10 ؛ نيل الابتهاج ، التنبكتي ، ص493 ، معجم المؤلفين ، كحالة 119/12 ، 120 .

(2) التحفة اللطيفة ، السخاوي 659/3 .

(3) سيأتي حديث عن حياته وشعره في الفصل الخامس من هذا البحث .

(4) ديوان الزمزمي ، ورقة 96/ب .

(5) قطب الدين النهروالي مؤرخ مكة ، حمد الجاسر (مجلة العرب : س1 ، ج1 ، رجب 1386 هـ) .

(6) المرجع نفسه .

لها من مميزات (1) .

وكان لرحلات بعض الشعراء الأثر في نتاجه الشعري ، كالشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي الذي ارتحل إلى بلاد اليمن واجتمع بمشايخ الصوفية ؛ فكان لذلك الأثر في تمكن الفكر الصوفي عنده ، حتى إن ديوانه مليء بالقصائد الموجهة إلى أصحاب القبور من الأولياء والصالحين ، مستنجداً بهم في قضاء حوائجه ، شاكياً إليهم حالته ، مستغيثاً . ومنها قوله في مطلع قصيدة نظمها حينما زار قبر الشيخ علي بن أفلح :

هَنِيئاً لِمَنْ زَارَ قَبْرَ ابْنِ أَفْلَحٍ لَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً وَأَفْلَحَ (2)

ويستغيث على شاكلة الصوفية ، فيقول :

أَيَا غَوْثُ يَا غَيْثُ إِنِّي صَدِّ أَغْنِي فَنَبْتِي مِنَ الْهَمِّ صَوِّحْ
أَتَيْتُكَ مِنْ مَكَّةِ أَشْتَكِي خُطُوباً بِهِنَّ فَوَادِي تَقَرِّحْ
وَجَوْرَ زَمَانٍ عَلَيَّ اجْتَرَا وَصَالَ وَأَوْشَكَ فِي النَّحْرِ يَذْبَحْ

والاستغاثة بأهل القبور والشكوى إليهم شرك ، وهذا من آثار الفكر الصوفي ، فالعبد المؤمن ذو العقيدة الصافية لا يصرف أموره إلا لله ؛ فهو المغيث وإليه المشتكى (4) .

ولم أجد من شعراء مكة والمدينة وعلمائها في القرنين التاسع والعاشر الهجريين من اهتم بتدوين رحلاته بصورة مفصلة وأخرجها في كتاب سوى الشاعر محمد بن أحمد النهروالي ، الذي دون رحلته إلى البلاد التركية وإلى المدينة المنورة في كتابه (الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية) . وهو من أهم مؤلفاته ؛ لأنه يحوي معلومات متنوعة ، ويطرق جوانب مختلفة من نواحي المعرفة ، ألفه أثناء رحلته إلى البلاد الرومية - كما يسميها - ويقصد بلاد السلطنة العثمانية في ذلك العهد (إستانبول ونواحيها) التي رحل إليها في سنة 965 هـ ، وسجل في أوائل كتابه هذا زيارته المختلفة للمدينة المنورة من سنة

(1) المرجع نفسه .

(2) ديوان الزمزمي ، ورقة 77/ب .

(3) المصدر نفسه ، ورقة 78/أ .

(4) انظر : معارج القبول ، حافظ الحكمي 363-351/1 . وسيأتي الحديث عن بعض الأفكار الصوفية لدى شعراء مكة والمدينة في مبحث الشعر الديني .

959هـ فما بعدها إلى وقت رحلته إلى البلاد التركية (1).

والنهروالي عاش طفولته في نهرواله ، وفيها درس الفقه الحنفي على والده وتعلم اللغة الفارسية ، ثم انتقل إلى مكة في سن تمكنه من طلب العلم ؛ فهو لم يبلغ الخامسة عشرة . وكان قد أتقن اللغة الفارسية قبل انتقاله من نهرواله إتقاناً مكنه من نظم الشعر بالفارسية ، ومن ترجمة بعض الكتب إليها ، وأخذ عن بعض المؤرخين والفقهاء والمحدثين وغيرهم علماً غزيراً . وقد تنوعت مصادر ثقافته حين رحل إلى اليمن والشام ومصر والبلاد التركية ؛ حيث اجتمع بمشاهير علماء الأتراك وأخذ عن بعضهم . هذه الاتجاهات المختلفة من نواحي الثقافة عربية وفارسية وتركية ، مكنت القطبي من أن يضرب بسهم وافر من ضروب المعرفة ؛ فقد ألف مؤلفات دينية إسلامية كما ألف في التاريخ ، وكان لرحلاته إلى تركيا الأثر الكبير في تمكنه من الثقافة التركية التي أهلتة إلى الحظوة لدى رجال الدولة هناك ، ومن ثم نقل بعض المؤلفات التركية إلى اللغة العربية ، كالكتاب الذي ألف عن غزو الأتراك لليمن ، قدمه له سنان باشا (فاتح اليمن) ، فنقله إلى العربية وأضاف إليه إضافات أكملته . وفي اللغة الفارسية نقل رسالة للوزير التركي لطفي باشا في شرح الفقه الأكبر في سنة 949هـ ، نقلها من التركية إلى العربية ، ثم طلب منه ذلك الوزير ترجمتها إلى الفارسية ؛ فترجمها (2).

وكانت مكة والمدينة ملتقى للمسلمين من مختلف الأقطار الإسلامية ، يجتمع فيهما من العلماء في كل عام مالا يجتمع في أية مدينة إسلامية ، يقصدون مكة للحج والعمرة ، ويزورون المدينة ، فتكون هذه المواسم الدينية خيراً عليهم ، وعلى العلماء ، وطلبة العلم ، والشعراء في مكة والمدينة ؛ حيث يلتقون كوكبة من العلماء الوافدين من الشرق أو الغرب ، فيحصل التقارب فيما بينهم وتبادل الثقافات والمعارف .

وكان القادمون للحج والزيارة "يصطحبون معهم جلّ كتبهم إما

(1) انظر : وصف الأستاذ حمد الجاسر هذا الكتاب - في حديثه عن قطب الدين النهروالي مؤرخ مكة - في (مجلة العرب : س1 ، ج9 ، ربيع الأول 1387هـ) .

(2) انظر : قطب الدين النهروالي مؤرخ مكة ، حمد الجاسر (مجلة العرب : س1 ، ج2 ، شعبان 1386هـ) .

للاستفادة منها ، أو إهدائها لعلماء الحرمين الشريفين ، أو بيعها في سوق الكتب إذا ضاقت بهم سبل العيش" (1) .

ولذلك كله تأثير على الشعراء ؛ حيث يعيشون في هذا الوسط العلمي الذي أصبحت الكتب فيه تترى من أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي . بل إن سوق الكتب كان مجمعاً للعلماء والأدباء ، وأحياناً كانت تدور بينهم مناقشات جادة عند شراء كتاب معين (2) .

وشهر رمضان شهر خير يفى بظله على الأدب ، حيث يجتمع فيه العلماء والأدباء يتدارسون العلم . ولم تخل تلك المجالس الخيرة من الشعر ، فمجلس الشيخ الشاعر حسين المالكي (3) - مثلاً - كان بستان أدب ، يجتمع فيه أدباء ومحدثون وفقهاء . وقد اعتاد جمع الأكابر من العلماء والخطباء والمدرسين في داره ؛ حيث يمد لهم في كل ليلة من ليالي رمضان سماطاً مكلفاً يحضره الخاص والعام ، وكان المجلس عامراً بالعلم والأدب ، حيث يقرأون كتباً مختلفة ، يحصل في أثناء ذلك تباحث بين العلماء ، ومنهم العالم الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي الذي كان يختم الدروس بالهمزية البوصيرية (4) .

فالرحلات والمناسبات الدينية إذن ذات أثر في الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وقد أدت وظيفتها في انتشاره ؛ حيث يلتقي الشعراء بعلماء الأقطار الأخرى ، فيدونون شعرهم وتحفظه آثارهم ، كما أن المصادر الشعرية في مكة والمدينة قد

(1) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، الجابري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) 282/1 .

(2) المرجع السابق 283/1 .

(3) هو حسين المكي المالكي . ولد بمكة ، وبها نشأ ؛ حيث حفظ القرآن الكريم وأخذ عن عدد من العلماء ، ولي رئاسة القضاة في مكة والمدينة ، ونظر المسجد الحرام ، والخطابة ، كما درّس وانتفع به عدد من طلاب العلم . وهو جواد ، ذو حلم ، وأخلاق ساد بها قومه ، وكان فصيح اللسان ، ذا كلمة مقبولة لدى الأمراء والولاة . توفي في الطائف سنة 990هـ ، ودفن بمكة .

- انظر ترجمته في : السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 387/ب - 393/أ ؛ النور السافر ، العيدروس ، ص 496-499 ؛ ريحانة الألبا ، الخفاجي 438/1 ، 439 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 616/10 ؛ إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 552/1 .

(4) السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 388/ب ، 389/أ .

حفظت نتاج كثير من الشعراء الوافدين إليهما .

5- الأحداث السياسية :

شهد القرنان التاسع والعاشر الهجريان موجة من الاضطرابات السياسية التي أشعلت فتيل المعارك الحربية . وكان لذلك أثره في الشعر ؛ حيث حفزت تلك الأحداث الشعراء إلى القول ، وفتقت أذهانهم ، حين دفعتهم تلك الانتصارات إلى الإشادة بالقادة ، ووصف الجيوش ، وتمجيد البطولة "والشاعر العربي ليس بالشاعر الذي يصور الهزائم أو يتحدث عنها ، وإنما هو شاعر النصر الذي يمجد البطولة والأبطال" (1).

وظل الشعراء متحلقين حول الأمراء الأبطال يمدحونهم ويهجون أعداءهم ، حتى إن بعض الشعراء قد لزم أميراً من الأمراء يتابع مسيرته ويمدحه أينما حل ، مثل أحمد العليف شاعر الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان ؛ إذ كان شعره سجلاً للأعمال الجائلة والبطولات التي حفلت بها حياة الشريف بركات . وقد أذاع العليف إعجابه بشخصية الشريف بركات في مناسبات عديدة ، كما أبان عن حبه له بمثل قوله :

خُذْ مَدِيحاً أَهْدَاهُ عَبْدٌ مُحِبٌّ يَنْفَعُ الدَّهْرُ وَهُوَ بِالذِّكْرِ بَاقٍ (2)

كما أن الشاعر عبدالرحمن باكثير (3) كان ملازماً للشريف أبي نمي (محمد بن بركات) ، حتى أصبح ديوانه سجلاً للأحداث التي شهدها أبو نمي في حياته .

وكانت الأحداث السياسية مجالاً لإظهار أمثلة عليا أخذها الشعراء من الواقع ؛ حينما شهدوا تلك الأحداث ، وصوروها ، ونظموا ما نظموا إعجاباً وولاءً لأولئك الأمراء القادة . إنها القتيل الذي ألهب حماسة الشعراء ، وأبان عن نبل أهدافهم ؛ حيث مدحوا أولئك الأمراء والسلاطين الذين سعوا في سبيل إقامة الأمن والاستقرار ، والذين كان منهم من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا . يقول الشاعر أحمد

(1) شعر الصراع مع الروم ، نصرت عبدالرحمن ، ص 97 .

(2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 18/ب .

(3) في الفصل التالي (مصادر الشعر) ترجمة موجزة لهذا الشاعر في أثناء الحديث عن ديوانه .

العليف مثنيًا على السلطان بايزيد :

خُذُوا مِنْ ثَنَائِي مُوجِبَ الْحَمْدِ
...إِلَى بَايَزِيدِ الْخَيْرِ وَالْمَلِكِ الَّذِي
وَجَرَدَ لِلدِّينِ الْخَنِيفِي صَارِمًا
وَجَاهَدَهُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ
وَمِنْ ذُرِّ لَفْظِي طَيِّبَ النَّظْمِ
حَمَى بَيْضَةَ الْإِسْلَامِ بِالْبَيْضِ
أَبَادَ بِهِ جَمَعَ الطَّوَاغِيتِ وَالْكَفْرِ
رَجَاءً لِمَا يَبْغِي مِنَ الْفَوْزِ

ولمديح الأمراء والسلاطين أثره الكبير في شهرة بعض الشعراء . وكانت الأحداث السياسية ذات أثر واضح في اتجاه الشعراء إلى المديح ، حتى بات أكثر الأغراض سيراناً على السنة شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، كما أن الشعر الحماسي قد نما وازدهر في ظل تلك الأحداث . وقد قل شعر الهجاء لدى شعراء مكة والمدينة ، لكننا لم نعدم هجاءً سياسياً من أصداء تلك الأحداث وجهه الشعراء إلى الخصوم الذين كانوا يقفون في مواجهة ممدوحهم .

وسيتضح في الحديث عن شعر المديح والشعر الحماسي والسياسي وشعر الهجاء أن الأحداث السياسية كانت مجالاً رحباً للشعراء ؛ يهنئون الأمير بالولاية ، وبالانتصار على أعدائه ، ويصفون جيشه ، ويصورون ما يدور بين الأمير والسلطان ، ويذيعون مواقفهم من تعيين بعض الأمراء ، ويتابعون كل ما يجري على أرض الحرمين من أحداث .

وقد تستمد القصيدة فكرتها من حدث ما ، أو من خلاف بين أقطاب السياسة ؛ إذ كان لبعض الخلافات السياسية أثر في إنشاء بعض القصائد ورواجها في مكة والمدينة . وقد قام الشعر بوظيفته حين أضحى وسيلة للإصلاح بين بعض الأمراء ، فالشاعر اليمني ابن المقرئ ينظم قصيدة تكون سبباً في رضا الشريف حسن ابن عجلان عن أمير حلي ابن يعقوب موسى بن أحمد الحرامي ، يحدثنا عن ذلك ابن تغري بردي قائلاً : "ولما توجه القاضي شرف الدين إسماعيل بن محمد بن أبي بكر الشغدري ، الشهير بابن المقرئ إلى الحج من زبيد

(1) المصدر السابق ، ورقة 62/أ . وقد وردت لفظة (ثنائي) في صدر البيت الأول (ثنائي) ، كما وردت لفظة (رجاء) في عجز البيت الرابع (رجاء) والمثبت عن سمط النجوم ، العصامي 68/4 .

في سنة ثمان وثمانمئة اجتاز بالأمير موسى بن الحرامي ببلدة حلي ابن يعقوب ، فرغب الأمير موسى للقاضي شرف الدين إسماعيل المذكور أن يسعى في الصلح بينه وبين الشريف حسن ؛ فالتزم له القاضي شرف الدين بن المقرئ المذكور بذلك ، وسار حتى وصل إلى مكة ، وأخذ في إنشاء قصيدة يمدح بها الشريف حسن ، يوصيه ، ويسأله الرضا عن الأمير موسى صاحب حلي" (1) .

والقصيدة في (31 بيتاً) (2) يقول في مطلعها :
أَحْسَنْتَ فِي تَذْيِيرِ مُلْكِكَ يَا وَاجَدْتَ فِي تَحْلِيلِ أَخْلَاطِ الْفِتَنِ

وهذا الحدث السياسي قد آل إلى أن ينظم الشاعر اليمني هذه القصيدة ، وأن تنشد أمام الأمير في مكة ، وكانت مثار إعجاب وتأثر في مجلس الأمير العامر بأهل العلم والأدب . ولم يقف أثر الأحداث السياسية على الشعر من الناحية الموضوعية ، بل تعدى ذلك إلى خصائصه الفنية ، حيث كانت الأحداث مجالاً لبسط القول حين احتاج الشعراء إلى الإطناب في رسم الشخصيات ووصف الأحوال الجارية ، حتى أربت أبيات قصائدهم على الخمسين ، ومنها ما تجاوز المئة ، وكثرت الأوزان الطويلة المناسبة لتلك الموضوعات ، كما أن كثيراً من تلك القصائد قد سبقت بمقدمات غزلية وحماسية وغيرهما . وحرص الشعراء في حديثهم عن الأحداث السياسية على تخير الألفاظ وانتقائها ، وتوخوا أن تكون ملائمة لجو الحدث ؛ مما أضفى على لغة الشعر جزالة وفخامة في كثير من النماذج .

وعلى الرغم من النواحي الإيجابية للأحداث السياسية على الشعر في مكة والمدينة ، فإنها قد شغلت الشعراء عن التأمل في ذواتهم ، والالتفات إلى كثير من أحوال مجتمعاتهم ؛ إذ نجد أن الشعر الاجتماعي كان قليلاً . وإذا كان من وظائف الشعر التعبير عن أحوال العواطف والخروج من جفاف الواقع إلى آفاق الحلم والتخيل ، فإننا لا نكاد نجد ذلك الهاجس الذاتي إلا لمأماً في نتاج شعراء مكة والمدينة ؛ ويبدو أن

(1) المنهل الصافي 95/5 .

(2) عدتها في المنهل الصافي 95/5 (29 بيتاً) ، وفي إتحاف الوري ، عمر بن فهد 446-444/3 ، وغاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 273-270/2 (31 بيتاً) ، وفي سمط النجوم ، العصامي 262/4 ، 263 (30 بيتاً) .

انصراف الشعراء إلى متابعة الأحداث السياسية كان وراء ذلك .

6- تشجيع الأمراء والحكام :

أحب كثير من الأمراء والسلاطين الشعر ، مدركين قيمته في الحياة ، وأثره في تسجيل الوقائع وتدوين المآثر ، واضطلاعه بالتنبيه على مواطن الحق والحياة السليمة ؛ من أجل ذلك قربوا الشعراء ، وأنالوهم منزلة رفيعة في مجالسهم ، ووصلوهم بالعطاء الوفير ، حتى كان لهبات بعض الأمراء والسلاطين الأثر الواضح في مسيرة الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .

ومن الأمراء الأشراف من كان شاعراً متذوقاً للشعر الجيد ، كالشريف حسن ابن عجلان الذي عرف بتقديره للشعراء وبذله لهم . من أولئك الشعراء محمد بن حسن العليّ الذي نال منه صلات جيدة (1) . والشريف حسن يشجع الشاعر المجيد ولو لم يكن من مكة أو المدينة ؛ فالشاعر اليمني ابن المقري قد استرضاه بقصيدة كانت من أهم العوامل المؤدية إلى رضاه عن أمير حلي ، وهي القصيدة النونية التي أشير إليها في المبحث السابق ، حيث استحسّن الشريف حسن تلك القصيدة ؛ فمنح صاحبها ألف درهم على كل بيت ، وأربعين ألف درهم على بيت القصيدة ، وهو قوله :

مُوسَى هَزَبَرٌ لَا يُطَاقُ نِزَالُهُ فِي الْحَرْبِ لَكِنْ أَيْنَ مُوسَى مِنْ

وإذا كان الأمير شاعراً مدركاً لما يقال ، قدّر الشعر وكافاً القائل بما يستحق ؛ ولذلك لم تكن أعطياتهم إجازة على المديح فحسب ، بل مكافأة للشاعرية ، وفي ذلك تشجيع للشعر الجيد ، وحافز للشعراء كي يحرصوا على الإجابة . ومما يدل على بصرهم بالشعر أن الشاعر أحمد الفيومي (3) مدح الشريف أبا نمي (محمد بن بركات) بقصيدة بائية أنشدها أمامه ، فلما وصل إلى قوله فيها :

يَهْتَزُّ مِنْ تَحْتِ السِّلَاحِ كَأَنَّهُ رِيحَانَةٌ لَعِبَتْ بِهَا رِيحُ الصَّبَا

(1) العقد الثمين ، الفاسي 472/1 .

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 273/2 .

(3) هو شهاب الدين أحمد الفيومي ، أثنى عليه الشهاب الخفاجي ، وذكر أنه من فحول شعراء الشريف أبي نمي (992-911هـ) ، وأن له فيه مدائح عديمة الأمثال .

- انظر: ريحانة الألبا 387-385/1 .

جثا الشريف على ركبتيه ، ووثب ، وتطاير الغضب من أحداقه ،
وكاد أن يقتله ، فلما قال الشاعر بعد البيت السابق :
فِي كُلِّ مَنبِتِ شَعْرَةٍ مِنْ أَسَدٍ يَمُدُّ إِلَى الْفَرِيسَةِ مَخْلَبًا
قال أبو نمي : عفوت عما فات ، أولئك يبذل الله سيئاتهم حسنات
(1) .

وأبو نمي شاعر ، ذو بصر بالشعر ، يكافئ على جيده . وهباته
للشعراء أحد أهم الأسباب في انتعاش الشعر في القرن العاشر الهجري
، وكذلك هبات ابنه حسن الذي مجد الشعراء انتصاراته في عهد والده
وفي عهده ، ونعموا بهباته لهم في العهدين (2) . وحين ذاع خبر كرمه
وتقديره الشعراء ؛ أصبحوا يبعثون بقصائدهم إليه من أماكن بعيدة . وقد
ذكر أحد العلماء القادمين من اليمن أنه دخل مكة وفي صحبته عدة
قصائد جاء بها من اليمن في مدح الشريف حسن ، وأنه أجاز شعراء
اليمن مع عدم حضورهم ما يجاوز ألفين من الدنانير الذهب ، وأن
جائزة كل شاعر يرسلها إليه مع حامل قصيدته ، وقال : إن هذه كانت
عادته مع جميع الشعراء من سائر الأقطار (3) .
وكان لأعطياته أثر في تنشيط الحركة العلمية في مكة والمدينة ،
حتى إن الشعراء قد صنفوا باسمه ، ومنهم الشاعر عبدالقادر الطبري (4)

- (1) ريحانة الألبا ، الخفاجي 385/1 .
 - (2) الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري ، الردادى 175/1 .
 - (3) سمط النجوم ، العصامي 372/4 .
 - (4) هو محيي الدين عبدالقادر بن محمد بن يحيى بن مكرم الطبري . ولد سنة 976هـ بمكة ، ونشأ بها ، وترعرع في حجر والديه ، وأكمل حفظ القرآن الكريم وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، وصلى به التراويح في مقام إبراهيم وهو في هذه السن ، وحفظ عدة متون . درس على علماء مكة ، وأخذ عن المجاورين ، وكان شديد الحافظة ، حاضر البديهة . برع في عدة علوم ، وكان من خطباء الطبريين المعدودين . وهو إمام الشافعية ، وخطيب المسجد الحرام ، له حلقة للتدريس فيه . من مؤلفاته الكثيرة : عرائس الأكار وغرائس الأفكار (في التفسير) ، وفتح الجليل بعلم الخليل (في العروض) ، والكلم الطيب على كلام أبي الطيب ، وله ديوان شعر ورسائل أدبية . توفي في مكة سنة 1033هـ .
- انظر ترجمته في : خلاصة الأثر ، المحبى 464-457/2 ؛ نفحة الريحانة ، المحبى 40-35/4 ؛ سمط النجوم ، العصامي 403/4 ، 404 ؛ سلافة العصر ، ابن معصوم ، ص 42-50 ؛ نزهة الجليس ، الموسوي 428-417/2 ؛ البدر الطالع ، الشوكاني 371/1 ، 372 ؛ تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان 301/3 ؛ هدية =

، ومما ألفه ورفعته إليه شرح الدُرَيْدِيَّة المسمى (الآيات المقصورة على الأبيات المقصورة). وكان الشريف حسن يكرم هذا الشاعر إكراماً عظيماً كعادته مع بعض الشعراء ، حتى إن الطبري حينما قدم مؤلفه هذا إلى الشريف حسن "ذكر أنه أنشأ بيتين فيهما تأريخ تمام تأليفه على لسان الكتاب ، وهما :

أَرْخَنِي مُؤَلِّفِي بَيَّتِ شِعْرٍ مَا ذَهَبَ
أَحْمَدُ جُودَ مَا جَدٍ أَجَازَنِي أَلْفَ ذَهَبَ

فتبسم الشريف ووضع الكتاب في حجره ، ووضع يده على رأسه وقال : على الرأس والعين ، والله إن ذلك نزر يسير في مقابلته ، وإنني أحمد الله الذي أوجد مثلك في زمني" (1). وهذا أحد الشواهد الكثيرة على حفاوة الشريف حسن بالشعراء وعنايته بالشعر .

ولعبدالقادر الطبري أرجوزة سماها (حسن السيرة) وسمى شرحها (حسن السريرة) نظم فيها سيرة الشريف حسن بن أبي نمي ، منها قوله :

الْحَسَنُ الْمَلِكُ الشَّرِيفُ ابْنُ نَمِيِّ بْنِ بَرَكَاتٍ مَن حُبِّي
بِنِسْبَةٍ إِلَى النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ وَالشَّرْحُ يُعْطِيكَ تَمَامَ النَّسَبِ (2)

وسرد نسبه في الشرح ، مشيراً إلى أنه شريف من أمه أيضاً ، كما تحدث عن أعماله الجليلة ، والأمن الذي ساد في عهده ، وأشار إلى اهتمامه بالشعر ، واحتفاله بالعلم وأهله .

ولم تكن العناية بالشعر والشعراء مقصورة على الأمراء الأشراف ، بل كان من السلاطين من يجزل العطاء للشعراء ، وكان السلاطين العثمانيون أكثر حفاوة بالشعراء من السلاطين المماليك . وممن أولى الشعراء اهتماماً السلطان بايزيد الذي عرف بنواله ، فكان من الشعراء من يرحل إليه طمعاً في بذله ، كالشاعر أحمد العليف الذي

العارفين ، البغدادي 600/1 ؛ المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 267-272 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 303/5 ؛ الأعلام ، الزركلي 44/4 ؛ الأسرة الطبرية المكية ، الرادادي ، ص 100-107 .

(1) البدر الطالع ، الشوكاني 371/1 .
(2) خلاصة الأثر ، المحبي 5/2 ، وانظر : بقية الأبيات في الصفحات 5-14 .

لقي منه خيراً كثيراً ، وقد صنف له تاريخاً سماه (الدر المنظوم في مناقب السلطان بايزيد ملك الروم) وامتدحه بقصيدة رائية ختمها بقوله :

وَإِنِّي لَصَوَانٌ لِدُرِّ قَلَائِدِي عَنِ الْمَدْحِ إِلَّا فِيكَ يَا مَالِكَ

فَقَابِلْ رَعَاكَ اللَّهُ شُكْرِي بِمِثْلِهِ فَإِنَّكَ لِلْمَعْرُوفِ مِنْ أَعْظَمِ

فَلَا زِلْتَ مَحْرُوسَ الْجَنَابِ مِنْ اللَّهِ بِالتَّوْفِيقِ وَالْعِزِّ

فأمر للعليف بعد وصولها إليه وفرحه بها بألف دينار ذهباً جائزة ، ورتّب له في دفتر الصّر (1) لكل عام مئة دينار ذهباً ، فصارت بعده لأولاده (2) .

وقد ذكر الشاعر محمد بن أحمد النهر والي أن السلطان سليم بن سليمان العثماني أنعم عليه في أيام ولاية عهده ، مشيراً إلى أنه كان يصل إليه إحسانه وكسوته في كل سنة . وبعد أن ولي السلطنة لم يقطع عادته ، وكذلك كان ولده السلطان مراد ؛ إذ ذكر أنه كان ينعم عليه قبل جلوسه على سرير الملك ، وبعد أن ولي السلطنة أكرمه بحسن التفاته إليه (3) .

ولا ريب أن هذا الإكرام الذي يلقيه الشعراء من عوامل التشجيع الذي قام به أولئك الأمراء والسلطين ، ومن الدوافع لقول الشعر لدى طائفة من الشعراء ؛ شكراً للحكام على عطائهم . وسيتضح في الدراسة الموضوعية للشعر في مكة والمدينة أن الشعراء قد أشادوا بالأعمال الجليلة للأمراء والسلطين وأكثروا من الثناء عليهم بدافع من هذا التشجيع .

7- الدوافع الذاتية والنفسية :

الشعر تعبير عن تنازع النفس بين البواعث والطوارئ الخارجية

(1) الصّر أو الصّرة - كما في بعض المصادر - : أموال كان السلطان العثماني يرسلها إلى أمراء مكة وأشرف الحجاز في مواسم الحج ؛ لإنفاقها على العلماء والفقراء في الحرمين المكي والمدني ، كما كان يرسل قسماً منها إلى شيوخ القبائل البدوية؛ لضمان عدم اعتدائهم على قافلة الحج .

- معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، مصطفى الخطيب ، ص 289 ، 290

(2) سمط النجوم ، العصامي 68/4 ، 69 .

(3) انظر : نزهة الخواطر ، عبدالحى الحسني 288/4 ، 289 .

وما يستبد بها من ميول ونزعات . وهذا التنازع يشحذ في نفس الشاعر إحساساً يدفعه إلى القول ، والطبع هو الذي يؤدي إلى تنازع الشاعر مع المؤثرات الخارجية ويقوم بوظيفة مهمة في البواعث الخارجية ، حتى إن الباعث الواحد يختلف وقعه بالنسبة لطبع الشاعر ونفسيته اللذين يقرران موقفه من الأشياء الخارجية . ولا شك أن الشعراء مختلفون في طباعهم ، فما يصيب المرء يقع في النفس وفقاً لطبعها وميولها ، يسعدها أو يتعسها ، تسيغه أو تتنازع معه ؛ فلا غرابة إذن أن نجد أن ثمة أنفساً أقبلت على الاستجداء وأخرى نزعت إلى الكبرياء ، كما أن العواطف قد تنوعت ، فتلك عاطفة شاكية باكية ، وهذه عاطفة فرحة مستبشرة ، وبذلك تنوعت الموضوعات ، وتمايزت الأساليب بتغاير الدوافع (1) .

فمن الشعراء من ينظم بغية التأريخ لحادثة أو عمل من الأعمال التي أنجزها أحد الأمراء أو السلاطين ، فتأتي الأبيات حاملة من الشعر وزنه وقافيته فحسب ، مثل قول الشاعر علي بن حسن باكثير (2) من أبيات نظمها مؤرخاً لمنبر الرخام الذي بعثه السلطان سليمان بن سليم إلى المسجد الحرام في سنة 966هـ :

أَنْظُرْ إِلَى مَنْبَرٍ مُنِيرٍ أَشْرَقَ فِي الْخَافِقَيْنِ بَذْرُهُ
عَمَّرَهُ مَالِكُ الْبِرَايَا خَلِيفَةُ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ
أَعْنِي سُلَيْمَانَ خَيْرَ مَوْلَى مِنْ آلِ عُثْمَانَ طَالَ عُمْرُهُ (3)

وقد عبر بعض أهل العلم والفضل عن ذواتهم وتواصلوا مع إخوانهم من خلال الشعر . والرغبة في قول الشعر لم تكن مقصورة على من يحسن ذلك ؛ بل دفعت بعضاً ممن أدركوا قيمة الشعر وأثره في المخاطب ، فسلكوا سبيله ، مثل محمد الطبري الذي قال عنه السخاوي : "أنشدني - محمد بن محمد الطبري - من نظمه مخاطباً

(1) انظر : في النقد والأدب ، إيليا الحاوي 52/1-76 .

(2) هو نور الدين علي بن حسن بن عبدالله باكثير . ولد سنة 912هـ بمكة ، ودرس على والده وأعمامه علماء مكة ومدرسيها ومفتيها . له ديوان شعر . توفي بمكة سنة 987هـ .

- انظر ترجمته في : السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 381/ب ؛ المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 351 .

(3) الأراج المسكي ، علي الطبري ، ص 178 .

لي ، وقد بلغه عن بعضهم كلاماً ، حيث ذكر لي شيئاً من أحواله :
 وَمَا أَنشَأَ الْعَبْدُ مِنْ لَفْظِهِ مَقَالاً لَأْمُرٍ يَظُنُّونَهُ
 وَلَكِنْ رَأَى كَوْنَهُ شَاكِراً بِجُودٍ وَفَضْلٍ تَمُدُّونَهُ
 فَأَنْتَ حَبِيبٌ مُحِبٌّ لَنَا مِنْ الْحَظِّ ذَاكَ يَعْدُونَهُ" (1)

وهذه من الدوافع المؤدية إلى هبوط مستوى بعض الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .

واشتغل نفر من الشعراء عن التغني بالشعر لذواتهم والتعبير عن خواطرهم وخواالج أفئدتهم بمديح من يرجون منهم الإحسان ، فلم تكن قصائد أولئك الشعراء نابعة من إحساس صادق . نشعر بذلك من خلال الغلو المذموم – مثلاً – على نحو قول الشاعر أحمد القليوبي (2) من قصيدة مدح بها الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان :

وَاسْلَمْ وَدُمْ وَتَحَكَّمْ وَاسْتَظِلْ فَأَنْتَ فِي الْخَلْقِ رَبُّ النَّفْعِ

ولا شك أن مثل هذا القول يقدر في عقيدة الشاعر ؛ فالممدوح مخلوق لا يرقى إلى درجة الخالق القادر على النفع والضرر .

والواضح أن الشاعر نظم القصيدة استجابة لدافع مادي ؛ فهو يخاطب الممدوح طالباً نواله ، مذكراً إياه بأن والده كان يصله بعطائه ، حيث يرفها إليه قائلاً :

جَاءَتْكَ تَسْعَى إِلَى الْأَبْوَابِ مِنْكَ الْجَدَى وَالنَّدَى فِي زِيٍّ

(1) الضوء اللامع 194/9 . ومحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الطبري ولد في مكة سنة 807هـ ، وبها نشأ ، فحفظ القرآن الكريم وكثيراً من المتون ، وقد طلب العلم على أبيه وعلى عدد من علماء مكة والقادمين إليها ، كما رحل في سبيل العلم إلى الشام ومصر ، فحصل علوماً كثيرة . تولى قضاء مكة ، والتدريس وغيرهما . توفي بمكة سنة 894هـ .

- انظر ترجمته في : الضوء اللامع ، السخاوي 191/9-194 .

(2) هو أحمد بن محمد بن عبدالله بن داود الشهاب القليوبي ، ويعرف بابن خبطة . ولد بالقاهرة سنة 827هـ ، وانتقل إلى مكة مع أمه وخاله قبل استكمالها السنة الأولى من عمره ، فنشأ بها ، وحفظ القرآن الكريم قبل بلوغه العاشرة ، وحفظ كثيراً من المتون . له ولع بالأدب ، نظم في المديح والرثاء ، وأنشأ الخطب ، وترسل . يمتاز بالذكاء والفتنة . وقد ناب في قضاء جدة وخطابتها . توفي في مكة سنة 871هـ .

- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 524/1-529 ؛ الضوء اللامع ،

السخاوي 133/2 ، 134 .

(3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 609/2 .

وَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ فِي تَقْصِيرٍ وَاسْمَحْ وَلَا تُخْلِهِ مِنْ وَافِرٍ
فَإِنَّ وَالِدَكَ الْمَرْحُومَ لَا يَرْحَتُ سَحَابُ الْعَفْوِ تَغْشَاهُ بِمُنْهَمِرٍ
وَيُحْسِنُ اللَّهُ مَثْوَاهُ وَيَجْعَلُهُ مِنْ الْمُشَارِ إِلَيْهِمْ آخِرَ الزَّمَرِ
قَدْ كَانَ عَوْنِي عَلَى دَهْرِي بَعْدَ إِلَالِهِ عَلَى إِحْسَانِهِ عُمْرِي

والمديح الذي يبديه الشاعر في هذه القصيدة (2) طلاء مصطنع ؛ لأنه لم يكن استجابة لحافز قوي من شعور إنساني وعاطفة غدتها تجربة هزت كيانه ، بل هو مديح يتخذ منه وسيلة يصل بها إلى نوال الممدوح .

وإذا كان الدافع لدى بعض المداحين الرغبة في نيل جائزة أو منصب أو قضاء حاجة ؛ فإن ثمة شعراء قد مدحوا معتقدين أن الممدوح يستحق الشكر والثناء ، وأنهم إن سكتوا عن ذلك فإنهم مقصرون في أداء واجب .

وهذا الوفاء امتد إلى الرثاء ؛ حيث أبان الشعراء أثر فقد المرثيين ، متناولين سيرهم الوضاعة بشعور صادق . وفي الدراسة الموضوعية غنى عن ذكر الشواهد على ذلك كله ؛ إذ سيرد فيها ما يوضح هذا الأمر ، ويؤكد أن الدوافع الذاتية والنفسية كان لها الأثر في مستوى الشعر ، فالشاعر – مثلاً – يبتعد عن موطنه فيتلهف شوقاً لترابه ولأحبابه ، فيصدق بشكواه . والشاعر في مكة والمدينة كأبي شاعر مؤمن بربه تلم به بعض المحن وساعات العسرة ، فيفزع إلى بارئه شاكياً حالته ، راجياً قضاء حاجته أو كشف ضررٍ حلَّ به ؛ حينئذ يلجأ إلى الشعر مدفوعاً بإحساس ذاتي صادق . وقد تجاذب الشعراء حبل الفخر ، كما عبروا عن أحوال الغرائز ؛ فطغت الذاتية على شطر من ذلك النتاج .

ولا شك أن الدافع الذاتي لقول الشعر من العوامل المؤثرة في مستوى الإبداع ، لكنه لا يكفي ما لم يكن ثمة قدرة تعبيرية لدى من يتصدى لقول الشعر ؛ فإذا كان من شعر الغزل – مثلاً – ما جاء تنفيساً وخروجاً من جفاف الحياة الواقعة إلى آفاق الحلم والتخيل ، فإن منه

(1) المصدر نفسه 609/2 ، 610 .

(2) انظر القصيدة في المصدر السابق 610-607/2 .

نماذج رديئة ، ومنه ما سيق من خلال صور تنم عن صدق فني ناتج
عن التواؤم بين عاطفة الشاعر ولغته .

الفصل الثاني

مصادر الشعر

- 1 - كتب التراجم.
- 2 - المصادر التاريخية.
- 3 - الدواوين الشعرية.
- 4 - مصادر أخرى .

يجد الباحث في الشعر خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين صعوبة في الحصول على ديوان شعر يضم نتاج أحد الشعراء ، أو مجموعة شعرية لبعض الشعراء ؛ وذلك لضياح كثير من النتاج الشعري ، وفقدان مجموعة من دواوينه . وهذا لا يعني قلة الشعراء ، أو قلة نتاجهم الشعري ؛ إذ إن الناظر في تراجم أعلام ذلك العصر ، يلحظ كثرة الشعراء في مكة والمدينة ، وأن لعدد منهم دواوين شعر ، ول بعضهم مجاميع تضم ما أنشدوا أو ما سمعوا من أشعار لبني عصرهم ، لكننا لو حاولنا البحث والتقصي ، لما استطعنا العثور على ما نبتغي ، فقد ذكر السخاوي – مثلاً – في ترجمة الشاعر محمد ابن عبد القوي : "أن الناس قد كتبوا عنه من نظمه الكثير ، وجمع النجم بن فهد منه مجلداً"⁽¹⁾ . وقد بحثت عن هذا المجلد في كثير من مظانه ، لكنني لم أظفر به ، وإن كنت قد حصلت على قدر لا بأس به من شعر هذا الشاعر في مصادر مختلفة . ويبدو أنه ضمن تذكرة⁽²⁾ النجم بن فهد التي تشتمل على مجموعة من الأشعار ؛ حيث جاء ذكرها في كثير من المصادر ، لكننا لا نكاد نعثر على خبر نسخة منها .

لقد جمع بعض أهل العلم والأدب نتاج عدد من الشعراء ، كالنجم بن فهد – في تذكرته المشار إليها آنفاً وفي غيرها – وقطب الدين النهروالي الذي ذكر محمد كبريت في رحلته⁽³⁾ أن له تذكرة جامعة ، وغيرهما من العلماء والأدباء الذين نقع على أخبار دواوينهم أو ما جمعه من شعر ، لكننا ما نلبث أن نكتشف أن الحصول على تلك المجموعات الشعرية أمر أشبه بالمستحيل .

ويبدو لي أن الفتن والأحداث التي عرضت للمدينتين الكريمتين قد أضاعت كثيراً من ذخائر مكتبتهما⁽⁴⁾ ؛ وهذا ما يفسر ندرة الدواوين والمجموعات الشعرية .

وعلى ذلك فإن دارس الشعر في هذه الفترة بحاجة إلى شيء غير

(1) الضوء اللامع 72/8 .

(2) التذكرة – كما هو معروف في ذلك العصر – دفتر يدون فيه العالم أو الأديب بعض الأخبار والحوادث التاريخية المهمة ، وشيئاً من الأشعار ، وما يحتاج إلى تسجيله ؛ للاستفادة منه والرجوع إليه .

(3) رحلة الشتاء والصيف ، ص 152 .

(4) انظر : التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية ، عبدالله الجبار ، ص 186-193 .

يسير من الدأب والصبر لمواجهة تفرق المادة الشعرية في كتب التراجم ، والتاريخ ، والرحلات ، وبعض المؤلفات الأدبية . وغني عن البيان أن في هذه المصادر ما هو مخطوط ، أو مطبوع غير مفهرس ؛ لذلك مضيت – مستعيناً بالله – أقلب فهارس المكتبات ، منقباً عن كتب التاريخ ، مستقرباً ما وقع من حوادث ، وما نظم حولها من شعر ، باحثاً عن ما له صلة بالعصر من كتب التراجم التي تعد مصدراً أساساً لدارس الشعر في ذلك العصر ؛ لحرص أصحاب المؤلفات على الاستشهاد بشيء من شعر صاحب الترجمة ، أو ما قيل فيه من مديح أو رثاء أو غيرهما . وثمة مادة شعرية متفرقة في مؤلفات بعض الشعراء وفي بعض الرحلات ، وهي مادة شعرية قليلة ، على الرغم مما استنفدت من وقت طويل في سبيل الحصول عليها واستقرائها ، وخاصة مؤلفات الشعراء ؛ حيث إن منها ما كان مخطوطاً ، أو مطبوعاً غير مفهرس .

وكان نتاج ذلك كله تكون مادة شعرية كشفت عن تعدد أغراض الشعر ومستوى الشعراء ، كما اتضح كثرة مصادر الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين.

لذلك حاولت أن أتناول أهمها ، متحدثاً عن المؤلف بصورة موجزة ، ثم نبذة مختصرة عن الكتاب ، ومادته الشعرية ، والشعراء الذين تناولهم.

1- كتب التراجم:

أ – العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، لتقي الدين الفاسي (1) :

- 1 -

مؤلف هذا الكتاب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي . ولد في سنة 775هـ بمكة ، ونشأ بها وبالمدينة ؛ لتحوله إليها مع أمه في سنة 783هـ حيث مكث وقتاً ، ثم رجع إلى مكة شاباً يافعاً . أخذ عن الشيوخ المكيين والمدنيين والمجاورين الفقه والنحو والحديث ، ثم رحل إلى مصر والشام ، كما دخل اليمن مراراً ، وأخذ عن جملة من العلماء في تلك البلاد علوماً مختلفة ، وبلغت عدة شيوخه بالسماع والإجازة نحو خمسمئة . كان في أسفاره دؤوباً على الاستفادة والإفادة ، مشغلاً بالتأليف

(1) انظر : حديث الأستاذ حمد الجاسر عن هذا الكتاب في (مجلة المنهل : س8 ، مج8 ، ج1 ، المحرم 1367هـ) ، وكذلك حديث د . محمد الهيلة في كتابه التاريخ والمؤرخون بمكة ، ص123 ، 124 .

، وقد عني بعلم التاريخ ، وهو من أهم المؤرخين المكيين ، كما عني بعلم الحديث . تولى قضاء المالكية بمكة ، ودرّس ، وأفتى ، وحدث ؛ فانتفع الناس به في الحرمين ومصر والشام واليمن ، وألف مؤلفات قيمة جلها في علم التاريخ ، ثم الحديث ، كما ألف في الفقه والتصوف . وقد أخت يد الحدثان على الكثير منها فأصبحت مفقودة .

ومن مؤلفاته العديدة : تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ذيل كتاب التقييد بمعرفة رواة الكتب والمسانيد لابن نقطة ، مطلب اليقظان من كتاب حياة الحيوان للدميري . توفي - يرحمه الله - في مكة المكرمة في شهر شوال من سنة 832هـ ، ودفن فيها (1).

- 2 -

وقد طبع كتاب العقد الثمين محققاً في ثمانية أجزاء ، حقق الجزء الأول الشيخ محمد حامد الفقي ، وحقق الأستاذ فؤاد سيد الأجزاء من الثاني إلى السابع ، أما الجزء الثامن فقد حققه الدكتور محمود الطناحي . والأجزاء الثمانية مطبوعة في مطبعة أنصار السنة المحمدية في القاهرة ، حيث طبع الجزء الأول في سنة 1379هـ ، وطبعت الأجزاء من الثاني إلى السابع في المدة من 1381هـ - 1387هـ ، أما الجزء الثامن فقد طبع في سنة 1388هـ (2).

ويعد هذا الكتاب أكبر مؤلفات الفاسي التاريخية وأهمها ، وتكمن أهميته في أنه ضم تراجم أعلام لم تتناولهم الكتب المتداولة ؛ لأن المؤلف اعتمد على مصادر تاريخية مفقودة ، أو نادرة الوجود . وقد ألفه الفاسي بعد اطلاعه على كتاب أبي الوليد الأزرق في

(1) انظر ترجمته في : إنباء الغمر ، ابن حجر 429/3 ؛ الدليل الشافي ، ابن تغري بردي 585/2 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 20-18/7 ؛ نيل الابتهاج ، التتبعي ، ص 518 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 289/9 ، 290 ؛ البدر الطالع ، الشوكاني 114/2 ؛ التاريخ والمؤرخون بمكة ، الهيلة ، ص 113 - 126 ؛ تقي الدين الفاسي مؤرخ مكة في القرن التاسع الهجري ، حمد الجاسر (مجلة المنهل: س7 ، مج7 ، ج11 ، 12 ، ذوا القعدة والحجة 1366هـ ؛ س8 ، مج8 ، ج1 ، المحرم 1367هـ).

(2) اعتمدت في دراستي هذه على الطبعة الثانية التي نشرتها مؤسسة الرسالة في بيروت سنة 1406هـ . ومن يمعن الفكر في تحقيق هذا الكتاب يلحظ farkاً بين تحقيق الجزء الأول وبقيّة الأجزاء ؛ فالدقة في التحقيق وخدمة النصوص التي نجدها في الأجزاء من الثاني إلى السابع لا نكاد نلحظها في الجزء الأول ، وهو ما يؤكد الجهود التي اضطلع بها المحققان الفاضلان الأستاذ فؤاد سيد ، والدكتور محمود الطناحي .

تاريخ مكة وملاحظته أن أحداً من فضلاء مكة لم يتصد للتأليف على منواله . يقول في مقدمته : "وفتشت عن تأليف في ذلك فلم أر له أثراً ، ولا سمعت عنه خبراً ؛ فعظم مني لأجل ذلك الألم ، وسألت رب البيت والحرم أن يسعفني فيه ببلوغ المراد ، وأن يوفقني فيه للسداد".

ويتضح موضوع الكتاب من خلال قول الفاسي في مقدمته أيضاً : "تَشَوَّفْتُ نفسي كثيراً إلى معرفة تراجم الأعيان من أهل مكة وغيرهم ، ممن سكنها مدة سنين أو مات بها ، وتراجم ولاية مكة وقضاتها وخطبائها وأئمتها ومؤذنيها من أهلها وغيرهم ، وتراجم من وسَّع المسجد الحرام أو عمَّره أو عمَّر شيئاً منه ، أو من الأماكن الشريفة التي ينبغي زيارتها بمكة وحرمها ، أو عمل المآثر الحسنة الكائنة بمكة وحرمها ، كالمدارس والربط والسقايات والبرك والآبار والعيون والمطاهر وغير ذلك من المآثر".

ومن ينعم النظر في هذا الكتاب ؛ يلحظ أن المؤلف "كثيراً ما يستطرد أثناء بعض التراجم إلى إيراد أحاديث وأثار وحكايات وأشعار يَسْتَحْسِنُ ذكرها ؛ إتماماً للفائدة ، وأيضاً فأسلوب رجال الحديث واضح إلى حدٍ كبير في طريقة صنعه للتراجم وما يثبت فيها من معلومات تتصل بحياة المُتَرَجِّم له ، متأثراً في ذلك بتعمقه في دراسة هذا الفن"⁽¹⁾.

وقد اعتمد المؤلف على مصادر عديدة أشار إليها في مقدمته ، كما أوماً فيها إلى أنه استفاد من رحلاته المتعددة في جمع مادة كتابه . وبعد المقدمة التي بيّن فيها سبب تأليفه ، وموضوعه ، ومصادره ؛ عقد أربعين فصلاً ، ذكر فيها ما تجب معرفته عن مكة المكرمة والمسجد الحرام والكعبة المشرفة ، ناقلاً ما جاء في كتاب الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة - وهو مختصر كتابه شفاء الغرام - ثم أتبعه بمختصر عن سيرة المصطفى ع - وهو أحد تأليفه - عنوانه : الجواهر السنية .

ثم أورد تراجم المكيين بادئاً بالمحمدين ، فالأحمدين ؛ معللاً ذلك بشرف هذين الاسمين ، ثم تسلسلت التراجم مرتبة حسب الحروف الهجائية حتى حرف الياء ، أعقب ذلك بذكر من عرف من الرجال بكنيته أو لقبه أو نسبه ؛ حيث ترجم لهم ، ثم ختم الكتاب بباب ترجم فيه لنساء مكة .

(1) الشعر اليمني ، أحمد بن حافظ الحكي (رسالة دكتوراه لم تنشر بعد) 226/1 .

- 3 -

اشتمل هذا الكتاب على ثلاثة آلاف وترجمة واحدة ، منها إحدى وثلاثون ومئتان للنساء ، والتراجم تطول وتقصّر حسب المادة المتوافرة للمؤلف وحسب أهمية العلم ؛ حيث بلغت بعض التراجم صفحات عديدة ، ووقع بعضها في بضعة أسطر .

وقد ترجم الفاسي في هذا الكتاب لمجموعة من شعراء مكة ، وبعض المجاورين ، وذكر شيئاً من شعرهم ، إذ يورد قصائد كاملة أو مقطوعات ، كما يستشهد بالبيت أو البيتين في بعض الأحيان . وعلى الرغم من أهمية الكتاب ، وقيّمته الأدبية ، فإنه لم يذكر إلا قلة من الشعراء في المدة المدروسة ، وهو أمر طبعي ؛ لأن وفاة المؤلف كانت في سنة 832 هـ ، وهذا يعني أنه لم يعيش إلا اثنتين وثلاثين سنة من القرن التاسع الهجري .

ومن الشعراء الذين ترجم لهم المؤلف واستشهد بأشعارهم : محمد بن حسن العليف (1) ، ومحمد المعيد (2) ، ومحمد بن موسى (3) ، وأبوبكر المرشدي (4) .

ب - الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، لنجم الدين بن فهد :

- 1 -

مؤلف هذا الكتاب هو محمد بن محمد بن أبي الخير محمد بن محمد بن عبد الله ابن فهد القرشي الهاشمي المكي الشافعي . يكنى بأبي القاسم ، ويلقب بنجم الدين ، لكنه اشتهر بلقب النجم - اختصاراً - كما اشتهر باسم عمر ، وترجمته كتب التراجم ضمن من اسمه عمر .

ولد النجم بن فهد في مكة المكرمة سنة 812 هـ ، ونشأ بها في بيت علم ؛ إذ كان والده من أعلام هذه البلدة المقدسة ومحدثاً من كبار محدثيها .

أحاط الأب ابنه برعايته ، فحفظ القرآن الكريم وتردد بصحبة أبيه على مجالس العلماء في مكة المكرمة ، فسمع على أسيادها والقادمين

(1) العقد الثمين 471/1 ، 472 .

(2) المصدر نفسه 349/2 - 352 .

(3) المصدر نفسه 364/2 - 371 .

(4) المصدر نفسه 22/8 ، 23 .

إليها حتى أصبحت مسموعاته في طفولته وشبابه عديدة . وكان لحدة ذكائه وقوة حافظته الأثر الكبير في حفظه الكثير .

درس الحديث والفقه والفرائض والنحو والتاريخ في حلقات المسجد الحرام ، مع التركيز على الحديث رواية ودراية حتى برع فيه متأثراً بوالده الذي أجاز له في معظم مروياته ، ثم رحل إلى القاهرة ، فسمع من علمائها ، ولازم الحافظ بن حجر العسقلاني ، ودخل الشام ، فسمع من علمائها ، ولازم الحافظ بن ناصر ، وسافر إلى القدس والخليل وسمع ممن هنالك ، وطاف البلدان متردداً بين مدائن مصر والشام وغيرهما . يربو عدد شيوخ النجم بن فهد بالسماع والإجازة على ألف شيخ . وقد ألف معجماً ترجم فيه لمشايخه الذين التقاهم ، أو الذين أجازوه (1)

وبعد هذا الطلب الجاد والرحلات المتتابعة ؛ أصبح النجم بن فهد محدث الحجاز غير منازع ، وطار صيته في آفاق البلاد الإسلامية ؛ فكثر تلاميذه وأجاز العديد من العلماء .

وعلى الرغم من مكانته العالية في مجتمعه ، فإنه لم يتول وظيفة شرعية أو سياسية ؛ ولعل ذلك راجع إلى ما اشتهر عنه من عفة وزهد في الدنيا ، وتواضع جم ، ونأي عن مزاحمة الرؤساء ونحوهم . صنف في الحديث ، وخرج لنفسه معجماً ، وعمل مسلسلاً ، واهتم بكتابة التراجم ، كما أنه كان مؤرخاً قديراً يتمتع بحاسة تاريخية عجيبة (2)

له مصنفات عديدة ، تربو على الثلاثين ، منها : ترتيب ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ، وترتيب تذكرة الحفاظ للذهبي ، وكتاب المدلسين ، والمخضرمين ، واللباب في الألقاب ، والمؤاخي بينهم ، وإتحاف الوري بأخبار أم القرى ، وله في كل بيت من بيوت مكة المشهورة بالعلم مصنف .

توفي - يرحمه الله - في مكة المكرمة في شهر رمضان من سنة

(1) طبع بتحقيق محمد الزاهي ، اعتماداً على نسخة برلين ، وهذه النسخة - كما أشار د .

محمد الهيلة في (التاريخ والمؤرخون بمكة ، ص 158 ، 159) - مختصرة من المعجم الكامل ، إذ ذكر أن عدد التراجم في النسخة الهندية يفوت الألف .

(2) انظر: النجم بن فهد مؤرخاً ، سعاد الحسن (رسالة دكتوراه لم تنشر بعد) ، ص 117 .

- 2 -

يقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء ، تضم (1749 ترجمة) (2) حقه الدكتور عبدالملك بن دهيش ، معتمداً على نسخة خطية واحدة مكتوبة عن نسخة بخط المؤلف ، لا تخلو من بياض في المتن (3) .
والدر الكمين ذيل لكتاب التقي الفاسي السابق (العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين) ، اتبع فيه ابن فهد منهج الفاسي ، حيث رتب التراجم على حروف المعجم مقدماً للمحمدين ، بادئاً بشيخه محمد الفاسي مؤلف الأصل . وبعد أن انتهى إلى حرف الياء بنهاية من اسمه يوسف ، عقد باباً تناول فيه من عرف بكنيته ومن اشتهر بلقبه مضافاً إلى الدين ، ثم من

(1) انظر ترجمته في : معجم الشيوخ ، النجم بن فهد ، ص 191-194 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 131-126/6 ؛ البدر الطالع ، الشوكاني 512/1 ، 513 ؛ بنو فهد مؤرخو مكة المكرمة ، د . ناصر الرشيد (مجلة العرب : س 11، ج 12، 11 ، جماديان 1397 هـ) ؛ تاريخ أم القرى ومكانة المرأة العلمية فيها من خلال الدرالكمين لابن فهد ، إبراهيم المشيقح ، ص 66-182 ؛ إتحاف الوري بأخبار أم القرى ، النجم بن فهد 1/ مقدمة المحقق ؛ التاريخ والمؤرخون بمكة ، د . محمد الهيلة ، ص 147-159 ؛ الدرالكمين ، النجم بن فهد 1/ مقدمة المحقق ؛ النجم بن فهد مؤرخاً ، سعاد الحسن (رسالة دكتوراه لم تنشر بعد) ، ص 105-120 .

(2) اشتمل الجزء الأول على (656 ترجمة) ، كما تضمن الجزء الثاني (896 ترجمة) ، وأقلها الثالث ، وفيه (197 ترجمة) وفهارس أعدها المحقق .

(3) انظر : الدر الكمين 41/1 (مقدمة المحقق) . وقد بذل المحقق جهداً في سبيل إخراج هذا الكتاب بصورة جيدة ، لكنه – كما يبدو – لم يراجع الطباعة جيداً ، كما أنه لم يعن بمطابقة ما نسخه على المخطوط ؛ إذ يلحظ القارئ بعض الأخطاء النحوية والإملائية والتصحييف في بعض الكلمات ، من ذلك – على سبيل المثال – قوله في مقدمته : عايش بنو فهد دولتان ، وكذلك عدم إثبات ألف (ابن) في بداية السطر في مواضع عديدة من الكتاب ، (منها ما جاء في 3/1 ، 42 ، 150 ، 151 ، 385 ، 711 ؛ 153/2 ، 1580 ، 1640) ، وحصل تصحييف في بعض الكلمات ، وقد طال ذلك الشعر ، ومنه تصحييفه لفظة (يندقق) في قول الشاعر محمد بن فهد :

فيم البكاء وقد نلت المنى زمناً فقلت خوف الفراق الدمع (يتدقق)

(الدر الكمين 394/1) . واللفظة – كما هو واضح – في الأصل المخطوط ، ورقة 64/ب : (يندقق) بالنون .

ومنه أيضاً لفظة (تقيل) في قول الشاعر علي بن أيوب :

بها مسجد الخيف الذي شاع فضله لحجاج بيت الله فيه (تقيل)

(المصدر نفسه 1005/2) على الرغم من أن اللفظة في المخطوط – ورقة 150/ب – (مقيل) .

اشتهر بالنسبة إلى أبيه أو جده ، وختم الكتاب بباب في تراجم النساء مرتبة على حروف المعجم .

وقد تناول المؤلف الأعلام الذين جاءوا بعد الفاسي ، أو ممن كانوا في عهده وسها عن ذكرهم ، معتمداً في جمع معظم المادة العلمية للكتاب على مسموعاته ومشاهداته خلال حياته في مكة المكرمة ، مما وقعت عليه عينه ، أو مما سمعه ، أو أخبر به ، كما أنه رجع إلى ما يربو على الأربعين مصدراً ، وخاصة في تراجم من سبقه ممن لم يعاصره (1) .

يقول النجم بن فهد في مقدمته بعد أن أثنى على كتاب شيخه الفاسي (العقد الثمين) : "وقد استخرت الله تعالى في التذييل عليه على شرطه ، ممن مات بعده ، وممن هو موجود الآن من الأعيان ، ومن تركهم سهواً ، وأعلم على كل أول كل اسم ممن سها عنه كافاً هكذا (ك) ؛ ليعلم أنه استدرك ، وأذكر في ترجمة كل من وقفت عليه على رواية : حديثاً ، أو أثراً ، أو شعراً ، أو خبراً ؛ لتتم الفائدة ، وأبدأ قبل ذلك بترجمة لمؤلف الأصل ، وإن كان قد ترجم لنفسه في كتابه ؛ لزيادة في ذلك" .

وعني النجم بن فهد في كتابه هذا بتراجم أعيان مكة المشرفة وأمرائها وولاتها وقضاتها وعلمائها وأدبائها وظرفائها وعبادها وسكانها ، ومن ورد إليها من غير أهلها وأقام فيها مدة من الزمن ، وكذلك من له عناية بعمارة مكة المشرفة وبيتها العتيق (2) .

وقد أشار المحقق إلى أنه لم يعثر على نص يبين تاريخ تأليفه ، ولا على تواريخ الزيادات التي كان يضيفها النجم إلى كتابه ؛ مرجحاً أن النجم بن فهد بدأ في كتابة مسودات الكتاب منذ سنة 830هـ ، وأنه استمر في تدوين ما يجد له عن أعيان مكة حتى تاريخ وفاته (سنة 885هـ) (3) . ويعد هذا الكتاب "من أهم الكتب التي تترجم لأعيان مكة ؛ لما احتواه من معلومات هامة عن مكة المكرمة وأحوالها السياسية والاجتماعية والأدبية في عدة قرون ، وخاصة القرن التاسع الهجري" (4) .

(1) ذكر محقق الكتاب هذه المصادر في مقدمته ؛ انظر 34/1-38 .

(2) انظر : المصدر السابق 31/1 (مقدمة المحقق) .

(3) انظر : المصدر نفسه 32/1 (مقدمة المحقق) .

(4) تاريخ أم القرى ومكانة المرأة العلمية فيها من خلال الدر الكمين ، إبراهيم المشيقح ،

ص 77 .

ويختلف حجم التراجم حسب منزلة العلم والمعلومات المتوافرة عنه ؛ فبعضها في سطر أو سطرين ، ومنها ما تجاوز عدة صفحات .
ويظهر على المؤلف حسن ظنه بالمترجمين ؛ إذ يندر أن يشير إلى ما لا يحمد ذكره ، مركزاً على حياة صاحب الترجمة منذ ولادته حتى وفاته ، متناولاً حياته العلمية وأدبه وشعره إن وجد .

- 3 -

وقد حفل هذا المصدر بتراجم وافية لعدد من الشعراء المكيين في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وذكر نماذج من نتاجهم الشعري ، من أولئك الشعراء : محمد بن أحمد بن الضياء (أبو البقاء)⁽¹⁾ ، ومحمد اليافعي⁽²⁾ ، ومحمد النويري⁽³⁾ ، ومحمد بن علي العبدري⁽⁴⁾ ، ومحمد بن ظهيرة (أبو السعادات)⁽⁵⁾ ، ومحمد بن ظهيرة (أبو الخير)⁽⁶⁾ ، ومحمد بن فهد⁽⁷⁾ ، وأحمد القرشي⁽⁸⁾ ، وأحمد بن عبد القوي⁽⁹⁾ ، وأحمد القليوبي⁽¹⁰⁾ ، وإبراهيم بن حسن بن عجلان⁽¹¹⁾ ، وإبراهيم الزمزمي⁽¹²⁾ ، وبركات بن حسن بن عجلان⁽¹³⁾ ، وحسين العليف⁽¹⁴⁾ ، وعبدالرحمن الواحدي⁽¹⁵⁾ ، وعبدالرحيم الأميوطي⁽¹⁶⁾ ، وعبدالقادر السعدي⁽¹⁾ ، وعلي الشوائطي⁽²⁾ ، وعلي

=

- (1) الدر الكمين 66-54/1 .
- (2) المصدر نفسه 196-193/1 .
- (3) المصدر نفسه 207-203/1 .
- (4) المصدر نفسه 223-217/1 .
- (5) المصدر نفسه 343-335/1 .
- (6) المصدر نفسه 384-381/1 .
- (7) المصدر نفسه 395 – 385/1 .
- (8) المصدر نفسه 434 ، 433/1 .
- (9) المصدر نفسه 466 – 464/1 .
- (10) المصدر نفسه 529 – 524/1 .
- (11) المصدر نفسه 594-591/1 .
- (12) المصدر نفسه 606-602/1 .
- (13) المصدر نفسه 654 -647/1 .
- (14) المصدر نفسه 710-706/1 .
- (15) المصدر نفسه 815-812/2 .
- (16) المصدر نفسه 843 – 840/2 .

بن أيوب⁽³⁾ ، وعلي الكيلاني⁽⁴⁾ ، وعلي بن الصباغ⁽⁵⁾ ، وعلي بن محمد بن ناصر⁽⁶⁾ ، وعلي الفاكهي⁽⁷⁾ ، وعمر بن زهير⁽⁸⁾ ، ومعمّر بن عبد القوي⁽⁹⁾ ، ونابت الزمزمي⁽¹⁰⁾ ، ويحيى بن عبد القوي⁽¹¹⁾ .
وقد يبدي المؤلف حكمه على بعض الشعراء ، كقوله – مثلاً – عن عبد الرحيم الأميوطي : "وله نظم كثير ، إلا أنه متلاش إلى الغاية"⁽¹²⁾ ، وكقوله أيضاً عن محمد ابن عمر العرابي : "وله نظم رائع"⁽¹³⁾ .
ويذكر بعض القصائد كاملة ، وربما ذكر البيتين أو الثلاثة في بعض الأحيان ، كما أنه قد يكتفي بالإشارة إلى أن صاحب الترجمة ينظم الشعر دون أن يذكر شيئاً من نتاجه⁽¹⁴⁾ .

ج – الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، للسخاوي :

- 1 -

مؤلف هذا الكتاب الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي ، الشافعي المذهب ، نزيل الحرمين الشريفين .
ولد في القاهرة سنة 831 هـ ، وحفظ القرآن الكريم وهو صغير ، وصلى به في شهر رمضان ، وحفظ جملة من الكتب والمنظومات ، وبرع في الفقه والعربية والقراءات والحديث والتاريخ ، وشارك في الفرائض والحساب والتفسير وأصول الفقه والميقات وغيرها .

=

- (1) المصدر السابق 861/2 – 867 .
- (2) المصدر نفسه 985/2 – 988 .
- (3) المصدر نفسه 1003/2 – 1005 .
- (4) المصدر نفسه 1025/2 – 1028 .
- (5) المصدر نفسه 1056/2 – 1058 .
- (6) المصدر نفسه 1058/2 – 1060 .
- (7) المصدر نفسه 1067/2 – 1073 .
- (8) المصدر نفسه 1129/2 – 1131 .
- (9) المصدر نفسه 1200/2 – 1207 .
- (10) المصدر نفسه 1225/2 – 1227 .
- (11) المصدر نفسه 1249/2 – 1251 .
- (12) المصدر نفسه 841/2 .
- (13) المصدر نفسه 252/2 .
- (14) انظر المصدر نفسه 155/1 ، 187 ، 252 ، 319 ، 691 ؛ 752/2 ، 768-770 ، 824 ، 919 ، 1334 .

ألف كتباً عديدة ، منها : الجواهر والدرر في ترجمة الشيخ ابن حجر ، وفتح المغيث بشرح ألفية الحديث ، والمقاصد الحسنة في الأحاديث الجارية على الألسنة ، والأصل الأصيل في تحريم النقل من التوراة والإنجيل ، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ .

لازم شيخه ابن حجر العسقلاني ، وأخذ عنه الحديث وأكثر تصانيفه ، وأخذ عن مشايخ عصره بمصر ونواحيها حتى بلغوا أربعمئة شيخ ، ثم حج وأخذ عن مشايخ مكة والمدينة ، ثم عاد إلى وطنه وارتحل إلى الإسكندرية والقدس والخليل ودمياط ودمشق وسائر جهات الشام ومصر ، وبرع في هذا الشأن وفاق الأقران ، وحفظ من الحديث ما صار به متفرداً على أهل عصره ، ثم حج سنة 870هـ وأهله وأولاده ، وجاور وانتفع به أهل الحرمين ، ثم عاد إلى القاهرة وانتفع الناس به ، ثم حج مرات وجاور مرات في مكة والمدينة ، وحمل الناس من أهلها والقادمين إليهما عنه الكثير جداً .

وكانت وفاته في مجاورته الأخيرة في المدينة الشريفة في شهر شعبان من سنة 902هـ⁽¹⁾ .

- 2 -

يقع الضوء اللامع في اثني عشر جزءاً ، نشرته دار الكتاب الإسلامي في القاهرة في ستة مجلدات (كل جزأين في مجلد) ، يحوي المجلد الواحد نحو ألفي ترجمة⁽²⁾ .

والكتاب تراجم لأعلام القرن التاسع الهجري ، وهو القرن الذي عاش فيه المؤلف . اتبع فيه الترتيب الهجائي للأسماء دون الألقاب والكنى ، جاعلاً الجزء الحادي عشر للكنى ، والجزء الثاني عشر لتراجم النساء .

(1) انظر ترجمته في : الضوء اللامع 2/8-32 ؛ نظم العقيان ، السيوطي ، ص152 ، 153 ؛ النور السافر ، العيدروس ، ص40-47 ؛ الكواكب السائرة ، الغزي 1/53 ، 54 ؛ البدر الطالع ، الشوكاني 2/184-187 .

(2) وقد اعتمدت على هذه الطبعة في دراستي هذه . وعلى الرغم من أنها غير مؤرخة ؛ فإنها على ما يبدو أحدث طبعة لهذا الكتاب الذي سبق أن "طبع بين سنتي 1353هـ - 1355هـ ، بعناية مكتبة القدسي... في القاهرة ، اعتماداً على بعض النسخ الخطية بدار الكتب المصرية وغيرها" .

- عصر سلاطين المماليك ، محمود رزق سليم 4/272 . وفي آخر الجزء الثاني عشر من النسخة التي بين يدي من الضوء ذكر للنسخ المعتمد عليها في إخراجها .

وكان تمام تأليفه في آخر حياة السخاوي ، ذلك أنه في ترجمة يوسف الكدراني قال : "وهو الآن (سنة 899هـ) بالمدينة" (1) . وقد ترجم لأناس عاشوا في القرنين الثامن والعاشر الهجريين ؛ حيث إن منهم من ولد في القرن الثامن ، ومنهم من كانت وفاته في القرن العاشر . وهو لم يذكر تاريخ الوفاة لنفر من أولئك الأعلام الذين أدركوا القرن العاشر ؛ لأنهم إبان ذلك أحياء .

وقد قال المؤلف في مقدمة كتابه هذا : "جمعت فيه من علمته من أهل هذا القرن الذي أوله سنة إحدى وثمانمئة - ختم بالحسنى - من سائر العلماء والقضاة والصلحاء والرواة والأدباء والشعراء والخلفاء والملوك والأمراء والمباشرين والوزراء ، مصرياً كان أو شامياً أو حجازياً أو يمنياً ، رومياً أو هندياً ، مشرقياً أو مغربياً . بل وذكرت فيه بعض المذكورين بفضل ونحوه من أهل الذمة" .

وقد استوفى فيه مَنْ ورد من الأعلام في معجم شيخه ابن حجر العسقلاني ، وأنبائه، وما وقع عليه من تواريخ عصره ، وتراجم أعيانه (2) .

والواضح أنه استفاد ممن سبقه ، لكنه لا يكتفي بما يأخذه عنهم ، بل يضيف معلومات دقيقة لا تتوافر لدى السابقين . ومن يتابع بعض التراجم في هذا الكتاب وما ذكر عنها في إنباء شيخه ابن حجر - مثلاً - يدرك حقيقة ذلك (3) .

وهذا الكتاب - بغزارة مادته وتنوعها - صورة واضحة لثقافة صاحبه وسعة علمه ، حتى إن القاضي الشوكاني قد بلغ من إعجابه بهذا الكتاب أن قال وهو يترجم للسخاوي : "لو لم يكن لصاحب الترجمة من التصانيف إلا الضوء اللامع لكان أعظم دليل على إمامته ؛ فإنه ترجم فيه أهل الديار الإسلامية وسرد في ترجمة كل أحد محفوظاته ومقروءاته وشيوخه ومصنفاته وأحواله ومولده ووفاته على نمط حسن وأسلوب لطيف ينبهر له من لديه معرفة بهذا الشأن ، ويتعجب من إحاطته بذلك

(1) الضوء 303/10 .

(2) المصدر نفسه 5/1 (مقدمة المؤلف) .

(3) انظر - على سبيل المثال - : ترجمة محمد بن عمر الطنبدي في إنباء الغمر 207/4 ،

والضوء 250/8 ، 251 ؛ و ترجمة محمد بن يوسف الحلاوي في إنباء الغمر 63/3 ،

64 ، والضوء 90/10 ، 91 .

وسعة دائرته في الاطلاع على أحوال الناس" (1) .
وقد ترجم السخاوي لنفسه ترجمة وافية شغلت إحدى وثلاثين صفحة
من بداية الجزء الثامن من هذا الكتاب ، فضلاً عن بعض الأضواء التي
يلقيها على حياته في ثنايا الكتاب ، حينما يتحدث عن بعض الأعلام الذين
لقيهم وتواصل معهم . كما عني بترجمة شيوخه ، وأظهر عبارات التقدير
والاحترام لهم ، وخاصة شيخه ابن حجر العسقلاني ، لكنه لا يتردد في
مخالفتهم والتصريح بذلك إن رأى في كلامهم ما يحتاج إلى تصويب ،
فهو – مثلاً – قد أرخ ولادة محمد بن علي النميري في ربيع الأول سنة
762 هـ ، ثم قال في نهاية الترجمة : "ذكره شيخنا في إنبائه باختصار ،
وأرخ مولده في ربيع الآخر ، والمعتمد ما قدمته" (2) .
والسخاوي دقيق في تحديد سنة الولادة والوفاة ، حتى إنه لا يكتفي
باليوم – إذا كان على علم به – بل يحدد الوقت منه ، ليلاً أو نهاراً (3) .
ويكتب لفظة (ظناً) أو (تقريباً) إذا لم يكن متيقناً ، أو أن يقول : ولد
سنة كذا أو التي بعدها ، أو مات في حدود سنة كذا ، أو كان حياً في سنة
كذا (4) ، وقد نجد عبارة : ولد كما قرأته بخطه ، أو كما أخبرني سنة كذا
، أو يشير إلى أحد العلماء الذين نقل عنهم (5) .
وهو حريص على ضبط الأعلام وإيضاح ما يشكل منها ، كقوله –
مثلاً - : "معمّر – كمحمد - ... أبو اليسر – بفتحتين –" (6) .
وعلى نحو من ذلك قوله عن أحد الأعلام المترجمين : "ويعرف
بالفرسيسي – بفتح الفاء وسكون الراء وكسر المهملتين بينهما
تحتانية –" (7) .
وتراجم الكتاب متفاوتة في الطول ؛ فمنها ما جاء في عدة صفحات ،
وبعضها في صفحة واحدة ، أو في شطر منها ، كما جاء بعضها في

- (1) البدر الطالع 186/2 .
- (2) الضوء اللامع 162/8 .
- (3) انظر المصدر نفسه: 126/1 ، 168 ، 181 ، 182 ، 202 ، 256 ؛ 10/6 ، 12 ، 13 ، 29 ، 85 ، 91 ؛ 12/9 ، 16 ، 24 ، 50 ، 52 ، 86 ، 268 .
- (4) انظر : المصدر السابق 110/2 ؛ 61/4 ؛ 294/5 ؛ 275/6 ؛ 98/7 ، 99 ، 102 ، 104 ، 160 ، 161 ؛ 269/9 .
- (5) انظر : المصدر نفسه 363/1 ؛ 103/3 ؛ 237/4 ؛ 330/5 ؛ 50/6 ؛ 105/7 ؛ 11/11 .
- (6) المصدر نفسه 162/10 .
- (7) المصدر نفسه 227/8 .

ثلاثة أسطر أو سطرين ، بل قد تكون في سطر واحد أو أقل⁽¹⁾ . ويبدو أن عدم توافر المعلومات عن صاحب الترجمة أبرز الأسباب في قصر بعض التراجم ، وأصحاب التراجم القصيرة أقل شأنًا – في الغالب – من الأعلام الآخرين .

وقد يلحظ الناظر في هذا الكتاب حرص المؤلف على تدوين كل ما يعرفه عن الشخصية المترجمة ، كما يتضح من خلال متابعة التراجم الشخصية في الكتاب . جانب من شخصية المؤلف ؛ إذ إن له "نقداته القيمة المتجلية بين كثير من سطوره مترجمة بين المدح والقدح ، وهي نقداً جليلة الشأن ، رائعة أحياناً ، ومن أجلها وحدها سلك السخاوي في عداد المؤرخين النابهيين الذين نضج النقد التاريخي على أيديهم . والسخاوي ناقد عادل في كثير من تراجمه ، جريء في إبداء رأيه ، صريح لا يوري ويلمح"⁽²⁾ ، حتى إنه عمد إلى النقد اللاذع لبعض الشخصيات⁽³⁾ .

- 3 -

والمؤلف لم يعن بتدوين بعض القصائد للشعراء المترجم لهم ، أو ذكر نماذج تغني دارس الأدب ، بل يكتفي بالنتفة أو القطعة التي لا تتجاوز – في الغالب – خمسة أبيات . ويشير في كثير من الأحيان إلى شيء من النتاج الشعري للمترجم له ، مثل قوله – بعد أن ذكر بيتين لعطاء بن اللوكة - : "وعندي من نظمه غير هذا"⁽⁴⁾ . وقوله في ترجمة علي بن محمد العليف : "وبلغني أن له قصيدة بليغة نبوية أودعها في ديوان له مشتمل على قصائد غالبها صوفية"⁽⁵⁾ . وربما ذكر من شعراء مكة والمدينة الذين مدحوا أورثوا الشخصية المترجمة ، كقوله – مثلاً – في ترجمة علي بن محمد النويري : "ورثاه الشهاب بن العليف وغيره"⁽⁶⁾ ، لكنه لا يثبت الشعر .

(1) انظر المصدر نفسه : 30/1 ، 32 ، 58 ، 113 ، 188 ، 189 ؛ 42/5 ، 48 ، 70 ، 73 ، 76 ، 125 ، 209 ، 217 ، 297 .

(2) عصر سلاطين المماليك ، محمود رزق سليم 276/4 .

(3) انظر: الضوء اللامع 34/4 ، 100 ، 129 ؛ 189/7 ، 277 ، 295 .

(4) المصدر نفسه 147/5 .

(5) المصدر نفسه 298/5 .

(6) المصدر نفسه 13/6 .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن هذا الكتاب أحد المصادر المهمة للشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ لكثرة الشعراء الذين ترجم لهم وذكر شيئاً من شعرهم ، فالمتابع لأجزائه الاثني عشر يظفر بمادة شعرية لشعراء مكة والمدينة لم تذكرها المصادر الأخرى . ومن شعراء مكة والمدينة الذين ترجم لهم السخاوي وذكر شيئاً من شعرهم في هذا الكتاب : إبراهيم بن أحمد الخجندي (1) ، وإبراهيم بن علي

الزمزمي (2) ، وإبراهيم بن مبارك القبطي (3) ، وإبراهيم بن محمد الخجندي (4) ، وأحمد بن أحمد بن محمد القرشي (5) ، وأحمد بن أبي بكر بن الرداد (6) ، وأحمد بن الحسين العليف (7) ، وأحمد بن صدقة العسقلاني (8) ، وأحمد بن عبد القوي بن محمد بن عبد القوي (9) ، وأحمد بن علي الفاسي (10) ، وأحمد بن محمد القليوبي (11) ، وأحمد بن مسدد الكازروني (12) ، وإسماعيل بن علي الزمزمي (13) ، وحسن بن محمد المرجاني (14) ، وسالم بن محمد بن صنبه (15) ، وعبد الأول بن محمد المرشدي (16) ، وعبدالرحمن بن علي الواحدي (17) ، وعبد القادر بن عبداللطيف بن السراج (18) ، وعبد الكريم بن

- (1) المصدر نفسه 24/1 ، 25 .
- (2) المصدر السابق 86/1 ، 87 .
- (3) المصدر نفسه 118/1 ، 119 .
- (4) المصدر نفسه 119/1 ، 120 .
- (5) المصدر نفسه 223/1 .
- (6) المصدر نفسه 260/1 - 262 .
- (7) المصدر نفسه 290/1 .
- (8) المصدر نفسه 316/1 - 319 .
- (9) المصدر نفسه 352/1 ، 353 .
- (10) المصدر نفسه 35/2 ، 36 .
- (11) المصدر نفسه 133/2 ، 134 .
- (12) المصدر نفسه 225/2 ، 226 .
- (13) المصدر نفسه 302/2 ، 303 .
- (14) المصدر نفسه 122/3 ، 123 .
- (15) المصدر نفسه 243/3 .
- (16) المصدر نفسه 21/4 - 23 .
- (17) المصدر نفسه 96/4 .
- (18) المصدر نفسه 272/4 - 275 .

عبدالرحمن ابن ظهيرة (1) ، وعلي بن أحمد بن الشوائطي (2) ، وعلي بن أيوب (3) ، وعلي بن حسن بن عجلان (4) ، وعلي بن محمد العليف (5) ، وعلي بن ناصر الحجازي (6) ، ومحمد بن إبراهيم الخجندي (7) ، ومحمد بن أحمد الخجندي (8) ، ومحمد بن أحمد الصغير (9) ، ومحمد بن أحمد بن الضياء (أبو البقاء) (10) ، ومحمد بن أبي بكر بن طولون (11) ، ومحمد أبو الفرج (12) ، ومحمد بن عبد القوي (13) ، ومحمد بن عبد الله بن ظهيرة (14) ، ومحمد اليافعي (15) ، ومحمد بن عبد الوهاب بن يعقوب (النجم أبو المعالي) (16) ، ومحمد بن ظهيرة القرشي (أبو البركات) (17) ، ومحمد بن علي العبدري (18) ، ومحمد المسوفي (19) ، ومحمد الكيلاني (20) ، ومحمد بن محمد الطبري (21) ، ومحمد بن ظهيرة (الجلال أبو السعادات) (22) ، ومحمد بن محمد الكازروني (23) ، ومحمد بن ظهيرة (أبو الخير) (24) ، ومحمد بن فهد (1) ، ومحمد المعيد (2) ، ومحمد بن موسى (3) ،

- (1) المصدر نفسه 310/4 ، 311 .
- (2) المصدر نفسه 174/5 .
- (3) المصدر نفسه 195/5 ، 196 .
- (4) المصدر السابق 211/5 .
- (5) المصدر نفسه 298/5 ، 299 .
- (6) المصدر نفسه 45/6 - 47 .
- (7) المصدر نفسه 245/6 ، 246 .
- (8) المصدر نفسه 314/6 ، 315 .
- (9) المصدر نفسه 323/6 ، 324 .
- (10) المصدر نفسه 84/7 ، 85 .
- (11) المصدر نفسه 161/7 ، 162 .
- (12) المصدر نفسه 165/7-167 .
- (13) المصدر نفسه 71/8-73 .
- (14) المصدر نفسه 92/8-95 .
- (15) المصدر نفسه 134/8 .
- (16) المصدر نفسه 137/8 .
- (17) المصدر نفسه 208/8 ، 209 .
- (18) المصدر نفسه 13/9 ، 14 .
- (19) المصدر نفسه 115/9 .
- (20) المصدر نفسه 151/9 .
- (21) المصدر نفسه 191/9-194 .
- (22) المصدر نفسه 214/9-216 .
- (23) المصدر نفسه 272/9 .
- (24) المصدر السابق 279/9 ، 280 .

ومحمد بن يعقوب⁽⁴⁾، ومعمار بن عبدالقوي⁽⁵⁾، ونابت الزمزمي⁽⁶⁾،
ويحيى ابن عبدالقوي⁽⁷⁾، ويوسف الحلواني⁽⁸⁾، وأبوبكر العيني⁽⁹⁾،
وأبوبكر بن الجمال⁽¹⁰⁾.

د - التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، للسخاوي (11) :

- 1 -

يقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء ، تحوي ما يقارب خمسة آلاف
ترجمة⁽¹²⁾ . وقد تم طبعه في غرة ذي الحجة من سنة 1377 هـ ، بمطبعة
السنة المحمدية في القاهرة ، كما طبع هذا الكتاب بمطبعة دار نشر الثقافة
في القاهرة بعناية أسعد طرابزونى الحسيني ، ونشر جزءاه الأول
والثاني سنة 1399 هـ ، والجزء الثالث سنة 1400 هـ⁽¹³⁾ .

وقد ذكر محقق الكتاب محمد حامد الفقي أنه بذل في تصحيحه
أقصى جهد وأضناه ؛ لأن الأصل المصور سقيم ، مشيراً إلى أن كاتبه
عامي ، كما أوماً إلى أن هذا هو ما عثر عليه من مخطوط الكتاب ، وبقي
الثالث الثالث الذي لم يعرف خبر نسخة منه . وأكثر المحقق من الإشارة
في الهامش إلى البياض في الأصل.

وإذا التمس للمحقق العذر في كونه معتمداً على نسخة واحدة غير

-
- =
- (1) المصدر نفسه 283-281/9 .
 - (2) المصدر نفسه 46 ، 45/10 .
 - (3) المصدر نفسه 58-56/10 .
 - (4) المصدر نفسه 87/10 .
 - (5) المصدر نفسه 163 ، 162/10 .
 - (6) المصدر نفسه 195 ، 194/10 .
 - (7) المصدر نفسه 250/10 .
 - (8) المصدر نفسه 326/10 .
 - (9) المصدر نفسه 21 ، 20/11 .
 - (10) المصدر نفسه 74/11 .
 - (11) تم تقديم نبذة عن المؤلف شمس الدين السخاوي أثناء الحديث عن كتابه السابق (الضوء اللامع).
 - (12) ترجم في الجزء الأول لـ (1091 شخصية) ، وفي الجزء الثاني لـ (1508) ، كما حوى الجزء الثالث (1490 ترجمة) .
 - (13) وقد اعتمدت على هذه الطبعة في هذا البحث .

جيدة ؛ فإنه لا يمكن أن يعذر على كثرة التصحيف ، وبعض الأخطاء النحوية التي لا يمكن أن تصدر من عالم جليل مثله . والواضح أنه لم يعن بمراجعة الكتاب بعد طباعته ، ولم يهتم بإخراج الصفحات وتناسق الأسطر ، ولو فعل ذلك ؛ لاستدرك ما فات الناسخ من تصحيفات وأخطاء كثيرة (1) .

ومن ينعم النظر في هذا الكتاب ؛ يدرك مبالغة الدكتور طه حسين في تقديمه ، حينما ذكر أن "إخراج هذا الكتاب على هذا الوضع القيم... يدل على جهد شاق ، وعناية كبرى" (2) .

والحقيقة أن إخراج مثل هذا الكتاب عمل يستحق الشكر ، ولكن نعتة بالقيم الدال على جهد شاق وعناية كبرى أمر فيه نظر .

وقد ألف السخاوي كتابه هذا في المدينة المنورة (3) في آخر حياته (4) . ويتضح في بعض التراجم أن ثمة من استدرك على السخاوي بإكمال بعض المعلومات التي جدت بعده ؛ ففي نهاية ترجمة أحمد العليف – مثلاً – أضيف إلى كلام السخاوي : "أقول : وبعد المؤلف باع داره بالمدينة لدين عليه [يعني العليف] وتردد لمكة وتزوج فيها..." (5) .

وقد نبه المحقق في الهامش قائلاً : "هذا القائل مؤلف آخر غير السخاوي ، بلا شك . وهو دليل على أن هذا من استدراك أحد تلاميذ

(1) منها : وممن ترجمه شيخنا في الدور [يريد الدرر] ... والولي العراقي في وفاته [يريد وفياته] - 104/1 - ، ويعرف كأبيه بابن الغليف [يعني : العليف] تصغير غلف [يريد : علف] - 176/1 - ، وابنتى بالمدينة داراً [يريد : وابنتى] - 177/1 - ، ويعرف بابن خبطة [يعني : ابن خبطة] الشاعر القليوبي - 238/1 - ، فليذكر [يريد : فليذكر] - 160/2 - ، الجمال الكازوني [يعني الكازروني] - 449/2 - ، مما شاع [يريد : شاء] يصنع - 471/3 - ، من أبي ذكريا [يريد : ذكريا] - 478/3 - ، سنة ثلاثين وسبعين [يعني : سنة ثلاث وسبعين] - 493/3 - ، وامتدحتى [يريد : وامتدحتني] - 674/3 - ، وكان دعائه [يريد : دعاؤه] يومئذ - 304/2 (الهامش) ، وممن أخذ عنه : أبي الفرج [يريد أبو الفرج] - 650/3 - .

(2) التحفة اللطيفة 8/1 .

(3) المصدر السابق 22/1 .

(4) في هذا الكتاب (97/1) ذكر لوصول أمير المدينة في رجب من سنة 901 هـ ، وحديث عن سيرته بعد ذلك .

(5) المصدر نفسه 177/1 .

السخاوي أو غيره ، فالله أعلم" (1) .
والمحقق مصيب في توقعه ؛ إذ تبين أن القائل هو الشيخ جار الله بن
فهد (أحد تلاميذ السخاوي) (2) .

والسخاوي – كما أشار في مقدمة هذا الكتاب – قد توجه لبيان أحوال
أهل طيبة ، ذاكراً من قطنها من الغرباء ولو سنة ، بشرط أن يكون درس
فيها أو حدث أو أفتى ، وأورد جماعة من الأمراء والملوك الذين تولوا
إمرة الحرمين ، وجمعاً ممن وصف بمفتي الحرمين أو قاضيها أو
شيخها ، موضحاً أنه استفاد ممن سبق من المؤرخين .

وأبان عن سبب تأليفه هذا الكتاب قائلاً : "وكان مما حداني على هذا
الجمع الذي تقر به العين ويصغي إليه صحيح السمع ؛ أنني لم أجد فيه
مصنفاً يشفي الغليل وينفي الجهل باتضاح المقال والتعليل ، مع ميسر
الحاجة إليه" (3) .

وقد رتب المؤلف كتابه على حروف المعجم ، مراعيّاً الترتيب في
الآباء والأجداد ، مردفاً الأسماء بالكنى والأنساب . وعلى الرغم من
إشارته إلى أنه أعقب ذلك بذكر النساء (4) ؛ فإن المتابع للكتاب في أجزائه
الثلاثة لا يجد للنساء ذكراً ، فلعل تراجع النساء في الجزء المفقود من
الكتاب .

افتتح الكتاب بعد المقدمة بسيرة مختصرة للمصطفى ع ، ثم إشارات
عن المسجد النبوي الشريف ، وإلى ما بجوانبه من المدارس والأربطة
والآبار وغيرها ، ومن باشره من الأئمة والخطباء والقضاة والمؤذنين
ورؤسائهم والنظار والمحتسبين والفراشين والخدم ، أعقب ذلك ذكر من
استعملهم النبي ع على المدينة الشريفة حين بروزه للغزوات ونحوها ،
وذكر بعد ذلك من تولوا أمر المسلمين في المدينة حتى عصره ، ثم انتقل
إلى التراجع بادئاً بحرف الألف .

ومنهج المؤلف في هذا الكتاب لا يختلف كثيراً عن منهجه في
الضوء اللامع ؛ فالتراجع تطول وتقصر حسب أهمية العلم والمعلومات
المتوافرة عنه . وهو دقيق في تحديد تاريخ الولادة والوفاة ، وخاصة أهل

(1) المصدر نفسه 177/1 (الهامش).

(2) انظر : النور السافر ، العيدروس ، ص 181 .

(3) التحفة اللطيفة 19/1 .

(4) المصدر السابق 20/1 .

عصره والعصر السابق له ؛ إذ لا يكفي بتحديد السنة والشهر ، بل اليوم والوقت على نحو قوله عن محمد النويري : "ولد في سحر ليلة الاثنين حادي عشر رمضان سنة خمس وسبعين وسبعمئة بالمدينة النبوية" (1) ، وكقوله في تاريخ وفاة محمد الشستري : "ومات بعد العشاء من ليلة النصف من شعبان سنة خمس وثمانين وسبعمئة بالمدينة النبوية" (2) . وإذا لم يتيقن أورد ما ينبئ عن ذلك ، كقوله - مثلاً - : ولد سنة كذا أو التي تليها ، أو ولد في آخر سنة كذا أو التي تليها ، أو مات في حدود سنة كذا ، أو آخر عهدي به سنة كذا ، أو قيل : كان موجوداً سنة كذا (3) . وهو حريص على ذكر من ينقل عنه ، فيقول - مثلاً - : "توفي سنة ... كما ذكره ابن البرزوري في تاريخه" (4) ، أو "ومات بمكة ، قاله ابن صالح" (5) ، وكقوله : "أرخ ابن فرحون وفاته سنة ... " (6) ، أو "أرخه الدمياطي سنة ... " (7) . ومن ذلك قوله : "ذكره ابن عبد البر ، ثم شيخنا" (8) .

وقد أطلق شيخنا في مواضع عديدة - ويعني به ابن حجر العسقلاني - منها قوله : قاله أو ذكره شيخنا في الإصابة (9) . وعني المؤلف بضبط الأعلام المشكلة ، كقوله : "علباء - بكسر العين المهملة ، وسكون اللام ، بعدها موحدة ممدودة - ... " (10) ، ومنه قوله : "ويعرف بابن القنان - بضم القاف - ... " (11) .

(1) المصدر نفسه 395/3 .

(2) المصدر نفسه 478/3 .

(3) انظر : المصدر السابق 104/1 ، 136 ، 267 ؛ 66/2 ؛ 58/3 .

(4) المصدر نفسه 226/2 .

(5) المصدر نفسه 279/3 .

(6) المصدر نفسه 615/3 .

(7) المصدر نفسه 334/2 .

(8) المصدر نفسه 207/2 .

(9) المصدر نفسه 194/2 ، 207 .

(10) المصدر نفسه 209/3 .

(11) المصدر نفسه 243/3 .

- 2 -

وقد ترجم السخاوي في هذا الكتاب لمجموعة من شعراء مكة والمدينة وكانت عنايته بشعراء المدينة أكثر . وهو مصدر مهم من مصادر الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ على الرغم من أن المؤلف قد اكتفى بنماذج قليلة في تراجمه ، أغلبها نتف ومقطوعات تتراوح ما بين ثلاثة أبيات وخمسة على الأغلب ، ويندر استشهاده بقصيدة طويلة أو أبيات عديدة . وقد يشير إلى قصائد بعض الشعراء في أثناء الترجمة ولكنه لا يثبت نماذج منها ، كقوله - مثلاً - عن أحمد العليف : "وقد رثى كلاً من أبي اليمن والنجم بن فهد" (1) ، غير أنه لم يذكر شيئاً من المرثيتين ، وكقوله عن محمد بن أحمد الخجندي : "وكتب إليّ بخطه عدة قصائد وغيرها من نظمه" (2) ، لكنه لم يذكر نماذج منها.

وتكمن أهمية هذا المصدر في أنه ضم أبياتاً لبعض الشعراء في مكة والمدينة لا توجد في غيره من مصادر الشعر في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .

ومن الشعراء الذين ترجم لهم وذكر نماذج من شعرهم : إبراهيم بن أحمد الخجندي (3) ، وإبراهيم بن محمد الخجندي (4) ، وأحمد بن علي الفاسي (5) ، وأحمد ابن مسدد الكازروني (6) ، وعلي الخجندي (7) ، ومحمد بن إبراهيم الخجندي (8) ، ومحمد ابن أحمد الخجندي (9) ، ومحمد بن أبي بكر بن طولون (10) ، ومحمد أبو الفرج (11) ، ومحمد بن يعقوب (12) .

(1) المصدر السابق 177/1 .

(2) المصدر نفسه 472/3 .

(3) المصدر نفسه 107-105/1 .

(4) المصدر نفسه 134/1 ، 135 .

(5) المصدر نفسه 208-206/1 .

(6) المصدر نفسه 269-267/1 .

(7) المصدر نفسه 248-246/3 .

(8) المصدر نفسه 452-450/3 .

(9) المصدر نفسه 472-469/3 .

(10) المصدر نفسه 534-531/3 .

(11) المصدر نفسه 542-539/3 .

(12) المصدر نفسه 661-659/3 .

هـ - غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ، لعز الدين بن فهد :

- 1 -

مؤلف هذا الكتاب هو أبو فارس وأبو الخير عز الدين عبدالعزيز بن عمر بن محمد ابن محمد بن محمد بن عبدالله بن فهد .
ولد في سنة 850هـ بمكة المكرمة ، ونشأ في بيت علم ؛ فأبوه عمدة المؤرخين الحافظ الثقة نجم الدين ، وجده لأبيه العالم الجليل الحافظ تقي الدين . حفظ القرآن الكريم وكثيراً من المتون حتى برع في علم الحديث والتاريخ والعربية ، ولم يكتف بما حصله من علم في بلده ؛ فرحل إلى المدينة ومصر والشام ، وكرر رحلاته خارج الحجاز . أجازته جماعة من العلماء ؛ فدرس وأفتى وانتفع به كثير من طلاب العلم ، وأثنى عليه جماعة من العلماء مشيدين بفضلته وسعة علمه .
له مؤلفات عديدة ، منها : بلوغ القرى بذيّل إتحاف الورى ، الترغيب والاجتهاد في الباعث لذوي الهمم العلية على الاجتهاد ، نزهة ذوي الأحكام بأخبار الخطباء والأئمة وقضاة البلد الحرام ، معجم شيوخه (نحو ألف شيخ) .
توفي - يرحمه الله - في شهر جمادى الأولى من سنة 922هـ (1) .

- 2 -

يقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء ، حققها الأستاذ فهم محمد شلتوت ، ونشرها مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى .
طبع الجزء الأول في دار المدني بجدة سنة 1406هـ ، وطبع الجزءان الثاني والثالث في شركة مكة للطباعة والنشر بمكة المكرمة سنة 1409هـ .

وقد أشار المؤلف في مقدمته إلى أن والده نجم الدين عمر بن فهد قد سبقه لجمع تراجم كثيرة ، مقتفياً أثر جماعة ، منهم شيخه تقي الدين

(1) انظر ترجمته في : الضوء اللامع ، السخاوي 224/4-226 ؛ الكواكب السائرة ، الغزي 238/1 ، 239 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 144/10-146 ؛ السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 93/ب ، 94/أ ؛ بنو فهد مؤرخو مكة المكرمة ، ناصر الرشيد (مجلة العرب : س11 ، ج11 ، 12 ، جماديان 1397هـ) ؛ غاية المرام 15-7/1 (مقدمة المحقق).

الفاشي في كتابه العقد الثمين . وقد أكد عز الدين بن فهد مشاركة والده في وضع هذا الكتاب قائلاً : "فأخذت جميع ما ذكره في مسودته ، وأضفت إليها زيادات لا يستغنى عنها ، وفوائد مهمة لا بد منها ، وعزوت كل شيء إلى من سبقني لوضعه" (1).

وهو كتاب تراجم لمن ولوا إمرة مكة . رتبته المؤلف حسب السبق في تولي الإمارة . وقد وضّح سبب ذلك قائلاً في مقدمته : "ورتبته الجميع على حسب السبق في ولاياتهم ؛ ليعرف السابق من المتأخر بعد وفاتهم ، وذلك من زمن النبي ع وصحبه إلى زماننا هذا الذي نحن فيه" . وقد ابتدأ التراجم بالصحابي عتّاب بن أسيد ، وانتهى بولاية بركات بن محمد ابن بركات بن حسن بن عجلان .

واعتمد المؤلف – فضلاً عما كتبه والده وما في العقد الثمين لشيخه الفاسي – على بعض المصادر ، مثل : أخبار مكة للأزرقي ، وأسد الغابة ، والإصابة في تمييز الصحابة ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ، والتحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة للسخاوي ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ، والاستيعاب لابن عبد البر ، وتاريخ الطبري ، وغيرها من المصادر التي كان المؤلف حريصاً على ذكرها في معرض كلامه . وهو "لا يترك معلومة عن المترجم له تكون قد وردت في مرجع من المراجع التي تيسرت له إلا ويذكرها ، وينسبها إلى مصدرها ... ولا يترجم لأحد من غير ولاية مكة" (2) .

- 3 -

وغاية المرام مصدر مهم من مصادر الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ إذ يحفل بقصائد ومقطوعات

(1) توفي النجم بن فهد قبل أن يكمل كتابه الذي سماه (بغية المرام بأخبار ولاية البلد الحرام) ؛ فاعتمد ابنه العز بن فهد على كتاب والده – كما ذكر – في تأليف (غاية المرام) . وقد ذكر محمد الحبيب الهيلة في كتابه (التاريخ والمؤرخون بمكة ، ص176) أن المطلع على الكتاب ؛ يدرك أن العز نقل كتاب والده ، وأتم ما نقص فيه ، مع تغيير يسير في العنوان ؛ لذلك لا يرى أن ينسب الكتاب إلى العز بن فهد وحده ، خاصة وأن فكرة وضع الكتاب تعود للنجم بن فهد .

(2) غاية المرام 19/1 ، 20 (مقدمة المحقق). وللمحقق جهد وافر في هذا الكتاب ؛ إذ إنه فضلاً عن عنايته بإخراج الكتاب بصورة جيدة ، ألحق به – كما أشار في مقدمته – أخباراً أوردها المؤلف نفسه في كتابه (بلوغ القرى بذيّل إتحاف الورى) ، كما أثبت أخبار مكة في بقية عهد الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان الذي امتدت به الحياة بعد المؤلف بحوالي تسع سنوات.

شعرية لعدد من شعراء مكة والمدينة الذين لهم صلة ببعض الأمراء في ذلك العهد . من أولئك الشعراء : أحمد ابن سعد الخيفي⁽¹⁾ ، والشريف حسن بن عجلان⁽²⁾ ، ومحمد بن عبد الوهاب اليافعي⁽³⁾ ، وأحمد بن علي الفاسي⁽⁴⁾ ، وحسين بن محمد العليف⁽⁵⁾ ، وعلي بن محمد العليف⁽⁶⁾ ، ومحمد بن عبد القوي⁽⁷⁾ ، والشريف بركات بن حسن بن عجلان⁽⁸⁾ ، وأحمد بن محمد القليوبي⁽⁹⁾ ، والشريف إبراهيم بن حسن بن عجلان⁽¹⁰⁾ ، وأبو الخير محمد بن ظهيرة⁽¹¹⁾ ، ومحمد بن عمر الفيومي⁽¹²⁾ ، وعلي بن ناصر الحجازي⁽¹³⁾ ، ومحمد بن عبدالعزيز النويري⁽¹⁴⁾ ، وأحمد العليف⁽¹⁵⁾ ، وعبد القادر العراقي⁽¹⁶⁾ ، والشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان⁽¹⁷⁾ ، وأبوبكر بن أبي الخير⁽¹⁸⁾ ، ومحمد بن عبد الوهاب بن يعقوب⁽¹⁹⁾ ، وأحمد ابن محمد الحرازي⁽²⁰⁾ .

و – النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، للعيدروس :

- 1 -

مؤلف هذا الكتاب عبد القادر بن شيخ بن عبدالله بن شيخ بن عبدالله

-
- (1) غاية المرام 348/2 .
 - (2) المصدر نفسه 355/2 .
 - (3) المصدر نفسه 357/2 .
 - (4) المصدر نفسه 363-357/2 .
 - (5) المصدر نفسه 367-363/2 ، 391-386 .
 - (6) المصدر نفسه 367/2 – 373 .
 - (7) المصدر نفسه 383-373/2 ، 420-418 ، 466-458 ، 494-491 .
 - (8) المصدر نفسه 262/3 – 271 ، 159 – 161 .
 - (9) المصدر نفسه 457/2 ، 458 ، 506-502 ، 610-606 .
 - (10) المصدر نفسه 474/2 .
 - (11) المصدر نفسه 529-525/2 ، 610 ، 611 .
 - (12) المصدر نفسه 617/2 – 620 .
 - (13) المصدر السابق 624-621/2 ؛ 144-139/3 .
 - (14) المصدر نفسه 77-74/3 .
 - (15) المصدر نفسه 154-149/3 ، 199-190 ، 206-202 ، 258-252 ، 287-283 .
 - (16) المصدر نفسه 158-155/3 .
 - (17) المصدر نفسه 161-159/3 ، 271-262 .
 - (18) المصدر نفسه 165-162/3 ، 298-293 .
 - (19) المصدر نفسه 225-222/3 .
 - (20) المصدر نفسه 261-258/3 .

العيدروس . ولد في مدينة أحمد آباد بالهند في سنة 978هـ ، ونشأ في كنف والده العالم ، حيث درس عليه وعلى جملة من العلماء ، وقرأ القرآن الكريم حتى ختمه ، ثم اشتغل بالتحصيل ، وقرأ عدة متون ، وشارك في كثير من الفنون ، وتصدى لنشر العلم ، فأخذ عن كثير من أعلام عصره ، ونال تقدير العلماء والرؤساء ، وكاتبه بعض الملوك ، ورفدوه بما يليق بمكانته . كانت له همة في اقتناء الكتب ، حتى إنه بالغ في طلبها من أقطار مختلفة ، كما أنه ورث الكتب التي كان يكتنيها والده ، فاجتمع عنده جملة منها.

وهو ممن لبسوا خرقة التصوف ، وهذا ما يفسر عنايته بالمتصوفة ، وتتبعه أخبارهم ، كما أنه شاعر له ديوان سماه (الروض الأريض والفيض المستفيض) .

له مؤلفات عديدة ، منها : المنتخب المصطفى في أخبار مولد المصطفى ، والمنهاج إلى معرفة المعراج ، وأسباب النجاة والنجاح في أذكار المساء والصباح ، ومنح الباري بختم البخاري ، والروض الفاخر فيمن اسمه عبدالقادر من أهل القرنين التاسع والعاشر . توفي سنة 1038هـ ، بمدينة أحمدآباد ، ودفن فيها (1) .

- 2 -

طبع هذا الكتاب أول مرة ونشر في بغداد سنة 1353هـ/1934م بعناية محمد رشيد الصفار ، ولكنها طبعة غير جيدة فيها أخطاء كثيرة .

ثم نشر مرة أخرى بتحقيق الدكتور أحمد حالي ، والأستاذين محمود الأرنؤوط وأكرم البوشي في مجلد واحد بين دفتيه 363 صفحة ، طبع في بيروت ونشرته دار صادر في سنة 1422هـ/2001م . ومن يطلع على الكتاب في طبعته القديمة ، ثم ينظر في هذه الطبعة الجديدة ؛ يلمس الجهد الكبير الذي بذله المحققون الثلاثة ، حيث بنوا عملهم على مقابلة المطبوع القديم على مصورة الأصل المخطوط (وهي مصورة إحدى مخطوطات الكتاب المهمة) ؛ فتبين من خلال ذلك

(1) انظر ترجمته في : خلاصة الأثر ، المحبي 440/2-442 ؛ البدر الطالع (الملحق) ، محمد زبارة 123/2 ؛ نزهة الخواطر ، الحسني 541/5 ؛ أعلام العرب في العلوم والفنون ، الدجيلي 92/3 ؛ تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان 315/3 ؛ النور السافر (مقدمة التحقيق) .

أن كلا النسختين (المطبوعة والمخطوطة) فيهما من الحسنات والأخطاء ما ليس في الأخرى ، الأمر الذي عاد على تحقيق الكتاب بالخير والفائدة ؛ حيث ظهر الكتاب بصورة تعكس الجهد المبذول من المحققين (1) .
وقد انفرد هذا الكتاب بذكر بعض الحوادث ، وخاصة أخبار أهل التصوف ، ركز فيه المؤلف على العلماء والشعراء من أهل اليمن . وهو تاريخ مرتب على حسب السنين ، قال المؤلف في مقدمته : "ذكرت فيه وفيات من ظفرت بتاريخ وفاته ممن مات في هذا القرن الذي أوله سنة إحدى وتسعمئة ... من سائر العلماء والصلحاء والقضاة والأدباء والملوك والأعيان ، مصرياً كان أو شامياً ، حجازياً كان أو يمنياً ، رومياً أو هندياً ، مشرقياً أو مغربياً . وضمت إلى ذلك ذكر بعض الحوادث والمجريات والحكايات العجيبة والملح الغريبة ، ولا يعدم كل شخص من نادرة جرت له من الأخبار وشعر نظمته من الأشعار على وجه الاختصار وما يحصل من الاعتبار".

استفتح المؤلف الكتاب بنبذة من أوصاف سيد المرسلين نبينا محمد ﷺ وتناول حياته الطاهرة بصورة موجزة منذ ولادته حتى وفاته – عليه الصلاة والسلام – ذاكراً بعض غزواته وشيئاً من معجزاته .
وتناول المؤلف الوفيات والأخبار بادئاً بسنة إحدى وتسعمئة ، وهو دقيق في ذكر تاريخ الوفاة ؛ حيث يذكر اليوم والشهر ، كقوله : "وفي ثامن عشر جمادى الأولى سنة أربع وسبعين توفي ... " (2) . وقد يذكر الوقت من ذلك اليوم ، كقوله : "وفيها في ليلة الثلاثاء وقت السحر توفي العالم ... " (3) .

وتراجمه تطول وتقصّر حسب أهمية العلم . وعلى الرغم من أنه يسوق أخبار أهل التصوف وما يصاحبها من معتقدات باطلة ؛ فإن أهمية هذا المصدر تنبع من أنه حوى أخباراً عن أولئك وغيرهم لا نكاد نجدها في كثير من المصادر .

- 3 -

عني هذا المصدر بالشعر ، وساق منه نماذج عديدة ، حتى إنه قد

(1) انظر : النور السافر (مقدمة التحقيق).

(2) المصدر السابق ، ص 390 .

(3) المصدر نفسه ، ص 421 .

يسوق قصيدة طويلة تصل إلى ما يقارب التسعين بيتاً (1). كما يذكر البيت والبيتين والقطعة الشعرية في كثير من المواضع ، حيث يذكر عند الترجمة ما قيل في المترجم من مديح أو ما رثي به إن وجد ، وما قيل من شعر في بعض الأحداث التي يسوقها . على أنه "يُعنَى كثيراً فيما يورده من شعر بما يتضمنه هذا الشعر من المعاني الدينية والإشارات الصوفية ، ويجعل من توافر ذلك مقياساً لجودة هذا الشعر وبراعة منشئه ؛ لذلك نجده أحياناً لا يورد القصيدة كاملة إلا من أجل اشتغالها على ذكر أولياء الله الصالحين والتوسل بهم ... " (2).

وعلى الرغم من حرصه على الاستشهاد بالشعر ، فإنه لم يعن بنسبة الأبيات إلى قائلها في كثير من المواضع (3). وتتبع أهميته – في هذه الدراسة – من كونه قد ذكر أخبار بعض الشعراء المكيين والمدنيين (4) ، كما أنه يعد مصدراً مهماً لأخبار وأشعار عبدالعزيز بن علي الزمزمي (5) ، وعبدالمعطي باكثير (6) ، وأحمد بن علي البسكري (7) ، ومحمد بن أحمد الفاكهي (8). ومن شعراء مكة والمدينة الذين تناولهم هذا المصدر وذكر شيئاً من نتاجهم أيضاً : أحمد العليف (9) ، وأبوبكر اليتيم (10) ، ومحمد الحسين السمرقندي (11) ، وصالح الدين ابن ظهيرة القرشي (12) ، وعبدالرحمن

-
- (1) انظر : المصدر نفسه ، ص 30 – 35 .
 - (2) الشعر اليميني ، أحمد بن حافظ الحكمي (رسالة دكتوراه لم تنشر بعد) 262/1 .
 - (3) انظر : النور السافر ، ص 46 ، 124 ، 130 ، 131 ، 140 ، 177 ، 202 ، 238 ، 290 ، 333 ، 388 ، 424 ، 428 ، 436-438 ، 465 ، 466 ، 478 ، 486 ، 496 ، 498 ، 554 ، 560 ، 567 .
 - (4) انظر : المصدر نفسه ، ص 398 ، 427 ، 428 ، 496 ، 497 ، 504 ، 505 ، 527 ، 532 .
 - (5) انظر : المصدر نفسه ، ص 341-343 ، 326-330 ، 337 ، 341-343 ، 428-432 .
 - (6) انظر : المصدر نفسه ، ص 120 ، 217 ، 296-298 ، 376 ، 377 ، 459-461 ، 472-474 ، 479-485 ، 491 .
 - (7) انظر : المصدر نفسه ، ص 299 ، 300 ، 434 ، 532 ، 555-559 ، 570 ، 571 .
 - (8) انظر : المصدر نفسه ، ص 364-366 ، 386 ، 387 ، 527-529 ، 532 .
 - (9) المصدر نفسه ، ص 180-185 .
 - (10) المصدر نفسه ، ص 338 .
 - (11) المصدر نفسه ، ص 355 ، 356 ، 565 ، 566 .
 - (12) المصدر نفسه ، ص 388 ، 498 .

الخفاجي⁽¹⁾ ، وعبدالقادر بن أحمد الفاكهي⁽²⁾ ، ومحمد بن أحمد النهروالي⁽³⁾ ، ورضي الدين القازاني⁽⁴⁾ ، وعلي بن عبدالكبير باحميد⁽⁵⁾ ، وعبدالرؤوف الواعظ⁽⁶⁾ .

ز – ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ، لشهاب الدين الخفاجي:

- 1 -

مؤلف هذا الكتاب شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري . ولد في قرية سرياقوس قرب القاهرة سنة 977هـ ، ونشأ في حجر أبيه (أحد علماء عصره) ، وعليه تخرج في كثير من الفنون ، ودرس في سرياقوس على خاله أبي بكر ابن إسماعيل الشتواني الذي كان بارعاً في علوم العربية ، ثم انتقل إلى القاهرة ودرس فيها على نفر من علمائها المعاني والمنطق والفقه والحديث . وواصل تعلمه ، فدرس عدداً من العلوم التي كانت تدرس في عصره ، كالأدب والعروض والطب والرياضيات .

ارتحل إلى الحرمين وأخذ عن بعض العلماء ، كما ارتحل إلى القسطنطينية وتعلم على نفر من العلماء هناك ، وفي رحلته إلى بلاد الروم مرّ بدمشق ، فأقام بها والتقى بعض علمائها ، كما مر بحلب . وكان ممن تولوا القضاء في بلاد الروم وفي مصر.

أخذ عنه كثير من العلماء ، وألف كتباً عديدة ، منها : حاشية شرح الفرائض (حاشية على فرائض الحنفية) ، وشفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ، وطرار المجالس ، وديوان الأدب ، وله ديوان شعر ومجموعة شعرية غير ما حواه ديوانه ، وعدد قليل من المقامات . وهو لطيف الطبع ، ذو مكانة عالية ، يجله الناس .

توفي — يرحمه الله — في القاهرة في شهر رمضان من سنة 1069هـ⁽⁷⁾ .

(1) المصدر نفسه ، ص 459 .

(2) المصدر نفسه ، ص 464 ، 465 .

(3) المصدر السابق ، ص 499-505 .

(4) المصدر نفسه ، ص 505 .

(5) المصدر نفسه ، ص 564 .

(6) المصدر نفسه ، ص 565 .

(7) انظر ترجمته في : خلاصة الأثر ، المحبي 1/331-343 ؛ نفحة الريحانة ، المحبي 477-395/4 ، سلافة العصر ، ابن معصوم ، ص 420-427 ؛ ريحانة الألبا 1/ مقدمة

- 2 -

ويقع هذا الكتاب في جزأين ، تكلم فيهما على (156 شاعراً) ، حققه الدكتور عبدالفتاح محمد الحلو ، ونشرته دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه – بعد أن طبع بمطابعها سنة 1386هـ. وكان الكتاب قد طبع قبل ذلك بمصر ثلاث طبعات : الأولى بمطبعة بولاق سنة 1273هـ ، بتصحيح إبراهيم عبدالغفار الدسوقي ، والثانية بالمطبعة الوهبية سنة 1294هـ ، والثالثة بالمطبعة العثمانية سنة 1306هـ.

والواضح من خلال هذه الطبعة التي بين أيدينا جهد المحقق الدكتور الحلو ، حيث أضاف معلومات تاريخية لم يلتفت إليها الخفاجي ، كما بان جهده في ضبط النصوص النثرية والشعرية ، والإشارة إلى الاختلاف بين النسخ المخطوطة للكتاب ، وغير ذلك من الشواهد على إحسانه في إخراج هذا الكتاب المهم .

وقد أثنى المحقق على هذا الكتاب بتشبيهه بيتيمة الدهر ، ودمية القصر ، والذخيرة ، وغيرها ، ورأى أنه من مفاخر الشهاب الخفاجي الذي حرص فيه على تسجيل أدب عصره (1).

وقد قسم الخفاجي كتابه أربعة أقسام :

القسم الأول : في محاسن أهل الشام ونواحيها .

القسم الثاني : في محاسن العصريين من أهل المغرب وما والاها ، وفي هذا القسم ذكر مكة ومن بحماها.

القسم الثالث : في مصر وأحوالها ، وسبب العود لرسومها وأطلالها .

القسم الرابع : في ذكر الروم ، وما اتفق له فيها ، وذكر من لقيه بها من رؤسائها وعلمائها وبقية دهمائها .

وعقد باباً لبيان أحوال الروم وانقراض علمائها ونشر الظلم والعدوان بين أمرائها ، ثم عقد باباً ترجم فيه لنفسه وذكر شيوخه وآثاره ورحلاته في سبيل الطلب ، وأضاف إلى ذلك ذكر الفصول القصار له المشتملة على بعض الحكم والنصائح ، ثم بعض مقاماته ، يلي ذلك

= المحقق ؛ معالم الأدب العربي في العصر الحديث ، عمر فروخ 629/2-641 .

(1) انظر : الريحانة 1/مقدمة المحقق .

خاتمة للكتاب مشتملة على فوائد علمية وأدبية.

وهذا الكتاب لا يحوي تراجم بالمعنى المؤلف ؛ إذ لا يتكلم المؤلف على ولادة العلم المتحدث عنه ، أو وفاته ، ولا نكاد نجد شيئاً من النشأة أو المسيرة العلمية . فهو كتاب أدب ضم مجموعة من القصائد والمقطوعات والأبيات والحكم والأمثال السائرة ، حرص فيه المؤلف على ذكر شيء من نظم الشاعر ، ومن نثره إذا كان ناثراً مسبقاً بكلام انطباعي مسجوع ، قد يمتع المتلقي ، لكنه لا يضيف له معرفة بسيرة المتحدث عنه ، وإن حصل شيء من ذلك كانت إشارة عابرة لا تغني في رسم ملامح الشخصية .

وقد عمد المؤلف إلى تفسير ما رأى غموضه من ألفاظ في النصوص التي أوردها ، وتناول بعض الأبيات بذائقة الشاعر ورؤية الناقد الحصيف . وهو أديب ذو اطلاع واسع على أشعار العرب ؛ إذ إنه حينما يورد أبياتاً يذكر ما يشبهها من أشعار السابقين ، لكنه يستطرد في ذلك ، حتى إن النماذج المشابهة تغطي على النماذج المستشهد بها للشخصية المتحدث عنها .

بل إنه أكثر من ذكر شعره ، وكثيراً ما كان يتبع الأبيات التي يستشهد بها قوله : "ومثله قلبي" ، ثم يذكر أبياتاً له في المعنى . وحينما يتحدث عن علم يذكر ما بينهما من إخوانيات ، وهو حريص على ذكر القصائد التي مدح بها كاملة . وقد أكثر من الاستشهاد بشعره "حتى كاد هذا الكتاب أن يكون في أدب مؤلفه وفي صلته بأدباء عصره" (1) . ويتمدح نفسه كثيراً مردداً بعض العبارات الدالة على ذلك ، مثل : "وأحسن منه قلبي" (2) و"وأحسن من هذا كله قلبي" (3) و"أين هذا من قلبي لمن لا داء به وله أذن واعية" (4) .

- 3 -

وهذا الكتاب مصدر مهم من مصادر الشعر في القرن العاشر الهجري ؛ حيث عقد مؤلفه فصلاً في (ذكر مكة ومن بحماها) تناول فيه عدداً من الشعراء المكيين والمجاورين ، وبعض شعراء المدينة .

(1) معالم الأدب العربي في العصر الحديث ، عمر فروخ 631/2 .

(2) الريحانة 198/1 .

(3) المصدر نفسه 256/1 .

(4) المصدر السابق 253/2 .

وممن تحدث عنه من شعراء مكة والمدينة : الشريف أبو نمي بن بركات (1) ، وأحمد الفيومي (2) ، والشريف حسن بن أبي نمي (3) ، ومحمد النهروالي (4) ، وجمال الدين العصامي (5) ، وعلي العصامي (6) ، وأحمد المدني (7) ، وعبدالرحمن باكثير (8) ، وعلي باكثير (9) ، ومحمد البخاري (10) ، وحسين المالكي (11) ، وعلي بن زهير (12) . كما تحدث الخفاجي عن الشاعر خضر بن عطاء الله الموصللي المكي ، ولكنه أدرجه في القسم الأول من الكتاب (أهل الشام ونواحيها) ، وذكر ما أنشده الموصللي من شعره والشعر الذي مدح به الموصللي ، وأشار الخفاجي إلى أن الموصللي من تلاميذ والده (13) . وهو عالم شاعر أصله من الموصل (14) ، لكنه هاجر إلى مكة ففطنها وأصبح من كبار أدبائها وعلمائها ، قربه الشريف حسن بن أبي نمي وبالغ في إكرامه ، ثم انقلب عليه (15) .

-
- (1) المصدر نفسه 384/1 .
 - (2) المصدر نفسه 387-385/1 .
 - (3) المصدر نفسه 392-388/1 .
 - (4) المصدر نفسه 294/1 ، 407-414 ، 419 ، 64/2 ، 165 ، 167 .
 - (5) المصدر نفسه 419-417/1 .
 - (6) المصدر نفسه 427-425/1 .
 - (7) المصدر نفسه 428/1 .
 - (8) المصدر نفسه 431/1 .
 - (9) المصدر نفسه 431/1 ، 432 .
 - (10) المصدر نفسه 437/1 .
 - (11) المصدر نفسه 438/1 ، 439 .
 - (12) المصدر نفسه 440/1 .
 - (13) المصدر السابق 217-215/1 .
 - (14) الأعلام ، الزركلي 307/2 .
 - (15) في سنة 1007 هـ أمر الشريف حسن بإجلاء الشيخ خضر من مكة ، إثر وشاية من وزيره ابن عتيق ، وحالما خرج منها متوجهاً إلى المدينة ؛ استولى الوزير على داره ، ونهب ما فيها ، فبلغ الخبر الشيخ ؛ فتأثر لذلك وتوفي قبل أن يصل المدينة .
- انظر عنه: خلاصة الأثر ، المحبي 131/2 ، 132 ؛ سمط النجوم العوالي ، العصامي 358/4 ، البدر الطالع ، الشوكاني 242/1 ، 243 ؛ المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 188 ، 189 ؛ هدية العارفين ، البغدادي 347/1 ؛ التاريخ والمؤرخون بمكة ، الهيلة ، ص 261 ، 262 .

ح - السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر ، للشَّلي :

- 1 -

مؤلف هذا الكتاب محمد بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن عبد الله الشَّلي . ولد في تريم سنة 1030 هـ ، وحفظ القرآن الكريم في صغره ، كما حفظ بعض المتون ، وأخذ العلم عن والده وبعض علماء بلده ، حيث درس الفقه والأصول وعلوم العربية والتفسير والحديث والعقيدة ، وأخذ عن والده التصوف ولازم بعض علماء الصوفية حتى لبس الخرقة . رحل إلى الهند وأخذ عن جماعة من العلماء ، ثم ارتحل إلى الحجاز وتلقى العلم على عدد من الفقهاء والمحدثين في الحرمين الشريفين ، وأخذ عن بعض العلماء فيهما علم الفرائض والحساب وعلم الميقات ، وحصل على إجازات بالإفتاء والتدريس من عدد من مشايخه ؛ فجلس للتدريس في المسجد الحرام عدة أعوام ، لكنه انقطع عن التدريس في المسجد الحرام ؛ لمرضه ، فأصبح يدرس في بيته .

ثم تفرغ للتأليف ؛ حيث ألف كتباً عديدة انتفع بها طلاب العلم ، منها : شرح على مختصر الإيضاح للشيخ ابن حجر ، وتاريخ ولاية مكة المكرمة ، كما ألف عدداً من الرسائل في علم الميقات ، منها : معرفة ظل الزوال كل يوم لعرض مكة ، ومعرفة اتفاق المطالع واختلافها ، والاسطرلاب .

توفي في مكة في آخر ذي الحجة من سنة 1093 هـ ، ودفن فيها (1) .

- 2 -

هذا الكتاب ما يزال مخطوطاً يقع في (428 ورقة) (2) ، وهو ذيل

=

(1) انظر ترجمته في : خلاصة الأثر ، المحبي 336/3-338 ؛ المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 448-450 ، الأعلام ، الزركلي 59/6 ، 60 . وقد ذكر البغدادي (في هدية العارفين 299/2) أن وفاة الشلي كانت في سنة 1096 هـ ، وهذا مخالف للمصادر المعتمدة في ترجمته ، كما جاء في هدية العارفين أيضاً أن اسم الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه (عقد الجواهر على النور السافر في أخبار القرن العاشر) . والواضح أن الأمر قد التبس على المؤلف ؛ حيث إن للشلي كتاباً اسمه (عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر) .

(2) اعتمدت في هذه الدراسة على نسخة صورتها من المكتبة المركزية في جامعة الملك سعود بالرياض ، رقمها في المكتبة (ف7) ، وهي عن نسخة دار الكتب المصرية ذات الرقم (1586/تاريخ) ، كتب في الورقة الأخيرة أن الفراغ من كتابته سنة 1118 هـ ،

لكتاب النور السافر ، لعبدالقادر العيدروس . وقد أشار الشلي في مقدمته إلى أن العيدروس قد أجاد في كتابه ، لكنه لم يذكر جماعة من أكابر أهل القرن العاشر ، وبين أسباب تأليفه هذا الكتاب ، ملتتمساً العذر للعيدروس في عدم ذكر بعض الأعلام في القرن العاشر ، حيث قال : إن مؤلف النور السافر "جمع وأجاد وتكفل بالمقصود وأفاد ، بيد أنه أهمل ذكر جماعة من أكابر الفضلاء وكثير من أمثال النبلاء ، وعذره بعد دياره عن ديارهم [وأنه] لم تأت الأسماء بأخبارهم ، ولم تهب عليه رياح أسرارهم ، وهو من أقوى الاعتذار ؛ لأنه لم يقتصر على قطر من الأقطار ولا مصر من الأمصار ، فجمعت هذا التاريخ اللطيف ، ورصفته أحسن ترصيف ، أثبت فيه ما وقفت عليه ، وأوردت كل ما انتهت قدرتي إليه من أخبار المئة العاشرة ...".

وهو كتاب تراجم مرتبة على السنين ، بدءاً من سنة إحدى وتسعمئة حتى سنة ألف من الهجرة النبوية – على صاحبها أفضل الصلاة والسلام (1) - .

تحدث فيه عن أعلام ذلك العصر من الملوك والولاطين والأمرء والعلماء والشعراء في مختلف أقطار العالم الإسلامي ، كمصر والشام واليمن والحجاز وغيرها . وعني بصفة خاصة بتراجم الصوفية ، ولا سيما في بلاده ، وبالغ في ذكر ما لهم من كرامات (2) . وقد أفاد المؤلف من سابقه ، وكان أميناً في نقله عنهم ؛ فهو – مثلاً – ينقل عن سلافة العصر لابن معصوم ، وريحانة الألبا للخفاجي ؛ فيومئ إليهما ، كما أنه يتحدث عن بعض الأعلام الذين ذكرهم صاحب النور السافر ؛ لكنه يضيف معلومات لم يذكرها العيدروس في كتابه ، أو يصحح معلومة ذكرها . نجد ذلك في مثل ترجمة جلال الدين السيوطي

=

ثم أشار الناسخ إلى أنه (كذا في الأصل) ؛ لعلها 1180هـ ، أو 1118هـ . ونسخة دار الكتب المصرية منقولة عن هذه النسخة في سنة 1343هـ ، بخط نسخ جيد ، بقلم محمود حمدي من النسخة المحفوظة بمكتبة السيد عبدالحميد البكري ، المختوم عليها بختم السيد محمد أبو الأنوار السادات في سنة 1193هـ ، وقد ذكر أن ذلك قد تم على نفقة دار الكتب المصرية.

(1) هذه النسخة خالية من وفيات أو حوادث سنة 989هـ . ويبدو أن الأصل كذلك ؛ لأن الناسخ بعد أن انتهى من أحداث سنة 988هـ قال : لم تذكر سنة 989هـ ، وبدأ بسنة 990هـ .

(2) انظر – مثلاً – شيئاً من ذلك في : ورقة 85/أ ، 85/ب ، 407/أ ، 407/ب .

(1) ، وأحمد بن عبدالله بلحاج (2) .
 والتراجم مختلفة في طولها حسب أهمية العلم والمادة المتوافرة
 للمؤلف ، فقد تكون في سطر أو سطرين يكتفي فيهما بذكر الاسم
 وتاريخ الوفاة ، على نحو قوله - مثلاً - : " وفيها [سنة 975هـ] ليلة
 الأحد لثلاث بقين من جمادى الآخرة توفي السيد الجليل الأكمل محيي
 الدين بن عبدالرحمن بن حسن الأهدل " (3) . ومن التراجم ما يكون في
 بضعة أسطر ، كما أن بعضها قد يقترب من عشر ورقات.
 والمؤلف دقيق في ضبط الأعلام التي قد تشكل على القارئ ، نحو :
 "توفي الشيخ الإمام عبدالرحمن بن عمر باهرمز - بضم الهاء وسكون
 الراء وضم الميم آخره - زاي - الشهير بالأخضر ... " (4) . ومن ذلك
 قوله : "توفي السيد إبراهيم بن علي ابن علوي ، عرف جده بخرد -
 بفتح الخاء المعجمة وكسر الراء آخره مهملة - أحد بني علوي... " (5)
 . وقد يعمد إلى مثل ذلك حينما يذكر مدينة أو قرية غير مشهورة على
 نحو قوله عن أحد الأعلام : "ودفن بعينات الجديدة... وعينات - بكسر
 العين المهملة وسكون الياء التحتانية ، فنون ، فألف ، فتاء فوقانية - قرية
 ... " (6) .

- 3 -

"وتأتي أهمية هذا الكتاب في أنه جاء مُكْمَلًا لكتاب النور السافر عن
 أخبار القرن العاشر ، ولا يمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر ، فكل
 قيمته العلمية والتاريخية والأدبية التي لا يَسْتَعْنِي عنها باحث في تاريخ
 وأدب رجال القرن العاشر الهجري المنتمين إلى أكثر بقاع العالم
 الإسلامي مشاركة في النشاط الفكري والحياة الثقافية آنذاك كالحجاز
 ومصر والشام واليمن والهند وغيرها" (7) .

- (1) انظر : النور السافر ، ص 90-94 ؛ السنة الباهر ، ورقة 39/أ - 47/أ .
- (2) انظر : النور السافر ، ص 193، 194 ؛ السنة الباهر ، ورقة 130/ب - 132/أ .
- (3) السنة الباهر ، ورقة 342/أ .

- (4) المصدر السابق ، ورقة 53/أ .
- (5) المصدر نفسه ، ورقة 183/أ .
- (6) المصدر نفسه ، ورقة 402/أ .
- (7) الشعر اليمني ، أحمد بن حافظ الحكي (رسالة دكتوراه لم تنشر بعد) 274/1 .

والسنا الباهر أحد مصادر الشعر في القرن العاشر الهجري ، يذكر فيه المؤلف نماذج أو أنموذجاً من شعر المترجم إن كان شاعراً ، وقد يذكر ما قيل في بعض الأعلام المترجمين من شعر ، يستشهد بالبيت والبيتين ، وربما أثبت مقطوعة ، كما أنه في بعض الأحيان يثبت قصيدة طويلة قد تصل إلى سبعين بيتاً . وليس ذلك أمراً مطرداً في تراجمه ؛ إذ إنه قد يمر بترجمة شاعر من الشعراء فلا يذكر شيئاً من نتاجه ، وخاصة إذا لم يكن من أهل التصوف الذين ركز المؤلف عليهم في كتابه ، والذين كان أغلبهم من أهل اليمن (موطنه) ، أو ممن لهم صلة به.

وقد ترجم الشلي لبعض الشعراء المكيين ، وذكر نماذج من شعرهم ، منهم : محمد بن عمر الفيومي ⁽¹⁾ ، وأبو الخير محمد بن ظهيرة ⁽²⁾ ، والشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان ⁽³⁾ ، وعبد اللطيف بن أحمد باكثير ⁽⁴⁾ ، وجمال الدين العموني ⁽⁵⁾ ، وصلاح الدين محمد القرشي ⁽⁶⁾ ، وعبد العزيز ابن علي الزمزمي ⁽⁷⁾ ، وعبد القادر بن أحمد الفاكهي ⁽⁸⁾ ، وعبدالرؤوف الواعظ ⁽⁹⁾ ، ومحمد بن أحمد النهروالي ⁽¹⁰⁾ ، وعلي بن جار الله بن ظهيرة ⁽¹¹⁾ ، والشريف محمد بن بركات (أبو نمي) ⁽¹²⁾ .

=

- (1) السنا الباهر ، ورقة 17/ب .
- (2) المصدر نفسه ، ورقة 36/ب ، 37/أ .
- (3) المصدر نفسه ، ورقة 152/أ – 155/أ .
- (4) المصدر نفسه ، ورقة 226/أ – 230/أ .
- (5) المصدر نفسه ، ورقة 261/ب ، 262/أ .
- (6) المصدر نفسه ، ورقة 314/أ .
- (7) المصدر نفسه ، ورقة 350/أ – 351/أ .
- (8) المصدر نفسه ، ورقة 366/أ ، 397/أ .
- (9) المصدر نفسه ، ورقة 371/ب – 373/أ .
- (10) المصدر نفسه ، ورقة 383/أ – 387/أ .
- (11) المصدر نفسه ، ورقة 397/ب – 399/ب .
- (12) المصدر نفسه ، ورقة 402/أ – 404/ب .

2- المصادر التاريخية :

أ – إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، للنجم بن فهد (1) :

- 1 -

يقع هذا الكتاب في خمسة أجزاء ، طبعت ونشرت بعناية مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي في جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، حقق أجزاءه الثلاثة الأولى الأستاذ فهيم شلتوت ، وحقق الجزء الرابع الدكتور عبدالكريم باز ، أما الجزء الخامس فكان لفهارس الكتاب أعدها الباحثان محمد إسماعيل السيد أحمد ، وصادق البيلي محمد أبو شادي.

وقد طبع الجزء الأول في سنة 1403هـ ، والجزءان الثاني والثالث في سنة 1404هـ ، والجزء الرابع في سنة 1408هـ ، أما الجزء الخامس ففي سنة 1410هـ.

ويعد هذا الكتاب أحد أهم المصادر لتاريخ مكة المكرمة . وهو موسوعة تاريخية تناول فيها المؤلف أخبار مكة مرتبة على السنين من سنة مولد النبي ﷺ حتى وفاة المؤلف سنة 885هـ (2) ، يؤرخ للأحداث الجارية في كل سنة ، ثم ينتقل إلى السنة التي تليها بعد تدوين ما جرى في السنة الماضية .

وقد تناول المؤلف كل ما يتجدد في المسجد الحرام ، وما يطرأ على مكة من سلم أو حرب ، وغلاء أو رخص ، وما ينزل من أمطار وسيول ، وما يعتورها من أوبئة وأمراض ، ومن يموت فيها من الأعيان ، وما يقع فيها من الحوادث ، ويتابع مواسم الحج ، وأحوال ضيوف الرحمن وما يلقونه في الطريق من أمن وسلامة ، أو نهب وإهانة . ويصف حج الخلفاء والسلاطين والملوك وعلية القوم من علماء وصلحاء وأثرياء ، ويتابع ذكر أمراء مكة وقضاتها وأئمتها وما يجري منهم

(1) سبقت ترجمته في الحديث عن كتابه السابق (الدر الكمين بذيّل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين) .

(2) ذكر الأستاذ محمد الحبيب الهيلة في كتابه (التاريخ والمؤرخون بمكة ، ص 149) – سهواً – أن النجم ابن فهد في إتحاف الورى تناول أخبار مكة مبتدئاً بالسنة الأولى من الهجرة .

وعليهم (1) .

ذكر النجم بن فهد في مقدمة هذا الكتاب كتب شيخه التقي الفاسي ، مشيراً إلى أنه ذكر في أثنائها حوادث وأخباراً اتفقت بمكة المشرفة وأعمالها في الجاهلية والإسلام ، وأوماً إلى ما يود إضافته في كتابه قائلاً : "أحببت أن أفرد ذلك مرتباً على السنين ، مبتدئاً من حين مولد النبي ﷺ وألحق به كثيراً مما لم يذكره في مؤلفاته من هذا المعنى ، وأذيل عليه إلى زماني ، وأذكر في كل سنة من مات بها أيضاً من الأعيان من أهلها وغيرهم ، وكثيراً ممن مات من أهلها بغيرها" (2) .

ويعد كتاب إتحاف الوري بأخبار أم القرى أقدم كتاب حوليات في تاريخ مكة ، وضعه النجم بن فهد على غرار الحوليات الأخرى التي تناولت تاريخ الإسلام العام كتواريخ الطبري وابن الأثير والذهبي وابن كثير ، وعلى غرار غيرها من كتب الحوليات الخاصة بالعواصم الإسلامية كتاريخ بغداد ، وتاريخ دمشق ، وتواريخ القاهرة وغيرها . ونظراً لريادة الكتاب وأوليته في كتابة الحوليات المكية ؛ فقد ظل مصدراً أساساً لأغلب التأليف في التاريخ المكي ، كما كان مثلاً احتذاه المؤرخون بعده (3) .

- 2 -

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يحفظ لنا شعراً كثيراً لشعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، ولم يبسط مؤلفه الحديث عن الشعراء ، مكتفياً في كثير من الأحيان بذكر تاريخ الوفاة – فإنه من المصادر المهمة التي حفظت كثيراً من الأحداث التاريخية ذات العلاقة ببعض القصائد ؛ مما كان لها الأثر في إيضاح دلالاتها .

وأهم الشعراء الذين عرض لهم النجم بن فهد في كتابه هذا وذكر نماذج من نتاجهم الشعري : يحيى بن فهد (4) ، وأحمد الخيفي (5) ، ومحمد بن عبد القوي (6) ، وأحمد المعيد (7) .

(1) إتحاف الوري 1/ مقدمة المحقق .

(2) المصدر نفسه 1/ مقدمة المؤلف .

(3) التاريخ والمؤرخون بمكة ، الهيلة ، ص 149 .

(4) إتحاف الوري 3/ 477-473 .

(5) المصدر نفسه 3/ 630-628 .

(6) المصدر نفسه 3/ 638 ، 640 ؛ 4/ 108-112 ، 194 ، 195 .

(7) المصدر نفسه 3/ 646 ، 647 .

ب - سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، للعصامي :

- 1 -

مؤلف هذا الكتاب عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي . ولد بمكة المكرمة سنة 1049 هـ ، ونشأ فيها في بيت علم توارث أعلامه الأدب والفضل والتدريس والتأليف.

ومن أشهر شيوخه العلامة أبو مهدي عيسى بن محمد الثعالبي المالكي المغربي - المتوفى بمكة سنة 1080 هـ - حيث أخذ عنه العقيدة والأصول والنحو والصرف والبيان والمنطق . اشتغل العصامي بفنون العلم وحصل منه ما أهله للتدريس بالمسجد الحرام مدة طويلة . وهو أحد علماء مكة المكرمة وشعرائها .

من مؤلفاته : الأوابد والعوائد ، والفوائد والزوائد (فوائد القرآن الكريم) ، وله منظومة في الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء بمكة وحواليها .

توفي في مكة المكرمة في شهر جمادى الأولى من سنة 1111 هـ (1)

- 2 -

يقع هذا الكتاب في أربعة أجزاء ، نشرتها المكتبة السلفية في القاهرة سنة 1380 هـ .

وقد ذكر الناشر محب الدين الخطيب أنه اعتمد على نسختين مخطوطتين لا تملوان من تحريف وبياض وبعض ما يعرض للمخطوطات التي يكتبها طلبة لم يبلغوا مرتبة العلماء (2) .

بدأ المؤلف كتابه بمقدمة جاء فيها : أنه بدأ في جمعه وتأليفه في يوم الأربعاء الثالث عشر من ربيع الآخر سنة أربع وتسعين وألف من الهجرة ، وانتهى تبليغه أواخر شهر صفر من سنة ثمان وتسعين (3) . بعد ذلك ألحق بعض الحوادث ، وآخر خبر ذكره في هذا الكتاب كان

(1) انظر ترجمته في : نفحة الريحانة ، المحبي 123/4-128 ؛ إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 219/2 ؛ سلك الدرر ، المرادي 139/3 ؛ المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 326 ، 327 ؛ سمط النجوم ، العصامي 1/مقدمة الناشر ؛ التاريخ والمؤرخون بمكة ، الهيلة ، ص 364-367 .

(2) انظر : سمط النجوم العوالي 1/مقدمة الناشر .

(3) المصدر نفسه 1/مقدمة المؤلف .

في الرابع عشر من شهر ذي القعدة سنة 1099 هـ (1) .
وذكر في المقدمة أهمية علم التاريخ ، والدافع إلى تأليف هذا الكتاب ، كما دون فيها مصادره التي بلغ عددها (106 كتاب) (2) ، ثم رتب كتابه في أربعة مقاصد ذوات أبواب ، تناول في المقصد الأول نسب الرسول ع من لدن آدم – عليه السلام – إلى أبيه عبدالله بن عبدالمطلب ، وقصص الأنبياء والرسل ، وأحوال العرب في الجاهلية ، وما جرى في مكة قبل البعثة ، واشتمل المقصد الثاني على سبعة أبواب ، تحدث فيها عن سيرة المصطفى ع منذ الحمل به حتى وفاته ، أما المقصد الثالث فكان في تاريخ الخلفاء الراشدين ، وقد ختمه بسيرة الحسن بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنهما – وشيء من أخباره.

وجاء المقصد الرابع في سبعة أبواب ، تناول في كل واحد منها تاريخ دولة من دول الإسلام (الدولة الأموية ، والعباسية ، والفاطمية ، والأيوبية ، والتركمانية ، والشركسية ، والعثمانية) ، ثم ختم كتابه بخاتمة فيها ثلاثة أبواب : الأول في أنساب الطالبين والمشاهير من أعقابهم ، والثاني في ذكر من دعا منهم إلى المبايعة ، والثالث فيمن ولي مكة من آل أبي طالب (دولة السليمانيين ، ودولة الهواشم ، ودولة بني قتادة حتى عهد المؤلف) .

- 3 -

"والدارس والباحث في تاريخ مكة المكرمة السياسي والاجتماعي والثقافي لا يمكن أن يغفل هذا الكتاب ؛ لأن مؤلفه أولى التاريخ المكي جانباً كبيراً من الأهمية ... وخاصة تاريخ مكة منذ العهد المملوكي والعثماني" (3) .

والعصامي حريص على الاستشهاد بالشعر عند ذكر الحوادث التاريخية ، نجد ذلك في كل جزء من أجزاء الكتاب . ويهمننا في هذه الدراسة الجزء الرابع منه ؛ فهو فضلاً عن أنه تناول النواحي السياسية

(1) المصدر نفسه 584/4 .

(2) ذكر الهيئة في (التاريخ والمؤرخون بمكة ، ص366) أن الإحصاء دل على أن عددها (149 مصدراً) ، مشيراً إلى الباحث بندر الهمزاني في رسالته (الكتابة التاريخية بمكة في القرن الحادي عشر) ؛ حيث عقد فصلاً خاصاً بدراسة كتاب (سمط النجوم العوالي) أثبت فيه ذلك .

(3) المنهج التاريخي لمؤرخي مكة المكرمة في القرن الحادي عشر الهجري ، بندر الهمزاني ، ص369 .

والاجتماعية والعلمية والعمرانية في الفترة المدروسة – اشتمل على نتاج عدد من شعراء تلك الفترة .

وهو مصدر مهم ، يمتاز عن المصادر الأخرى في كونه يذكر القصائد كاملة مهما كان طولها (1) ، حتى إن عدداً منها اقترب من مئة بيت ، بل إنه أثبت قصائد زادت أبياتها على المئة ؛ إذ منها ما بلغ 113 بيت ، و114 بيت ، بل ووصل بعضها إلى 148 بيت ، و152 بيت . وقد انفرد هذا المصدر برواية أبيات وقصائد لا نجدها في دواوين قائلها ، كقصيدة أحمد العليف التي مطلعها :

ذَرَى الْعِزُّ مَا قَامَتْ عَلَيْهِ وَمَا شَيْدَتْهُ الْمُرْهَفَاتُ الْبَوَاتِكُ

حيث إن عدد أبياتها في ديوان الشاعر (54 بيتاً) (2) ، لكنها بلغت في سمط النجوم (74 بيتاً) (3) ، كذلك قصيدة العليف التي مطلعها :

الْعِزُّ تَحْتَ ظِلَالِ الْبَيْضِ يَوْمَ الطَّعَانِ وَسَبْقِ السَّيْفِ

إذ إن عدتها في الديوان (85 بيتاً) (4) ، وفي سمط النجوم (148 بيت) (5) .

وأثبت العصامي شيئاً من نتاج الشاعر علي الجم لم يذكر عند غيره (6) ، كما روى قصيدتين للشاعر عبدالرحمن با كثير غير موجودتين في ديوانه (7) .

ومن الشعراء الذين تناولهم المؤلف في هذا الكتاب وذكر شيئاً من شعرهم : أحمد العليف (8) ، وجمال الدين العصامي (9) ، والشريف بركات بن حسن بن عجلان (10) ، والشريف بركات بن محمد بن بركات

-
- (1) انظر : سمط النجوم 300-294/4 ، 317-312 ، 325-319 ، 351-342 .
 - (2) ورقة 12/أ – 13/ب .
 - (3) 309-306/4 .
 - (4) ورقة 34/ب – 36/ب .
 - (5) 325-319/4 .
 - (6) سمط النجوم 377-374/4 .
 - (7) المصدر نفسه 381-379 ، 351-346/4 .
 - (8) المصدر نفسه 68/4 ، 69 ، 288-286 ، 290 ، 309-306 ، 317-312 ، 319-325 .
 - (9) المصدر نفسه 98/4 ، 367 .
 - (10) المصدر نفسه 275/4 .

بن حسن بن عجلان⁽¹⁾ ، وعبدالرحمن باكثير⁽²⁾ ، وعبدالعزیز بن علي الزمزمي⁽³⁾ ، والشريف أبو نمي (محمد بن بركات)⁽⁴⁾ ، وخضر الموصلی⁽⁵⁾ ، وعلي الجم⁽⁶⁾ ، وعبدالقادر الطبري⁽⁷⁾ .
ج - منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاية الحرم ، للسنجاري :

- 1 -

مؤلف هذا الكتاب علي بن تاج الدين بن تقي الدين بن يحيى بن إسماعيل بن عبدالرحمن بن مصطفى السنجاري ، المكي ، الحنفي ، العالم ، الخطيب ، الشاعر ، المؤرخ .

ولد في مكة المكرمة سنة 1057هـ ، ونشأ في بيت علم وأدب رفيع ؛ حيث عرفت أسرته بالجاه والعلم والثراء . وكان لذلك الأثر الكبير فيما حصله من مكانة في مجتمعه . وقد نشأ نشأة دينية علمية ؛ إذ حفظ القرآن الكريم ، ودرس على والده (أحد علماء عصره) وعلى بعض الوافدين إلى مكة والمجاورين فيها ، فبرع في بعض الفنون حتى أصبح أحد علماء عصره وفقهائه وشعرائه الذين يشار إليهم بالبنان .

له ديوان شعر ، ورسائل منها : رسالة في التوحيد برسم المحصول من كلام الفحول في مسألة ما استشكل من تفضيل الملك على الرسول ، ورسالة في الرد على ابن معصوم بعنوان (الدلائل الواضحة على المثالب الفاضحة) ، ورسالة عن صلاة المؤتم هل تصح في جوف الكعبة ، أو لا ؟ عنوانها (القربة بكشف الكربة عن عدم صحة صلاة المؤتم بالإمام الخارج وهو في جوف الكعبة) .

وكانت وفاته في افتتاح سنة 1125هـ⁽⁸⁾ .

- (1) المصدر نفسه 291/4 .
- (2) المصدر نفسه 300-294/4 ، 330-326 ، 351-342 ، 381-379 .
- (3) المصدر نفسه 341-338/4 . المذكور في هذا الكتاب (عبدالعزیز بن محمد الزمزمي) وهو سهو من المؤلف أو الناسخ ؛ لأن القصيدة المذكورة في مدح الشريف أبي نمي وتهنئته بعرض ابنه الشريف أحمد (المتوفى سنة 961هـ) ، والشاعر عبدالعزیز بن محمد الزمزمي مولود بعد ذلك (سنة 975هـ) .
- (4) المصدر نفسه 346/4 .
- (5) المصدر نفسه 358/4 ، 359 .
- (6) المصدر نفسه 379-374/4 .
- (7) المصدر نفسه 403/4 ، 409 ، 410 .
- (8) في الجزء الأول من منائح الكرم (مقدمة التحقيق) ترجمة وافية لمؤلف الكتاب ، جاء فيها أنه على الرغم من ذكر وإشادة كثير من الأدباء والمؤرخين بعلم السنجاري

- 2 -

وهذا الكتاب مطبوع في ستة أجزاء ، الأول والثاني بتحقيق الدكتور جميل المصري ، والثالث والرابع بتحقيق الدكتورة ماجدة فيصل زكريا⁽¹⁾ ، والخامس بتحقيق الدكتورة ملك محمد خياط⁽²⁾ ، أما المجلد السادس فيشتمل على الفهارس التي أعدها الدكتور جميل المصري .

نشرت المجلدات الستة في سنة 1419 هـ عن طريق معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي في جامعة أم القرى . وقد قدم لها عميد المعهد - آنذاك - وأستاذ التاريخ الدكتور عبداللطيف بن دهيش مشيراً إلى أهمية الكتاب وجهد المؤلف ؛ حيث ذكر أنه اعتمد في تأليفه على كل من سبقه من المؤرخين في كتب السيرة وتواريخ مكة وقصص الأنبياء والتفسير والتراجم والتاريخ العام وكتب الفقه والأدب واللغة ، كما اعتمد على مشاهدات والده وجده .

وأشار ابن دهيش إلى أن ما يزيد من أهمية الكتاب أن معظم ما اشتمل عليه المجلدان الرابع والخامس أحداث ووقائع عاشها المؤلف وشاهدها حتى قبيل وفاته في محرم سنة 1125 هـ ، وأصبح هو المصدر الرئيس لمن جاءوا بعده وأرخوا لمكة في تلك المدة . وقد بذل المؤلف جهوداً مضيئة في تتبع الأخبار وتنسيقها حسب الحوليات ووفق الموضوع أحياناً . وهذه الجهود ظاهرة من خلال التعليقات الكثيرة التي أثبتتها المحققون في الهوامش ومن خلال توثيقه لنقله .

وهذا المصدر موسوعي لتاريخ مكة والبيت والحجاز بشكل عام ، حيث "يتحدث عن تاريخ الحرم الشريف وعمارته وولاية مكة وأخبارها

=

وتنوعه ، فإن البحث والتنقيب عن آثاره العلمية لم يصل إلا إلى رسالته الأولى (رسالة في التوحيد...) المخطوطة في دار الكتب المصرية ، أما (الدلائل الواضحة...) و(القربة بكشف الكربة...) و(ديوان الشعر) فقد ذكرت في بعض المصادر ، ولم يتم العثور عليها .

وانظر ترجمته أيضاً في : نفحة الريحانة ، المحبي 134/4-136 ؛ المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 358 ؛ التاريخ والمؤرخون بمكة ، الهيلة ، ص 383-385 .

(1) حصلت به على درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة أم القرى .

(2) نالت به درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة أم القرى .

منذ آدم - عليه السلام - إلى عام 1124 هـ ، أي قبل وفاة المؤلف - رحمه الله - في المحرم سنة 1125 هـ . وتظهر في كتابه هذا صلة التاريخ المكي المباشر بتاريخ أقطار العالم الإسلامي ، مثل : مصر والشام واليمن والعراق والهند وأقطار المغرب الإسلامي وآسيا الصغرى ممثلة في الدولة العثمانية وغيرها" (1) .

وقد ذكر الدكتور جميل المصري (2) أن السنجاري لم يجزئ كتابه إلى أجزاء ، فلا أثر للتجزئة التي كتبها بخطه وأتمها الحضراوي (3) ، وأما الناسخ الدهلوي (4) - كعادته في نسخه كتب تاريخ مكة - فإنه جزأ الكتاب ثلاثة أجزاء : اشتمل الجزء الأول على مقدمة المؤلف ، ثم مقدمة في علم التاريخ ، ثم وصف عام لمكة المكرمة وفضائل البيت الحرام وبنائه ، ثم تناول أخبار مكة وولاتها من آدم - عليه السلام - إلى وفاة الشريف حسن بن عجلان سنة 829 هـ ، والجزء الثاني تضمن أخبار مكة والبيت وولاية الحرم من سنة 829 هـ إلى نهاية سنة 1096 هـ ، أما الجزء الثالث فقد تناول المدة من سنة 1097 هـ إلى نهاية سنة 1124 هـ .

وفترة الدراسة داخلية ضمن الجزأين الثاني الذي يتناول المدة ما بين 41 - 829 هـ ، والثالث - وهو الأهم - الذي يتناول المدة ما بين 829 - 1037 هـ ؛ حيث يشمل أكثر من ثلثي القرن التاسع والقرن العاشر كله .

- 3 -

وهذا الكتاب أحد المصادر المهمة للشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين . وقد أرخ المؤلف لبعض الأحداث من خلال التاريخ الشعري القائم على حساب الجمل (5) ذاكراً اسم الناظم في كثير من الأحيان ، مكتفياً بقوله : "قال بعضهم" إذا لم يهتد إلى اسم الناظم (6) .

(1) منائح الكرم 11/1 .

(2) المصدر السابق 11/1 .

(3) انظر : المصدر نفسه 120/1 وما بعدها .

(4) انظر : المصدر نفسه 138/1 وما بعدها .

(5) سيأتي الحديث عن التاريخ الشعري في مبحث (الألفاظ والتراكيب) في الفصل الرابع من هذه الدراسة .

(6) انظر : المصدر نفسه 104/1-107 ؛ 312/3 ، 373 (هامش/3) ، 432 ، 433 ،

وقد حفل هذا المصدر بقصائد كثيرة لشعراء ذلك العصر ، استقى المؤلف بعضها من دواوينهم ، وأخذ بعضها من مؤلفات سابقيه ومعاصريه ، ومنها ما تناوله مشافهة من أفواه الشعراء أو الرواة (1) . ولم يكن المؤلف معنياً بتراجم الشعراء ، بل كان اهتمامه بالشعر ؛ وبذلك أصبح هذا الكتاب من المصادر المهمة للشعر في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وخاصة القرن العاشر .

وهو حريص على ذكر القصائد كاملة ما لم تكن طويلة ، فإن كانت كذلك ذكر شيئاً منها وأشار إلى طولها ، من ذلك - مثلاً - قصيدة الشاعر عبدالقادر الطبري في مديح الشريف إدريس بن حسن بن أبي نمي ؛ حيث ذكر منها ستة عشر بيتاً ، أتبعها قوله : "وهي طويلة تنوف على الثمانين بيتاً ، وفي إيراد هذا القدر كفاية" (2) .

ويعد هذا الكتاب أحد المصادر التي حفظت شيئاً من نتاج عدد من شعراء الفترة المدروسة في هذا البحث ، منهم : الشريف حسن بن عجلان (3) ، وأحمد العليف (4) ، والشريف علي بن حسن بن عجلان (5) ، والشريف بركات بن محمد بن بركات (6) ، ومحمد بن أحمد النهروالي (7) ، وعبدالرحمن بن عبدالله با كثير (8) ، وعبدالعزیز بن علي الزمزمي (9) ، وصالح الدين بن ظهيرة (10) ، وعلي بن حسن با كثير (1)

=

437 ، 443 ، 568.

- (1) انظر : المصدر السابق 107/1-117 .
- (2) انظر : المصدر نفسه 534/3 ، 535 .
- (3) المصدر نفسه 397/2 ، 398 .
- (4) المصدر نفسه 20-17/3 ، 117-125 ، 136-143 ، 157-170 ، 177-194 ، 200-204 .
- (5) المصدر نفسه 42/3 .
- (6) المصدر نفسه 146-144/3 ، 194 ، 195 .
- (7) المصدر نفسه 218/3 ، 221 ، 471 ، 472 .
- (8) المصدر نفسه 300-271/3 ، 331 ، 421-426 .
- (9) المصدر نفسه 303/3 ، 304 ، 328 ، 329 ، 340 ، 341 .
- (10) المصدر نفسه 310/3 ، 311 .

، وأبوبكر اليتيم⁽²⁾ ، ومحمد بن علان الصديقي⁽³⁾ ، وعبدالرؤوف الواعظ⁽⁴⁾ ، والشريف أبو نمي بن بركات⁽⁵⁾ ، وعلي الجم⁽⁶⁾ ، ومحمد علي بن إسماعيل الطبري⁽⁷⁾ ، وعبدالقادر بن محمد الطبري⁽⁸⁾ ، وجمال الدين العصامي⁽⁹⁾ .

د - إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن ، للطبري:

- 1 -

مؤلف هذا الكتاب محمد بن علي بن فضل بن عبدالله الطبري الحسيني المكي ، يلقب بالجمال الأخير.

ولد في مكة المكرمة قريباً من سنة 1100 هـ ، ونشأ فيها ، حيث حفظ القرآن الكريم على والده وجوّده ، ثم قرأ عليه وعلى غيره من العلماء جملة من الكتب العلمية ، وحفظ كثيراً من المتون ، وحصل على إجازات عديدة من شيوخه .

تولى إمامة المقام الإبراهيمي ، ودرّس بالحرم الشريف ، فاشتهر بنبله وبراعته في كثير من العلوم حتى قصده طلاب العلم خارج الحجاز ، فضلاً عن توافد الطلاب عليه من مكة وما حولها من أرض الحجاز . صنف مصنفات مهمة ، منها : عقود الجمان في سلطنة آل عثمان ، والحجة الناهضة في إبطال مذهب الرافضة ، والتوبيخ لمن جهل علم التاريخ ، وإمتاع البصر والقلب والسمع في شرح المعلمات السبع . توفي في مكة المكرمة سنة 1173 هـ⁽¹⁰⁾.

=

- (1) المصدر السابق 312/3 .
- (2) المصدر نفسه 330/3 .
- (3) المصدر نفسه 345/3 .
- (4) المصدر نفسه 346/3 .
- (5) المصدر نفسه 367-364/3 .
- (6) المصدر نفسه 368/3 ، 430-426 .
- (7) المصدر نفسه 385-383/3 .
- (8) المصدر نفسه 397-385/3 ، 421-419 .
- (9) المصدر نفسه 458/3 ، 459 ، 472 .

(10) انظر ترجمته في : المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص458 ؛ التاريخ والمؤرخون بمكة ، الهيلة ، ص404-402 ؛ إتحاف فضلاء الزمن 17/1-46 (مقدمة المحقق) ؛ الأسرة الطبرية ، الرادادي ، ص120 ، 121 .

- 2 -

وقد اهتم الجمال الطبري في هذا الكتاب بتاريخ مكة منذ زمن النبي ﷺ إلى ما يقارب منتصف القرن الثاني عشر الهجري ؛ إذ أتم تأليفه في سنة 1140هـ.

وضمن المؤلف كتابه كثيراً من الحوادث والأخبار مرتبة حسب السنين ، متناولاً ولاية مكة من زمن الرسول ﷺ إلى سنة 1140هـ (وهي السنة التي تم بها تأليف الكتاب) ؛ حيث تناول صفاتهم وما قاموا به من أعمال وما وقع من حوادث في زمنهم ، وما مدحوا به ، كما ترجم لبعض العلماء .

ويقع الكتاب في ثلاثة أجزاء طبع منها جزءان بتحقيق الدكتور محسن محمد حسن سليم ، نشرتهما دار الكتاب الجامعي بالقاهرة (1) . انتهى المؤلف في الجزء الأول إلى سنة 999هـ (2) ، وأرخ في الجزء الثاني للحوادث بدءاً من أول سنة في القرن الحادي عشر (1001هـ) حتى سنة 1124هـ . وتاريخ الطباعة غير محدد على الجزء الأول (3) ، أما الجزء الثاني ففي سنة 1413هـ (1993م) . وقد ذكر الأستاذ محمد الحبيب الهيلة أن ناصر البركاتي قد حقق الكتاب لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة سانت أندرسن بإنجلترا سنة 1972م ، وطبعه على الآلة الكاتبة (4) .

"والمؤلف واسع الأفق ، كثير الاطلاع ، أديب له أسلوبه المميز في التأليف والكتابة . لم يقتصر على المسائل التاريخية أو الفقهية أو الفلسفية... يستطرد في الاستشهاد بالأمثلة والحجج التي تؤيد رأيه، ويعلق

(1) الحديث في هذا المبحث يشمل هذين الجزأين المنشورين بتحقيق الدكتور محسن سليم ، لكنني سأقصر الاستشهاد على الجزء الأول ؛ لأنه تناول الشعر في القرنين التاسع والعاشر الهجريين (موضوع الدراسة) ؛ فهو إذن أحد المصادر التي أفدت منها في دراستي ، أما الجزء الثاني فيبدأ من أول سنة في القرن الحادي عشر الهجري .

(2) ولم يرد أي ذكر لسنة 1000هـ.

(3) يبدو أن طباعة الجزء الأول تالية للجزء الثاني ؛ إذ إن تاريخ إيداع الجزء الأول في دار الكتب المصرية - كما ورد في نهايته - في سنة 1996م ، والأقرب أنه طبع في هذه السنة.

(4) التاريخ والمؤرخون بمكة ، ص403 . وقد ذكر الأستاذ الهيلة أن الجزء الثالث من الكتاب يبدأ من سنة 1124 إلى 1140هـ ، ولم أقف على تحقيق البركاتي (يرحمه الله) .

على الحوادث بما يتفق مع رأيه ويؤيد فهمه ، وإن أعجبه شيء ، ووافق عمل ؛ أيده ومدحه ببعض من شعره... والمناسبات لا تمر عليه عفو خاطر ، وإنما يسوقها مسجاة ببعض الأبيات ، أو يمر بها في موكب الشعر ، وربما يستطرد فيذكر القصيدة تلو الأخرى ولا ينسى أن يذكر بعض الملح مما يقوله الناس ، شعراً كان أو نثراً ، تعليقاً على بعض الحوادث ، أو تأثراً بها⁽¹⁾.

وعلى الرغم من أن المحقق أستاذ أكاديمي ؛ فإنه لم يلتزم الدقة في مراعاة الأصول العلمية للتحقيق . ولست في سبيل تعقب عمله ، أو التقليل من جهده ، بل رأيت أنه من واجبي – ما دمت بصدد الحديث عن هذا المصدر – أن أعرض جانباً من الأخطاء الكثيرة التي قل أن تخلو منها صفحة من صفحات الكتاب ، وهو أمر – فيما يبدو – ناتج من عدم العناية بمراجعة الطباعة ، حتى بات (التصحيف والتحريف)⁽²⁾ في مواضع كثيرة من الكتاب ، ودبّ التصحيف في كثير من الأبيات الشعرية ، نجد ذلك في مثل قول الشاعر عبدالقادر الطبري :

أَرْضَنِي مُؤَلِّفِي بَيِّتِ شِعْرِ مَا ذَهَبَ
أَحْصُدُ جُودَ مَا جَدِ أَجَازَنِي أَلْفَ ذَهَبَ⁽³⁾

والشاعر لم يقل : (أرضني ، وأحصد) بل قال :
(أَرَّخَنِي مُؤَلِّفِي... ، وَأَحْمَدُ جُودَ مَا جَدِ...)
وقد شاعت الأخطاء النحوية والإملائية في الكتاب ، مثل : لم يأتيني⁽⁴⁾ ، ودَعَى للشريف بركات⁽⁵⁾ ، وغيرهما⁽⁶⁾ .

- (1) إتحاف فضلاء الزمن 1/مقدمة المحقق .
- (2) هما أكبر آفة منيت بها الآثار العلمية ؛ إذ إن سلامة الآثار العلمية منها قليلة . وبعض العلماء لا يفرقون بين التصحيف والتحريف ، يجعلونهما مترادفين ، ومنهم من يفرق بين مدلولي الكلمتين .
- انظر آراء العلماء في التصحيف والتحريف ، والكتب التي تناولت ذلك في كتاب الدكتور عبدالسلام هارون (تحقيق النصوص ونشرها ، ص 60-65) .
- (3) إتحاف فضلاء الزمن 1/112 ، وانظر الصفحات 241 ، 245 ، 312 ، 316 ، 325 ، 335 ، 344 ، 485 ، 499 ، 554 .
- (4) المصدر نفسه 1/95 .
- (5) المصدر نفسه 1/237 .
- (6) انظر – على سبيل المثال – المصدر نفسه 1/20 ، 134 ، 231 ، 290 ، 402 ، 424 .

والواضح أن المحقق لم يلتفت إلى الوزن في كثير من الأبيات ، بل إنه نسب كثيراً من الأبيات إلى غير بحورها ، من ذلك قصيدة الشاعر إسماعيل المقري التي منها قوله:

وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا زَادَهُ بِالْإِمْتِحَانِ لَهُ هُدًى وَرَشَادًا (1)

حيث قال في الهامش : "الأبيات من البحر السريع (مستفعلن مستفعلن مستفعلن) ". وفضلاً عن أن القصيدة من (الكامل) ؛ فإن هذه التفعيلات التي ذكرها ليست للسريع ، بل للرجز . ولم يقف المحقق عند هذا الحد ، بل إن تفعيلات البحر الواحد تختلف عنده من موضع إلى آخر ، فقد علق على بعض الأبيات قائلاً : "الأبيات من البحر المنسرد (مفاعيلن مفاعيلن فاعلان)" (2) ، وقال في موضع آخر عقب أحد الأبيات : "البيت من البحر المنسرد (مفاعيلن مفاعيلن)" (3)!

وقد يُظنُّ أنه تصحيف لبحر (المنسرح) ، لكنه ليس كذلك ؛ لأن الأبيات في الموضعين ليست من وزن المنسرح ، كما أن التفعيلات التي ذكرها لبحر المنسرد (المولد) لا تتوافق مع وزن الأبيات (4) . ولو أهمل المحقق ذكر البحور الشعرية ، لكان أجدى من عمله هذا ؛ فقد ألزم نفسه منهجاً لا يستطيع أدائه ، وهذا ما قلل من قيمة جهده .

- (1) المصدر نفسه 207/1 . وانظر – مثلاً – الصفحات : 181 ، 222 ، 245 ، 249 ، 403 . ولم يكن المحقق دقيقاً في ترجمة الشاعر المقري ؛ إذ ذكر أن اسم جده (عمر) ، واسمه في المصدرين اللذين أخذ عنهما الترجمة (عبدالله) ، وقد اتضح من خلال مصدري الترجمة – الضوء اللامع 292/2 ؛ شذرات الذهب 321/9 – أنه ولد ونشأ باليمن ، وليس في مكة كما ذكر المحقق .
- (2) المصدر نفسه 111/1 (الهامش) .

- (3) المصدر السابق 365/1 (الهامش) .
- (4) انظر : الأبيات في المصدر نفسه 111/1 ، 365 . ويلاحظ أن أجزاء البحر المنسرد (المولد) هي : مفاعيلن مفاعيلن فاع لاتن . وفي الكتاب عدد من التعليقات الغريبة ، كقول المحقق (ج1 ، ص249) : الأبيات من البحر الغريب (فاعلاتن فاعلاتن مستفعلن) ، تعليقاً على مقطوعة بدأها الشاعر قائلاً :

همة جازت السها والسعودا لست أرضى لها النجوم عبيدا
والناظر في الأبيات يدرك أنها من البحر الخفيف ، ولو أن التفعيلات التي ذكرها لبحره الغريب مناسبة للوزن ؛ لالتمس له العذر بأن (الغريب) تحريف طباعي للخفيف ؛ لكن الأمر ليس كذلك .

- 3 -

ومن يطلع على هذا الكتاب يدرك عناية المؤلف بالجانب الأدبي ، ومدى حبه للشعر ، وحرصه على تدوينه ؛ من أجل ذلك ركز على الاستشهاد بالشعر دون العناية بتراجم الشعراء "وهو يكاد أن يكون كتاب أدب ، لكثرة ما ذكر فيه من الشعر" (1) . والمؤلف يستشهد بالبيت أو البيتين ، وأكثر من ذلك الاستشهاد بمقطوعة أو قصيدة كاملة ، وقد يستطرد فيورد أشباهها من قصائد السابقين (2) . وربما عمد إلى ذكر الأبيات دون الإشارة إلى قائلها (3) .

والكتاب أحد المصادر المهمة للشعر في الفترة المدروسة ، حيث تناول المؤلف في الجزء الأول مجموعة من شعراء القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ هؤلاء الشعراء هم : الشريف حسن بن عجلان (4) ، وعبدالرحمن باكثير (5) ، والشريف علي بن حسن بن عجلان (6) ، والشريف بركات بن حسن بن عجلان (7) ، وأحمد العليف (8) ، وأبوبكر بن أبي الخير (9) ، وعبدالعزیز بن علي الزمزمي (10) ، وعبدالرؤوف الواعظ (11) ، وأبوبكر اليتيم (12) ، وحسن باكثير (13) ، وعبدالقادر الطبري (14) ، وجمال الدين العصامي (15) ، ومحمد بن أحمد النهروالي (1) ،

-
- (1) الأسرة الطبرية المكية ، الردادى ، ص 120 .
 (2) انظر : إتحاف فضلاء الزمن 135/1 ، 401-389 ، 431-428 ، 557 ، 558 .
 (3) انظر : المصدر نفسه 181/1 ، 197 ، 296 ، 319 ، 320 ، 362 ، 365 ، 366 ، 403 ، 404 ، 417-414 ، 509 ، 533 ، 552 ، 560 ، 561 .

- (4) المصدر السابق 172/1 ، 173 .
 (5) المصدر نفسه 178-174/1 ، 431 ، 477 ، 485 ، 492-494 .
 (6) المصدر نفسه 241/1 .
 (7) المصدر نفسه 245/1 ، 318 ، 319 .
 (8) المصدر نفسه 249-246/1 ، 316-310 ، 324-346 ، 369-388 ، 401-403 .
 (9) المصدر نفسه 308-297/1 .
 (10) المصدر نفسه 479/1 ، 482 ، 567 .
 (11) المصدر نفسه 481/1 .
 (12) المصدر نفسه 492/1 .
 (13) المصدر نفسه 497/1 .
 (14) المصدر نفسه 499/1 .
 (15) المصدر نفسه 525/1 .

وعلي الجم (2) ، والشريف أبو نمي ابن بركات (3) .

-
- =
- (1) المصدر نفسه 533/1 ، 553-559 .
- (2) المصدر نفسه 551/1 .
- (3) المصدر نفسه 563-561/1 .

3 - : الدواوين الشعرية : أ - ديوان أحمد العُليّ :

- 1 -

صاحب هذا الديوان هو الشاعر شهاب الدين أحمد بن الحسين بن محمد العُليّ .

ولد في مكة سنة 851هـ ، ونشأ فيها ، ثم عاش شطراً من حياته في المدينة ، لكنه عاد إلى مكة ، وتوفي فيها سنة 926هـ (1) .

- 2 -

يقع هذا الديوان المخطوط في (88 ورقة) (2) ، عني بجمعه محمد الحسين السمرقندي ، جاء في الورقة الأولى من هذا الديوان : " هذا ديوان يشتمل على ما وجد من شعر العلامة ... أحمد الحسين العليّ العدناني الشافعي المدني المكي ، وعلى شيء من شعر آبائه وأجداده وأولاده وأحفاده ، اعتنى بجمعه العبد الفقير محمد الحسين السمرقندي المكي ثم المدني عفا الله عنهم وغفر لنا ولهم وللمسلمين " .

بدأ السمرقندي بمقدمة قال منها : " هذا ما تيسر جمعه من كلام الشيخ أحمد العليّ المذكور حسب الطاقة ، حيث لم أقف له على ديوان مشهور ، بل تتبعته من عدة مواضع ، فلذلك سيأتي بعضه غير متتابع ... وقد وقفت على بعض مدائح نبوية للمؤلف المذكور ولآبائه وأجداده ، فجعلت ذلك صدر الديوان " (3) .

والناظر في الديوان لا يجد أن السمرقندي قد أقحم قصيدة لأي أحد من أجداد العليّ ، بل افتتح الديوان بمدحة نبوية لصاحبه مكونة من (48 بيتاً) ، أعقبها مدحة نبوية لوالده حسين العليّ تضم (110 بيت) (4) ، ثم قصيدة نبوية أيضاً لعم صاحب الديوان (علي العليّ) أبياتها (39) (5) ، فقصيداً لأبي الفضل محمد بن أحمد العليّ (ابن الشاعر) مدح بها النبي ﷺ عدة أبياتها (32) (6) ، تلتها قصيدتان في مديح الرسول ﷺ لصاحب الديوان ، لتتوالى بعد ذلك قصائده في الزهد والتحذير من الغفلة

(1) في الفصل الخامس من هذه الدراسة ترجمة وافية لهذا الشاعر .

(2) رقمه في مكتبة برلين (7931) .

(3) ديوان أحمد العليّ ، ورقة 1/ب .

(4) المصدر نفسه ، ورقة 2/ب- 5/أ .

(5) المصدر السابق ، ورقة 5/أ - 6/أ .

(6) المصدر نفسه ، ورقة 6/أ ، 6/ب .

في الدنيا ، وفي المديح ، والغزل ، والرثاء ، والهجاء ، والحنين ،
والشكوى ، والعتاب ، والحكمة ، والابتهالات ، والتأمل .

يتكون الديوان من 91 قصيدة – تتراوح أبياتها بين (136-7بيت) –
و33 مقطوعة – تتراوح بين (6-3أبيات) – و30 نتفة وثلاثة أبيات يتيمة .
وقد بلغت أبيات الديوان (3729 بيت) .

وهذا الديوان لم يضم كل نتاجه الشعري ؛ إذ إن هناك أبياتاً عديدة
لم يضمها الديوان ، مثل قصيدته في مديح الشريف بركات بن محمد بن
بركات التي مطلعها :

العِزُّ تَحْتَ ظِلَالِ الْبَيْضِ يَوْمَ الْلِقَاءِ وَسَبَقِ السَّيْفِ لِلْعَدْلِ
حيث وردت في الديوان مشتملة على (85 بيتاً) ، لكنها وصلت في
سمط النجوم العوالي إلى (148بيت) .

ومن ذلك قصيدته التي مطلعها :
عَزِيزٌ عَلَى بَيْتِ النَّبْوةِ وَالْمُلْكِ مُقَامٌ عَلَى ذِلِّ الْمَهَانَةِ وَالْفَتْكِ (2)
إذ جاءت في الديوان (75 بيتاً) وفي إتحاف فضلاء الزمن (77
بيتاً) .

وكذلك قصيدته :
أَرَى الْعِزَّ مَا قَامَتْ عَلَيْهِ وَمَا شَيَّدَتْهُ الْمُرْهَفَاتُ الْبَوَاتِكُ
حيث إن عدة أبياتها في الديوان (54 بيتاً) وفي سمط النجوم العوالي
(74 بيتاً) .

- 3 -

(1) انظر : المصدر نفسه ، ورقة 35/ب – 37/ب ، وسمط النجوم العوالي ، العصامي
325-319/4 .

(2) انظر : المصدر نفسه ، ورقة 10/ب – 12/أ ، وإتحاف فضلاء الزمن ، الطبري
316-310/1 .

(3) انظر : المصدر نفسه ، ورقة 12/أ – 13/ب ، وسمط النجوم العوالي ، العصامي
309-306/4 ، وفيه : ذرى العز... ، وبلغت القصيدة كذلك (54 بيتاً) في إتحاف
فضلاء الزمن ، الطبري 328-324/1 ، و(51 بيتاً) في منائح الكرم ، السنجاري
170-157/3 ، كما ذكر ابن فهد مقتطفات منها في غاية المرام 206-202/3 . وقد
يلحظ المطلع على القصيدة في هذه المصادر أن ثمة اختلافاً بينها في ترتيب الأبيات
وفي بعض الألفاظ ، بل إن هناك اختلافاً في عدد من قصائد الشاعر بين الديوان
والمصادر الأخرى ، قد يكون الاختلاف في رواية بعض الأبيات ، أو في عدد أبيات
القصيدة .

وهذه النسخة من الديوان منقولة عن الأصل ، تم نسخها في سنة 1000 هـ . وقد ترك كاتبها – وهو لم يذكر اسمه – بياضاً في بعض الأسطر⁽¹⁾ ، مشيراً إلى أنه (هكذا في الأصل) . وهو غير دقيق في نقله ، فضلاً عن الأخطاء الإملائية والنحوية التي يلحظها القارئ .

ومن شواهد عدم دقته استبداله لفظة (فضلاً) بلفظة (فرضاً) في قول الشاعر العليّ :

وَكَرِيمٌ يَرَى الْعَوَائِدَ (فُضْلاً) إِنَّ رَأَاهَا الضَّيْنُ بِالْمَالِ نَفْلاً (2)

إذ الواضح من البيت أن الشاعر قد أراد المطابقة بين الفرض والنفل ، لكن الناسخ لم يلتفت إلى ذلك ، وأثبت لفظة (فضلاً) في هذه النسخة . ومن ذلك زيادة الألف في (ولا أنت) في قول الشاعر :

وَلَا أَنْتَ الْكَرِيمُ نَفْساً وَذَاتاً وَلَأَنْتَ الْجَوَادُ فِرْعَافاً وَأَصْلاً (3)

والواضح أن الشاعر قد قال : ولأنت الكريم ، بل إن الناسخ لم يلتفت إلى انكسار البيت في هذه الزيادة .

وقد شاع التصحيف والتحريف ، وكثرت الأخطاء الإملائية والنحوية ؛ فالألف اللينة ترسم ياءً وحققها أن ترسم ألفاً ، والضاد تكتب ظاءً ، وهاء التانيث (التاء المربوطة) تكتب مفتوحة ، ويأتي خبر كان مرفوعاً ، كما أن الياء تثبت في الاسم المنقوص المجرور المجرد من أل ، وغيرها من الأخطاء التي شوهدت صورة الديوان⁽⁴⁾ .

ومن هذه الأخطاء ما يحدث خللاً في وزن الأبيات ، كإثبات حرف العلة (الياء) في الفعل المضارع المسبوق بحرف الجزم (لم) في قول العليّ :

وَلَمْ يَسْتَنْتِرْ إِلَّا بِضَوْءٍ وَلَمْ يُسْتَنْتِرْ إِلَّا الرُّدَيْنِيَّةَ السُّمُرُ

إذ إنه لو حذف حرف العلة ليصبح (لم يستنتر) ؛ لصح لغة واستقام وزناً .

(1) انظر : ورقة 10/ب ، 16/ب ، 42/أ ، 47/ب ، 52/أ ، 53/أ ، 61/أ ، 61/ب ، 65/ب ، 83/ب .

(2) ديوان أحمد العليّ ، ورقة 48/ب .

(3) المصدر نفسه ، ورقة 49/أ .

(4) انظر المصدر السابق : ورقة 27/ب ، 30/أ ، 31/أ ، 32/ب ، 36/أ ، 52/أ ، 52/ب .

(5) المصدر نفسه ، ورقة 16/أ .

كما أن الناسخ لم يكن حريصاً على كتابة البيت المدور على النهج الصحيح ، نجد ذلك في مثل قول الشاعر :

لَمْ يَكُنْ غَيْرَ مَا تُرِيدُ وَلَوْ كَانَ فَإِنَّ الْعَزِيزَ مَنْ لَا يُضَامُ

لَا يُقِيمُ الْفَتَى عَلَى الضَّيْمِ مَا لَهُ الرَّمْحُ خَادِماً وَالْحُسَامُ (1)

إذ إن الكتابة الصحيحة لهذين البيتين تقضي بنقل حرفي النون في (كان) والميم في (مادام) إلى عجز البيتين.

وأرجح أن كثيراً من الأخطاء العروضية الواردة في هذا الديوان من جراء عدم الدقة في النقل ، وليست من الشاعر ؛ فهناك – مثلاً – خلل في الوزن في قول الشاعر:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى الْهَجْرِ (فذاك) فِي دَعْوَى الْمَحَبَّةِ يَكْذِبُ

ويمكن أن يستقيم باستبدال (فذلك) بـ (فذاك) . ويبدو أن الخلل من النقل عن الأصل .

بل إن هناك ما يخل بالمعنى الذي أراده الشاعر ، كقوله :

وَيُبْدِلُ بِالصَّيْفِ (الشِّتَاءِ) (فهما) أَتَى ضَحَوْ أَتَى بَعْدَهُ

ويبدو أن البيت كما أراد الشاعر :

وَيُبْدِلُ بِالصَّيْفِ الشِّتَاءَ تَعَاقِباً فمهما أَتَى ضَحَوْ أَتَى بَعْدَهُ ظَهَرُ

هذه بعض الأمثلة على عدم دقة الناسخ وبعض الأخطاء في الإملاء والنحو ، وهناك ما يبدو أنه على قاعدتهم في الإملاء – آنذاك – كرسم الهمزة المتطرفة مفردة على السطر في كل الأحوال ، مثل : هذا امرئ ، كل امرئ ، إن امرئ ، وعدم إجراء الإعلال في مثل : أو من ، ورائق ، حيث تكتب على الأصل : أو من ، ورائق ، وحذف همزة الممدود كالصحراء والهيحاء ، حيث ترسم : الصحرا ، الهيجا ، حتى وإن أدى ذلك إلى خلل في الوزن ، وليس ذلك في الاسم فحسب ، بل في الفعل المهموز أيضاً ، كقول الشاعر :

فَرُبَّ ابْتِسَامٍ (جَا) مِنْ جَانِبِ الْبُكَ وَرُبَّ (بُكَ) (جَا) مِنْ جَانِبِ

فصدر البيت لا يستقيم إلا بإثبات همزة (جاء) وعجزه لا يستقيم إلا

(1) المصدر نفسه ، ورقة 13/ب .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 45/ب .

(3) المصدر السابق ، ورقة 55/أ .

(4) المصدر نفسه ، ورقة 11/ب .

بإثبات همزتي (بكاء) و(جاء) .
ب - ديوان عبدالرحمن باكثير:

- 1 -

هو وجيه الدين عبدالرحمن بن عبدالله باكثير المكي الشافعي . لم تتحدث المصادر المتوافرة عن مولده ونشأته وتعليمه سوى أنه كان قاضياً في جدة . وهو من المقربين للشریف أبي نمي وابنيه أحمد والحسن ، ومن مداحيهم.

وباكثير عالم جليل وشاعر يعد في طليعة شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين.

له كتاب في تاريخ مكة ، وكتاب نقدي عنوانه (تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب) وهو مطبوع بتحقيق الدكتور رشيد عبدالرحمن صالح .

توفي باكثير في مكة المكرمة قرابة سنة 975هـ (1) .

- 2 -

ويقع هذا الديوان المخطوط في (43 ورقة) (2) ، تضم (20 قصيدة) تتراوح ما بين (152-34 بيت) ، ومجموع أبيات الديوان (1343 بيت) .

وجل قصائد الديوان في مديح الشريف أبي نمي وابنيه أحمد والحسن ، وقد افتتح الديوان بمدحة نبوية ، ثم تتابعت القصائد المدحية لأبي نمي وابنيه ؛ حيث مدح أبا نمي بتسع قصائد ، وابنه أحمد بأربع ، والحسن بقصيدتين ، كما رثى أحمد بن أبي نمي بقصيدة . وفي الديوان قصيدتان في مديح قاضيين أثيرين عند الشاعر ، وقصيدة يرثي بها أحد أصدقائه . وقد اشتملت مدائحه لأبي نمي وابنيه على مقدمات غزلية طويلة عدا خمس منها كانت خالصة للمديح ، كما أن إحدى مدائح أحمد بن أبي نمي قد سبقت بمقدمة حماسية.

ويتضح من خلال مقدمة الشاعر لهذا الديوان أنه جمع هذه القصائد استجابة لطلب عزيز عليه لا يستطيع رده - قد يكون الشريف أبا نمي - إذ يقول : "... فلازمني بذلك من أعزه وأوده ، ولا أحب مخالفته ، ولا

(1) انظر ترجمته في : ريحانة الألبا ، الخفاجي 431/1 ؛ تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب ، مقدمة المحقق .

(2) رقمه في مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة (228/أدب) .

أرضى رده ، أن أجمع له ما كنت نظمته من قبل ؛ لئلا يرمى بتفريق الجمع وتشيت الشمل ، فثبت له عند ذلك عنان التحصيل ، فلم أظفر منه إلا بالقليل ، ووجدت النسيان قد أسكنه في زواياه ، والضياح قد أودعه في خباياه ، فجمعت له ما انتثر من لآئ هاتيك العقود ، وما تفرط من سلك ذلك الدر المنضود ، وحصلت له ما تيسر من تلك الدرر بعدما تفرق شذر مذر " (1) .

فالشاعر إذن هو الذي جمع هذه القصائد وأودعها هذا الديوان . وليس في هذه النسخة معلومة عن اسم كاتبها أو تاريخ الكتابة ، لكن الكاتب – كما يبدو – ناسخ محترف ، أو طالب علم جيد ؛ يتضح ذلك من خلال ندرة الأخطاء في النسخة التي بين يدي ، وإن وجد شيء من ذلك فهو غير مؤثر في فهم النص ، مثل : زيادة الألف في (ترنوا ، تعنوا ، با القنا ، فا التنقل) ، وجعل الألف المقصورة ممدودة في مثل : (سُكارا ، سُلما ، لُبنا) ، وعدم الدقة في كتابة بعض الأبيات المدورة ، كقول الشاعر :

وَحْدَرُهَا مِنْ حَشَاشَاتِ الْقُلُوبِ وَمِنْ نُورِ الْعُيُونِ وَمِنْ حَبِّ الْحَشَا
إذ إن (ومن) في بداية العجز يجب أن تعود إلى التفعيلة الأخيرة في صدر البيت.
ج – ديوان الزمزمي:

- 1 -

صاحب هذا الديوان هو عبدالعزيز بن علي بن عبدالعزيز بن عبدالسلام الزمزمي ، العالم ، الشاعر .
ولد في مكة في سنة 900 هـ ، ونشأ بها ، وكانت وفاته في سنة 976 هـ بمكة (3) .

- 2 -

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على نسخة مكتبة باريس الوطنية ذات الرقم (3228) (4) ، وتضم هذه النسخة (110 ورقة) .

- (1) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 2/ب .
- (2) المصدر السابق ، ورقة 23/أ .
- (3) في الفصل الخامس من هذه الدراسة ترجمة وافية لهذا الشاعر .
- (4) وهي محفوظة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض بالرقم نفسه .

جاء في الورقة الأولى دعاء بتوقيع محمد بن أبي الحسن الصديقي ، وهو أحد علماء ذلك العصر ، له صلة بالزمزمي ، وكان شاعراً جرت بينه وبين الزمزمي إخوانيات مثبتة في هذا الديوان ⁽¹⁾ ، اتضح من خلالها مدى ما بينهما من ود وتقدير .

وقد جمع هذا الديوان صاحبه الشيخ عبدالعزيز الزمزمي ، ووضع له مقدمة أوضح فيها هدفه من مدائحه النبوية ومنهجه في ترتيبه .

وقد تضمن الديوان – كما جاء في المقدمة – ثلاثة أبواب وخاتمة ؛ اشتمل الباب الأول على 17 مدحة نبوية ، ثنتان منها جاءت على طريقة التخميس ، وثنتان عارض بهما همزية البوصيري وبردته ، وفي هذا الباب قصيدة في الحنين إلى المدينة ، وقصيدة فيها توسل ومديح لحبر الأمة عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) ؛ وبذلك تكون قصائد الباب الأول في هذا الديوان (19 قصيدة) لا تخلو من ابتغال إلى الله وتوسل بالرسول ع على نهج المتصوفة .

ويحوي الباب الثاني (37 قصيدة واحدة منها مسمطة) و(9 مقطوعات) و(4 نتف) ، وأشار الزمزمي إلى ما جرى بينه وبين الشيخ محمد الصديقي من إخوانيات ، مضيفاً إلى هذا الباب قصيدتين للصديقي . وقد ابتدأ هذا الباب بقصيدة توسل فيها بالإمام الشافعي ومدحه ، ثم توالى القصائد والمقطوعات والنتف في مديح بعض العلماء والتوسل بأصحاب القبور ، حيث زيارة الأضرحة والشكوى للصالحين من أصحاب القبور . وكلها أمور شريكة جرت في أشعار أهل التصوف .

وتناول الباب الثالث شعره في الحنين إلى مكة والشوق إلى الحجاز ، وفيه وصف البلد الحرام والبيت العتيق ، جاء ذلك في (10 قصائد ، تراوحت بين 11-77 بيتاً) .

أما الخاتمة فقد نظم فيها خمسة أحاديث شريفة في أربع مقطوعات قصيرة وقصيدة قصيرة تكونت من عشرة أبيات . ولكن هذه لم تكن الخاتمة – كما ذكر في مقدمته – إذ جاء بعدها تخميس منظومة للشيخ أبي مدين المغربي عثر عليه بعد الانتهاء من جمع الديوان ، وقد قال في

(1) انظر : ورقة 92/ب – 95/أ .

التقديم له : رأيت أن أثبتها والأولى أن تثبت في الباب الثاني ؛ لأن ناظم القصيدة الخمسة من الأولياء ، والباب الثاني له تعلق بالأولياء⁽¹⁾.

والديوان يتكون من (68 قصيدة) و(13 مقطوعة) و(4 ننتف) ، عدة أبياتها (3064 بيت) ، وأغلب قصائد هذا الديوان مؤرخة .

كتب الديوان أبو الحسن بن محمد بن عبدالعزيز الزمزمي⁽²⁾ بخط نسخ جيد قليل الهنات ، ومنها – على سبيل المثال – كتابة (نظمت) بالتاء المربوطة في قول الشاعر : "نظمة هذه القصيدة عام..."⁽³⁾ ، وعدم الدقة في كتابة بعض الأبيات المدورة ، مثل قول الشاعر :

يا حبيبَ الإلهِ يا أعظمَ الخلقِ اختِصاصاً ورفعةً واجتباءً⁽⁴⁾

حيث إن حرف القاف في (الخلق) ضمن التفعيلة الأولى في عجز البيت ، وجعل الألف المقصورة ياء منقوطة في مثل : تخلقى ، الهوى ، على ، وما ساروا عليه – آنذاك – في رسم الهمزة⁽⁵⁾ . وهي في جملتها يسيرة لا تلبس في فهم الأبيات .

د – مجموعة تخميسات لعبدالعزیز بن علي الزمزمي ، أولها (قصب السبق في تخميس القصص الحق) وبه سميت المجموعة المخطوطة: وقد اعتمدت في هذه الدراسة على نسخة مكتبة الفاتيكان ذات الرقم (1143) ، وتقع في (34 ورقة) .

وهي من البداية حتى ورقة 12/ب تكرر (لتخميس القصص الحق) الوارد في الديوان⁽⁶⁾ ، ثم تخميسه لبردة البوصيري ، وختم هذه المجموعة بتخميس لمقصورة ابن دريد . على الغلاف تعليقات لمن امتلك هذه النسخة . وقد ظهرت بخط نسخ

- (1) المصدر السابق ، ورقة 106/أ .
- (2) يبدو أنه حفيد الشاعر الشيخ عبدالعزيز بن محمد (975 – 1072 هـ) عالم مكة ومفتيها الذي انتهت إليه رئاسة العلم في عصره ، وهو شاعر أيضاً (انظر : المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 259 ، 260) .
- (3) ديوان الزمزمي ، ورقة 14/ب .
- (4) المصدر نفسه ، ورقة 8/ب .
- (5) مضى تناول شيء من منهج كتابة الهمزة لدى طائفة من الكتاب في ذلك العصر ، في الحديث السابق عن ديوان أحمد العليف .

- (6) انظر : ديوان الزمزمي ، ورقة 37/ب – 53/أ . و(القصص الحق) قصيدة طويلة للمتوكل يحيى شرف الدين بن شمس الدين (ت 965 هـ) ، من أئمة اليمن .

جميل ، لم يتضح اسم كاتبه.

وقد بدأ تخميس القصص الحق قائلاً :

مَلَا وَرَوْقَ كَأْسِ الْحُبِّ سَاقِيهِ فَاشْرَبَ وَبُخَّ بِالْهُوَى كَمْ ذَا تُغْطِيهِ

شَبَّ بِسَلْعٍ وَقُلْ يَا عَرَبَ وَاِدِيهِ

(لَكُمْ مِنَ الْحُبِّ صَافِيهِ وَوَافِيهِ وَمِنْ هَوَى الْقَلْبِ بَادِيهِ وَخَافِيهِ) (1)

كما استهل تخميسه لبردة البوصيري بقوله:

عَلَامٌ أَمْسَى سَمِيرَ النَّجْمِ فِي وَفِيمَ أَجْرِي عَقِيقَ الدَّمْعِ فِي الْعَلَمِ

حَتَّى غَدَا غَفْلُ بَرْدِ السُّقْمِ ذَا عِلْمِ

(أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ مَرَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ)

أما مقصورة ابن دريد فقد بدأ تخميسها قائلاً :

لَمَّا بَدَا مِنَ الْمَشْيِبِ صَوْنُهُ وَبَانَ عَنْ عَصْرِ الشَّبَابِ بَوْنُهُ

قُلْتُ لَهَا وَالِدَمْعُ هَامَ جَوْنُهُ

(إِمَّا تَرَى رَأْسِي حَاكِي لَوْنُهُ طَرَّةً صُبْحٍ تَحْتَ أَذْيَالِ الدَّجَى) (3)

4 - : مصادر أخرى:

تلك أهم مصادر الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، ولكنها ليست كلها ؛ فهناك مصادر عديدة ذكرت بعض القصائد أو المقطوعات ، أو استشهدت بأبيات قليلة ، متناولة بعض الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .

وعلى الرغم من أنها تشتمل على مؤلفات لبعض الشعراء ، وعلى مصادر تاريخية تهتم دارس الأدب في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، فإنها أقل أهمية من المصادر السابقة ؛ لقلة المادة الشعرية فيها ، ولتكرار كثير منها ؛ لذلك لم أدرسها ضمن ما سبق من مصادر .

وهي مصادر عديدة في التراجم ، والتاريخ ، والرحلات ، والأدب والنقد والبلاغة ، من أهمها :

أ - كتب التراجم :

(1) قصب السبق ، ورقة 1/ب .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 12/ب .

(3) المصدر نفسه ، ورقة 21/ب .

- 1- **درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، لأحمد بن علي المقريري (1) :**
فيه شعر قليل لإبراهيم بن أحمد الخجندي ، وأحمد بن أبي بكر الرداد.
- 2- **إنباء الغمر بأبناء العمر ، للحافظ بن حجر العسقلاني (2) :**
ذكر فيه نماذج محدودة من شعر جمال الدين محمد بن عبدالله بن ظهيرة ، ومحمد ابن علي العبدري .
- 3- **معجم الشيوخ ، لنجم الدين بن فهد (3) :**
ذكر فيه نماذج يسيرة لبعض الشعراء كإبراهيم الخجندي ، وإبراهيم الزمزمي ، وأبي البقاء محمد بن أحمد بن الضياء ، ومحمد بن عبدالقوي .
- 4- **نظم العقيان في أعيان الأعيان ، لجلال الدين السيوطي (4) :**
ذكر فيه شعراً قليلاً للشريف بركات بن حسن بن عجلان ، ولمحمد النويري.
- 5- **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، لنجم الدين الغزي (5) :**
ذكر فيه شعراً قليلاً لكل من : عبدالعزيز بن عمر بن فهد ، ومحمد بن صالح الكيلاني ، وعبدالعزیز المغربي ، وعبد اللطيف بن سليمان باكثير ، ومحمد النهروالي ، وعبدالقادر بن أحمد الفاكهي .
- 6- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي (6) :**
استشهد مؤلفه بنماذج قليلة من نتاج الشعراء : علي بن أحمد بن سلامة ، وأحمد العليف ، وعبد اللطيف بن سليمان باكثير ، وعبدالعزیز بن علي الزمزمي ، وعبدالعزیز المغربي ، وعبدالمعطي باكثير ، وحسين المالكي ، ومحمد النهروالي.
- 7- **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، للمحبي (1) :**

(1) انظر : 163/1 ، 12/2 ، 13 .

(2) انظر : 45/3 ، 46 ، 530 . وما في هذا المصدر لا يتعدى ثلاثة أبيات .

(3) انظر الصفحات : 12 ، 13 ، 14 ، 38 ، 45 ، 46 ، 47 ، 77 ، 213 .

(4) انظر الصفحات : 100 ، 160 ، 161 .

(5) انظر : 239/1 ، 37/2 ، 169 ، 170 ، 179-181 ، 44/3-48 ، 169 .

(6) انظر : 267/9 ، 268 ، 195/10 ، 196 ، 404 ، 480 ، 496 ، 497 ، 585 ،

612 ، 613 ، 616-619 .

ذكر فيه شعراً يسيراً لخضر الموصلي ، ولأبي المعالي محمد الطبري .

8- نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، للمحبي (2):

عرض فيه المؤلف نماذج من أشعار عبدالقادر الطبري ، ومحمد علي بن إسماعيل الطبري ، ومحمد بن عبدالله الطبري ، وعبدالرؤوف بن يحيى الواعظ ؛ إذ اشتمل على قصيدتين لكلٍّ من عبدالقادر الطبري ومحمد علي الطبري ، ونماذج من شعر محمد بن عبدالله الطبري تزيد على أربعين بيتاً ، كما ذكر بضعة أبيات للشاعر عبدالرؤوف الواعظ .

9- سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر ، لابن معصوم (3) :

أورد فيه المؤلف قصيدة للشاعر عبدالقادر الطبري ونماذج من شعره تصل إلى خمسة عشر بيتاً ، كما ذكر شعراً يسيراً لكلٍّ من : عبدالرحمن المرشدي ، وعبدالرحمن الخفاجي ، وعبدالعزيز بن علي الزمزمي ، وخضر الموصلي .

10- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، للشوكاني (4) :

ذكر أنموذجاً من شعر أحمد العلييف بلغت أبياته ثلاثة وعشرين ، كما أثبت بيتين للشاعر عبدالقادر الطبري .

11- السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة ، لابن حميد (5) :

استشهد فيه بقصيدة لمحمد بن عبدالقوي ، ومقطوعة للشاعر عبدالكريم بن ظهيرة .

12- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ، لعبدالحى الحسني (6) :

ذكر فيه شعراً قليلاً لعبدالمعطي باكتير ، ولمحمد النهروالي .

13- المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، لعبدالله مرداد أبي الخير ،

=

(1) انظر : 131/2 ، 132 ، 463 ، 464 .

(2) انظر : 35/4-40 ، 50-57 .

(3) انظر الصفحات : 48-50 ، 67 ، 189 ، 190 ، 385-388 . وللشاعر عبدالقادر

الطبري قصيدة في هذا المصدر (ص47) لم أشّر إليها ؛ لأنها أنشئت في مديح الشريف محسن بن الحسين الذي كانت له ولاية الحجاز سنة 1034هـ (فهو إذن ليست ضمن الفترة المدروسة في هذا البحث) .

(4) انظر : 54/1-56 ، 371 .

(5) انظر : 492/2-494 ، 589 .

(6) انظر : 214/4-216 ، 285-290 .

اختصار محمد العامودي وأحمد علي (1) :

تناول فيه عدداً من الشعراء ، منهم : أحمد البسكري ، وأحمد العليف ، وعبدالعزیز بن علي الزمزمي ، وعبدالمعطي باكثير ، وعلي باحميد ، ومحمد النهروالي ، واستشهد بنماذج يسيرة من شعرهم .

ب - كتب التاريخ :

1- تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر

الشريف ، لأبي النجاء محمد بن الضياء (2) :

المؤلف أحد شعراء مكة في القرن التاسع الهجري ، وقد خمس بردة البوصيري ، وأثبت ذلك في هذا الكتاب .

2- حسن القرى في ذكر أودية أم القرى ، لجار الله بن فهد ، حققه

حمد الجاسر ونشره في مجلة العرب (3) :

فيه شعر لمحمد بن فهد ، ومحمد بن علي العبدري ، وأبي عبدالله الفيومي ، وعبدالقادر العراقي ، وعبدالرزاق باكثير ، ومحمد بن إبراهيم بن ظهيرة ، وأحمد العليف ، وأبي بكر بن أبي الخير .

3- نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الوري ، لجار الله بن

فهد (4) :

أورد المؤلف قصيدة لأبي البركات محمد بن ظهيرة القرشي وبيتين لكل من : محمد بن عبدالوهاب بن يعقوب (النجم أبي المعالي) ، وأبي عبدالله الفيومي ، وأحمد بن سعد الخيفي .

4- تحفة اللطائف في فضائل الحبر بن عباس ووج والطائف ، لجار الله

(1) انظر : ص 79 ، 107-109 ، 258 ، 259 ، 267-272 ، 323 ، 324 ، 350 ، 395-397 ، 456 ، 457 .

(2) انظر : ص 93 ، 94 .

(3) انظر مجلة العرب : ص 18 ج 1 ، 2 ، رجب وشعبان 1403 هـ ؛ ص 18 ج 3 ، 4 ، رمضان وشوال 1403 هـ ؛ ص 18 ج 5 ، 6 ، ذوا القعدة والحجة 1403 هـ . وعلي الرغم من قلة المادة الشعرية في هذا المصدر ، فإنه يعد أحد المصادر المهمة ؛ لأنه اشتمل على شعر لا يوجد في غيره من المصادر ، كما أن مؤلفه جار الله بن فهد قد انفرد بذكر عبدالرزاق باكثير بوصفه أحد شعراء مكة ، مشيراً إلى أنه ابن لوجيه الدين عبدالرحمن بن عبدالله باكثير الشاعر المكي المعروف . وقد ذكر أنموذجاً من شعر عبدالرزاق باكثير أنشده إياه في سنة 947 هـ ؛ يدل على شاعريته .

(4) انظر : 54/1 ، 239 ، 317 ، 318 ، 386 .

بن فهد(1):

جاء فيه شعر لعدد من الشعراء ، حيث أثبت المؤلف أربعة أبيات لكل من : محمد بن علي العبدري ، وجمال الدين محمد بن يعقوب ، وقطعة شعرية لأحمد بن محمد الكازروني ، وقصيدة وقطعتين شعريتين لأبي اليمن أحمد بن محمد الطبري ، وقصيدة للشاعر عبدالعزیز بن علي الزمزمي ، وقصيدتين لكل من : ثابت بن إسماعيل الزمزمي وأبي عبدالله الفيومي .

5- الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، للجزيري (2) :

ذكر فيه المؤلف شعراً لعدد من الشعراء ، منهم : محمد بن أحمد النهروالي ، وأحمد بن سعد الخيفي ، ومحمد بن عبدالقوي ، وأبو بكر اليتيم ، وأبو عبدالله الفيومي ، وأحمد بن صدقة العسقلاني . وعلى الرغم من قلة الشعر في هذا المصدر ، فإن فيه أبياتاً للنهروالي والفيومي لم أرها في غيره .

6- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، للنهروالي (3) :

أورد النهروالي في مؤلفه هذا شيئاً قليلاً من شعره .

7- البرق اليماني في الفتح العثماني ، للنهروالي (4) :

أورد النهروالي فيه واحدة من قصائده .

8- الأرج المسكي في التاريخ المكي ، لعلي بن عبدالقادر الطبري (5) :

فيه مقطوعات قليلة لعلي بن حسن باكثير ، وصلاح الدين بن ظهيرة ، ومحمد النهروالي ، وقصيدة لوالد المؤلف الشاعر عبدالقادر

(1) انظر : ص 51 ، 149-164 .

(2) انظر : 15/1 ، 715 ، 716 ، 732 ؛ 1061/2 ، 1099 ، 1155 ، 1338 ، 1377 ، 1398 ، 1399 ، 1405 ، 1406 ، 1410 ، 1418 ، 1449 ، 1489 ، 1499 . وعلى الرغم من أن المؤلف وصف طرق الحج إلى مكة المكرمة ، وفصل الكلام على طريق الحج من القاهرة إلى مكة حين مرّ به حاجاً ؛ فإن الكتاب لم يأت على نمط كتب الرحلات . وقد أشار المؤلف في مقدمته إلى أنه لم يسبقه أحد على هذا المنوال ، كما ذكر الشيخ حمد الجاسر في تقديمه أن الكتاب فرد في موضوعه ، وأنه يعد سجلاً لحوادث حقبة من الزمن لا توجد في غيره .

(3) انظر : ص 15 ، 33 ، 264 ، 363 ، 364 .

(4) انظر : ص 13 ، 14 .

(5) انظر : ص 178 ، 304 ، 305 ، 306 .

الطبري .

9- الجواهر الثمينة في محاسن المدينة ، لمحمد كبريت ، تحقيق عائض الرادادي (1) :

استشهد فيه بخمس نتف وقصيدة قصيرة للشاعر أبي عبدالله الفيومي (2)، كما أورد مقطوعة للشاعر أحمد الرداد ، وقصيدة لأحمد

(1) انظر : 154/1 ، 190 – 192 ، 330 ، 375 ؛ 493/2 ، 513 ، 514 ، 528 ، 547 ، 548 ، 592 ، 603 .

(2) ورد الفيومي بكنيته في هذا الكتاب وفي رحلة الشتاء والصيف للمؤلف نفسه ، وفي مواضع ذكر لقبه فقط . أما في ج 1 ، ص 329 من هذا المصدر (الجواهر الثمينة) فقد ذكر كبريت أن اسمه محمد ، حيث قال : أنشد لنفسه أبو عبدالله محمد الفيومي ، ثم علق المحقق في الهامش (5) قائلاً : "أورد المؤلف البيتين في رحلته (رحلة الشتاء والصيف ، ص 15) منسوبين لأبي عبدالله الفيومي المكي ، وقد ورد في كل النسخ أن اسمه (محمد) ما عدا نسخة جامعة الملك سعود ونسخة القاهرة ، حيث اكتفى بكنيته ولقبه مثل رحلة كبريت . ولعله شهاب الدين أحمد الفيومي" .

والدكتور الرادادي يقصد – كما جاء في الهامش (3) ، ص 154 من الجواهر الثمينة – شهاب الدين أحمد الفيومي ، أحد شعراء الحجاز في القرن العاشر الذي ترجم له الشهاب الخفاجي في الريحانة (385/1) ، مشيراً إلى أنه من مداحي الشريف أبي نمي (محمد بن بركات) .

ويبدو لي أنه محمد بن عمر بن عبدالعزيز الفيومي (المتوفى سنة 902هـ) ؛ فقد ترجم له السخاوي في (الضوء 246/8) ، مشيراً إلى كنيته (أبي عبدالله) ، كما ذكر ذلك أيضاً عز الدين بن فهد في (غاية المرام 617/2) ؛ حيث ذكر قصيدة مدح بها الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان ، مقدماً لها بقوله : وقال فيه يمدحه الشاعر الأديب الأوحى الأريب أبو عبدالله محمد بن عمر ابن عبدالعزيز المصري الأصل ، المكي المولد والدار ، الشهير بالفيومي ، كما أن الشلي في (السنا الباهر ، ورقة 17/ب) قد كناه بأبي عبدالله .

وهو قد درس على السخاوي في المدينة وفي القاهرة ، كما أنه رحل إلى الشام . ذكر ذلك السخاوي في الضوء ، والشلي في السنا الباهر . ومن يتتبع شعر الفيومي في الجواهر الثمينة لكبريت وفي رحلة الشتاء والصيف ؛ يجد تغنيه بالمدينة ومصر والشام ، وتشوقه إلى هذه البلاد ، فضلاً عن تشوقه إلى بلده مكة .

قد يكون الرادادي معتمداً على بيتين ذكرهما كبريت في رحلة الشتاء والصيف ذكر أنهما لأبي عبدالله الفيومي ، وهما في الريحانة لشهاب الدين أحمد الفيومي .

أرجح أنه سهو من كبريت ؛ إذ لم يتضح من أي مصدر أن شهاب الدين أحمد الفيومي (شاعر أبي نمي) المذكور في الريحانة يكنى بأبي عبدالله ، إنما أحمد الفيومي المكنى بأبي عبدالله هو العالم الشاعر جمال الدين بن محمد بن سراج الدين عمر بن عز الدين الفيومي ، وهو صاحب ديوان الشعر المحفوظ في مكتبة الشيخ

الكازروني ، ومنتفة لجمال الدين العصامي ، ومنتفتين للشاعر محمد النهروالي .

ج - كتب الرحلات :

1- الفوائد السننية في الرحلة المدنية والرومية ، للنهروالي ، حققها حمد الجاسر ، ونشرها في مجلة العرب (1) :

في هذه الرحلة نماذج من شعر صاحبها محمد النهروالي لم ترد في مصادر أخرى .

2- رحلة الشتاء والصيف ، لمحمد كبريت (2) :

استشهد المؤلف بأبيات للشعراء : أبي عبدالله الفيومي ، وأحمد العليف ، ومحمد النهروالي ، وجمال الدين العصامي . وأكثر هؤلاء شعراً في هذا المصدر أبو عبدالله الفيومي ؛ إذ أورد له المؤلف ثلاث عشرة نتفة ، وقطعة شعرية ، كما استشهد باثني عشر بيتاً من إحدى قصائد العليف ، وبيتين ومنتفتين للشاعر محمد النهروالي ، ومنتفة لجمال

=

عارف حكمت برقم (226/أدب) ، وله في هذا الديوان قصائد في شيخه جمال الدين بن ظهيرة المتوفى سنة 907هـ . ثم إن (كبريت) قد نص على أن اسمه - أعني أبا عبدالله - (محمد) في موضع من كتابه هذا - كما سبق - وذكر كنيته دون اسمه في كتابيه الجواهر الثمينة ورحلة الشتاء والصيف ، وهذا دليل على شهرته بكنيته التي تكررت لدى عدد من المؤرخين كالسخاوي في الضوء ، وعز الدين بن فهد في غاية المرام ، والشلي في السنا الباهر ، والجزيري في الدرر الفرائد ، وكذلك جار الله بن فهد في كتابه حسن القرى في ذكر أودية أم القرى المنشور في مجلة العرب - المشار إليه سابقاً ضمن المصادر التاريخية للشعر - ، ولكنه ورد - كما يبدو - سهواً محمد بن عبدالعزيز ؛ إذ قال : العلامة الألمعي أديب زمانه أبو عبدالله محمد بن عبدالعزيز الفيومي ، ثم ذكر قصيدة لمحمد بن عمر بن عبدالعزيز واردة في غاية المرام . ومحمد بن عبدالعزيز الفيومي المتوفى سنة 897هـ كما جاء في (الضوء 59/8) لم يعرف بأبي عبدالله ؛ لذلك أرجح أنه سهو في أثناء النسخ ؛ لأن جار الله بن فهد في كتابه (تحفة اللطائف في فضائل الحبر بن عباس ووج والطائف ، ص160) قد أورد قصيدة قدم لها قائلاً : "قال الشيخ العلامة ... أبو عبدالله محمد بن عمر ابن عبدالعزيز الفيومي..." .

(1) س16 ، ج7 ، 8 ، محرم وصفر 1402هـ .

(2) انظر : ص11 ، 12 ، 13 ، 16 ، 30 ، 65 ، 76-79 ، 124 ، 152 ، 153 ، 156 ، 157 .

الدين العصامي .

3- نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس ، للموسوي (1) :

فيه شعر لمحمد النهروالي ، وعبدالعزیز بن علي الزمزمي ،
وعبدالرؤوف الواعظ ، وجمال الدين العصامي ، وعبدالقادر الطبري ؛
حيث جاء فيه قصيدة قصيرة ومنتفة شعرية لمحمد النهروالي ، وقصيدة
طويلة لعبدالعزیز بن علي الزمزمي ، ومنتفتان لعبدالرؤوف الواعظ ،
ومنتفة للشاعر جمال الدين العصامي ، ومنتفتان وقطعتان شعريتان
لعبدالقادر الطبري .

د - كتب الأدب والنقد والبلاغة :

1- المقامة الغورية والتحفة المكية ، لعلي بن ناصر الحجازي (2) :

اشتملت على قصيدة لمنشئها الشاعر علي بن ناصر الحجازي .

2- تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب ، لعبدالرحمن باكثير (3) :

فيه نماذج من شعر مؤلفه باكثير ، منها أبيات لم ترد في ديوانه .

3- أنوار الربيع في أنواع البديع ، لابن معصوم المدني (4) :

فيه نتف من شعر أحمد المدني ، وعبدالرحمن باكثير ، وأبي
عبدالله الفيومي .

(1) انظر : 271/1 ، 287-291 ؛ 376/2 ، 426-428 .

(2) مخطوطة في جوتا (غوتا) بألمانيا رقمها (2773) .

(3) انظر : ص 9 ، 10 ، 11 ، 15 ، 16 ، 86 (وفي هذه الصفحة أربعة أبيات لم ترد في

ديوان باكثير) ، 290 ، 294 ، 295 ، 296 .

(4) انظر : 97/5 ، 107 .

الفصل الثالث

أغراض الشعر

- 1- المديح.
- 2- الشعر الديني.
- 3- الرثاء.
- 4- الشعر السياسي.
- 5- الإخوانيات.
- 6- الحنين والشكوى.
- 7- الغزل.
- 8- الفخر والحماسة.
- 9- الهجاء.
- 10- الوصف.
- 11- الحكمة.
- 12- الشعر التعليمي.

1- المديح :

يلحظ المتابع لمصادر الشعر في القرنين التاسع والعاشر الهجريين كثرة شعر المديح في مكة والمدينة وغلبته على بقية الأغراض الشعرية ؛ وذلك لمتابعة الشعراء أعمال الممدوحين ، وتدوين المصادر بعض تلك الأعمال ؛ إذ لو دونت المصادر أعمال الممدوحين كلها لشهدنا أسفاراً من شعر المديح ، وحسبنا ما أشار إليه العصامي في حديثه عن الشريف حسن بن أبي نمي حينما قال : "ولو جمعت جميع مدائحه لكانت أسفاراً كباراً ، ولو قال قائل : إنه يمدح في كل عام بنحو الألف لأنصف في قوله وما جازف.." (1) .

وكانت الحياة السياسية بصراعاتها وأحداثها المتقلبة التي شهدها أبناء ذلك العصر مجالاً خصباً للشعراء المداحين يستقون منه أفكارهم ؛ فقد كان الصراع بين الأخ وأخيه – من أجل السلطة – أمراً غير مستغرب ، وكان الميدان للأقوى ؛ وقد ظهر أثر ذلك على الشعراء ، حتى شهدنا المعجم الشعري للمديح يعج بالألفاظ الجزلة الدالة على القوة وحقلها الدلالي (الشجاعة ، البطولة ، الهيبة... إلخ) . ولا تكاد تخلو مدحة للأمراء الأشراف من ذكر عدة المحارب من سيف ورمح وأمثالهما ، وأصبح إعجاب الشاعر بقوة الممدوح مسيطراً على فكر القصيدة ، فعلى الرغم من أن القصيدة لا تخلو من حديث عن كرم الأمير أو حسن تدبيره وحكمته ، أو أي خصلة أخرى ؛ فإن الإعجاب أكثر ما يكون بقوته ، وبات العز – كما يرى الشعراء – تحت ظلال السيوف ، فالشاعر أحمد العليف يمدح الشريف بركات بن محمد ويهنئه إثر انتصاره في إحدى غزواته ، فيبدأ القصيدة قائلاً:

عِزٌّ تَحْتَ ظِلَالِ الْبَيْضِ يَوْمَ الطَّعَانِ وَسَبَقِ السَّيْفِ لِلْعَدْلِ

ويقول الشاعر محمد السمرقندي في بداية قصيدة مدح بها أحمد بن سعد الحسيني (رئيس الأشراف بالمدينة النبوية) :

عِزُّ الدِّيَارِ بِطُولِ السُّمْرِ وَالْأَخْذُ بِالنَّارِ مَعْدُودٌ مِنْ
وَقَدْ أَكْثَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مَدِيحِ الْأُمَرَاءِ الْأَشْرَافِ ، كَمَا مَدَحُوا بَعْضُ

(1) سمط النجوم العوالي 356/4.

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص 566 .

سلاطين المماليك والعثمانيين ، وأبانوا عن حبهم للعلماء بقصائد أبرزت مكانتهم العلمية وتلك العلاقة الخاصة التي تجمع الشاعر والعالم. وسيتناول هذا المبحث المعاني التي طرقها الشعراء في مدائحهم ومدى ملاءمتها لأولئك الممدوحين ؛ للوقوف على الصورة الحقيقية لتلك الشخصيات والصفات التي كانوا يتشاركون فيها ، أو التي تميز أحدهم عن الآخر.

أ- مديح الأمراء الأشراف :

أطلق الشعراء العنان لقرائحهم تجود بالمدائح الكثيرة ؛ تخلد تلك المناسبات التي قيلت فيها ، وتذيع بين الناس ما أفاء الله على أولئك الأمراء من خصال تستحق الإشادة.

- 1 -

فشجاعة الممدوح ، ورباطة جأشه ، وهيبته ، معانٍ أكثر الشعراء الحديث عنها ، وكان للصراعات السياسية وما نتج عنها من غزوات الأثر الكبير في ذلك . وقد صاحب تلك الغزوات أحاديث عن تمجيد الانتصار وقوة الجيش وحنكة الأمير القائد.

فمثلاً أفاض الشعراء في مدح الشريف حسن بن عجلان الذي تولى إمرة مكة من سنة 797هـ إلى سنة 829هـ ، وأشادوا بشجاعته وهيبته ، فقد نعته الشاعر حسين العليفي⁽¹⁾ بـ:

الْفَارِسِ الْبَطْلُ الْهُمَامِ الْأَرْوَغِ مَلِكِ الْحُسَامِ الْمَشْرِفِيِّ الْبَاتِرِ
الْطَّاعِنِ النَّجْلَاءِ فِي يَوْمِ وَالضَّارِبِ الْفَرَغِيِّ ضَرْبِ النَّائِرِ⁽²⁾

حرص الشعراء على إضفاء هذه الصفات على الأمراء الأشراف ، فصار المعنى يتكرر في أكثر من قصيدة لدى عدد من الشعراء . يقول

(1) هو حسين بن محمد بن حسين بن عيسى ، بدر الدين ، المعروف بابن العليفي . ولد في مكة سنة 794هـ ، ونشأ بها ، فحفظ القرآن الكريم ، وأخذ عن والده وعن علماء مكة الفقه والحديث والنحو ، كما أخذ فنون الأدب وبعض العلوم الأخرى ، ودرّس بالمسجد الحرام . له شعر في موضوعات مختلفة ليس فيها هجاء . توفي في مكة سنة 856هـ . - انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 706/1-710 ؛ المنهل الصافي ،

ابن تغري بردي 170/5 ، 171 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 155/3 ، 156 .

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 365/2 .

محمد بن أبي السعود بن ظهيرة (1) في مدح الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان:

مَلِيكَ قَدْ سَمَّا قَنَّ الْمَعَالِي وَذَلَّ لِعِزِّهِ الصَّعْبُ الْمَهُولُ

هُوَ الْبَطْلُ الْهَزْبَرُ أَبُو قِنَاعٍ مُحَمَّدُ الْأَبِيِّ الْمُسْتَطِيلُ (2)

وينوّه بشجاعته وصرامة بأسه في الحروب في قصيدة ثانية ، فيقول:

مَلَكٌ لَهُ فِي رَحِيبِ الْفَضْلِ بَادِرَةٌ وَفِي حُرُوبِ الْأَعَادِي أَيُّ

قَرَمٌ هَزْبَرٌ إِذَا مَا شِمَتْ طَلْعَتُهُ رَأَيْتَ عَجَّاجَ بَحْرِ غَيْرِ مُحْتَكَرٍ

إِنْ جَالَ فِي صَهَوَاتِ الْخَيْلِ يَوْمَ تَرَاهُمْ يُلْصِقُونَ الْأَرْضَ بِالطَّرَرِ

أَوْ قَابَلَتْهُ صَنَادِيدُ الْحُرُوبِ تَرَى جِبَاهَهُمْ تَلْتَأْتُ بِالْعَفَرِ (3)

وهو - أي الشريف محمد بن بركات - في نظر الشاعر أبي عبد الله محمد بن عمر الفيومي (4) أجدر الناس بالثناء ، لفضله وشجاعته ؛ إذ إنه نافذ الأمر ، عظيم الهمة ، أسد لا يجارى في ساحة الحرب . يقول الفيومي :

مُحَمَّدٌ أَوْلَى النَّاسِ بِالْحَمْدِ وَأَشْجَعُ لَيْثٍ فِي الْوَعْيِ وَهَمَامٍ

(1) هو خير الدين ، أو قطب الدين أبو الخير محمد بن أبي السعود بن ظهيرة القرشي . ولد بمكة سنة 846هـ ، ونشأ بها ، حيث حفظ القرآن الكريم ، وصلى به في المسجد الحرام ، وقد تميز في العربية ، وكذلك في الفقه ؛ إذ أخذهما عن جمع من العلماء في مكة والقاهرة ، وهو ممن درّس وأفتى وصنف . من مصنفاته : شرح على لامية الأفعال لابن مالك ، وشرح على الإيجاز للنووي وغيرهما . توفي في القاهرة سنة 910هـ .

- انظر ترجمته في : السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 36/ب ، 37/أ ؛ الدر الكمين ، عمر بن فهد 381-384/1 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 279/9 ، 280 .

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 610/2 .

(3) المصدر نفسه 526/2 .

(4) هو محمد بن عمر بن عبدالعزيز بن أحمد بن محمد الفيومي ، وقد اشتهر بكنيته (أبي عبد الله) . نشأ بمكة ، وأخذ العلم عن عدد من العلماء في مكة وغيرها ، ومن شيوخه شمس الدين السخاوي ، حيث درس عليه في مكة والمدينة والقاهرة . ذكر الشلي أن له ديوان شعر ، وأنه توفي سنة 902هـ .

- انظر ترجمته في : السنا الباهر ، ورقة 17/ب ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 246/8 .

ثَنَاءٌ جَمِيلٌ فِي الْبَرِيَّةِ شَائِعٌ وَفَضْلٌ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ مُقَامٌ (1)

ونظم الشاعر محمد النويري (2) قصيدة هنا بها الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان حينما ولي السلطة في الحجاز في سنة 903 هـ ، أشار فيها إلى قدرته على حماية البيت الحرام ؛ لما يتوافر في شخصيته من صفات تؤهله لذلك ، فهو شجاع ، مهيب ، ذو بأس شديد . يقول النويري مخاطباً الشريف بركات:

كَفَلْتَ خَيْرَ بِلَادٍ لِلَّهِ فَاتَّضَعْتَ لَكَ الشَّوَامِخُ وَالْأَفْلاكُ وَالسُّحُبُ

حَمَيْتَ جِيرانَهُ وَالزَّائِرِينَ لَهُ بِرَاحَةٍ مِنْكَ يَسْتَشْفِي بِهَا

فَاضْحَى الْحَطِيمُ يُنَادِي فِي الْمَلَأَ هَذَا الْمَلِكُ الَّذِي يُدْفَعُ بِهِ

هَذَا الْهَمَامُ الَّذِي إِنْ سَلَّ هَوَاصِرُ الْأَسَدِ مِنْ بَأْسَاهُ

هَذَا الَّذِي تَحْذَرُ الْأَعْدَاءُ وَكُلُّ ضِرْغَامٍ فِي الْحَاطِئِ شَهْبُ

هَذَا الَّذِي حَصَّنَ الْأَمْلاكَ بِأَسْهُمٍ لَمْ يَزَلْ فِي حَدِّهَا

واستطاع الشريف بركات بن محمد أن يُرهب أعداءه ، ويُسكت المتطاولين على ملكه ، فنال بذلك إعجاب الشعراء وخصه فحل ذلك العصر الشاعر أحمد العليّف بجل مدائحه ، فكان شاعره الذي رصد أعماله الجليلة ، وأبان عن إعجابه بشخصيته في مناسبات عديدة ؛ فكسب بذلك نواله . يقول محمد الحسين السمرقندي (جامع ديوان العليّف) (4) في مقدمته:

"وقد أغناه بجوائزه عن مدح غيره كما نقلته من خط المؤلف ، وقد وصفه في أثناء هذا الديوان بما لا يستطيع أن يصفه به قلم ولسان ، وذلك بعض صفاته الكرام".

وواضح من هذا القول إعجاب السمرقندي الشديد بالمادح والممدوح

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 619/2 .

(2) هو عز الدين أبو المفاخر محمد بن عبدالعزيز بن أحمد النويري . ولد بمكة سنة 869 هـ ، ونشأ بها . اشتغل في الفقه والعربية وغيرهما . ذكر شيخه شمس الدين السخاوي أنه ذكي ، فهم ، يقظ .

- انظر ترجمته في : الضوء اللامع 58/8 .

(3) غاية المرام 75/3 ، 76 .

(4) هذا الديوان مخطوط ، منه نسخة في برلين برقم 7931 .

. وقد قاده هذا الإعجاب إلى أن يجهز على كل شعر ينظم في الشريف بركات بعد شعر العليف.

ومن قصائد العليف التي مدح بها الشريف بركات بن محمد قصيدة طويلة بلغت (148 بيتاً) نظمها بمناسبة خروج الشريف بركات لقتال بعض خصومه - في سنة 912هـ - حيث نهبوا دور مكة وعاثوا في الحرم ، فظفر بهم الشريف بركات وأظهر في هذه المواجهة من الشجاعة وقوة البأس ما يؤكد ثناء الشعراء المطرود . وقد أشاد العليف بعزيمته الماضية وهمته العالية ، ونوه بحسن تدبيره وشجاعته وقوة بأسه بقوله:

ذُو عَزْمَةٍ كَغِرَارِ السَّيْفِ	وَهِمَّةٍ فِي الْعُلَا تَسْمُو عَلَى رُحْلِ
يَرَى الْعَوَاقِبَ مِنْ مِرَاةٍ فِكْرَتِهِ	غَيْباً وَيَقْضِي بِحُسْنِ الرَّأْيِ فِي
حَامِي الْحَقِيقَةِ فِي وَرْدٍ وَفِي	مَاضِي الْعَزِيمَةِ مَقْدَامٍ عَلَى
مَوْلَى إِذَا ثَوَّبَ الدَّاعِيَ وَقَدْ	حَرْبٌ يُلَبِّيهِ لَا مُسْتَفْهِمًا بِهِلْ
يَقْضِي عَلَى مُهَجِ الْأَعْدَاءِ	وَسَيْفُهُ فِي الطَّلَا يَرْوِي مِنْ

لقد أسبغ على ممدوحه صفات القائد الناجح من عزيمة ، وشجاعة ، وحسن تصرف في ميادين القتال ، ومضى في حديثه عن ممدوحه ، مبرزاً شخصيته الحربية ؛ حيث يظل ربيط الجأش في المواقف العصبية ، مبادراً إلى الثأر من أعدائه ، يقود جيشاً جراراً ، يصفه الشاعر مصوراً عظمة الانتصار بقوله:

يَنَامُ طَرْفَكَ وَالْأَوْهَامُ تُسْهِرُهُمْ	خَوْفًا وَتَهْدَأُ وَالْأَفْكَارُ فِي جَدَلٍ
حَتَّى إِذَا أَيْنَعَتْ لِلْقُطْفِ	وَحَانَ بِالسَّيْفِ مِنْهَا مُنْتَهَى
أَصْدَمْتُهُمْ بِخَمِيسٍ لَوْ صَدَمْتُ	هَضَابَ رَضْوَى لَعَادَتْ مِنْهُ فِي
يَكَادُ يَسْمَعُ وَقَعَ الْمُرْهَقَاتِ بِهِ	مَنْ بِالْخَرِيبَةِ مُمْتَدًّا إِلَى ثَوَلٍ
... كَمْ فِي جَوَانِبِهِ لِلْوَحْشِ مُعْتَرِكٌ	وَفَوْقَ حَافَاتِهِ لِلطَّيْرِ مِنْ زَجَلٍ
دَبَّتْ إِلَيْهِمْ مَنَائِهِمْ بِصَدَمَتِهِ	دَيْبٍ كَأْسِ الطَّلَا فِي الشَّارِبِ

(1) سمط النجوم العوالي ، العصامي 320/4.

نَامُوا وَمَا نِمْتَ عَنْ وَثَرٍ وَالْقَوْمُ فِي غَفْلَةٍ يَزْعَوْنَ كَالْحَمَلِ
مَا زِلْتُ تَرْكُضُ فِي مِضْمَارٍ دَلِيلُكَ النَّصْرُ فِي حَلٍّ وَمُرْتَحَلٍ (1)

وتتضح الشخصية الحربية للشريف بركات من خلال المعاني المتكررة لأكثر من شاعر ، ركزوا فيها على أنه رجل الحرب ، ذو البأس الشديد ، والهمة البعيدة ، والعزيمة النافذة (2) .

وكان الشريف أبو نمي (محمد بن بركات) كوالده ، استمد تفوقه من تلك الخصال الأصيلة التي كان عليها والده الذي لم يأل جهداً في سبيل تربيته - منذ الصغر - على كرام الفعال وتعويده على حلبات النزال . وقد أتى ذلك الغرس ثماره ؛ حيث امتاز أبو نمي بصرامته في الحكم ، ففضى على أصحاب الفتن ، وأدب أهل الحمق والسفه . وقد قرت به عين والده الذي كان "يضع يده على ناصية ابنه أبي نمي ويقول : لم تنزل الأكدار عليّ متوالية حتى ظهرت هذه الناصية" (3) .

جاء في البرق اليماني للنهروالي (4) أن (عامر عزيز) (5) صاحب جازان قد استطال على شرفاء مكة بلسانه ، وادعى الافتخار بحسامه وسنانه ، وذكر ما لا يليق بشأنهم فتوجه الشريف أبو نمي إلى جازان وحاصرها ثم أخذها في سنة 944هـ ، وقد هرب عامر ، فأقام الشريف من جانبه من يضبطها ، ورجع ظافراً .

وقد مدحه الشاعر عبدالرحمن باكثير بهذه المناسبة بقصيدة تحدث

(1) المصدر السابق 322/4.

(2) انظر - على سبيل المثال - : غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 75/3 ، 76 ، 141 ، 142 ، 156 ، 163 ، 164 ، 202 ، 203 ، 204 ، 224 ، 295 ، 296 ؛ وإتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 313/1 ؛ وسمط النجوم العوالي ، العصامي 306/4 ، 307.

(3) ريحانة الألبا 384/1 (الهامش).

(4) ص 87 ، 88 ، وانظر تفصيل ذلك في تاريخ المخلاف السليماني ، العقيلي 275/1-277 . وفيه أن أبانمي استولى على مدينة جازان الأعلى المشهورة بدرب النجاء (مدينة الأمراء القطبية) وهدم قلعتها المسماة (الثريا) وعاد إلى أبي عريش ، فأقام فيها بقية عام 943هـ ، وكرّر راجعاً إلى الحجاز . والنهروالي يقول : إن أبانمي أخذها سنة 944هـ ، فلعله يقصد أنه انتهى من غزو جازان ، ثم رجع سنة 944هـ .

(5) هكذا جاء اسمه في هذا المصدر ، وهو عامر بن يوسف العزيز (أحد أمراء آل قطبي الذين آلت إليهم إمارة جازان في أوائل القرن التاسع الهجري) . تولى عامر جازان في سنة 935هـ ، ومات قتيلاً في سنة 944هـ في أبي عريش .

- انظر تاريخ المخلاف السليماني ، العقيلي 261/1 ، 275 .

فيها عن صفاته عند قراع الخطوب ، يقول منها:

هَزَبَرٌ مَتَى يُدْعَى لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ أَجَابَ وَأَرْضَى مُرْهَفَاتٍ وَخُرْصَاتَا
وَأَبْصَرْتُ كُلًّا مِنْ طَلَا الْمَوْتِ وَإِنْ تَقْتَرِعْ بِيضُ الصَّوَارِمِ
تَرَاهُ رَبِيطَ الْجَاشِ ثَبَتًا جَنَانُهُ وَتَلْقَاهُ طَلَقًا بِاسِمِ الثَّغْرِ يَقْظَانًا (1)

وقد أشار الشاعر إلى أماكن انتصارات أبي نمي ، وصور شجاعته على نحو يذكرنا بميمية المتنبي التي مدح بها سيف الدولة ، وذكر بناءه ثغر الحدث ؛ إذ يقول با كثير منوهاً بشدة فتك أبي نمي بخصومه ، بعد أن أشاد بثبات جنانه:

وَكَمْ (فَزَعَتْ) (2) عَزَمَاتُهُ مِنْ تَشُبُّ لَهِيْبًا بَلْ تُشَيِّبُ وَلَدَانَا
تَرَى لِلطَّلَى نَثْرًا إِذَا كَانَ ضَارِبًا كَمَا لِلْكُلَى نَظْمًا إِذَا كَانَ طَعَانَا
تَخَالُ الْمَنَايَا كَامِنَاتٍ بَعْضُهُ فَتَبْرُرُ أَحْيَانًا وَتَكْتُمُ أَحْيَانَا
يَخُوضُ بِهَا (الْهَيْجَا) (3) فَيَغْدُو بِهَا مِنْ دَمِ الْأَعْدَا وَقَدْ كَانَ
وَيَهْمِي عَلَى الْأَبْطَالِ فِي حَوْمَةٍ حَتُوفًا وَيَكْسِيهِمْ مِنَ الدَّمِ أَكْفَانَا
إِذَا مَا غَزَا تَقْفُو الْجَوَارِحُ جَيْشُهُ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ نَصْرِهِ حَيْثَمَا كَانَا
عَوَارِفَ مِنْهُ أَنَّهُ كُلَّ مَعْرَكٍ يُصَيِّرُ مِنْهُ السَّبْعَ وَالطَّيْرَ شَبْعَانَا (4)

وتحدث با كثير – في قصيدة ثانية – عن مصير من ناله غضب أبي نمي ، ووصف مسيره إلى أولئك المعاندين واقتحامه ديارهم ، وأشاد ببسالة الممدوح حينما واجه عنادهم بصرامته المعروفة ؛ حيث لاحق أميرهم في دياره ، حتى فرّ مذعوراً مذهولاً . يقول الشاعر با كثير مخاطباً أبا نمي:

وَيْحَ قَوْمٍ مَا نَالَهُمْ مِنْكَ حِلْمٌ جُبْتُ أَصْبَحُوا بِلا أَرْوَاحِ (5)

ويصف الحالة التي آل إليها الخصم بقوله:

(1) ديوان عبدالرحمن با كثير ، ورقة 13/أ .

(2) في المصدر : رقت ، والمثبت عن إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 438/1.

(3) في المصدر : الهيجاء.

(4) ديوان عبدالرحمن با كثير ، ورقة 13/أ ، 13/ب.

(5) المصدر نفسه ، ورقة 30/أ.

صَبَحَتْ خَيْلُهُ دِيَارَ مُعَادِيٍّ هِ فَنَادَى زَعِيمُهَا وَاصْبَاحِ
ثُمَّ أَجْلَا عَنِ الثَّرِيَّا طَرِيداً فِي قِيُودِ الْهَوَانِ وَالْأَثَرِاحِ
فَاسْتَبَحْتُمْ دِيَارَهُ بِالْمَوَاضِي وَالْعَوَالِي وَالنَّبْلِ أَيَّ اسْتَبَاحِ
... يَا لَهَا وَقَعَةٌ جَنَيْتَ ثَمَارَ النَّصْرِ مِنْهَا غَضّاً بِأَيْدِي الرِّمَاحِ⁽¹⁾

وفي أواخر سنة 948هـ تعرض ميناء جدة لعملية تخريب أثناء مرور الحملة البرتغالية في طريقها من جاوه إلى السويس ، وقد تنبه الشريف أبو نمي للخطر المحدق بجدة ؛ فترك مكة في موسم الحج ، وأتاب عنه ابنه أحمد ، وتوجه إلى جدة في جيش كبير ، جمعه من أهل مكة والقبائل المجاورة لها ، فقاتلهم بنفسه وماله ، واستمر في موقفه مدافعاً عن جدة حتى أجلاهم⁽²⁾.

وقد أعجب الشاعر عبدالعزيز الزمزمي⁽³⁾ بهذا الموقف البطولي للشريف أبي نمي ؛ فمدحه بقصيدة بلغت (71 بيتاً) عارض بها قصيدة الخطيب ابن دارياء التي مطلعها :

هَاتِ اسْقِي الصَّهْبَاءَ يَا قَدْ فَاحَ نَشْرُ الْوَرْدِ وَالنَّارِجِسِ

أشاد الزمزمي فيها بفروسية أبي نمي وشدة بأسه ، مشيراً إلى وقفته مع البرتغاليين الذين اعتدوا على ميناء جدة ، وما أبداه من صمود حتى أذلهم وأعادهم مرعوبين من هيئته ، منها قوله:

إِنْ عُدَّتِ الْفُرْسَانُ فَهُوَ الَّذِي يُدْعَى غَدَاةَ الرَّوْعِ بِالْأَفْرَسِ
هُوَ الْمَلِيْكُ الْمُتَطَيِّ صَهْوَةً مِنَ الْمَعَالِي قَطْ لَمْ تُمَسَسِ

(1) المصدر نفسه ، ورقة 30/أ ، 30/ب.

(2) انظر خبر الزحف البرتغالي على جدة في : منائح الكرم ، السنجاري 300/3-303 ؛ إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 478/1 ، نزهة الجليس ، الموسوي 287/1 ؛ خلاصة الكلام ، دحلان ، ص53 ؛ تاريخ مكة ، السباعي 347/2 ؛ جدة في مطلع القرن العاشر الهجري ، نوال ششة ، ص87.

(3) جاء في المصدر - سهواً - أن القصيدة لعبدالعزیز بن محمد الزمزمي ، والحقيقة أنها لعبدالعزیز بن علي ؛ لأن ابن محمد ولد سنة 975هـ بعد وفاة أحمد بن أبي نمي (سنة 961هـ أو 966هـ) ، والقصيدة تهنئة في عرسه .

تَذْبِيرُهُ الْمُلْكُ لَهُ دَيْدَنْ فَلَمْ يَنْمَ عَنْهُ وَلَمْ يَنْعَسِ
كُلُّ عَزِيزٍ ذَلَّ مِنْ بَاسِهِ وَهَابَهُ الرُّومِيُّ وَالشَّرْكَسِيُّ
سَلَّ النَّصَارَى عِنْدَمَا قَارَبُوا جُدَّةَ عَنْ جَدِّهِمُ الْأَتْعَسِ
مَاذَا الَّذِي نَكَّسَ أَعْلَامَهُمْ عَنْهَا نَعَمْ لَوْلَاهُ لَمْ تُنْكَسِ
ثُمَّ انْتَبَهُوا لِلْهِنْدِ وَالرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ سَارَ إِلَى قَبْرِسِ
نَصِرْتَ بِالرُّعْبِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ لَا بِأَيِّكَ الْمُصْطَفَى تَأْتِسِي (1)

وكان حسن بن أبي نمي حازماً ، مقداماً ، شديد الفراسة ، فارط الذكاء ، اعتمد عليه والده في قيادة الغزوات وتدبير كثير من المعضلات قبل أن يصل الثلاثين من عمره ؛ فكان لذلك الأثر الكبير في صقل شخصيته ، حتى غدت واضحة المعالم منذ وقت مبكر من حياته . وكان إلى جانب ذلك كله ذواقة للشعر – مثل والده – جزل العطاء للشعراء ، وربما كانت هذه أهم الأسباب في كثرة مدائح الشعراء له ، فضلاً على سني حكمه العديدة مشاركاً والده ، ثم مستقلاً .

وقد تابع الشعراء انتصارات الشريف حسن في غزواته التي كان يقودها في عهد والده ؛ فقد غزا الشريف حسن جبل شمر (2) ، وأوقع ببني لام (3) في سنة 964 هـ . ولتلك الغزاة قصة تعرف بقصة شمر (4) .

- (1) سمط النجوم العوالي ، العصامي 340/4 .
- (2) جبل شمر : نسبة لشمر ، يقع قرب مدينة حائل في شمالي المملكة العربية السعودية ، وشمر قبيلة ما زالت تعرف بهذا الاسم إلى اليوم (1425 هـ) وهي إحدى فروع قبيلة طيء .
- (3) - المعجم الجغرافي (شمال المملكة) ، حمد الجاسر 306/1 .
(3) بنو لام : من أشهر القبائل في أعالي وأسافل نجد ، وتنتهي إلى قحطان ، والقلقشندي ينسبهم إلى طيء .
- (4) - منهاج الطلب عن مشاهير قبائل العرب ، محمد القاضي ، ص 59 .
ملخص القصة : أنه في سنة 963 هـ كان أمير المدينة المنورة السيد مانع الحسيني ، وكان من عادة أمراء المدينة السابقين أن يدفعوا لبني عمهم من السادات الحسينيين ، ولجماعات من قبيلتي عنزة وضمير وغيرهم مرتبات من الأموال الجزيلة والحبوب والأقمشة ، فمنعهم الأمير مانع من ذلك استخفافاً ، فجمعت كل طائفة من هذه الطوائف جموعها ، فلما خرج ركب الحاج المدني على عادتهم أول ذي القعدة ، وأصبحوا في وادي الفريش ؛ أحاطوا به ، فوقع قتل وسلب وضرب ، انتهى بالتزام أعيان الركب بدفع ما طلبه المعتدون ، فلما وصل الخبر إلى الشريف حسن ؛ سكت حتى انقضت أيام المناسك ، ثم نادى بالمسير إلى غزو تلك الطوائف المعتدية ، فخرج بجيش جرار ،

وقد تبين من هذه الغزوة مدى ما يتمتع به الشريف حسن من حزم ، وقوة ، وشجاعة ، أصبح صداها يتردد في تلك الأصقاع ، وأخذت هيئته تستقر في النفوس ، وراح الشعراء يرددون إعجابهم بهذا الأمير المهيّب . وممن مدحه الشاعر علي الجم (1) – مهنئاً إياه بالظفر في تلك الغزوة – في قصيدة قال منها:

رَعَمَ الدَّهْرُ أَنْ يُصِيبَ رَعَايَا كَ بَضِيمٍ حَاشَاكَ مِنْ ذَا الْمُحَالِ
مَا دَرَى الدَّهْرُ أَيُّ قَرْمٍ نَزَالٍ اعْتَرَاهُ وَأَيُّ خَصْمٍ جِدَالٍ
... مَا دَرَى أَنْكَ الَّذِي لَا تُلَاقِي فِي نِزَالٍ وَلَا بِشَمِّ الْجِبَالِ (2)

يتضح في هذه الأبيات إعجاب الشاعر بشجاعة ممدوحه . والحقيقة أن الشريف حسن بن أبي نمي يستحق الإشادة ؛ لكنه لا يرقى إلى مرتبة يكون بها خصماً للدهر ؛ فالله - جل شأنه - هو مدبر الأمور التي نسبها الشاعر إلى الدهر (3) .

لقد حرص الشريف حسن بن أبي نمي على توطين ملكه ، وكان سبيله إلى ذلك الحرب في أغلب الأحيان . وقد أدى الشعر – في أثناء ذلك وظيفته – حيث سجل لنا أحداث تلك المعارك الحربية ، واتضحت شخصية الشريف حسن من خلال الغمرات التي كان يخوضها ، حتى استطاع أن يرهب أعداءه ، وينهض بملكه .

ومن الشعراء الذين أعجبوا به ورسوموا صورة واضحة لبطولته الشاعر محمد بن أحمد النهروالي حيث مدحه بقصيدة حينما غزا سوق الخميس ؛ إذ كان من عادة أهل سوق الخميس أن يمنعوا كل من وصل إليهم من الخارجين على أمراء مكة ، وتكرر في سوق الخميس بعض الأفعال المخالفة للشريعة الإسلامية ، ونصحوا فلم يستجيبوا للنصح ،

=

فلما بلغهم خروجه هربوا إلى شمر ، ولجؤوا إلى رؤوس الجبال ، لكنهم لم يسلموا من ملاحقته ، حتى تمكن منهم ، وقبض على أعيان الطوائف ، ودخل بهم المدينة .

- انظر : سمط النجوم العوالي ، العصامي 365/4 ، 366 .

(1) لم أعثر على ترجمة لهذا الشاعر فيما اطلعت عليه من مصادر . وهو من شعراء الحجاز في القرن العاشر ، نعتة العصامي (في سمط النجوم العوالي 374/4) بأنه العلامة الفاضل الشيخ نور الدين علي ، الشهير بالجم .

(2) سمط النجوم العوالي ، العصامي 376/4 .

(3) انظر : معجم المناهي اللفظية ، بكر أبو زيد ، ص 163 ، 164 ؛ وفتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء 15/2 .

فسار إليهم الشريف حسن وقتلهم ، وحاز نفائس أموالهم ، ونصّب حاكماً شرعياً ، وأميراً ؛ لإقامة النظام . وقد قتلوا الحاكم بعد أن سمعوا إشاعة بأن الشريف حسن بن أبي نمي قد مات في إحدى غزواته . وحينما وصل الخبر إلى الشريف حسن عزم على غزو سوق الخميس ، وقصدهم في بداية سنة 987 هـ ، ونزل في ديارهم ، وأقام الشريعة في تلك الديار ، ثم عاد إلى مكة في موكب عظيم ، وبين يديه أسرى منهم ، ثم أمر بقتل أربعة كانوا قد قتلوا الحاكم (1) .

وقد تفاعل النهروالي مع هذا العمل الحربي الذي قام به الشريف حسن فنظم قصيدة يمجّد فيها هذا الانتصار ويشير إلى هيبة ممدوحه بقوله:

رُفِعَتْ لَكُمْ رَايَاتُ سَعْدٍ أَكْبَرِ وَنَصِرْتُمْ رُغْباً مَسَافَةً أَشْهُرِ
... خَضْتُمْ خَضِيمَ جَحَافِلٍ وَسَلَاهِبِ سَبَحَتْ بِكُمْ وَسَفَايِنٍ فِي أَبْحَرِ
وَقَطَعْتُمُو (رُؤْسَ) (2) الْعِدَا مُدَّتْ إِلَيْهَا مِنْ طَوَالِ السَّمْهَرِ
فِي رَوْضَةٍ أَغْصَانُهَا سُمُرُ الْقَنَا سَالَ الصِّفَاحُ بِهَا مَسِيلَ الْأَنْهَرِ
تَسْقِي كِتَابَيْهَا جَدَاوِلَ عَنَدِمِ مِنْ خَالِصِ الْعَلَقِ النَّجِيعِ (3)

وهي قصيدة جيدة ؛ لم ينهج فيها الشاعر نهج بعض الشعراء الذين يكررون معاني المديح العامة التي تنطبق على أكثر من ممدوح . ويتضح من خلال الأبيات السابقة أن الشاعر أحسن انتقاء الألفاظ الجزلة الموحية ، وأجاد في عرض تلك الصورة المؤثرة.

وفي عام 989 هـ سار الشريف حسن إلى ناحية الشرق في جيش جرار ، ففتح مدناً وحصوناً تعرف بالبديع (4) ، والسلمية (5) ، والإمامية (1) ، وعاد منتصراً بعد أن عين من يقوم

(1) انظر : سمط النجوم العوالي ، العصامي 368/4 ، 369.

(2) في المصدر : رُؤُوس.

(3) إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 553/1.

(4) البديع : قرية كبيرة تنقسم قسمين : البديع الشمالي ، والبديع الجنوبي . وتبعد هذه القرية (36 كيلاً) جنوب مدينة ليلى قاعدة منطقة الأفلاج ، وتبعد ليلى (300 كيل) جنوب الرياض . [والبديع الآن (1425 هـ) البلدة الثانية في هذه المنطقة بعد ليلى].

- انظر: تاريخ الأفلاج وحضارتها ، عبدالله آل مفلح ، ص48.

(5) السلمية : إحدى بلدان الخرج الشرقية ، على مقربة من مدينة الخضرمة قاعدة الخرج

بشؤونها ، لكنه أخبر أن جماعة من بني خالد⁽²⁾ تحزبوا عليه ، فتدارك الأمر بحزمه وعزيمته ، وقاتلهم فهزمهم ، وكان قد غزا – قبل ذلك – بلدة معكال⁽³⁾ ؛ لأمر فعلها أهلها لم ترض حكام مكة⁽⁴⁾ .

وللشاعر محمد علي بن إسماعيل الطبري⁽⁵⁾ قصيدة يثني فيها على انتصار الشريف حسن ، وينوه بقوة جيشه الذي زحف إلى الشرق وعاد منتصراً على أهله الذين جنوا على أنفسهم حينما لم ينقادوا إلى الحق ، حيث يقول مصوراً ما آل إليه أمرهم:

هَذَا مُكَبِّلٌ مَأْسُورٌ وَذَا وَرَدَتْ	بِهِ الْقَتَا مِنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ
وَجَرَّعَتْهُمْ كُؤُوسَ الْحَيْنِ	وَقَائِعُ تَتْرُكُ الْوَلْدَانَ شَيْبَانًا
لَوْ أَنَّهُمْ عَقَلُوا أَمْرًا لَمَّا	عَضْبًا وَلَا اعْتَقَلُوا لِلْحَرْبِ مُرَانَا
وَلَوْ يُرِيدُونَ خَيْرًا أَوْ يُرَادُ	كَانُوا عَلَى مَا مَضَى مِنْ قَبْلُ

قديماً ، [والخرج على بعد (80 كيلاً) جنوب الرياض].

- معجم اليمامة ، عبدالله بن خميس 29/2 .

(1) الإمامية : ليس له ذكر في كتب الأماكن . ويبدو أنه موضع قريب من المواضع المذكورة.

(2) بنو خالد : قبيلة من أكبر القبائل العربية ، يزعمون أنهم من نسل خالد بن الوليد ، وقد ثبت أنه انقطع نسله . وهم بطن من عامر بن صعصعة العدنانيين . ولهذه القبيلة فروع كثيرة . كانت هذه القبيلة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين تسيطر على نجد ، وقامت لهم حكومة في الأحساء امتد نفوذها إلى نجد.

- انظر : منهاج الطلب عن مشاهير قبائل العرب ، محمد القاضي ، ص 54 ؛ وانظر أيضاً : حديث الشيخ حمد الجاسر عن هذه القبيلة في مجلة العرب : س 5 ، ج 6 ، ذو الحجة 1390 هـ .

(3) معكال : حي قديم من أحياء الرياض الجنوبية ، وكان لهذا الحي قديماً شأن ، بل إن الرياض – آنذاك – وقبل أن تسمى بالرياض يتنازع السلطة بها حياها البارزان : مقرر ، ومعكال.

- انظر : معجم اليمامة 379/2 ، 380 .

(4) انظر : خبر الغزوتين في سمط النجوم ، العصامي 368/4 ، 369 .

(5) هو محمد علي بن إسماعيل الطبري . من الأسرة الطبرية المكية التي توارثت العلم لأكثر من ستة قرون . وهو أحد شعراء مكة في القرن العاشر الهجري ، ذو منزلة علمية جليلة . درّس في المسجد الحرام ، وكان معروفاً بالروية وحضور البديهة . مدح الشريف حسن بن أبي نمي (المتوفى سنة 1010 هـ).

- انظر ترجمته في : نفحة الريحانة ، المحبي 50/4 ، الأسرة الطبرية ، الرديدي ، ص 12 ، 41 .

لَكِنْ قَضَى اللَّهُ بِاسْتِصَالِهِمْ عَلَى نَفْسِهِمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا
وَشَاهَدُوا جَحْفَلًا ذَابَتْ مِنْ خَوْفِهِ مَلَأَ الْآفَاقَ فَرَسَانَا
تُسَلُّ أَسْيَافُهُ أَحْلَامُ نَائِمِهِمْ عَلَيْهِ رُغْبًا وَيَلْقَى الْمَوْتَ يَقْظَانَا

(1)

والشاعر في هذه الأبيات لم يتحدث عن شجاعة ممدوحه على النحو الذي اعتدناه من المداحين بعد الغزوات من توجيه النعوت الدالة على الشجاعة إلى القائد.

وقد ذكر أربعة أبيات بعد الأبيات السابقة ، صور فيها التفاف أولاد الممدوح حوله ، وما يتحلون به من شجاعة تقذف الرعب والحيرة في قلوب أعدائه ، بدأها بقوله:

لَهُ مِنَ الرُّغْبِ أَنْصَارٌ مُؤَيَّدَةٌ تُصَيِّرُ اللَّيْثَ مِثْلَ الضَّبِّ حَيْرَانًا
يَحْفَهُ مِنْ بَنِيهِ أَسَدٌ مَعْرَكَةٌ تَرْوِي الْقَنَا إِنْ غَدَا الضَّرْعَامُ

(2) 52/4

-2-

وأغدق الشعراء على ممدوحهم من الأمراء الأشراف مشاعر الحب والولاء ، يهتبلون أي مناسبة تتيح لهم الإفضاء بمشاعرهم ؛ فقدوم الأمير إلى بلده يشيع الفرحة في قلوب أهله ، ويثير عواطف الشعراء الناطقين بلسان كل فرد من أفراد ذلك المجتمع المسلم.

وقد صور الشعراء هذا الجانب حتى إنهم أنطقوا ساحات البيت الحرام ومعالمه الطاهرة التي أضحت متشوقة إلى الأمير ، مشاركة أفراد المجتمع مشاعرهم تجاهه . من ذلك قول الشاعر أحمد الفاسي (3) مخاطباً الشريف حسن بن عجلان بعد عودته من إحدى أسفاره ،

(1) نفحة الريحانة ، المحبي 52/4.

(2) المصدر نفسه 53/4 .

(3) هو أحمد بن علي بن محمد ، الفاسي الأصل ، المكي المولد والمنشأ والوفاة . ولد سنة 754هـ ، أخذ الفقه والنحو والصرف عن جماعة في مكة والقاهرة وحلب ، وحفظ كتباً علمية في صغره ، واشتغل في الفقه والأصول والنحو والصرف وغيرها ، ودرس ، وأفتى ، وحدث ، وصنّف ، كان ذا مكانة في مكة ، مقرباً من ولاتها ؛ فقد صاهر أمير مكة السيد حسن بن عجلان على ابنته أم هانئ . وكان قد ولي مباشرة الحرم بعد والده في سنة 771هـ ، واستمر حتى مات سنة 819هـ .

- انظر ترجمته في : العقد الثمين ، الفاسي 109/3-111 ؛ درر العقود الفريدة ، المقرئ 78/2 ، 79 ؛ المنهل الصافي ، ابن تغري بردي 403/1-405 ؛ التحفة اللطيفة ، السخاوي 206/1-208 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 20/2 .

موضحاً مكانته:

سَافَرْتُ عَنَّا فَكَانَ الْفَضْلُ لِلسَّفَرِ وَقَدْ رَجَعْتَ فَكَانَ الْفَضْلُ لِلْحَضَرِ
وَحَرَكَ الْبَيْتَ أَشْوَاقُ إِلَيْكَ بِهِ لَوْ لَا قُدُومُكَ هَمَّ الْبَيْتَ بِالسَّفَرِ
وَكَادَ يَبْكِيكَ الْمَسْعَى وَمَوْقِفُهُ فَيَجْمَعَانِ لِفَضْلِ الْعَيْنِ وَالْأَثَرِ
وَأَوْحَشَ الْحِجَرَ دَوْرَاتُ الْوُقُوفِ وَفَاقِدُ الْإِنْسِ يَحْكِي فَاقِدَ الْعُمْرِ (1)

وحينما تولى الشريف علي بن حسن بن عجلان إمرة مكة ، ودخلها محرماً ؛ بادر الشاعر محمد بن عبد القوي إلى تهنئته ، مصوراً الفرحة التي عمت المشاعر ؛ إذ أنطقت الفرحة أرجاء البلد الحرام ، فأصبحت كل ثنية وساحة تبدي مشاعر البهجة بمقدمه ، يقول الشاعر في بداية القصيدة:

تُغَوِّرُ الْهَنَاءَ لَمَّا قَدِمْتَ بِوَاسِمٍ سُرُوراً وَكُلَّ الْكَائِنَاتِ مَبَاسِمٍ
وَلَمَّا تَرَاءَتْكَ الْمَشَاعِرُ مُحْرِماً أَشَارَتْ بِتَسْلِيمٍ عَلَيْكَ الْمَحَارِمُ
وَلَمَّا رَأَى الْبَيْتُ أَقْبَلْتَ هَزْهَ إِلَيْكَ اشْتِيَاقٌ إِنَّهُ بِكَ عَالِمُ
كَذَاكَ الْمُصَلَّى وَالْحَطِيمُ وَزَمَزَمَ وَقَدْ سَجَعْتُ مِنْ حَوْلِهِنَّ الْحَمَائِمُ
... وَكَادَ الصَّفَا يَخْتَالُ لَمَّا صَعِدَتْهُ وَمَاسَتْ سُرُوراً مُذْ رَأَتْكَ الْمَعَالِمُ (2)

واشتاق الشاعر محمد بن عبد القوي إلى الأمير بركات بن حسن بن عجلان فشبه لحظة لقائه بالعيد ، إذ يقول:

مَلَقَاكَ عَيْنٌ قَبْلَ عِيدٍ صَيَامِنَا وَجَبِينُ وَجْهِكَ هَلْ قَبْلَ هِلَالِهِ
وَعَلَى الْهَنَاءِ بِالْعِيدِ يَا عَيْنَ فِي نَعْمَةٍ تَحْيَا إِلَى أَمْثَالِهِ (3)

وقد هنا الشعراء الشريف بركات بن محمد حينما قدم ولده أبو نمي من القاهرة في سنة 918 هـ . ومن الشعراء الذين بادروا بالتهنئة أحمد الحرازي (4) الذي نظم قصيدة يهنئ بها الشريف بركات ويثني على

(1) غاية المرام 359/2 ، 360.

(2) المصدر نفسه 491/2 ، 492.

(3) المصدر السابق 460/2 .

(4) هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الحرازي المكي. ولد سنة 864 هـ ، وأخذ عن بعض الشيوخ في مكة ، وأجازوا له . توفي سنة 928 هـ .

- انظر ترجمته في : الضوء اللامع ، السخاوي 83/2 ؛ المختصر من نشر النور

خلائقه التي أكدها عدد من الشعراء في أكثر من مناسبة ، بدأ الحرازي قصيدته بمطلع موح بالهناء والآمال الخيرة ، قال فيه:

لِيَهْنِكَ يَا مَلِيكَ الْعَصْرِ يَا مَنْ طَوَّالِغُ عِزِّهِ سَعْدُ السُّعُودِ

ثم تحدث عن السرور الذي عمّ مكة يوم قدوم أبي نمي ، وتناول بعض مناقبه ومناقب والده حيث يقول:

سُرُورٌ لَا يُعَادِلُهُ سُرُورٌ بِمَقْدَمِ سَيِّدِي النَّجْلِ الْفَرِيدِ

سَلِيلِ الْمَلِكِ مِنْ شُمِّ أَبَا سَعِيدٍ فِي الصَّدُورِ وَفِي الْوُرُودِ

نَجِيبِ ذِي وَقَارٍ وَابْتِهَاجِ أَتَاهُ السَّعْدُ يَرْفُلُ فِي الْبُرُودِ

يَلُوحُ عَلَيْهِ أَنْ سَيَصِيرُ غَوْثًا وَفِي الْعَهْدِ ذَا رَأْيٍ حَمِيدِ

أَتَى بَذْرًا لَهُ هَالَاتُ عِزٍّ سَمَاءُ سُمُوهِ حُسْنُ الشُّهُودِ

فِي اللَّهِ مَا أَحْلَى وَأَعْلَى قَدُومِ أَبِي نَمِي غَالِي الْجُدُودِ

لِيَوْمِ قَدُومِهِ عِيْدٌ عَظِيمٌ يُفَاضِلُ بَلْ وَيَفْضُلُ كُلَّ عِيْدِ

فَمَكَّةَ حَلِيهَا لِبَسَتُهُ لَمَّا أَتَى فِي حُلَّةِ الْعِزِّ الْمَشِيدِ

وَتَاهَتْ فِي تَفَاخُرِهَا وَقَالَتْ تُخَاطِبُ نَفْسَهَا سُدَّتِي فَسُودِي

بِمَقْدَمِ نَجْلِ مَنْ مَلَكَ الْبَرَائِيَا عَلَى رُغْمِ الْمُعَادِي وَالْحَسُودِ⁽¹⁾

ومما يستجد في قصيدة المدح كونها معبرة عن مناسبتها ، خالصة للمديح كما فعل الشاعر أحمد العليف في القصيدة التي هنا بها الشريف بركات بن محمد حينما عاد من مصر إلى مكة في شهر رجب سنة 921هـ⁽²⁾ ، حيث خرج أهلها ، وزين السوق المكي لقدمه ، وكان شاعره العليف قد عاد قبله إلى مكة ، فبادر بالتهنئة قائلاً:

قَدُومٌ عَلَى وَفْقِ الْمُرَادِ سَعِيدٌ وَعِزٌّ عَلَى طَوْلِ الزَّمَانِ جَدِيدٌ

=

والزهر ، أبو الخير ، ص 84 .

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 259/3 ، 260 .

(2) في منائح الكرم ، السنجاري 201/3 ، وإتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 344/1 :

"عاد في رجب من العام المذكور [920هـ]" . والواقع أن مسيره إلى مصر كان بعد

الحج ؛ وعلى ذلك فإن رجب التالي يكون في العام التالي (921هـ).

... وَرَدَّتْ إِلَى نَادِيكَ أَكْرَمَ مَوْرِدٍ فَكَّرْتُ عُيُونَ مَا لَهْنَهُنَّ هُجُودُ
وَقَدْ آنَسْتُ أَجْيَادُ مِنْ بَعْدِ وَحْشَةٍ وَكَادَتْ سُرُوراً بِالشَّرِيفِ تَمِيدُ⁽¹⁾

وكان الشريف أحمد بن أبي نمي يشارك أباه في ولاية مكة منذ سنة 947هـ ، وقد عاد الشريف أحمد من القاهرة إلى مكة في هذه السنة - بعد أن أكرمه السلطان سليمان خان ، وأشركه مع والده في ولاية مكة - فاستقبله والده أبو نمي ، وألبسه الخلة السلطانية ، وصار يدعى لهما على المنبر (2) .

وسعى إلى أبوابهما الشعراء ، وممن امتدحهما الشاعر عبدالرحمن باكثير في قصيدة رائية بلغت (152 بيتاً)⁽³⁾ هنا بهما الشريف أبا نمي بهذه المناسبة ، معبراً عن حالة السرور التي كانت عليها أم القرى وما حولها . والشاعر في هذه القصيدة - كغيره من شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين - يبرز لنا مشاعر الحب والولاء للأمرء ؛ حيث تكون الأفئدة مسرورة بمقدم الأمير ، مشتاقة أشد الشوق للقائه ، يقول منها:

فِيَا بَائِمِي الْمَلِكِ وَالْمَلِكِ الَّذِي	يَجِلُّ عَلَى الْأَلْقَابِ وَالْمَذْحِ
لَقَدْ صَدَحَتْ فِي الْكَوْنِ صَادِحَةٌ	تُعْرِدُ فِيهِ بِالْمَسْرَةِ وَالْبُشْرِ
بِمَقْدَمِ مَنْ أَنْتَجَتْهُ وَادَّخَرَتْهُ	وَلِيّاً لِعَهْدِ الْمَلِكِ أَعْظَمَ بِهِ ذُخْرًا
بِمَقْدَمِهِ وَرُقُ الْبَشَائِرِ قَدْ شَدَتْ	وَكُلُّ فَوَادٍ مِنْ بَشَائِرِهَا اسْتَرَا
وَقَدْ عَمَّ أَقْطَارَ الْحِجَازِ قُدُومُهُ	سُرُوراً كَمَا عَمَّ الْعِرَاقَيْنِ مَعُ
وَوَافَى وَكُلُّ شَيْقٍ لِلِقَائِهِ	كَمَا اشْتَقَ حَيٍّ عَامَ إِجْدَابِهِ

- 3 -

والكرم خصلة عربية أصيلة ، يحبها العربي ، تناولها الشعراء منذ العصر الجاهلي ، وأعلوا من شأن أصحابها . وقد سار شعراء مكة

(1) ديوان أحمد العليف ، ورقة 34/أ.

(2) انظر : سمط النجوم العوالي ، العصامي 325/4 ، 326 ؛ وإتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 459/1 ، 460.

(3) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 4/أ - 8/ب ؛ وانظر سمط النجوم العوالي ، العصامي 300-294/4.

(4) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 8/أ.

والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين على سنن من كان قبلهم من الشعراء ، فرأينا الممدوح من الأمراء الأشراف قد بلغ أقصى درجات الكرم ؛ فلم يمش على الأرض أكرم منه ، يبتسم كأنك تعطيه الذي أنت سائله – كما عبر زهير عن ممدوحه – فالكريم من يتهلل وجهه فرحاً حين يعطي ، هكذا يصور الشاعر علي العليّ (1) الشريف حسن بن عجلان ، حيث يقول:

إِنْ عُدَّ فَقْراً وَفَضْلاً فَهُوَ أَكْرَمُ مَشَى عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْبٍ
تَرَاهُ إِذَا يُسَالُ الْمَعْرُوفَ مُبْتَسِماً مُسْتَبْشِراً بِالْعَطَايَا غَيْرِ⁽²⁾

ولم يكتف بأنه أكرم من مشى على الأرض ؛ بل راح يُذكر بأشهر من عرفوا بالجود لدى العرب ؛ ليجعل ممدوحه فوق أولئك جميعاً ، إنه كما يقول:

أَنْدَى وَأَكْرَمُ مِنْ أَوْسِ بْنِ حَارِثَةٍ وَمِنْ يَزِيدِ الْعَطَايَا فِي خُرَاسَانَ
وَمِنْ سَمَوْعَ غَسَّانٍ وَمِنْ هَرَمٍ وَطَلْحَةَ الْمُتَوَفَّى فِي سِجِسْتَانَ
وَلَا يُقَاسُ بِهِ الطَّائِي إِذَا وَفَدَتْ (غَبْرُ) (3) السِّنِينَ وَلَا مَعْنُ بْنُ⁽⁴⁾

لقد أجاد الشعراء نعت الأمراء بالصفات اللائقة بهم ، حيث رسموا شخصياتهم بمزاياها المختلفة . ويأتي الجود أحد تلك الخصال المميزة لأولئك الأمراء ؛ فقد تناول الشاعر محمد بن عبد القوي نوال الشريف بركات بن حسن بن عجلان وموقعه في النفوس ، ووصف تدفق ذلك العطاء وسماحة صاحبه بقوله:

عَلَى ظَمَأٍ مَنَا أَتَيْنَاهُ نَرْتَوِي فَرَاخَتُهُ تَسْقِي الْوَهَادَ وَتَغْشَاهُ

(1) هو علي بن محمد بن حسين بن عيسى العليّ . ولد سنة 780 هـ – تقريباً – بحلي ، وقدم مع أبيه إلى مكة ، فقطنها ، وامتدح أمراءها . له ديوان مشتمل على قصائد أغلبها صوفية . ارتحل إلى فاس ، ثم إلى بغداد وخراسان ، ثم إلى الهند ، حتى مات بها سنة 847 هـ .

- الضوء اللامع ، السخاوي 298/5 ، 299 .

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 370/2 .

(3) وردت في المصدر (غير) .

(4) المصدر السابق 370/2 ، 371 ، والأجواد العرب الذي استشهد بهم الشاعر في هذه الأبيات هم : أوس بن حارثة بن لأم ، ويزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، والسموئل بن عاديا الغساني ، وهرم بن سنان بن أبي حارثة ، وطلحة الطلحات الخزاعي ، وحاتم الطائي ، ومعن بن زائدة الشيباني .

بِجُودٍ يَقُولُ النَّيْلُ إِنِّي دُونَهُ وَلَكِنِّي أَجْرِيْتُ عَذْبًا بِمُنَاهُ
وَيَرْوِي أَحَادِيثَ النَّدى عَنْ عَنِ الْغَيْثِ عَنْ كَفْيِهِ عَنْ فَيْضِ
وهذه مبالغة غير مقبولة من الشاعر ؛ حيث نسب إلى الممدوح في
هذه الأبيات شيئاً من صفات الله كأنزال الغيث وإجراء الأنهار.

- 4 -

وقلّ أن يمدح شاعر أميراً من الأشراف دون الإشارة إلى كرم أصله
بانتسابه إلى بيت النبوة ؛ حيث الشرف الباذخ ، والمجد المؤثّل .
والانتساب إلى هذه الدوحة الكريمة مبعث فخر للممدوح لم يغفله
الشعراء في مدائحهم لأولئك الأمراء الأشراف ؛ فإذا تحدث الشاعر عن
إعجابه بشمائل ممدوحه ، أشار إلى أنه كريم الأرومة قد جمع المجد من
أطرافه ، كمدح الشاعر علي العليّ للأمير حسن بن عجلان ، حيث
أبدى إعجابه بصفاته ، مشيراً إلى أنه طيب الأعراق بقوله:

إِبْنُ النَّبِيِّ وَسِبْطِيهِ وَحَيْدَرُهُ وَفَاطِمِ لَيْسَ مِنْ لَحْمٍ وَغَسَّانِ (2)

وهو — كما يؤكد الشاعر — من سادة نطقت الكتب السماوية بفضلهم:
وَسَادَةٌ جَاءَ فِي التَّوْرَةِ فَضْلُهُمْ وَفِي زُبُورٍ وَإِنْجِيلٍ وَقُرْآنِ (3)

وتحدث عن خلال عديدة تجتمع في شخصية حسن بن عجلان
كالكرم والشجاعة ، والحكمة ، والفصاحة ، ثم أشار إلى أنها:

مَكَارِمُ مِنْ عَلِيٍّ أَصْلَ دَوْحَتِهِ وَفَرْعُهَا مِنْ أَبِي سَعْدِ

ومدح الشاعر محمد بن عبد القويّ الأمير بركات بن حسن بن
عجلان ، وأخذ يناجيه معجباً بمناقبه ، مدركاً أنه ينزع إلى عرق كريم ،
إذ يقول:

أَبَا حَسَنِ يَا بَنَ النَّبِيِّ وَمَنْ غَدَتْ مَنَاقِبُهُ لِلْمَكْرُمَاتِ دَعَائِمُ

إِذَا مَا عَلِيٌّ بَيْنَ جَنَبَيْكَ فِي فَأَهْوَنُ مَا يَلْقَاكَ فِيهِ الضَّرَاعِمُ

وَيُطْفَوْ عَلَى الْوُطْقَاءِ وَهِيَ أَيَا مَلِكِ الْعَشْرِ الْبُحُورِ الْخُضَارِمُ

(1) المصدر نفسه 461/2.

(2) المصدر السابق 370/2.

(3) المصدر نفسه 370/2.

(4) المصدر نفسه 372/2.

وَلَسْتُ مَقِيْسًا يَابْنَ طَهَ بَعْتَرٍ وَمَنْ كَانَ مِنْ خَزَائِكُمْ فَهُوَ

ولا شك أن الشاعر المادح يهدف في المقام الأول إلى إدخال البهجة على ممدوحه ، ويتحقق ذلك بالتنويه بإنجازاته ، وإبراز ما تتميز به شخصيته ، فإذا كان الممدوح شريف المنصب كريم النسب ، أصبح من الملائم أن يشير الشاعر إلى منصبه الشريف ونسبه العريق ؛ ليكتمل السرور في قلب الممدوح . وهذا ما أدركه الشعراء في مدائحهم للأمراء الأشراف ، حيث توجوها بهذه الأفكار التي تعد مبعث فخر للممدوح.

فقد أنشد الشاعر علي بن ناصر الحجازي قصيدة في مدح الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان حينما عاد إلى مكة في أواخر سنة 908هـ مبدياً سرور أهل مكة بقدومه ، منوهاً بشجاعته وجوده وحسن تدبيره ، ثم أشار إلى أنه سليل شرف ، مهنئاً إياه بقوله:

تَهَنَّ يَا سَيِّدَ الْأَشْرَافِ زَيْنَتَهُمْ وَلَايَةَ لَيْسَ تَذْنُو نَحْوَهَا الْغَيْرُ

وَيَا سُلَالَةَ خَيْرِ الْخَلْقِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ الْمُصْطَفَى يَا مَنْ لَهُ

ومدح الشاعر أبو بكر بن أبي الخير⁽³⁾ الأمير بركات بن محمد بن بركات في قصيدة أذاع فيها مناقبه ، موضحاً أنه سليل مجد أصيل ، وشرف موروث ، حيث يقول:

إِمَامٌ هُدَى طَابَتْ مَعَارِسُ أَصْلِهِ فَأَضَحَتْ ثَمَارُ الْجُودِ مِنْ فَرْعِهِ

عَلَى سَنَنِ الْأَبَاءِ طَابَتْ صِفَاتُهُ فَنَاهَيْكَ بِالْأَبَا وَنَاهَيْكَ بِالْأَبْنَا⁽⁴⁾

وقد أعجب الشاعر عبدالرحمن باكثير بالأمير أبي نمي (محمد بن بركات بن محمد) ؛ حيث رأى في شخصيته من الأخلاق الطيبة المجتمعة ما يؤكد أنه تداركته أعراق صدق ، فأطنب في ثنائه في قصيدة

(1) المصدر نفسه 493/2 .

(2) المصدر السابق 143/3 .

(3) هو أبو بكر بن محمد بن أبي الخير الحنبلي (وكان أول أمره شافعي المذهب) ، ويعرف بابن أبي الخير . ولد سنة 875هـ بمكة ، ونشأ بها ، وكان يباشر مع أبيه رئاسة المؤذنين في المسجد الحرام . حضر دروس العلماء في الحجاز ، ومصر ، والشام ، وأخذ عنهم الفقه ، والحديث ، والفرائض ، والنحو ، والعروض . توفي في مكة سنة 930هـ .

- انظر ترجمته في : الضوء اللامع ، السخاوي 93/11 ؛ السحب الوابلة على

ضرائح الحنابلة ، ابن حميد 323/1 ، 324 .

(4) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 163/3 .

بلغت (88 بيتاً) تناول فيها تلك الخلال التي جعلته نابه الذكر ، مشيراً إلى أنه اقتفى أثر النبي ع ، فليس غريباً إذن – كما يومئ باكثر – أن تستطير شهرة الشريف محمد بن بركات:

ذِي الْمَعَالِي أَبِي نَمِي مَنْ تَحَلَّى بِحُلَى جَدِّهِ نَبِيِّ الْبَطَاحِ
نَجَلٍ مَنْ أَظْهَرَ الشَّرَائِعَ وَالْحَقَّ وَأَمْسَى لِمَلَّةِ الْكُفْرِ مَاحِ
نَجَلٍ مَنْ (جَاءَنَا) ⁽¹⁾ بِدِينٍ مِنْهُ حُكْمِي حَلَالِهِ وَالْمُبَاحِ ⁽²⁾

والتأكيد على انتمائه لبيت النبوة في هذه الأبيات وما تلاها إحياء بأهميته ومكانته الرفيعة ، وقدرته على إزالة ما يكدر صفو إمارته . لقد ألبس الشاعر ممدوحه تاج فخر بوصفه نجل صفوة البشر ؛ فأبو نمي كما يقول الشاعر بعد الأبيات السابقة:

مَلِكُ الْبَسْتَةِ أَنْوَارُ طَه تَاجُ فَخْرٍ يُضِيءُ كَالْمِصْبَاحِ ⁽³⁾

هكذا كان شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ يحاولون في مدائحهم إبراز هذه المفخرة لممدوحهم من الأمراء الأشراف ، حتى إن الشاعر محمد ابن أحمد النهروالي وهو في خضم حديثه عن إحدى غزوات الشريف حسن بن أبي نمي ، وتمجيده انتصاره ، ووصفه عظمة الجيش وبأسه ، رأى أنه من المناسب أن يشير إلى أن الأمير القائد ليس كأي قائد ؛ إنه من سلالة سادة كرام ، لا يسمو إلى مكانته أحد من الملوك ؛ إذ بلغ ذروة المجد بانتمائه لبيت النبوة ، يقول الشاعر:

يَا أَيُّهَا الْجَيْشُ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ أَعْظَمَ مَعْشَرِ
... مَنْ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْمُطَاعُ الْأَمْرِ آلِ النَّبِيِّ يَسِيرُ سِيرَةَ حَيْدَرِ
السَّيِّدِ الْحَسَنِ الْكَرَامِ جُدُودُهُ مِنْ جَانِبِيهِ إِلَى النَّبِيِّ الْأَطْهَرِ
لَا تَبْعَ يَسْمُو لَدَيْهِ لِفَخْرِهِ وَجُنُودُهُ تَسْمُو جَحَافِلَ حَمِيرِ
مَلِكُ تَسَنَّمَ لِلْمَعَالِي ذُرْوَةً مِنْ دُونِهَا وَقَعَتْ مُلُوكُ الْأَعْصَرِ ⁽⁴⁾

(1) ديوان عبدالرحمن باكثر ، ورقة 28/ب.

(2) في المصدر : جانا.

(3) المصدر نفسه ، ورقة 29/أ.

(4) إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 554/1.

- 5 -

وإعجاب الشعراء بأولئك الأمراء قادهم إلى أن يسبغوا عليهم صفات الكمال المتفرقة في مشاهير العرب كالكرم والشجاعة ، والنجدة ، والدهاء ، والحكمة ، والفصاحة ، وغيرها من الصفات التي قلَّ أن تجتمع في فرد . وليس ذلك فحسب ؛ بل إن الممدوح قد بلغ مبلغاً لم يبلغه أحد من أولئك الرجال مضرب الأمثال في تلك الصفات.

فقد رسم الشاعر محمد بن عبد القوي شخصية الشريف حسن بن عجلان وما يتمتع به من صفات تؤكد علو كعبه في قصيدة قال منها:

ما جُودُ مَعْنٍ أَوْ سَمَاحَةِ جَعْفَرٍ ما طَلْحَةُ الطَّلَحَاتِ أَوْ ما الطَّائِي

ما مالِكٌ في بَاسِهِ ما عَنَّتَرٌ ما حارثٌ ما عمرو يومَ لِقَاءِ

أَبِهِ يُقَاسُ النَّاسُ وَهُوَ إِمَامُهُمْ في حَالَةِ النِّعْمَاءِ والبَاسَاءِ

تَخْشَى مُلُوكُ الْأَرْضِ سَوْرَةَ وَتَهَابُهُ في الْغَابِ أَسَدٌ وَغَاءِ (1)

ونظم الشاعر أحمد الحرازي قصيدة يهنئ بها الشريف بركات بن محمد حينما قدم ولده أبو نمي من القاهرة سنة 918 هـ ، أثنى فيها على مآثره التي أكدها أكثر من شاعر في عدد من المناسبات ؛ فهو مأوى المحتاجين ، كريم ، حلیم ، ذو تدبير وبأس وهيبة . وقد شبهه بأفذاذ العرب الذين اشتهروا بهذه النعوت ، حيث يقول:

لِيَهْنِكَ يا مَلِيكَ الْعَصْرِ يا مَنْ طَوَالِغِ عِزِّهِ سَعْدُ السُّعُودِ

... فَأَضْحَى حَاتِماً عِنْدَ الْعَطَايَا وَعَمراً في لِقَا الْحَرْبِ الشَّدِيدِ

وَعِنْدَ الْفَهْمِ لِلْمَعْنَى إِيَّاساً وَأَخْنَفَ تَلَقَّاهُ عِنْدَ الْوَعِيدِ

=

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 378/2 ، والأعلام العرب الذين استشهد بهم الشاعر هم : معن بن زائدة الشيباني ، وجعفر بن أبي طالب ط ، وطلحة بن عبدالله الخزاعي ، وحاتم الطائي ، ومالك : لعله مالك بن حري التميمي أو مالك بن الحارث النخعي المعروف بالأشتر ، وعنترة بن شداد العبسي ، وحارث : لعله يقصد الحارث بن عباد البكري ، أو الحارث بن ظالم المرّي من فرسان الجاهلية وشجعانها ، وأراد بعمره : فارس اليمن عمرو بن معد يكرب الزبيدي .

إِذَا مَا هَمَّ فِي إِجْلَا عَدُوٍّ أَتَاهُ الرُّعْبُ فِي أَمَدٍ بَعِيدٍ
مُبِيدُ المَارِقَيْنِ أَبَا زُهَيْرٍ وَحَامِي حَوْمَةِ الْبَيْتِ السَّعِيدِ (1)

لقد بلغ الأمير منزلة رفيعة ، حيث يعيش حياة السؤدد ، يأوي إليه أصحاب الحاجات ، فتنحقق مطالبهم ، وينعمون في ظل هذا الأمير الكريم ، الشجاع ، ذي النباهة والحلم . وقد شبهه الشاعر في الأبيات السابقة ببعض الأفاضل من العرب ، فهو كريم كحاتم الطائي ، وشجاع كعمرو بن معد يكرب ، كما شبهه في الذكاء بإياس ابن معاوية (القاضي الذي كان بالبصرة يوصف بالذكاء) ، وفي الحلم بالأحنف بن قيس التميمي (مضرب المثل في الحلم عند العرب).

وهذا يذكرنا بموقف أبي تمام في مدحه أحمد بن المعتصم العباسي حين قال في قصيدته السينية:

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْنَفَ فِي ذُكَاةِ إِيَّاسٍ (2)

ولا شك أن هذه المعاني مكرورة ، تعاورها الشعراء في مدائحهم عبر العصور اقتداءً بأبي تمام . وإن كان بعض النقاد يرى في ذلك تقليلاً من شأن الممدوحين ، كما فعل الحكيم الكندي في اعتراضه على أبي تمام ، عندما قال له : وأي فخر في تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب؟!

حينئذٍ أطرق أبو تمام ، ثم أنشد بيتين معذراً عن تشبيهه ، قال فيهما:

لَا تُتَكْرَمُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ مَثَلًا شَرُوداً فِي النَّدَى وَالْبَاسِ

فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ (3)

والحق أن تشبيه الممدوح بهؤلاء لا يسيء إليه ، بل على العكس من ذلك يرفع من شأنه ؛ لأن المشبه بهم كانوا أعلاماً في عصورهم ، ثم

(1) المصدر السابق 259/3.

(2) ديوان أبي تمام 249/2.

(3) المصدر نفسه 250/2 . وحكاية البيتين المثبتة (عن المثل السائر 263/3) . أما نصها

كما ذكر محقق الديوان محمد عبده عزام ، فهو أن أبا تمام "أنشد أحمد بن المعتصم هذه القصيدة وليس فيها البيتان ، أعني قوله : (لا تتكروا...) والبيت الذي بعده ، فقال يعقوب بن إسحاق الكندي ، وكان يخدم أحمد : الأمير أكبر في كل شيء ممن شبهته به ، فعمل هذين البيتين وزادهما في القصيدة من وقته ، فعجب أحمد وجميع من حضره من فطنته وذكائه ، وأضعف جائزته".

أصبحوا مضرب المثل فيما تميّزوا به من صفات نبيلة وأخلاق كريمة ،
وليسوا أقل شأناً من الممدوحين بين أفراد مجتمعاتهم.

وقد أجاد الشاعر أحمد القليوبي (ابن خبطة) حينما حاول أن يرسم
صورة كاملة لشخصية الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان
دون اللجوء إلى تشبيهه أو مقارنته بأحد ، إذ خلع عليه أجمل الحلل ؛ فهو
حسن الخلقة والخلق ، يجمع صفات النبوغ ؛ لين في موضع اللين ، شديد
في مواضع الشدة ، ألمعي ، من ذوي الرصانة والحصافة والحنكة
والمروءة والإحسان ، إنه جواد لا يدانيه أحد ، يقول الشاعر:

قَدْ حَزَتْ خَلْقًا وَخَلَقًا كُلَّهُ حَسَنٌ حَارَتْ لَعْمَرِي فِي أَمْدَاحِهِ فِكْرِي

وَخَصَّكَ اللَّهُ دُونَ الْخَلْقِ قَاطِبَةً بِكُلِّ وَصْفٍ جَمِيلٍ غَيْرِ مُنْهَصِرٍ

لَيْنٌ وَبَاسٌ وَأَفْضَالٌ وَفَرَطٌ نَهَى فَضَائِلُ زَانِهَا الرَّحْمَنُ بِالْخَفَرِ

حَبْرٌ لِمُعْتَرِفٍ بِحَرٍّ لِمُعْتَرِفٍ جَبْرٌ لِمُنْكَسِرٍ كُثْرٌ لِمُفْتَقِرٍ

قُلْ لِلَّذِي رَامَ تَشْبِيهًا بِهِ سَفَهَاً أَقْصِرْ عَنْكَ فَمَا الْحَصْبَاءُ كَالدَّرَرِ

فِي النَّاسِ جُودٌ وَلَكِنْ جُودٌ أَرْبَى عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ الْبَحْرُ كَالنَّهْرِ

وعلى نحو من ذلك يقول الشاعر علي بن ناصر الحجازي مادحاً
الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان :

تَخَافُهُ الْأَسْدُ إِجْلَالًا وَتَحْسُدُهُ لِإِشْرِهِ وَنَدَاهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

قَرَمَ تَهَاجِرُ آمَالُ الْعَفَاةِ إِلَى أَبْوَابِهِ فَعَلَيْهَا مِنْهُمْ زَمَرُ

يَكَادُ مِنْ وَجْهِهِ مَاءُ الْحَيَاةِ بَنَانِهِ السَّبْطُ مَاءُ الْجُودِ يُعْتَصَرُ

شَوَاطِئُ نَارٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَصَوْبُ فَضْلٍ عَلَى الْأَحْبَابِ

- 6 -

وما دام أن الأمير من الأمراء الأشراف ينزع إلى ذلك العرق الكريم
، فضلاً على ما وهبه الله من صفات تؤهله للسيادة من عدل وكرم وحلم
وشجاعة... إلخ ، فإن الشعراء حينما يمدحون أميراً من هؤلاء يضعونه
في مكانة لا يضارعه فيها أحد ؛ إذ إن كل واحد منهم فرد زمانه الذي

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 608/2 .

(2) المصدر السابق 141/3 ، 142 .

يفوق ملوك الأرض.

فقد مدح الشاعر محمد بن عبدالقوي الشريف حسن بن عجلان في قصيدة طويلة تزيد على (160 بيت) صور فيها المكانة العالية التي يحتلها الشريف حسن ، حيث نال ملكاً قصرت حيلة أقوى ملوك الأرض دونه ، يقول منها:

وَكَسَرْتَ كِسْرَى عَنْ تَعَاظِي	وَقَصَرْتَ قَيْصَرَ عَنْ مَدَى الْأَكْفَاءِ
وَسَلَبْتَ عَنْ نِعْمَانٍ نِعْمَةً مُلْكِهِ	لَمَّا بَغَى فِي الْحِيرَةِ الْفَيْحَاءِ
إِذْ بِالْخَوَزَنْقِ وَالسَّيْدِيرِ مُقَامُهُ	مُتَبَخَّرًا يُدْعَى ابْنُ مَاءِ سَمَاءِ
عَصَفْتَ ذَوَارِي الرِّيحِ فِي	فَطَمَسَنْ مَعْلَمَهُ خَلَا أَشْلَاءِ
خَفَقَتْ عَلَى خَاقَانَ مِنْكَ صَوَارِمٌ	أَوْدَعْنَاهُ رَمْسًا مِنَ الْبَيْدَاءِ
لَكَ تَبَعٌ فِيمَا تَمَلَّكَ تَابِعٌ	وَكَذَلِكَ الْمَاضِي مِنَ الْعُظْمَاءِ (1)

يسوق الشاعر هذه الأسماء لبعض الملوك الذين شهد التاريخ بقوتهم واتساع حكمهم ؛ إعلاءً لشأن ممدوحه الذي يفوق أولئك جميعاً ، وتبياناً لمدى ما وصل إليه من منعة.

ومن ذلك قول الشاعر عبدالرحمن باكثير يمدح الشريف أبانمي (محمد بن بركات بن محمد):

رَ وَكِسْرَى وَقَيْصَرَ وَابْرَوِيَزَ	مَلِكٌ فَاقَ مُلْكُهُ مُلْكَ سَابُو
... مَلِكٌ قَالَ دَهْرُهُ لِلْيَالِي	ذَا مَلِيكَ بِمِثْلِهِ لَنْ تَفُوزِي
هُوَ تَاجٌ لِمَفْرِقِي وَطِرَارٌ	مِنْهُ عِطْفِي قَدْ زَيْنَ بِالتَّطْرِيزِ (2)

وبيالغ الشاعر محمد بن أبي السعود بن ظهيرة في منزلة الشريف محمد بن بركات ابن حسن بن عجلان حين يجعله يفوق ملوك الأرض ، حتى إنهم لو وزنوا في كفه لم يساواوا منفذ الظفر ، إذ يقول:

مُحَمَّدٌ ذُو الْأَيْدِي الْبَيْضِ مَالِكُنَا	مَلِكُ الْبَسِيطَةِ مِنْ بَدُوٍ وَمِنْ
فَاقَ الْمُلُوكَ فَلَوْ فِي كَفِّهِ وَزَنُوا	بِظَفَرِهِ لَمْ يُسَاوُوا مَنْفَذَ الظَّفَرِ (3)

(1) المصدر نفسه 381/2.

(2) سمط النجوم ، العصامي 344/4.

(3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 526/2.

لكنه يوضح أسباب تفوقه على الملوك بقوله:
يَهْدِي بِهَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ مُتَّبِعاً مَا جَاءَ عَنْ جَدِّهِ فِي الْكُتُبِ
وَسَارَ بِالْعَدْلِ حَتَّى قَالَ كُلُّ فَتَى هَذَا الْخَلِيفَةُ بَعْدَ السِّتَةِ الْغُرَرِ (1)

وكان الشريف بركات بن محمد في نظر شاعره أحمد العليّ عميد الملوك ، ذا المنصب العالي على كل منصب ؛ لأنه وحيد زمانه ، إذ يقول:

وَإِنَّكَ لِلْأَمْلَاقِ فِيمَا يَنْوِبُهَا عِمَادُ وَلِلْمُلْكِ الشَّرِيفِ عَمِيدُ
لَكَ الْمَنْصِبُ الْعَالِي عَلَى كُلِّ لَأَنَّكَ فِي جَيْدِ الزَّمَانِ وَحِيدُ (2)

والواضح من خلال هذه النماذج تكرار المعنى ؛ فالشعراء يطلقون أفضلية هؤلاء الأمراء على الملوك عامة أو على الخلق أجمعين ، وربما أعقبوا ذلك بالأسباب مباشرة كما فعل ابن ظهيرة في الأبيات السابقة التي مدح بها الأمير محمد بن بركات ، وربما خص الشاعر بعض الملوك المشهود لهم بالقوة كما رأينا في أبيات ابن عبدالقوي وباكثير.

- 7 -

ودأب كثير من الشعراء على إشراك أنفسهم في موضوع المدح تأسيساً بأبي الطيب المتنبي ؛ إذ لا يفوت الشاعر – قبل ختام قصيدته – أن يثني على شعره مفتخراً بنفسه ، طالباً نوال الممدوح في أغلب الأحيان . عمد إلى ذلك أشهر الشعراء المداحين في تلك الفترة .

يقول ابن عبدالقوي من قصيدة مدح بها الشريف حسن بن عجلان :

اسْمَعْ لِمَدْحٍ فِي عِلَاكَ كَأَنَّهُ دُرٌّ نَظْمُنَ بِلَبَّةِ الْحَسَنَاءِ
يَزْهُو بِهِ جَيْدُ الزَّمَانِ كَمَا زَهَا أَفَقُ السَّمَاءِ بِأَنْجُمِ الْجَوَازِ
إِدْرَاكَ وَصْفِكَ لَا يُرَامُ نَظَاقُهُ وَتَكِلُّ عَنْهُ بِلَاغَةُ الْبُلْغَاءِ
أَنَّى يَقِي مَدْحٌ بِقَدْرِ مَدْحٍ بِصَوَادِقِ الْأَخْبَارِ وَالْأَنْبَاءِ
لَكِنِّي لَمَّا عَلِمْتُكَ رَاضِياً وَافَيْتُ بِالْمَيْسُورِ مِنْ (3)

(1) المصدر نفسه 526/4 ، 527.

(2) منائح الكرم ، السنجاري 202/3.

(3) في المصدر : من إنشاء ، مشاكلة لكلمات القوافي قبلها على رأي من يرى تسوية

... فَبُوجْهِكَ الْأَسْنَى أَعْيَدُ أَنْ يَصْرِفَ الْحَرْمَانُ وَجْهَهُ

ويباهي الشاعر حسين العليّ بنفسه ، ويدّعي أنه فاق الوري⁽¹⁾ بفصاحته ، ويبيدي للشريف حسن بن عجلان الرغبة في مكافأته نظير مدحه ، بل إنه ليرى أن مكافأة الشاعر فريضة على الممدوح حتى لو لم يجد إلا إزاره يبيعه فيصل ذلك الشاعر ، إذ يقول:

حَقُّ الثَّنَاءِ عَلَى الْكَرِيمِ فَرِيضَةٌ لَوْ بَاعَ فِيهِ إِزَارَهُ لِلشَّاعِرِ

أَعْطَى النَّبِيَّ رِداَهُ كَغَبَاً فِي الثَّنَا وَعَلَيَّ جَادَ بِذِي الْفَقَارِ الْبَاتِرِ

وَأَنَا أَدِيبُكَ وَابْنُ شَاعِرِكَ الَّذِي فَاقَ الْوَرَى مِنْ نَاطِمٍ أَوْ نَاشِرِ

وَلِسَانُ عَدْنَانَ وَقَسٌّ فِي الْوَرَى وَنِزَارُهَا لِقِيَا صِرٍّ وَأَكَاسِرِ⁽²⁾

ومن الشعراء من يتخذ من قصيدة المدح وسيلة لعرض حاله على الأمير ، ينتظر المناسبة التي تتيح له ذلك ، نقرأ القصيدة فنلمح في ثناياها الحاجة إلى المال والاستجداء في سبيل الحصول عليه . ومن القصائد التي تمثل ذلك قصيدة الشاعر أحمد القليوبي (ابن خبطة) التي مدح بها الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان حينما قدم إلى جدة في العُشْر الأخير من شهر رمضان سنة 863هـ . وقد هنأه بالصوم والعيد ، مشيراً إلى أنه بحر في عطائه ، يحنو على الفقير ، ويجبر الكسير ، وأنه ليس له شبيه في جوده ، ثم ختم قصيدته بمدح شعره ؛ حيث يقدم قصيدته للممدوح كحسنة تطرق أبوابه ، راجية عفوه ونداه ، حيث يقول:

وَاسْتَجَلِ بِحُجْرٍ عَرُوساً بَنَتْ حَازَتْ بِمَدْحِكَ فَضْلاً غَيْرَ

رَقِيقَةً حُرَّةً لَأَنْتَ مَعَاطِفُهَا تُخْتَالُ بِالْعُجْبِ بَيْنَ الطُّوَلِ

غَرَاءَ فِي حُسْنِهَا عَذَاءَ قَدْ بَيْتاً مِنَ الشَّعْرِ لَا بَيْتاً مِنَ الشَّعْرِ

جَاءَتْكَ تَسْعَى إِلَى الْأَبْوَابِ مِنْكَ الْجَدَى وَالنَّدَى فِي زِيٍّ

القوافي في الصورة الخطية.

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 382/2 ، 383 . وجاءت لفظة رجائي في المصدر هكذا (رجاء).

(2) المصدر نفسه 367/2.

وَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ فِي تَقْصِيرٍ وَاسْمَحْ وَلَا تُخْلِهِ مِنْ وَافِرٍ⁽¹⁾
على أننا نجد من ينأى بنفسه عن الاستجداء وطلب النوال ، ويكتفي
بإطراء شعره ، والافتخار بنفسه ، كما كان يفعل الشاعر عبدالرحمن
باكتير في مديحه لأبي نمي (محمد بن بركات) وابنيه أحمد وحسن .
وهي مدائح كثيرة ، منها قصيدته التي هنا بها الشريف أحمد بن أبي نمي
بالولاية ، تلك القصيدة التي بلغت (152 بيت) قال في آخرها مُدِلًّا بشعره
، مفتخراً بنفسه على نحو يذكّرنا بكبرياء المتنبي ، بل إنه ليفخر على
المتنبي ؛ لكونه أضاع جهده في سبيل ملك ككافور ، أما باكتير فإنه قد
بذل شعره في سبيل أمير جدير بالإطراء ، وتعطير أجوائه بأبيات صنعت
من الدر النفيس ، إذ يقول:

وَهَاكَ مِنَ الدَّرِّ النَّضِيدِ قَصِيدَةٌ تَغَارُ قَوَافِي الشَّعْرِ مِنْ رَسْمِهَا
مُنْقَحَةٌ الْمَعْنَى مُصَحَّحَةُ الْبِنَا مُهَذَّبَةٌ الْأَلْفَاظِ طَيِّبَةُ الْمَقْرَأِ
تَضَوُّعَ رِيَاهَا عَلَيْكَ وَلَمْ أَكُنْ عَلَى مِثْلِ كَافُورٍ أَضِيعُ لَهَا نَشْرًا
لَعَمْرِي لَا أَرْضَى الْقَرِيضَ وَيَبْخَسُنِي لَوْ أَنَّي قَلْتُهُ دُرًّا
وَمَا الشَّعْرُ إِلَّا دُونَ قَدْرِي لِذَاتِي مِنْ فَضْلٍ فَلَمْ يَنْضَبِطْ⁽²⁾
ويبدو أن باكتير متأثر في أبياته هذه بصفي الدين الحلي في ختام
إحدى قصائده التي مدح بها السلطان الأرتقي شمس الدين أبا المكارم
حيث يقول الحلي:

فَاسْتَجَلِ بِكَرٍ قَرِيضٍ لَا صَدَاقَ سِوَى الْقَبُولِ وَوَدِّ غَيْرِ مَكْفُورٍ
أَعْلَى أَبِي الطَّيِّبِ الْكُوفِيِّ مَفْخَرُهَا إِذْ لَمْ أَضِغْ مِسْكَهَا فِي مِثْلِ
رَقَّتْ لِتُعْرِبَ عَنْ رِقِّي لِمَجْدِكُمْ حَبَابًا وَطَالَتْ لِتَمُخُّوْ ذَنْبُ⁽³⁾
والواضح من خلال الحديث عن ثناء الشعراء على شعرهم أنهم
امتداد للسابقين من شعراء العربية ، وأن منهم من قرن فخره بشعره
بطلب النوال من الأمراء ، وثمة من افتخر بشعره نائياً عن الاستجداء.

- (1) المصدر السابق 609/2.
(2) ديوان عبدالرحمن باكتير ، ورقة 8/ب ؛ وفي سمط النجوم العوالي ، العصامي 300/4 : ولم ينضبط ، بدلاً من : فلم...
(3) ديوان صفي الدين الحلي ، ص118.

ب- مديح السلاطين:

منذ قيام دولة المماليك الجركسية في أواخر القرن الثامن الهجري حتى سقوطها على يد العثمانيين في سنة 923هـ والسيطرة المملوكية مستمرة على مكة والمدينة⁽¹⁾. وعلى الرغم من تعاقب السلاطين المماليك عبر تلك السنين ؛ لم نشهد شعراء مكة والمدينة يفردون المدائح لهم ، إلا ما ندر كقصيدة الشاعر أحمد الخيفي⁽²⁾ النونية⁽³⁾ التي مدح بها السلطان المملوكي الأشرف برسباي ، وقصيدتي الشريف بركات بن محمد العينيتين⁽⁴⁾ اللتين مدح بهما الملك الأشرف قانصوه الغوري ، وبضعة أبيات⁽⁵⁾ أنشدها الشيخ عمر بن فهد في الملك الظاهر ططر.

ومدائح الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين للسلاطين العثمانيين أكثر من مدائحهم للسلاطين المماليك ؛ ذلك أن علاقة العثمانيين بمكة لم تكن وليدة اتصالهم بمصر على أثر سقوط دولة الشراكسة فيها ، "ولكن الواقع أن العثمانيين اتصلوا بأصحاب مكة قبل ذلك بما ينيف على قرن كامل ، فقد أشار التاريخ إلى أن السلطان محمداً الأول جعل من أمواله جزءاً وقفه على فقراء الحرمين . وقد عاش السلطان قبل هذه الحوادث بأكثر من قرن كامل ، كما يشير التاريخ إلى أن ابنه السلطان مراداً الثاني عام 824هـ رتب لفقراء الحرم من ماله الخاص راتباً سنوياً مقداره 3500 دينار كان يرسله إلى مكة سنوياً ، وأن فاتح القسطنطينية محمداً الثاني - وكان يعيش قبل عهد السلطان سليم بنحو 70 سنة - كان يتعهد فقراء مكة بهداياه ، وأن السلطان بايزيد (والد سليم فاتح مصر) حج في السنة التي تولى فيها ملك آل عثمان ، وتوثقت أسباب مودته بأمير مكة لذلك العهد محمد بن بركات

- (1) انظر : سمط النجوم العوالي ، العصامي 30/4-318.
- (2) هو شهاب الدين أحمد بن سعد بن أحمد الخيفي ، المكي . حفظ القرآن الكريم ، ودرس على علماء مكة . توفي في سنة 837هـ .
- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 451/1 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 304/1 .
- (3) انظر القصيدة في : إتحاف الوري ، عمر بن فهد 628/3-630.
- (4) انظر القصيدتين في : غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 262/3-271 ؛ وسمط النجوم ، العصامي 291/4.
- (5) ذكرها المشيخ في كتابه : تاريخ أم القرى ومكانة المرأة العلمية فيها من خلال الدر الكمين لابن فهد ، ص 51.

، كما توثقت مودته بكبار العلماء في مكة ، وأعيان الأهالي ، ونالهم بعطاياه ، وأغدق عليهم من خيراته ، ووزع على الفقراء أموالاً جمة" (1).

ولذلك أحببتهم الأفئدة في مكة والمدينة ، ومدحهم بعض الشعراء بقصائدهم ، فهذا شاعر (2) يبالغ في إعجابه بهم ، فيقول:

مُلُوكُ بَنِي عُثْمَانَ مَذْكَانَ كِرَامٌ لَهُمْ فِي الْمَكْرَمَاتِ مَفَاخِرُ
إِذَا وَلِدَ الْمَوْلُودُ فِيهِمْ تَهَلَّلَتْ لَهُ الْأَرْضُ وَاهْتَزَّتْ إِلَيْهِ الْمَنَابِرُ

وحينما كان السنجاري (3) يتحدث عن السلطان سليم بن بايزيد أورد قول الشاعر:

مِنْ مَعْشَرٍ كُلُّهُمْ غَارٍ وَكُلُّهُمْ خَيْرُ الْمُلُوكِ صَنَادِيدُ الصَّنَادِيدِ
أُولَئِكَ النَّاسُ إِنْ عُدُّوا وَإِنْ وَمَا سِوَاهُمْ فَلَعَوَّ غَيْرُ مَعْدُودِ
لَوْ خَلَدَ اللَّهُ ذَا عِزِّ لِعِزَّتِهِ كَانُوا أَحَقَّ بِتَعْمِيرِ وَتَخْلِيدِ

ولا يعني ذلك أن مدائح الشعراء لسلطين آل عثمان كانت كثيرة ، ولكنها أكثر نسبة من مدائح السلطين المماليك . ويبدو أن بعد المسافة بين المادح والممدوح أحد الأسباب الرئيسة في قلة مديح السلطين في القاهرة أو القسطنطينية (إستانبول) ، فضلاً على عجمة الممدوح . وعلى الرغم من أن للعجمة أثراً في قلة مديح السلطين ، فإنه لا يصل إلى أثر بعد المسافة بين الشاعر وممدوحه ؛ ذلك أن مادحي السلطين صنفان ، منهم طالب حظوة لدى الممدوح وحسب ، دون الالتفات إلى العطاء

(1) تاريخ مكة ، السباعي 343/2.

(2) ذكر السنجاري في منائح الكرم 221/3 أن البيتين للقطب النهروالي ، لكن القطب في كتابه (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص276) أورد البيتين ، ولم يذكر أنهما له ، بل قال : وقيل : ملوك بني عثمان... إلخ.

(3) في منائح الكرم 218/3 ، وقد ذكر أن الأبيات للنهروالي أيضاً ، لكن النهروالي في كتابه السابق ، ص264 قد أورد الأبيات الثلاثة ، وبدأها بقوله : (هم معشر) بدلاً (من معشر) ، مع تصحيف في بعض الألفاظ . والمهم في هذا أنه لم يذكر أنها من نظمه كما يفهم من كلام السنجاري ، يدل على ذلك أن النهروالي في موضع من كتابه السابق يقول حينما يورد شعره : وفي ذلك أقول : ... (الإعلام ، ص33) ، وفي موضع آخر يقول : "وكننت صدّرت ذلك التاريخ بقصيدة طنانة من نظمي الطنان..." انظر : (الإعلام ، ص363).

المادي ، ومنهم - وهو الأكثر - من يمدح منتظراً النوال ؛ فالأول لا يجد المنفعة المرتجاة ما دام بعيداً عن عين السلطان ، والآخر يحس بأن بعده عن السلطان حائل دون تعجيل النوال المرتضى.

وإذا مدح الشاعر أحد السلاطين وضعه في مكانة لا يضارعه فيها أحد ؛ إذ يصبح في نظر الشاعر وحيد زمانه المتفوق على أقرانه.

فقد نظم الشاعر أحمد الخيفي قصيدة مخاطباً بها السلطان الأشرف برسبائي على لسان مكة المكرمة ، وذلك أنه في سنة 827هـ ، وبينما كان الشريف حسن بن عجلان يتولى أمر مكة ، إذ بالشريف علي بن عنان بن مغامس يرد إليها من مصر ومعه عسكر جرار ، فيتولى أمرها بعهد من برسبائي (صاحب مصر) . واستمر إلى أول ذي الحجة سنة 828هـ ، حيث ورد التفويض من السلطان برسبائي للشريف حسن ، وعزل علي بن عنان . وتوجه الشريف حسن بن عجلان إلى القاهرة ، فوصلها في الرابع عشر من الشهر المحرم سنة 829هـ ؛ فلقى السلطان بالإعزاز والإكرام (1) . وقد نظم الخيفي هذه القصيدة متشوقاً فيها إلى الشريف حسن ، يقول في بدايتها:

مَنْ الْبَلَدِ الْمُخَصَّصِ بِالْأَمَانِ وَكَعْبَتِهَا الْمُشْرِفَةِ الْمَبَانِي

(نُقِلَ كُتِبَ) (2) سُلْطَانِ الْبَرَايَا أَبِي النَّصْرِ الْمُوفِقِ لِلْمَعَانِي

بِرَسْبَائِي الَّذِي مَلَكَتْ يَدَاهُ جَمِيعَ الْخَلْقِ مِنْ قَاصٍ وَدَانٍ (3)

ثم يشير إلى أن مكة قد نطقت شاكية مما أصابها من الضيم حين غاب عنها أميرها ، فراحت تنادي السلطان برسبائي الذي لم يلد الزمان مثله ، فهو من ذلت لبأسه الإفرنج:

فَيَا (مَلِكَ الْمُلُوكِ) (4) وَلَا أَحَاشِي وَيَا فَرْدَ الزَّمَانِ بَغِيرِ ثَانٍ

(1) انظر : إتحاف الوري ، عمر بن فهد 627/3 ، 628 ؛ غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 349-345/2 ؛ سمط النجوم العوالي ، العصامي 260/4 ، 261.

(2) في غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 348/2 ؛ وسمط النجوم العوالي ، العصامي 261/4 : تقبل كف.

(3) إتحاف الوري ، عمر بن فهد 628/3.

(4) يرى أغلب العلماء تحريم الوصف بـ (ملك الملوك) اعتماداً على ما ثبت من حديث أبي

هريرة τ عن النبي ع أنه قال : «إن أضع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك» .

وَمَنْ ذَلَّتْ لَهُ الْإِفْرَنْجُ قَهْرًا بُلِّ مَهْتَدٍ عَضْبٍ يَمَانِي
أَجْرَنِي وَاحْمِنِي مِنْ كُلِّ ضَمِيمٍ حَمَّاكَ اللَّهُ بِالسَّعْبِ الْمَثَانِي
وَصَانِكَ مِنْ مُلَمَّاتِ اللَّيَالِي وَزَادَكَ رِفْعَةً وَعُلُوَّ شَانٍ
(فَرُدَّ) (3) إِلَيَّ سُلْطَانِي سَرِيعًا فَإِنِّي كَالْجَوَادِ بِلا عِنَانٍ (4)

ويمدح الشريف بركات بن محمد الملك الأشرف قانصوه الغوري ،
فيعلي مكانته بين ملوك الأرض ، حين يرى أن الملوك تجري على آثاره
لا هتة ؛ إذ إنه ملك سباق لا ترام غايته . لقد ذكره بالجميل ، حيث يقول:
أَحْسَنْتَ ظَنِّي بَعْدَ اللَّهِ فِي مَلِكٍ كُلُّ الْمُلُوكِ عَلَى آثَارِهِ تَبَعُ
رَبِّ التَّخُوتِ وَرَبِّ التَّاجِ يَعْقِدُهُ عَلَى جَبِينِ بَنُورِ الْمُلْكِ يَلْتَمِعُ
تَجْرِي الْمُلُوكُ عَلَى آثَارِ سِيرَتِهِ فَيُذِرُكَ الْكُلَّ دُونَ الْغَايَةِ الضَّلَعُ
تَشَرَّفْتُ بِاسْمِهِ الدُّنْيَا كَمَا شَرَفْتُ بِهِ الْمَنَابِرُ وَالْأَعْيَادُ وَالْجَمْعُ (3)

ويعقب هذه الأبيات أبيات يوضح فيها أسباب ذلك التفوق وتلك
المنزلة ؛ إنه ذو عزيمة ماضية ، وهمة لا يدانيه فيها أحد ، وهيبة يكل
الطرف عنها حسيراً ، وهو مع ذلك جواد يرعى الذمام ، ويعفو عن
المسيء ، يقول منها:

ذُو عَزْمَةٍ فِي فَوَادِ الدَّهْرِ نَافِذَةٍ وَهَمَّةٍ بَعْضُهَا الْآثَامُ لَا تَسَعُ
وَهَيْبَةٍ كَلَّ عَنْهَا الطَّرْفُ يَكَادُ مِنْهَا جَمَادُ الصَّخْرِ يَنْصَدِعُ
مُلْكٌ مَتَى تَرُدُّ الْأَمَالَ حَضْرَتُهُ يَصْدُرْنَ وَالْجُودُ مِنْ أَيْدِيهِ يَنْدَفِعُ
حَيْثُ الذِّمَامُ بِهَا يُرْعَى وَالْعَفْوُ مُلْتَمَسٌ وَالْعِزُّ مُنْتَجَعُ (4)

زاد ابن أبي شيبة في روايته «لا مالك إلا الله عز وجل» . وقال أحمد بن حنبل : سألت
أبا عمرو عن أخنع ، فقال : أوضع.

- صحيح مسلم 1688/3 . وانظر : معجم المناهي اللفظية ، بكر أبو زيد ، ص 311

، 312.

- (1) إتحاف الوری ، عمر بن فهد 629/3.
- (2) في غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 348/2 : وَرُدَّ.
- (3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 264/3 ، 265.
- (4) المصدر نفسه 265/3.

ويظل الشعراء محتفظين للسلاطين العثمانيين بهذا التفوق على سائر الملوك ، كما كان لدى مداح الأمراء الأشراف والسلاطين المماليك . من ذلك قول الشاعر أحمد العليف يمدح السلطان بايزيد:

فِيَا مَلِكاً فَاقَ الْمُلُوكَ مَكَارِماً فُكِّلَ إِلَى أَدْنَى مَكَارِمِهِ يَجْرِي
لَنْنُ فَقْتَهُمْ فِي رُتْبَةِ الْمُلْكِ فَإِنَّ اللَّيَالِي بَعْضُهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ
فَدَتُكَ مُلُوكَ الْأَرْضِ طَرّاً لَأَنَّهَا سِرَاجٌ وَأَنْتَ الْبَدْرُ فِي غُرَّةِ
تَعَالَيْتَ عَنْهُمْ رِفْعَةً وَمَكَانَةً وَذَاتاً وَأَوْصَافاً تَجِلُّ عَنْ
(1)

ويسوغ حكمه هذا بحشد مآثر عديدة تجتمع في ممدوحه ، فهو صاحب الفضائل ، حامي حوزة الدين ، ذو الهمة العالية ، أين منه البحر عطاء ، والبدر ضياء ، والغيث جوداً ، والسيف مضاء ، يقول منها:

إِلَى بَايَزِيدَ الْخَيْرِ وَالْمَلِكِ الَّذِي حَمَى بَيْضَةَ الْإِسْلَامِ بِالْبَيْضِ
وَجَرَّدَ لِلدِّينِ الْحَنِيفِيِّ صَارِماً أَبَادَ بِهِ جَمْعَ الطَّوَاعِيتِ وَالْكُفْرِ
وَجَاهَدَهُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ رَجَاءً لِمَا يَبْقَى مِنَ الْفَوْزِ وَالْأَجْرِ
لَهُ هِمَّةٌ تَمْلَأُ الصُّدُورَ وَصَوْلَةٌ مُقَسِّمَةٌ بَيْنَ الْمَخَافَةِ وَالذِّكْرِ
أَطَاعَ لَهُ مَا بَيْنَ رُومٍ وَفَارِسٍ وَدَانَ لَهُ مَا بَيْنَ بُصْرَى إِلَى
هُوَ الْبَحْرُ إِلَّا أَنَّهُ دَائِمُ الْعَطَا وَذَلِكَ لَا يَخْلُو مِنَ الْمَدِّ وَالْجَزْرِ
هُوَ الْبَدْرُ إِلَّا أَنَّهُ كَامِلُ الضِّيَا وَذَلِكَ حَلِيفُ النِّقْصِ فِي مُعْظَمِ
هُوَ الْغَيْثُ إِلَّا أَنَّ لِلْغَيْثِ مِسْكَةً وَذَا لَا يَزَالُ الدَّهْرُ يَنْهَلُ بِالْقَطْرِ
هُوَ السَّيْفُ إِلَّا أَنَّ لِلْسَّيْفِ نَبْوَةً وَفَلَا وَذَا مَاضِي الْعَزِيمَةِ فِي

ومدح الشاعر محمد النهروالي السلطان مراد بن سليم العثماني ، فأعلى من قدره وبالع في ذلك قائلاً:

مَلِكٌ صَارَ مَنْ مَضَى مِنْ مُلُوكِ أَرْضٍ لَفْظاً وَجَاءَ عَيْنَ الْمَعَانِي

(1) سمط النجوم العوالي ، العصامي 69/4.

(2) المصدر السابق 68/4 ، 69.

مَلِكٌ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عِنْدِي مَلِكٌ صَنِيعٌ صَنِيعَةُ الْإِنْسَانِ

ويبين أسباب ذلك بذكر بعض مآثره ، إذ يقول:

مَلِكٌ عَادِلٌ فَكُلُّ ضَعِيفٍ وَقَوِيٌّ فِي حُكْمِهِ سَيَّانٍ

سَيْفُهُ وَالْمُنُونُ طَرْفَا رَهَانٍ لِحُلُوقِ الْعَدُوِّ يَبْتَـدِرَانِ

كَمَلِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِنَاءً فَاقَ فِي الْعَالَمِينَ كُلَّ الْمَبَانِي

هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا إِنَّمَا الْمَلِكُ فِي بَنِي عُثْمَانَ (1)

اتفق الشعراء في مدائحهم للسلاطين على أن كل واحد منهم نسيج وَحْدِهِ ، قد أربى على الأكفاء ، وتلمس كل شاعر الصفات التي تميز الممدوح عن النظراء ، وهي في الغالب صفات عامة يطلقها الشاعر من خلال حديثه عن إنجازات ممدوحه العمرانية أو العسكرية ، أو في أثناء حديثه عن بعض المواقف أو المناسبات.

فحينما أحدث السلطان مراد - في سنة 995هـ - سبيلاً للشرب على باب الصفا ، نوّه الشاعر علي باحميد (2) بهذه الصنيعة ، بادئاً بوصف السلطان بأنه سيد الملوك الذي فاق قيصر وكسرى ، وراح بعد ذلك ينشر مساعيه ، يسوغ بها ذلك الوصف ؛ إذ قرت بعدله البلاد ، وشاع الأمن في أرجائها ، فاطمأن العباد ، وعاشوا منعمين ، حيث عمهم فضله وفيض بره . يقول الشاعر:

مَلِيكَ كُلِّ الْمُلُوكِ طَرّاً عُجْماً وَعَرْباً لَهُ تُقَادُ

فَاقَ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى بَعْدَ لَهُ (قَرَّتِ) (3) الْبِلَادُ

بِأَمْنِهِ عَزَّ كُلُّ قَطْرٍ الْغُورُ وَالسَّهْلُ وَالنَّجَادُ

(مَدِّ) (3) عَلَى الْخَلْقِ فَيْضَ بَرٍّ (فَعَاشَ) (4) فِي فَضْلِهِ الْعِبَادُ

(1) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ، عبدالحى الحسني 290/4.

(2) هو العالم الأديب علي بن عبدالكبير باحميد ، أحد شعراء مكة في القرن العاشر الهجري . كان حياً في سنة 995هـ.

- انظر : النور السافر ، العيدروس ، ص564 ؛ المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص350 . وقد جاء فيه أنه : علي بن عبدالكريم .

(3) في نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص350 : عَرَّتِ.

(4) في المصدر نفسه 350: فعام.

(5) في المصدر نفسه ، ص350 : مَنَّ.

... يَعْظُمُ كُلَّ الْأَنْامِ نَفْعاً كَأَنَّهُ لِلْوَرَى (عَهَادُ) (1)
فَكَانَ لِلْخَلْقِ مِنْ نَدَاهُ مَاءً بِأَمِّ الْقَرَى وَزَادُ (2)

وتلك معانٍ تناسب شخصية الممدوح ؛ إذ عرف السلطان مراد بأنه كان "كثير الخير ، باذل الإحسان ، لا سيما لأهل الحرمين الشريفين ، واقفاً عند الشرع فلا يتعداه ، عاملاً في أموره بتقوى الله ، مراعيًا للعدل والفضل فيما استرعاه" (3) .

ومن الشعراء من يقرن مدحته للسلطان بطلب النوال – كما كان لدى مداحي الأمراء – حتى إن المتلقي ليدرك أن الذي حفز الشاعر إنما هو الطمع في العطاء ، نلمس ذلك في مثل قول الشاعر علي بن ناصر الحجازي مستجدياً السلطان قانصوه الغوري:

بِكُسْرِي قَدْ رَفَعْتُ ضَمِيرَ فَمَيِّزْ مُعْرِبِي وَاعْطِفْ لِحَالِي
وَسَاعِدْنِي عَلَى ضَعْفِي فَأَيَّ فَقِيرٌ قَدْ عَجَزْتُ عَنِ الْعِيَالِ
أَعَاقَتْنِي دُيُونِي أَنْ أُوَافِيَ إِلَى مَغْنَاكَ لَكِنِّي أُوَالِي
... لِأَجْلِ اللَّهِ فَاجْبِرْنِي فَأَيَّ قَصْدُكَ لَا تُخَيِّبْ لِي سُؤَالِي
وَدُمُ وَاسْلَمْ وَعِشْ وَاعْنَمْ ثَوَاباً وَمُدَّ يَدَ النَّوَالِ وَلَا تُبَالِ
وَأَعْطِ مِنَ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبِّي وَأَحْسِنْ مَا اسْتَطَعْتَ وَجُدْ

والشاعر علي الحجازي كاتب مقامة ، يظهر في هذه الأبيات تأثره بالمكدين من أبطال المقامات الذين يجمعون بين الاحتيال والتسول. وأحمد الخيفي ليس بعيداً عنه ؛ إذ إنه يقول قبل أن يختم قصيدته في السلطان الأشرف برسباي:

وَنَاطِظُهَا يُقَبِّلُ بَعْدَ هَذَا ثَرَى أَعْتَابِ هَاتِيكَ الْمَغَانِي
وَيَسْأَلُ مِنْ مَكَارِمِ سَاكِنِيهَا وَمِنْ صَدَقَاتِهِمْ نَيْلَ الْأَمَانِي (5)

(1) في المصدر نفسه ، ص 350 : عماد.

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص 564.

(3) نزهة الجليس ، الموسوي 271/1.

(4) المقامة الغورية والتحفة المكية ، علي الحجازي ورقة 9 / أ ، ب.

(5) إتحاف الوری ، عمر بن فهد 629 / 3.

وقد يتحدث الشاعر عن نفسه في معرض المديح ؛ إذ يزف القصيدة إلى السلطان مصحوبة بالثناء على شعره ، عارضاً حالته وحاجته إلى وصل الممدوح ، على نحو قول الشاعر أحمد العليف مخاطباً السلطان بايزيد:

أَتَتَكَ عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ قَصِيدَةٌ قَرِيبَةٌ عَهْدٍ مِنْ حِمَى خَاتَمِ الرُّسُلِ
بَدِيعَةٌ مَعْنَى يَقْصُرُ اللَّفْظُ دُونَهَا وَيَلْتَذُّ مِنْهَا السَّمْعُ بِالْمَنْطِقِ
... خَصَصْتُكَ مَا بَيْنَ الْأَنَامِ بِمَدْحِهَا لَعَلَّمَنِي بِأَنَّ الْفَضْلَ عِنْدَ ذَوِي
فَجَاءَتْ لِمَا ضَمَّتْهُ مِنْ طِيبِ كَلَوَلُوهُ الْغَوَاصِ فِي الْحُسْنِ
إِذَا رُمْتُ حَالَ النَّظْمِ رَقْمٌ كَأَنَّ مَعَانِيكَ الْحِسَانَ بِهَا تُمْلِي
... دُيُونٌ عَلَى غَيْرِ الْقِيَاسِ تَرَادَفَتْ يُطِيلُ بِهَا فِكْرِي وَيَعْيَا بِهَا حِمْلِي
... لَعَلَّكَ تَمْحُو رَسْمَهَا وَتُقَلِّنِي وَتُعْتَقِنِي مِنْ رِقَةِ الدِّينِ وَالذَّلِّ
فَكُنْ عِنْدَ ظَنِّي فِيكَ يَا خَيْرَ فَأَتَتْ جِمَاعُ الْفَضْلِ فِي الْعَقْلِ

وأشار الشعراء في مدائحهم لآل عثمان إلى كرم أصلهم . وما كانوا يفعلون ذلك في مدائح سلاطين المماليك الذين هم في الأصل أرقاء . من ذلك ما جاء في مديح الشاعر أحمد العليف للسلطان بايزيد ، حيث أوماً إلى أنه من قوم كرام توارثوا السيادة حين قال:

سَلِيلُ بَنِي عُثْمَانَ وَالْقَادَةِ الْأَلَى عَلَا مَجْدُهُمْ فَوْقَ السِّمَّاكِينِ
مُلُوكُ كِرَامِ الْأَصْلِ طَابَتْ وَهَلْ يُنْسَبُ الدِّينَارُ إِلَّا إِلَى

والخلاصة أن مديح الشعراء للسلاطين العثمانيين أكثر من مديحهم للسلاطين المماليك ، وأن مديح السلطين بعامة لم يكن كثيراً كما كان المديح للأمراء الأشراف . وهناك تماثل في المعاني التي طرقها الشعراء في مديحهم للسلاطين العثمانيين والمماليك.

ج- مديح العلماء:

- 1 -

يختلف مديح الشعراء للعلماء في مكة والمدينة في القرنين التاسع

(1) ديوان أحمد العليف ، ورقة 58/أ.

(2) سمط النجوم العوالي ، العصامي 69/4.

والعاشر الهجريين عن مديحهم أصحاب السلطة ؛ إذ إن الشاعر يمدح هذا العالم أو ذاك بدافع الحب له ، والتقدير لمكانته ، والإعجاب بعلمه وفضله . ولا يعني ذلك أن الشعراء الذين مدحوا الأشراف والسلاطين لم يكونوا معجبين بممدوحيههم ، أو لم يكونوا قد قدرتهم حقيقة ؛ بل إنهم مع هذا الإعجاب وذاك التقدير ينتظرون نوالهم أو كسب ودهم في أغلب الأحيان . فمدح العلماء إذن حب محض وإعجاب خالص ، ومدح الأشراف والسلاطين مشوب بالأمل في العطاء أو التقرب لغرض ما .

وإذا أنعمنا النظر في مدح العلماء ؛ وجدنا القصائد والمقطعات تدور حول المجال المعرفي لهذا العالم أو ذاك ، مبدياً الشاعر حبه لممدوحه وإعجابه بعلمه مع الإيماء إلى ما للعلم من أثر فيما حققه من مكانة اجتماعية ، والإشارة إلى ما يمتاز به الممدوح من صفات خُلقية أو جوانب أخرى.

وعلى الرغم من أن بعض العلماء الممدوحين كانوا يمارسون القضاء ، فإننا لم نجد حديثاً عن العدل في أحكامهم ، ولم يتحدث الشعراء كثيراً عن وقار العلماء وهيبتهم ، ومن العلماء من كان خطيباً مصقلاً ، لكننا لم نجد إشارة إلى بلاغته ومدى تأثيره ، بل وجدنا صفات عامة ، كالحبر ، والجهبذ ، والإمام... إلخ . وإن وجد شيء من ذلك في بعض القصائد ، فإنها لا تعدو أن تكون إشارات سريعة في خضم مشاعر الحب والإعجاب التي تتدفق في مدائحهم.

- 2 -

وقد دفع حب الشعراء العلماء والوفاء لهم إلى التهنئة ، وبيان أثر العلم على شخصية الممدوح ، والمبادرة إلى إظهار عاطفة الحب في كل مناسبة تدعو إلى ذلك . فالشاعر جلال الدين محمد بن ظهيرة يعجب بعلم الشيخ جلال الدين البلقيني ، فيعبر عن ذلك بتهنئته لأهل مصر بعالمهم الجليل قائلاً:

هَنِيئاً لَكُمْ يَا أَهْلَ مِصْرَ جَلَالُكُمْ عَزِيزٌ فَكَمْ مِنْ شُبْهَةٍ قَدْ جَلَّ لَكُمْ
وَلَوْلَا اتِّقَاءُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ لَقَلْتُ لِفَرْطِ الْحُبِّ جَلَّ جَلَالُكُمْ (1)

وكان الشيخ البساطي (العالم المصري) قد جاور بمكة سنة ، وانتفع به جماعة ، امتدحه منهم جلال الدين محمد بن ظهيرة في قصيدة يقول

(1) النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي 238/14.

منها:

طَبُّ أَيُّهَا الْحَبْرُ الْإِمَامُ مُقَامًا وَاعْنَمَ بِمَكَّةَ سَيِّدِي أَيَّامًا
وَتَهَنَّ يَا (قَاضِي الْقَضَاةِ) (1) مَلَأَتْ قُلُوبَ الْعَاشِقِينَ عَرَامًا
أَحْيَيْتَ لِلْعِلْمِ الشَّرِيفِ مَآثِرًا وَمَلَكْتَ فِيهِ شَكِيمَةً وَزَمَامًا (2)

لقد عرف الشعراء مناقب العلماء عن كثب ؛ حيث جمعتهم حلقات العلم ، فكان الرابط بينهم التلمذة على أولئك العلماء – وهذا الأغلب – أو الرفقة في الطلب ومجالسة الأخيار . فليس بدعاً أن نرى ذلك الحب بين الشاعر وممدوحه ، فالعلم – كما يقال – رحم بين أهله ، وليس عجيباً أن نجد عدداً من الشعراء قد أظهروا إعجابهم بمعاصريهم من العلماء ؛ فالشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي – مثلاً – عرف العلامة ابن حجر الهيتمي ، فأعجبه ذلك المستوى العلمي الذي كان يتمتع به ، فأنشده:

مَنْكَ الْمَعَارِفُ فَاضَتْ عَذْبَةً عَذْباً زُلَّالاً فَاضَ مِنْ حَجَرٍ (3)

وقال السخاوي في الضوء اللامع (4) وهو يترجم للشيخ محمد المراغي : "وقد ذكره شيخنا – يعني ابن حجر العسقلاني – في معجمه باختصار ، وقال : إنه تفقه بأبيه ، ومهر في الأدب ، ونظم الشعر المقبول .. ومدحني بأبيات منها :

يَا حَافِظَ الْوَقْتِ وَيَا مَنْ سَمَا بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَفِعْلِ الْجَمِيلِ "

وحينما وصل قاضي مكة جلال الدين أبو السعادات من القاهرة إلى مكة في سنة 841هـ ، سُرَّ أهل مكة بذلك كثيراً ، وأنشد الشاعر محمد بن عبد القوي قصيدة يهنئه بها مبدياً سعادته والبشر الذي عم أم القرى ، يقول فيها:

نَعَمْ فَلَنَا الْبُشْرَى بِلِقَاكَ وَالْهَنَاءُ وَلِلَّهِ مَا يَرْضَى مِنَ الْحَمْدِ وَالنَّثَاءِ

(1) يرى بعض العلماء كراهية الوصف بقاضي القضاة ، قياساً على ما يبغضه الله ورسوله من الوصف بملك الملوك.

- انظر معجم المناهي اللفظية ، بكر أبو زيد ، ص 53 ، 54 ، 260 ، 311 ، 312.

(2) الضوء اللامع ، السخاوي 216/9.

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص 396 . ويلاحظ أن الشطر الثاني معلول ؛ إذ لم يجر على وزن الشطر الأول ، فصدر البيت من البسيط وعجزه من السريع . ولو قال : يفيض العلم من حجر ؛ لاستقام .

(4) 162/7.

قَدِمْتَ إِلَى أُمِّ الْقُرَى فَازْدَهَى قَدُومٌ تَرَاهُ بِالسَّعَادَاتِ مُؤَدِّنَا
 قَلُّوْ أَمْكَنَ الْأَطْلَالَ تَهْتَزُّ فَرْحَةً لَكَانَتْ مِنَ الْأَغْصَانِ فِي الْمَيْلِ
 ثم يخاطبه مشيراً إلى منزلته الرفيعة ، وأن ما ناله من مكانة كان
 بفضل العلم ، وأن ذلك هو المجد الحق ، حيث يقول:
 أَقَاضِي قَضَاةَ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ لَهُ الْفَخْرُ يُعْزَى وَالْمَحَاسِنُ
 رَجَعَتْ بِحَقِّ فِي يَدَيْكَ حِيَارُهُ وَلَوْ رَامَ هَذَا الْأَمْرَ غَيْرُكَ لَانْتَبَى⁽¹⁾
 تَوَلَّيْتَ بِالْعِلْمِ الشَّرِيفِ مَكَانَةً قَوَاعِدُهَا بِالْفَضْلِ مَشْمُولَةٌ
 فَهَذَا هُوَ الْمَجْدُ الصَّرَاحُ فَقُلْ عَلَى مَسْمَعِي جَهْرًا وَدَعْنِي مِنْ⁽²⁾
 حينما يحب الشاعر ممدوحه – وهو في الغالب شيخ من شيوخه –
 يصبح قدومه عيداً تعم الفرحة فيه الوري ، كما عبر ابن عبدالقوي في
 القصيدة السابقة.

وما دام الأمر كذلك ، فإن غياب هذا الشيخ الأثير لدى طلابه أمر لا
 تحتمله تلك النفوس المحبة ؛ لذلك عبر الشاعر محمد بن إبراهيم الخجندي
 عن إحساسه بمكانة أبي السعادات بن ظهيرة ، وآثار فقدته على الأماكن
 الطاهرة التي كان يتنقل بينها – حينما أمر بالتوجه إلى المدينة
 المنورة "بعد أن صُرف عن القضاء في مكة في أواخر سنة 847هـ" (3) –
 فأنشده قصيدة ، قال منها:

ظَمِنْتُ لِرُؤُوتِكَ السَّعِيدَةَ مَكَّةَ وَاهْتَزَّ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْكَ الْمَنْبَرُ
 وَاسْتَوْحَشَ الْحَرَمُ الشَّرِيفُ وَالْبَيْتُ كَادَ مِنَ الْجَوَى يَتَفَطَّرُ
 وَالْحَجَرُ وَالْحَجَرُ الشَّرِيفُ وَكَذَا الْمَقَامُ مَعَ الصَّفَا مُتَكَدِّرُ⁽⁴⁾
 وعلى الرغم من أن هذا الشوق أدخل في باب الإخوانيات ، فإنه
 مسوق لبيان الود الصادق للممدوح ؛ فكما أن القلوب تهش لقدومه ، نجد
 أن مكة وما فيها يهتز شوقاً إليه بعد رحيله.

- (1) إتحاف الوري ، عمر بن فهد 108/4.
- (2) المصدر نفسه 110/4 ، وقد سبقت الإشارة إلى أن بعض العلماء يرى كراهية الوصف بقاضي القضاة ؛ قياساً على ما يبغضه الله ورسوله من الوصف بملك الملوك .
- (3) الضوء اللامع ، السخاوي 215/9.
- (4) التحفة اللطيفة ، السخاوي 452/3.

- 3 -

ودأب الشعراء في مدائحهم للعلماء على الحديث عن سعة علمهم ، وتشبيههم في ذلك بالبحر ، على نحو قول الشاعر عبدالمعطي باكثير (1) في مديح الشيخ شيخ بن عبدالله العيدروس :

هُوَ الْبَحْرُ فِي عِلْمِ الْحَقِيقَةِ هُوَ الْخَبْرُ فِي عِلْمِ الشَّرِيعَةِ

ومن الشعراء من يبالغ في وصف الممدوح ، فيجعله بحراً لا ساحل له ، يفيض معرفة بكل شيء ، كالشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي الذي يرى ممدوحه الشيخ محمد البكري بحراً يفيض علوماً يقصر عن إدراكها الوصف ؛ فقد بحث في كل فن وفاض معرفة ، حيث يقول:

حَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ إِنْ حَدَّثَ عَنْهُ عَلَيْكَ مِنْ حَرَجٍ تَخْشَى بِهِ التَّهَمَا

بَحْرٌ يَفِيضُ عُلُوماً مِنْ جَوَانِبِهِ بِالْبَحْثِ فِي كُلِّ فَنٍّ مَوْجُهُ

وكذلك الشاعر محمد بن موسى حين رأى ممدوحه الشيخ ابن الجزري مجلياً في كل العلوم ؛ فجعله نبراس العلماء الساطع الذي يرجع إليه في المشكلات ، ويستضاء بنور علمه في المعضلات . إنه أبحر علم لا تسبر أغوارها ، يتضح ذلك في قوله:

يَا شَمْسَ أَفْقِ بِلَادِ الشَّرْقِ كَمْ سَيَّارَةً بِغُلَاهَا سِرْنَ فِي الْبَشَرِ

يَا سَابِقَ الْعُلَمَاءِ فِي كُلِّ مُشْكَلَةٍ وَكُلِّ عِلْمٍ أَمِنْتَ السَّبْقَ فَاَنْتَظِرْ

مَدَدْتَ أَبْحَرَ عِلْمٍ لَا يُطَاقُ فَمُدَّ جَزَرْتَ رِفْقاً دَعَاكَ النَّاسُ

ومدح الشاعر عبدالعزيز الزمزمي الشيخ عبدالقادر الجنيد منوهاً

(1) هو عبدالمعطي بن حسن بن عبدالله باكثير . ولد بمكة سنة 905هـ ، ونشأ فيها أخذاً عن جماعة من العلماء . وهو محدث ، اشتهر في زمنه بالسند العالي ، وتميز عن أقرانه بذلك . وقد صنف كتاباً عنوانه (أسماء رجال البخاري) . كان لطيف المحاوره ، فكهاً . أقام في الهند آخر حياته ، وتوفي في أحمد آباد سنة 989هـ .

- انظر ترجمته في : النور السافر ، العيدروس ، ص479-485 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 612/10 ، 613 ؛ المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص323 ، 324 ؛ هدية العارفين ، البغدادى 622/1 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 176/6 ، 177 ؛ الأعلام ، الزركلي 155/4 ؛ معالم الأدب العربي في العصر الحديث ، عمر فروخ 493/1-495 .

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص473 .

(3) ديوان الزمزمي ، ورقة 93/ب .

(4) العقد الثمين ، الفاسي 370/2 .

بعلمه الغزير ومنطقه الحسن ، مشيراً إلى ما يكتنزه من معارف ترقى به
إلى حضيرة الفقهاء ، وتقوده إلى التفوق على المناظرين ، حيث يقول:
إِنْ فَاهُ فَاضَ مِنَ الْمَعَارِفِ مَا طَمَأ وَأَرَاكَ بَاطِنَهُنَّ عَيْنَ الظَّاهِرِ
فِي الذِّكْرِ مَا أَقْوَى وَأَثْبَتَ جَاشَهُ مَعَ ضَعْفِ جِسْمٍ مِنْ نُحُولٍ ضَامِرِ
... إِنْ جَالَسَ الْفُقَهَاءَ فَهُوَ إِمَامُهُمْ وَلَدَى الْجِدَالِ يَفُوقُ كُلَّ مُنَاطِرِ
وَإِذَا جَرَى ذِكْرُ الْحَقَائِقِ فَهُوَ فِي تَحْقِيقِهِنَّ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ (1)

والشعراء في مكة والمدينة لم يكونوا بعيدين عن الجو العلمي – كما
أشرت إلى ذلك- إذ كانوا يجالسون العلماء ويأخذون عنهم . ومنهم من
كان مصنفاً كابد مشقة التصنيف فقدر العلماء الذين أفنوا أعمارهم في
خدمة العلم بآثارهم الجليلة التي تشهد بفضلهم ؛ فأحمد العليّ الذي عاش
حياته متقلّباً بين أروقة العلماء ، يطلب العلم ، ويدون المصنفات ، أثنى
على نجم الدين بن فهد في تصديه لخدمة العلم قائلاً:

لِللّهِ دَرُّ ابْنِ فَهْدٍ فِي تَفَنُّنِهِ وَمَا تَصَدَّى لَهُ مِنْ خِدْمَةِ الْأَثَرِ
مُحَدِّثِ ثِقَةٍ فِي النُّقْلِ رَاوِيَةٍ قَدْ مَارَسَ الْفَنَّ فِي وَرْدٍ وَفِي صَدَرِ
أَبْدَى أَحَادِيثِ فَضْلِ مِنْ مَعَارِفِهِ (غَوَامِضاً) (2) بَرَزَتْ فِي أَحْسَنِ
وَصَارَ يَجْمَعُ مِنْهَا كُلَّ مُفْتَرِقٍ حَتَّى تَأَلَّفَ فِي عَقْدٍ مِنَ الدَّرَرِ (3)

وكثيراً ما أشار الشعراء إلى سعة علم الممدوح عند التصدي لأثر
من آثاره ، كقول الشاعر علي بن محمد العليّ ، مثنياً على كتاب محمد
بن يعقوب الفيروزآبادي (القاموس المحيط) ، ومشيراً إلى سعة علم
صاحبه:

مُذْ مَدَّ مَجْدُ الدِّينِ فِي أَيَّامِهِ مِنْ بَعْضِ أَبْحُرِ عِلْمِهِ الْقَامُوسَا
ذَهَبَتْ صِحَاحُ الْجَوْهَرِيِّ كَأَنَّهَا سِحْرُ الْمَدَائِنِ يَوْمَ أَلْقَى مُوسَى (4)

وتناول العلماء تقي الدين بن فهد بالمديح في أثناء تقرّيبهم لكتابه

- (1) ديوان الزمزمي ، ورقة 92/أ.
- (2) في المصدر : غوامضها ، والمثبت عن غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 240/3.
- (3) معجم الشيوخ ، عمر بن فهد ص13 ، 14 (مقدمة التحقيق).
- (4) النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي 132/14 ، 133 . وفي القاموس المحيط (شرح
الديباجة /33) جاءت لفظة (يوم) في عجز البيت الثاني (حين).

(نهاية التقريب وتكميل التهذيب بالتذهيب) ، وقد أورد ابنه عمر في كتابه (الدر الكمين) كل التقاريظ التي قيلت في كتاب والده – الشعرية والنثرية – . ومن الشعراء الذين وصفوا محاسن الكتاب ومزايه أبو البقاء محمد بن الضياء ، حيث مدح صاحبه بأبيات أشار فيها إلى تقاه ، وكرم أصله ، وبراعته في علم الحديث ، منها قوله:

تَقَى دِينَ اللَّهِ فَرَعُ هَاشِمٍ فَيَالَهُ مِنْ عَالِمٍ نَسِيبِ
مُحَدِّثُ الْحَجَّازِ ذُو فَضَائِلٍ أَكْرَمَ بِهِ مِنْ حَافِظِ حَسِيبِ
فِي ذُرْوَةِ الْمَجْدِ ارْتَقَى عَلَى تَقَى أَعَارَ مِنْ طَيْبِهِ لِلطَّيِّبِ (1)

وقرَّط الشاعر عبدالقادر الفاكهي كتاب (العباب المحيط بمعظم نصوص الشافعي والأصحاب) للشيخ أحمد بن عمر المَرْجَد ، منوهاً بصاحبه الحاوي للكنوز ، حيث قال:

أَلَا إِنَّ الْمَرْجَدَ بَخْرٌ عِلْمٍ خِضَمٌّ وَالْجَوَاهِرُ فِي عُبَابِهِ
وَمَذْهَبُ الْمُهَذَّبِ فِيهِ ضِمْنًا فَوَائِدُ الْيَتِيمَةِ فِي كِتَابِهِ (2)

كما يشير الفاكهي في قصيدة أخرى إلى أن كتاب (العباب) ليس له نظير مثل مبدعه ، فهو جدير أن يفتخر به ؛ لما يحويه من درر:

أَلَا إِنَّ الْعُبَابَ عَزِيزٌ مِثْلٍ وَلَا يُلْفَى لِمُبْدِعِهِ نَظِيرُ
فَفَاخِرٌ يَا وَلَوْعُ بِهِ وَبَاهٍ فَفِيهِ الرَّوْضُ وَالْدَّرُّ النَّصِيرُ (3)

ثم يتناول صفات ثلاث ممدوحه ؛ فهو قاضٍ تقيٍّ ، منصف في حكمه ، يقول فيها:

وَلِمَ لَا؟ وَالَّذِي أَنْشَأَ قَاضٍ تَقَى لَا يَمِيلُ وَلَا يَجُورُ
لَهُ فِي حُكْمِهِ آيَاتُ عَدْلِ وَشَاهِدُهُ لِرِقَّتِهِ الضَّمِيرُ (4)

- 4 -

ولتلك الصفات التي ذكرها الفاكهي في ممدوحه الشيخ المَرْجَد وما شابهها من الأخلاق والفضائل النفسية كبير الأثر في إقبال الناس على

(1) الدر الكمين ، عمر بن فهد 60/1.

(2) الكواكب السائرة ، الغزي 114/2.

(3) المصدر السابق 114/2 .

(4) المصدر نفسه 114/2.

العلماء ومحبتهم لهم ؛ ولذلك عني الشعراء - في مدائحهم للعلماء - بالحديث عن هذا الجانب ، وتحدث كل شاعر عن أبرز السمات التي أثارت إعجابه في الممدوح.

فقد انجذب الشاعر عبدالعزيز الزمزمي إلى الشيخ عبدالقادر الجنيد وأخلص الحب له ؛ إعجاباً بأخلاقه الرضية وما يتسم به من صفات العلماء ، إذ يقول:

يَا سَيِّدَ أَخْلَاقِهِ وَسِمَاتِهِ أَخَذْتُ بِقَلْبِي نَحْوَهُ وَبِخَاطِرِي

لِلَّهِ قَلْبِي قَدْ أَحَبَّكَ مُخْلِصاً فَأَحْسُ ذَاكَ الْحُبِّ مِلءَ

وسار نجم الدين عمر بن فهد على ما كان عليه علماء الإسلام من أخلاق كريمة أثارت إعجاب الشاعر مُعَمَّر بن عبدالقوي⁽²⁾ ، فمدحه بأرجوزة أشار فيها إلى ما وهبه الله من فضائل عديدة تليق بعالم مثله ، منها قوله:

قَدْ جُبِلَتْ أَخْلَاقُهُ عَلَى الْكَرَمِ واجْتَمَعَتْ فِيهِ مَحَاسِنُ الشِّيمِ

أَفْعَالُهُ جَمِيعُهَا حَمِيدَةٌ جَمِيلَةٌ أَقْوَالُهُ سَدِيدَةٌ

إِنْصَافُهُ عَمَّ لِكُلِّ النَّاسِ فَمَا يَرَى جَلِيسُهُ مِنْ بَاسِ

يُكَبِّرُ الْكَبِيرَ وَالصَّغِيرَا وَيَرْفَعُ الْجَلِيلَ وَالْحَقِيرَا

وَمُحْسِنُ الظَّنِّ بِكُلِّ شَخْصٍ مُكَمِّلٌ فِي الْعِلْمِ أَوْ ذِي نَقْصٍ⁽³⁾

ويعد الشاعر عبدالمعطي باكثير أكثر الشعراء حديثاً عن الفضائل النفسية في ممدوحيه . وأكثر العلماء الذين تناولهم الشيخ شيخ بن عبدالله العيدروس ؛ إذ مدحه في قصائد كثيرة ، ذكر ابنه عبدالقادر شيئاً منها في كتابه (النور السافر عن أخبار القرن العاشر) ، وقال وهو يترجم

(1) ديوان الزمزمي ، ورقة 92/أ.

(2) هو مُعَمَّر بن يحيى بن محمد بن عبدالقوي . ولد بمكة سنة 848هـ ، ونشأ فيها ، فحفظ القرآن الكريم وكثيراً من المتون ، ودرس على علماء الحرمين ، وارتحل إلى القاهرة أكثر من مرة ؛ حيث تتلمذ على جماعة من العلماء في الفقه والمعاني والبيان والعروض والمنطق . وقد أذن له شيوخه في الإقراء والإفتاء ؛ فتصدى لذلك وانتفع به الطلبة . من مؤلفاته : شرح على قطر الندى لابن هشام . توفي في مكة سنة 897هـ . - انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 1200/2-1207 ؛ الضوء اللامع ،

السخاوي 162/10 ، 163 .

(3) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1205/2.

لباكثير : "وله جملة قصائد في مدح والدي ، تكون قدر عشر كراريس على القطع الكامل" (1) . وكانت العلاقة بين الشيخين باكثير وشيخ بن عبدالله العيدروس قد توثقت في الهند ؛ إذ عاش كل منهما آخر حياته فيها ، وتوفيا في أحمدأباد (2) .

يقول عبدالمعطي باكثير في إحدى قصائده يمدح شيخ العيدروس:
قَدْ عَشْتُ فِي أُمِّ الْقَرْيِ دَهْرًا تَحْصِيلِ عِلْمٍ ثُمَّ دَرَسِ قُرْآنِ
وَعِبَادَةٍ وَزَهَادَةٍ فِي خُلُوةٍ مُتَسَتِّرًا عَنْ سَائِرِ الْإِخْوَانِ
وَقِيَامِ لَيْلٍ مَعَ صِيَامِ هَوَاجِرٍ مُتَمَسِّكًا بِالْبَيْتِ وَالْأَرْكَانِ (3)

وعدد بعض مناقبه في قصيدة ثانية قائلاً:
خُلِقَ كَالنَّسِيمِ سَهْلٌ وَجُودٌ فِي يَدَيْهِ كَالْوَابِلِ الْمَذَرِ
هِمَّةٌ زَاخَمَتْ نُجُومَ الثَّرِيَا وَاتِّضَاعٌ مُزَيْنٌ بِوَقَارِ
لَكَ يَا عَيْدَرُوسُ ذِكْرٌ جَمِيلٌ وَثَنَاءٌ فِي سَائِرِ الْأَعْصَارِ
خَصَّكَ اللَّهُ بِالسَّمَاةِ وَالْبِرِّ وَبَذَلَ الْمَعْرُوفَ لِلزُّوَارِ
وَبَفَضَلَ جَمٍّ وَخَيْمٍ كَرِيمٍ فِطْرَةَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (4)

وواضح أن الشاعر في القصيدتين السالفتين قد تحدث عن معانٍ تتواءم مع شخصية العالم ؛ حيث أشاد باجتهاده في تحصيل العلم ، والتأمل في آيات الذكر الحكيم ، وعبادة الله سبحانه وتعالى ؛ إذ زهد في دنيا الناس ، مناجياً ربه ، قائماً ليله ، صائماً الهواجر .

وأشار الشاعر إلى الهمة العالية التي منحها الله ممدوحه ، ونوه بما حباه الله من تواضع ووقار وسماحة وجود ، مشيراً إلى أن تلك الصفات الجميلة قد سيّرت ذكره في الآفاق ، فأضحى محمود الشهرة ، جميل الذكر .

استبان من خلال الحديث عن شعر المديح في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين أن مديح الشعراء للأمراء أكثر من

(1) النور السافر ، ص484.

(2) انظر : المصدر نفسه ، ص 479 ، 488 ، 489 .

(3) المصدر نفسه ، ص491.

(4) المصدر السابق ، ص223 .

مديحهم للسلاطين والعلماء ، كما أن القصائد في مدائح الأمراء أكثر طولاً.

والواضح من خلال النظر في مدائح العلماء مشاركة عدد من الشعراء الذين لم يتجهوا بمدحهم إلى الأمراء والسلاطين ، كعبد المعطي باكثير وعبدالقادر الفاكهي ومحمد اللواتي ومحمد الخجندي ومحمد بن موسى ومحمد بن الضياء ، كما أن الشاعرين أحمد الخيفي وعلي باحميد قد صرفا مدحهما إلى السلاطين ، ولم تكن لهما مشاركة في مديح الأمراء.

ولم يخرج مداح السلاطين عن المعاني الواردة في مدائح الأمراء ، غير أن الأمر قد اختلف في مدائح العلماء ؛ إذ تناول الشعراء معاني تتوافق مع شخصيات الممدوحين ، وهذا أمر طبعي ، إذ يلائم الأمير أو السلطان الوصف بالشجاعة والكرم وأمثالهما ، كما أن العالم يناسبه الوصف بسعة العلم والأخلاق الفاضلة وأمثالهما . وهذا مما يحمد للشعراء ؛ إذ إنهم أسبغوا على كل فئة ما يوائمها من نعوت . وثمة معنيان مشتركان في المدائح عامة ؛ إظهار مشاعر الحب للممدوح ، وتفرد من بين أقرانه.

ومن يقلب الطرف في مدائح العلماء ؛ يلحظ أن الشعراء لم يقتصرُوا على علماء مكة والمدينة ، بل مدحوا بعض علماء الأقطار الإسلامية المختلفة ، كما أن الشاعر لم يكن يشرك نفسه في موضوع المدح كما كان في مدائح الأمراء والسلاطين ؛ لأن ذلك قد جاء - في الغالب - متلازماً مع طلب العطاء من الممدوح ، وهذا المطلب لم يكن هدفاً من أهداف الشاعر في مدحه للعالم ؛ إذ لم يتخذ القصيدة وسيلة للتقرب من أجل مصلحة ما ، بل جاء مدحه للعالم إعجاباً بعلمه وفضله وتقديراً لمكانته.

2- الشعر الديني:

أبان الشعراء عن مشاعر حبهم للرسول ع بمدائح أشادوا فيها بعظمة شخصيته . وقد دفعهم حب الرسول ع إلى الحنين إلى طيبة ، فكانت المدائح النبوية لا تخلو من حديث عن هذه البلدة الطيبة وذكر معالمها . وسيتناول هذا المبحث تلك المدائح النبوية مع الإشارة إلى ما فيها - أحياناً - من غلو جاوز الحد المشروع ، كما سيتناول الإلهيات ؛ وهو الشعر الذي اتجه فيه الشعراء إلى الخالق - عز وجل - حين أحست نفوسهم بحاجتها إلى مناجاة بارئها وبثه همومها ، ويشمل الحديث في هذا المبحث أيضاً ما وجهه الشعراء من مواعظ وزهديات دعوا فيها إلى الخير وابتغاء الدار الآخرة ، والإقلاع عن الذنب ، وترك الصراع على حطام الدنيا ، يتلو ذلك كله حديث عن شعر التصوف مع قلته .

أ- المديح النبوي :

- 1 -

لا شك في عظمة شخصية نبينا محمد ع ، فهو الرحمة المهداة من رب العالمين ، أثنى عليه - جل شأنه - بقوله : [وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ] (1) . وقد رأى فيه المسلمون المثل الأعلى في كل جانب من جوانب حياتهم ، وأحبوه حباً خالط شغاف قلوبهم ، حيث لا يساويه حب أحد من البشر ، وإن كان والداً أو ولداً . وإذا كان ع قد قال : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (2) ، فإنه قد نهى عن الغلو في ذلك ، كالتوسل أو الاستغاثة أو ما شابههما مما يكدر صفو عقيدة المسلم ؛ فقد جاء في الحديث أن رسول الله ع قال : «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبده فقولوا : عبدالله ورسوله» (3) .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن الغلو في مدح النبي ع أصبح ظاهرة عند كثير من الشعراء ، اقتفاءً لأثر البوصيري في برده .
"والمدائح التي قيلت في النبي ع نوعان : نوع تقييد فيه الشعراء

(1) الآية (4) من سورة القلم.

(2) صحيح مسلم 67/1 . وفي رواية : «... من أهله وماله والناس أجمعين» .

(3) صحيح البخاري 142/4 . وفي رواية أخرى (في الصحيح نفسه 26/8) : «لا تطروني كما أطري عيسى بن مريم ، وقولوا : عبدالله ورسوله» .

بالبحر البسيط وبقافية الميم ، وساروا على ذكر المحسنات البديعية في كل بيت ، وهذا ما عرف بالبديعيات ، ونوع لم يتقيد فيه الشعراء ببحر معين ولا بقافية معينة ، وهذا كثير . وقد ظهر منذ أن ظهرت الدعوة الإسلامية وأخذت تكون قاعدتها الصلبة في مكة والمدينة⁽¹⁾ .

ولم يول شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين البديعيات عنايتهم ، بل مدحوا المصطفى ع بقصائد لم يهتموا فيها بالبديع ، ولم يتقيدوا فيها ببحر أو روي معين ، حتى الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي الذي يعد أكثر شعراء مكة والمدينة مديحاً للنبي ع لم يعن بهذا الفن . وقد ذكر الدكتور عمر فروخ في أثناء حديثه عن الزمزمي⁽²⁾ أن شعره بديعيات في الأكثر ، كما أشار إلى أن له ديوان شعر (فيه بديعيات ومدائح في العلماء والصالحين وفي مكة المكرمة) . وقد اطلعت على ديوانه فلم أجد في مدائحه النبوية ما يمكن أن يطلق عليه مصطلح (بديعية) ، كما أنني لم أجد في قصائده الأخرى التي لم يشملها الديوان . ويبدو أن الدكتور عمر فروخ يطلق مصطلح (بديعيات) على المدائح النبوية عامة ، يدل على ذلك أنه حينما ذكر هذا المصطلح فسرهُ بقوله : (مديح في رسول الله).

وقد خمس الزمزمي (البردة) للبوصيري⁽³⁾ ، لكننا لا يمكن أن نطلق عليها بديعية ؛ لأن شروط البديعية لم تتوافر فيها كما توافرت لدى شعراء البديعيات الذين جاءوا بعد البوصيري ، كصفي الدين الحلي ، وابن جابر الأندلسي ، وعز الدين الموصلي ، وزين الدين شعبان ،

(1) المدائح النبوية بين المعتدلين والغلاة ، ابن حسين ، ص 75 . وقد ذكر الدكتور بكري شيخ أمين شروطاً لما يمكن أن يطلق عليه بديعية ، هي:

- 1- أن يكون عدد أبياتها يزيد على الخمسين.
- 2- أن يكون موضوعها الأساس مدح الرسول ع.
- 3- أن يكون كل بيت فيها يتضمن لونا من البديع صراحة أو ضمناً.
- 4- أن تكون منظومة على البحر البسيط.
- 5- أن يكون رويها الميم المكسورة.

وكل قصيدة خلت من أحد هذه الشروط لا تعد من (البديعيات).

- البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البديع) 12/3.

(2) معالم الأدب العربي في العصر الحديث 433/1.

(3) سمى تخميسه (الأفلاك الدورية على الكواكب الدرية في مدح خير البرية ع) وهي في ديوان قصب السبق في تخميس القصص الحق ، للزمزمي ، ورقة 12/ب - 21/أ ، رقم الديوان في مكتبة الفاتيكان (1143).

وابن حجة الحموي ، وغيرهم.

لقد مدح شعراء مكة والمدينة النبي ع في قصائد أذاعوا فيها مناقبه الجمة ، وكانت نابعة من أفئدة مسلمة ، مفعمة بالحب لسيد ولد آدم ، الشفيع المشفع يوم يقوم الحساب . وإن ظهر غلو في كثير من المدائح النبوية في ذلك العصر ، فإنه لا ينفي صدق العاطفة لدى أولئك الشعراء ؛ لأن الشاعر يمدح الرسول ع طامعاً في التقرب إلى الله - سبحانه وتعالى

- .

- 2 -

لقد خلق الله - سبحانه وتعالى - رسوله محمداً ع في أحسن تقويم ، كما أدبه فأحسن تأديبه ، فكانت حياته الطاهرة تتألق بخصال فطرها على الكمال مبدعها الأعلى ؛ ليكون (صلوات الله وسلامه عليه) للعالمين قدوة ، وللحياة نوراً :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ وَصَارِمٌ مِّنْ سُيُوفِ اللَّهِ

وصفه هند بن أبي هالة فقال : "كَانَ فَخْماً مَفْخِماً ، يَتَلَأَلُ⁽¹⁾ وَجْهَهُ تَلَأَلُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ"⁽²⁾ .

وقد تناول الشعراء ما أكرم الله به نبيه من صفات انفرد بها عن سائر البشر . من ذلك قول الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي :

مَنْ ذَا يُمَاتِلُ خَيْرَ الْخَلْقِ فِي أَوْ مَن يُضَاهِيهِ فِي خَلْقٍ زَكَا

ويشير إلى طلعتة المأنوسة ، وضوء البشر المتألق في جبينه ، فيقول⁽³⁾

:

أَعْرُ أَبْلَجُ طَلَّقُ الْوَجْهَ يَبْسِمُ حَبِّ الْغَمَامِ وَعَنْ دُرٍّ قَدْ انْتَضَمَا

حقاً ، إنه (صلوات الله وسلامه عليه) أبلج الغرة ، وضاح المحيا⁽⁵⁾ ، صور الشاعر نابت الزمزمي⁽⁶⁾ إشراقة ديباجته ، وحسنه الوهاج

(1) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة 155/1 . والبيت لكعب بن زهير من قصيدته (بانث سعاد)

(2) السيرة النبوية ، أبو الحسن الندوي ، ص362.

(3) ديوان الزمزمي ، ورقة 33/أ.

(4) المصدر نفسه ، ورقة 33/أ.

(5) جاء في صحيح مسلم 1820/4 : «حدثنا خالد بن عبدالله ، عن الجريري ، عن أبي الطفيل قال : قلت له : رأيت رسول الله ع؟ قال : نعم ، كان أبيض ، مليح الوجه».

(6) هو نابت أحمد بن إسماعيل بن علي بن محمد بن داود الزمزمي . ولد سنة 820هـ بمكة

بقوله:

جَبِيْثُهُ قَمَرٌ قَدْ زَانَهُ خَفَرٌ وَتَغْرُهُ دُرٌّ غَرٌّ وَمَرْجَانُ

فَالْبَذْرُ يَخْجَلُ مِنْ أَنْوَارِ وَالشَّمْسُ مِنْ حُسْنِهِ الْوَهَّاجِ

ويتحدث الشاعر أحمد العليف عن نور النبوة الذي يبدد كل ظلمة ، وعن سيرة المصطفى الناصعة منذ المهد ، ويشير إلى نصر الله له في بدر ، وإلى معجزة الإسراء والمعراج ، فيقول:

لَوْ دَبَّ مِنْ نُورِهِ مِثْقَالُ خَرْدَلَةٍ فِي جُنْحٍ غَاسِقٍ هَذَا اللَّيْلِ مَا

أَكْرَمَ بِهِ مِنْ نَبِيِّ فِي الْمِهَادِ لَهُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْعَرْشِ الْمَجِيدِ

أَتَاهُ فِي يَوْمٍ بَدْرٍ مَا يُسَرُّ بِهِ وَنَالَ فِي لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ مَا طَلَبَا

أَسْرِي بِهِ فَدَنَا مِنْ رَبِّهِ وَجَنَى مِنْ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى فِي لَيْلِهِ

لقد أكرم الله رسوله (صلوات الله وسلامه عليه) بالإسراء والمعراج ، حيث مكن له ما لم يكن لأحد من رسله . وعلى الرغم من أنها حادثة معجزة تستثير المشاعر ، وتدعو إلى التأمل والتصوير الدقيق ؛ فإن الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين قد تناولوها تناولاً عابراً بأبيات قليلة يغلب عليها التقرير.

فالشاعر محمد بن أحمد النهروالي يتناول هذه المعجزة ، ويكتفي بالإشارة إلى منزلة المصطفى ع الرفيعة ؛ حيث علا أشرف مركب ، ورقى إلى أعز مكان ، واستبشر قلبه بهذا التمكين ، حيث يقول:

رَاقٍ إِلَى السَّبْعِ الطَّبَاقِ فَيَا لَهَا مِنْ رَفْعَةٍ بَلَغَتْ أَعَزَّ مَكَانٍ

وَعَلَا الْبُرَاقُ وَكَانَ أَشْرَفَ كَالْبَرْقِ يَخْفِقُ أَيَّامًا خَفَقَانَ

فَأَسْتَبَشَرَ الْقَلْبُ الشَّرِيفُ بِمَا مِنْ قُرْبِ مَنْزِلَةٍ وَمِنْ إِحْسَانِ

، ونشأ فيها ، فحفظ القرآن الكريم ، ودرس على علماء مكة الفقه ، والفرائض ، والحديث ، والأدب . كان هادئ الطبع ، ذا صوت حسن . توفي غريقاً في المسجد الحرام سنة 887هـ.

- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 1225/2-1227 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 194/10 ، 195 .

(1) الدر الكمين 1226/2 ، 1227 .

(2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 2/أ.

مَا كَذَّبَ الْقَلْبُ الْمُطَهَّرُ مَا رَأَى وَأَجَازَ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْعَيْنَانِ (1)

كما يتناولها الشاعر عبدالعزیز بن علی الزمزمي في إحدى مدائحه للرسول ع بنحو ذلك قائلاً:

سَرَى مِنَ الْمَسْجِدِ الْمَكِّيِّ لَيْلًا إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى عَلَى
وُعَادَ فِي لَيْلِهِ وَالرَّكْبُ يَقْطَعُ تَيْكَ الْمَسَافَةَ فِي شَهْرَيْنِ بِالْعَجَلِ
نَأَلْتُ مَعَالِيَهُ لَمَّا لِلسَّمَاءِ سَمًا شَأوًا مِنَ الْعِزِّ لَمْ يُدْرِكْ وَلَمْ يُنَلِ
لَقَدْ رَأَى الْآيَةَ الْكُبْرَى مُعَايِنَةً وَلَمْ يَزِغْ بَصَرًا عَنْهَا وَلَمْ يُهَلِ

(2)

وتحدث الشعراء عن بعض المعجزات الأخرى للرسول الكريم (عليه الصلاة والسلام) ، كما فعل عبدالعزیز بن علی الزمزمي في قصيدته الهمزية حين حث على السلام عليه وإجابة دعوته ، مشيراً إلى الصخر الذي سلم عليه والأشجار التي لبثت دعوته (3) ، وأكد أنه أفضل العالمين على الإطلاق ، حيث يقول:

قِفْ وَسَلِّمْ عَلَى الَّذِي سَلَّمَ رُ عَلَيْهِ وَخَلَّ عَنْكَ الْقَسَاءُ
وَأَجِبْ دَاعِيًا دَعَاكَ إِلَى مَنْ قَدْ أَجَابَ الْأَشْجَارُ مِنْهُ الدُّعَاءُ
أَفْضَلُ الْعَالَمِينَ فِي عَالَمِيهِمْ مُطْلَقًا لَا اشْتِرَاطًا وَاسْتِثْنَاءًا (4)

وهذه الأفضلية ؛ لأن الله اصطفاه وخصه دون غيره بمعجزات تؤكد نبوته ، وخصال لم تهباً لغيره ، منها : نزول القرآن الكريم عليه ، وحنين

(1) الفوائد السننية في الرحلة المدنية والرومية ، النهروالي ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س16 ، ج7 ، 8 ، محرم وصفر 1402هـ).

(2) ديوان الزمزمي ، ورقة 30/أ.

(3) قال ابن إسحاق : حدثني عبدالملك بن عبيد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي - وكان واعية - عن أهل العلم : أن رسول الله ع حين أراده الله بكرامته ، وابتدأه بالنبوة ، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ، ويقضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها ، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله . قال : فإلتفت رسول الله ع حوله وعن يمينه وشماله وخلفه ، فلا يرى إلا الشجر والحجارة ، فمكث كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ، ثم جاءه جبريل (عليه السلام) بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان.

- السيرة النبوية ، ابن هشام 234/1.

(4) ديوان الزمزمي ، ورقة 4/ب ؛ قصيدة همزية في مدح خير البرية (مخطوطة) رقمها في مكتبة جامعة الملك سعود (3114).

الجدع بين يديه . يقول الشاعر محمد بن أحمد النهروالي:
 وَقَدْ اصْطَفَاهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَحَبَاهُ مِنْهُ بِمُعْجَزِ الْقُرْآنِ
 لَا يَدْخُلُ التَّبْدِيلُ فِي آيَاتِهِ أَبَدًا وَلَا إِعْجَازُهُ بِإِلْفَانِي
 سَأَلْتُ قَرِيْشَ آيَةَ فَرَأَاهُمْ قَمَرَ السَّمَاءِ وَجُزْمَهُ نِصْفَانِ
 وَالْجَدْعُ حَنَّ إِلَيْهِ عِنْدَ فِرَاقِهِ شَوْقَ الْحَنِينِ الْوَالِهِ الْحِيرَانِ (1)

ويشير الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي في إحدى مدائحه
 للرسول ع إلى معجزة أخرى تتعلق بقتادة بن النعمان الأنصاري الذي رد
 الرسول عينه بيده الشريفة يوم أحد حين سقطت ، فكانت - بعد ذلك -
 أحسن عينيه (2) . يقول في ذلك:

مِنْهُ فَاضَتْ عَيْنٌ وَرُدَّتْ وَشِيكًا بَعْدَمَا شُوْهِدَتْ عَلَى الْخَدِّ تَجْرِي
 فَرَأَاهَا قَتَادَةَ خَيْرَ عَيْنِيْ - لِهُ وَشَادَتْ فَخْرًا لَهُ بَعْدَ أَجْرِ (3)

وعلى الرغم من أن الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع
 والعاشر الهجريين قد مدحوا الرسول ع مديعين خلاله الكريمة وما انفرد
 به من صفات حباه الله إياها دون سائر البشر - كما تبين فيما سبق -
 فإنهم لم يتوسعوا في ذلك كثيراً توسع شعراء المدائح المكثرين.

- 3 -

وقد يحيد الشاعر عن الصراط المستقيم ؛ لمعتقدده الصوفي ، أو
 لمسايرته أهل التصوف ، فيتوسل - شعراً - بجاه النبي الكريم (عليه

(1) الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية ، للنهروالي ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة
 العرب : س16 ، ج7 ، 8 ، محرم وصفر 1402هـ) .

(2) سبب سقوط عين قتادة أن رماة المشركين كانوا يقصدون النبي ع بالرمي ، وكان
 أصحابه يقف الواحد منهم بعد الواحد في وجهه (عليه الصلاة والسلام) يتلقى عنه
 الرمي يفديه بنفسه ، حتى قتل عشرة ، وكان قتادة الحادي عشر ، فلما استتم أمر الواقعة
 وقد سألت عينه ، قال له : إن لي زوجة وأنا ضنين بها ، محب لها ، وإنها تقدرني إذا
 رأته على هذه الحال ، وأنا ما فعلت ما فعلت إلا لأنال الشهادة ، أو كلاماً هذا معناه ؛
 فردها الرسول ع ، فكانت أضوأ عينيه وأحسنهما . وفي ذلك يقول ابنه وقد وفد على
 بعض خلفاء الأمويين ، فقال له : من أنت؟ فقال :

أَنَا ابْنُ الَّذِي سَأَلْتَ عَلَى الْخَدِّ فَرَدَّتْ بِكَفِّ الْمُصْطَفَى أَحْسَنَ

- شذرات الذهب ، ابن العماد 180/1 .

(3) ديوان الزمزمي ، ورقة 21/ب.

أفضل الصلاة والتسليم) معتقداً أن ذلك يرفع معاناته في دنياه ، ويجلب له النفع ، ويستغيث بالرسول ع في أي أمر يحزبه في حياته الدنيا ؛ وهذا مخالف لعقيدة الإسلام النقية التي جاء بها رسولنا الكريم وحثنا على السير على نهجها.

فالشاعر محمد النويري يغلو في مديحه للرسول ع فيناجيه في قصيدة يشكو إليه ما يلقاه من ضيق في حياته ، ويستغيث به ، ويلتجئ ، مقررأ أنه المعين في كل الأمور ، يقول منها:

إِلَيْكَ نَبِيَّ اللَّهِ أَرْفَعُ قِصَّتِي وَأَشْكُو الَّذِي أَلْقَاهُ فِي كُلِّ شِدَّةٍ

فَأَنْتَ غِيَاثِي يَا غِيَاثُ وَمَلْجَأِي وَأَنْتَ مَلَاذِي عِنْدَ شِدَّةِ كُرْبَتِي

وَأَنْتَ مُعِينِي فِي جَمِيعٍ وَأَنْتَ رَجَائِي يَوْمَ كَشَفِ

وَهَذِهِ أُمُورٌ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَصْرِفَهَا إِلَى الْبَارِي جَلَّ شَأْنُهُ (1) — فهو المعين ، وهو ملاذ العبد في كل أمر يحل به.

توسل شعراء المديح النبوي بالمصطفى ع للحصول على ما يبتغون على طريقة الصوفيين ، واعتقدوا أن دعاءه لتفريج الكربات وقضاء حاجات السائلين من باب تعظيمه . وعلى الرغم من أن التوسل والاستغاثة بغير الله من الشرك ، فإن أهل التصوف يرون خلاف ذلك ؛ معتمدين على أحاديث صحيحة عن النبي ع لم يفهموا مقصودها ، أو فهموا وأحالوها على غير وجهها الصحيح . قال شيخ الإسلام بن تيمية : "إن التوسل به [يعني النبي ع] حياً هو الطلب لدعائه وشفاعته ، وهو من جنس مسألته أن يدعو لهم ، وهذا مشروع ؛ فما زال المسلمون يسألون رسول الله ع في حياته أن يدعو لهم ، وأما بعد موته فلم يكن الصحابة يطلبون منه الدعاء" (2) .

وقال شيخ الإسلام (رحمه الله) في موضع آخر : "لم يقل أحد من

(1) الدر الكمين ، عمر بن فهد 206/1.

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية 326/1 . وللتوسع في هذه المسألة انظر : الصفحات 101-358 ؛ الصارم المنكي في الرد على السبكي ، أبو عبدالله المقدسي ، ص460-465 ؛ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، عبدالرحمن آل الشيخ ، ص128-140 ؛ معارج القبول بشرح سلم الوصول ، حافظ الحكمي 354/1-356 ، وللشيخ محمد ناصر الدين الألباني بحوث كتبها وألقاها عن التوسل أنواعه وأحكامه ، ألف بينها ونسقها محمد العباسي ونشرها في كتاب ذي حجم صغير.

علماء المسلمين : إنه يستغاث بشيء من المخلوقات في كل ما يستغاث فيه بالله تعالى ، لا بنبي ، ولا بملك ، ولا بصالح ، ولا غير ذلك ؛ بل هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز إطلاقه⁽¹⁾ . وعلى الرغم من ذلك كله ، نجد شعراً كثيراً على شاكلة قول الشاعر محمد المسوفي⁽²⁾ :

بجَاهِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى أَتَوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ فِيمَا أَبْتَغِي وَأَوْمَلُ
وَأَقْصِدُ بَابَ الْهَاشِمِيِّ مُحَمَّدٍ وَفِي كُلِّ حَاجَاتِي عَلَيْهِ أَعُولُ
حَلَلْتُ حِمِي مَنْ لَا يُضَامُ نَزِيلُهُ فَغَنَّهُ مَدَى مَا دُمْتُ لَا أَتَحَوَّلُ
إِذَا مَسَّنِي ضَيْمٌ أَنْوَّهُ بِاسْمِهِ فَيَدْفَعُ ذَاكَ الضَّيْمَ عَنِّي وَيَنْقَلُ⁽³⁾

والحقيقة أن الذي يدفع الضيم هو الله وحده ؛ فهو ملاذ العبد المؤمن الذي لا يخيب من قصده . ولا شك أن حب النبي ع من كمال الإيمان ، وأن له جاهاً ومنزلة عظيمة عند الله – سبحانه وتعالى – فهو أفضل الأنبياء والمرسلين ، نسخ الله بدينه كل دين ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، وقد نهاها عن إطرائه وإسباغه صفات لا تليق إلا لله - جل شأنه - كما ورد في الأبيات السابقة ، وكقول الشاعر نابت الزمزمي:
تَشْفَعُ يَا مُسَيِّءُ بِذِي الْمَعَالِي إِمَامِ الرُّسُلِ خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ
كَرِيمِ الْأَصْلِ طَهَ مَنْ أَتَاهُ يَرُومُ الْأَمْنَ حَلَّ عَنِ الشَّقَاءِ⁽⁴⁾

ويعبر الشاعر المدني أحمد الكازروني عن رغبته البقاء في المدينة حباً في رسول الله ع حباً جاوز الحد المشروع ، إذ يقول:
عَلَيَّ عُهْدٌ عَنْ دِيَارِكَ لَا وَلَوْ ضَاقَ فِيهَا الْعَيْشُ أَوْ طَاوَلَ
أَخْلُ عَلَى أَنِّي فِيهَا عَلَى خَيْرِ حَالَةٍ عَزِيزُ جَنَابٍ لَا يُزَاوِلُنِي الْبَسْطُ

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية 103/1.

(2) هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم المسوفي . ولد بالمدينة المنورة سنة 859 هـ ، ونشأ فيها ، وحفظ القرآن الكريم ، وعني بالنحو ، ارتحل إلى الشام وغيرها من البلاد ؛ ثم رجع إلى المدينة ومات بها سنة 885 هـ .

- انظر ترجمته في : الضوء اللامع ، السخاوي 115/9 .

(3) الضوء اللامع 115/9.

(4) المصدر نفسه 195/10.

أَبَى اللَّهُ أَنْ تَرْضَى سِوَاهَا فَتَنْقُلَ أَقْدَامِي إِلَى غَيْرِهَا الْوَخْطُ

أَزْحَلُ عَمَّنْ لَا يُضَامُ نَزِيلُهُ وَمَنْ لَا يُطِيقُ الْخُطْبُ فِي جَارِهِ

وقد يكون الخالق - جل شأنه - قد كتب الشفاء لعبده من علة أصابته ، ويتوافق ذلك مع توسله ؛ فيظن أن شفاءه كان بسبب ذلك التوسل ، كما حدث للشاعر عبدالعزیز بن علي الزمزمي في قصيدة توسل فيها برسول الله ع ، قال عن مناسبتها : "نظمت هذه القصيدة عام ثمانية وثلاثين وتسعمئة في طريق الروم ، بعد أن خلصت من نهر كدت حين سقطت فيه لا أقوم ، بل حصل لي برد شديد ، كاد أن يقطع حبل الوريد ، فلم أجد ملجأً أفزع إليه غير مدحي له ع ؛ فشرعت في نظم هذه القصيدة مع شغل البال ، فسكن والله عني ذلك البرد في الحال ، وما هي بأول بركته ، وما ذلك بعزیز على رأفته بالمؤمنين ورحمته ، فقلت في أول النظام مخاطباً له (عليه الصلاة والسلام):

يَا رَسُولَ اللَّهِ عَجَلْ بِالْفَرَجِ قَدْ تَوَالَى الْكَرْبُ وَأَنْشَدَ

تلك نماذج من التوسل الذي جرى عليه شعراء المدائح النبوية في مكة والمدينة في ذلك العصر ؛ تبين من خلالها مدى ما وصل إليه الشعراء من غلو في مديحهم للرسول ع حين توسلوا بجاهه للحصول على ما يبتغون ، معتقدين أن ذلك يرفع المعاناة ويجلب النفع. وقد اكتفيت بتلك النماذج من المدائح النبوية ؛ لأن الاستشهاد بها إنما كان لإيضاح صورة من الواقع الذي كان عليه هذا الفن.

- 4 -

وقد عمد الشعراء في مدائحهم النبوية إلى بث حنينهم إلى المدينة المنورة ، فرحلوا إليها بمطاياهم ، وذكروا معالمها وما حولها . وعلى الرغم من أن ذلك يدخل في باب الحنين ، فإن تناوله في المديح النبوي أقرب ؛ لأن الشاعر يحن إلى مدينة المصطفى ع لا بوصفها بلداً عاش فيه ، أو تاق إليه ، بل لأنها الأرض التي درج على تراها خير الخلق . يذيع ذلك الشاعر أحمد العليف في مستهل قصيدة مدح بها النبي ع ، إذ

(1) الجواهر الثمينة في محاسن المدينة ، كبريت 190/1 ، 191.

(2) ديوان الزمزمي ، ورقة 14/ب.

يقول:

إِيَّكَ اشْتِيَاقِي لَا إِلَى الرَّبْعِ وَفِيكَ غَرَامِي لَا لِسُغْدِي وَلَا لُبْنَى
وَمَا الْحَيُّ لَوْلَا أَنْتَ إِلَّا تَعْلَةٌ وَمَا الرَّبْعُ إِلَّا مُوَحِّشُ الْأَنْسِ
سَلَامٌ عَلَى وَادِي الْمُحَصَّبِ وَعَهْدُ الْغَوَانِي وَالْمَعَاهِدِ وَالْمَعْنَى
وَلَوْلَاكَ مَا حَنَنْتُ رِكَابِي إِلَى وَلَا حَمَلْتُ رَحْلِي عَذَابِرَةً وَجَنَى⁽¹⁾
ويشير إلى بعض المواضع المتصلة بالمدينة ، ويؤكد عشقه لتلك
المنازل التي تعطرت أجواؤها بأنفاسه الطاهرة ، فيقول:
وَلِي نَحْوُ سَلْعٍ وَالْعَقِيقِ وَرَامَةٍ غَرَامٌ إِلَى تِلْكَ الْمَنَازِلِ لَا يَفْنَى
أَعْلَلُ نَفْسِي بِالْأَمَانِي وَيَنْقُضِي زَمَانِي وَدُونَ الْوَصْلِ مَا يُسْهَرُ
إِلَى مَا يَبِيدُ الشَّوْقُ وَالْوَجْدُ غَرَامٌ يُثِيرُ الْوَجْدَ وَالْهَمَّ وَالْحُزْنَ
أُحِنُّ إِلَى تِلْكَ الْمَعَاهِدِ وَالرَّبَا حَنِينَ أَمْرِي يُذَكِّي الْغَرَامَ إِذَا أَنَا
وَأَشْتَاقُ أَرْضاً حَلَّ فِيهَا مُحَمَّدٌ شَفِيعُ الْوَرَى مَنْ جُودُهُ يُخْجَلُ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَى ذَلِكَ وَأُنْظُرُ ذَاكَ الْحَيِّ وَالْحَرَمِ
وَتَنْظُرُ أَنْوَارَ (النُّبُوءَةِ)⁽²⁾ عَيْنَانَا بِتِلْكَ الدَّارِ وَالرَّوْضَةِ الْغَنَّا
وَأَدْخُلُ مِنْ بَابِ السَّلَامِ مُسَلِّماً بِحَيْثُ سَلَامِي يَقْرَعُ السَّمْعُ⁽³⁾
لقد أحب أولئك الشعراء رسول الله ع فأحبوا دياره ، واشتاقوا إلى
تلك البقاع التي تعطرت بخير من وطئ الثرى ، وشاركهم مطاياهم في
ذلك الشوق ، فاعترتها قوة تدفعها قدماً إلى مدينة الرسول ع ؛ يتضح ذلك
في قصيدة للشاعر عبدالرحمن باكثير مدح بها الرسول ع ، بدأها بقوله:
خَلَّ الْمَطِيَّ بِسُرْعَةِ الْإِدْلَاجِ تَفَرِّي أَدِيمَ مَفَاوِزٍ وَفِجَاجِ⁽⁴⁾
ثم صور سرعة مطيه ، مبيناً أنها تشاركه الشوق إلى دار الهجرة ؛

(1) ديوان أحمد العليف ، ورقة 6/ب.

(2) في المصدر (النبي) والمثبت عن إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 371/1 ؛
والمختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 108.

(3) ديوان أحمد العليف ، ورقة 7/أ.

(4) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 3/أ.

حيث الشريعة قد تفجر نهرها العذب ، يبل الصدى ، ويحيي القلوب ، يقول فيها:

وَأَنْظُرْ إِلَيْهَا تَرْتَمِي قَدْ سَاقَهَا	مَا شَاقَهَا مِنْ غَيْرِ مَا إِزْعَاجِ
وَقَدْ اعْتَرَتْهَا عِرَّةٌ وَأَمَالَهَا	شَادِي الْحُدَاةِ بِطَيْبِ الْأَهْرَاجِ
وَلَقَدْ شَجَّاهَا مَا شَجَّانِي مَذْ عَدَا	بَلَدُ الرَّسُولِ مَعَاجَهَا وَمَعَاجِي
حَيْثُ الشَّرِيعَةُ قَدْ تَفَجَّرَ نَهْرُهَا	وَأَنْهَلَ وَابِلُ مَائِهَا الثَّجَّاجِ
حَيْثُ النَّبُوءَةُ قَدْ تَفَرَّعَ دَوْحُهَا	وَأَمْتَدَّ وَارِفُ ظِلِّهَا الْمَجَّاجِ
حَيْثُ الرِّسَالَةُ كَانَ مَطْلِعُ	وَضُحُورَ بَذْرِ سَحَابِهَا الْوَهَّاجِ
فِيهَا نَشَأَ الْإِسْلَامُ وَاتَّضَحَ	وَعَدَا جَبِينُ الْحَقِّ فِي إِبْلَاجِ
بِالْمُصْطَفَى تَاهَتْ عَلَى أَفْقِ	وَسَمَتْ عَلَى الْأَفْلَاقِ وَالْأَبْرَاجِ ⁽¹⁾

ومن الشعراء من يسهب في ذكر المنازل في رحلته إلى المدينة ، كما فعل محمد ابن أحمد النهروالي في قصيدة مدح بها الرسول ع وذكر فيها المنازل من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، أشار فيها إلى النسمات الزكية المنبعثة من طيبة الطيبة ، واصفاً مشاعر البهجة التي عمت الركب ، تلك القصيدة التي استهلها بقوله:

هَبَّ النَّسِيمُ عَلَى غُصُونِ الْبَانِ	سَحَرًا فَأَذْكَى (لَا عِجَاباً
أَهْدَى لَنَا مِنْ طِيبِ طَيْبَةِ نَفْحَةٍ	أَشْأَبُ ⁽²⁾ وَطَابَ بِهَا فَوَادُ الْعَانِي
فَتَرَحَّلَ الْعُشَّاقُ فِي أَمَلٍ إِلَى	نَحْوِ الْحَبِيبِ سَعَوْا عَلَى
	الْبُحْبُوحِ ⁽³⁾

وانتهى الشاعر من ذلك إلى الحديث عن خير البرية قائلاً:

رَبْعٌ تَضَمَّنَ كُلَّ خَيْرٍ دَائِمٍ	بِنَبِيِّنَا الْمَبْعُوثِ مِنْ عَدْنَانِ
خَيْرِ الْبَرِيَّةِ سَيِّدِ الرُّسُلِ الَّذِي	لَمْ يَخْتَلَفْ فِي ذَلِكَ الثَّقَلَانِ

(1) المصدر نفسه ، ورقة 3/أ.

(2) في الأصل : لَا عِجَابَ شَجَّانِ.

(3) الفوائد السنوية في الرحلة المدنية والرومية ، للنهروالي ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س16 ، ج7 ، 8 ، محرم وصفر 1402هـ).

... هُوَ أَحْمَدُ وَمُحَمَّدٌ وَالْمُصْطَفَى وَمُبَشِّرٌ هَادٍ إِلَى الْإِيمَانِ (1)

ومدح الشاعر معمر بن عبد القوي النبي ع بقصيدة بدأها بذكر ما بدا له من معالم المدينة حين أقبل عليها ، حامداً الله الذي أجاب دعاءه ؛ فبلغه تلك البقاع ، يقول فيها:

الْحَمْدُ لِلَّهِ هَذَا الْقَصْدُ وَالْأَرْبُ	هَذَا الْمُنَى وَالْغِنَى وَالسُّؤْلُ
هَذِي زُرُودٌ وَذَا سَلْعٌ وَذَا أَحَدٌ	وَذَا الْعَقِيقُ وَذَا الزُّورَاءُ
وَذَاكَ وَادِي النَّقَا لَاحَتْ مَعَالِمُهُ	وَذَا الْمُصَلَّى وَذَا الْأَطْلَالُ
وَذَا قِبَابُ قَبَا بِالنُّورِ قَدْ	لَنَاظِرِيهَا وَزَالَ الْحَجَبُ

ويخلص من مشاهداته إلى مدح النبي ع لكنه يغلو مغالاة الصوفية - التي لا تقرها الشريعة الإسلامية - في قولهم : إنه (عليه السلام) أصل الوجود ، إذ يقول:

وَذَا ضَرِيحُ الَّذِي لَوْلَاهُ مَا	إِنْسٌ وَجَنٌّ وَلَا عَجَمٌ وَلَا عَرَبٌ
فَأَسْتَبْشِرِي فَرَحاً يَا نَفْسُ	صَدْرًا فَعِنْدَ حِمَاهُ تَجَلِّي

يتلو ذلك أبيات يخاطب بها النبي ع لاجئاً إليه لتكفير ذنوبه وهدايته (4)

وهذا - كما أوضحنا - شرك بين ؛ إذ يصرف الشاعر تضرعه إلى النبي ع كشأن الشعراء الذين سلف الحديث عنهم. بل إن من الشعراء من يغلو في حبه للرسول ع فيتمنى العودة إلى دياره لتقبيل مثنواه ولثم تربته ، كابن دليم القرشي (5) في قوله:

- (1) المصدر نفسه.
- (2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1206/2.
- (3) المصدر نفسه 1206/2.
- (4) انظر : المصدر السابق 1206/2.
- (5) هو أحمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن عبد الكريم بن يوسف القرشي ، الشهير بالشهاب دليم . كان تاجراً ، خيراً ، كريماً . قدم من البصرة إلى مكة ، ففطنها ، وصاهر أهلها ، وانتظم في سلك شعرائها ؛ إذ أكثر من إنشاد الشعر في مكة ، ومنه مدائح في الرسول ع . توفي في مكة سنة 856 هـ .

- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 433/1 ، 434 ؛ 887/2 ، 888 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 223/1 .

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَى لِي إِلَى الْمُصْطَفَى فَهُوَ الْبَشِيرُ
أَقْبَلُ مَثْوَاهُ وَاللَّيْمُ تُرْبُهُ وَأَشْكُرُ رَبِّي عِنْدَ ذَاكَ وَأَحْمَدُ (1)

وذلك مخالف للعقيدة السليمة . وحب الرسول ع الحق إنما هو في اتباع سنته واتخاذ سيرته منهجاً ، كما فعل الشاعر أبو عبدالله الفيومي ، حيث ازداد شوقه إلى طيبة وحن إليها ؛ لأنها بلد المصطفى ع ، فإذا بعد بجسمه عنها ، ظل يطالع تاريخ أشرف الخلق ، متخذاً منه نهجاً ينير له الطريق ، إذ يقول:

إِنِّي إِذَا نَزَحْتُ دِيَارَ الْمُصْطَفَى وَازْدَادَ شَوْقِي نَحْوَهَا وَحَنِّي
طَلَعْتُ فِي تَارِيخِهِ السَّامِي أَمْشِي عَلَى آثَارِهِ بَغْيُونِي (2)

تلك أبرز الأفكار التي تناولها شعراء مكة والمدينة الذين مدحوا الرسول ع ، تبين من خلالها عمق محبتهم له (عليه الصلاة والسلام) ، وغلوهم في ذلك ؛ حيث توسلوا بالرسول الكريم (عليه الصلاة والسلام) واستغاثوا به ، حتى أصبح الغلو في مديحه ظاهرة لدى الشعراء في ذلك العصر ؛ ظناً منهم أن ذلك من باب تعظيمه . واتضح أن شعراء مكة والمدينة في ذلك العصر لم يولوا البديعيات عنايتهم ، وأنهم مدحوا الرسول ع وأطنبوا في فضائله . وكانت قصائدهم تتراوح بين التقرير والتصوير ، وإن كانت التقريرية هي السمة الغالبة ؛ حيث وضح مما سبق أن الشعراء قد حرصوا على تعداد ما عرفوا من مناقب الرسول الكريم ، وبثها في سياق مدائحهم بأسلوب أقرب ما يكون إلى الرصد التاريخي.

ب- الإلهيات:

المراد بالإلهيات هنا "ذلك الشعر الذي اتجه به شعراؤه إلى الله – عز وجل – معبرين به عن مشاعر صادقة تجاه الخالق" (3) . والناظر في نتاج شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ يجد أنهم قد اتجهوا إلى الخالق – جل شأنه – يناجونه

- (1) الدر الكمين ، عمر بن فهد 433/1 ، والضوء اللامع ، السخاوي 223/1 .
- (2) رحلة الشتاء والصيف ، كبريت ص15 ، وفي الجواهر الثمينة ، كبريت 330/1 : طالعت في تاريخها .
- (3) الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري ، الردادى 185/1 .

بمشاعرهم الصادقة ، لاجئين إليه ، راجين منه العون والتفريج عن القلوب ، مسبحين ومهللين ، معتصمين بحبله المتين مما يواجههم من محن في حياتهم . يقول الشاعر إبراهيم الخجندي :

يا رَبِّ أَنْتَ غِيَاثُ الْمُسْتَجِيرِ بِهِ أَنْتَ الدَّلِيلُ لِمَنْ تَاهَ الطَّرِيقُ بِهِ
يا مُنْقِذَ الْمُبْتَلَى اللَّهْفَانِ مِنْ يا عَالِماً سِرِّ قَلْبِي فِي تَقَلُّبِهِ
يا مُنْجِيَ الْهَالِكِ اللَّهْفَانِ مِنْ يا فَالِقَ الصُّبْحِ مِنْ دَيَجُورِ
عَجَلْ بِحَقِّكَ يَا مَوْلَايَ مُلْتَمِسِي وَأَنْظُرْ إِلَى غَافِلٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِ

(1) ويفوض الشعراء أمورهم إلى الله حين تضيق صدورهم وتزداد همومهم ، واثقين بتدبيره . من ذلك قول الشاعر محمد بن أحمد الخجندي :

إِذَا ضَاقَ صَدْرِي أَوْ تَبَلَّدَ وَأَصْبَحَ فِكْرِي بِالْهُمُومِ يُوزَعُ
أَفْوَضُ أَمْرِي كُلَّهُ لِمُدَبِّرِي وَأَسْلَمُهُ نَفْسِي فَمَا شَاءَ يَصْنَعُ

(2) وقد يجأرون بالشكوى إلى البارئ - جلَّتْ قدرته - حينما تضيق بهم سبل الحياة ، يبتهلون إليه طمعاً في كشف الضر عنهم ؛ مؤمنين بلطفه بعباده وقدرته على إقالة العثرة وتحقيق ما يرجونه . ومن الشعراء الذين رفعوا شكواهم إلى خالقهم عبدالمعطي باكثير ، إذ ضاقت حيلته حين ضاقت معيشتة ؛ فبث همه إلى الله قائلاً:

ضَاقَ ذُرْعِي مِمَّا أَلَاقِي إِلَهِي وَإِلَيْكَ الشَّكْوَى مِنَ الْأَوَاءِ
يا عَلِيماً بما يُجَنُّ فَوَادِي يا رَجَائِي فِي شِدَّتِي وَرَخَائِي
يا بَدِيعَ السَّمَاءِ يا مَالِكَ الْمُلْدِ كِ وَيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِلَاءِ
يا لَطِيفاً بِخَلْقِهِ وَرَحِيماً بِالْبَرَائِيَا يا سَابِغَ النِّعْمَاءِ
لَكَ مُلْكُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قِي لَكَ الْأَمْرُ يا سَمِيعَ الدُّعَاءِ
فَأَقِلْ عَثْرَتِي إِلَهِي وَيَسِّرْ كُلَّ عُسْرٍ يا أَرْحَمَ الرَّحْمَاءِ

(1) التحفة اللطيفة ، السخاوي 107/1.

(2) المصدر السابق 471/3.

وَأُنَلِّئِي مَا أُرْتَجِيهِ وَوَسِّعْ لِي رِزْقِي بِرَاحَةٍ وَهَنَاءٍ (1)

ويناجي باكثر ربه - في قصيدة أخرى - مدفوعاً بإحساس ذاتي عميق ، إذ يقول:

يَا رَبِّ يَا مَنْ عَلَيْهِ [الْيَوْمَ] وَمَنْ عَلَى فَضْلِهِ الْعَمِيمِ
ثُمَّ يصرح بطلب حاجته قائلاً:

فَامُنَّنِ الْهَيَّ فِي سَمْعِي وَفِي بَصِيحَةٍ دَائِماً [كَذَاكَ] فِي (3)

وإذا كنا نجد من يصرح بطلب حاجاته الدنيوية كالشاعر عبدالمعطي باكثر وغيره من الشعراء ، فإن ثمة شعراء أعرضوا عن حوائج الدنيا ، لاجئين إلى الله - سبحانه وتعالى - للعفو عن الزلل ، وتكفير الذنوب ، مقرين بالتقصير ، راجين رحمته ، خائفين عذابه ، على نحو قول الشاعر معمر بن عبدالقوي :

يَا رَبِّ إِنِّي بِالتَّقْصِيرِ مُعْتَرِفٌ وَمِنْ ذُنُوبِي فِي خَوْفٍ وَفِي وَجَلٍ
وَكُلَّمَا قُلْتُ عَلَيَّ أَنْ أَفِيءَ إِلَى مَا أَنْظَرُ النَّفْسَ إِلَّا وَهْيٌ
وَلَيْسَ لِي عَمَلٌ أَرْجُو النَّجَاةَ بِهِ إِلَّا رَجَاؤُكَ يَا مَنْ جُودُهُ أَمْلِي
وَقَدْ سَأَلْتُكَ يَا وَهَّابُ مَغْفِرَةً تَمْحُو بِهَا كُلَّ مَا أَسْلَفْتُ مِنْ زَلَلٍ
وَتَوْبَةٍ لَيْسَ فِيهَا مَا يُكَدِّرُهَا تَجْلُو بِهَا الْحَالَ مِنْ قَبْلِ
أَنْتَ الْكَرِيمُ الَّذِي يُرْجَى وَهَلْ سِوَاكَ يَا رَبِّ أَدْعُوهُ فَيَغْفِرُ لِي (5)

الواضح من خلال تلك الابتهالات أنها صادرة من أفئدة صادقة وثيقة الصلة بالله ، تفزع إليه لحظة العسرة ؛ راجية الطمأنينة والراحة . وثمة أمور كثيرة ألجأت الشعراء إلى الله - كما ألجأت غيرهم - كالحيرة ، وكثرة الذنوب ، وضنك العيش ، وغيرها من مطالب النفس التي وجدت

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص480.

(2) المصدر نفسه ، ص480 . وقد أضفت لفظة (اليوم) في صدر البيت ؛ ليستقيم الوزن.

(3) المصدر نفسه ، ص480 . وقد استبدلت (كذلك) في عجز البيت بالواو ؛ ليستقيم الوزن.

(4) في المصدر : انقضاء .

(5) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1207/2 .

السبل قد أوصدت أمامها إلا السبيل المؤدية إلى الله ، حيث تجده مخرج الأبواب كل لحظة . ولا يعني ذلك أن تلك الابتهاالات لا تصدر إلا من الظالمي أنفسهم ؛ فالمؤمن العامل بأوامر ربه يخشاه ، ويدعوه حسن الختام والتوفيق في كل الأمور.

وقد بث الشعراء شكواهم بأسلوب واضح أقرب إلى المباشرة ، اتكؤوا فيه على التكرار ؛ لإفراغ الشحنة الانفعالية التي كانت تنتابهم في مواقف القلق والحيرة . و(يا) الندائية تتكرر بطريقة عفوية ؛ لصلتها القوية بالمقام.

ج- الموعظة والزهد:

أصدر الشعراء موعظهم وزهدياتهم إثر تجارب وجدانية صادقة تفاعلت بها نفوسهم . وإذا جاءت الموعظة من شاعر عالم تحقق لها التأثير في القلوب ؛ لثقة المتلقي بسلامة القصد ونبل الهدف.

والشعراء يهدفون في موعظهم إلى حمل الناس على الحق ، وتوجيههم إلى الخير والإحسان ، ونهيهم عن ظلم النفس ، والفحشاء ، والمنكر ، والصراع على حطام الدنيا الزائل . وإسهام الشعراء في الدعوة إلى الخير والتحذير من سبل الشر توظيف طيب للشعر.

ومن الخير الذي جدّ الشعراء في حث الناس عليه الالتزام بالمقتضى الإسلامي في الخلق والسلوك ، والابتعاد عما يسيء إلى المسلم ، فالنميمة — مثلاً — خصلة سيئة نهى الإسلام عنها ؛ لما لها من أثر في إشاعة الشحناء واحتدام العداء بين أبناء المجتمع . وقد أدرك الشاعر محمد بن عبد القوي هذا الخطر فراح يذكر الغافلين بأبيات يقول فيها:

يَا غَافِلًا عَنِ نَفْسِهِ أَخَذْتُكَ أَلْسِنَةَ الْوَرَى

السَّهْلُ أَهْوَنُ مَسْلَكًا فَدَعِ الطَّرِيقَ الْأَوْعَرَ

وَعَلِمَ بِأَنَّكَ مَا تَقُولُ فِي النَّاسِ قَالُوا أَكْثَرًا (1)

ثم إن التسامح ، واغتنام الثواب الذي وعد الله به عباده في قوله -جل شأنه- : [فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ] (2) من الخصال الحسنة التي دعا إليها الشعراء ، ولاسيما حين نجاهم ينهون عن مقابلة الإساءة بمثاتها

(1) الضوء اللامع ، السخاوي 73/8.

(2) من الآية (40) من سورة الشورى.

، مشيرين إلى أن المسيء سيتعلم من حوادث الأيام ، هذا ما نجده يتجلى بوضوح في قول ابن عبدالقوي ناصحاً:

مَتَى مَا امْرُؤٌ نَالَكَ مِنْهُ إِسَاءَةٌ فَسَامِحْهُ عَنْهَا وَاعْتِنِ مِنْ ثَوَابِهِ

وَكَئِلَهُ إِلَى صَرْفِ اللَّيَالِي فَإِنَّهَا سَتُبْدِي لَهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِي

كما اتجه بعض الشعراء إلى الحث على الصبر على المكاره في وعظهم ، وإلى تفويض الأمور كلها لله ، مؤكدين أن من توكل عليه جعل له من كل هم فرجا ، نلمس ذلك في قول محمد بن أبي السعود بن ظهيرة:

أَلْقِ الْمَفَاتِيحَ عِنْدَ الْبَابِ مِنْ الْإِلَهِ مَفَاتِيحاً تَلِي فَرْجاً

وَاسْتَعْمِلِ الصَّبْرَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ صَبْرَتَ فِي الضِّيقِ تَلْقَ بَعْدَهُ

وكذلك في قول محمد بن أحمد النهر والي:

فَوُضَّ إِلَى اللَّهِ الْأُمُورَ مُسَلِّماً فَالْعَبْدُ أَحْسَنُ حَالِهِ التَّسْلِيمِ (3)

وأحاسيس الشاعر المسلم ترفض القسوة في المعاملة ، وتقوده إلى بث النصيح ، والدعوة إلى الرأفة بالمستضعفين ، والتذكير بأن الجزاء من الله بمثل العمل ، فالراحمون يرحمهم الله ؛ ولذلك يقول النجم أبو المعالي (محمد بن يعقوب) :

إِنْ كُنْتَ تَرْجُو مِنَ الرَّحْمَنِ فَارْحَمْ ضِعَافَ الْوَرَى يَا صَاح

وَأَقْصِدْ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ خَالِقِنَا سُبْحَانَهُ مِنْ إِلَهٍ قَدْ بَرَى النَّسَمَا

وَاطْلُبْ جَزَا ذَاكَ مِنْ مَوْلَاكَ فَإِنَّهُ يَرْحَمُ الرَّحِمْنَ مَنْ رَحِمَا (4)

كما أن الدعوة إلى المبادرة إلى فعل الخير ، ورحمة المحتاجين ، وشكر الله على ما أنعم ؛ من أبرز ما عني الشعراء بالتعبير عنه في هذا الغرض من شعرهم ، يبدو ذلك في قول ابن الشوائطي المقرئ (5) حاثاً

(1) التبر المسبوك ، السخاوي ، ص 250.

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 384/1 ؛ والضوء اللامع ، السخاوي 280/9.

(3) الفوائد السنوية في الرحلة المدنية الرومية ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س 16 ، ج 7 ، 8 ، محرم وصفر 1402هـ) .

(4) التحفة اللطيفة ، السخاوي 660/3 ، 661 ؛ والضوء اللامع ، السخاوي 137/8.

(5) هو علي بن أحمد بن علي بن عمر بن أحمد بن أبي بكر بن سالم ، المعروف بابن الشوائطي المقرئ . ولد في مكة سنة 820هـ ، ونشأ بها ، حيث حفظ القرآن الكريم

على المبادرة إلى الخير ، وشكر المنعم:

بَادِرْ إِلَى الْخَيْرِ يَا ذَا اللَّبِّ وَاشْكُرْ لِرَبِّكَ مَا أَوْلَى مِنَ الْمِنَّةِ
وَأَرْحَمَ بِقَلْبِكَ خَلَقَ اللَّهُ كُلَّهُمْ يُبْلِكُ رَحْمَتَهُ فِي الْمَوْقِفِ⁽¹⁾

كما يبدو في قول عبدالمعطي باكثر الذي حرص فيه على الدعوة إلى تفريج هم المهمومين ، مؤكداً أن الخير كامن في تفريج هم المسلم حيثما كان:

فَرَجَ هُمومَ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْ مُنْجِدٍ أَوْ مُتِّهِمٍ
فَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ فِي تَفْرِيجِ هَمِّ الْمُسْلِمِ⁽²⁾

لقد تضافرت جهود الشعراء للترغيب في الخير ، مستمدين رؤيتهم من معين الإسلام الصافي ؛ يرشدون قومهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، تتأجج عواطفهم الإسلامية ؛ لإيقاظ الغافلين وتنبيه السادرين ، على نحو قول الشاعر محمد بن أحمد النهر والي:

يَا أَيُّهَا الْغَافِلُ فِي نَوْمِهِ قُمْ لِتَرَى لُطْفَ الْكَرِيمِ الْجَوَادِ
مَوْلَاكَ يَدْعُوكَ إِلَى بَابِهِ وَأَنْتَ فِي النَّوْمِ شَبِيهُ الْجَمَادِ
وَيَبْسُطُ الْكَفَّيْنِ هَلْ تَائِبٍ مِنْ ذَنْبِهِ هَلْ مِنْ لَهُ مِنْ مُرَادٍ
وَأَنْتَ مِنْ جَنْبٍ إِلَى جَانِبٍ تَدُورُ فِي الْفُرْشِ لِلَّيْنِ الْمِهَادِ
يَدْعُوكَ مَوْلَاكَ إِلَى قُرْبِهِ وَأَنْتَ تَخْتَارُ الْجَفَا وَالْبِعَادِ
كَمْ هَكَذَا التَّسْوِيفُ فِي غَفْلَةٍ لَيْسَ عَلَى الْعُمْرِ الْعَزِيزِ اعْتِمَادِ
لَقَدْ مَضَى لَيْلُ الصَّبَا مُسْرِعاً وَشَقَّ صُبْحُ الشَّيْبِ فَوْدَ الْفَوَادِ

وكثيراً من المتون ، وتتلذذ على والده ، كما أخذ العلم عن علماء مكة والقادمين إليها ، إذ درس الحديث والفقه والنحو ، وأجيز للإقراء . توفي في مكة في المحرم من سنة 900هـ .

- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 985/2-988 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 174/5 .

(1) الضوء اللامع ، السخاوي 174/5 .

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص481 . وجاء التاء الثانية في (استطعت) زيادة على عروض البيت الأول ؛ لأن عروض الكامل المجزوء لا تأتي إلا صحيحة.

أَفِيقْ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَحْمَتُهُ عَمَّتْ جَمِيعَ الْعِبَادِ (1)

هذا الشاعر الذي وجدناه يكرر هذه المعاني في قصيدة أخرى ، داعياً إلى اغتنام الوقت ولو ساعة من ليل ينجي فيها العبد مولاه - عز وجل - محذراً من الغفلة ، مذكراً بأن العمر يمضي والمرء لا يدري عن سرعة انقضائه ، إذ يقول:

أَفِيقْ مِنَ النَّوْمِ وَلَوْ سَاعَةً وَنَاجِ مَوْلَاكَ الَّذِي لَا يَنَامُ

إِلَى مَتَى تَزْتَعُ فِي عَقْلَةٍ وَالْعُمْرُ يَمْضِي مِنْكَ مِثْلُ

ونادى الشعراء - في خضم مواعظهم وحثهم على الزهد في الدنيا - إلى التفكير في أحوال السابقين من الملوك والقادة الذين سادوا ونعموا حين أقبلت الدنيا عليهم ، وغرتهم بنعيمها الزائل ، لكنهم ما لبثوا أن لحقوا بمن سبقهم ؛ حيث وردوا حياض المنية التي تفرق شمل الأنس بعد اجتماعه ، يقول الشاعر أحمد العليف:

تَفَرَّقُ شَمْلُ الْأَنْسِ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِ وَتَنْثَرُ عِقْدَ الدَّرِّ عَزَّ عَنِ النَّثْرِ

فَأَيْنَ الْمُلُوكُ الْغُلْبُ وَالْقَادَةُ الْأَلَى بَنَوْا مَجْدَهُمْ بَيْنَ السِّمَاكَيْنِ

وَأَيْنَ الْأَلَى سَادُوا الْمَمَالِكِ وَشَدُّوا عُرَاهَا بِالْمُتَّقَةِ السُّمْرِ

وَأَيْنَ بَنَوْ (أَمْ) (3) الْمَكَارِمِ وَأَيْنَ دَوُّو التَّيْجَانَ كَالْأَنْجُمِ

مَضَوْا (فَكَانَ) (4) الْعَيْشَ لَمْ يَخُلْ وَأَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوهُ مِنْ

لقد اتخذ الشعراء من التذكير بالموت وزوال النعيم الدنيوي وسيلة للتأثير في القلوب ، وكفى بالموت واعظاً ؛ يقول الشاعر أبو بكر بن الجمال (6) :

(1) الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س16 ج7 ، 8 ، محرم وصفر 1402هـ).

(2) المصدر نفسه.

(3) في إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 375/1 : بنو تلك.

(4) في الأصل : فكان.

(5) ديوان أحمد العليف ، ورقة 8/ب.

(6) هو أبوبكر بن محمد بن أبي بكر بن علي بن يوسف ، الذرّوي الأصل ، ويعرف بابن الجمال المصري ، ولد بمكة ، وبها نشأ ، ثم رحل إلى اليمن ودرس هناك الفقه والنحو وغيرهما ، كما أنه أخذ بمكة عن جمع من العلماء من أهلها والقادمين إليها . توفي في

لَقَدْ كَفَّاكَ بِذِكْرِ الْمَوْتِ مَوْعِظَةً إِنْ كَانَ فِي الْعِظَةِ التَّعْدِيلُ عَنْ

وقد يتجه الشاعر إلى التفكير في رحلة الحياة وما شهد فيها من مد وجزر ، يتأمل أيام الكفاح في سبيل الحياة ، وأيام الأنس التي ولّت ؛ فينشئ أبياتاً يُذكر فيها بتقلب الأحوال وبالسبيل الذي سيسلكه كل حي ، كقول أبي عبدالله الفيومي على لسان الموتى:

تَأْمَلْ مَا الَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ بِأَيَّامِ الْحَيَاةِ وَمَا بَقَيْنَا

وَقُلْ لِمَا تَمَرُّ بِنَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (2)

يتضح مما دار على ألسنة أولئك الشعراء أنهم لم يكونوا في وعظهم وزهدهم كأبي العتاهية الذي وقف من الناس موقف الواعظ الذي يسلط عليهم زجره ، ووعيده ، ويهددهم بالموت والعذاب ؛ لأنهم لم ينظروا إلى الحياة نظرة أبي العتاهية التي ترى أنها شرٌّ كلها ، بل نظروا إليها نظرة متفائلة تدعو إلى اغتنام الباقيات الصالحات بإحياء الليل ، وإشاعة التسامح ، والرافة بالمستضعفين ، وتفريج هم المهمومين . وعلى الرغم من أنهم كانوا في وعظهم وزهدهم يهونون من شأن الدنيا ويذكرون بالدار الآخرة ؛ فإنهم لم ينادوا إلى العيش في صوامع واعتزال الناس ؛ لأنهم لا ينكرون على المسلم أن يسعى في مناكب الأرض ، بل يرفضون أن يكون في سعيه قد عكر صفو دينه بأي شائبة مهما كان قدرها . والناظر في سيرة أولئك الشعراء يجد أن منهم العالم وطالب العلم الذي عاش حياته ولسانه رطب بذكر الله ، ينصح قومه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وذلك أدعى للقبول .

وحرص أولئك الشعراء على التوصيل السريع دفعهم إلى الميل إلى لغة التخاطب المألوفة السهلة ، وتلك سمة القصائد الوعظية عامة . وكان من الطبيعي أن يشيع أسلوب الإنشاء الطلبي في هذا الغرض ؛ لأنه قائم على التذكير والدعوة بما فيها من أمر ونهي .

د- التصوف:

=
مكة في ذي القعدة من سنة 816هـ ، وقد بلغ الأربعين أو قاربها .

- انظر ترجمته في : الضوء اللامع ، السخاوي 74/11 .

(1) الضوء اللامع ، السخاوي 74/11 .

(2) الجواهر الثمينة ، كبريت 528/2 .

للتصوف تعريفات كثيرة (1) وهو كما يراه أصحابه "السير في طريق الزهد ، والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها ، وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر في صلاة أو تلاوة أوراد ، حتى يضعف في الإنسان الجانب الجسدي ، ويقوى فيه الجانب النفسي أو الروحي" (2) .

والله - سبحانه وتعالى - رؤوف بعباده ، أحل لهم الطيبات ، وأمرهم بعبادته وترك معصيته بلا إفراط أو تفريط . وقد حاد المتصوفون عن النهج المستقيم حين "خلطوا بالدين الإسلامي ما ليس منه في جانب العبادة والمعرفة ، وأصبحت معرفة الصوفية في عمومها معرفة فلسفية أو إشراقية لا معرفة دينية ترجع في كشفها إلى محض التمسك بالكتاب والسنة" (3) .

فمما زعمه الصوفيون أن الله - عز وجل - عن مزاعمهم - يحل في الذات البشرية ، وأنها تتحد مع الذات الإلهية ، فاعتقدوا بوحدة الوجود (4) وانطلقوا في إبداعهم الأدبي من هذا المعتقد . "والأدب الصوفي مجراه الشعر في الأكثر والنثر في الأقل ، وهو في صورته الشعرية والنثرية فن وجداني خالص ، حتى في الفصول التي تبحث في التصوف [بوصفه] طريقة تعبدية ، إذ إن هذه الفصول تكتب عادة تحت تأثير العنصر الشخصي ، وليست نتيجة بحث موضوعي مجرد" (5) .

- 1 -

وكان كثير من المتصوفين يجاورون في مكة والمدينة منذ القدم ، وخاصة في مكة ، حيث جاور فيها كبار المتصوفة كابن الفارض ، وابن عربي ، وابن سبعين الأندلسي ، وغيرهم (6) . وقد شهد القرنان التاسع والعاشر الهجريان أفواجا من المجاورين

(1) انظر : التصوف الثورة الروحية في الإسلام ، أبو العلاء عفيفي ، ص 34-54 ؛

التصوف المنشأ والمصادر ، إحسان إلهي ظهير ، ص 36-39.

(2) التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة ، إبراهيم هلال ، ص 1.

(3) المرجع نفسه ، ص 2.

(4) انظر : الإسلام والتصوف ، لويس ماسينيون ومصطفى عبدالرازق ، ص 20-25 ؛

هذه هي الصوفية ، عبدالرحمن الوكيل ، ص 24 ، 25.

(5) التصوف في الإسلام ، عمر فروخ ، ص 95.

(6) انظر : عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية ، العراق ، إيران) ، شوقي ضيف ، ص 48 ، 49 .

القادمين إلى المدينتين المقدستين - كما اتضح في الفصل الأول - حملوا أفكارهم الصوفية ، وكان منهم شعراء جرت على ألسنتهم بعض الأشعار التي تتضح فيها معاني وحدة الوجود التي قال بها الصوفية واعتقدوها ، مخالفين بذلك المنهج الإسلامي الصحيح . ومن أولئك الشعراء إسماعيل بن محمد الطويل ، الذي جاور سنوات في مكة والمدينة . وقد أنشد هذا الشاعر في أثناء مجاورته سنة 806هـ أبياتاً تكشف عن اتجاهه الصوفي:

خُذُونِي مِنِّي أَفْرِدُونِي وَغَيَّبُوا وَجُودِي عَنِّي فِي صِفَاتِكُمْ
فَنَائِي بَقَائِي فِيكُمْ وَلَدَيْكُمْ حَيَاتِي مَمَاتِي وَاللِّقَا عَيْشِي
عَلِمْتُمْ مُرَادِي كُلَّ قَصْدِي أَنْتُمْ وَأَنْ فَوَادِي نَحْوَكُمْ سَادَتِي حَنَّا⁽¹⁾

- 2 -

وقد كثر الشعر الصوفي في ذلك العصر "ويبدو أنه بات ميداناً للمباراة كما هو شأن الغزل من قبله ، فصار العالم ينظم شعراً صوفياً يبيدي براعته فيه كما كانوا يفعلون في شعر الغزل" (2) .

والباحث عن شعر التصوف لدى شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، يجده قليلاً . ويبدو أن أصحاب ذلك الشعر القليل قد تأثروا ببعض المجاورين ؛ إذ وجدنا من شعراء المدينتين من يوظف الغزل لمعانٍ صوفية على سبيل الرمز ، مستخدمين في ذلك ألفاظاً كثرت لدى شعراء التصوف ، كالفناء والوجود والصبابة ، كما نرى في قول الشاعر محمد المُعِيد (3) :

أَفْنَى بِكُلِّ وَجُودِي فِي مَحَبَّتِهِ وَأَنْتَنِي بِبَقَاءِ الْحُبِّ مَا بَقِيَا

(1) العقد الثمين ، الفاسي 308/3 ؛ التحفة اللطيفة ، السخاوي 320/1.

(2) الشعر الصوفي إلى مطلع القرن التاسع ، ابن حسين ، ص 134 ، 135 .

(3) هو محمد بن محمود بن محمود بن محمد بن عمر الخوارزمي ، المعروف بالمعيد ، إمام مقام الحنفية بالمسجد الحرام أكثر من ثلاثين سنة ، وشيخ رباط رامشت بمكة ، درس على بعض الشيوخ في مكة ، وتولى التدريس ، وكان جيد المعرفة بالنحو والصرف مشاركاً في الفقه وغيره . توفي في مكة سنة 813هـ .

- انظر ترجمته في : العقد الثمين ، الفاسي 349/2-352 ؛ إنباء الغمر ، ابن حجر 477/2 ، 478 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 45/10 ، 46 .

لَا خَيْرَ فِي الْحُبِّ إِنْ لَمْ يَفْنِ وَكَيْفَ يُوجَدُ صَبٌّ بَعْدَمَا فَنِيَ (1)
ومثل ذلك قول الشاعر محمد الكيلاني ، متطاولاً على الذات الإلهية

هَنِيئاً لِمَنْ أَمْسَى عَنِ الْعَيْنِ خَالِياً وَأَصْبَحَ لَا عَمَّا يَقُولُ وَخَالِياً
وَأَضْحَى فَرِيداً فَانِياً فِي فَنَاءٍ مَنْ إِلَيْهِ (تَوَدُّ) (2) الْكَائِنَاتُ كَمَا هِيَ
تَجَلَّى عَلَيْهِ الْحَقُّ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ وَقَالَ ادْنُ مِنِّي يَا قَتِيلَ جَلَالِهَا
وَعِشْ وَانْتَعِشْ فِي حَضْرَةِ الْقُدْسِ فَذُونُكَ قَدْ وَافَى جَمِيلُ جَمَالِهَا (3)
وفكرة الفناء في الذات الإلهية — كما هو واضح — معتقد صوفي
يجهر الشعراء المتصوفون ببيانه ؛ يقول الشاعر عبدالعزيز الزمزمي :
حَقِيقَةٌ لَمْ يَمُتْ مَنْ ذَاتُهُ فَنِيَتْ فِي اللَّهِ وَهُوَ بِذَاتِ اللَّهِ مَشْغُولُ
بَلْ لَمْ يَزَلْ فِي حَيَاةٍ رُوحُهُ أَبَداً نَعِيمُهَا بِشُهُودِ الْحَقِّ مَوْصُولُ
والزمزمي من أكثر شعراء مكة والمدينة تناولاً للمعاني الصوفية في
شعره . ومن معتقداتهم التي أبان عنها قولهم : إن الرسول ع روح الوجود
، يعبر الزمزمي عن ذلك قائلاً :
رُوحُ الْوُجُودِ وَرِيَّاهُ وَعَبَقَّتُهُ مِنْ طَيْبِهِ كُلُّ طَيْبٍ فِي الْوُجُودِ

(1) العقد الثمين 351/2.
(2) هكذا في المصدر ، ولعلها (تُرَدُّ) .
(3) الضوء اللامع ، السخاوي 151/9 ، 152 . وقد ترجم السخاوي للكيلاني ، ذاكراً أنه
ولد في سنة 845هـ بالهند ، وتوجه به أبوه من عامه إلى مكة ، فقتنها معه ، ثم بعده ؛
حيث نشأ فيها ، وحفظ القرآن الكريم ، ودرس على علمائها والقادمين إليها الفقه والنحو
وغيرهما .

(4) ديوان الزمزمي ، ورقة 66/أ .

(5) المصدر نفسه ، ورقة 34/أ .

3- الرثاء :

نظم شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين قصائد أودعوها تجاربهم الحزينة ، حيث بكوا موتاهم ، وأبنوا ، وعزوا . ولم تكن المراثي كالمدائح في كثرة القصائد أو طولها . فإذا كان من قصائد المديح ما اقترب من مثني بيت ، فإن ما اطلعت عليه من قصائد الرثاء لا يتجاوز تسعين بيتاً ، وأغلبها متوسطة الطول ، تتراوح بين عشرين بيتاً وخمسين ، وقليل منها قصائد قصيرة ومقطعات . وسأتناول هذا الغرض من خلال ألوانه الثلاثة (الندب والتأبين والعزاء) بادئاً بالتأبين ؛ لأنه الأكثر ، يليه الندب ، ثم العزاء .

أ- التأبين :

- 1 -

يعمد الشعراء في قصائد الرثاء إلى تعداد فضائل المراثي ، وبيان مناقبه في حياته ، وأثر ذلك في مجتمعه أو أمته ، ويكثر ذلك في رثاء سرة المجتمع من الأمراء والوزراء والعلماء . فقد حرص الشعراء على إبراز مكانة المراثي وأثر فقده ، وقد يبالغون في ذلك على نحو ما صنع الشاعر حسين العليف حين رثى الشريف حسن بن عجلان (ت829هـ) إذ نعته بأنه فريد زمانه الذي فاق أقرانه ، مشيراً إلى أن لموته أثراً كبيراً على الأرض وساكنيها ، حيث يقول:

حَسَنُ الَّذِي عَقَمَ النِّسَاءُ بِمِثْلِهِ وَلِذَاكَ لَمْ يَأْتِ الزَّمَانُ بِثَانٍ
أَبَدًا وَلَمْ يَحْمِلْ نَظِيرًا فِي بَطْنِ الْحَصَانِ لَهُ وَظَهْرُ حِصَانٍ
وَلَقَدْ ظَنَنْتُ الْأَرْضَ بَعْدَ وَفَاتِهِ مَادَتْ بِمَنْ فِيهَا مِنَ السُّكَّانِ
وَتَرَلَزَلَتْ أَطْوَادُهَا وَسَمَاوُهَا إِنَّ شَقَّتْ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَدِهَانٍ (1)

وقد كرر في هذه القصيدة صفات المراثي التي سبق أن أشاد بها في مدائحه له ، من ذلك قوله في قصيدته (الدرة الثمينة) التي مدحه بها حينما أعيد إلى إمرة مكة في سنة 819هـ:

عَقَمَ الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ وَبِمِثْلِهِ رَا حَتْ بِهِ دُنْيَاهُ أَغْقَرَ عَاقِرٍ (2)

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 387/2.

(2) المصدر السابق 365/2.

وواضح أنه تكرر لما جاء في البيت الأول من الأبيات السابقة.
ودأب الشعراء على المبالغة في الحديث عن وقع المصيبة . من ذلك
قصيدة الشاعر علي بن ناصر الحجازي التي رثى بها الشريف محمد
بن بركات بن حسن بن عجلان (ت 903هـ) ؛ حيث أبان في مطلعها عن
تأثر المسلمين عامة ، وغالى في وصف أثر ذلك على الإسلام حين قال:
رُزْءٌ أَنَالَ الْمُسْلِمِينَ خَبَالًا وَوَهَى بِهِ الْإِسْلَامُ حَتَّى مَالَا (1)

وهي مبالغة غير مقبولة ؛ فقد مات خير الخلق ، سيد ولد آدم (عليه
الصلاة والسلام) ولم يضعف الإسلام أو يتشقق ويهم بالسقوط كما يوحى
بذلك هذا البيت .

وقد أعقب المطلع ببيتين ، أبان فيهما وقع هذه المصيبة على الناس
بصورة أقل حدة من المطلع ؛ إذ يوضح أن موت الأمير مصيبة حلت
بألم القرى ، فعم النكال أرض الحجاز ، واشتد وجد القلوب ، وتزلزلت
العقول ، يقول فيهما:

وَمُصِيبَةٌ رُمِيتْ بِهَا أُمُّ الْقَرْى أَهْدَتْ إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ نَكَالًا
وَعَزَا تَدَكَّدَتْ الْقُلُوبُ لَوَقْعِهِ وَالْعَقْلُ زُلْزَلَ بِالْجَوَى زَلَالًا (2)

وكذلك بالغ الشاعر عبدالرحمن باكثير ، حين رثى الشريف أحمد بن
أبي نمي (ت 961هـ) حيث تحدث عن وقع المصيبة ، فأشار إلى
الهول والروع الذي أصاب القلوب حتى حسبته يوم الحشر الذي تشيب
منه الولدان ويغدو الناس فيه سكارى وما هم بسكارى ، إذ يقول:

مُصَابٌ أَزَالَ الرَّاسِيَّاتِ وَهَوْلُهُ أَرَاعَ فَمَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ الْحَشْرُ

وَقَدْ شَابَتِ الْوِلْدَانُ وَالنَّاسُ قَدْ سُكَارَى لِمَا لَاقُوا وَلَيْسَ بِهِمْ
وهذه مبالغة غير مقبولة ، فمن ذا الذي يموت فيكون أثر ذلك على
الناس كيوم الحشر.

وصور الشاعر في هذه القصيدة مكانة المرنى من خلال حديثه عن
أثر فقدته على البلاد وما فيها . وعلى الرغم من مبالغته في ذلك ، فإنه لم
يكن كغلوه السابق ، بل على نحو من قوله:

(1) المصدر نفسه 621/2.

(2) المصدر نفسه 621/2.

(3) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 21/أ.

وَقَدْ أَظْلَمَتْ أَرْضُ الْحِجَازِ وَلَمْ يَخُلْ مِنْ ذَاكَ الشَّامُ وَلَا مِصْرُ
وَقَدْ لَبَسَ الْبَيْتُ الشَّرِيفُ لِمَوْتِهِ حَدَاداً وَنَاحَ الرُّكْنُ وَانْتَحَبَ

ومضى الشعراء في رثائهم يعظمون الحدث سواء أكان المرثي أميراً أو وزيراً ، يعرض الشاعر في مرثيته صدى الخبر في نفسه وأثره على مجتمعه . فحينما سمع الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي نبأ مقتل الوزير آصفخان الكجراتي ، أفضى بمشاعره تجاه هذا الحدث في قصيدة طويلة بلغت (87 بيتاً) أبان في بدايتها أن ذلك حادث جلل يلهب الوجدان ، وأنه قد صلي بلهيبه من في الحجاز من العلماء الذين خبروا سيرة هذا الوزير ، حيث يقول:

أَيُّ الْقُلُوبِ لِهَذَا الْحَادِثِ الْجَلَلِ أَطْوَاهُ الشَّمُّ لَمْ تُسَفِّ وَلَمْ تَزَلِ

وَأَيُّ نَازِلَةٍ فِي الْهِنْدِ قَدْ نَزَلَتْ بِلَفْحِهَا كُلَّ حَبْرٍ فِي الْحِجَازِ

ومن أبرز ما تناوله الشعراء في رثائهم للأمراء جانب الشجاعة التي كانت تميز شخصية كل واحد منهم . فقد يومئ الشاعر إلى شجاعة الأمير في خضم رثائه ؛ لأن البلاد – في نظره – قد فقدت درعها الذي كان يصد عنها – بعد الله – عوادي الدهر ، كما فعل الشاعر علي بن ناصر الحجازي في رثائه للشريف محمد بن بركات ابن حسن بن عجلان (ت 903هـ) ، حيث تساءل عن يستطيع أن يسد مكانه في المواقف العصبية ، منكر أن يكون لأحد القدرة على ذلك بعده ، إذ يقول:

مَنْ يَلْبَسُ السَّرْدَ الْمُضَاعَفَ فِي وَالْحَمْدَ فِي يَوْمِ النَّدَى سِرْبَالاً

مَنْ لِلْقُرُومِ الْبُزْلُ يَصْدُقْهَا إِذَا صَالَتْ قِرَاعاً بِالْقَتَا وَنِزَالاً

مَنْ يُخِمِدُ الْحَرْبَ الْعَوَانَ مَثَارُهُ يُرِيدِي الْكُمَاةَ وَيَخْطِمُ الْأَبْطَالَ

مَنْ لِلْمُغِيرَاتِ الْجِيَادِ يَرُدُّهَا طَرْداً عَلَى أَعْقَابِهَا جُفَالاً (3)

لقد بلغ الأمير ذروة المجد ، فهو الأمر الناهي في سلطانه ، وهو القائد الشجاع في ميادين العراك ، فإذا ما انصرم حبل حياته خلت منه ساحات المجد ومواقف البطولة ، وأخذ الشعراء يصورون أثر ذلك على

(1) المصدر نفسه ، ورقة 21/أ.

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص 326.

(3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 2/ 623 ، 624.

نحو من قول الشاعر عبدالرحمن باكثير في رثاء الشريف أحمد بن أبي نمي (ت 961هـ):

بِكَاهِ الْعُلَا وَالْمَجْدُ وَالْحِلْمُ وَالنَّدَى وَسُلْطَانُهُ وَالْمُلْكُ وَالنَّهْيُ وَالْأَمْرُ
وَمَوْكِبُهُ وَالْبَنْدُ يَخْفِقُ وَالْقَنَا يَحِفُّ بِعَلْيَاهُ وَعَسْكَرُهُ الْمَجْرُ
وَمُعْتَرِكُ (الْهَيْجَاءِ) ⁽¹⁾ وَالْخَيْلُ وَنَقْعُ الْمَذَاكِي وَالْمُطَهَّمَةُ الشَّقْرُ
وَحَظْرَتُهُ بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ مُعَلِّمًا وَرَايَاتُهُ وَالطَّعْنُ وَالضَّرْبُ وَالْكَرُّ

⁽²⁾ وتتناول الشعراء بعض الخلال التي كان يتمتع بها المرثي من أولئك الأمراء كالأمن الذي يعيشه المجتمع في ظل الأمير ، والعدل الذي بسطه في أرضه ، والعطاء الذي كان يجود به ، مشيرين إلى ما كان لهذه الصفات من أثر في رغد العيش والخير الكثير الذي كانت تعيشه البلاد ، وقد يرى الشاعر أن ذلك كله سيرحل برحيل الأمير . نجد ذلك في قول الشاعر علي بن ناصر الحجازي في رثائه الشريف محمد بن بركات بن حسن عجلان (ت 903هـ):

لِلَّهِ أَيُّ مَحَاسِنٍ وَمَنَاقِبٍ غَابَتْ وَأَيُّ عِمَادٍ فَخْرٍ مَالَا
لِلَّهِ كَمْ عَدْلٍ وَكَمْ أَمْنٍ مَالَا أَرْضَ الْحِجَازِ وَكَمْ حِفَاطٍ وَالَى
كَثَرَ الرِّخَا وَالْخَيْرُ مِنْ بَرَكَاتِهِ وَهَبَاتِهِ مُتَكَرِّمًا مِفْضَالَا ⁽³⁾

هذه الأبيات وغيرها من الأبيات السابقة تنبئ عن صدى موت الأمير أو الوزير ، وهي شاهد على مكانته ؛ فكم من أمير أو وزير مات ولم يكن لموته مثل هذا الصدى الذي تحدث عنه الشعراء . وهذا يوحي بأن المرثيين قد قدّموا أعمالاً جليّة ، وأن سيرهم كانت طيبة ؛ فكان الوفاء من الشعراء بهذه الصورة.

- 2 -

وحظي العلماء بمكانة مرموقة ؛ لما لهم من جهود تؤكد فضلهم ، وتبعث في النفوس حُبهم . فإذا ما قضى أحد العلماء نحبه ، وسمع المسلمون خبره ، غشى الحزن أفئدتهم ، وأخذ الشعراء ينشرون محاسن

(1) في الأصل : الهيجا.

(2) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 21/ب.

(3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 622/2 ، 623.

ذلك العالم ، ويعبرون عن الحالة التي آلت إليها مجالس العلم بعده .
فقد توفي العالم أبو الفرج الدمشقي المعروف (بأبي شعر) ، ورثاه
جمعٌ من الشعراء ، منهم محمد بن عبد القوي الذي رثاه بقصيدة أبرز فيها
مكانته العلمية وبعض نعوته الطيبة ، وأشار إلى الحزن الذي أصاب
القلوب لموته ، وإلى الأثر الذي خلفه في أماكن العبادة والعلم ، إذ يقول:

فِيَا ابْنَ سُلَيْمَانَ الْإِمَامَةَ عَظَّمْتَ لِفَقْدِكَ وَالتَّدْرِيسُ حُلٌّ نِظَامُهُ

وَبَعْدَكَ لَا الْفَضْلُ الْمُنِيفُ وَلَا لِعِلْمٍ وَلَا الْإِقْرَاءُ سِيمٌ سَوَامُهُ

وَلَا الْوَعْظُ فِي دَارٍ يَقْرَأُ قَرَارُهُ وَلَا مِصْرٌ تُؤْوِيهِ وَلَا الشَّامُ

إِلَيْكَ انْتَهَى التَّفْسِيرُ وَاللَّهُ شَاهِدُ بِأَنَّكَ خَاشٍ حِينَ يَنْتَلِي كَلَامُهُ

زَهْدَتْ تَوَرَّعَتْ اعْتَزَلَتْ عَنْ وَأَنْتَ لِهَذَا الشَّانِ طَرّاً خَتَامُهُ

عُدَا كُلُّنَا لِمَا تَوَارَيْتَ وَالْهَاءُ فَطُبْتُ فَقِيداً لَا يُضَاعُ دِمَامُهُ (1)

وطبعي أن يركز الشعراء في مراثي العلماء على مكانتهم من خلال
الحديث عن الفراغ الذي خلفوه في مواطن العلم ؛ لأن الشعراء في تلك
البقاع الطاهرة كانوا من أهل العلم ، وكانت تجمعهم بأولئك العلماء
مجالسه ، وحين فقدت تلك المجالس من كانوا يضيؤونها بعلمهم ، تغيرت
أحوالها . وقد خبر الشعراء ذلك ، فكانت مراثيهم لا تخلو من هذا المعنى
. من ذلك قول الشاعر محمد بن علي بن ظهيرة (2) يرثي الشيخ عبد القادر
المالكي (ت 880هـ) :

وَأَصْبَحَ عَقْدُ الدَّرْسِ مِنْهُ وَكَانَ بِهِ بِاللَّهِ وَاسِطَةُ النَّظْمِ

فَمَا الْمَسْجِدُ السَّامِيُّ بِمَكَّةَ نَظِيْرًا لَهُ فِيهِ يَقَرَّرُ لِلْعِلْمِ

(1) السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة ، ابن حميد 493/2.

(2) هو كمال الدين أبو البركات محمد بن علي بن محمد بن ظهيرة القرشي . ولد في
المحرم من سنة 822هـ في مكة ، ونشأ بها ، حيث حفظ القرآن الكريم وبعض
المتون ، ودرس على جمع من العلماء في مكة وفي القاهرة ، فأجازه عدد منهم . تولى
الخطابة ونيابة القضاء بمكة ، وكذلك نيابة القضاء في القاهرة ، كما ولي قضاء جدة .
توفي بمكة سنة 822هـ.

- انظر ترجمته في : الضوء اللامع ، السخاوي 208/8 ، 209 ؛ شذرات الذهب

، ابن العماد 503/9 .

وَلَا الْمُنْبَرُ الْأَسْنَى يَقُوزُ بِمِثْلِهِ عَلَيْهِ إِذَا يُقَرِّي الْحَدِيثَ وَفِي

(1)

ثم يقول كعادة شعراء مكة والمدينة في رثائهم العلماء:
فَمَنْ بَعْدَهُ لِلْمُشْكِلَاتِ وَحَلِّهَا أَصُولًا وَتَفْرِيعًا (وَلِلْغَزِّ) فِي النَّظْمِ

(2)

وفي لحظات الأسى على العلماء تتداعى المشاعر فيستحضر الشعراء ما كان يتمتع به أولئك العلماء من صفات حسنة ، وما كان يظهر عليهم من أمارات النجاسة ، فيبيت كل واحد منهم – في نظر الشعراء - فريد دهره الذي لا يستطيع أحد أن يسد الثغرة التي تركها ، كما رأينا في قصيدتي ابن عبدالقوي وابن ظهيرة السابقتين ، وكقول الشاعر أحمد العليف في رثائه شمس الدين السخاوي (ت 902هـ):

فَيَا طَالِبِي عِلْمِ الْحَدِيثِ رُوَيْدُكُمْ فَقَدْ أَنْ أَنْ يُلْقِي الصَّحَافُ كَاتِبُ

أَقِيمُوا فَمَا بَعْدَ السَّخَاوِيِّ رِحْلَةً فَمَنْ بَعْدَهُ تُحْدِي عَلَيْهِ الرِّكَائِبُ

لِمَنْ يَرْحَلُ الطَّلَابُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ إِذَا التَّبَسَّتْ فِي الْمُشْكِلَاتِ مَذَاهِبُ (3)

وقد يكرر الشاعر هذا المعنى في رثاء أكثر من عالم ، فكما حدثنا الشاعر ابن عبدالقوي عن الشيخ أبي الفرج الدمشقي (ت 844هـ) بأنه ذو الفضل والعلم الذي لا يحل محله أحد ، قال – قبل ذلك - من قصيدة رثى بها العالم الشاعر محمد بن موسى (ت 823هـ):

بَعْدَ ابْنِ مُوسَى وَمَنْ لِلْعِلْمِ وَالْأَدَبِ مَنْ لِلْمَحَابِرِ وَالْأَقْلَامِ وَالْكُتُبِ

مَنْ لِلرِّوَايَةِ أَوْ مَنْ لِلدِّرَايَةِ أَوْ مَنْ لِلْقَوَاعِدِ أَوْ

... مَنْ لِلْعَقَائِدِ أَوْ مَنْ لِلْفَوَائِدِ مَنْ لِلْجَمْعِ وَالنَّسَبِ

مَنْ لِلتَّفَاسِيرِ مَنْ لِلْفِقْهِ يَنْشُرُهُ مَنْ لِلْأَصُولِ وَلِلتَّدْرِيسِ وَالنَّخَبِ

... مَنْ لِلْفَرَائِضِ أَوْ مَنْ لِلْحِسَابِ مَنْ لِلتَّوَارِيخِ مَنْ لِلنَّحْوِ وَالنَّسَبِ

مَنْ لِلْعُلُومِ الَّتِي تَعْيَا الْعُقُولُ مَنْ لِلتَّنَاطُرِ إِذْ يُجْتَنَى عَلَى

(4)

ع

١

٢

- (1) نيل المنى بذيل بلوغ القرى ، جار الله بن فهد 317/1.
- (2) المصدر نفسه 318/1 . وقد جاء في المصدر (وللألغاز في النظم) فاستبدلت بها (وللغز...) ؛ ليستقيم الوزن.
- (3) ديوان أحمد العليف ، ورقة 65/أ.
- (4) لفظ الألاحظ بذيل طبقات الحفاظ ، محمد بن فهد ، ص 277 ، 278.

وكان الشاعر أحمد العليف في رثائه للسخاوي (ت 902هـ) قد نصح طالبه علم الحديث بترك الترحال في سبيل الطلب بعد السخاوي ، إذ لا أحد بعده يستحق أن تضرب إليه أكباد الإبل ويُرجع إليه في المشكلات . وهو في ذلك قد أعاد المعنى الذي تناوله في رثائه لنجم الدين عمر بن فهد (ت 885هـ) ، حيث قال آنذاك:

يَا سَيِّدَ الْوَقْتِ يَا شَيْخَ الْحَدِيثِ عَلَيْهِ فِي الْمَشْكَلاتِ الْفَنِّ يَعْتمِدُ
مَنْ لِلْأَحَادِيثِ يَرْوِيهَا مُعَنَّةً وَمَنْ لَهُ بَعْدَكَ الْأَسْمَاعُ وَالسِّنْدُ
يَا رُحْلَةَ الْعَصْرِ مَنْ أَبْقَيْتَهُ عَوْضاً لِلْوَارِدِينَ مِنَ الْأَبْطَالِ إِنْ وَرَدُوا

(1) وحرص الشعراء في تأبينهم العلماء على التنويه بما أفاء الله على أولئك العلماء من خلال حميدة . وهم حين يلحون على ذكر مآثر العالم بعد أن يرد حياض المنية ، يُلحون من خلال ذلك إلى الخسارة التي حلت بالمجتمع حين فقد هذا الفرد المهم من أفراده . ومما يحمد للشعراء أنهم تناولوا في تأبينهم مناقب تلائم العلماء ، كالإشادة بفضلهم وعلمهم ، ووجلهم من الله واجتهادهم في عبادته . من ذلك قصيدة الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي في تأبين الشيخ حامد بن محمود الجبروتي (ت 962هـ) ، حيث أثنى فيها على علمه وفضله ، ذاكراً ألواناً من العبادات التي كان يتقرب بها إلى الله – عز شأنه – كقيام الليل ، والطواف ، وذكر الله ، منها قوله:

لَمْ يَكُنْ رَاهِباً سِوَى اللَّهِ لَكِنْ كَانَ فِيهِ اللَّهُ أَعْظَمُ رَهْبَةً
كَانَ يُحْيِي إِلَى الْمَمَاتِ اللَّيَالِي أَخِذاً بِالنَّصِيبِ مِنْ كُلِّ قَرَبَةٍ
كَمْ صَلَاةٍ يَطُولُ وَصْفِي فِيهَا قَامَ عَنْ فَرْشِهِ لَهَا وَتَنَبَّهَ
وَطَوَافٍ مَا غَبَّ عَنْهُ مِنْهُ وَرَدَّ شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُ فِيهِ غَبَّهَ
وَمِنَ الذِّكْرِ وَالْقِلَوةِ أَوْراً دُبَّهَا لَمْ يَزَلْ يُرْتَبُ حَزْبُهُ (2)

(1) ديوان أحمد العليف ، ورقة 81/أ . والفن ، يقال : (فلان فن علوم) : يحسن تحصيلها والقيام عليها . والعالم الرُّحْلَةُ : الذي يرتحل إليه من الآفاق .

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص 342.

هكذا كان تأبين العلماء ؛ يدور حول مكانتهم العالية في المجتمع ،
وسعة علمهم ، والصفات التي كانت تميزهم ، والأثر الذي خلفوه في
أفئدة المسلمين بعد موتهم.
وقد استطاع الشعراء – كما تبين في المراثي السابقة – أن يسبروا
أغوار أولئك العلماء ؛ لما كان لهم من اتصال مباشر بحياتهم.
ب- النذب :

- 1 -

بكى الشعراء موتاهم ، ولم نجد ذلك النواح والبكاء بالعبارات
المحزنة التي تصدع القلوب ، بل كانوا يعربون عن حزنهم وتكدر
أحوالهم إثر فراق من يحبون بصورة تشعر المتلقي بفتور العاطفة لدى
كثير من أولئك الشعراء.

ولا يعني ذلك أنه يجب على الشاعر أن يعلي الصوت ويشق الجيب
ليصبح قوي العاطفة ، ففوة عاطفة الشاعر تتضح من تأثير أبياته على
المتلقي واستمرار ذلك ، والشاعر الحق الذي يستطيع أن يكسب تفاعل
متلقيه ؛ لينال تعاطفه.

وقد تبين أن كثيراً من قصائد الرثاء – وخاصة رثاء الأمراء – تفتقر
إلى الروح الشعرية والعاطفة المتدفقة ، حتى إن من الشعراء من رثى
والداً بشعور فاتر ، كما فعل الشاعر علي بن محمد الخجندي⁽¹⁾ حينما
بلغه نبأ وفاة والده (سنة 870هـ) ، وكان بالشام ، فأرسل إلى أهله أبياتاً
قال منها:

إِنْ مَاتَ وَالِدِي الشَّفِيقُ فَإِنَّ لِي دَمْعاً يَسِيلُ عَلَيْهِ فِي الْوَجَنَاتِ
وَلَرُبَّمَا كَفَّ الْحَزِينُ دُمُوعَهُ صَوْنًا لِهَمَّتِهِ عَنِ الْهَفَوَاتِ⁽²⁾

وعلى الرغم من أنه أبان أنه كف الدموع لئلا يكون ثمة سبيل لفتور
همته وتعطله عن الأخذ بأسباب العيش ؛ فإن ذلك لا يشفع للشاعر بأن
يعرض هذه المشاعر الباردة في رثاء والده.

(1) هو علي بن محمد بن إبراهيم بن أحمد الخجندي . ولد في المدينة المنورة سنة 842هـ
، ونشأ بها ، فحفظ القرآن الكريم ، ودرس على العلماء في المدينة والقاهرة ، وكان
بارعاً في النحو والمعاني والبيان وغيرها . توفي في دمشق سنة 871هـ .
- انظر ترجمته في : التحفة اللطيفة ، السخاوي 246/3-248 ؛ الضوء اللامع ،
السخاوي 277/5 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 463/9 .
(2) الضوء اللامع ، السخاوي 277/5 .

وكان الشعراء في نديهم الأمراء يذرفون الدموع المفتعلة ، يبدوون بها مرآتهم ، من ذلك قول حسين العفيف في بداية قصيدته التي رثى بها الشريف حسن بن عجلان (ت 829هـ):

إِنْ لَمْ تَجِدْ بِدُمُوعِهَا أَجْفَانِي لِفِرَاقٍ مِّنْ أَهْوَى فَمَا أَجْفَانِي
وَلَنْ رَقَا دَمْعِي الْهَتُونُ فَإِنِّي شَانٍ وَلَا تَرَقَا مَدَامِغُ شَانِي
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ فَيْضَ مَدَامِعِي هُوَ كُلُّ يَوْمٍ بَعْدَهُمْ فِي شَانٍ
أَغْرَى الْبُكَاءُ بِنَظِيرِي حَتَّى لَقَدْ فِي مَدَمْعِي الْقَانِي لَقَدْ أَلْقَانِي
لَمَّا أَتَانِي عِلْمٌ مِّنْ أَعْدَدْتُهُ ذُخْرًا لِدَفْعِ نَوَائِبِ الْحَدَثَانِ (1)

ويظهرون تواجدهم بإجراء الدموع ، وإظهار الأسى والحسرة بأسلوب تقريرى ينبئ عن فتور في العاطفة ، كقول الشاعر أحمد القليوبي في رثاء أبي القاسم وعلي ابني الشريف حسن بن عجلان (الذين توفيا في سنة 853هـ) (2) :

لِسَانُ الْهَوَى بِالْوَجْدِ عَنِّي يُعَبِّرُ وَيُعْرِبُ عَنْ أَلْحَانِ دَهْرٍ تُغَيِّرُ
وَعَيْنُ الصَّبَا تَبْكِي عَلَى مَعْهَدٍ وَتَنْدُبُ رُبْعًا كَانَ بِالْأَمْسِ يُزْهَرُ
فَأَجَرَيْتُ سَيْلًا مِّنْ عَقِيقِ مَدَامِعٍ لَهَا فِي بَحَارِ الْخَدِّ نَظْمٌ مُنْتَرُ
وَصَلْتُ وَنَارَ الْحُزْنِ مَنِي مُجَمَّرُهُ فِي مُهْجَةٍ تَتَفَطَّرُ
لَمُوتِ عَلِيٍّ مَعَ أَبِي الْقَاسِمِ الَّذِي بِهِ كُلُّ حَيٍّ بِالْجَوَى يَتَحَسَّرُ (3)

- 2 -

ولم يكن الشعراء كذلك في نديهم العلماء ، إذ عبروا عن شعورهم الحزين والحرقة التي تنتابهم بعاطفة أكثر تدفقاً ، فقد رثى الشاعر أحمد العفيف العلامة عمر بن فهد (ت 885هـ) مبدئاً لوعته عليه بقوله:

لِلَّهِ قَلْبِي وَمَا يَلْقَاهُ مِنْ حُرْقٍ تَكَادُ مِنْهَا الْجِبَالُ الصَّمَّ تَرْتَعِدُ
تَنَكَّرَ الدَّهْرُ لِي مِنْ بَعْدِ مَعْرِفَةٍ وَفَاجَأَتْنِي خُطُوبٌ فِيهِ تَطْرُدُ

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 386/2 ، 387.

(2) انظر : المصدر نفسه 487/2-506.

(3) المصدر نفسه 503 /2.

وَكَلَّمَ الْبَيْنُ (أَحْشَائِي) (1) لِفَرْقَةٍ
وَحَمَلْتَنِي اللَّيَالِي مِنْ طَوَارِقِهَا
عَدِمْتُ صَبْرِي عَلَيْهِمْ عِنْدَمَا
مَا لَا أَطِيقُ لَهُ حِمْلًا وَلَا أَجْدُ (2)

وللشاعر نفسه قصيدة أخرى رثى بها العالم عبدالكريم السمهودي ،
اقتفى فيها أثر أبي تمام في قصيدته التي رثى بها محمد بن حميد الطائي
(ت 214هـ) (3) التي يقول فيها:

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحْ
وَقَدْ بَدَأَ الْعَلِيفُ قَصِيدَتَهُ قَائِلًا:
فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفُضْ مَاؤُهَا
فَسَيَّانَ عِنْدِي بَعْدَكَ الْعُرْفُ (4)

وأخذ بعد ذلك بيت الآم الفراق ، ويكي ذلك العالم الجليل بعاطفة
نافذة ، تشعر من خلالها أنك مع شاعر مقتدر ، حيث يقول:

سَابِكِيكَ مَا تَبْقَى الْحَيَاةُ وَإِنْ
وَتَبْكِيكَ مِنْ فَرْطِ التَّوَجُّعِ طَيِّبَةً
أَلَا إِنَّ نَفْسًا لَمْ تَمُتْ فِينِكَ حَسْرَةً
وَعَيْنًا عَلَى فَقْدِكَ لَمْ يَجِرْ
لُحَاً اللَّهُ يَوْمَ الْبَيْنِ يَأْتِي
... إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فَرْقَةً بَعْدَ فَرْقَةٍ
وَلَا كَأَلْتِي أَذْكَتْ بِقَلْبِي خُرْقَةً
سَابِكِيكَ مَا تَبْقَى الْحَيَاةُ وَإِنْ
وَتَبْكِيكَ مِنْ فَرْطِ التَّوَجُّعِ طَيِّبَةً
أَلَا إِنَّ نَفْسًا لَمْ تَمُتْ فِينِكَ حَسْرَةً
وَعَيْنًا عَلَى فَقْدِكَ لَمْ يَجِرْ
لُحَاً اللَّهُ يَوْمَ الْبَيْنِ يَأْتِي
... إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فَرْقَةً بَعْدَ فَرْقَةٍ
وَلَا كَأَلْتِي أَذْكَتْ بِقَلْبِي خُرْقَةً

وكانت الألفة بين الشاعر والعالم دائمة ، وعلاقة الحب موصولة ،
وقد تعظم المصيبة على الشاعر حين الفراق ، فيصدح بصوته ، باثًا
همومه المتراكمة وقلقه وسهره الدائم ، يفضي بما في فؤاده من لوعة
حينما يتذكر أياماً خلت ، بمثل قول الشاعر محمد الفاكهي (6) حين رثى

(1) في الأصل : أحشائي.

(2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 81/أ.

(3) انظر : الكامل في التاريخ ، ابن الأثير 560/5 ، 561.

(4) ديوان أبي تمام 79/4.

(5) ديوان أحمد العليف ، ورقة 82/أ ، 82/ب.

(6) هو أبو السعادات محمد بن أحمد بن علي الفاكهي ، الحنبلي . ولد في مكة سنة 923هـ ،
وبها نشأ ، حيث حفظ القرآن الكريم ، وتلقى علوماً كثيرة على جمع من العلماء في مكة

الشيخ محمد بن حسن بن أبي بكر (ت973هـ) :
 قَلِقَ الْفَوَادُ وَبِالْصُّدُودِ يُرَوِّعُ وَالْقَلْبُ دَابَّاً بِالْفِرَاقِ يُصَدِّعُ
 أَلْفَ السُّهَادِ مَعَ الْجُفُونِ مُجَافِياً لِلنَّوْمِ لَا يَدْنُو وَلَا يَتَوَقَّعُ
 مَا لِلْهُمُومِ مَعَ الْغُمُومِ تَصَاحَبَتْ يَوْمَ النَّوَى وَقَتَ الْجُمُوعِ تَجَمَّعُ
 ... رَغِياً لِأَيَّامٍ مَضَتْ مَعَ سَادَةٍ كَانَتْ لِيَالِينَا بِهِمْ تَتَلَمَّعُ⁽¹⁾

وتظل تلك الأيام التي كانت تجمع العالم بالشاعر عالقة في ذهنه لا تكاد تفارقه ؛ لأنها أيام عامرة بالخير ، مشعة بالسعادة ، فإذا قضى العالم أجله وخلا مكانه ؛ أخذ الشاعر يتذكر لحظات اللقاء بحرقه تكوي فؤاده ، وتسيل الدموع في مآقيه . وقد مر بهذه التجربة أكثر من شاعر ، فكما كان الفاكهي في الأبيات السابقة يتحسر على فراق الشيخ أبي بكر ، أخذ الشاعر محمد السمرقندي يتحدث عن كدر عيشه ودمعه الذي راح يذرف مدراراً على صاحبه الشيخ عبدالقادر الشافعي (ت966هـ) حيث يقول:

مَاتَ الْإِمَامُ فَعَيْشِي بَعْدَهُ كَدَرُ وَدَمْعُ عَيْنِي لَا يَنْفَكُ يَنْحَدِرُ
 قَضَى وَلَمْ يَقْضِ لِي مِنْ وَدِّهِ وَأَصْبَحَتْ دُورُهُ بَعْدَ الْعُلَا الْحَفَرُ
 يَا لَيْتَهُ عَلَنِي مِنْ بَعْدِ نَهَاتِهِ عَلَّاهُ بِهِ تَشْرُفُ الْأَسْمَاعُ وَالْبَصَرُ
 قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ هَذَا الْيَوْمَ مِنْ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ فِي مَقْدُورِهِ الْحَذَرُ
 حَتَّى رُمِيتُ بِسَهْمٍ لَيْسَ يَمْنَعُنِي مِنْهُ صَدِيقٌ وَلَا خِذْنٌ وَلَا وَزَرُ

وغيرها . وقد برع في عدد من العلوم ، كالقراءات والحديث والفقه (في المذاهب الأربعة) والنحو والبلاغة ، وغيرها . من مؤلفاته : نور الأبصار (في فقه الشافعية) ، ورسالة في آية الكرسي ، ورسالة في اللغة . كان جواداً ، محسناً ، متواضعاً ، ذا حظوة في زمنه . توفي في أحمدأباد بالهند سنة 992هـ.

- انظر ترجمته في : النور السافر ، العيدروس ، ص527-529 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 627/10 ؛ السحب الوابلة ، ابن حميد 871/2 ، 872 ؛ نزهة الخواطر ، عبدالحى الحسني 283/4-285 ؛ المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص471 ، 472 ؛ الأعلام ، الزركلي 7/6 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 298/8 ؛ معالم الأدب العربي في العصر الحديث ، عمر فروخ 520/1 ، 521 .

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص386 ، 387.

مَالِي وَمَا لِلْيَالِي كُلَّمَا جَنَحَتْ سَالَمْتُهَا وَهِيَ لَا تُبْقِي وَلَا تَذُرُ

حَمَلْتُ مِنْ جَهْلِهَا مَا لَيْسَ يَحْمِلُهُ قَلْبٌ وَمَا عَجَزَتْ عَنْ دَرَكِهِ

هكذا كان الندب في مراثي الشعراء ، ولعل أبرز ما يمكن أن يلاحظه المتلقي فضلا على ندرة ندب الأقارب ، ذلك التباين بين ندب الشعراء للأمراء وندبهم للعلماء.

ج - العزاء :

يتحدث الشاعر في رثائه عن مصيبة الموت وأثرها على محبي الفقيد ، متناولاً بعض مناقبه الطيبة ، بآثا حزنه على رحيل صاحب تلك الصفات.

وقد مد الشعراء أفكارهم إلى آفاق أوسع ، حيث رأوا أن الحزن والبكاء لا يردان غاليا ، فراحوا يذيعون العزاء ، داعين إلى الصبر وابتغاء الأجر ، مهونين من شأن الدنيا ، مشيرين إلى أنها دار زوال وانتقال لا يخلد فيها أحد ، وإن علا مقامه.

فقد رثى الشعراء الأمراء ، داعين إلى الصبر. وقد أحسوا أن خير عزاء التذكير بموت سيد الخلق نبينا محمد ع ؛ إذ يهون كل مصاب بعده. يقول الشاعر أحمد القليوبي في قصيدته التي رثى بها أبا القاسم بن حسن بن عجلان وأخاه علياً - المتوفين في سنة 853هـ - معزياً أخاهما الشريف بركات:

لَنْ جَلَّ حَظُّ حَلِّ فِينَا وَقَدْ بَدَا وَجُودٌ وَجُودٌ مِنْكَ فَالْخَطْبُ أَيْسَرُ

وَإِنْ مَاتَ إِخْوَانٌ كِرَامٌ وَمَعَشَرٌ فَقَدْ مَاتَ خَيْرُ الْخَلْقِ جَدُّكَ أَظْهَرُ

عَزَاءٌ وَصَبْرًا لَا بَرَحَتْ مُسَدَّدًا شَكُورًا وَفِي كُلِّ الْمُلَمَّاتِ

ومن الشعراء من يبدأ مرثيته بالوعظ ، داعياً إلى الصبر والتسليم بقضاء الله ، محذراً من الجزع ، محاولاً التخفيف من وقع المصيبة على صاحبها بالتذكير بمصاب الأمة في نبيها الكريم محمد ع . من ذلك قصيدة الشاعر عبدالرحمن باكتير في رثاء الشريف أحمد بن أبي نمي (ت 961هـ) إذ يقول في بدايتها معزياً والده الشريف أبا نمي:

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص355.

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 505/2 ، 506.

تَلَقَّى الْقَضَاءَ مِمَّنْ لَهُ الْخَلْقُ وَأَنْتَ بِهِ رَاضٍ وَجِلْبَابُكَ الصَّبْرُ
وَكُنْ عِنْدَمَا تَجْرِي الْمَقَادِيرُ لَهَا ثَوْبَ تَسْلِيمٍ فِي طِيهَا الْأَجْرِ
وَلَا تَكُ مِجْزَاعاً إِذَا نَزَلَ الَّذِي قَضَاهُ عَلَيْنَا مَنْ لَهُ الْبَعْثُ
... وَلِلْخَلْقِ فِي خَيْرِ النَّبِيِّينَ أَسْوَةٌ فَكُلُّ مُصَابٍ بَعْدَهُ جَلَلٌ نَزَرُ⁽¹⁾

وكان الشعراء في رثائهم يدعون إلى الصبر والرضا بقضاء الله ، ولا ينفكون عن الحديث عن هذه الحياة وأنها دار ممر ، وأن الموت غاية كل حي ، مشيرين إلى حوادث التاريخ لأخذ العبرة ؛ فقد باد الملوك والقيصرة والسلاطين على الرغم من إقبال الدنيا عليهم وسيادتهم أزمنة مديدة. يقول الشاعر محمد الفاكهي:

الدَّهْرُ فِي يَقْظَةٍ وَالسَّهْوُ لِلْبَشْرِ وَالْمَوْتُ يَبْدُو بِبَطْشِ الْبَدْوِ
وَالسَّامُ أَصْعَبُ كَأْسٍ أَنْتَ ذَائِقُهُ قَبْلَ التَّدَثُّرِ لِلْأَجْسَادِ بِالْحُفْرِ
...وَاسْأَلْ زَمَانَكَ عَنْ كِسْرَى كَذَا السَّلَاطِينُ وَالْأَقْيَالُ مِنْ مُضَرٍ
أَفْنَاهُمْ الدَّهْرُ حَتَّى صَارَ ذِكْرُهُمْ كَانُوا وَكَانُوا وَهَذَا أَعْظَمُ الْعِبَرِ⁽²⁾

ويُهوِّنُ الفاكهي من شأن الدنيا ، متخذاً منهج أبي العتاهية الذي يعد "أول من بسط الحديث في الموت والحياة... واتخذ من الموت أساساً لتنفير الناس من الحياة وبيان أن نعيمها لا قيمة له وكذلك كل ما يتصل بها"⁽³⁾ إذ يقول:

فَاعْجَبْ لِهَذِي الدُّنَا لَا تَحْتَشِمُ قَدْ أَسَسَتْ صَفْوَهَا دَابًّا عَلَى كَدَرٍ
فَقُلْ لِمَنْ عَرَّ فِي دُنْيَاهُ كُنْ يَقْظاً لَهَا الْمَصَارِعُ فِي غَفَلَاتٍ مُحْتَذِرٍ
كَيْفَ التَّحَذَّرُ وَالْأَقْدَارُ سَابِقَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا عَلَى الْأَرْوَاحِ وَالصُّورِ⁽⁴⁾

وإلى مثل ذلك ذهب الشاعر عبدالرحمن باكثير في حديثه عن الدنيا وهو يرثي الشريف أحمد بن أبي نمي (ت 961هـ):

(1) ديوان عبدالرحمن باكثير، ورقة 20/أ، 20/ب.

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص364.

(3) الرثاء ، شوقي ضيف ، ص100.

(4) النور السافر ، العيدروس ، ص365.

وَأَتَتْ بِحَرْبٍ مِنْهُ يَنْقُصُ الظَّهْرُ وَإِنْ جَنَحَتْ لِلسَّلَمِ تُضْمِرُ غَدْرَهَا

وَمَهْمَا رَمَتْ تُصْمِي الْفُؤَادَ وَجَبَّارٌ وَأَمَّا كَسْرُهَا مَالَهُ جَبْرٌ

تَشُوبُ الصَّافَا مِنْهَا كُدُورَةٌ وَيَمْرُجُ خَالِي عَيْشِهَا صَابِهَا

ولم يكن رثاء هؤلاء الشعراء لمن فقدوه يخلو من توجيه العزاء إلى قريب الفقيد ، مع دعوة إلى الصبر والتسليم بقضاء الله ، مشيرين إلى أن الموت سبيل سيسلكه كل حي. من ذلك قول الشاعر أحمد العفيف في بداية مرثيته في العلامة شمس الدين السخاوي (ت 902هـ):

تَعَزَّ فَإِنَّ الْأَجَرَ لِلصَّابِرِ صَاحِبٌ وَسَلِّمْ إِذَا ضَاقَتْ (عَلَيْكَ) (2)

سَبِيلُ الْمَنَايَا (لَا تَرَقُّ) (3) لَوَالِدٍ وَلَوْ فَارَقْتَهُ نَفْسُهُ وَالْحَبَائِبُ

وَتِلْكَ طَرِيقٌ لِلْعِبَادِ وَمَنْهَجٌ تَسِيرُ عَلَيْهِ وَاللَّيَالِي نَجَائِبُ

إِذَا كَانَ حُكْمُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ نَافِذًا فَلَا الْمَرْءُ مَسْلُوبٌ وَلَا الْمَوْتُ

وحاول الشعراء إيفاء المرثي بعض واجبات العزاء ، فضمنوا قصائدهم الدعاء له بالرحمة والمغفرة ، راجين أن يكون ماله الجنة. وهي ابتهاجات إلى الله – سبحانه وتعالى – بأسلوب مباشر على شاكلة التراكيب النظمية. من ذلك قول الشاعر محمد الفاكهي في رثائه الأمير خداوند (ت 968هـ) :

يَا رَبِّ تَرْحَمُهُ تَغْفِرْ لِمَعْشَرِهِ تَجْعَلْ مَآثِرَهُ أَبْهَى مِنَ الدَّرَرِ

وَرَضَ عَنْهُ خُصُومًا أَنْتَ وَخُصَّةً بَعْلًا الْجَنَّاتِ وَالسُّرُرِ (5)

ومنه أيضاً قول محمد بن علي بن ظهيرة في رثاء الشيخ عبدالقادر المالكي (ت 880هـ):

وَأَوْسَعُ لِمُحْيِي الدِّينِ يَا رَبِّ وَبِالْعَفْوِ وَالتَّكْرِيمِ الْقَهْ وَبِالْحِلْمِ

(1) ديوان عبدالرحمن باكثير، ورقة 20/ب.

(2) في المصدر : عليه .

(3) كذا في المصدر . ويحتمل أن تكون : لا تروق.

(4) ديوان أحمد العفيف، ورقة 64/أ.

(5) النور السافر ، العيدروس ، ص366.

وَأَسْكَنَهُ فِي جَنَاتِكَ الْخُلْدِ مَنْزِلًا عَلِيًّا وَمِنْ رُحْمَاكَ (وَفِيهِ) فِي

وكثيراً ما ينهي الشاعر مرثيته بالاستسقاء للقبر ، تمشياً مع التقليد (1) الشعري الذي كان سائداً لدى شعراء الجاهلية ومن تابعهم ، كقول عبدالرحمن باكثير في ختام رثائه الشريف أحمد بن أبي نمي (ت 961هـ):

سَقَى اللَّهُ قَبْرًا ضَمَّهُ صَوْبَ يَنَالُ الرِّضَا مِنْهُ وَيُمَحِّي بِهِ الْوِزْرُ
وَرَوَى ثَرَاهُ مِنْ سَحَابٍ عَفْوَةٍ غَمَامٍ وَمِنْ عُقْرَانِهِ الْوَائِلُ الْعَمْرُ
وَعَطَّرَهُ مِنْ طِيبِ رِيَا صَلَاتِهِ عَلَى خَاتَمٍ فِي مَدْحِهِ نَزَلَ الذِّكْرُ (2)

ومن ذلك قول محمد السمرقندي في رثائه الشيخ عبدالقادر الشافعي (ت 966هـ):

سَقَى ضَرْيَحَكَ صَوْبُ الْمُزْنِ حَتَّى يُضَاحِكَ أَقْصَى ثُرْبِهِ الزَّهْرُ
وَلَمْ يَخْرُجِ الشُّعْرَاءُ فِي مَرَاثِي الْعُلَمَاءِ عَنْ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي التَّعْزِيَةِ ،
وهي نماذج قليلة تخفت فيها الروح الشعرية .
تلك أبرز المعاني التي كان يدور في فلكها الشعراء في رثائهم ، تم استجلاؤها من النماذج المتفرقة في كتب التراجم والتاريخ . وقد تبين لي أن قصائد هذا الغرض لم تكن كثيرة ، حتى الشعراء الثلاثة الذين ظفرت بدواوينهم المخطوطة ، وهم : (أحمد العليف ، وعبدالرحمن باكثير ، وعبدالعزیز الزمزمي) لم يعنوا كثيراً بهذا الغرض ، أو أن جامعي الدواوين الثلاثة أهملوا بعض القصائد الرثائية ؛ فديوان العليف يحوي ثلاث قصائد في الرثاء ، وديوان باكثير يحوي قصيدتين لم يفصح عن اسم المرثي في إحداهما ، أما ديوان الزمزمي فقد خلا من الرثاء ، وقد حصلت على بعض قصائده من مصادر أخرى غير الديوان.

(1) نيل المنى ، جار الله بن فهد 318/1 . وهكذا جاء الفعل (وَفِيهِ) في المصدر ، والصحيح : وَفَّهِ .

(2) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 22/ب .

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص 356 .

4- الشعر السياسي :

اتصل الشعر العربي بالسياسة منذ العصر الجاهلي ؛ إذ كان الشاعر لسان القبيلة ، ينتصر لها في مواقفها محتجاً لها ، معنفاً على خصومها ، ثم أصبح مفهوم الشعر السياسي بعد ذلك هو "الفن من الكلام الذي يتصل بنظام الدول الداخلي أو بنفوذها الخارجي ومكانتها بين الدول" (1) .
وحيثما ننظر في نتاج شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، نجد أن الشاعر كان لسان قومه المتحدث عن آلامهم وآمالهم ، وأنه كان يدون الأحداث التاريخية ، والتقلبات الاجتماعية ، والصراع المريع بين الوجهاء ، وأصدقاء ذلك كله لدى الأفراد والجماعات . وأصبح الشعر بذلك سجلاً حافلاً بما كان يدور في تلك الأجواء .

من ذلك ما حصل في سنة 812هـ ؛ إذ كان بين بني حسن من أهل مكة وأمير الحاج المصري مشاجرة عظيمة ، أفضت إلى قتل بعض الحجاج ونهبهم غير مرة ، ولم يحج بسبب ذلك من أهل مكة إلا اليسير ، وسبب هذه الفتنة أن صاحب مصر الملك الناصر فرج انحراف على الشريف حسن بن عجلان نائب السلطنة ببلاد الحجاز ، فعزله عن ذلك وعزل ابنه عن إمرة مكة ، وأسرّ ذلك إلى أمير الحج المصري (بيسوق) ، فاستعد للحرب واستصحب معه أنواعاً من السلاح ، وورّى بأن قصده بذلك الدخول إلى اليمن ، وبلغ الشريف حسن ذلك ، فأعد عدته للدفاع عن إمارته (2) .

وقد نظم يحيى بن فهد (3) أرجوزة في (84 بيتاً) أشار فيها إلى ذلك ، قال منها :

- (1) تاريخ الشعر السياسي ، أحمد الشايب ، ص4 .
 - (2) شفاء الغرام ، الفاسي 252/2 . وانظر : إتحاف الوري ، عمر بن فهد 470/3 ؛ وتاريخ مكة ، السباعي 292/1 ، 293 .
 - (3) هو يحيى بن عبدالرحمن بن أبي الخير محمد بن محمد بن عبدالله بن فهد . ولد في سنة 789هـ بمكة ، ونشأ فيها ، حيث حفظ القرآن الكريم وكثيراً من المتون ، ودرس على جمع من العلماء في مكة والمدينة والقاهرة . ذكر النجم بن فهد أنه تولع بنظم الشعر ، فنظم الشعر الحسن ، وكتب بخطه كثيراً لنفسه ولغيره . وقد رحل إلى بلاد عديدة للتجارة وغيرها ، كالشام واليمن وبلاد الروم والهند . وفي آخر حياته أقام في الهند حتى توفي هنالك في كبرج سنة 843هـ .
- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 1241/2-1244 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 233/10 .

لَقَدْ جَرَى فِي سَنَةِ اثْنَيْ
وَاخْتَبَطَ الْحِجَازُ طَرّاً وَغَدّاً
مَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ أَمِيرِ الْحَاجِ
فَقَامَ مِنْ مِصْرَ وَأَبْدَى وَرَقَهُ
بِأَنَّ سُلْطَانَ الْحِجَازِ حَسَنًا
وَأَطْلَعَ التُّرْكَ عَلَى مَا ظَهَرَ
مِنْ الْخِبَاطِ مَا نَفَى عَنَّا الْكَرَا
مُوسِمَنَا مُشَتَّتًا مُنْكَدَا
بَيَسَقِهِمْ خَلِيفَةَ الْحَجَّاجِ
مَضْمُونَهَا يَا صَاحِ زُورٍ نَمَقَهُ
يَطْلُبُ مِنْهُ النَّصْرَ يَبْغِي الْيَمَنَا
وَفِي الْفَوَادِ سِرُّهُ وَأَضْمَرَا (1)

وحينما وصل الحاج إلى ينبع أعلن أميره عزل الشريف حسن وتعيين علي بن مبارك بن رميثة ، فأشار ابن فهد إلى ذلك بقوله :

وَسَارَ حَتَّى قَدْ أَتَى لِيَنْبُعِ
أَقَامَ فِيهَا خَمْسَةَ أَيَّامٍ
وَأَمَرَ الْمَنَادِي أَنْ يُنَادِيَ
فَإِنَّ مَكَّةَ أَمِيرُهَا عَلِي
فَاصْغِ لِمَا قَدْ قُلْتُهُ وَاسْمَعْ وَعِ
وَلَمْ يَكُنْ إِذَنْ مِنَ الْإِمَامِ
[أَنْ] اسْمَعُوا يَا مَعْشَرَ الْعِبَادِ
أَمْرَهُ السُّلْطَانُ فِيهَا أَنْ يَلِيَ (2)

وما لبث السلطان أن أعاد الشريف حسن وولديه إلى ولايتهم وبعث إليه بالخلع والعهد مع خادمه فيروز الساقى (3) . فتناول ابن فهد ذلك بأرجوزته قائلاً :

ثُمَّ أَتَى الْحَجَّاجُ وَادِيَ الْجُحْفَةَ
فَجَاءَهُمْ فَيُرُوزُ بِالْأَمَانِ
يُخْبِرُهُمْ أَنَّ الْبِلَادَ (لِلْحَسَنِ)
وَصِدُّهُ فِي الْحَبْسِ مَثْرُوكٌ
وَنَزَلُوا فِيهَا بِكُلِّ رَجْفَةٍ
مِنَ الْإِمَامِ النَّاصِرِ السُّلْطَانِ

لقد خاض شعراء مكة والمدينة في غمار السياسة ، فأعلنوا مواقفهم من تعيين بعض الأمراء والقضاة ، وأبانوا أصداء ذلك في المجتمع ،

- (1) إتحاف الوري ، عمر بن فهد 473/3 .
- (2) المصدر نفسه 473/3 ، 474 ، ولإقامة الوزن في البيت الثالث ؛ يجب إهمال الياء في (المنادي) وعدم إشباع كسرة الدال في النطق . وقد أضفت (أن) في عجز هذا البيت ؛ لإقامة الوزن .
- (3) المصدر نفسه 471/3 . وانظر : شفاء الغرام ، الفاسي 253/2 .
- (4) إتحاف الوري ، عمر بن فهد 475/3 ، وجاء فيه : أن البلاد (لحسن) ، فأضفت اللام (للحسن) ؛ لإقامة الوزن .

فكان الشعر حلقة وصل بين السلطان وما يدور في البلد الحرام ؛ فقد أعاد السلطان (برسبائي) الشريف حسن بن عجلان إلى إمرة مكة في بداية سنة 829هـ ، وذلك بعد أن سمع قصيدة الشاعر أحمد بن سعد الخيفي التي خاطبه بها – على لسان مكة المكرمة – متشوقاً إلى الشريف حسن ، شاكياً من الأحوال التي آلت إليها البلاد بعده ، مشيراً إلى عدم الرضا عن قاضيها المالكي كمال الدين بن الزين ، حيث يقول :

مِنَ الْبَلَدِ الْمُخَصَّصِ بِالْأَمَانِ وَكَعْبَتِهَا الْمُشْرِفَةِ الْمَبَانِي
نُقْبَلُ كُتُبَ سُلْطَانِ الْبَرَائِيَا أَبِي النَّصْرِ الْمُؤَفَّقِ لِلْمَعَانِي
بِرَسْبَائِي الَّذِي مَلَكَتْ يَدَاهُ جَمِيعَ الْخَلْقِ مِنْ قَاصٍ وَدَانٍ
وَيُنْهِي مَا بِهَا مِنْ عُظْمِ شَوْقٍ إِلَى سُلْطَانِهَا بِذَرِ الزَّمَانِ
وَيَشْكُو مَا بِهَا مِنْ سَوْءِ حَالٍ وَمِنْ ضُرِّ يَرَاهُ وَهُوَ دَانٍ
وَمَذْهَبُ مَالِكٍ فِيهَا يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ طَلَقَ اللِّسَانِ
أَغِيثُونِي أَجِيرُونِي سَرِيعاً فَإِنِّي قَدْ بُلِيتُ بِمَا دَهَانِي (1)

ويخاطب السلطان (برسبائي) داعياً له بالرفعة وعلو الشأن ، مشيراً إلى حاجة البلاد إلى قائدها ، حيث يقول على لسان مكة :

أَجْرَنِي وَاحْمِنِي مِنْ كُلِّ ضَيْمٍ حَمَاكَ اللَّهُ بِالسَّبْعِ الْمَثَانِي
وَصَانِكَ مِنْ مُلَمَّاتِ اللَّيَالِي وَزَادَكَ رِفْعَةً وَعُلُوَّ شَانٍ
فَرُدَّ إِلَيَّ سُلْطَانِي سَرِيعاً فَإِنِّي كَالْجَوَادِ بِلا عِنَانِ (2)

ولم يقف الشعراء أمام الأحداث السياسية موقف المتفرج المتابع للأقوى ، بل تناولوها بشعرهم ، صادحين بآرائهم التي كانت تعبر عن نظرة المجتمع آنذاك . ولعل ما حصل للشريف علي بن حسن بن عجلان (أمير مكة) ولأخيه إبراهيم الذي كان يساعده خير شاهد على ذلك ، إذ "وقع الخلاف بينهما وبين قائد الجند الشراكسة في مكة ، فاستطاع قائد الجند أن يستصدر أمراً بالقبض على الأخوين وعزلهما ، وعندما وصلت

(1) إتحاف الوری ، عمر بن فهد 628/3 . وقد جاء صدر البيت الثاني في غاية المرام ،

عبدالعزیز بن فهد 348/2 ، وسمط النجوم العوالي ، العصامي 261/4 : تُقْبَلُ كَفَّ .

(2) المصدر السابق 629/3 .

إليه الأوامر بذلك احتال على الأخوين حتى قبض عليهما ، وأظهر مرسوماً بتولية الأخ الرابع أبي القاسم بن الحسن بن عجلان ، ثم ما لبث الشراكسة أن وضعوا الأغلال في أعناق الأخوين المعزولين وساقوهما إلى مصر في سنة 846هـ (1) .

وأنكر أهل مكة هذه الإهانة ، واستغربوا أن يحصل ذلك للشريفين . وأنشد الشاعر محمد بن عبد القوي أبياتاً خاطب بها قائد جند الشراكسة في مكة الذي قبض على الأخوين ، معنفاً عليه فعلته ، قال فيها :

ما جاءنا قط ولم يأتنا مثلك يا تمرأ في الفتك
تسير بالأخشب من مكة والأخشب الثاني على الفلك
ومثل هذا لم يكن قط في ملك بني العباس والترك
إن شريفي مكة يمسا من غير ما طعن ولا سفاك
هذا بتقدير الذي قهره ينزع من شاء من الملك (2)

ومن ذلك ما فعله الأمير قيت الرجبى في الشريف بركات بن محمد بن بركات إثر صراعه مع أخيه أحمد ؛ حيث قبض عليه ومن معه من الأشراف ، ووضعهم في الحديد ، وسار بهم حتى دخل مصر ، فأنكر الناس فعلته (3) ، وأنشد الشاعر عبد القادر ابن عبد الرحمن العراقي (4) قصيدة أبان فيها سوء ما صنعه الرجبى وشدد عليه النكير ،

- (1) تاريخ مكة ، السباعي 303/1 ، 304 . وانظر تفصيل ذلك في : إتحاف الورى ، عمر بن فهد 186/4-195 ، وغاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 494/2-497 .
(2) إتحاف الورى ، عمر بن فهد 194/4 ، 195 .

(3) انظر تفصيل ذلك : في غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 144/3-148 ؛ سمط النجوم العوالي ، العصامي 286/4 ؛ منائح الكرم ، السنجاري 133/3-136 ؛ إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 309/1 ، 310 ؛ الحجاز ، محمد بكري (رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ، ص 45-49 .

(4) هو محيي الدين عبد القادر بن عبد الرحمن بن الحسين ، المكي ، الشافعي ، الشهير بالعراقي ، من فقهاء مكة . كان خطيباً بليغاً ، نعته النهروالي - في الإعلام بأعلام بيت الله الحرام - بأنه خطيب مكة ، وذكره فيمن وفد على السلطان العثماني بايزيد بن محمد في شبابه . كان حياً سنة 947هـ .

- انظر : غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 154/3 ، 155 ؛ الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، النهروالي ، ص 274 ؛ حسن القرى في ذكر أودية أم القرى ، جار الله بن فهد ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س 18 ، ج 3 ، 4 ، رمضان وشوال 1403هـ) .

حيث يقول :

يَاقِيْتُ لَا قِيَّتَ كُلِّ سُوءٍ وَأَبْتٌ بِالذَّلِّ وَالْخُسْرَانِ وَالتَّعَبِ

وَسَاءَ فِعْلُكَ فِي أُمِّ الْقُرَى دَعَا عَلَيْكَ الْوَرَى بِالْوَيْلِ

وقد أغلظ عليه اللائمة ، مشنعاً عليه بمثل قوله :

لَكِنَّ مَاذَا يُفِيدُ الْعَذْلُ فِي رَجُلٍ بَيْنَ الْخَنَازِيرِ مَعَ أَهْلِ الضَّلَالِ

وظل الشعر يقوم بدوره الفاعل في متابعة الأحداث الجارية على تلك البقاع الطاهرة ؛ فقد صدر - في سنة 830هـ - مرسوم يقضي بقفل أبواب المسجد الحرام بعد الموسم إلا أربعة منها ، فتضرر الناس واشتكوا ؛ فصدر الأمر بعزل بوابي المسجد القدامى - وكانوا من الفقهاء والقضاة - وأن يعين بدلهم بعض المحتاجين من عامة الناس ، وألزموا بملازمة الأبواب والنوم بجوارها (3) . وكان ذلك قد جاء مع الحجاج القادمين من مصر . وقد شهد الشاعر أحمد بن محمد المعيد (4) أثر ذلك على الفقراء والصالحين والمتعبدین في الحرم الشريف ؛ فنظم قصيدة منها قوله :

يَا أَهْلَ مِصْرَ يَا كِرَامَ الْوَرَى مَا بِالْكُمِّ جُنُثُمْ بِأَمْرِ غَرِيبٍ

أُمُّ الْقُرَى ضَجَّتْ وَسُكَّانُهَا ضَجُّوا وَعَجُّوا بِالْبُكَاءِ وَالتَّحِيْبِ

كَلَّفْتُمُوهُمْ كُفْلَةً صَعْبَةً أَنْكَرَهَا سَاكِنُهَا وَالْغَرِيبِ

غَلَقْتُمُ الْأَبْوَابَ عَنْ طَائِفٍ وَعَنْ مُصَلٍّ دَاخِلٍ مِنْ قَرِيبِ

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 155/3 .

(2) المصدر نفسه 155/3 .

(3) تاريخ مكة ، السباعي 301/1 ، 302 . وانظر تفصيل ذلك في : إتحاف الوری ، عمر بن فهد 646-644/3 .

(4) هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمود بن محمود بن محمد بن عمر الخوارزمي ، الشهير بابن المُعيد ، إمام مقام الحنفية بالمسجد الحرام . ولد في مكة سنة 788هـ ، ونشأ بها ؛ حيث تتلمذ على والده العالم الشاعر الذي كان إماماً لمقام الحنفية ، كما درس على عدد من العلماء في مكة ، ثم تولى التدريس ومشیخة رباط رامشت بمكة . رحل إلى عدد من الديار للتجارة وغيرها ؛ حيث دخل مصر والشام واليمن وبلاد العجم . توفي بمكة سنة 850هـ .

- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 556-554/1 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 207/2 .

وَمَنْصِبُ الشَّرْعِ الرَّفِيعِ الذَّرَا شَيَّبَتْهُ قَبْلَ وَقْتِ الْمَشْيَبِ
وَمَنْبَرُ الْخُطْبَةِ أَضْحَى إِذَا مِنْ فَرْقَةِ الْبَيْتِ حَزِينًا كَنَيْبِ⁽¹⁾

وهو يشير في البيت الأخير إلى ما جاء في مرسوم السلطان ، حيث أمر بأن يترك المنبر الذي يخطب عليه يوم الجمعة مسامتا لمقام إبراهيم ولا يجر إلى جانب الكعبة⁽²⁾ .

ولم يكن قرار السلطة مانعا لسن الشعراء من الجهر بأرائهم في عزل قاض أو خطيب ، وكذلك فيمن يتم تعيينه من القضاة والخطباء والأئمة في البلد الحرام ؛ فقد قلد الملك الأشرف (برسبائي) الشيخ محمد بن علي العبدري الشيبلي قضاء مكة ، عوضاً عن أبي السعادات بن ظهيرة ؛ فأظهر بعض الناس استياءهم من عزل أبي السعادات ، حتى قال بعض الفضلاء من أهل مكة ، مبدياً أسفه على ذلك ، مشيراً إلى أن الشيبلي غير جدير بما أولاه إياه الأشراف :

عُيُونُ مَكَّةَ تَبْكِي عَزْلَ أَبِي السَّعَادَاتِ جَالِي ظِلْمَةِ الرَّيْبِ
وَأَهْلُ مَكَّةَ ضَجُّوا بِالْدُّعَاءِ مَوْلَاهُمُ الْمَلِكُ الْعَلَامُ لِلْغَيْبِ
يَا رَبَّنَا وَمَلِيكَ الدَّهْرِ أَجْمَعَهُ إِرْحَمْ فَقَدْ ضُرِبَ الْإِسْلَامُ⁽³⁾

وحينما وقف الشاعر محمد بن عبدالقوي على هذه الأبيات ؛ جهر برأيه في الشيخ الشيبلي ، إذ عاب سلوكه وتنقصه بقوله :

وَلَمَّا تَوَلَّى أَظْهَرَ الْبُغْضَ وَلَمْ يَخْشَ مِنْ رَيْبٍ وَلَمْ يَخْشَ مِنْ
فَعَجَلَ رَبِّي عَزْلَهُ فِي شَبَابِهِ⁽⁴⁾ أَلَا فَاَنْظُرُوا الْمَعْرُوفَ يُضْرَبُ⁽⁵⁾

وكان ابن عبدالقوي سلط اللسان ، ذكر ابن فهد في معجم الشيوخ⁽⁵⁾ أنه "أقبل على ثلب الأعراض وتمزيقها بالهجو القذيع" . وهو جريء في إظهار ما يعتقد صواباً ، لا يخشى لوم الناس أو عقاب السلطة ، ولم يكن يتورع عن الشتيمة ، وإن كان المعني فاضلاً ؛ من ذلك ما حصل حينما جدد سعد الدين بن يوسف (ناظر جدة) جامعها في سنة 830 هـ ،

(1) إتحاف الوري ، عمر بن فهد 646/3 .

(2) المصدر نفسه 645/3 .

(3) المصدر السابق 640/3 .

(4) المصدر نفسه 640/3 .

(5) ص 234 .

وجعل إمام المسجد محمد بن هوا بسعاية القاضي أبي البقاء ابن الضياء الحنفي ، حيث قال ابن عبدالقوي :

جَدَّدَ سَعْدُ الدِّينِ فِي جُدَّةٍ مَسْجِدَهَا الْجَامِعَ يَرْجُو الثَّوَابَ
وَقَرَّرَ الْعِزَّ إِمَاماً بِهِ ابْنٌ هَوَا مَا كَانَ ذَا فِي حِسَابِ
فَلَعَنَ اللَّهُ عَلَى ابْنِ الضِّياءِ مَا دَامَ يُخْطِئُ وَجْهَ الصَّوَابِ (1)

وكان لاتصال الشعراء بالأمرء أثر في مواكبة الأحداث السياسية الجارية ، فرصدوا ما شهدوا منها ، وكانوا يقدمون التهنئة (2) والنصح للأمراء في كثير من المناسبات . من ذلك ما حدث حينما طلب السلطان الظاهر (جقمق) من الشريف بركات بن حسن بن عجلان الحضور إلى مصر في سنة 844هـ ، حيث عزم على السفر ، فاجتمع به التجار والمجاورون وأهل مكة ، فسألوه ورغبوه في الإقامة ؛ لأنهم إذا سافر لا يأمنون على أنفسهم (3) . وقد صاحب الشعر هذا الحدث ؛ فرأينا الشاعر محمد بن عبدالقوي يبدي نصحه للأمير بتلبية طلب السلطان بعد الاستعانة بالله الذي لا يخيب من استعان به ، إذ يقول :

يَا بَا زُهَيْرِ اسْتَعِنْ بِاللَّهِ فِي فَإِنَّ مَنْ يَسْتَعِنُ بِاللَّهِ لَمْ يَخِبْ
... فَأَعَزَّمْ عَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ سِثْرًا مِنَ اللَّهِ مَسْبُولًا مِنْ
... وَابْشِرْ بَعُودَكَ لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ أَسْرًا حَالِكَ تَسْمُو أَرْفَعَ الرُّتَبِ
لَا تَخْشَ مِنْ سَفَرٍ تُنْشِيهِ فِي وَفِي سُرُورٍ وَفِي أَمْنٍ مِنَ النَّوَبِ
فَقَفِّي نَزُوجِكَ حُسْبَانًا لَهُ وَافِي بِنَصْرَةِ سَعْدِ الْحَظِّ فِي

وكذلك فعل الشاعر أحمد العلي ، مخاطباً الشريف بركات بن محمد بن بركات حينما انتصر على جماعة نهبوا دور مكة وعاثوا في الحرم ، حيث حثه على قتلهم ما دام قد ظفر بهم ، وألا يقبل الفدية ، مشيراً إلى عاقبة الحزم الحميدة ، إذ يقول :

- (1) إتحاف الوری ، عمر بن فهد 638/3 .
- (2) انظر : شعر المديح ، فقد صاحب الشعراء الأمرء في انتصاراتهم ، ودأبوا على تهنئتهم إثر كل انتصار ، واغتنموا كل مناسبة تنيح لهم التهنئة والمديح .
- (3) انظر : غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 417/2 ، 418 .
- (4) المصدر نفسه 418/2 ، 419 .

لَا تَجْعَلِ الْمَالَ عَنْ أَرْوَاحِهِمْ مِنْ اللَّئَامِ فَبَيْسَ الْمَالِ مِنْ بَدَلٍ
إِيَّاكَ وَالْعَفْوَ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ غَدْرٌ لَا تَجْعَلِ الْجِدَّ فِيهِمْ مَوْضِعَ
وَتَتْرُكِ الْحَزْمَ عَيْنًا ثُمَّ تَطْلُبُهُ دُنْيَاً فَتَقْرَعَ سِنَّ النَّادِمِ الثَّكِلِ (1)

ويحثه على تعقب رأس أولئك القوم وإبادته ، مبدياً نصحه بقوله :
لَا تَقْطَعْ الرَّجْلَ مِنْ قَوْمٍ وَالرَّأْسُ فِيهِمْ صَاحِيحٌ غَيْرُ
فَالْحِلْمُ زَيْنٌ وَلَكِنْ يَا ابْنَ حَيْدَرَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ضَرْبٌ مِنْ
وَالصَّفْحُ عَنْ مُجْرِمٍ مِنْ بَعْدِ عَجَزٌ وَلَسْتُ بِذِي عَجَزٍ وَلَا مَلَلٍ
فِيمَ التَّغَاضِي وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ وَالْجَرْحِ مِنْهُمْ طَرِيٌّ غَيْرُ

ومن الشعراء من يدعو إلى السلم حين يميل إليه الخصم ويكون فيه الخير ، كالشاعر أحمد الفاسي الذي جهر برأيه للشريف حسن بن عجلان بعد توجهه إلى حلي (3) سنة 804 هـ ، عقب الفتنة التي كانت بين بني كنانة (4) (المقيمين في حلي) ودریب بن أحمد بن عيسى (صاحب حلي) وجماعته ؛ حيث إنه بعد أن دنا الشريف حسن بن عجلان من حلي ، خضع له موسى بن أحمد بن عيسى (أخو دریب) الذي قام مقامه في ولاية حلي بعد مقتله (5) . والشاعر يقتبس معنى جليلاً ، حثاً على التسامح والرفقة بالمستضعفين ، إذ يقول :

فَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا يُرِيدُوا خِدَاعاً فَأَنْتَ بِاللَّهِ وَاثِقُ

(1) المصدر نفسه 196/3 .

(2) المصدر السابق 196/3 .

(3) ميناء حلي ما يزال معروفاً [1425هـ] . يقع على ساحل البحر الأحمر . وحلي واد مشهور به عدة قرى ، منها قرية ساحل حلي . ويمر بحلي الخط العام المؤدي من جازان إلى مكة المكرمة . وهي تابعة إدارياً لمحافظة القنفذة ، التابعة لإمارة مكة المكرمة .

- انظر كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ، أبو إسحاق الحربي 646 ، 647 ؛ وفرجة النظر في تراجم رجال من بعد القرن الثالث عشر ، أحمد المعافا ، ص 19 (الهامش) .

(4) بنو كنانة : بطن من بوس من زهران بن كعب .

- معجم قبائل الحجاز ، عاتق البلادي 422/3 .

(5) انظر : العقد الثمين ، الفاسي 96/4 ، 97 ؛ إتحاف الوري ، عمر بن فهد 426/3 ، 427 ؛ غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 261/2 ، 262 .

وَأِنْ ضَرَبْتَ لِلْغَدْرِ فِي الْأَرْضِ فَلَا سَلَمَتَ لِلْغَادِرِينَ مَرَافِقُ
... خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْأَمَانِ لَخَائِفٍ فَإِنَّكَ (بِالضُّعْفَى) رَعُوفٌ

وسجل الشعر ما كان يدور بين الأمير في مكة والسلطان من أمور تهم السلطة ، كأن يعرض الأمير أحواله ، أو يجدد ولاءه للسلطان كما فعل الشريف بركات بن محمد بن بركات في قصيدته التي خاطب بها السلطان (قانسوه الغوري) شاكياً حاله ، مديعاً ولاءه بقوله :

أَيَا قَانِصُوهُ اسْمَعْ بِحَقِّكَ فَإِنِّي لَشَرَحِ الْحَالِ نَحْوُكَ رَافِعُ
بُلَيْتُ بِجَوْرِ مَنْ زَمَانٍ يُقَارِعُنِي بَيْنَ الْوَرَى وَأَقَارِعُ
وَحَقِّكَ مَا أَفْنَيْتُ مَالِي سِوَى فِي رِضَا السُّلْطَانِ وَاللَّهِ
فَإِنْ يَكْ قَدْ أَرْضَاكَ مَا قَدْ فَإِنِّي بِهِ رَاضٍ بَلَى ثُمَّ قَانِعُ⁽²⁾

والشريف بركات بن محمد شاعر جيد ، أظهر ولاءه للسلطان وشكره على ما أولاه إياه في أكثر من قصيدة ، منها قصيدته العينية التي نظمها في سنة 918هـ . حينما أرسل إليه السلطان الغوري يدعوه لزيارة مصر ، حيث اعتذر بكبر سنه وأرسل ابنه محمداً (أبانمي) الذي وجد من السلطان إكراماً وحفاوة عظيمة . والشريف بركات في هذه القصيدة يشكر الملك الأشرف قانسوه على ما فعله مع ولده ، ويجدد ولاءه ، معتذراً عن عدم حضوره بقوله :

لَوْلَا الْمَقَادِيرُ تَجَرِّي فِي أَتَى إِلَيْكَ بِثُوبِ الْفَقْرِ يَدْرِعُ
وَقَدْ أَتَاكَ ابْنُهُ وَالسَّعْدُ يَقْدُمُهُ أَبُو نَمِيٍّ وَأَدْنَى خَطْوِهِ سَرَعُ
... غَدَا قِرَاهُ الرِّضَا عَنْ ذَنْبٍ عَفَوْا وَفَضْلًا بِهِ التَّشْرِيفُ
فَاجْعَلْهُ نَشَاكَ لَا يَصْغُرُ لَدَيْكَ يُقْصِرُ الْعَوْدُ عَمَّا يُدْرِكُ الْجَدْعُ
إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا مَا أَسْسُوا وَشَيِّدُوا وَسَقُوا الْغَرَسَ الَّذِي
فَقَدْ أَطَاعَكَ مِنْ أَعْطَاكَ مُهْجَتَهُ وَبَاتَ مِنْهَا بَحْرَ الْبَيْنِ يَلْتَدِعُ

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد/358 . وقد جاء فيه : فَإِنَّكَ (بِالضُّعْفَى) . والصواب ما أثبتته .

(2) المصدر السابق 159/3 ، 160 ، وقوله : (بحقك) في البيتين الأول والثالث يدخل في باب الحلف بغير الله ، وهو غير جائز .

مَا زَالَ وَالشَّوْقُ يُدْنِيهِ إِلَيْكَ وَالْخَوْفُ يُقْصِيهِ فَيَنْجَمُ
وَحَيْثُمَا كَانَ لَمْ يَخْرُجْ بِطَاعَتِهِ عَنْ خِدْمَةٍ لَمْ يَكُنْ فِي طَيْهَا
يَوَدُّ تَقْبِيلَ أَرْضِ أَنْتَ سَاكِئَهَا وَالطَّيْرُ يَخْشَى وَرُودَ الْمَاءِ

وحرص الأمراء على توطين دعائم الإمارة وإشاعة الأمن فيها ، فلم يألوا جهداً في سبيل القضاء على كل فتنة وتأييد كل خارج عن الطاعة . وقد تابع الشعراء جهود الأمراء في هذه السبيل ، وأشادوا بها ، وفضحوا المفسدين في الأرض . وفي هذا الشعر المصاحب للغزوات بيان لرأي الشعراء في السياسة التي انتهجها أولئك الأمراء .

فقد هنا الشاعر أحمد العليّ الشريف بركات بن محمد ، حينما انتصر على الجماعة الذين نهبوا دور مكة وعاثوا في الحرم - بقصيدة تحدث فيها عن تلك الواقعة ، وأزرى على رؤوس أولئك القوم ، وشنّر عليهم ، مشيراً إلى أن ما أصابهم من فعل أيديهم ، إذ يقول :

فَمَنْ يُبْلَغُ عَنِّي غَيْرَ مُعْذِرٍ يَحْيَى بْنُ سَبْعٍ مَقَالاً غَيْرَ ذِي
وَمَالِكاً وَابْنَ قَيْمَارٍ وَشِيعَتَهُمُ وَالتَّابِعِينَ مِنَ الْأَوْشَابِ وَالسَّفَلِ
لَا بُدَّ أَنْ يَبْلُغَ الْمَوْتُورُ غَايَتَهُ وَيَشْرَبَ الْكَأْسَ سَاقِيَهَا عَلَيَّ

ويذكرهم بما شهدوه من بطش الشريف بركات ، حيث يقول :
كَمْ نَاشَكُمُ بِالْقَنَاءِ فِي عُقْرِ حَتَّى اعْتَصَمْتُمْ بِبَذْلِ الْخَيْلِ
وَكَمْ سَقَاكُمُ غَدَاةَ الرَّوْعِ مِنْ بِالسَّيْفِ كَأْسَ الرَّدَى عَلَا عَلَيَّ
وَكَمْ أَذَاقَكُمُ حَرَّ الْجَلَادِ بِهِ فِي مَاقِطِ الْحَرْبِ وَالْأَقْدَامِ لَمْ

ثم يهزأ بهم بقوله :

سُمْتُمْ مَقَاماً رَفِيعاً فَوْقَ وَلَا يُقَاسُ نَهْيُكَ الْعِيرِ

وفي سنة 913 هـ خرج الشريف بركات لقتال مالك بن رومي الزبيدي الذي كان سبباً في نهب مكة زمن أخيه أحمد ، فقتل مالك بن

(1) المصدر السابق 268/3 ، 269 .

(2) سمط النجوم العوالي ، العصامي 324/4 .

(3) المصدر نفسه 324/4 ، 325 . والمأقط : المضيق في الحرب ، والموضع الذي يقتتلون فيه .

(4) المصدر نفسه 325/4 .

رومي وأولاده الثلاثة ، وأخاه مشهور بن رومي وطائفة كثيرة منهم بعد أن ظفر بهم بجبل قرب الرُّوحاء (1) ، وبعث برؤوسهم إلى السلطان الغوري في مصر ، فنصبت على أبواب مصر ، وفرح السلطان بذلك (2)

وفي سنة 915هـ أرسل الشريف بركات إلى السلطان هدايا نفيسة ، فقابلها السلطان بالسرور وإكرام حاملها ، ثم أرسل معه هدية عظيمة للشريف بركات ، وخلعاً سنياً ، وأبدى له رضاه عن الشريف بركات ، وأثنى عليه لظفره بالزبيدي ومن معه ، وذكر أنه غاضب عليهم ؛ لخروجهم على الحجاج ، ونهبهم المرة بعد المرة وقطعهم الطريق ، وأنه لو لم يشف الشريف بركات ما في نفسه لخرج إليهم .

وكتب للشريف بركات كتاباً فيه إكرام شديد له ؛ فقد خاطبه بلفظ مولانا وشريفنا ، وفوض إليه أمر الأقطار الحجازية حتى ينبع ، فلما وصلت الهدية ، والخلع ، والثناء من السلطان ، والرضا سر الشريف بركات (3) .

وقد نظم الشاعر أحمد العليق قصيدة بلغت (74 بيتاً) (4) . ذكر فيها ظفر الشريف بركات بمالك بن رومي وقومه ، ممجداً ذلك الانتصار بقوله :

دَرَى الْعَزَّ مَا قَامَتْ عَلَيْهِ الْمَمَالِكُ وَمَا شَيَّدَتْهُ الْمُرْهَقَاتُ الْبَوَاتِكُ
وَمَا اعْتَنَقَتْ فِيهِ الْفَوَارِسُ فِي وَمَا صَافَحَتْ فِيهِ الصِّفَاحُ
وَقَتْلُ الْعَدَى صَبْرًا كَمَا شَاءَتْ وَنَيْلُ الْمُنَى وَالْفَائِثُ الْمُتَدَارِكُ

(1) الرُّوحاء : قرية على نحو 73 كيلاً من المدينة على طريق مكة .

- معجم معالم الحجاز ، البلادي 85/4 .

(2) انظر : غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 202-200/3 ؛ سمط النجوم العوالي ، العصامي 305/4 ؛ منائح الكرم ، السنجاري 154/3 ، 155 ؛ إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 324/1 .

(3) سمط النجوم العوالي ، العصامي 305/4 ، 306 .

(4) المصدر نفسه 309-306/4 . وبلغت (54 بيتاً) في ديوان الشاعر المخطوط (ورقة 12/1 - 13/ب) ، وكذلك في إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 328-324/1 ، و(51 بيتاً) في منائح الكرم ، السنجاري 170-157/3 ، كما ذكر ابن فهد مقتطفات من القصيدة في غاية المرام 206-202/3 . وقد يلحظ المطلع على القصيدة في هذه المصادر أن ثمة اختلافاً بينها في ترتيب الأبيات ، وفي بعض الألفاظ .

وما المجد إلا ما وترت به العدى فدارت بهم ريح الحمام
وعزم يبيد الخيل والعيس تكلب به أخفافها والسنايب

وشحذ لسانه على الجماعة الخارجين عليه ، متناولاً ما آلت إليه حالهم ، مشيراً إلى عزيمة الشريف بركات وعجزهم عن بلوغ شأوه ، إذ يقول :

غوت عن طريق الرشد منها وجهلاً وغرتها ظنون بواشك
متى كانت الأوغاد ترقى إلى وتسمو إلى عالي الأمور
وتخطب أوشاب الشوايا مراتباً وتنهض للحرب الزبون
طرقتهم وقت الهجير بصكة عمت لديها فاتك العزم فارك
وطفت عليهم يا همام بنية كما طاف بالبيت المعظم ناسك
فغادرتهم صرعى بكل تنوفة تناوحهم ريح الصبا والروائك

هكذا كان الشعراء إثر كل انتصار ؛ يمدونه وصاحبه ، ويُعَرِّضون بالخصم ، كما فعل العليف في الأبيات السابقة ، وكقول الشاعر علي الجَم مشيداً بإيقاع الشريف حسن بن أبي نمي ببعض مناوئيه :

إن هم في لقاءك إلا شياة بمخاليب الأسد والأشبال
جعلتهم بزائك الشهب طعماً حين مرققتهم برشق النبال
حين أمطرتهم سحب المنايا وبروق الظبا عليهم

ومضى الشعراء يشيدون بانتصارات الأمراء في غزواتهم ، معجبين بسياسة الحزم التي انتهجوها في سبيل قمع كل فتنة . من ذلك ما فعله الشاعر محمد بن أحمد النهروالي ، حينما أثنى على الشريف حسن بن أبي نمي بعد انتصاره في غزوة سوق الخميس ؛ إذ كان من عادة أهله أن يمنعوا كل من وصل إليهم من الخارجين على أمراء مكة ، كما أنه تكرر منهم بعض الأفعال غير اللائقة التي ما لبثت أن زالت بعد أن قصدهم الشريف حسن . يقول النهروالي معظماً ذلك الجيش والانتصار :

(1) سمط النجوم العوالي ، العصامي 376/4 . وهكذا جاءت فيه لفظة (تلاي) . ويبدو أن الشاعر أراد أن السيوف ونحوها كانت تُلاي (تتألاً كالبرق) ، وسهل مراعاة للقفية .

خُضْتُمْ خَضِيمَ جَحَافِلٍ وَسَلَاهِبٍ سَبَحَتْ بِكُمْ وَسَفَايِنٍ فِي أَبْحُرٍ
وَقَطَعْتُمْوَا (رُؤْسَ) (1) الْعِدَى مُدَّتْ إِلَيْهَا مِنْ طِوَالِ
فِي رَوْضَةٍ أَغْصَانُهَا سُمُرُ الْقَنَا سَالَ الصِّفَاحُ بِهَا مَسِيلُ
تَسْقِي كِتَابَهَا جَدَاوِلَ عَنَدَمٍ مِنْ خَالِصِ الْعَلَقِ النَّجِيعِ

وفي أواخر سنة 948هـ تعرض ميناء جدة لعملية تخريب في أثناء مرور الحملة البرتغالية في طريقها من جاوة إلى السويس ، وقد تنبه الشريف أبو نمي للخطر المهدد بجدة ؛ فترك مكة في موسم الحج ، وأناب ابنه أحمد ، وتوجه إلى جدة في جيش كبير جمعه من أهل مكة والقبائل المجاورة لها ، فقاتلهم بنفسه وماله ، واستمر في موقفه مدافعاً عن جدة حتى أجلاهم (3).

وقد أعجب الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي بهذا الموقف البطولي للشريف أبي نمي ؛ فمدحه بقصيدة أبان فيها حسن تدبيره ، وحرصه على حماية البلاد من أي خطر ، وشدة بأسه في مواجهة المخربين ، مشيراً إلى أنهم عادوا خائبين . يقول منها :

تَدْبِيرُهُ الْمُلْكُ لَهُ دَيْدَنٌ فَلَمْ يَنْمَ عَنْهُ وَلَمْ يَنْعَسِ
كُلُّ عَزِيزٍ ذَلَّ مِنْ بَاسِهِ وَهَابَهُ الرُّومِيُّ وَالشَّرْكَسِيُّ
سَلِ النَّصَارَى عِنْدَمَا قَارَبُوا جُدَّةَ عَنْ جَدِّهِمُ الْآتَعَسِ
مَاذَا الَّذِي نَكَسَ أَعْلَامَهُمْ عَنْهَا نَعَمَ لَوْلَاهُ لَمْ تُنْكَسِ
ثُمَّ انْتَبَهُوا لِلْهِنْدِ وَالرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ سَارَ إِلَى قَبْرِسِ (4)

وظل الشعر وسيلة لبيان رأي الشعراء في السياسة المتبعة ؛ فقد صاحب الشعر الفتوحات ، وجهر الشعراء بأرائهم المؤيدة لها ، على نحو قول الشاعر محمد بن أحمد النهروالي ، حينما فتح سنان باشا اليمن :

لَكَ الْحَمْدُ يَا مَوْلَايَ فِي السِّرِّ عَلَى عِزَّةِ الْإِسْلَامِ وَالْفَتْحِ

(1) في المصدر : رؤوس

(2) إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 553/1 .

(3) انظر : ص 190 .

(4) سمط النجوم العوالي ، العصامي 340/4 .

كَذَا فَلْيَكُنْ فَتَحُ الْبِلَادِ إِذَا سَعَتْ لَهُ الْهَمُّ الْعُلْيَا إِلَى شَرَفِ الذِّكْرِ
 جُنُودٌ رَمَتْ فِي كَوْكَبَانَ خِيَامَهَا وَآخَرُهَا بِالنَّيْلِ مِنْ (شَاطِئِي)⁽¹⁾
 تَجُرُّ مِنَ الْأَبْطَالِ كُلِّ غَضَنْفَرٍ بَصَارِمِهِ يَسْطُو عَلَى مَفْرِقِ⁽¹⁾
 عَسَاكِرُ سُلْطَانِ الزَّمَانِ مَلِيكِنَا خُلَيْفَةِ هَذَا الْعَصْرِ فِي الْبَرِّ
 حَمَى حَوْزَةَ الدِّينِ الْحَنِيفِيِّ وَبَيَّضَ الْمَوَاضِي وَالْمُتَقَفَّةِ⁽²⁾

لقد كان شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين يصاحبون الأحداث السياسية ، ويبثون آراءهم المؤيدة أو المعارضة ؛ فدوّن الشعر ما كان يجري بين الأمراء والولاطين ، وصاحب الغزوات التي كان يقوم بها الأمراء لتوطيد دعائم الإمارة ، كما أنه كان وسيلة لنقل نظرة المجتمع – آنذاك – لما كان يجري من أحداث سياسية .

-
- (1) في المصدر : من شاطئ مصر ، وفي المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير : من شاطئ النهر ، والمثبت عن ريحانة الألبا ، الخفاجي 412/1 .
 (2) البرق اليماني ، النهروالي ، ص 13 .

5- الإخوانيات :

تناول الشعراء في إخوانياتهم بعض المعاني الاجتماعية ، كالشوق والتهنئة والاعتذار والعتاب والسؤال عن مسألة دينية أو علمية ، وكان ذلك في مراسلاتهم أو في جلساتهم التي كانوا يتناشدون فيها الشعر . ولم يعمدوا إلى إطالة القصائد الإخوانية ؛ إذ إن أطولها لا يتجاوز أربعين بيتاً ، وأغلبها قصائد قصيرة ومقطوعات . وعدم الإطالة مستحب في الإخوانيات ؛ لأنها تنشأ للتواصل أو التسلية ، وتساق في الغالب بأسلوب يميل إلى التظرف والتفكه ، مما يجعل للاعتدال في الطول أثراً في سيرورتها في المجالس الأدبية والمنتديات .

- 1 -

فالشاعر يشناق إلى من يحب أو من يعجب بخلقه أو بعلمه أو بهما معاً ؛ فيكتب أبياتاً يثبت من خلالها مشاعره تجاه صاحبه ومدى شوقه إليه . والغاية في مثل هذه الأشعار بث روح الأخوة وصدق الإخاء والمودة ، مما يلجئ الشعراء إلى المبالغة - في بعض الأحيان - حتى وجدنا من لا يرى لذة لعيش ما دام إلفه بمنأى عنه .

يقول أبو بكر المرشدي (1) في رسالة كتبها إلى الشيخ جمال الدين محمد بن عبد الوهاب اليافعي :

شَاقَكَ (الْقَلْبُ) وَإِنْ لَمْ تَزَلْ فِيهِ وَيَصْبُو نَحْوَكَ الْخَاطِرُ

وَلَا يَلْذُ الْعَيْشُ إِلَّا إِذَا قَابَلَ وَجْهِي وَجْهَكَ النَّاصِرُ (2)

وقد يقرن الشاعر شوقه ببيان منزلة صاحبه ، كما فعل الشاعر مسعود البخاري (3) في تشوقه إلى الشيخ محمد بن أحمد الفاسي ؛ حيث

(1) هو أبوبكر بن محمد بن أبي بكر بن علي بن يوسف ، الذُرُوي الأصل ، ويعرف بالمرشدي (ابن عم الشاعر المعروف بابن الجمال المصري) . اشتغل بالفقه والنحو وكثرت عنايته بالأدب . كان يتردد إلى اليمن للاستزاق ؛ فأدركته منيته في زبيد في ذي الحجة سنة 820هـ ، وقد جاز الثلاثين بيسير .

- انظر ترجمته في : العقد الثمين ، الفاسي 22/8 ، 23 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 74/11 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 72/3 .

(2) العقد الثمين ، الفاسي 23/8 . ويجب قطع همزة الوصل في لفظة (القلب) ؛ ليستقيم الوزن .

(3) هو مسعود بن محمد بن شعيب المكي ، المعروف بالبخاري الحنفي . ولد بمكة ونشأ بها ، وسمع من بعض علمائها والقادمين إليها . وكان أحد المكبرين بمقام الحنفية . توفي بمكة سنة 815هـ .

أراد أن يبين أثر غيابه ، فشبهه بالربيع الزاهي حين يولي ، وبالمزن حين يسح بعد غيبة ، فيعود النماء والخير بعودته ، إذ يقول :

إِذَا هَجَرَ الرَّبِيعُ بَقَاعَ قَوْمٍ تَنَكَّرَ حَالُهُمْ وَازْدَادَ وَهْنًا
فَمَنْ لَهُمْ بِعَوْدِ الْمُزْنِ مِنْهُ لَعَلَّ وُجُوهَهُمْ تَزْدَادُ حُسْنًا (1)

ومن ذلك قول الشاعر أحمد القليوبي ، داعياً الشيخ جلال الدين بن ظهيرة :

قَاضِي قَضَاةِ الشَّرْعِ يَا أَعْلَى قَدْرًا وَأَعْلَى رُتْبَةً وَكَمَالًا
إِنَّا اجْتَمَعْنَا عَارِيَيْنِ فَأَكْسَنَا بِجَمَالِ مَقْدَمِكَ السَّعِيدِ جَلَالًا (2)

وأغلب ما يكون ذلك في تشوق الشاعر إلى شيخه ، حيث يعتمد إلى بيان مكانة الشيخ بأسلوب يكشف عن مدى حبه واحترامه له ، يقول عبد الأول المرشدي (3) مخاطباً شيخه الحافظ بن حجر العسقلاني :

يَا سَيِّدِي وَإِمَامَ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَحَافِظَ السُّنَّةِ الْغَرَّاءِ عَلَى الْأَمَمِ
عَبِيدُكُمْ قَائِمٌ بِالْبَابِ مُنْتَظَرٌ يَرْجُو زِيَارَتَكُمْ يَا خَيْرَ مُغْتَمَمِ
كَيْمَا يَفُوزَ بِوَصْلِ أَيِّ مُسْتَتَرٍ عَنِ الْعُيُونِ وَسِرِّ أَيِّ مُكْتَمَمِ
فَارْفَعْ حِجَابَكَ يَا سَوْلي وَيَا وَامْنُنْ عَلَيَّ بِوَصْلٍ أَحْظَ

وأكثر الشعراء من تحايا الشوق بقصائد ومقطوعات تصور عاطفة الشاعر نحو صاحبه ، متضمنة الدعاء له والشوق إلى لقائه . ومنهم من

=
- انظر ترجمته في : العقد الثمين ، الفاسي 184/7 .

(1) المصدر السابق 184/7 .

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 528/1 . وقد سبقت الإشارة إلى أن بعض العلماء يرى كراهية الوصف بقاضي القضاة ؛ قياساً على ما يبغضه الله ورسوله من الوصف بملك الملوك .

(3) هو عبد الأول بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أبي بكر بن عبد الوهاب المرشدي . ولد بمكة سنة 817هـ ، حفظ القرآن الكريم وكثيراً من المتون ودرس على عدد من العلماء في مكة ومصر والشام واليمن ، وبرع في كثير من العلوم ، كالفقه وأصوله والحديث والنحو والصرف والبيان والبديع وعلم الكلام وغيرها ، ودرّس وأفتى . توفي سنة 872هـ .

- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 792-789/2 ؛ إتحاف الوري ،

عمر بن فهد 488/4 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 22/4 .

(4) الضوء اللامع ، السخاوي 23/4 .

صاغ مشاعره بأسلوب ضعيف ، كالشاعر عبدالقادر بن السراج (1) الذي لم يحسن سبك عباراته ، متخذاً من لغة التخاطب أسلوباً لإيصال مشاعره ، حيث يقول متشوقاً إلى الشيخ شمس الدين السخاوي :

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ مَشُوقٍ مُتِّمٍ يَوَدُّ لِقَاكُمْ كُلَّ حِينٍ بِمَغَّةٍ
وَيَسْأَلُ رَبَّ الْعَرْشِ فِي كُلِّ قَرِيبٍ اجْتِمَاعٍ عِنْدَ بَيْتٍ وَكَعْبَةٍ
وَيَجْعَلُنَا مِنْ أَهْلِ صِدْقٍ وَدَادِهِ وَيَحْجُبُنَا عَنْ كُلِّ ضَيْقٍ وَفِتْنَةٍ
وَبَعْدُ فَشَوْقِي زَائِدٌ وَتَعْطَشِي إِلَى خَيْرِ أَصْحَابٍ وَأَكْرَمِ جِيرَةٍ

ويشير إلى أن السخاوي بعث إليه رسالة كانت سبباً في إثارة عاطفته ، إذ يقول :

وَلَمَّا أَتَيْتَنِي مِنْ لَدَيْكُمْ رِسَالَةٌ فَهَاجَ بِهَا شَوْقِي وَحَرَكَ لَوْعَتِي
وَذَكَّرَنِي عَهْدًا وَمَا كُنْتُ نَاسِيًا وَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْلَى فِرَاقَ الْأَحِبَّةِ
وَعِنْدَ مُرُورِي لِلسُّطُورِ تَنَاطَرْتُ عَلَى صَحْنٍ خَذِي مِنْ دُمُوعِي

وقد نأى كثير من الشعراء عن التراكيب النثرية والأسلوب الخطابي المباشر . من ذلك هذه الأبيات التي نظمها الشاعر حسين المالكي ، مخاطباً صديقه قطب الدين النهروالي - الذي وعده أن يزوره فتأخر عنه - إذ يقول مبرزاً مكانته العلمية ومعرباً عن شوقه إليه :

يَا إِمَامًا قَدْ حَلَّ فِي ذُرْوَةِ لِمَحَلٍّ يُزَاحِمُ الْعِوُوقَا
وَهَمَامًا قَدْ اِمْتَطَى غَارِبَ دِ وَفِي الْعِلْمِ فَاضَ بَحْرًا عَمِيقًا
وَجَلِيلًا بِلَفْظِهِ يَنْشُرُ الدَّرَّ وَفَتْوَاهُ لَمْ تَزَلْ تَحْقِيقًا

(1) هو عبدالقادر بن عبداللطيف بن محمد بن أحمد بن السراج الحسني ، الفاسي الأصل ، المكي . ولد في مكة سنة 842هـ ، ونشأ بها ، حيث حفظ القرآن الكريم وصلى به التراويج ، كما حفظ كثيراً من المتون ، ودرس على عدد من العلماء في مكة والقاهرة ، واشتغل بالقراءات والفقه والعربية والمعاني والبيان وغيرها . تولى إمامة مقام الحنبلي بالمسجد الحرام ، ثم ولي قضاء الحنابلة بمكة المكرمة وقضاء المدينة المنورة . توفي بالمدينة سنة 897هـ .

- انظر ترجمته في : الضوء اللامع ، السخاوي 272/4-275 ؛ السحب الوابلة ،

ابن حميد 557/2 - 561 .

(2) الضوء اللامع ، السخاوي 274/4 ، 275 .

(3) المصدر نفسه 275/4 .

غَبَّتْ عَنَّا فَلَمْ نَجِدْ أَمْسٍ خِلَاً وَأَنْيَساً مُصَاحِباً وَصَدِيقاً
وَعَلَيْكَ الْمَدَارُ إِذْ أَنْتَ قَطْبُ خَالِصُ الْوُدِّ لَا تَزَالُ صَدُوقاً
وَمَوَاعِينُكَ الْكَرَامُ بِصَدَقٍ لَمْ تَكُنْ خِلَباً تُشَامُ بُرُوقاً
فَاعْطِفُوا بِالْوِصَالِ فَضْلاً لَكُمْ صِرْتُ نَاضِراً وَمَشُوقاً (1)
فَأجابه النهر والي بأبيات بادلّه فيها الثناء ، ودعا له ، وشكره ؛ إذ يقول :

يَا شَرِيفاً عَلَى النُّجُومِ تَسَامَى فَيَرَى تَحْتَ نَعْلِهِ الْعِوُوقَا
وَرَفِيعاً عَلَى ذُرَا الْمَجْدِ شَانَاً وَمَقَاماً لَغَيْرِهِ لَنْ يَلِيقَا
أَنْتَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ بِذُرِّ الْحُسَيْنِ الْكَرِيمِ أَصْلاً عَرِيقَا
زَادَكَ اللَّهُ رِفْعَةً وَجَلَالاً وَحَبَاكَ الْمُهَيَّمُ التَّوْفِيقَا
أَنَا فِي الْوَعْدِ صَادِقٌ لَمْ أَزُوقْ مِثْلَ غَيْرِي مَقَالَتِي تَزُوقَا
لَمْ يَغِبْ عَنْكَ خَادِمٌ قَلْبُهُ عِنْدَ ذَكَ أَضْحَى مُتَيْماً مَرْقُوقَا
فَإِنْ اشْتَقْتُ كَانَ شَوْقاً لِبُعْدٍ عِلْمَ الْوُرُقِ شَوْقَهُ النَّشُوقَا
فَلَكَ الْفَضْلُ زَائِراً وَمَزُوراً وَلَكَ الشُّكْرُ شَانِئاً وَمَشُوقاً (2)

وإذا سمع الشاعر بعارض حل بعزير لديه ؛ زاد شوقه لرؤيته ، وتفاعل معه داعياً له بالشفاء ، مشاركاً إياه فيما عرض له ، متمثلاً قول المصطفى ع : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (3) . فقد أنبى الشاعر أحمد العليّ بمرض العالم عبدالله السمهودي ؛ فتألم لذلك ونظم قصيدة أبان فيها عن تعاطفه معه ومقدار حبه له ، منها قوله :
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مَا أَلَاقِي مِنَ اللَّأْوَا صُدُودُ أَحِبَّائِي وَفَرَقَتُهُمْ أَقْوَى
وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَا عَلَيَّ مُصِيبَةٌ سَمَاعِي لِمَا قَدْ حَلَّ مِنْ أَلَمٍ

(1) السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 386/ب .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 386/ب ، 387/أ .

(3) صحيح مسلم 1999/4 ، 2000 .

عَلَى السَّيِّدِ الْمَوْلَى عَلَى الْحَبْرِ ذِي
وَمَا زِلْتُ أَدْعُو كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
وَأَسْأَلُهُ يَفْدِيكَ مِنِّي بِمُهْجَتِي
وَأَسْأَلُهُ يَشْفِيكَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَا

ويعتذر لتخلفه عن زيارته بقوله :

فِيَا غَايَةَ الْأَمَالِ يَا مُنْتَهَى
لُنَّ حَظِّي حَظِّي بِسُوءٍ تَخْلَفِي
إِلَيْكَ اعْتِذَارٌ قَاصِرٌ عَنْ مَدَى
فَأُسْأَلُكَ الْإِعْضَاءَ وَالصَّفْحَ

- 2 -

ومن شعر الإخوانيات : المراسلات لإثارة مسألة دينية ، أو طلباً للإجازة العلمية ، أو للسؤال من باب الإلغاز وبث روح الأخوة .

فقد ينظم الشاعر قصيدة متضمنة رأيه في فتوى صادرة ، يبعثها إلى صاحب الفتوى موضحاً فيها رأيه المخالف ، كالقصيدة اللامية التي وجهها الشاعر محمد الطبري (محب الدين) إلى الحافظ بن حجر . وقد تحدث نجم الدين عمر بن فهد عن مناسبتها قائلاً : "لما كنت بالقاهرة المحروسة سنة ست وثلاثين وثمانمئة ورد إليها القاضي أبو البركات بن علي بن ظهيرة ، ساعياً لأخيه أبي السعادات في عوده لمنصبه (قضاء الشافعية) وصحبته سؤالان ، معاهما : أن رجلين من طلبة العلم الشريف بها تنازعا في مسألة فرضية ، فقصد أحدهما بالسؤال عنها أخاه أبا السعادات وامتنع الآخر ، فحلف الأول بالطلاق الثلاث أنه ليس بمكة وأعمالها أحد أعلم منه ؛ فهل يقع على الحالف حنث ، أم لا ؟ وهل بالبلد من يساوي المشار إليه في العلم أو يفوقه ؟ فأجاب شيخ الإسلام الحافظ بن حجر العسقلاني والإمام السنباطي بعدم الحنث ، وأطلق الأول بانفراده في وقته وعدم مساواته ، فضلاً عن أنه يفوقه أحد في بلده ؛ وقيد الثاني بأنه إذا سئل في الفقه أجاب في الحال من الرافعي والروضة أو في الأصول فمن ابن الحاجب والبيضاوي وكذا الحديث والتفسير ، كما شاهده منه في مجاورته ببلده" (3) .

وعلى الرغم من أن الشاعر خالف ابن حجر في الرأي ، فقد أشاد

(1) ديوان أحمد العليف ، ورقة 82/ب .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 83/أ .

(3) خلاصة الأثر ، المحبي 462/2 ، 463 .

بمكانته العلمية وتمنى لقاءه ، إذ يقول :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ عَبْدٌ قَدْ أَحَبَّكُمْ طِفْلاً وَفِي كِبَرٍ فِي الْحُبِّ مَا عَدَلَا
وَيَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْظَى بِرُؤْيَيْكُمْ عَلَى الصَّفَا فَعَسَى أَنْ يَبْلُغَ الْأَمَلَا
يَا وَاحِدَ الْعَصْرِ خُذْ مِنَّا مُرَاسِلَةً تَشْكُو لِمَا قَدْ حُكِيَ عَنْكُمْ وَمَا
مِنْ مَكَّةٍ صَدَرَتْ تَشْكُو لِخَالِقِهَا أَيْضاً وَتُرْوَى لَكُمْ عَنْ أَلْسُنِ
مَا بِأَلِّ سَيِّدِنَا زَلَّتْ أُنَامِلُهُ وَاللَّهُ تِلْكَ لَعَمْرِي زَلَّةُ الْعُقَلَا
جَاءَتْ لِمَكَّةٍ فَنِيًّا قَدْ جَزَمْتَ بِهَا بِأَنَّ أَفْضَلَهَا هَذَا الَّذِي خَذَلَا
وَقُلْتَ هَذَا طَلَقٌ لَمْ يَقَعْ وَلَقَدْ قَالَ الْمُحِقُّ طَلَقُ الْأَحْمَقِ اتَّصَلَا (1)

وحينما يطلبون الإجازة للتدريس والإفتاء يصوغون ذلك شعراً يصدرونه بمكانة الشيخ العلمية ، يتلو ذلك طلب الإجازة ، فيجيبه الشيخ شعراً . من ذلك ما حصل بين الشاعر محمد بن موسى والشيخ شمس الدين الجزري ؛ فقد ذكر الفاسي وهو يترجم للشاعر محمد بن موسى أنه كتب بمكة شيئاً من شعره إلى العلامة ابن الجزري (قاضي شيراز) وكان قدم مكة من شيراز للحج والمجاورة بعد زيارته للمدينة ، فطلب منه ابن موسى أن يبيح له التدريس والإفتاء في الفقه والحديث (2) .
وقد نظم ابن موسى أبياتاً ، بدأها بالثناء على منزلة الشيخ العلمية ، تلا ذلك طلب الإجازة ، إذ يقول :

هَا قَدْ قَصَدْتُكَ أَبْغِي بِالْإِجَازَةِ زَيْفًا لَدَيْكَ بِفَتْوَى الْعِلْمِ
حَقَّقْتُمْ مَعْنِي لَفْظَ الْإِجَازَةِ لِلطَّلَابِ لَكِنْ بِلَا رَدٍّ لِمُنْتَظَرِ (3)

فلبى الجزري طلبه ، وأجازه بأبيات على نفس الوزن والقافية ، منوهاً بما بلغه من العلم ، منها قوله :

يَا عَالِماً مَا لَهُ فِي النَّاسِ مِنْ وَنَاطِماً جَوْهَرًا قَدْ زَيْنَ بِالذَّرَرِ
... شَرَفْتَنِي بِقَرِيضٍ لَا نَظِيرَ لَهُ بِسَيْطِ بَحْرٍ أَتَى صَفْوَاً بِلَا كَدَرِ
نَعَمْ أَجَزْتُكَ مَا أُرْوِي وَمَالِي نَظِمٍ وَنَثَرٍ وَأَنْ تُفْتِيَ مَعَ الْحَدَرِ

(1) المصدر نفسه 463/2 .

(2) العقد الثمين ، الفاسي 370/2 .

(3) المصدر نفسه 370/2 .

وَعَلَّمْنَا بِكَ يُغْنِي عَنْ تَقْيِيدِهِ بِشَرْطِهِ فَارَوْ مَا تَبْغِي بِلاَ خَطَرٍ
وَاعْذُرْ ضَعِيفاً بَعِيدَ الدَّارِ قَدْ قَالَهَا وَهُوَ مُجْتَازٌ عَلَى
وَقَدْ يُضْمَنُ الشعراءُ رسائلهم النثرية نتفاً من شعر الإخوانيات⁽¹⁾ ، كما
جاء في افتتاح رسالة بعثها الشاعر محمد بن عبد القوي إلى الشيخ أحمد
المقريزي ، حيث يقول :

يَا أَحْمَدُ بَنُ عَلِيٍّ دُمْتَ فِي نِعَمٍ مَدَى الزَّمَانِ مَصُوناً مِنْ تَقَلُّبِهِ
هَذَا الَّذِي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَفُوزَ مِنْ فَيْضِ فَضْلِكَ قَدْ جَاءَ الْبَشِيرُ⁽²⁾
وقد ذكر السخاوي في ترجمته للشاعر محمد الكازروني أنه عمل
كراسة في صاعقة سنة 898 هـ فيها نظم ونثر ، وأرسلها إليه وهو بمكة ،
ومما نظمه معها :

سَأَلْتُكَ يَا مَنْ لِي بِعَيْنِ الرِّضَا وَسَدَّ بِسَدْلِ السِّتْرِ عَيْبِي أَوْ جَبَرِ
تُمَهِّدُ عُذْرِي كَوْنُ أَنْي مِنْ فَمِثْلِي مَنْ أَخْطَا وَمِثْلَكَ مَنْ⁽³⁾
ولم تكن المراسلات الإخوانية مقصورة على شعراء مكة والمدينة أو
فيما بينهم وبين المجاورين - كما تبين فيما سبق - بل امتدت إخوانياتهم
إلى الأقطار الأخرى ؛ فقد وصف الشاعر محمد بن أحمد النهروالي العالم
الشامي الشيخ محمد بن هلال الحمصي قائلاً : "له شعر لا بأس به ؛ من
أوسط الشعر ، فامتدحني بقصيدة ؛ فأرسلت إليه بكسوة ومعها هذه
الأبيات ، قصدت بها التعرض بأعيان الشام :

لَا فَضَّ فَوْكَ أَدِيبَ أَهْلِ زَمَانِهِ نَظْماً وَفَاضِلَ عَصْرِهِ وَأَوَانِهِ
أَبْرَزْتَ مِنْ بَحْرِ الْقَرِيضِ وَقَطَفْتَ زَهْرَ النِّظْمِ مِنْ أَفْنَانِهِ
لَا عَيْبَ فِيهِ سِوَى مَدِيحٍ فَائِقٍ أَبْصَرْتَ قَدْرِي قَاصِراً عَنْ شَأْنِهِ
وَعَجِبْتُ إِذْ خَالَفْتَ أَهْلَ الشَّامِ حُبَّ الْغَرِيبِ وَحِزْتُ فِي إِمْكَانِهِ
وَأُظِنُّ بِالتَّحْقِيقِ أَنَّكَ هَا هُنَا مِثْلِي غَرِيبُ الدَّارِ عَنْ⁽⁴⁾

(1) المصدر نفسه 370/2 ، 371 .

(2) الضوء اللامع ، السخاوي 73/8 .

(3) المصدر السابق 272/9 .

(4) قطب الدين النهروالي مؤرخ مكة حياته وآثاره ومشاهير آلِه ، حمد الجاسر (مجلة

والنهر والي صلة قوية بالشيخ الجزيري (صاحب كتاب الدرر
الفرائد) ؛ فقد جرى بينهما اجتماع ومكاتبة ، ومما يدل على الصحة
بينهما أن الجزيري كتب إلى النهر والي أبياتاً منها قوله :

يُقْبَلُ أَرْضاً أَشْرَقَتْ شَمْسُ وَقَدْ شَرَفَتْ أَصْلاً وَفَرْعاً
فَأَجَابَهُ النهر والي :

إِذَا كَتَبْتَ كَفِّي كِتَاباً إِلَيْكُمْ مَحْتَهُ دُمُوعٌ طَوَّلَ أَوْقَاتِهَا

وقد يسأل الشاعر صاحبه ملغزاً من خلال قصيدة يبعثها إليه ، يبيت
فيها مشاعر الحب والاحترام ، ويحرص على إظهار المكانة العلمية
لصاحبه ، ولا تخلو هذه القصائد من الدعابة . من ذلك قول الشاعر
عبد النافع بن محمد بن عراق مخاطباً قطب الدين النهر والي :

يَا أَيُّهَا الْقُطْبُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ فِي دَارَةِ الْأَفْقِ لَهُ مَنْزِلُهُ
... مَا اسْمُ لَشَيْءٍ وَهُوَ مِنِّي لَكُمْ آخِرُهُ فِي (أَوَّلِ) (2) الْبَسْمَلَةِ

وَكَوْنُهُ فِي الْقَلْبِ مُسْتَوْدَعاً جَاءَ بِهِ الْأَوَّلُ فِي الْحَمْدِ لَهُ

هَذَا إِذَا ضَمَّهُ ذُو الْهَوَى مُسْتَفْرِغاً أَدْمَعَهُ الْمُسْبَلَهُ

وَأِنْ أَبَى إِلَّا انكِساراً بِهِ يَصِيرُ شَخْصاً وَهُوَ مَا أَجْمَلَهُ

وَأِنْ يُحَاوِلُ فَتَحَهُ قَلْ لَهُ حُمْتُ عَلَى مَا تَحْمِلُهُ الْأَنْمَلَهُ

... هَاتِ أَجِبْنِي سَيِّدِي إِنِّي فِي حُبِّكُمْ أَخْلَصْتُ ذِي

فأجابه النهر والي بقصيدة على نفس الوزن والقافية ؛ بادلها فيها الثناء
مفضياً بمشاعره ، حيث يقول :

يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي حُبُّهُ مَا هَدَّه الدَّهْرُ وَلَا زَلَزَلَهُ

وَيَا إِمَاماً عَالِماً فَاضِلاً يُقَرُّ أَهْلُ الْفَضْلِ بِالْفَضْلِ لَهُ

... سَأَلْتَنِي لُغْزاً وَفِي طَيْهِ مُنْدَرِجٌ حُبُّ الَّذِي أَرْسَلَهُ

العرب : س 1 ، ج 2 ، شعبان 1386 هـ).

(1) الدرر الفرائد ، الجزيري 15/1 .

(2) في المصدر : أوله .

(3) السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 386/أ .

فَقُلْتُ لِلْقَلْبِ أَلَا بُحْ بِهِ فَحَبِّذَا تَفْصِيلُ مَا أَجْمَلَهُ
وَلَا تُصَحِّفْ إِنَّ تَصْحِيفَهُ وَقَدْ (يَقُولُ) (1) اللَّهُ مَالِي وَلَهُ
أَوَّلُهُ أَبْوَابُ خُلْدٍ فَلَا أَحْرَمَكَ الْخَلْقُ أَنْ تَدْخُلَهُ
وَمَا لَهُ إِنْ صَحَّ مِنْ آخِرٍ بَلْ لَازِمٌ حَالَتُهُ الْأَوَّلَهُ
فَابْقِ وَدُمْ فِي الْحُبِّ فِي رَاضِيَةٍ أَعْمَالَهَا مُسَبَّلَهُ (2)

وقد يأتي السؤال من طالب العلم إلى شيخه ، ينظمه شعراً متضمناً
الثناء على الشيخ ، كما فعل محمد بن عبدالله الطبري (3) حينما كتب إلى
شيخه الشاعر عبدالرؤوف بن يحيى الواعظ (4) مُسَائلاً :

يَا أَيُّهَا الْحَبْرُ يَا مَنْ مِنْهُ الْعُلُومُ تَفَجَّرُ
وَمُفْرَدَ الْعَصْرِ مَنْ قَدْ لِمَسْجِدِ اللَّهِ أَزْهَرُ
بِالْأَشْثِغَالِ دَوَاماً بِقُرْبِ بَيْتِ مُطَهَّرُ
مَا الْحُكْمُ فِي كُلِّ قَاتٍ وَكُفَّتْهُ هُوَ مُنْكَرُ

- (1) في المصدر : قال . والتعديل ؛ لإقامة الوزن .
(2) السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 386/أ ، 386/ب . والبيت السادس في المصدر غير
مستقيم الوزن ؛ حيث جاء هكذا :

أَوَّلُهُ أَوَّلُ أَبْوَابِ خُلْدٍ فَلَا أَحْرَمَكَ الْخَلْقُ أَنْ تَدْخُلَهُ

- (3) هو جمال الدين محمد بن عبدالله الطبري الحسيني الشافعي ، عالم ، شاعر ، شب على
طلب العلم والأخذ من كل فن بطرف . لم تذكر المصادر المتاحة تاريخ وفاته ، ولكنه
أحد شعراء مكة الذين عاشوا في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين .
- انظر ترجمته في : نفحة الريحانة ، المحبي 54/4-57 ؛ سلافة العصر ، ابن

معصوم ، ص 63 ، 64 ؛ المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، 456 ، 457
؛ الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري ، الراددي 159/1 الهامش (5) .

- (4) هو عبدالرؤوف بن يحيى بن عبدالرؤوف المكي ، الشافعي ، وكان جده يعرف بالواعظ .
ولد الشاعر عبدالرؤوف في سنة 930هـ بمكة المكرمة ، وحفظ القرآن الكريم وكثيراً
من المتون في عدة فنون ، وأخذ عن الشيخ ابن حجر الهيتمي علوماً كثيرة ، منها
التفسير والحديث والأصول والعربية ، وكان من أجل تلامذته . تميز على معاصريه
بكثير من الفنون ، كالمنطق والنحو والصرف والعروض ، وأجازته مشايخه للفتيا
والتدريس ؛ فانتفع به أهل بلده والقادمين إليها . له مؤلفات منها : شرح مختصر
الإيضاح لشيخه ابن حجر ، والمناهج الجادة إلى معرفة قواعد الشهادة ، وغيرهما .
توفي في مكة سنة 984هـ .

- انظر ترجمته في : السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 371/ب - 373/أ .

أَمْ لَا لَنَا فَأَبِينَا لَدَيْكُمُ الصَّغْبُ يُظْهَرُ
أَنْتُمْ مَلَاذٌ وَأَمَّا فِي الْحُكْمِ كُلِّ تَحْيَرُ (1)

فأجابه بقوله :

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا أَفْرَادُهُ لَيْسَ تُحْصَرُ
وَمِنْهُ خَيْرُ ثَنَاءٍ لِأَحْمَدِ الظَّهَرِ يُنْشَرُ
الْحُكْمُ فِي ذَيْنِ حِلٍّ وَالتَّرْكُ لِلضَّرِّ أَظْهَرُ
عَبْدُ الرَّوُوفِ وَشَاهُ يَرْجُو الْمَزَلَاتِ تُغْفَرُ (2)

-3-

ولم يكن نظم الألغاز مقصوراً على جانب المراسلات - فيما بين الشعراء - فحسب ؛ بل انتشر لدى طائفة من شعراء مكة والمدينة - في القرنين التاسع والعاشر الهجريين - متخذين منه مجالاً للتسلية وكذا الأذهان .

وليس لهذا النوع من النظم ذبوع لدى القدماء ، بل "ابتدأ ولع المتأخرين بهذه الألغاز من القرن السابع الهجري ، وكانت المحاجة بها قبل ذلك قليلة ... وكانوا يجرون فيها على طريقة العرب ، ويزيدون على ذلك الإشارة إلى المُلغز به بالتصحييف والقلب والحذف والتبديل وما أشبهها مما هو من صناعة المعمرى ، وجملوها بالتورية ؛ فزادوها إبداعاً حتى صارت من زينة الشعر " (3) .

وهذا النمط من الشعر بحاجة إلى إعمال فكر من الشعراء وجهد في الصياغة ؛ ليكون متوسطاً بين التصريح والتلميح . والهم التعليمي ليس مقصوداً في تلك الألغاز التي كانوا يتداولونها في مكة والمدينة ، بل جرت فيما بينهم مرتدية لبوس التسلية الاجتماعية ؛ لما فيها من تفكه ورياضة ذهنية ، يتضح ذلك في مثل قول الشاعر عبدالمعطي باكثير :

أَيُّ إِسْمٍ إِذَا خَلَا الْقَلْبُ مِنْهُ صَارَ يَا صَاحِ قَلْبُهُ مَلَانَا
فِي زَمَانِ الصَّبَا تَجِدُهُ فَخْذُهُ بَعْدَ تَصْجِيفِهِ وَلَا تَتَوَانَا

(1) نفحة الريحانة ، المحبي 57/4 .

(2) المصدر السابق 57/4 .

(3) تاريخ آداب العرب ، الرافعي 406/3 .

وَمَضَى قَلْبُهُ بِلا طَرْفِيهِ (إِنْ تَهُم) بِالتَّصْحِيفِ تَلْقَ

ومن يمعن الفكر في هذه الأبيات يجد أن المقصود هنا (رمضان) ؛ حيث إنك إذا حذف قلب رمضان (الضاد) بقي رمان . وقلب الرمانة مملوء بالحَبِّ . وتجد كلمة رمضان في اللفظتين (زمان الصبا) بعد التصحيف (التبديل في النقط) : خذ الصاد من (الصبا) ثم صحفها (ضع عليها نقطة) وانقلها إلى زمان (وراء الميم) بعد حذف نقطة الزاي لتصبح راء . وقلب رمضان بدون طرفيه (الراء والنون) : مضا (مضى) (2) . وما دامت الدعابة والتسلية هدفاً من أهداف الشعراء ، فإنهم قد يلجؤون إلى الوصف المشوق ؛ لشد ذهن المتلقي ، ويكون ذلك من خلال صياغة فنية دقيقة ، متوسطة بين الوضوح والإبهام ، كما في قول الشاعر عبدالمعطي باكثير أيضاً ، الذي يعد أكثر شعراء مكة والمدينة تناولاً للألغاز في شعره :

وَمَمْشُوقَةٍ هَيْفَاءَ لَدُنْ قَوَائِمِهَا	مِنَ الْبَيْضِ تُزْرِئُ بِالْمُتَّقَةِ
إِذَا أَصْبَحَتْ (3) أَمَسَتْ تُحِدْ	تُفْتِقُ دِرْعَ اللَّيْلِ مِنْ طَلْعَةِ الْفَجْرِ
فَضَوْءُ سَنَاها قَدْ مَحَا آيَةً	فَصَارَ نَهَاراً أَبْيَضاً سَاطِعَ الْفَجْرِ
تُمَدُّ لِسَاناً طَائِلاً غَيْرَ نَاطِقٍ	وَمِنْ غَيْرِ أَجْفَانٍ مَدَامِعُهَا تَجْرِي
وَجِلْبَابُهَا يَحْكِي لُجَيْنًا بَيَاضُهُ	وَأَحْشَاوُهَا زُرَّتْ عَلَى لَهَبِ
إِذَا جُمِعَتْ تَسْمَعُ بِتَصْحِيفِهِ وَلَا	تَ حِينَ مَنَاصٍ جَاءَ فِي مُحْكَمِ
فَدُونِكَ لُغْزاً وَاضِحاً قَدْ شَرَحْتُهُ	وَبَيَّنَّتُهُ لَكِنْ بَنُوعٍ مِنَ السِّتْرِ (4)

والشاعر في هذه الأبيات يصف شمعة ، مصوراً ضوءها حين يأخذ بعض مادتها الذوبان ؛ ليسيل نقطة بعد نقطة بصورة شبيهة بالدمع . يلي الشاعر عبدالمعطي باكثير في تناول هذا النوع من الشعر الشاعران أحمد الفيومي ومحمد العبدري اللذان اعتمدا على التورية

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص482 . وعجز البيت الثالث في المصدر هكذا :

(وإن هم بالتصحيف تلق أمانا) .

(2) عن معالم الأدب العربي في العصر الحديث ، عمر فروخ 494/1 (الهامش 1 ، 2 ،

(3) .

(3) أَصْبَحَتْ : أَشْعَلَتْ ، أي أصبحت مضيئة كالصبح .

(4) النور السافر ، العيدروس 482/1 .

لإخفاء المراد الحقيقي من الكلام ؛ لأنها تلبسه مسحة من الغموض المناسب لإحداث الإلغاز ، كقول أحمد الفيومي :

حَجَّ لِلْبَيْتِ اخْتِلَاساً وَفَسَّاداً لِلْأَنَامِ

مُذْ رَأَهُ النَّاسُ قَالُوا حَجَّ لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ (1)

وقد يتوهم المتلقي أن (الحرام) صفة للبيت ، كما هو ظاهر . ولكن الشاعر أراد (الحرامي) ، وهي لفظة مولدة تعني فاعل الحرام . وعلى ذلك تكون هذه اللفظة فاعلاً للفعل حج ، لا صفة للبيت . ومثل هذه التورية تلجئ المتلقي لإنعام النظر في البيت والتفكير في المعنى الذي أراده الشاعر .

ومن ذلك قول الشاعر محمد العبدري :

يَا أَيُّهَا الطَّائِفُ فِي حَيِّهِمْ دَمَعِي غَدَا كَالْمَطَرِ الْوَائِفِ

مُذْ غَبَّتْ عَنْ عَيْنِي فَصَحْتُ وَاشْوَقِي إِلَى

فالمعنى القريب لقوله : واشوقي إلى الطائف ، هو التأوه من بعده عن بلدة الطائف المعروفة وتشوقه إليها ، ولكن المعنى البعيد المقصود هنا هو الشوق إلى من يحب ، ذلك الذي غاب عن عينه فأخذ حبه والشوق إليه يطوف في قلبه .

- 4 -

وبادر الشعراء إلى تهنئة من يماثلهم أو يقاربهم اجتماعياً ، ومشاركتهم أفراحهم في المناسبات السعيدة ؛ فكانت إخوانياتهم صورة للعلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك .

فإن نال عزيز منصباً ؛ بادره صاحبه بالتهنئة والدعاء له ، كما فعل الشاعر علي ابن محمد الخجندي في تهنئته الشيخ زين الدين المناوي ، حينما خاطبه بقوله :

هُنِّيتُ يَا مَوْلَايَ بِالْمَنْصِبِ وَفَزَّتْ مِنْ عَيْشِكَ (بِالْأَطْيَبِ) (3)

(1) ريحانة الألبا ، الخفاجي 387/1 .

(2) تحفة اللطائف في فضائل الحبر بن عباس ووج والطائف ، جار الله بن فهد ، ص 51 ، وعروض البيت الأول في الدر الكمين ، عمر بن فهد 222/1 : (حبهم) بدلاً من (حيهم) .

(3) في المصدر : بالأخيـب .

وَأَصْبَحَتْ تَأْتِيكَ مِنْ مَشْرِقٍ مَارِبُ النَّفْسِ وَمِنْ مَغْرِبٍ (1)

ومن ذلك تهنئة الشاعر عبدالرؤوف الواعظ للشيخ حسين المالكي حينما ولي قضاء المدينة في سنة 983 هـ ، حيث نظم بهذه المناسبة قصيدة أبان فيها عن تطلع طيبة للقائه ، مشيراً إلى أن توليه قضاء المدينة طريق إلى الترقى لقضاء مكة المكرمة ، يقول فيها :

وَتَطَاوَلَتْ أَغْنَاقُ طَيِّبَةِ اللَّقَا وَغُيُونُهَا طَمَحَتْ لِبَدْرِ مِنْكَ تَمَّ

صَدْرُ الشَّرِيعَةِ فِي انْشِرَاحٍ وَالدِّينُ أَضْحَى ثَابِتاً مِنْهُ الْقَدَمُ

وَأَفْتَرَّ ثَغْرُ قُبَا وَلَا حَ مِنْ الثَّيَّاتِ الْعَقِيقُ وَدَرُّ مَنْهَلِهِ انْتَضَمَ

وَمَهَابِطُ الْوَحْيِ اسْتَعَدَّتْ لِلْقَضَا عَرَبِيَّةٌ قَدْ زَالَ عَنْهَا مَا انْعَجَمَ

هَذَا وَلَيْسَ الْقَصْدُ إِلَّا مَكَّةَ فَلَكَ التَّرْقِي وَالْمَرَاتِبُ كَالْخَدَمِ

وَسَعَادَةٌ وَسِيَادَةٌ لَمْ يَبْرَحَا بِسَوَابِقِ الزَّلْفَى وَسَابِقَةِ النِّعَمِ

وإذا أنعم الله على عبده بالشفاء من علة أصابته ؛ هبَّ أصدقاؤه ومحبهوه لتهنئته — شعراً — حامدين الله على فضله ، مظهرين مشاعر الفرح الدالة على حبهم وتقديرهم له ؛ فقد أصيب الشيخ عبدالله العيدروس بعلة أفقدته بصره ، ثم شفاه الله ورد إليه بصره ، فهنأه الشاعر أحمد بن علي البسكري بقصيدة شكر فيها الخالق المتفضل ، وأظهر سروره ، قال منها :

حَمْدًا لِمَا أَوْلَاكَ مَوْلَاكَ مِنْ نِعْمَائِهِ الظَّاهِرَةِ الْخَافِيَةِ

قَدْ نَوَّرَ الْأَبْصَارَ مِنْ نُورِهِ فَالْعَيْنُ كَالسَّمْعِ غَدَتْ وَاعِيَةٍ

... يَهْنَأُكَ نُورُ الْحَقِّ هَا قَدْ أَتَى مِنْ فَضْلِ رَبِّ عَيْنُهُ رَاعِيَةٍ

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَشُكْرًا لَهُ عَلَى زَوَالِ الْعِلْلِ الْمَاضِيَةِ

قَدْ سَرَّنَا وَاللَّهُ مَا قَدْ أَتَى مِنْ صِحَّةٍ تَبْقَى وَمِنْ عَافِيَةٍ (3)

وحلول شهر رمضان مناسبة إسلامية مباركة ؛ يحرص الشعراء فيها على تهنئة أحبائهم ، وإدخال البهجة في نفوسهم بأبيات من الشعر ، تكون

(1) التحفة اللطيفة ، السخاوي 248/3 .

(2) السنا الباهر ، ورقة 372/ب .

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص 299 .

في الغالب متضمنة شيئاً من المداعبات ، على نحو قول جمال الدين الإسفراييني⁽¹⁾ مهنئاً الشاعر محمد بن أحمد النهروالي :

يَا قُطْبَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي أُمِّ الْقُرَى رَمَضَانُ هَلْ بِبَهْجَةٍ (لَمْ تُوصَفِ)
فَتَهَنَّ وَحَدَكِ إِنَّ ذَاتَكَ أَصْبَحَتْ هِيَ أَشْرَفُ فِي أَشْرَفِ فِي
فكتب إليه الجواب ، وجعل في القرطاس أشرفياً :

يَا (الْطَفَّ) (4) الْفَضْلَاءِ أَنْتَ فَتَهَنَّ (بِالشَّهْرِ) (5) الشَّرِيفِ
شِعْرٌ بِشِعْرِ لَيْسَ فِيهِ رَبّاً وَقَدْ زَادَ الْعِيَارُ بَوْزَنَ هَذَا الْأَشْرَفِيِّ (5)

وظل الشعراء يهتبلون أي مناسبة سعيدة ، ليبتثوا من خلالها مشاعر الإخاء والود لأصحابهم ، فإن بنى أحدهم بيتاً أو أصدر كتاباً أو نظم قصيدة ؛ هب الشعراء لوصف العمل مشيدين به وقد وضعوا نصب أعينهم إدخال المسرة على صاحبه .

فقد بنى الشيخ شيخ بن عبدالله العيدروس بيتاً بأحمدأباد في بلاد الهند ، فنال إعجاب الشاعر عبدالمعطي باكثير ، فصاغ ذلك شعراً ، منه قوله :

أَكْرَمَ بِأَرْفَعِ رَوْشَنِ قَدْ زِيَّتْ أَرْجَاؤُهُ إِذْ صَارَ فِي غُرْفَاتِهِ
قَدْ أَنْقَنَ الْأُسْتَاذَ صُنْعَهُ وَضَعَهُ فَرَهَا وَفَاقَ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ

(1) هو جمال الدين بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد الإسفراييني . شاعر ، فاضل ، رقيق الطبع ، نشأ بمكة . وله نتاج شعري في القرن العاشر الهجري . لم تذكر المصادر المتاحة تاريخ وفاته .

- انظر : النور السافر ، العيدروس ، ص 404 ، 405 ؛ ريحانة الألبا ، الخفاجي 417/1-427 ؛ المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 159 ، 160 .

(2) نزهة الجليس ، الموسوي 376/2 . وقد ورد عجز البيت الأول في رحلة الشتاء والصيف ، كبريت ، ص 156 ، هكذا :

رَمَضَانُ هَلْ بِبَهْجَةٍ (لا توصف)

(3) في نزهة الجليس ، الموسوي 376/2 : بالشرف .

(4) في النور السافر ، العيدروس ، ص 505 : يا أُوحد ؛ وفي ريحانة الألبا ، الخفاجي ، ص 419 : يا واحد .

(5) رحلة الشتاء والصيف ، كبريت ، ص 156 ، 157 . وورد الشطر الأول من البيت الثاني في النور السافر ، العيدروس ، ص 505 ، وريحانة الألبا ، الخفاجي ، ص 419 هكذا : شعر بشعر لا ربا فيه وإن ... وفي الريحانة : فوزن هذا الأشرفي بدلاً من (بوزن) .

أَنْشَأَهُ مَوْلَانَا الشَّرِيفُ بِقَصْرِهِ عَالِي الْمُنِيفِ فَشَادَ مِنْ بَرَكَاتِهِ
 يَا حُسْنَهُ مِنْ رَوْشَنِ فِي قَدْ زُخِرَتْ مِنْهُ بِحُسْنِ سِمَاتِهِ
 وصنع القاضي أبو البركات بن ظهيرة رفرفاً على مقعد بداره في
 جدة ، فكتب عليه الشاعر أحمد القليوبي أبياتاً هي :

أَنَا رَفَرَفْتُ حُزْتُ الْمَلَاةَ كُلَّهَا وَكَمَالَ طَرْفٍ فَاقَ كُلَّ كَمَالٍ
 فَعَدَوْتُ فَرَدَ الْمَحَاسِنِ جَامِعاً مَا لِلرَّفَارِفِ فِي الصِّفَاتِ كَمَالِي
 فَاللَّهُ يَحْرُسُ بَهْجَتِي وَيُدِيمُهَا وَيَصُونُ مِنْ رَيْبِ الزَّمَانِ

وإذا صنف أحد العلماء أو الأدباء كتاباً أو نظم قصيدة ؛ وجد صدقاً
 لدى أهل العلم والأدب ، يتضح ذلك في تقريظهم وما يظهرونه من
 إعجاب ببعض المصنفات أو القصائد ، من ذلك كتاب الشيخ محمد بن
 فهد (نهاية التقريب وتكميل التهذيب بالتهذيب) الذي حظي بتقاريظ
 كثيرة ، أوردها ابنه عمر في كتابه (الدر الكمين) منها قول محمد بن
 أحمد بن الضياء (أبي البقاء) :

نَهَايَةُ التَّقْرِيبِ فِي التَّرْتِيبِ بَدَايَةُ الشَّرُوعِ فِي الْغَرِيبِ
 مُرْتَبٌ مُهَذَّبٌ مُذَهَّبٌ مُكَمَّلٌ التَّهْذِيبِ بِالتَّهْذِيبِ
 ... بُسْتَانُ طَلَابِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَنِ وَزَهْرُ غُصْنِ مَائِسِ رَطِيبِ
 مَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ فِيهِ حَاضِرٌ أَعْمَالُ حَبْرٍ حَادِقٍ حَيِّبِ
 فِيهِ تَرَاجُمُ الْفُحُولِ الْعُلَمَاءِ مَحَاسِنُ الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ
 ... نَظْمُهُ الْفَهْدُ الْفَرِيدُ الْحَافِظُ فِي عَقْدِهِ الْمُكَمَّلِ التَّرْتِيبِ⁽³⁾

وقد يتحول التقريظ إلى نوع من المطارحات الشعرية حينما يجد
 الشاعر أن من واجبه أن يرد بالشكر على من قرظ قصيدته ، فيجد هذا
 الشكر صدقاً لدى صاحبه الذي يفضي بذلك شعراً ، كالذي حصل بين

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص 459 .

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 528/1 .

(3) المصدر السابق 59/1 ، 60 . وقد أضاف المصدر واواً في بداية الأبيات (ونهاية...) وهي غير مثبتة في الأصل المخطوط ، انظر : ورقة 12/أ .

الشاعرين محمد الصديقي (1) و عبدالعزیز بن علي الزمزمي ؛ حيث أعجب الشاعر محمد الصديقي بقصيدة الزمزمي النبوية الميمية ، المسماة (الفتح التام) ، فقرظها بقصيدة قال منها :

هَلْ نَشَرُ رَوْضَةَ مَدَحِ الْمُصْطَفَى أَوْ تَغُرُّ مُحَيَّا حَمْدِهِ بِسَمَا
أَمْ اللَّالِي مِنْ أَوْصَافِهِ نُظِمَتْ أَمْ ذِكْرُهُ بِطُرُوسِ الْمَجْدِ قَدْ
... فَاهْنَأُ بِمَدَحٍ وَفَتْحٍ تَمَّ حُكْمُهُمَا بَأَنْ تَدُومَ وَتَبْقَى مُفْرَدًا عِلْمًا
أَجَلَّ جِيرَانِ بَيْتِ اللَّهِ قَاطِبَةً عِلْمًا إِذَا وُصِفُوا فِي مَكَّةَ

وقد ابتهج الزمزمي بهذا التقريض ، فنظم قصيدة شكر لصاحبه منها قوله :

شُكْرًا لِفَضْلِكَ قَدْ قَلَّدْتَنِي مَنَّا مِنْ الْجَمِيلِ وَكَمْ أَوْلَيْتَنِي نِعَمًا
مَحَضَّتَنِي الْوُدَّ حَتَّى صِرْتُ عِنْدَكَ أَخَصَّ مَنْ بَفِنَا أَعْتَابِكَ التَّرَمَّا
وَمِنْ قَرِيضِكَ قَدْ قَرَّظْتَ مَدْحِي خَيْرِ الْأَنَامِ بِعَقْدِ دُرِّهِ يَنْمًا
فَلَا أَوْفِيكَ شُكْرًا بِالثَّنَاءِ وَلَوْ أَطْلَعْتُهُ مِنْ دَرَارِي الْأَفْقِ مُنْتَظَمًا
لِكِنِّي لَكَ أَدْعُو اللَّهَ وَهُوَ لِمَا أَدْعُوهُ أَدْرِي فَأَرْجُو فَضْلَهُ

ولما وصلت القصيدة إلى الصديقي ؛ خفق فؤاده فرحاً ، واستقرته الأريحية ، فأجاب صاحبه بقصيدة مدحه فيها ونوه بشعره ، منها قوله :

أَنْتَ الَّذِي بِصِفَاتِ الْفَضْلِ فِي بَلَدَةِ اللَّهِ أَوْلَى سَائِرِ الْعُلَمَّا
رَأْسَلْتَنِي بِمَدِيحِ خَلْتُهُ زَهْرًا مِنَ الْجَنَانِ بِهِ رِيحُ الصَّبَا

- 5 -

(1) هو محمد بن علان الصديقي ، من أسرة مكية تنسب إلى الصديق (رضي الله عنه) . كان حياً سنة 953هـ.

- انظر : منائح الكرم ، السنجاري 24/1 الهامش (1) ؛ 345/3 ؛ تاريخ مكة ، السباعي 468/2 ، 469 .

(2) ديوان الزمزمي ، ورقة 92/ب ، 93/أ .

(3) المصدر السابق ، ورقة 94/أ .

(4) المصدر نفسه ، ورقة 94/ب .

وتزداد الجلسات الإخوانية بهاءً بالمطارحات الشعرية التي تعد لوناً من الشعر الإخواني ، حيث يجلس الصحب والصفاء يظلل أجواءهم ، والشعر يؤنس مجلسهم ، حين تجري الأبيات على لسان الشاعر بدهاءة ، كالتي نظمها الشاعر أبو القاسم الأنصاري⁽¹⁾ في رحلة استجمام مع بعض أصحابه ، ومنهم جار الله فهد الذي أشار إلى ذلك بقوله : إنه "وصف مقيلاً بوادي الجموم ، ونحن ذاهبون إلى هدة بني جابر ؛ للتصيف وإزالة الهموم"⁽²⁾ . وذكر الأبيات ، ومنها قوله :

لله يَوْمٌ بِهِ جَادَتْ يَدُ الزَّمَنِ طَابَ الْمَقِيلُ بِوَادِيهَا الْبَهِيِّ
وَادِي الْجَمُومِ الَّذِي يَزْهُو لَهُ بِمَنْظَرِهَا يَشْكُو الشَّجِيُّ
... سَقِيًّا لَهَا كَمْ سَقَتْنَا الْأَنْسَ فِي ظِلِّ مَسْجِدِهَا الْمَعْهُودِ بِالْمَنْ
'قَضَيْتُهُ بِأَحْيَابٍ مَحَاسِنُهُمْ تُسَلِّي الْغَرِيبَ عَنِ الْأَهْلِينَ

ولا يجتمع الشاعر في مثل هذه الجلسات - عادة - إلا مع الصفوة من صحبه ، فإذا توافر طيب المكان والصحب ؛ استنشى الشاعر نسيم الراحة ، وأضحى رافهاً ، مطلقاً العنان لشاعريته لتصف الجو الذي يعيشه ، كما في الأبيات السابقة ، وكقول الشاعر عبدالقادر العراقي حين تفيأ ظلال الراحة في البركة التي أنشئت في الجموم⁽⁴⁾ :

لله أَيَّامٌ قَضَيْنَا بِهَا لَذَّةَ عَيْشٍ مَا لَهَا مِنْ مَثِيلٍ
أَنْسٌ وَبَسْطٌ وَاجْتِمَاعٌ بِمَنْ تَهْوَى وَمَشْمُومٌ وَأَهْنَا مَقِيلٍ
وَنَحْنُ فِي جَمْعٍ كَرَامٍ لَهُمْ مِنْ مَوْرِدِ الْأَدَابِ حَظٌّ جَزِيلٍ
... فِي بَرْكَةٍ أَرْجَاؤُهَا عَطِرَتْ بِالنَّدِّ وَالطَّيْبِ ضُحَى مَعَ أَصِيلٍ

(1) هو شرف الدين أبو القاسم بن القاضي جلال الدين الأنصاري . عالم ، شاعر ، تولى قضاء المالكية بمكة المكرمة . كان حياً سنة 920هـ .

- انظر : حسن القرى في ذكر أودية أم القرى ، جار الله بن فهد ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س 18 ج 3 ، 4 ، رمضان وشوال 1403هـ) .

(2) حسن القرى في ذكر أودية أم القرى ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س 18 ج 3 ، 4 ، رمضان وشوال 1403هـ) .

(3) المصدر نفسه . وهكذا جاءت قافية البيت الثاني في المصدر .

(4) ذكر ابن فهد في (المصدر السابق) : أن هذه البركة نزهة للناظر ، وأن القائد جوهر المغربي قد عمرها للشریف أبي نمي بن محمد في الأربعين من القرن العاشر الهجري .

بَبْطَنٍ مَرَّ قَدْ حَلَا مَاؤُهَا وَظَلَّهَا الْوَارِفُ ظِلٌّ ظَلِيلٌ (1)

وقد يعرض الشاعر المعنى ، فيتتابع الشعراء على إجازته إجازة شعرية ، كما حصل للبيتين اللذين نظمهما الشاعر أحمد العليف في رحلة استجمام إلى وادي الجموم ، إذ يقول فيهما :

نَزَلْنَا بِالْجَمُومِ نَهَارَ قَيْظٍ وَمَنْثُورُ الرَّبِيعِ طَوَى بِسَاطِهِ
قَطَعْنَا يَوْمَنَا فِي طَيْبِ عَيْشٍ بِرَأْسِ الْعَيْنِ فِي ظِلِّ الْحَمَاطَةِ

وهذان البيتان مكتوبان في مسجد الجموم ، وقد رآهما الشاعر أبو بكر بن إسماعيل بن أبي بكر ، فكتب تحتها - معارضاً - حين رآهما :

حَلَلْنَا بِالْجَمُومِ صَبَاحَ يَوْمٍ وَلَمْ نَأْمَنْ مِنَ النَّاسِ اغْتِبَاطَهُ
فَلَا قَيْظاً رَأَيْنَا مُذْ حَلَلْنَا وَلَمْ نَحْتَجْ إِلَى ظِلِّ الْحَمَاطَةِ (3)

فلما اطلع عليهما العليف ؛ كتب مقابلهما أبياتاً منها :

حَطَطْنَا بِالْجَمُومِ غَدَاةَ دَجْنٍ وَعَقْدُ الظِّلِّ قَدْ أَرْخَى رِبَاطَهُ
وَنَحْنُ عَلَى بَسَاطٍ مِنْ زُهُورٍ وَقَدْ مَدَّ الرَّبِيعُ بِهِ سِمَاطَهُ
... وَكُنَّا فِيهِ مَعَ جَمْعٍ كَرَامٍ حَمَاهُ اللَّهُ مِنْ شَرِّ وَحَاطَهُ
وَقَدْ طَبَعُوا عَلَى أَدَبٍ وَلَكِنْ هُمْ السَّادَاتُ قَدْ رَفَعُوا اشْتِرَاطَهُ

وقد اطلع الشاعر أبو بكر بن أبي الخير على هذه الأبيات فأعجب بها وعارضها قائلاً من أبيات :

أَقَمْنَا فِي الْجَمُومِ بِطَيْبِ عَيْشٍ وَقَدْ بَسَطَ الرَّبِيعُ لَنَا بِسَاطَهُ
وَحَطَّ الْمَزْنُ مِنْ قَطْرِ عَلَيْنَا فَيَا لِلَّهِ مَا أَحْلَى انْحِطَاطَهُ
... وَجَمْعُ الصَّحْبِ فِي مَرَحٍ كَثِيرٍ وَكُلٌّ فِيهِمْ أَبْدَى انْبِسَاطَهُ

(1) المصدر السابق .

(2) المصدر نفسه . والحماطة : واحدة الحماط ، وهو شجر التين الجبلي ، أو شبيهه به .

(3) المصدر نفسه . والشاعر : هو فخر الدين أبوبكر بن العالم شرف الدين إسماعيل بن

أبي بكر الشافعي ، المكي ، وهو شاعر ، عالم ، كان حياً في سنة 920هـ .

- انظر : المصدر السابق .

(4) المصدر السابق .

وَهُمْ مَا بَيْنَ أَعْلَامٍ كِرَامٍ تَرَاهُمْ بِالْغُلُومِ لَهُمْ إِحَاطَةٌ (1)

وقد يتجاوب شاعران حول معنى يطرحه أحدهم فيكملة الآخر ، من ذلك قول محمد بن فهد :

قَالَتْ حَبِيبَةٌ قَلْبِي عِنْدَمَا نَظَرْتُ دُمُوعَ عَيْنِي عَلَى الْخَدَّيْنِ
فِيمَ الْبُكَاءِ وَقَدْ نِلْتَ الْمُنَى زَمَنًا فَقُلْتُ خَوْفَ الْفِرَاقِ الدَّمَغُ

حيث أجازهُ الشاعر محمد بن عبد القوي بقوله :

قَالَتْ أَبَحْتِكَ وَصَلِي دَائِمًا أَبَدًا وَعَنْكَ سُلُوانٌ قَلْبِي لَيْسَ يَتَّفِقُ

وتطارُح المعنى في الجلسات الأدبية نوع من المساجلات الشعرية التي يحرص الشعراء على إحيائه في مجامعهم . ومن المساجلات الشائقة ما حصل بين الشاعرين محمد السمرقندي وعبدالرؤوف الواعظ ، حيث اجتمعا تجاه الحرم الشريف فحصل غيث ، فقال السمرقندي :

لِللّهِ يَوْمٌ بِفَنَاءِ مَكَّةِ ُ تَجَاهَ بَيْتِ اللّهِ أَقْصَى الطَّلَبِ

فأكمل الواعظ :

مُذْ نَزَلَ الْغَيْثُ عَلَى سَطْحِهِ وَسَالَ مِنْ مِيزَابِهِ وَانْسَكَبَ

فقال السمرقندي :

سَأَلْتُ أَنْ أَفْصَحَ عَنْ كُنْهِهِ قُلْتُ لَجِينٌ قَدْ جَرَى مِنْ ذَهَبٍ

وبهذا ندرك أن الشعر الإخواني ليس إلا ثمرة من ثمار العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وضحت من خلاله شخصيات الشعراء في سلوكهم الاجتماعي وصلاتهم الأخوية .

وقد تبين أن الإخوانيات لم تكن مقصورة على شعراء مكة والمدينة أو فيما بينهم وبين المجاورين ، بل امتدت جسور التواصل والأخوة إلى أصدقائهم في بعض الأقطار الإسلامية الأخرى .

(1) المصدر نفسه .

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 394/1 .

(3) المصدر نفسه 394/1 .

(4) النور السافر ، العيدروس ، ص 565 .

6- الحنين والشكوى :

-1-

الحنين "مصطلح أدبي طغى على الشعراء الذين ابتعدوا عن أوطانهم فاعتراهم الشوق إليها ، فكانوا يتغنون بها وبجمالها وهم بعيدون عنها..." (1) وما ذاك إلا لارتباط الشاعر بالأرض التي ولد عليها وتفتحت عيناه على سهولها وجبالها . وقد أحب العربي – منذ القدم – البيئة التي عاش فيها ؛ لأنه لا ينجذب إليها بسبب نفعها أو جمالها ، بل لأنها رافقت عهداً من عهود حياته حتى علقت نفسه طبيعتها ، فإذا ما غادرها سعيّاً للرزق أو للعلم أو لغير ذلك وعاش في ديار الغربة ، وجد نفسه نزاعة إلى بلده حيث الأهل والأقارب ومراتع الصبا ، فإن رأى مكاناً مشابهاً خفق قلبه ، وإن لمع برق من جهة الوطن أشعل فؤاده ، وإن مرّ بتجربة تؤرقه تجددت ذكرياته وزاد حنينه إلى مرتع صباه ؛ فأنشد فيه شعره حنيناً وحرقة ، حيث يذرف الدموع ويجأ بالشكوى من آثار الغربة .

وثمة غربة نفسية داخل الوطن ألجأت بعض الشعراء إلى بث شكواه . وقد أشرت إلى شيء من ذلك في أثناء الحديث عن الشعر الديني ، كما سيأتي الكلام على ذلك أيضاً في شعر الغزل ، حين يتوجد الشاعر على فراق من يحب ؛ فيصدق بشكواه في معرض غزله .

-2-

ولم يكن الشعراء ليرغبوا عن الأرض التي ولدوا فيها ودرجوا على أرضها لولا ضرورات الحياة . وقد تتنوع الأسباب الملجئة إلى ذلك ؛ لاختلاف الشخصيات والظروف التي تمر بها ، ولكننا لا نكاد نجد شاعراً يفصل الأسباب التي دعت إلى الارتحال عن بلده ، بل يكتفون - في أغلب الأحيان - بالحديث عن مواجهة الشدائد حين نأوا عن بلادهم ، وأنهم قصدوا إلى ذلك مضطرين ، كما فعل الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي حينما أنكر أن يكون قد رحل عن مكة المكرمة راغباً في غيرها ؛ لأنه ليس ثمة بلد يداني بلد الله الحرام الذي ولد فيه وألف العيش على أرضه وأحبه ، ولكن ضرورات الحياة قادتته إلى الارتحال عنه ومواجهة الصعاب ، حيث يقول :

(1) المعجم المفصل في الأدب ، محمد التونجي 385/1 .

لَوْلَا ضَرُورَاتُ إِلَى النَّأْيِ لَمَّا رَكِبْتُ مِنْهُ صَعْبَ الْمَرْكَبِ
وَلَا عَدَوْتُ بَيْتَ ذِي الْعَرْشِ قَوَّضْتُ يَوْمًا مِنْ قَتَاةٍ طُنْبِي
أَبْتَغِي جِوَارَ بَيْتٍ غَيْرِهِ إِذْنٌ عَنِ الرَّشْدِ لَوَيْتُ مَنْكِبِي (1)

وقد يشير الشاعر إلى سبب رحيله بمثل قول الزمزمي :
وَاللَّهِ مَا أَقْفَيْتُ عَنْ أُمِّ الْقُرَى مَلَأَ وَلَا بُغْضًا لَخَيْرِ بِلَادِ
لَكِنْ أَبِي فِيهَا الزَّمَانُ إِقَامَتِي وَأَقَامَ لِي رَصْدًا مِنَ الْحَسَادِ
مُتَالِبِينَ بِهَا عَلَيَّ وَلَمْ أَجِدْ لِي مُنْجِدًا مِنْ أَهْلِ ذَاكَ

وربما ترك الشاعر موطنه طمعاً في الراحة مما يواجهه من كدر في حياته ، لكنه لا ينعم بذلك حين يبتعد عن مرابع قومه وأحبابه ؛ لأنه أحب بيئته وألف العيش فيها مع صحبه ، فإذا ابتعد ؛ زاد شوقه ، فأنساه تلك الأكدار التي كانت سبباً في سفره ، بل في هروبه من موطنه ، يقول الشاعر جمال الدين محمد بن يعقوب :

طَلَبْتُ لِلْقَلْبِ بِالْأَسْفَارِ لِي رَاحَةٌ فَلَمْ تَكُنْ مُهْجَتِي فِي الْحَقِّ
مُدَّ غَبْتُ عَنْ مَرْبَعِ الْأَحْبَابِ مَنْ كَانَ مِثْلِي فَهَلْ يَسْتَأْهِلُ
وَرَأَى الشُعْرَاءُ أَنْ الْبَقَاءَ فِي الْغُرْبَةِ وَالْبَعْدَ عَنِ الدِّيَارِ وَالْأَحْبَةِ عَذَابُ
لِلْقَلْبِ لَا يَطَاقُ ، يعبر عن ذلك الشاعر أحمد الفيومي لما ارتحل إلى القاهرة وزاد شوقه إلى أم القرى ، إذ يقول مناجياً الباري – جل شأنه – راجياً أن يخفف ما به من ألم البعد :

يَا رَبِّ لَا وَصْلَ وَلَا سَلْوَةَ لَا زُورَةَ مِنْ طَيْفِهِمْ لَا لِقَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي وَصْلِهِمْ مَطْمَعٌ فَلَا تُعَذِّبْ مُهْجَتِي بِالْبَقَا (4)
ويبيدي لوعته – في أبيات آخر – فيسكب الدموع من جراء شوقه لأخلائه ومعاهده في أم القرى ، حيث يقول :

أَخْلَايَ فِي أُمِّ الْقُرَى زَمَنٌ نَفَثَ سِنْتِي مُذْ أَثْبَتَ خَطَّ

(1) ديوان الزمزمي ، ورقة 102/ب .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 74/ب .

(3) الضوء اللامع ، السخاوي 87/10 .

(4) ريحانة الألبا ، الخفاجي 386/1 .

فَلِلَّهِ كَمْ سَحَّتْ مِيَاهُ مَدَامِعِي عَلَى فَقْدِ بَطْحَاءِ الْحِجَازِ وَمَكَّةِ

(1) وظل الشعراء يطلقون مشاعرهم الدفينة كلما استبد بهم الشوق وهاجهم داعي الألفة واللقاء ، صادحين بمعاناة الفراق ، ذارفين الدموع . فالشريف أبو نمي شاعر أفضى بمكنون فؤاده حين فارق أحبابه ، حيث أخذ يتذكر عهداً مضى بينهم ، ويذرف الدموع ، شاكياً من البعد بقوله :

خَلَّتِ الْمَنَازِلُ مِنْ أَهْيَلٍ مَوَدَّتِي وَهُمْ هُمْ فِي الْحَيِّ (قِرَّةٌ

أَهْلُ الصَّافَا بَيْنَ الصَّافَا بَنَقَى جِيَادٍ وَفَيْضِ شِعْبِي عَامِرِ

أَسْفِي عَلَى ذَاكَ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ فِي غَفْلَةِ الْبَيْنِ (الْعُدُورِ الْجَائِرِ)

يَا أَهْلَ وَدِّي لَوْ تَرَوْنِي بَعْدَكُمْ كَغَرِيبِ قَوْمٍ بَيْنَ أَهْلِي حَائِرِ

كَانُوا فَبَانُوا ثُمَّ بَانَ تَجَلْدِي وَمَصِيرُهُمْ لَا بُدَّ مِنْهُ لَصَائِرِ

مِنْ بَعْدِ جِيرَانِ الصَّافَا أَهْلٍ سَمَحَتْ بِإِرْسَالِ الدَّمُوعِ

(2) وَقَدْ بَلَغَ الشُّوقُ وَاللُّوْعَةُ لِفِرَاقِ الْأَحْبَةِ عِنْدَ أَحَدِ الشُّعْرَاءِ أَنَّ صُورَ حَالَتِهِ بِأَنَّ دَمُوعَهُ أَصْبَحَتْ تَجْرِي مَعَ أَنْفَاسِهِ ، وَأَنَّهُ عَلِيلٌ قَدْ لَسَعَ بِحَيَاتِ الْفِرَاقِ ، فَلَمْ يَجِدْ لِدَائِهِ شِفَاءً إِلَّا دُعَاءَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِأَنْ يَجْمَعَهُ بِأَحْبَابِهِ فِي دَارِ كِرَامَتِهِ . هَكَذَا أَفْضَى أَحْمَدُ الْبُسْكَرِيُّ بِمَشَاعِرِهِ الْمَتَأَجِّجَةِ ، بَادِئاً أَبْيَاتَهُ بِالْقَسَمِ بِأَنَّهُ بَاقٍ عَلَى الْعَهْدِ ، إِذْ يَقُولُ :

أَقْسَمْتُ بِاللَّهِ مَا حَالَتْ مَوَدَّتُكُمْ يَوْمًا وَلَا حِلْتُ عَنْ عَهْدِي

وَلَا تَنَفَّسْتُ أَنْفَاسًا أَرَدْتُهَا إِلَّا وَفِي ضِمْنِهَا دَمْعِي

وَلَا لُسِعْتُ بِحَيَاتِ الْفِرَاقِ وَلَمْ أَجِدْ لِدَائِي تَرْيَاقًا وَلَا رَاقِي

غَيْرَ الدُّعَاءِ بِأَنَّ اللَّهَ يَجْمَعُنَا فِي سُوحِهِ كَرَمًا مِنْ غَيْرِ

(3) وَإِذَا كَانَ الْبُسْكَرِيُّ سِيذِرْفَ الدَّمْعِ طَوَالَ حَيَاتِهِ مَا دَامَ بَعِيدًا عَنْ أَهْلِ مَوَدَّتِهِ ، فَإِنَّ الشَّاعِرَ أَحْمَدَ الْفَيُومِي قَدْ بَلَغَ مِنْ حَرَارَةِ الشُّوقِ وَمَرَارَةِ الْبَعْدِ

(1) الدرر الفرائد ، الجزيري 1489/2 .

(2) في المصدر : بقوة ناظر ، والمثبت عن منائح الكرم ، السنجاري 365/3 .

(3) في المصدر : البين العدو الخاير ، والمثبت عن : منائح الكرم ، السنجاري 365/3 .

(4) إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 562/1 .

(5) المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 79 .

مرحلة فقد فيها الرغبة في العيش في هذه الحياة بعد فراق أحبته ، وإن تشبث بالحياة فإن ذلك بسبب أن هناك أملاً للقاء بين الأحياء . وقد أشار في أبياته إلى عظيم شوقه ونفاد صبره قائلاً :

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ الْحَفِیْظَ أَحَبَّةَ خَلَفْتُهُمْ بَيْنَ الْأَبْرِقِ وَالنَّقَا
فَارَقْتُهُمْ حَتَّى إِذَا ذُقْتُ النَّوَى لَمْ أَدْرِ كَيْفَ رَضِيتُ أَنْ نَتَفَرَّقَا
يَا أَمْرِي بِالصَّبْرِ بَعْدَ فِرَاقِهِمْ إِنَّ التَّصَبُّرَ بَعْدَهُمْ لَا يُلْتَقَى
لَا تَذْكُرِ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ فَإِنَّهُ مَاتَتْ مَحَاسِنُ وَجْهِهِ وَلَكَ الْبَقَا
لَمْ يَبْقَ لِي بَعْدَ التَّفَرُّقِ رَغْبَةٌ فِي الْعَيْشِ لَوْلَا أَنَّ مَنْ عَاشَ

ويزداد الشوق والشعور بالغربة إذا كان الشاعر في ديار الأعاجم ؛ حيث اختلاف البيئة ولغة التواصل ، كالذي حصل للشاعر عبدالعزيز الازمزمي حينما رحل إلى بلاد الروم وشعر بحرقة البعد ومشقة السفر في تلك الأجواء المغايرة للبيئة التي عاش فيها . وقد أفصح عن شكواه من غربته في تلك الديار بقوله :

كَمْ جَرَعْنَا كَأْسَ هَمٍّ مُتْرَعاً خَمَرَ خَوْفٍ بِأَذَى الْبَرْدِ امْتَرَجَ
خُطْوَةً فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَعاً وَسُرَى بَيْنَ ثُلُوجٍ وَلَجَجَ
فِي وَحُولٍ وَجِبَالٍ شُمَخٍ شَاهِقَاتٍ مَا إِلَيْهَا مُنْعَرَجَ
قَطَنَ الثَّلْجِ بِهَا فَهُوَ الَّذِي نَدَفَ الْقُطْنَ عَلَيْهَا وَحَلَجَ
سَفَرَةً قَدْ بَعُدَتْ شُقَّتْهَا فَتَّتْ مِنْهَا قُلُوباً وَمُهَجَ
أَيْنَ أَرْضُ الرُّومِ مِنْ أَمِّ الْقَرْيَ جَادَهَا صَوْبُ مِنَ الْوَسْمِيِّ
غَرْباً فِي دَارِ قَوْمٍ عِنْدَهُمْ عَرَبِيُّ الدَّارِ مِنْ بَعْضِ الْهَمْجِ
بَيْنَهُمْ كُلُّ فَصِيحٍ نَاطِقٍ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ ذِي عِوَجٍ (2)

وحين أحس أن قلبه لم يعد يحتمل ؛ سأل ربه العودة إلى وطنه قائلاً :
رَبِّ قَرِّبْنَا إِلَى أَوْطَانِنَا فَلَنَارِ الْبُعْدِ فِي الْأَحْشَاءِ وَهَجَ

(1) الجواهر الثمينة في محاسن المدينة ، كبريت 547/2 .

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص430 .

(3) المصدر نفسه ، ص430 .

وقد عاش الشاعر عبدالمعطي باكثير في آخر حياته في بلاد الهند وقلبه معلق بأرض قومه ، وخاصة أرض الحرمين ؛ حيث يقول متلذذاً بذكر معالمها الطاهرة ، مسرياً عن نفسه بسماع أخبار أحبته من بني قومه :

أَحْبَبْنَا طِبْنُكُمْ فَطَابَ حَدِيثُكُمْ وَطَابَ سَمَاعِي عَنْكُمْ حِينَ
وَلِي بَيْنَ سَفْحِي لَعَلِّ ... فَوَادُّ كَنِيْبٍ مُسْتَهَامٌ مُعَلَّلُ
مُقِيمٌ عَلَى شَطِّ الْمَزَارِ كَأَنَّهُ أَسِيرٌ بِهَاتِيكَ الْعِرَاصِ مُوَكَّلُ
هَوَاهُ بِنَجْدٍ بَلٍ بِبَطْحَاءِ مَكَّةِ وَجُتُّهُ بِالْهِنْدِ كَيْفَ التَّحَوُّلُ
فِيَا عَرَبًا بِالْمُنْحَنِ عَزَّ جَارُهُمْ فَجَارُهُمْ فِي ذُرْوَةِ الْعِزِّ يَحْمِلُ
... عَسَى عَوْدَةً يَا جِирَةَ الْحَيِّ فَتَرْفَلُ فِي ثَوْبِ السُّرُورِ
وَنَلْقَى عَصَا التَّسْيَارِ مِنْ بَعْدِ فَأَمُّ الْقَرَى فِيهَا الْمَقَامُ مُؤَمَّلُ
إِلَهِي فَجُدْ لِلْعَائِبِينَ بِأَوْبَةٍ يَكُونُ لَنَا فِيهَا الشِّفَاءُ مُعْجَلُ

-3-

والشاعر في تلك البقاع الطاهرة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين – كشأن الشاعر العربي منذ العصر الجاهلي – يحن إلى موطن ولادته ونشأته ، ويهزه الشوق إلى تنسم هوائه والأنس بأهل وده . وقد تعددت مثيرات الشوق ؛ فإن أرقته تجربة من تجارب الحياة في غربته ، أو لمع برق من جهة موطنه ، زاد شوقه وذكت شجونه ، وحينئذ يعرض أصبعه ندماً على رحيله عنه ، ويبيت شكواه متذكراً أصفياه وأيام الصبا الجميلة .

فقد لمع برق الحجاز ؛ فأهاج حنين الشريف حسن بن عجلان حينما كان مسجوناً بمصر ، وأنطقه بالأبيات التالية :

لَا يَلْمَعُ الْبَرْقُ مِنْ (تَلَقَّا) (2) إِلَّا وَلِي نَظَرٌ بِالْدَّمْعِ هَطَالُ
وَلَا تَذَكَّرْتُ يَوْمًا مِنْ جَمَالِهِمْ إِلَّا وَدَاخَنِي خَوْفٌ وَإِذْلَالُ

(1) المصدر نفسه ، ص 472 .

(2) في المصدر : تلقاء .

أَحْبَابُ قَلْبِي وَمَا الْأَحْبَابُ إِنْ اسْتَحَالَتْ مِنَ الْأَحْبَابِ
عَشِقْتُكُمْ وَجَلَابِيبُ الصَّبَا قَشْبُ ... فَكَيْفَ أَرْحَلُ عَنْكُمْ وَهِيَ أَسْمَالُ
إِنْ مِتُّ شَوْقًا وَلَمْ أَظْفَرْ كَمْ تَحْتَ هَذِي الْقُبُورِ الدُّرُسِ
وَأَحْيَرْتِي مَاتَ حَظِّي مِنْ وَلِلْحُظُوظِ كَمَا لِلنَّاسِ آجَالُ
وَاللَّهُ لَوْلَا قَيْوُدٌ فِي قَوَائِمُنَا مِنْ الْجَمِيلِ وَفِي الْأَعْنَاقِ أَغْلَالُ
لَكَانَ لِي فِي بِلَادِ اللَّهِ مُتَسَعٌ وَلِلْمُلُوكِ وَلايَاتٌ وَإِعْزَالُ (1)

ويلج بالشاعر الشوق ؛ حين ترمق عيناه بعض عناصر الطبيعة المشابهة لما في وطنه ، حيث يتذكر بيئته ومن فيها من الأهل ، فيستطير فؤاده ولها ، ويظل متوهجاً من حر الشوق ، كما حصل للشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي حينما سافر إلى بلاد الروم ، حيث يقول : "برزت من مكة مع الركب المصري إلى مصر ثم إلى الروم من البحر ، فلما وصلنا إلى الوجه ... وهو وادٍ أفيح ، وهناك شجر من الأراك تذكرت به مكة وما حولها من الأراك - والشيء بالشيء يذكر - فداخني من الشوق والوجد ما لا يكاد يحصر ، وتزايد بي الحنين إلى الوالدة والإخوان والبنين ، فقلت :

حَشَى فِيهِ مِنْ صَدَعِ الْفِرَاقِ وَجَفَنَ جَفَاهُ النَّوْمُ فَهُوَ
تحدث بعد هذا المطلع عن شوقه إلى أمه وإخوته ، وأن الدنيا تضيق به إذا ما ذكرهم ، ولا سيما طفله ، متذكراً لحظة فراقه إياه . وقد تمنى الراحة من تلك الهموم بالعودة إلى أم القرى ، وأشاد بذلك الوادي في الوجه وما فيه من أراك طيب الشذا ، استروحه ، فأثار شوقه إلى وادي الأراك في مكة حيث ماضيه الجميل ، إذ يقول :

تُرَى هَلْ إِلَى أُمِّ الْقَرَى لِي أَوْبَةٌ تُزِيحُ هُمُومِي وَالْعَا وَتُزِيحُ
وَيَا حَبَّذَا بِالْوَجْهِ وَادٍ بِسَفْحِهِ أَرَاكَ لَهُ طَيْبٌ لِشَمِّ وَرِيحُ

(1) منائح الكرم ، السنجاري 398/2 . وقد ذكر الخفاجي في الريحانة 384/1 - في أثناء ترجمته لأبي نمي ابن بركات - خمسة أبيات من هذه القصيدة مع تغيير يسير في بعض الألفاظ ، وأشار إلى أن أبا نمي قد قالها في المقام اليوسفي بمصر ، وقد تابعه بعض الدارسين ؛ فنسبوها لأبي نمي توهماً .

(2) ديوان الزمزمي ، ورقة 101/أ ، 101/ب .

مَرَرْنَا بِهِ وَالرَّكْبُ وَإِنْ مِنْ وَشَمْسُ الضُّحَى وَسَطُ
وَقَدْ (أُورِقَتْ) (2) أَغْصَانُهُ وَظِلَالُهُ تَرَفُّ وَمَرَأَى الْعَيْنِ فِيهِ فَسِيحُ⁽¹⁾
ذَكَرْتُ بِهِ وَادِي الْأَرَاكِ مِنْ وَعَيْشاً مَضَى فِيهِ فَظَلْتُ أَنْوَحُ⁽³⁾

وحين يتوق الشاعر إلى دياره وأحبته فيها ؛ يلهج بذكر أيامه ولياليه الجميلة بينهم ، متمنياً العودة ، متسائلاً عن احتمال ذلك . يقول الشاعر محمد بن عبد الوهاب اليافعي (4) :

رَعَى اللَّهُ أَيَّاماً تَقَضَّتْ بِمَكَّةَ مَعَ الْأَهْلِ وَالْأَوْطَانِ وَالشَّمْلُ
وَحَيًّا لِيَلَالٍ تَقَضَّتْ بِرِفْقَةٍ وَرَاءَ مَقَامِ الْمَالِكِيِّ هَوَاجُ
تَرَى تَجْمَعُ الْأَيَّامُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَأَصْبَحُ مُسْتَرْضَى مِنْ اللَّهِ

ومما يميز شعراء مكة والمدينة أن قلوبهم تهفو إلى أظهر بقاع الأرض ؛ فلا غرو أن نجد شوقهم قد تناهى ، وأن منهم من تمنى العودة والمبيت ولو ليلة واحدة ، مؤكدين بذلك خصوصية المكان الذي عاشوا في ربوعه وأدركوا مزيته .

فالشاعر ابن دليم القرشي قد أرقه البعد عن موطنه الذي ألف العيش فيه ؛ فظل في غربته ملتهب الصدر من حر الشوق إلى البلد الحرام ، وتمنى العودة ليطوف بالبيت ويشفي غليل قلبه من ماء زمزم الطاهر ، حيث يقول :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَعُودُ لِمَكَّةَ أَطُوفُ بِبَيْتِ اللَّهِ وَالرُّكْنِ
وَأَشْرَبُ مِنْ مَاءِ الشِّفَاءِ لِيُطْفِئَ لَهْيِي فِي الْفَوَادِ كَمَا⁽⁶⁾

(1) في المصدر : السما .

(2) في المصدر : أوفت .

(3) ديوان الزمزمي ، ورقة 101/ب .

(4) هو محمد بن عبد الوهاب بن عبدالله بن أسعد اليافعي . ولد بمكة سنة 797هـ ، ونشأ بها ، حيث حفظ القرآن الكريم ، ودرس على علماء مكة ، كما رحل في سبيل الطلب إلى مصر والشام . توفي بمكة سنة 858هـ .

- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 193/1-196 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 134/8 .

(5) الضوء اللامع ، السخاوي 134/8 .

(6) الدر الكمين ، عمر بن فهد 433/1 . وقد جاء عجز البيت الثاني في المصدر : ليطفئ

كما أن الشاعر يحيى بن عبدالقوي⁽¹⁾ يتمنى المبيت بمكة ليلة ، يغنم فيها الطواف بالبيت والسعي وارتشاف ماء زمزم ، إذ يقول :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً أَطُوفُ بِبَيْتِ الْخَلِيلِ جَمِيلُ

وَهَلْ أَرَدَنْ مِنْ مَاءِ زَمْزَمٍ وَيَحْسُنُ سَعْيِي بِالصِّفَا وَمَقِيلُ⁽²⁾

وهم حينما يكثرون من ذكر ماء زمزم والشوق إلى شربه ؛ إنما يستشعرون قول الرسول ع: «ماء زمزم لما شرب له»⁽³⁾ ؛ لذلك نرى

الشاعر أحمد اليبناوي⁽⁴⁾ - كغيره من الشعراء - يتمنى أن يتذوق من ماء زمزم شربة ، تزيل ما حل به من جلاء هجر أحبائه ، إذ يقول :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِأَمِّ الْقُرَى وَالظَّاعِنُونَ نَزُولُ

وَهَلْ أَرَدَنْ مِنْ بئرِ زَمْزَمٍ لِمَا حَلَّ بِي مِنْ هَجَرِهِمْ

ومن الشعراء من يتوق إلى رؤية أهله وأحبابه فيذكر - في حنينه إليهم - موضع نزولهم ، كالشاعر عبدالرحمن بن علي الواحدي ، حيث يقول :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِأَمِّ الْقُرَى أَضْحِي بِهَا وَأَقِيلُ

=

لهب ... ، وقد رجعت إلى الأصل المخطوط ورقة 69/ب ، فوجدته هكذا : ليظفي لهيب ، وما أثبتته هو الصحيح .

(1) هو يحيى بن أبي الخير محمد بن عبدالقوي ، البجائي الأصل ، المكي ، المالكي . ولد في مكة سنة 813هـ ، ونشأ بها طالباً للعلم ، وخاصة علم الحديث ، وحصل على إجازات من عدد من مشايخه . توفي في مكة سنة 859هـ .
- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 1249/2-1251 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 250/10 .

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1250/2 ، 1251 . وقد جاء عجز البيت الثاني في المصدر هكذا : ويحسن سعيي بالصفا وميل .

(3) سنن ابن ماجه ، ص 443 .

(4) هو أحمد بن عبداللطيف بن موسى بن عميرة بن صالح القرشي المخزومي اليبناوي . ولد في مكة سنة 807هـ ، ونشأ بها ، فحفظ كثيراً من المتون وعرضها على علماء مكة والقادمين إليها ، كما رحل في سبيل العلم إلى الشام ومصر . توفي في الشام سنة 841هـ .

- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 467/1-469 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 354/1 ، 355 ؛ السحب الوابلة ، ابن حميد 165/1-167 .

(5) الدر الكمين ، عمر بن فهد 469/1 .

وَهَلْ أَرَدَنْ شِعْبِي جِيَادٍ فَفِيهِمَا شِفَاءٌ لِقَلْبٍ بِالْفِرَاقِ عَلِيلٌ⁽¹⁾

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر علي بن أحمد الشوائطي ، مشتاقاً إلى داره ومن فيها :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً عَلَى سَطْحِ دَارِي فِي مَنْى
رَعَى اللَّهُ أَيَّاماً مَضَيْنَ وَحُبُّكُمْ عَلَى عَهْدِهِ بَاقٍ وَلَيْسَ يَزُولُ⁽²⁾

وقد تمنى الشاعر محمد بن عبدالوهاب اليافعي أن يبيت ليلة بوادي نَعْمَانَ القريب من مكة ، وأن ينهل من مائه ، ويسعد برؤية جبل ثبير والأرض الطاهرة حوله ، حيث يقول :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِنَعْمَانَ وَالْأَصْحَابِ فِيهِ
وَهَلْ أَرَدَنْ يَوْماً مِيَاهَ شِعَابِهِ وَهَلْ يَبْدُونُ لِي مَشْعَرٌ وَثَبِيرُ⁽³⁾

وواضح أن أبيات الشعراء السابقة متأثرة بالبيتين اللذين أنشدهما بلال بن رباح ؓ حينما تمنى العودة إلى أماكن بعضها بمكة ، وبعضها حولها ، وهما :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِفَخٍّ وَحَوْلِي إِذْخِرُ وَجَلِيلُ
وَهَلْ أَرَدَنْ يَوْماً مِيَاهَ مَجَنَّةٍ وَهَلْ يَبْدُونُ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ⁽⁴⁾

وإذا هيا الله للشاعر أسباب العودة إلى بلده ؛ أقبل متهلل الوجه ، مستبشراً ، شاكراً المولى – جل شأنه – كما فعل محمد النهروالي حينما أقبل على البلد الحرام مستثار الشوق من شذا الخزامي الذي فاح – حينما كان مقبلاً على الجموم – فأيقن أنه قد اقترب من الحمى . وأشار – في خضم سعادته – إلى المطايا التي كانت وسيلته إلى الوصول لمطلبه ، مشيداً بما لها من يد في هذه السبيل ، مقتفياً أثر أبي نواس الذي أكرمها بقوله :

(1) المصدر نفسه 815/2 .

(2) المصدر نفسه 987/2 .

(3) المصدر السابق 196/1 .

(4) حسن القرى في ذكر أودية أم القرى ، جار الله بن فهد ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س18 ، ج1 ، 2 ، رجب وشعبان 1403هـ) . والبيتان من شعر بكر بن غالب بن عامر بن مضاض الجرهمي ، لما نفتهم خزاعة عن مكة .

وَإِذَا الْمَطِيُّ بَنَا بَلْعَنَ مُحَمَّدًا
قَرَّبْنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ
إِذ يَقُولُ النَّهْرُ وَالِي :

يَا صَاحِبِ نَشْرِ الْخَرَامِي فَاحِ
لِلْعَيْسِ عَنِّي يَدٌ فَاضَتْ
قَرَّبِنْ كُلَّ بَعِيدٍ مِنْ مَطَالِبِهِ
فَادْخُلْ إِلَى حَرَمِ اللَّهِ الْكَرِيمِ وَسِرْ
وَالْثَمِّ بِفَيْكَ ثَرَى الْأَرْضِ الْحَرَامِ
أَظُنُّ أَنَا قَرَّبْنَا مِنْ حِمَى الْحَرَمِ
تَمَنَّتِ اللَّجْمُ مِنْهَا رُتْبَةَ الْخُطْمِ
وَسِرْنَ حَتَّى وَصَلْنَا مَنْهَلَ الْكَرَمِ
سَعْيًا عَلَى الرَّأْسِ لَا سَعْيًا عَلَى
فَأَنَّهُ طَابَ مَلْثُومًا بِكُلِّ فَمٍ (2)

ثم يدعو صاحبه إلى أن يجود بالحمد والشكر للمنع - جل شأنه -
متفانلاً بالقبول ، إذ يقول :

فَقَرَّ عَيْنًا وَأَبْشَرَ بِالْقَبُولِ وَجَدَ
فَانْنَا فَقَرَاءَ مَا بَضَاعَتَنَا
بِالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ لِلْمَوْلَى عَلَى
غَيْرِ الذَّنُوبِ مَعَ الْأَقْدَارِ وَالنِّعَمِ (3)

-4-

وقد تتكاثر الهموم ، فينوء الفؤاد بحمله ، ولا يرى الشاعر بداً من
البوح بمشاعره المكبوتة شاكياً مما يلاقيه . وأصبح الشعر وسيلة للترويح
عن النفس حين المعاناة ، فرأينا الشاعر - كما سلف في الشعر الديني -
يبث شكواه مناجاة للبارئ ، راغباً في التخلص من كدر القلب .
على أننا نجد من الشعراء من يتخذ من البوح الذاتي وسيلة للتسرية ،
حين يرى أن حظه قد قعد به عن المنزلة التي يستحقها ، أو حين يشعر
بأن أصوات الشامتين قد علت لأمر حل به ، كالشاعر أحمد العليف الذي
أبدى تبرمه من عدم بلوغه المكانة التي يرتضيها لنفسه ، على الرغم من
جده واجتهاده في سبيل ذلك ، ذاماً الزمان الذي حال دون بلوغه مأربه ،
مشيراً إلى تطاول من يقصر عنه معرفة وفضلاً ، حيث يقول :

- (1) ديوان أبي نواس ، ص 490 .
- (2) الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية ، محمد بن أحمد النهروالي ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س 16 ، ج 7 ، 8 ، محرم وصفر 1402هـ) .
- (3) المصدر نفسه .

حَتَّى مَتَى أَطْوِي اللَّيَالِي وَالْجَدُّ يُنْهَضُنِي وَجَدِّي يَبْرُكُ
وَيَجُولُ فِكْرِي فِي لَعْلٍ وَأَخْتِهَا وَيَحُولُ دُونَهُمَا زَمَانٌ أَنْوَكُ
وَيَنَالْنِي بِالنَّقْصِ غَمْرٌ مَالُهُ فِي الْفَضْلِ سَهْمٌ مِثْلُ سَهْمِي⁽¹⁾

وقد كف بصر الشاعر محمد بن عبد القوي في آخر عمره ، فبكى لذلك ، لكنه أشار إلى أن شماتة الأعداء أشد وقعاً من مصابه في عينيه ؛ لعلمه بأنهم ينشطون للنيل منه في مثل هذه الحالة ، إذ يقول :

بَكَيْتُ وَمَا لِلْمَرْءِ بُدٌّ مِنَ الْبُكََا إِذَا كُفَّتَا فِي آخِرِ الْعُمْرِ عَيْنَاهُ
وَمَا بِي مِنْ حُزْنٍ وَلَسْتُ وَمَا بِالْفَتَى إِلَّا شِمَاتَةٌ أَعْدَاهُ⁽²⁾

وقد يأسى الشاعر على أيام الشباب التي أضاعها باللهو ، فيطلق العنان للسانه للإفصاح عن مشاعره المكبوتة ، كما فعل الشاعر عبد المعطي باكتير حيث يقول :

قَضَيْتُ أَيَّامِي سُدًى وَسَبَهْلًا تَرَكْتُ الْخَلَاعَةَ وَالصَّبَابَةَ بِي
قَدْ آنَ أَنْ أَتِي الْعِنَانَ عَنِ وَأَعُوذُ عَنْهُ عَوْدَ عَبْدٍ قَدْ أَبَقُ
قُدِّمَ الْمَشِيبُ فَكَانَ أَبْلَغَ زَاكِرٍ وَمَضَى الشَّبَابُ كَأَنَّهُ طَيْفٌ⁽³⁾

وخاطب الشعراء بعض الأمراء والولاطين ، بائين إليهم بعد الله - سبحانه وتعالى - شكواهم ؛ أملاً في تخفيف معاناتهم ، كقول الشاعر محمد بن عبد القوي مخاطباً الشريف بركات بن حسن بن عجلان :

فِيَا بَا زُهَيْرٍ دُمْتَ حِصْنًا وَمَلْجَأً يَبْنِيكَ بَعْدَ اللَّهِ ذُو الْحُزْنِ شَكْوَاهُ⁽⁴⁾

ونظم الشريف بركات بن محمد قصيدة في أثناء إقامته بمصر إثر أسره في سنة 909هـ⁽⁵⁾ ، خاطب بها السلطان قانصوه الغوري بعد وشاية

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص 183 . وقوله : زمان أنوك : أي أحمق ، وهذا داخل في باب سب الدهر الذي نهى عنه رسول الله ع بقوله : « لا تسبوا الدهر ؛ فإن الله هو الدهر » صحيح مسلم 1763/4 .

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 462/2 .

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص 484 .

(4) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 461/2 .

(5) انظر : سمط النجوم العوالي ، العصامي 286/4 ؛ منائح الكرم ، السنجاري 133/3 - 136 ؛ إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 309/1 ، 310 ، الحجاز ، ناصر البركاتي

من بني إبراهيم الذين "أطمعوا السلطان فيه ، وقالوا : إن معه خزائن أبيه وأجداده" (1) . شكّا في قصيدته حالته ، وكان في أثناء ذلك يطمح في العودة إلى إمرة مكة ، ولا شك أنه في هذه الحالة سوف يسعى إلى رضا السلطان ، مما جعل تلك الشكاية مشوبة بهذا الغرض ، حيث يقول :

أَيَا قَانَصُوهُ اسْمَعْ بِحَقِّكَ فَإِنِّي لَشَرَحِ الْحَالِ نَحْوَكَ رَافِعُ
بُلَيْتَ بِجَوْرِ مَنْ زَمَانٍ أَمْضَى يُقَارِعُنِي بَيْنَ الْوَرَى وَأَقَارِعُ
وَحَقِّكَ مَا أَفْنَيْتُ مَالِي سَوَى فِي رِضَا السُّلْطَانِ وَاللَّهِ
فَإِنْ يَكْ قَدْ أَرْضَاكَ مَا قَدْ لَقِيتُهُ فَإِنِّي بِهِ رَاضٍ بَلَى ثُمَّ قَانَعُ (2)

وشكا الشعراء جور الزمان ، وجعلوا الدهر سبباً فيما يجري لهم من أحوال تسوءهم ، فنعتوه بالعنيد والغادر والماكر والجاهل ؛ فإن رام أحدهم حاجة ولم يوفق في تحقيق مراده ، نسب عجزه إلى الدهر وأنه معانده ، يقول أحمد العليف :

فَمَالِي وَمَا لِلدَّهْرِ إِنْ رُمْتُ يُعَانِدُنِي وَالِدَّهْرُ مَسْلَكُهُ وَغَرُّ
وَيَقُولُ مِنْ قَصِيدَةِ أُخْرَى :
مَالِي وَمَا لِلْيَالِي كُلِّمَا جَنَحَتْ سَالَمْتُهَا وَهِيَ لَا رَعِي وَلَا ذِمَمُ
حَمَلْتُ مِنْ جَهْلِهَا مَا لَيْسَ قَلْبٌ وَأَوْسَعُهَا حِلْمًا وَلَا سَامُ
فِي كُلِّ حِينٍ عَلَى عَمْدٍ وَلَيْسَ لِي عِنْدَهَا ذَنْبٌ فَأَجْتَرُمُ
يُسَالِمُ الْمَرْءُ هَذَا الدَّهْرَ عَنْ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ فِي مَخْذُورِهِ السَّلَامُ
وَيُغْمِضُ الظَّرْفَ عَنْ حِلْمٍ لَا عَنْ رِضَا حَادِثَاتٍ فِيهِ تَقْتَحِمُ (4)

(رسالة ماجستير لم تنشر بعد) ، ص 45-49 .

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 159/3 .

(2) المصدر السابق 159/3 ، 160 . وقد ورد عجز البيت الثاني في سمط النجوم العوالي ، العصامي 291/4 على النحو التالي : ومالي ولا في الناس غيرك نافع ، كما ورد في منائح الكرم ، السنجاري 144/3 على النحو التالي : ومالي فتى في الناس غيرك نافع . وقوله : (بحقك) (وحقك) في البيتين الأول والثالث يدخل في باب الحلف بغير الله ، وهو غير جائز .

(3) ديوان أحمد العليف ، ورقة 15/ب .

(4) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 284/3 .

والشاعر محمد السمرقندي أحد الشعراء الذين حملوا على الدهر ،
كشأن بعض شعراء عصره وكما هو معهود في الشعر العربي عامة ،
لكنه نسخ بيتين من أبيات العليف السابقة للتعبير عن حالته مع الدهر ، إذ
يقول :

مَالِي وَمَا لِلْيَالِي كُلَّمَا جَنَحَتْ سَالَمْتُهَا وَهِيَ لَا تُبْقِي وَلَا تَذُرُ

حَمَلْتُ مِنْ جَهْلِهَا مَا لَيْسَ قَلْبٌ وَمَا عَجَزَتْ عَنْ دَرْكِهِ

والحديث عن غدر الأيام وحربها ، يكشف عن القلق الذي غشي
نفوس أولئك الشعراء ، حتى تفجر يأساً وغضباً أسفرا عن هذه المعاني
المكرورة في ذم الزمان ، وهي لا تكاد تخرج عن مثل قول الشاعر
عبدالرحمن باكثير :

وَأَنَّ اللَّيَالِي لَا رَعَى اللَّهُ سَعِيَهَا سَجِيَّتُهَا غَدْرٌ وَشَيْمَتُهَا مَكْرٌ

إِذَا حَلَفَتْ أَوْ حَالَفَتْ نَقَضَتْ تَبَرٌّ فَلَا مِنْهَا وَفَاءٌ وَلَا بَرٌّ

وَمَهْمَا رَمَتْ تُصْمِي الْفَوَادَ جُبَارٌ وَأَمَّا كَسْرُهَا مَالُهُ جَبْرٌ

تَشُوبُ الصَّفَا مِنْهَا كَدُورَةٌ وَيَمْرُجُ حَالِي عَيْشِهَا صَابُهَا الْمُرُّ

وَلَا تَرَعُ إِلَّا فِي ذَوِيهَا وَذِمَّةٌ وَمَهْمَا اسْتَدَمَّتْ كَانَ مِنْ شَانِهَا

فَكَمْ نَكَثَتْ عَهْدًا وَخَانَتْ أَلِيَّةً وَكَمْ صَرَمَتْ وَصَلًا بِهِ اتَّصَلُ

وَكَمْ قَلَبَتْ ظَهَرَ الْمَجَنِّ لِأَهْلِهَا وَكَمْ غَدَرْتُهُمْ وَهِيَ مِنْ طَبْعِهَا

والخلاصة أن الشعراء قد رحلوا عن أهلهم وأخلائهم مضطرين ،
وأن شوقهم قد آل بهم إلى الشكوى من البين وإلى سكب الدموع . وقد
اتضح أن من مثيرات الشوق ما يمر به الشاعر من تجارب مرة في
غربته ، وكذلك حين يلمع برق من ناحية بلاده ، أو حين ترمق عيناه
مشهداً مشابهاً لما فيها .

ولم تكن الشكوى مقصورة على الشعراء المغتربين عن بلادهم ؛ إذ
إن بعض الشعراء قد أطلق العنان للسانهِ للبوح بمعاناته ، فكان الشعر

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص 355 .

(2) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 20/ب .

وسيلة للتسرية عن النفس مما يمر بها من تجارب تكدر صفو حياتها .
وشكا الشعراء جور الزمان ، وجعلوه سبباً فيما يجري لهم من
أحوال لا تسرهم ، حتى إذا ما رام أحدهم حاجة ولم يوفق في تحقيقها ،
أوماً إلى الدهر ؛ لكونه - في نظره - سبب ذلك .

-1-

يطلق الأدباء وأهل اللغة على الشعر الذي يتحدث عن عاطفة الحب نحو المرأة أسماء مختلفة ، فهم يسمونه الغزل أو التغزل كما يسمونه النسيب والتشبيب ، وأغلبهم يطلق عليه شعر الغزل .

وقد جاء في لسان العرب ما يوحي بأنها ذات معنى واحد ، حيث ورد في مادة (شَبَب) : "وَشَبَّبَ بالمرأة : قال فيها الغزل والنسيب ؛ وهو يشبب بها ، أي : ينسُبُ بها . والتشبيب : النسيب بالنساء" .

كما أن ابن سلام يستخدم الكلمات الثلاث متحدة المعنى (1) . أما ابن رشيق فقد ذكر أن النسيب والتغزل والتشبيب ذات معنى واحد ، والغزل يختلف عنها ؛ إذ يقول : "النسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد ، وأما الغزل فهو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن ، وليس مما ذكرته في شيء ؛ فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ" (2) .

وهو في ذلك يتابع قدامة بن جعفر الذي فرق بين النسيب والغزل وأدخل التشبيب في النسيب ؛ إذ يقول : "إن النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن ، وقد يذهب على قوم أيضاً موضع الفرق بين النسيب والغزل ، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذي إذا اعتقده الإنسان في الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله ، فكأن النسيب ذكر الغزل ، والغزل المعنى نفسه" (3) .

وأشار عبداللطيف البغدادي – في شرحه على نقد الشعر لقدامة – إلى التشابه بين النسيب والتشبيب والغزل قائلاً : "إعلم أن النسيب والتشبيب والغزل ثلاثها متقاربة ؛ ولهذا يعسر الفرق بينها حتى يظن بها أنها واحد" (4) .

وإذا كان الغزل – كما يقول المرتضى الزبيدي - : "هو الأفعال والأحوال والأقوال الجارية بين المحب والمحبوب نفسها" (5) ؛ فإن الشعر

(1) انظر : طبقات الشعراء ، ص 42 ، 168 ، 186 .

(2) العمدة 117/2 .

(3) نقد الشعر ، ص 134 .

(4) عن تاج العروس ، الزبيدي ، مادة (غزل) .

(5) المصدر نفسه ، مادة (غزل) .

قولٌ يرمي به الشاعر هذه الغاية . وسواء جاء هذا القول نسيباً أم تشبيهاً فإنه في الحالتين غزل ؛ ولذلك عنون هذا المبحث بـ(الغزل)⁽¹⁾ .

-2-

وقد ورد الغزل مقدمة لكثير من قصائد المديح ، كما جاء في قصائد ومقطوعات مستقلة . وقصائد هذا الفن قصيرة ، تتراوح بين العشرة والعشرين بيتاً . وصف الشعراء فيها جسم المرأة وما حواه من مفاتن ، وتناولوا حركاتها وسكناتها ، وأبانوا عن أثر الجمال على قلوبهم ، واشتكوا من هجر الأحباب ووطأة الفراق ، كما أشاروا إلى من يكدر صفوهم من الواشين والحاسدين والعاذلين في الحب .

وأظهر الشعراء في غزلهم صفات نموذجية تصور المثل الأعلى للجمال ، ماضين على نهج الشعراء العرب القدامى في تتبع مفاتن المرأة ، كجمال العينين ، والقوام ، وبهاء الطلعة ، وعذوبة الريق ، وبياض الأسنان وحسن استوائها ، وغزارة الشعر ولونه ، كما تناولوا أخلاق المرأة وحليها .

والعفة سمة غالبية على غزل الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ إذ لا نكاد نجد في نتاجهم ما يحيد عن هذه السبيل إلا أبياتاً معدودة .

ولم نجد الشاعر الهائم بمحبة بعينها يردد اسمها ويتيه في هواها ، بل وجدنا حباً عفيفاً يستجيب فيه الشاعر لهاجس النفس ، فيردد أسماء رمزية ردها الشعراء منذ القرن الأول الهجري في الحجاز ، كسعاد وسلمى وسعدى ، على شاكلة قول الشاعر عبدالرحمن باكثير :

أَجَابَ دَاعِيَ الْهَوَى الْغُذْرِيَّ حِينَ صَبَّ عَلَى حُبِّ عَذْبَاتِ اللَّمَى
وَقَدْ تَعَذَّى لِبَانَ الْحُبِّ مُنْذُ نَشَأَ وَلَمْ يَزَلْ بِالْعَوَانِي مُغْرَمًا وَلِعَا
تَنَاهَبَتْ قَلْبَهُ أَيْدِي الْغَرَامِ فَلَمْ يُبْقَيْنَ فِيهَا لِغَيْرِ الْبَيْضِ مُتَّسَعًا

(1) عرض الدكتور أحمد الحوفي في كتابه (الغزل في العصر الجاهلي ص 7-11) أقوال اللغويين والأدباء من القدماء في الكلمات الثلاث (النسيب والتشبيب والغزل) ، ثم اختار كلمة الغزل دلالة على الأنواع كلها ؛ لأنها - كما يقول - : أخف نطقاً وأكثر شيوعاً ، كما تناول الدكتور عمر فروخ الدلالات المختلفة للكلمات الثلاث في كتابه (عمر بن أبي ربيعة وفصل في تطور الغزل والنسيب في الشعر العربي ص 18-21) .

فَصَارَ يَصْبُو إِلَى سُدَى وَأَوْنَةٍ إِلَى سَعَادَ وَأَحْيَانًا هَذَيْنَ مَعَا (1)
 ويتنقل في هواه فيذكر أسماء أخرى ، مشيراً إلى المتعة التي يجدها
 في ذلك ، حيث يقول:

وَفِي التَّنَقُّلِ لَذَاتُ الْهَوَى فَلِذَا تَنْقَلُ الْقَلْبُ مِنْ عَلِيَا لِحُبِّ سَعَا (2)

-3-

لقد رسم كل شاعر ما لفت ناظره في معشوقته ، فرأينا في غزلهم
 صورة تفصيلية لمفاتن المرأة ؛ اتضح من خلالها اتفاق الشعراء في
 معظم الصفات المادية التي صوروها .

فقد تغنوا بما في عينها من جمال وجاذبية ، وشبهوها بعين الطيبي ،
 على سنن الشعراء العرب الأوائل الذين لا يرون أجمل من عين الطيبي ،
 كما أنهم أدركوا أن حسن الحاجب من تمام جمال العين ؛ فأشاروا إليه في
 أثناء حديثهم عنها ، وامتدحوا كونه رفيعاً جميل الرسم . يقول الشاعر
 أحمد العليف:

وَعَيْنِ كَعَيْنِ الرِّيمِ حُسْنًا كَأَمَّا حَوَاجِبُهَا مِنْ مِسْكِ دَارِينِ قَدْ
 وشبهوه بالهلال ؛ لتقوسه ، وتأثروا بجماله كما تأثروا بجمال العينين
 ، يقول محمد النهروالي:

أَذَاكَ هِلَالُ الْعِيدِ أَمْ قَوْسُ حَاجِبٍ يُصِيبُ سُوَيْدَاءَ الْقُلُوبِ وَلَا يَعْدُو
 أَنْزَجَسَةَ هَاتِيكَ أَمْ سَيْفٌ مُقْلَةٌ لِسَفْكِ دِمَاءِ الْعَاشِقِينَ لَهَا حَدٌّ (4)

لقد بهره جمال العين حتى إنه حسبها زهرة نرجس جميلة .
 والنهروالي كغيره من الشعراء الذين تحدثوا عن الجاذبية في العيون
 وأثرها على قلوب العاشقين ، فضلاً على جمالها ؛ إذ إن المرأة قد تكون
 جميلة العين ولكنها لا تتمتع بالجاذبية . وقد صور الشعراء تأثير النظرات
 بمثل قول الشاعر عبدالرحمن باكثير:

- (1) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 22/ب .
- (2) المصدر نفسه ، ورقة 22/ب . وقد اضطرته القافية إلى حذف الدال من سعاد .
- (3) ديوان أحمد العليف ، ورقة 31/أ .
- (4) الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س16 ج7 ، 8 ، محرم وصفر 1402هـ) .

مَنْ لِي بِمَنْ فَوْقَتْ مِنْ قَوْسٍ سَهْمًا مِنَ الْهُدْبِ فِي الْأَحْشَاءِ قَدْ
 إِذْ أَنْ حَاجِبٍ مَعشوقته قَوْسٌ سَهْمَةٌ أَهْدَابٌ مرسلة تقع في أحشائه .⁽¹⁾
 ويصور في قصيدة أخرى سحر عينيها وتأثير نظراتها ، متخذاً من
 التورية أسلوباً للتعبير عن ذلك ، حيث يقول:

وَمِنْ سِحْرِ عَيْنَيْهَا تَرَى خَدَّهَا جَنَانًا وَنِيرَانًا وَزَهْرًا وَبُسْتَانًا
 وَتَنْتَظِرُ فِي فِيهَا الْمُدَامَ وَلَحْظَهَا يُعَرِّدُ وَالْمُضْنَى بِهِ ظِلٌّ نَشْوَانًا
 وَتَغْزُو بِأَجْفَانٍ لَهَا الْكَسْرُ نَاصِرٌ فَمَنْ ذَا رَأَى كَسْرًا عَلَى النَّصْرِ
 أَغَارَتْ عَلَى نَهَبِ الْكَرَى مِنْ كَذَا رَاحَ مِنْهَا الْجَفْنُ نَعْسَانًا
 وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ قَتْلِي بِجَفْنِهَا بَأَنَّ مِنَ الْبَيْضِ الصَّوَارِمِ⁽²⁾

فهي حين تغض من طرفها ، تبدي جمال الأهداب على الأجفان ،
 فتغزو بذلك القلوب . والشاعر في تساؤله : من ذا رأى كسراً على النصر
 معوانا ، لا يريد المعنى القريب للكسر ، بل الغض من الطرف شيئاً
 يسيراً ، كما أنه لا يريد في كلمة (أجفانا) في البيت الأخير جمع جفن
 (غمد السيف) ، بل أجفان معشوقته التي راح يصور أهدابها بأنها
 كالسيوف القاطعة .

وحسنا الشاعر محمد علي الطبري قد أسرته بطرفها الفتان
 وبحسنها الذي يفوق الحور ، فأظهر ذلك قائلاً:

أَسْرَتْنِي بِطَرْفِهَا الْفَتَانِ وَبِحُسْنِ يَفُوقُ حُورَ الْجَنَانِ⁽³⁾

ويفصح في قصيدة أخرى عن افتتانه بحسن عينيها حينما تكسر طرفها ،
 وأثر ذلك على قلبه ، إذ يقول :

جَارَتْ عَلَى قَلْبِي الْمَجْرُوحِ مُقْلَتُهَا وَاتْلَفْتُهُ وَمَا أَضْمَرْتُ سُلوَانَا
 ... تَرْنُو بِفَاتِرِ طَرْفٍ زَادَ صَارِمُهُ فِينَا عَنِ الْحَدِّ مَسْنُونًا فَأَفَانَا⁽⁴⁾

وقد رأى الشاعر عبدالرحمن باكثير فاتنة رقيقة تخطر في مشيتها ،
 وقد أرسلت سهماً من لواظها صوبت به قلبه وعقله ، ونهبت النوم من

(1) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 23/أ .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 12/أ .

(3) نفحة الريحانة ، المحبي 50/4 .

(4) المصدر نفسه 52/4 .

عينه ، فوصف ذلك قائلاً:

بَدَتْ قَمَرًا عَلَى غُصْنٍ تَأْوُدُ وَأَنْضَتْ مِنْ لَوَاحِظِهَا مُهَنَّدُ
مُهَفِّفَةً بِهَا قَلْبِي وَعَقْلِي وَنَوْمِي قَدْ عَدَا كُلُّ مُشَرَّدُ⁽¹⁾

هكذا صور الشعراء أثر العيون ؛ إنها سيوف مشرعة تفتك بالقلوب
لا بالأعناق ، وقتلتها قتلة مستحبة ، أصبحت لدى بعض الشعراء أملاً يلذ
له تحقيقه ، يقول محمد النهر والي:

أَلَا حَلَّلَ اللَّهُ سَيْفَ الْمُقْلِ فَكَمْ ذَا (أَبَادَ) ⁽²⁾ وَكَمْ ذَا قَتَلَ
وَمَا مِنْ قَتِيلٍ بِهِ فِي الْهَوَى سِوَى أَلْفٍ رَاضٍ بِمَا قَدْ فَعَلَ
لَقَدْ نَصَرَ اللَّهُ جَيْشَ الْمَلَا بِبَذْرِ لَنَا حُسْنُهُ قَدْ كَمَلَ
وَمَا بَطُلٌ فِي الْوَعَى فَارِسٌ إِذَا قَابَلَ الْغِيْدَ إِلَّا بَطُلٌ
إِذَا قَتَلْتَنِي عُيُونُ الظَّبَا فَيَا فَرَحْتِي قَدْ بَلَغْتَ الْأَمْلَ⁽³⁾

-4-

وتحدث الشعراء عن ثغر المرأة ممتدحين طيبه وعذوبته ، كما
تناولوا وجهها وشعرها .

فمحبوبة الشاعر عبدالرؤوف الواعظ عذبة الريق ، أريجة ثغرها
تفوق الندى والعود ، يقول فيها:

إِنَّ فِي كَأْسِ ثَغْرِهَا لَرَحِيقًا لَمْ يُعَادِلْهُ طِيبُ نَدٍّ وَعُودٍ⁽⁴⁾

وريق فاتنة الشاعر محمد النهر والي شهد ، وسلسبيل عذب يشفي
العليل ، يقول مخاطباً إياها:

أَرِيقُكَ أَمْ مَاءُ الْحَيَاةِ أَمْ الطَّلَا أَمْ السَّلْسَبِيلُ الْعَذْبُ هَذَا أَمْ الشَّهْدُ⁽⁵⁾

(1) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 40/ب .

(2) في النور السافر ، العيدروس ، ص502 ؛ والمختصر من نشر النور والزهر ، أبو
الخير ، ص398 ، وفي الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية ، تحقيق حمد
الjasر (مجلة العرب : س16 ، ج7 ، 8 ، محرم وصفر 1402هـ) : فكم ذا أصاب .

(3) إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 556/1 . ويا فرحتي ، في المصادر السابقة : فيا
فَرَحِي .

(4) السنا الباهر ، ورقة 373/أ .

(5) الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س16
، ج7 ، 8 ، محرم وصفر 1402هـ) .

ومن الشعراء من يغلو في وصف حلاوة الريق وأثره على العاشق ،
كالشاعر عبدالرحمن باكثير الذي يعرض طرفاً من جمال حسناؤه ذات
الشفة السمراء والريق المعسول ، الذي بلغ تأثيره أن الحياة تسري في
متذوقه ، وأنه الدواء لمن فقد عقله ، حيث يقول:

لَمِيَاءُ لَوْ ذَاقَ مَيِّتٌ مِنْ مَرَاشِفِهَا ظَلَمًا لِأَحْيَاءِ مِنْهَا الرِّشْفُ وَالْقَبْلُ
تَحْمِيً بِعَسَالِهَا مَعْسُورٌ رِيْقَتِهَا وَهُوَ الشِّقَاءُ لَصَبٍّ مَسَّهُ الْخَبْلُ⁽¹⁾

وراق الشعراء بياض الأسنان وبريقها واستواؤها ؛ فشبهوها
بالأقحوانة ، قال أحمد العليف:

وَتَغْرِكَ نَوْرُ الْأَقْحَوَانَةِ نَظْمُهُ إِذَا ابْتَسَمَتْ خِلَّتِ الدَّرَارِي بِهِ
ولا شك أن انسجام الأسنان من كمال جمال الفم ، وقد رأينا من
الشعراء من يشبهها باللؤلؤ المنظوم ، كالشاعر يحيى بن عبدالقوي الذي
يقول متمنياً أن ينهل من ذلك الثغر العذب:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقْبِلُ مَبْسَمًا بِهِ اللَّوْلُؤُ الرِّطْبُ الْأَصَمُّ نَظِيمٌ
وَهَلْ أُرِدَنْ مِنْهُ زُلَالًا لِيَشْتَفِي فَوَادٌّ تَلْظِي بِالْغَرَامِ سَقِيمٌ⁽²⁾

وشبه الشاعر عبدالرحمن باكثير أسنان فانتته بعقود من اللؤلؤ
متألئة قد حفت بالزمرد ، حيث يقول:

وإن ضَحِكَتْ فَوْشَمَتْهَا تُرَيْنَا عُقُودَ الدَّرِّ حَفَّ بِهَا الزَّبَرْجَدُ⁽³⁾

وقد وقف الشاعر محمد النهروالي مبهوراً بلمعة الأسنان في الثغر
كالبرق وبحسن نظمها ، فخالها لؤلؤاً ، وقال من فرط إعجابه:

أَتَغْرِكِ أَمْ بَرَقَ يَلُوحُ سَنَاوُهُ أَمْ اللَّوْلُؤُ الْمَنْظُومُ أَعَوَزَهُ الْعَقْدُ⁽⁴⁾

أما الوجه فقد شبهه الشعراء بالبدر ليلة تمامه ، متحدثين عن المتعة
برؤية إشراقة الوجه وخطوده الوردية .

-
- (1) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 15/أ .
 - (2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 31/أ . والنور : الزهر الأبيض ، واحدته : نورة . والسَّبَطُ : ثَبَّتْ ، الواحدة : سبطة .
 - (3) الضوء اللامع ، السخاوي 250/10 .
 - (4) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 41/أ .
 - (5) الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س16 ج7 ، 8 ، محرم وصفر 1402هـ) .

ومن الشعراء من جعل وجه محبوبه يفوق البدر سناً ، كالشريف حسن بن عجلان ، إذ يقول:

تَكَلَّفَ بَذْرُ الدُّجَى أَنْ حَكَى مُحَيَّاهُ لَوْ لَمْ يَشْنُهُ الْكَلْفُ (1)

وقد عارضه الشاعر محمد بن موسى بأبيات ، منها قوله :
فَوَاحِجَلَةَ الْبَذْرِ لَمَّا ادَّعَى سَنَّاكَ وَكَذَّبَ لَمَّا انْكَسَفَ

فَمَذْرَعَمَ الْبَذْرِ يَحْكِيكَ مَا تَ مُحَاقاً وَمِنْ غَيْرَةِ مَا

وفي تشبيه الوجه بالبدر إحياء بالجمال ، فضلاً على الإشراق والإضاءة . والطلعة التي تشبه البدر تروق الرائي ، وتزداد متعته إن كانت ذات خدود وردية ، كفاتنة الشاعر عبدالرحمن باكثير الذي حدثنا عنها بقوله:

مَا زَحْزَحْتَ رَدْفَهَا مِنْ تَحْتِ وَأَسْدَلْتَ جَعْدَ وَجْهِ نُورُهُ سَطَعَا

إِلَّا أَرَّتْكَ كَثِيباً فَوْقَهُ غُصْنٌ عَلَيْهِ بَذْرُ تَمَامٍ فِي الدُّجَى طَلَعَا

وَرَدِيَّةُ الْخَدِّ يَحْمِي نُورَ وَجْنَتِهَا لَحْظَ الْمَقَا مِنْ يَدِ الْجَانِي إِذَا

وإذا كان الخد وردياً ، فإن ذلك يعني أن صاحبه غضة مشرقة الوجه ؛ ولذلك تحدث الشعراء عن الخد بوصفه من أمارات الجمال ، فالشاعر محمد علي الطبري قد جعل معشوقته تتقلد بخدودها الوردية حسناً يفوق قلائد الذهب بهاءً ورونقاً ، إذ يقول:

قَلَدَتْهَا يَدُ الْجَمَالِ حُلِيّاً فَاقَ حُسْنًا قَلَائِدَ الْعِقْيَانِ

بِخُدُودٍ مُوَرَّدَاتٍ حِسَانٍ مَا حَكَتْهَا شَقَائِقُ النِّعْمَانِ (4)

وناضرة الخد تسعد ناظرها ، لكنها تشعل النيران في قلبه . يقول الطبري:

بِمُتَرَفِ الْخَدِّ جَنَاتٌ لِنَاطِرِهَا لَكِنَّهَا أَجَّجَتْ فِي الْقَلْبِ نِيرَانَا (5)

- (1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 355/2 .
- (2) المصدر السابق 355/2 ، 356 . وكان الأولى بالشاعر أن يقول في البيت الأول :
وكذب لما انخسف ؛ لأن الكسوف للشمس والخسوف للقمر أو البدر .
- (3) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 23/أ .
- (4) نفحة الريحانة ، المحبي 50/4 .
- (5) المصدر نفسه 51/4 .

وعرج الشعراء - في معرض حديثهم عن الوجه - على الشعر ،
وأشاروا إلى إعجابهم بالشعر الغزير الأسود ، عادين ذلك من تمام الحسن
في المرأة ، فالشاعر أحمد العليف تناول ما تتمتع به معشوقته من سمات
تعلو بها على غيرها ؛ إذ إنها بديعة حسن ، ذات دل ، تختال كما يقول:
بَفَرَعِ يُرِيكَ الْبَدْرَ تَحْتَ عَمَامَةٍ إِذَا رَجَّأَتْهُ كَادَ يَسْتَغْرِقُ
(1) ١٢٠

ثم يصور جانباً من حسناتها بقوله:

فَتَاةٌ مَهَاةٌ فِضَّةٌ إِنْ تَجَرَّدَتْ تُذِيلُ عَلَى أَغْطِفِهَا الْفَاحِمَ
(2) ١٢٠

وقد يتكلم الشعراء على آيات الجمال في المرأة ، بادئين بشعرها
بوصفه أمانة من أمارات الجمال الظاهرة . وممن تحدث عن ذلك
الشاعر محمد النهروالي ، إذ يقول مستحسناً تمام شعرها وسواده الذي
يشبه ظلام الليل:

لَا وَفَرَعٍ كَدَجَى اللَّيْلِ غَسَقٌ وَجَبِينِ ضَوْءُهُ ضَوْءُ الْفَلَقِ
وَمُحَيَّا كَلِفَ الْبَدْرِ بِهِ وَخُدُودٍ مِنْ حَوَالِيهَا شَفَقٌ (3)

-5-

وافتن الشعراء في تصوير حركات المرأة وسكناتها ، واصفين
صدرها ووسطها وحسن قوامها ، مشيرين إلى حليها .
فقد شبهوا النهدين بالرمانتين . يقول عبدالرحمن باكثير ، مصوراً
حسناً في خبائها :

=

- (1) ديوان أحمد العليف ، ورقة 31/أ .
- (2) المصدر نفسه ، ورقة 31/أ .
- (3) إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 558/1 . وقد ورد الشطر الثاني من البيت الأول في
النور السافر ، العيدروس ، ص 504 هكذا :

وَجَبِينِ مِثْلِهِ تَحْتَ الْفَلَقِ

كما ورد البيتان في المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 398 هكذا :

لَا وَفَرَعٍ فِي دُجَى اللَّيْلِ غَسَقٌ وَجَبِينِ مِثْلِهِ تَحْتَ الْفَلَقِ

وَمُحَيَّا كَلِفَ الْبَدْرِ بِهِ وَنُحُودٍ مِنْ حَوَالِيهَا شَفَقٌ

لَوْ خَلَّتْهَا فِيهِ وَالنَّهْدَانِ قَدْ لَعِبَا فِي قَدِّهَا عِنْدَمَا يَنْتَوِي بِهِ الْكَفَلُ

لَقُلْتُ رُمَانَتَا غُصْنٍ تَمِيسُ عَلَى كَثِيبِ رَمْلٍ وَشَمْسٍ بُرْجُهَا

ويعد الشاعر عبدالرحمن باكثير في طليعة الشعراء الغزليين في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ إذ يمتاز غزله بالرقّة والعدوبة وجمال التصوير ، فقد رأى فاتنة ناعمة ، تتمايل مدلة بقوامها ، كأنها سكرى مدامة - كما يقول - فرسم جسمها المتمايل الجذاب ، متغزلاً بمحاسنها بأبيات رائعة ، منها قوله :

لَهَا اللَّهُ خُودٌ حِينَ تَخْطُو تَخَالُهَا مِنْ التِّيهِ وَالْإِعْجَابِ ثَامِلَةٌ سَكْرَى

إِذَا ارْتَجَّ مِنْهَا الرِّدْفُ وَاهْتَزَّ قَدُّهَا وَلَاحَ مُحْيَاها وَأَسْبَلَتْ الشَّعْرَا

رَأَيْتُ كَثِيباً فَوْقَهُ غُصْنٌ بَانَةٌ عَلَيْهَا هِلَالٌ وَالظَّلَامُ لَهَا سِتْرَا

... لَهَا كَفَلٌ كَالْحَقْفِ يَعْقِدُ قَدُّهَا إِذَا نَهَضَتْ قَدْ أَتْعَبَ الْعِطْفُ

ويصف ناعمة دقيقة الخصر ، ضامرة البطن ، حسنة القوام ، تنتثي وتتمايل كالغصن ، فيقول :

وَأَفْتُكَ تَرْفُلُ فِي جَلَابِيبِ الصَّبَا خُودٌ إِلَيْهَا كُلُّ قَلْبٍ قَدْ صَبَا

عِيْدَاءُ مَنْ حَمَرِ الشَّيْبَةِ تَنْتَثِي تِيْهَا كَغُصْنٍ قَدْ أَمَالَتْهُ الصَّبَا

... هَيْفَاءُ أَمَّا قَدُّهَا فَمُنْقَفٌ لَدُنَّ وَأَمَّا لَحْظُهَا مَاضِي الظَّبَا(3)

وهكذا ظل الشعراء يستجلون محاسن المرأة الجسمية ، ممتدحين تمام خلقها . وقد أشاروا إلى عنقها وشبهوها بالطبي في لفتتها وجيدها . يقول أحمد العليف مصوراً حسناً أعجبتة:

رَدَاخٌ إِذَا مَا الرِّدْفُ جَاذِبٌ يُنَادِيهِ شَاوُوشُ الْمِلَاحِ تَرْفَقَا

مَلِيحَةٌ مَجْرَى الطُّوقِ كَالرِّيمِ لَفَّتْهُ وَجِيْدًا فَمَا أَحْلَى الْمَلِيحِ الْمُطَوَّقَا

ولم يكتف الشعراء بتتبع جسم المرأة وما فيه من مفاتن ، بل عرجوا على حليها ؛ ليستتم لهم جمالها ، وأكثر ما تناول الشعراء منه القرط

(1) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 15/أ .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 4/ب .

(3) المصدر نفسه ، ورقة 31/أ .

(4) ديوان أحمد العليف ، ورقة 46/ب .

والطوق (العقد) ، إذ جاء ذكرهما في أحاديثهم عن رواسم الجمال ،
فالشاعر محمد الطبري لم يقنع بأن أسرة قلبه كالبدن طلعة ، وكغصن
البان ليناً وطولاً فحسب ، بل أشار إلى حليها بقوله:

ذاتُ قُرْطٍ مِنْ طَوْقِهَا مَطْلَعُ الشَّمْسِ سِ فِدَا حُسْنِهَا الْبَدِيعُ جَنَانِي
مَا تَبَدَّتْ تَخْتَالُ إِلَّا أَرْتَنَا بَدْرَ تَمَّ يُقْلَهُ غُصْنُ بَانٍ (1)

وكذلك فعل الشاعر عبدالرحمن باكثير ، إذ يقول مكنياً عن طول
عنقها :

طَوِيلَةٌ مَجْرَى الْعِقْدِ وَالْجِيدُ قَدْ بَعْدَ حَكَى فِي النِّظْمِ مَبْسَمَهَا⁽²⁾
وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَشِيرُ إِلَى نَفَاسَةِ الْحَلِيِّ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ نَوْعَهُ ، كَعَلِي
العليف الذي شبه معشوقته بالقمر ، ثم صور مشيتها ولينها بقوله :
إِذَا مَشَى فِي نَفِيسِ الْحَلِيِّ مَالٌ بِهِ فِي حَقْبِ رَمْلِيَّةٍ غُصْنٌ مِنَ الْبَانِ⁽³⁾
وَمِنْهُمْ مَنْ يَوْمِي إِلَى لِبَاسِهَا فِي خُضْمِ حَدِيثِهِ عَلَى الْحَلِيِّ كَالشَّاعِرِ
عَلِي الْجَمِّ ، إِذْ يَقُولُ مَصَوِّراً جَسْمَهَا وَلِبَاسَهَا وَصَوْتَ حَلِيِّهَا حِينَ تَمْشِي :
خَطَرْتُ فِي مَوْشَيَاتِ الْخُرُوزِ وَتَنَتَّ بِأَسْمَرٍ مَهْرُوزِ
... وَأَمَاطْتُ عَنِ الْعَقِيقِ فَأَبَدْتُ بَارِقاً مِنْ وَشَاحِهَا الْفَيْرُوزِ
وَتَنَتَّ فَلِالْحَلِيِّ تَنَاعَ فِي قَضِيبٍ مِنْ خَالِصِ الْإِبْرِيزِ⁽⁴⁾

-6-

وتناول الشعراء أخلاق المرأة وكرم أصلها ، عادين ذلك من كمال
حسنها . يقول الشاعر أحمد العلّيف في فتاة أعجبه :

مُمْنَعَةٌ فِي قَوْمِهَا كُلُّ فَاتِكٍ طَوِيلُ نِجَادِ السَّيْفِ مِنْ ضَيْغَمٍ
تَجَانَسَ فِيهَا رَائِقُ الْحُسْنِ وَالْبَهَا وَظَرْفٌ وَلُطْفٌ فِي شَمَائِلِهَا خَطَا
كَرِيمَةٍ أَصْلٍ مِنْ ذَوَابَةِ عَامِرٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَانَتْ لِأَكْرَمِهِمْ⁽⁵⁾
وَالْمَرْأَةُ الْمُمْنَعَةُ الْعَسِيرَةُ الْمَنَالِ ، تَأْسُرُ الْقُلُوبَ أَكْثَرَ مِمَّنْ تَجُودُ

- (1) نفحة الريحانة ، المحبي 50/4 .
- (2) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 4/ب .
- (3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 369/2 .
- (4) سمط النجوم العوالي ، العصامي 374/4 .
- (5) ديوان أحمد العلّيف ، ورقة 31/أ ، ب .

بوصلها . وقد تحدث الشعراء عن ذلك منذ القدم ، فسُليكَ بن السُّلَكة – مثلاً – يذكر أن قلبه يعلق بالمنعة التي تنفر من الريبة ، وينصرف عمن تنقاد له ، إذ يقول :

يَعَافُ وَصَالَ ذَاتَ الْبَذْلِ قَلْبِي وَاتَّبَعَ الْمُمنَعَةَ النَّوَارَا (1)

وقد اشتهرت المرأة العربية بالعفة منذ الجاهلية ، فكانت هذه الخصلة من مكملاتها في نظر الرجل العربي ، بله المسلم ؛ فلا عجب أن نرى الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين يشيدون بالمرأة المتصفة بذلك ، مشيرين إلى كرم أصلها ، كما فعل العليف في أبياته السابقة ، وكقول الشاعر عبدالرحمن باكثير عن حسنائه :

مَهَاةٌ فَلَاةٌ غَادَةٌ عَرَبِيَّةٌ عَقِيلَةٌ حَيٌّ كَالضَّرَاغِمِ بَلْ أَضْرَى

عَزِيزَةٌ قَوْمٍ مُسْتَحِيلٍ وَصَالَهَا وَلَوْ بَذَلَ الْعِشَاقُ أَنْفُسَهُمْ مَهْرًا (2)

وهي في قصيدة أخرى ذات شمائل تستهويه ، فيحرص على وصلها ، لكنه لا ينال مراده ، حيث يقول :

مَمْنُوعَةٌ الْوَصْلِ حَدُّ السَّيْفِ يَرْقُبُهَا وَجَفْنُ عَيْنَيْهِ عَنْهَا قَطٌّ مَا هَجَعَا

وَلَيْسَ أَلْسِنَةُ الْوَاشِيْنَ فِيْ بِهَا إِلَّا الْأَسِنَّةُ فَارَكَبُ ذَاكَ أَوْفَدَعَا

عَقِيلَةُ الْحَيِّ مِنْ سُمْرِ الرِّمَاحِ لَهَا خِبَاءٌ وَكَمْ مِنْ نَجِيعٍ دُونَهُ بَقَعَا

وَخِذْرُهَا مِنْ حَشَاشَاتِ الْقُلُوبِ وَمِنْ نُورِ الْعُيُونِ وَمِنْ حَبِّ الْحَشَا

... لَهَا شَمَائِلُ تُدْنِي لِي زِيَارَتَهَا وَقُسُوءَةٌ جَرَّعْتَنِي صَدَّهَا جُرْعَا

فَمَرَّ عُمْرِي لَا صَدَّ أُمُوتٌ بِهِ بَأْسًا وَلَا زُورَةً أَحْيَا بِهَا طَمَعَا (3)

-7-

وعلى الرغم من أن الشعراء قد وصفوا جمال المرأة وأفصحوا عن أثره على قلوبهم ؛ فإننا لا نجد شاعراً متيماً يشعرنا بعاطفة المحب المتهالك صباية ووجداً ؛ بل نقف على أبيات تنبئ عما فعله الجمال في أفئدتهم – كما سلف – وأخرى عن الصد والوصل والعذل لا تخلو من حديث عن معاناة المحبين وما فعله الهجر في قلوبهم .

(1) الأغاني ، الأصفهاني 364/4 .

(2) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 4/ب .

(3) المصدر السابق ، ورقة 23/أ .

فالشاعر محمد بن أبي السعود بن ظهيرة يخاطب محبوبته ، واصفاً
إياها بالظبية ، مبدئاً لومه لها على هجرها الذي أسعر النار في أحشائه ،
فيقول مصرحاً بإخلاصه لها :

مَاذَا الْجَفَا يَا ظُبِيَّةَ الْوَعْسَاءِ أَضْرَمْتَ نَارَ الْهَجْرِ فِي أَحْشَائِي
وَأَنَا الَّذِي أَخْلَصْتُ فِيكَ مَحَبَّتِي وَوَقَفْتُ مُخْتَاراً عَلَيْكَ وَلَائِي (1)

ومن الشعراء من يخاطب محبوبته مستندراً عطفها بالإفصاح عن
حاجته إلى وصلها ، مبالغاً في ذلك ، كالشاعر عبدالرؤوف الواعظ الذي
جعل وصلها شفاءً لمرضه الذي عز دواؤه ، حيث يقول :

يَا لَيْتِي فِي الْحِجَازِ شَطَطُ نَوَاهَا نَحْنُ عُشَّاقُ حُسْنِكَ الْفَرْدِ
فَمَرِيضُ الصَّدُودِ عَزَّ دَوَاؤُهُ بِالشِّفَا عَرَجِي عَلَيْهِ وَعُودِي
لَمْ أَزَلْ فِي هَوَاكَ مَوْصُولَ حُبِّ فَصِلِي رَحْمَةً وَعَطْفاً وَعُودِي
قَدْ كَفَى الْمَطْلُ فِي مَوَاعِيدِ وَصَلٍ فَإِلَى كَمْ تُمَاطِلِي فِي عُودِي (2)

وظل الشعراء يحكون أحوالهم بعد هجر من يحبون ، مظهرين
لوعاتهم وما آلت إليه أجسامهم ؛ إذ يشكون من نحول الجسم وشجو
القلب ، وقد يذرفون الدموع دماً كما يحدثنا الشاعر محمد الطبري في
إحدى قصائده ، إذ يقول متمنياً وصل الحبيبة :

تَيَمَّمْتَنِي فَرَقَ جِسْمِي نُحُولاً مِنْ جَفَاهَا فَعَائِدِي لَا يَرَانِي
وَأَذَابَتْ قَلْبِي الْمَعَى وَجَارَتْ وَصَلْتَنِي لَوَاعِجَ الْأَشْجَانِ
لَيْتَهَا بَعْدَ بُعْدِهَا وَصَلْتَنِي وَكَفَاهَا مَامراً مِنْ هَجْرَانِ
أَرَقْتُ مُقَلَّتِي فَأَذْرَيْتُ دَمْعاً كَالْغَوَادِي دَمّاً عَبِيطاً قَانِي
لَا تَسَلْ مَا جَرَى عَلَى الْخَدِّ مِنْهَا يَا حَبِيبِي فَقَدْ جَرَى مَا كَفَانِي
فَجُفُونِي عَلَى الدَّوَامِ دَوَامٍ وَدُمُوعِي مِشَارِعُ الْغُدْرَانِ (3)

ومن الطريف في طلب الوصال قول الشاعر أحمد الكازروني :

(1) الضوء اللامع ، السخاوي 280/9 .

(2) السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 373/أ .

(3) نفحة الريحانة ، المحبي 51/4 .

يَا مَالِكَ الْحُسْنِ حَالِ الْخَوْلِ مِنْي وَمِنْكَ شُرُوطُ تَوْجِبِ
وَأَنْتَ تَعْلَمُ فَقْرِي مِنْ وَصَالِكَ لِي وَلَسْتُ أَطْلُبُ غَيْرَ الْقَوْتِ⁽¹⁾

وأشار الشعراء في غزلهم إلى الوشاة والحاسدين والعاذلين ،
مظهرين خوفهم من الحساد والوشاة الذين يسعون بينهم وبين من
يحبون ، أو من العذال اللائمين . على أن من الشعراء من ييوح بعجزه
عن كتمان مشاعره ، كعلي بن محمد الفاكهي الذي حاول أن يخفي حبه ،
خوفاً من الوشاة وغيره على حبيبه من اللائمين ، لكنه لم يفلح ؛ لأن
جوارحه لم تقدر على الكتمان ، يحدثنا عن ذلك بقوله مخاطباً محبوبه :
وَمَا أَنَا بِالسَّالِي هَوَاكَ وَلَوْ صُدُودٌ بِهِ دَمْعِي جَرَى وَهُوَ عِنْدُ
... وَلَكِنِّي خَوْفَ الْوَشَاةِ وَغَيْرَةٍ⁽²⁾ عَلَيْكَ مِنَ اللَّاحِي هَوَاكَ أَكْتَمُ
وَأَخْفِي غَرَامِي مِنْكَ نُسْكَاً وَإِنَّهُ لَيُظْهَرُ فِي نَجْوَايَ إِذَا تَكَلَّمُ
... غَرَامٌ وَوَجْدٌ وَاكْتِتَابٌ وَحُرْقَةٌ وَدَهْرٌ بِأَنْوَاعِ الْجَفَا يَتَضَرَّمُ
وَكَثْرَةٌ حُسَادٍ وَقَلَّةٌ رَاحِمٍ وَتَشْنِيعٌ وَاشٍ ظَالِمٍ يَتَظَلَّمُ⁽³⁾

وقد يواجه الشاعر المحب لائمييه بطلب الكف عن لومه كما فعل
الشاعر عبدالرحمن باكثير ، معللاً ذلك بأنه لم يكن بدعاً في حبه وفيما
جرى له بسببه ، حيث يقول :

فِيَا عَذُولِي كُفَّا عَنْ مَلَامِكَمَا فَلَيْسَ قَلْبِي فِيمَا جَاءَ مُبْتَدِعَا
وَلَسْتُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى أَرِمَّتَهُ لِلْحُبِّ يَرْضَى بِمَا فِيهِ الْهَوَى⁽⁴⁾

وكقول الشاعر محمد النهر والي :
بَلِّغْ حَبِيبِي بَعْضَ مَا أَلْقَاهُ إِنْ أَبْصَرَتْهُ
أَمَّا عَذُولِي قُلْ لَهُ دَعْ عَنْكَ مَا أَضْمَرَتْهُ⁽⁵⁾

-8-

(1) الضوء اللامع ، السخاوي 225/2 .

(2) في المصدر : ولو جفاني ، والمثبت عن الأصل المخطوط ، ورقة 127/ب .

(3) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1072/2 .

(4) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 22/ب .

(5) المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 398 .

هكذا كان جل الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ يظهرون عواطفهم تجاه المرأة ، ويصفون مفاتنها من غير أن يفحشوا في ذكر الأعضاء أو يسفوا في تصوير سويغات اللقاء .
على أننا نجد قلة منهم قد مالوا - في بعض نتاجهم - إلى تصوير ما يقع بينهم وبين من يعشقون بأسلوب مكشوف ، يذكرنا ببعض أصحاب الغزل الصريح ، كابن أبي ربيعة وأبي نواس ومسلم بن الوليد وغيرهم . من ذلك قول الشاعر أحمد العفيف يصف ليلة نعم فيها بوصل معشوقته :

نَعِمْتُ فِيهَا لَيْلَتِي كُلُّهَا بِأَرْشَقِ الْخَلْقِ وَأَحْلَى الْأَنَامِ
وَنَحْنُ فِيمَا بَيْنَنَا عِفَّةٌ إِلَّا اعْتِنَاقٌ دَائِمٌ وَالتِّزَامُ
وَقَبْلَةٌ تَجْبُرُ صَدْعَ الْهَوَى وَضَمَّةٌ تَعْقِدُ حَبْلَ الزِّمَامِ
وَاللَّيْلُ مُرَخٍ مِنْ قِنَاعِ الرِّضَا وَالصَّبْحُ قَدْ لَاكَ فَضُولَ اللَّئَامِ
كَأَنَّمَا غَارِبْنَا لَيْلُنَا فَسَلَّ مِنْ صُبْحٍ عَلَيْنَا حُسَامُ
لِلَّهِ مَا أَظْلَمَ ذَاكَ الضَّيَا عِنْدِي وَمَا أَشْرَقَ ذَاكَ الظَّلَامُ⁽¹⁾

والعفيف مقلد في غزله ، لا نكاد نحس في كثير منه حرارة الحب أو جوى القلب . وهو ممن تغزل بالمدكر ، وله في ذلك أبيات من الزجل في غلام حبشي ، منها قوله :

مَرَّ بِي وَاحْتَرَشَ أَهْيَفَ مَلِيحِ الدَّلَالِ
مِنْ ظَبَاءِ الْحَبَشِ وَطَلَعَتْهُ كَالْهَلَالِ
... قَالَتْ خَلِّ الدَّوْشَ وَاسْمَحْ بِطَيْفِ الْوَصَالِ
قَدْ قَتَانِي الْعَطَشُ إِلَى لَمَّاكَ الزَّلَالِ⁽²⁾

وأكثر الشعراء تغزلاً بالمدكر محمد النهروالي ، وهو شاعر مجيد في غزله ، لا يفوقه في جمال التصوير وسلاسة الأسلوب إلا عبدالرحمن باكثير ؛ لكن النهروالي قد أسفَّ في كثير من شعره الغزلي ؛ حيث سقط في وحل المجون ، وما كان لمثله أن يتغزل بالمدكر ويصور ما يقع من

(1) ديوان أحمد العفيف ، ورقة 76/ب .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 79/أ .

فجور .

ومن غزله بالمذكر هذه الأبيات التي يصف فيها فتىً من الترك ناعماً ، رقيقاً ، يتضح فيها أن الشاعر قد أجال طرفه في هذا الفتى قبل أن يعرض هذه الصورة التفصيلية لجسمه الحسن في صراحة تامة ، إذ يقول :

طِفْلٌ مِنَ التُّرْكِ إِلَّا أَنْ نَاطِرَهُ الـ هِنْدِيَّ يَفْتِكُ فِي عُشَاقِهِ الْعَرَبِ
مُثَرِّمٍ مِنَ الْحُسْنِ تُغْنِي حُسْنَ طَلْعَتِهِ بِالْعُطْفِ وَالرِّدْفِ عَنْ بَانَ وَعَنْ
وَالْتَغَرُّ مِنْ لَوْلُوٍ وَالْخَالِ مِنْ سَبَجِ وَالْجِسْمِ مِنْ فِضَّةٍ وَالْخَدَّ مِنْ
... فَمَّ وَرَيْقٍ وَكَأْسٍ إِنْ ظَفِرَتْ بِهِ ظَفِرَتْ بِالْكَأْسِ وَالصَّهْبَاءِ وَالْحَبَبِ
يَا فَاتِكِي بِالْجَفَا دَغْنِي أَطَالُ فِي كِتَابِ عَارِضِ هَذَا الْمَبْسَمِ الشَّنْبِ
أَرَى مُطَالَعَتِي فِي الْكُتُبِ مَا نَفَعَتْ لَعَلَّ وَجْهَكَ يُغْنِينِي عَنِ الْكُتُبِ (1)

ولم يتورع عن ذكر ما يؤذي الذوق السليم ؛ حيث يصف ما جرى بينه وبين غلامه في أبيات (2) . بل وأسرف على نفسه ، وأفصح عن مكنونها في جراءة وصراحة كما كان يفعل أبو نواس في أبيات أخرى جمع فيها بين وصف الخمر والغزل بالمذكر ، منها قوله :

هَيْهَاتَ أَنْ يُدْرِكَ طَعْمَ الْهَوَى مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَوْقِهِ يَلْطَفُ
لِلْعَشِيقِ سِرٌّ لَمْ يَزَلْ غَامِضاً لَغَيْرِ أَهْلِ الْحُبِّ لَا يُكْشَفُ
فِيَا نَدِيمِي اشْرَبْ عَلَى رُغْمِهِ وَدَعْهُ فِي انْكَارِهِ يَزْسِفُ
... وَبِي غَزَالٌ طَابَ مَرْعَاهُ فِي كِنَاسِ قَلْبِي وَهُوَ لَا يَأْلَفُ
بَذْرُ كَمَالٍ لَا يَرَى حُسْنَهُ نَقْصاً وَلَا مَحْقاً وَلَا يَكْلَفُ
فِي خَدِّهِ أَنْبَتَ مَاءِ الْحَيَا وَرِثَةً بَغِيرِ اللَّحْظِ لَا يَقْطَفُ

(1) إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 555/1 ، 556 .

(2) انظر : المصدر نفسه 556/1 ، 557 . وهي معارضة لقصيدة ابن مطروح (ت

649هـ) التي أولها:

خُذُوا قَوْدِي مِنْ أَسِيرِ الْكَلِّ فَوَا عَجَباً لِأَسِيرِ قَتْلِ

عَارِضُهُ لَامٌ وَفِي صِدْغِهِ وَآؤُ وَلَكِنْ آهٍ لَوْ يَعْطِفُ (1)

وهذه الأبيات تذكرنا أيضاً بأبي الفتح البستي الذي كان الخمر والغزل متلازمين في شعره تلازماً كبيراً ، حتى إنه قل أن يرد لنا شعر لأبي الفتح في الغزل في غير مجلس شراب ولهو مع بعض القيان أو الغلمان (2) .

وقد يعجب المتابع لهذا التباين بين ما عرف عن سيرة النهروالي ومكانته الاجتماعية المرموقة وبين هذا الشعر الذي تغنى به .
والحقيقة أن الذوق العام آنذاك لم يكن يستهجن مثل هذا النوع من الشعر ؛ لذلك وجدنا بعض الشعراء من الفقهاء والمحدثين – كالنهروالي – يخوضون فيه ، مجارة لذوق العصر وتقاليده ، ولا يرون فيه ما يحط من قدر صاحبه . ويبدو أن رحلات النهروالي إلى بلاد الروم قد تركت بصمتها على إبداعه ، حتى رأينا هذه الجرأة التي لم نعهد لها في شاعر من شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .
وإذا كان الشاعر قد جارى الذوق السائد الذي لا يجد غضاضة في سماع مثل هذا الشعر ، فمما لا شك فيه أن الفطر السليمة ترتفع عن هذا المرض الاجتماعي بالغاً ما بلغ من الذيوع والانتشار بين أوساط المجتمع .

-9-

وبعد هذا التطواف بشعر الغزل في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ يمكن أن نستنتج أن الشعراء قد ساروا على نهج القدماء في وصف المرأة ، إذ لم تختلف نظرتهم عن أولئك في مقومات جمالها . وقد وصفوا أعضائها وباحوا بما في صدورهم من إحساس بالجمال ، لكننا لم نعثر على قصص العشق العميق الذي يدور بين المحبين .

وقد مر بنا بعض النماذج القليلة – الموحية بالغزل السهل الخالص – التي تنم عن صدق فني ناتج عن التواءم بين عاطفة الشاعر وقدرته على الصياغة . وعلى الرغم من أنها نماذج تحفل بصور مكررة وقعوا فيها على معاني القدماء ؛ فإن المتلقي لا يعدم المتعة ، مما يؤكد قدرة

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص 503 .

(2) انظر : أبو الفتح البستي حياته وشعره ، الخولي ، ص 110-113 .

أولئك الشعراء على عرض أفكارهم من خلال تلك الصور المؤثرة .
والتقليدية سمة تغلب على الغزل في مكة والمدينة في القرنين التاسع
والعاشر الهجريين ؛ لكثرة المقدمات الغزلية في مدائح الشعراء وقلة
القصائد والمقطوعات . والشعراء لم ينظموا تلك المقدمات بدافع من
عاطفة الحب ، بل حاول كل شاعر إثارة نفسه لتقمص عاطفة المحب ،
بغية تهيئة السامع لما يريد قوله . يقول ابن رشيق : "وللشعراء مذاهب
في افتتاح القصائد بالنسيب ؛ لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول
بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء ، وإن ذلك
استدراج إلى ما بعده"(1) .
فهو إذن ليس الغرض الأساس ولا هو مقصود لذاته .

(1) العمدة 225/1 .

8- الفخر والحماسة :

-1-

يرى ابن رشيّق أن الفخر " هو المدح نفسه ، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه"(1) .

وقد تحدث شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين عن ذواتهم ، ولم ينشغلوا بتمجيد أقوامهم والإشادة بمآثرهم ومفاخرهم . ويبدو أن السبب في ذلك هو ضعف الروح القبلية ، خلافاً للقدماء الذين كانت سائدة عندهم ، ومن ثم كان لها رواج في الشعر .

على أن الروح الدينية كانت قوية في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ لخصوصية المكان الذي يعد مهوى أفئدة المسلمين من مختلف بقاع الأرض ، تضمهم ساحاته الطاهرة ويؤلف الإسلام بين قلوبهم ، فينصرفون عن التفاخر بأنسابهم ومآثر أقوامهم إلى الاعتزاز بهذا الدين الحنيف والعيش على أطر بقاع الأرض ، والتشرف بالسير على نهج الرسول الكريم ، وما آل إليه ذلك من بلوغ المعالي والسبق إلى كل فضيلة ، يقول الشاعر أحمد العليف :

أَلَسْنَا بَنِي الزُّهْرَاءِ وَالْغَايَةِ الَّتِي يُقَصِّرُ عَنْ إدْرَاكِهَا كُلُّ طَالِبٍ
لَنَا الْبَيْتُ وَالْمَسْعَى لَنَا الرُّكْنُ وَالصِّفَا لَنَا سُرَّةَ الْبَطْحَاءِ بَيْنَ الْأَحَاسِبِ
شَرِبْنَا بِهَا مَاءَ النَّبُوَّةِ عَلَّة عَلَى نَهْلٍ صِرْفاً صَرِيحٍ
لَنَا مَكَّةُ الْغُرَاءِ دَاراً وَمَا حَوَتْ جَوَانِبُهَا مِنْ سُمْكِهَا وَالْهُوَاضِبِ
... سَبَقْنَا إِلَى الْعِلْيَاءِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا بِنَاءَ الْمَعَالِي فِي عُصُورِ الدَّوَاهِبِ

أَخَذْنَا عَلَيْهِمُ الْبَلَاءَ وَفَاطِمٍ كَرَامَ الْمَسَاعِي فِي أَعَزِّ
وفخر الشعراء بحياتهم بين الحرمين الشريفين ، ورأوا أنهما لا يعادلها مكان على وجه الأرض ، يقول محمد النهر والي :

وَمَشَاهِدُ الْحَرَمَيْنِ أَعْلَى رُتَبَةٍ مِنْ أَنْ نُقِيمَ بِدَارِ مَلِكٍ أَكْبَرِ(3)

ويقول الشريف حسن بن عجلان مفتخراً :

(1) المصدر السابق 143/2 .

(2) ديون أحمد العليف ، ورقة 20/أ .

(3) رحلة الشتاء والصيف ، كبريت ، ص152 .

وَنَحْنُ لَنَا الْقَبْرُ فِي يَثْرِبٍ وَنَحْنُ لَنَا سَفْحُ وَادِيٍّ مِّنَى⁽¹⁾

ونظروا إلى آل البيت نظرة احترام وإكبار ، وأصبحوا يعلنون حبهم افتخاراً ، ومنهم من يحمد الله الذي هداه إلى ذلك كالشاعر خضر الموصلي الذي يقول في أرجوزة له :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اجْتَبَانِي بِحُبِّ أَهْلِ الْبَيْتِ وَاصْطَفَانِي

لَأَنْ أَكُونَ مَادِحاً وَخَادِماً لَهُمْ وَفِيهِمْ نَاثِراً وَنَاطِماً⁽²⁾

ويتباهى الشاعر عبدالقادر الفاكهي بحبه للإمام علي - كرم الله وجهه - وبنيه غير مكترث بمن ينعته بالرافضي بسبب هذا الحب ، مشيراً إلى مذهبه الشافعي بقوله :

إِنْ كَانَ رَفِضِي فِي مَحَبَّةٍ حَيْدَرٍ وَبَنِيهِ قَاطِبَةً فَاتِّي رَافِضُ

حَسْبِي اقْتِدَائِي بِالْإِمَامِ مُقَلِّدِي الشَّافِعِيِّ بِحُرِّ الْعُلُومِ الْخَائِضِ⁽³⁾

وهم لا يفعلون ذلك عصبية ، بل من حب صادق ومعتقد يفتخرون بإذاعته ، يقول الشاعر عبدالمعطي باكثير :

يَا آلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ حُبُّكُمْ فَرَضٌ وَفَضْلُكُمْ قَدْ شَاعَ فِي الْأَمَمِ

يَا آلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ مَذْحُكُمْ فِي الذِّكْرِ جَاءَ فَمَا مَذْحِي وَمَا

ومن اللافت للانتباه أن من الشعراء من كان أميراً شريف النسب ، لكنه لم يفاخر بذلك ، بل يقدم عليه الاعتزاز بالسعي في فضائل الأمور ، من ذلك قول الشريف بركات بن حسن بن عجلان في إحدى قصائده :

وَلَا تَرَانِي بِغَيْرِ الْفَضْلِ مُنْتَجِحاً وَلَا أَقْدِمُ أَذْنَاباً عَلَى الرَّاسِ⁽⁴⁾

وإن حصل شيء من ذلك فإنه على سبيل الإشارة ، كقول الشريف علي بن حسن بن عجلان :

وإن نال العلا قرم بقوم رقيت علوها فرداً وحيداً⁽⁵⁾

(1) منائح الكرم ، السنجاري 397/2 .

(2) بهجة الجلساء في تعريف الخمسة من أهل الكساء ، ورقة 1/ب .

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص 465 .

(4) المصدر نفسه ، ص 481 .

(5) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 454/2 .

(6) الضوء اللامع ، السخاوي 211/5 .

-2-

وقد جاءت أبيات الفخر — عند شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين — منبثة في ثنايا بعض الأغراض ، ونادراً ما نجد شاعراً يفرد له قصيدة أو مقطوعة كما فعل الشاعر محمد النهروالي ، حينما نظم قصيدة مدلاً فيها بهمته العالية ، وسبقه إلى الفضائل وبلوغه السؤدد ، حيث قال :

بَسِيفِ الْحِجَا عِنْدَ اهْتِزَازِ النَّوَابِ تَقَلَّدْتُ فَاسْتَغْنَيْتُ عَنْ كُلِّ قَاضِبٍ
وَجَرَدْتُ مِنْ رَأْسِي الشَّدِيدِ عَزَائِمًا أَقُلُّ بِهَا حَدَّ السُّيُوفِ الْقَوَاضِبِ
وَلِي هِمَّةٌ أَسْمُو بِصَارِمِ عَزْمِهَا إِذَا السَّيْفُ قَدْ أَعْيَا صُدُورَ
وَمَا فَاتَنِي فَضْلٌ أَرَدْتُ اقْتِنَاءَهُ وَمَا غَرَّبَتْ عَنِّي صِعَابُ الْمَطَالِبِ
وَكَمْ خَطَبَ الْعَلِيَاءَ غَيْرِي وَلَمْ يَنْلِ وَنِلْتُ لِأَنِّي كُنْتُ أَكْرَمَ خَاطِبٍ (1)

هذا الشاعر الذي كان في قصائده الغزلية يجري خلف عذبات الثغور ، يجهر في هذه القصيدة بترفه عن ذلك مفتخراً ، مشيراً إلى أنه إنما كان يفعل ذلك مجاراة لبني قومه ، أما مقامه فيعلو عن ذلك كله إلى معانقة الكواكب ، إذ يقول :

أَخَالِطُ إِخْوَانَ الزَّمَانِ بِعَقْلِهِمْ لِأَنْظُرَ مَا يُبْدِي بِهِ مِنْ عَجَائِبِ
وَأُظْهِرُ أَتْيَ مِثْلِهِمْ تَسْتَمِينِي عَذَابُ الثَّنَا سُوْدُ شَعْرِ الذَّوَابِ
وَأَنَّ أَلِيمَ الْهَجْرِ مِمَّا يَسُوءُنِي وَأَنَّ لَذِيذَ الْوَصْلِ أَسْنَى مَارِبِي
وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الْهَوَى دُونَ وَأَنَّ مَقَامِي فَوْقَهُ بِمَرَاتِبِ
أَلَّا فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ قَوْمٌ عَهْدَتْهُمْ يَرُونَ اكْتِسَابَ الْفَضْلِ أَرَى
وَمَا عِنْدَهُمْ فَضْلٌ سِوَى كَثَرَةِ وَمَا الْمَجْدُ إِلَّا أَخَذَ بَعْضَ الْمَنَاصِبِ
فَضَائِلَهُمْ مَحْصُورَةً فِي ثِيَابِهِمْ وَأُورَادُهُمْ إِتْقَانُ هَذِي الْمَنَاقِبِ
زَمَانِي رَمَانِي بَيْنَهُمْ يَسْتَهِينُنِي وَلَيْسَ مَحَلِّي غَيْرَ هَامِ الْكَوَكِبِ (2)

وللشاعر أحمد العليف ما يشبه ذلك ؛ فقد فاخر بعزته وإبائه وسيره

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص 499 .

(2) المصدر السابق ، ص 499 ، 500 .

الحثيث إلى معالي الأمور بهمة عالية شغلت قلبه عن الانصراف إلى الحسان ، إذ يقول :

يَأْبَى لِي الْمَجْدُ الْأَثِيْلُ وَهَمَّتِي حُبُّ الْحَسَنِ وَعِزَّتِي وَإِبَائِي

... لَا تَمْلِكُ الْحَسَنَاءُ قَلْبِي كُلَّهُ حَسْبِي وَرُودُ مَا يَبُلُّ صَدَائِي

لِي شَاغِلٌ عَنْهَا بِتَذْيِيرِ الْعُلَا وَمَحَبَّتِي لِمَرَاتِبِ الْعُلِيَاءِ

... لِي فِي الْمَعَالِي طَرَبَةٌ لَمْ يَنْتَهَا مِيلٌ إِلَى دَعْدٍ وَلَا أَسْمَاءِ

تُغْنِي الْكَرِيمَ عَنِ الْهَوَى وَشُؤُونِهِ مَشْغُولَةٌ بِالْعَزْمِ وَالْإِمْضَاءِ (1)

وقد يشعر المتلقي لهذا الفخر الذاتي بالعزة وبالتطلع إلى العلياء التي ينشدها الشعراء ، فمحمد بن أحمد الفاكهي يتباهى بأن له نفساً قد جبلت على حب المعزة ، إذ يقول :

طُبِعْتُ عَلَى حُبِّ الْمَعَزَةِ وَالْتَمَّ وَأَرْجُوهُمَا فِي طَوْلِ عُمْرِي

(2)

-3-

واعتد الشعراء بشعرهم ، متخذين من قصيدة المدح وسيلة لإذاعة ذلك ، حيث يزفونها للممدوح مصحوبة بأبيات تنبئ عن تبذخ صاحبها . فالشاعر أبوبكر بن أبي الخير يهدي قصيدته إلى الشريف بركات بن محمد مدلاً فيها ببلاغته ، حين يشير إلى أن فصحاء العرب يقصرون دون إدراك غايتها ، حيث يقول :

إِلَيْكَ أبا عَجْلَانَ خُذْهَا قَصِيدَةً مُهَذَّبَةً لَفْظاً مُنْقَحَةً مَعْنَى

يُحَيِّرُ أَرْبَابَ الْبَدِيعِ بِدِيعِهَا وَقَسًا وَسَخْبَانًا هُمَا عِنْدَهَا لُكْنًا

(3)

وهم لا يتخرجون من المبالغة في التمدح ؛ فحسين العليف يرى أن له في البيان القدم السابقة ، وأنه أربى على كل ناظم أو ناثر ، وأصبح لسان قومه ، إذ يقول مخاطباً الشريف حسن بن عجلان :

وَأَنَا أَدِيبُكَ وَابْنُ شَاعِرِكَ الَّذِي فَاقَ الْوَرَى مِنْ نَاطِمٍ أَوْ نَاثِرٍ

(1) ديوان أحمد العليف ، ورقة 23/ب .

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص 529 .

(3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 164/3 .

وَلِسَانُ عَدْنَانٍ وَقَسٌّ فِي الْوَرَى وَنِزَارُهَا لِقْيَاصِرٍ وَأَكَاسِرٍ (1)

وتجاذب الشعراء حبل الفخر ، ورأى كل شاعر أنه بلغ من الفضل في الشعر أعلى مناط العقد ، فالشاعر محمد بن عبد القوي يزهو بشعره ؛ فيشبهه بقلادة حسناء منظومة بالدر ، إذ يقول في مديحه للشريف حسن بن عجلان :

اسْمَعْ لِمَدْحٍ فِي عُلاكَ كَأَنَّهُ دُرٌّ نَظْمُنَ بِلَبَّةِ الْحَسَنَاءِ

يَزْهُو بِهِ جِيدُ الزَّمَانِ كَمَا زَهَا أَفَقُ السَّمَاءِ بِأَنْجُمِ الْجَوَازِ (2)

ويثني أحمد العليف على شعره في مديح الشريف بركات بن محمد ، وينعت قصيدته بالحسنة قائلاً :

وَحُذِّ نَسِيجُ ثَنَاءٍ صَافِيَا حَسَنًا يَكْسُوكَ مِنْ وَشْيِهِ أَبْهَى مِنْ

عَرُوسُ مَدْحٍ تَهَادَى فِي مَنْصَتِهَا تُجَرُّ بِالْحُسْنِ ثَوْبَ التَّيِّهِ وَالْغَزْلِ (3)

ويقتفي العليف أثر المتنبي في اعتزازه بنفسه وفخره بشعره ، فيقول مخاطباً الشريف بركات بن محمد :

خُذِ الْمَدْحَ مِنِّي يَا هُمَامُ فَإِنَّمَا بِقَدْرِ بِنَاءِ الْبَيْتِ تَسْمُو الْمَدَامِكُ

وَدَعْ مَا سِوَايَ يَا كَرِيمُ فَإِنِّي أَنَا الشَّاعِرُ الْمَحْكِيُّ وَالْغَيْرُ حَائِكُ (4)

وهو على شاكلة قول المتنبي مخاطباً سيف الدولة :

وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنِّي أَنَا الصَّائِحُ الْمَحْكِيُّ وَالْآخِرُ (5)

هكذا وقر العجب في نفوس الشعراء ؛ فاعتد كل واحد بشعره وقدمه إلى ممدوحه مدعياً أنه المجلي على ما سواه . وقد تفاوتوا في أسلوب عرضه على الممدوحين ، ومن أفضل الشعراء في ذلك خضر الموصلي في قصيدته التي مدح بها الشريف الحسن بن أبي نمي ؛ حيث افتخر باستقائه من معين الخير ، ومنحها ممدوحه بوصفها درة خالصة ، مرصعة في جبين الدهر ، إذ يقول :

(1) المصدر نفسه 367/2 .

(2) المصدر نفسه 382/2 .

(3) المصدر نفسه 198/3 .

(4) سمط النجوم العوالي ، العصامي 309/4 .

(5) ديوان أبي الطيب المتنبي 291/1 .

إِنْ يُمَلِّ نَابِغَةَ الْجَنِّ الْقَرِيضَ فَلِي فِي نَظْمٍ مَدْحِكَ مِنْ جَبْرِيلَ إِيهَامُ
فَهَاكْهَآ دُرَّةً بَلَّ بَحْرُ فَائِدَةٍ (لَدَى الْعُقُولِ) ⁽¹⁾ بِبَذْلِ الرُّوحِ
تَبْقَى وَتَذْهَبُ أَشْعَارُ مُلَفَّقَةٍ كُغْرَةٍ فِي جِبَاهِ الدَّهْرِ أَوْ شَامُ ⁽²⁾

ففضلاً على أنه أبان عن نبل هدفه ، زفها إليه عن طريق اسم فعل الأمر (هاك) الذي يعد أكثر لطفاً من فعل الأمر الجاري في أساليب الشعراء السابقين (اسمع ، خذ ، دع) .

-4-

وإذا كان الشعر الحماسي "هو الشعر الذي غرضه الأساس وصف البطولة والوقائع الحربية وإلهاب المشاعر في الإقدام والشجاعة" ⁽³⁾ ؛ فإننا لا نكاد نتبين ذلك إلا في نتاج نفر قليل من الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين كأحمد العفيف ، ومحمد الفاسي ، والنجم أبي المعالي ، ومحمد النهروالي ، وعبدالرحمن باكثير . وقد ورد الشعر الحماسي في قصائد المديح ، حيث تغنى الشعراء ببطولة ممدوحهم وبسالتهم ، فوصفوا غزواتهم وعراكمهم مع أعدائهم معجبين بشجاعتهم . ونلمس شعر الحماسة الحق في استنهاض همم الممدوحين وشحن عزائمهم ، كقول الشاعر أحمد الفاسي مخاطباً الشريف حسن بن عجلان :

(إِذَا كُنْتُ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ) فَإِنَّ خِيَارَ الرَّأْيِ بِالْعَزْمِ سَابِقُ
وَرَدَّ مَجَازَاتِ الظُّنُونِ حَقَائِقاً فَإِنَّ مَجَازَاتِ الْمُلُوكِ حَقَائِقُ ⁽⁴⁾

وقد أشار الشعراء إلى أن بلوغ المجد وتحقيق الهيبة لا يكون إلا بالإقدام وخوض الغمرات ، وحرصوا على افتتاح قصائد المديح بمثل هذه المعاني الحماسية ، فالممدوحون – كما سبق في شعر المديح وفي الشعر السياسي – كانوا في صراع دائم في سبيل توطيد دعائم الإمارة ، فأصبح من المناسب أن يتحدث الشعراء عن ذلك ؛ لتحفيزهم ، فإدراك العز الذي لا تفرع مروتته في تجريد السيوف والعزم الراسخ كما يشير

(1) هكذا في المصدر ، ولعلها : لِيَذِي الْعُقُولِ .

(2) خلاصة الأثر ، المحبي 132/2 .

(3) المعجم المفصل في الأدب ، محمد التونجي 555/2 .

(4) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 357/2 ، 358 .

الشاعر أحمد العليف في إحدى قصائده ، إذ يقول :

العِزُّ تَحْتَ ظِلَالِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ يَوْمَ الطَّعَانِ وَسَبْقِ السَّيْفِ لِلْعَدْلِ
وَالْمَجْدُ مَا شَادَ ذِكْرًا أَوْ بَنَى يَبْقَى وَمَا شَدَّ رُكْنَ الْمُلْكِ وَالِدُولِ
وَالْعَزْمُ مَا خَضَعَ الْأَعْدَا لِهَيْبَتِهِ ذَلًّا وَمَا صَيَّرَ الْأَفْكَارَ فِي شُغْلٍ (1)

وتحدث الشاعر عبدالرحمن باكثير عن مثل ذلك في بداية قصيدة مدح بها الشريف أحمد بن أبي نمي ، مشيراً إلى أن الفخر الحق في اقتحام الوغى بوجه باسم ، والإقبال على الموت بجنان ثابت ، حيث يقول :

العِزُّ ثَاوٍ بَيْنَ مُشْتَبِكِ الْقَنَا مَنْ رَامَهُ قَالَتْ لَهُ السُّمُرُ الْقَنَا
وَالنَّصْرُ مِنْ مُخْضَرِّ أَوْرَاقِ الظَّبَا غَضًّا بِهِ تَمَرُّ الْوَقَائِعِ يُجْتَنَى
وَالْمَجْدُ فِي صَهَوَاتِ دُهُمٍ إِنْ عَقَدْتُ سَنَابِكُهُنَّ نَقْعًا أَدْكَنَا
وَالْفَخْرُ أَنْ تَغْشَى الْكُتَيْبَةَ بِاسْمِ وَلَكَ الْحِمَامُ مِنَ الْأَسِنَّةِ قَدْ دَنَا
وَالثَّابِتُ الْجَاشِ الَّذِي يَرُدُّ الْوَعَى وَيَدُ الْمَنُونِ تُدِيرُ كَاسَاتِ الْفَنَاءِ (2)

ويعد الشاعر أحمد العليف في طليعة الشعراء الحماسيين في ذلك العصر ؛ فقد برع في وصف أعمال البطولة وإلهاب حماسة ممدوحيه ، ودعا في شعره إلى الإقامة في ظلال العز ونبذ الهوان ، وردد كثيراً أن ذلك كله كامن في امتطاء الصهوات وقرع الأسنة . يقول في إحدى قصائده :

لَا يُقِيمُ الْفَتَى عَلَى الضَّيْمِ مَا دَا مَ لَهُ الرُّمْحُ خَادِمًا وَالْحُسَامُ
وَإِذَا أَنْكَرَ الدِّيَارَ كَرِيمٍ فَالْمَطَايَا دَلِيلُهُنَّ الْخُطَامُ
... إِنَّمَا الْعِزُّ فِي صُدُورِ الْعَوَالِي وَالظَّبَا وَالْإِسْرَاجُ وَالْإِلْجَامُ
هَكَذَا فَلْتَكُنْ كِرَامُ الْمَسَاعِي وَعَلَى مِثْلِهَا يَكُونُ الْمَقَامُ (3)

(1) المصدر نفسه 190/3 . وهناك اختلاف في بعض الألفاظ عما ورد في الديوان (ورقة

35/ب) حيث جاءت لفظة (اللقاء) بدلاً من الطعان في البيت الأول ، ولفظة (الجزم) بدلاً من العزم ، و(فلأ) بدلاً من (ذلاً) ، و(السفل) بدلاً من (شغل) في البيت الثالث .

(2) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 17/ب ، 18/أ .

(3) ديوان أحمد العليف ، ورقة 13/ب ، 14/أ .

وقلّ أن نجد قصيدة غرضها الأساس الفخر والحماسة أو أن تكون خالصة لأحدهما . ومن القصائد التي حوت الغرضين قصيدة الشاعر أحمد العليف التي نظمها مخاطباً السلطان قانصوه الغوري على لسان الشريف بركات بن محمد . وقد بدأها بقوله :

كِرَامُ الْمَسَاعِي فِي سَنَامٍ وَغَارِبٍ وَنَيْلُ الْمَعَالِي فِي ظُهُورِ السَّلَاهِبِ
وَعِزُّ الْفَتَى فِي كُلِّ أَسْمَرٍ ذَابِلٍ وَأَبْيَضَ مَشْحُودِ الْغَرَارَيْنِ قَاضِبِ
فَسِرْ فِي طِلَابِ الْعِزِّ سَيْرَ مُشَمِّرٍ وَحُثِّ الْمَطَايَا فِي اقْتِضَاءِ
وَلَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَطْلُبُ الْعِزَّ فِي وَيُضْرِبُ صَفْحاً عَنْ كَرِيمٍ
وَلُكْنَهُ مَنْ يَقْتَضِيهِ بَعْزَمَةٌ وَرَأْيِي كَحَدِّ الْهُنْدُوَانِي ثَاقِبٍ⁽¹⁾

يعقب هذه الأبيات الحماسية الفخر – على لسان الشريف بركات – بكرم المحتد ، والاعتداد بالعزيمة الصادقة ، والاعتزاز بالتعود على اقتحام الشدائد ، إذ يقول :

أَنَا بَرَكَاتُ بْنُ الْجَوَادِ مُحَمَّدٍ سَلِيلُ الْمَعَالِي مِنْ كِرَامِ الْمَنَاسِبِ
أَخُو عَزَمَاتٍ لَا يُنْهِنُهُ عَزْمُهُ حَذَارِ الْمَنَايَا مِنْ عَدُوِّ مُحَارِبِ
رَمَتْ بِي غَمَارَ الْمَوْتِ نَفْسِي (تُرَاجِمُ)⁽²⁾ أَرْكَانَ السُّهَى بِالْمَنَاقِبِ
تَمَرَسْتُ بِالْأَهْوَالِ حَتَّى عَرَفْتُهَا وَلَا يُنْكِرُ الْمَعْرُوفَ تَغَبُّ
ثم يدعو قومه إلى الثورة على الصَّالِبِيِّينَ بِعَزِيمَةٍ مَاضِيَةٍ ، مَثِيراً⁽³⁾
حماستهم ومذكراً بشرف مقصدهم ؛ حيث الذود عن ديار الإسلام
والوقوف في مواجهة الكفر ، مشيراً إلى أن الله ناصر جنده ، إذ يقول :
أَلَا يَا لِقَوْمِي مِنْ ذَوَابَةِ هَاشِمٍ وَأَهْلِ الْحَمَايَا مِنْ لُؤْيٍ بِنِ غَالِبِ
عَنَيْتُ بَنِي عَمِّي وَكُلَّ بَنِي أَبِي وَجَمَعَ الْمَوَالِي مِنْ شَبَابٍ وَشَايِبِ
دَعَوْتُ وَلَا يَدْعُو الْفَتَى غَيْرَ مَاجِدٍ شَرِيفِ السَّجَايَا أَوْ كَرِيمِ الْمَنَاقِبِ
... أَقِيمُوا صُدُورَ النَّاعِجَاتِ وَجَنَّبُوا إِلَيْهَا مُتُونِ الصَّافِنَاتِ الْجَنَائِبِ

(1) المصدر السابق ، ورقة 19/ب ، 20/أ .

(2) في المصدر : تُرَاجِمُ . والمثبت هو الصواب .

(3) المصدر نفسه ، ورقة 20/ب .

وَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ بِاللَّهِ وَارْكَبُوا مَثُونِ الْمَذَاكِي أَوْ ظُهُورَ الْمَرَائِبِ
وَتَوَرُّوا إِلَى حَرْبِ الصَّلَيبِ بِعِزْمَةٍ تَثَلُّ عُرُوشَ الْمَارِقِينَ الْكَوَادِبِ
... وَلَا تَرْهَبُوا قَوْمَ الصَّلَيبِ وَحِزْبَهُ وَمُؤْتُوا كِرَاماً تَحْتَ ظِلِّ
فَاتِكُمْ حِزْبُ الْإِلَهِ وَجُنْدُهُ وَمَا زَالَ حِزْبُ اللَّهِ أَغْلَبَ غَالِبٍ (1)

وهي قصيدة طويلة تربو على المئة بيت ، فيها تكرار للمعاني ،
كالاعتزاز بالأباء ، والاعتداد بالعزيمة الصادقة ، والحث على الإقدام في
الحروب والجرأة في مواجهة الصعاب .
والواضح مما سبق قلة شعر الفخر والحماسة في مكة والمدينة في
القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وغلبة الفخر الذاتي .
وعلى الرغم من كثرة الشعراء العلماء ، فإننا لا نجد فخراً بالعلم ،
كما أننا لا نكاد نجد من يفتخر بكرم المحتد ، وقد ندر ذلك حتى عند
الشعراء الأشراف ذوي النسب العريق . كما تبين أن شعر الفخر منبث
في ثنايا بعض الأغراض وأن الشعر الحماسي قد اقترن بكثير من قصائد
المديح ، حين كان الممدوحون منشغلين بقمع الفتن وإشاعة الأمن في
ديارهم . وعلى الرغم من ذلك فإننا لا نعدم أن نجد من الشعراء من أفرد
الفخر في قصيدة ومن نظم قصيدة غرضها الأساس الفخر والحماسة .

(1) المصدر نفسه ، ورقة 20/ب .

9- الهجاء :

شعر الهجاء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين قليل . ولو نظرنا في كتب التراجم والسير والتاريخ ؛ لوجدنا قلة العناية بهذا الفن وندرة الاستشهاد به .

وأكثر ألوان الهجاء شيوعاً الهجاء السياسي ، وقد جاء في طيات بعض القصائد المدحية التي كان الشعراء ينشدونها إثر انتصارات الأمراء ؛ إذ إن تلك القصائد لا تخلو من تحقير الأعداء وتصوير ذلهم وخضوعهم . ولم نجد من الشعراء من يفرد للهجاء قصائد سوى أحمد العفيف ؛ حيث يضم ديوانه بضع قصائد ومقطوعات خالصة للهجاء .

-1-

اتضح فيما سبق من حديث عن الشعر السياسي أن الشعر صاحب تلك الغزوات التي كان يقوم بها الأمراء ، حيث أشاد الشعراء بانتصاراتهم وحقروا مناوئهم ، كما فعل الشاعر محمد بن أبي السعود بن ظهيرة حينما عاد الشريف محمد بن بركات من بعض غزواته منتصراً في سنة 882هـ ، حيث هزأ الشاعر بخصوم الشريف ، مشيراً إلى أنهم لا قدرة لهم عليه بقوله :

وَقُلْ لِقَوْمٍ ثَوُوا جَازَانَ وَامْتَنَعُوا مِنْ بَذْلِ طَاعَةٍ قُطِبَ الْحَرْبِ
وَأَمَلُوا أَنْ يَنَالُوا مِنْهُ فَرَصَتَهُمْ جَهْلًا وَمَا حَسِبُوا التَّخْرِيقَ
وَكَانَ ظَنُّهُمْ أَنَّ الْوَعَى لِعَبٍّ وَأَنْ مُلْكَ الصِّيَاصِيِّ لَيْسَ⁽¹⁾

وأقذع الشعراء في هجاء الخصوم ، ووصفهم بالبلادة حين سولت لهم أنفسهم منازل أولئك الأمراء . من ذلك أن الشريف بركات بن محمد قد عاد إلى مكة في أواخر سنة 908هـ بعد صراع مع أخيه أحمد ، فلم يتوان الشاعر علي بن ناصر الحجازي في الصدع بتأييده للشريف بركات والقدح في خصومه ، إذ ثلبهم وندد بهم قائلاً :

وَقَدْ تَطَاوَلَ أَقْوَامٌ لِمَنْصِبِهَا جَهْلًا وَفِي بُوعِهِمْ عَنْ نَقْلِهَا
لَيْسُوا بِأَهْلِ لَهَا لَكِنْ جَرَى قَدَرٌ ظَنُّوا بِهِ أَنَّهُمْ أَهْلٌ وَمَا شَعَرُوا
فَقُلْ لَهُمْ نَكَبُوا عَنْ طَرَقِهَا فَمَتَى لَزَّتْ مَعَ الْجُودِ فِي مَضَامِرِهَا⁽²⁾

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 527/2 ، 528 .

تَرْخَرُجُوا عَنْ مَقَامِ الْمَجْدِ مَرَابِضُ الْأَسَدِ لَا تَذْنُو لَهَا
 وظل الشعراء يصيبون من الخصوم كل مغمز ، مركزين على
 قعودهم عن مجارة أولئك الأمراء ، يكررون هذا المعنى في قصائدهم
 التي تعقب الانتصارات ، على نحو قول الشاعر أحمد العليف عقب
 انتصار الشريف بركات بن محمد على بني زبيد :
 أَرَادَتْ زُبَيْدٌ فِي جَنَابِكَ دَوْلَةً فَضَلَّتْ بِهَا أَوْهَامُهَا وَالشَّكَاكُ
 غَوَتْ عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ مِنْهَا وَجَهْلًا وَعَرَّتْهَا ظُنُونٌ بِوَاشِكُ
 مَتَى كَانَتْ ... تَرْقَى إِلَى الْعُلَا وَتَسْمُو إِلَى عَالِي الْأُمُورِ
 وَتَخْطُبُ أَوْشَابُ الشَّوَايَا مَرَاتِبًا وَتَنْهَضُ لِلْحَرْبِ الرُّبُورُ
 (1) (2)

-2-

وتناول الشعراء في هجائهم الشخصي بعض الصفات الخلقية
 والخلقية ، مذيعين بعض المثالب . وقد يقذعون ذوي الأحساب الشريفة ،
 ويقبحون الحسن تبعاً لأهوائهم ، فالهجاء - كما يقول الأبيشي - : "ليس
 دليلاً على إساءة المهجو ، ولا صدق الشاعر فيما رماه به ، فما كل
 مذموم بذميم ، وقد يهجي الإنسان بهتاناً وظلماً ، أو عبثاً أو إرهاباً" (3) .
 فليس غريباً إذن أن نجد الشاعر الهجاء يسم عالماً جليلاً بالجهل ، أو
 الحمق ، كما فعل أبو بكر المرشدي في هجائه الخطيب أبا الفضل
 النويري ، حينما درّس في المدرسة الأفضلية بمكة ، إذ يقول :
 مَدْرَسَةُ الْأَفْضَلِ قَالَتْ لَنَا لَا تَسْأَلُوا مَا حَلَّ بِي مِنْ هَوَانٍ
 الْجَاهِلُ الْأَحْمَقُ جَاءَ يَبْتَغِي التَّذْرِيسَ فِي تَفْسِيرِ آيِ الْقُرْآنِ
 وَمَا دَرَى مِنْ جَهْلِهِ أَنَّهُ تَبَوَّأَ النَّارَ وَخَسَرَ الْجَنَانَ (4)

(1) المصدر السابق 142/3 ، 143 .

(2) سمط النجوم ، العصامي 308/4 . الشكائك : جمع شكيكة ، والشكيكة : الفرقة من
 الناس والطريقة . وبَشَكَ الظنون : تخَرَّصَهَا كاذباً . الرُّكَازُكُ من الرجال : الدميم
 القليل . الأَوْشَابُ : الأخلاط من الناس والأوباش والرَّعَاغُ . والشَّوَايَا : جمع شويّة ، أي
 بقية قوم هلكوا . الحواتك : جمع حَوْتَك ، وهو الصغير الجسم اللئيم ، والحوتك أيضاً
 : القريب الخطو العاجز . ومكان النقط في البيت الثالث كلمة نابية .

(3) المستطرف في كل فن مستظرف 347/1 .

(4) العقد الثمين ، الفاسي 23/8 ، وعجز البيت الثالث غير مستقيم الوزن ، ولو سكنت

وقد ذكر الحافظ بن حجر أن الشيخ أبا السعادات بن ظهيرة أعلم أهل مكة⁽¹⁾ ، فلم يجد هذا الحكم قبولاً لدى الشاعر محب الدين محمد الطبري الذي لم يتورع عن الطعن فيه والقدح في مكانة أبي السعادات العلمية ، إذ يقول مخاطباً ابن حجر :

إِنْ كَانَ أَعْلَمُهَا مَنْ قَدْ ذَكَرْتَ صَارَتْ بِلاَ عَالِمٍ وَالْعِلْمُ قَدْ هَزَلَا
رَأْمَ التَّرْقِيِ إِلَى الْعَلِيَا فَانْزَلَهُ ذَا الدَّهْرِ مِنْ طَيْشِهِ لَا زَالَ

ومن الشعراء من لا يكتفي بسلب مهجوه العلم والكياسة ، بل يتعدى ذلك إلى غمزه في نسبه وسلوكه والتعرض لخلقته في صورة تهكمية مخالفة للصورة التي خلقه الله عليها ، كما يصنع الرسامون الهزليون في عصرنا في تصويرهم (الكاريكاتوري) الذي يبعث على الضحك والسخرية . من ذلك ما تناوله الشاعر أحمد الخيفي في قصيدته التي خاطب بها السلطان الأشرف على لسان مكة ، شاكياً أحد قضاتها ، حيث زرى عليه بقوله :

وَمَذْهَبُ مَالِكٍ فِيهَا يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ طَلَقَ اللِّسَانِ
أَغْيَثُونِي أَجِيرُونِي سَرِيعاً فَإِنِّي قَدْ بُلِيتُ بِمَا دَهَانِي
... بُلِيتُ بِجَاهِلٍ غَمِرَ رَقِيعٍ دَنِيءِ الْأَصْلِ مُتَّهِمِ جَبَانِ
لَهُ ذَيْلٌ وَآذَانٌ طَوَالٌ تَنِيْفُ عَلَى حُرُوفِ الطَّيْلَسَانِ⁽³⁾

وهذا المسلك نادر فيما بين أيدينا من نتاج لشعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .
ويعد أحمد العليف أكثر الشعراء إقذاً في الهجاء ؛ إذ تعمد في بعض أهاجيه البذاءة والتبذل في اللفظ ، رغبة في التشفي من خصمه ، فقد جاء في رد له على أحد خصومه :

يَا أَمَا تَسْتَحِي مِنْ هَجْوِ أَسْتَادِكَ أَوْ ذَمِّهِ

السين في (خسر) أو استبدل به الفعل (ضَلَّ) ؛ لاستقام الوزن .

(1) خلاصة الأثر ، المحبي 463/2 .

(2) المصدر نفسه 463/2 .

(3) إتحاف الوري ، عمر بن فهد 628/3 ، 629 .

مَنْ يَقْتَفِي فِي الْحُكْمِ يَا ذَا الْخَنَا نَهَجَ أَبِيهِ فَهُوَ مِنْ قَسَمِهِ
فَافْطَنَ لِمَا قَدْ قَاتَهُ أَنْفَاءً إِنْ كُنْتَ مِثْلَ ... فِي فَهْمِهِ (1)

-3-

وذم الشعراء المساوي الخلقية المتفشية بين أفراد المجتمع . وهو هجاء إيجابي يتجاوز حدود الفردية الضيقة بما فيها من تنايز بالألقاب وفحش في القول ، ليتناول ما يراه من مثالب ذات آثار سلبية على المجتمع كإتباع النفس هواها ، والأنانية في المعاملة ، وكل سلوك فردي مشين . يقول الشاعر علي باكثير :

صَحِبْتُ الْأَنَامَ فَأَلْفَيْتُهُمْ وَكُلَّ يَمِيلُ إِلَى شَهْوَتِهِ
وَكُلُّ يُرِيدُ رِضَا نَفْسِهِ وَيَجْلِبُ نَاراً إِلَى بُرْمَتِهِ
... وَيَلْبَسُ لِلدَّهْرِ أَثَوَابَهُ وَيَرْقُصُ لِلْقِرْدِ فِي دَوْلَتِهِ (2)

وتحدث الشعراء عن أثر السلوك المعيب في قعود الإنسان عن مصاف الكبار ، ولاموا الزمان . يقول الشاعر عبدالرحمن باكثير :

كِبَارُ زَمَانِنَا أَضْحَوْا صِغَاراً وَقَدْ غَضِبَ الزَّمَانُ عَلَى الْكِبَارِ
كَأَنَّ زَمَانَنَا مِنْ قَوْمٍ لُوطٍ لَهُ وَلَعٌ بِتَقْدِيمِ الصِّغَارِ (3)

وذموا الخنوع وموالاته العدو ، وعدوا ذلك لؤماً في الطبع . يقول الشاعر أحمد العليف :

لَنَيْمُ الطَّبْعِ مَنْ وَالَى عَدُوّاً بِمَا يَرْجُو وَيُكْرِمُ مَنْ أَهَانَهُ
وَدُو الْكَرَمِ الَّذِي وَالَى صَدِيقاً عَلَى عَكْسِ الْقَضِيَّةِ أَوْ أَعَانَهُ (4)

والشاعر حين يلتفت إلى مجتمعه لتقويم المعوج في سلوك أفرادهِ ، يندد بالمسلك الخاطي ، منبهاً إلى خطورته ، مهماً ذكر صاحبه ؛ لأنه ليس في مجال هجاء الشخص ، فالذي يعنيه التذكير بخطورة هذا السلوك أو ذاك ، على نحو ما صنع الشاعر أحمد العليف حين قال :

(1) ديوان أحمد العليف ، ورقة 75/ب . وموضع النقط كلمات ذمّ نابية .

(2) ريحانة الألبا ، الخفاجي 432/1 .

(3) المصدر السابق 431/1 .

(4) ديوان أحمد العليف ، ورقة 85/ب .

لَعَمْرُكَ مَا فَلَاحُ الدِّينِ إِلَّا أَتَى مِنْ جَهْلِهِ أَمْرًا فَضِيْعًا
فَتَّى يَغْشَى مَحَارِمَهُ وَيَعْشُو إِلَى جَارَاتِهِ عَشْوًا سَرِيْعًا (1)

اتضح مما سبق قلة شعر الهجاء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وأن الشعراء لم يفرّدوا قصائد للهجاء سوى الشاعر أحمد العليف ؛ إذ حوى ديوانه قصائد ومقطوعات معدودة أقذع في بعضها .

وقد اقتصر الحديث على بعض ألوان الهجاء السياسي ، والهجاء الشخصي ، والاجتماعي ؛ لقلة نتاج الشعراء في هذا الفن ، ويبدو أن من أهم أسباب ذلك ندرة الحزازات النفسية والقبلية.

(1) المصدر نفسه ، ورقة 80/ب .

10- الوصف :

هناك وصف عام يشمل مختلف الأغراض ، وهو الذي عناه ابن رشيق بقوله : "الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف" (1) .

وقد رأينا في الأغراض السابقة كيف كان الشعراء يصفون الممدوحين أو المرثيين أو من كانوا يتعشقون ، وكيف وصفوا أحوالهم في أطوارها المختلفة ضمن موضوعات الشعر السالفة ، كالمديح والثناء والغزل والحنين والشكوى وغيرها .

على أننا نجد أن من الأحوال التي تمر بها النفس البشرية الأنس بمظاهر الطبيعة والإعجاب بمشاهدها المختلفة . وهذا ما لم يتم تناوله فيما سبق ؛ لذلك سيكون الحديث في هذا المبحث عن وصف الطبيعة ، كما سيتناول وصف القهوة التي لقيت عناية من بعض الشعراء في ذلك العصر ، إذ كانت متداولة في مجالسهم التي كانوا يُسرون بها عن أنفسهم .

لقد عني الشعراء بالطبيعة ، فوصفوا الرياض والمياه والزهور متأثرين بالبيئة ؛ إذ كانت أودية مكة خصيبة ، يزرع فيها مختلف أنواع الخضر والحبوب وبعض الفواكه ، وفيها من البساتين والبرك العامرة ما جعلها مهوى المتنزهين وطالبي الراحة والاستجمام (2) يقول الشاعر عبدالرزاق باكتير (3) :

يَا حَبْدًا أَرْضُ حَسَّانٍ وَنَزْهَتُهَا وَمَاءُ بَرَكَتِهَا الْمُسْتَعْدَبُ الْخَضِرُ
مَاءُ الْحَيَاةِ بِهَا يَجْرِي بِأَعْيُنِنَا وَالْبَاسُ عَنَّا جَلَاهُ رَوْضُهَا الْخَضِرُ

(4)

(1) العمدة 294/2 .

(2) انظر : حسن القرى في ذكر أودية أم القرى ، جار الله بن فهد ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س18 ، ج1 ، 2 رجب وشعبان 1403 هـ ، ج3 ، 4 رمضان وشوال 1403 هـ) .

(3) هو عبدالرزاق بن عبدالرحمن بن عبدالله باكتير المكي ، الشافعي ، أحد شعراء مكة في القرن العاشر الهجري . وهو ابن القاضي والشاعر المكي المعروف وجيه الدين باكتير .

- انظر : المصدر السابق .

(4) حسن القرى في ذكر أودية أم القرى (مجلة العرب : س18 ، ج3 ، 4 ، رمضان وشوال 1403 هـ) . ويبدو أن ضرب البيت الثاني - كما جاء في تعليق الشيخ حمد الجاسر - (النضر) دفعاً للإيطاء . وأرض حسان وسط وادي مرّ الذي يبعد عن البيت الحرام - كما ذكر البكري في معجم ما استعجم - ستة عشر ميلاً .

وقد حرص أمراء مكة على إحياء تلك الأراضي الخصيبة حول مكة وتعميرها بالبساتين والبرك . يقول جابر الله بن فهد في أثناء حديثه عن أرض حسان : "ورأيت في سفليها أثر بناء مسجد متقادماً يقال : إنه من زمن الأمراء المعروفين بالهواشم ، وكانت دولتهم قبل السادة ذوي قتادة ، ولهم فيها أصايل كبار وحدائق وأشجار تسقى بعين عذبة في جريانها قوة ... وغالبها لصاحب مكة السيد محمد بن بركات الحسني جد أصحابها (الآن) ⁽¹⁾ ، ثم صارت من بعده لأولاده ، وعمر فيها أصيلة وبركة عظيمة تسمى أم شميلة ، وهي كالبحرة ، وسطها دعائم عليها قبة" ⁽²⁾ . وقد وصفها الشاعر أبو عبدالله الفيومي بقوله :

سَقَى اللهُ أَشْجَاراً عَلَى أَرْضٍ كَغَيْدٍ بَدَتْ مِنْ بَسْرِهَا فِي قَلَائِدِ
فَلَوْ لَمْ تَكُنْ جَنَاتٍ خُلِدَ رِيَاضُهَا لَمَا سُمِّيَتْ بَيْنَ الْوَرَى أَرْضَ خَالِدِ

ومن الشعراء من يملك القدرة على تأليف الصور المتتابعة التي تتراءى للمتلقي كأنها تفيض من موردٍ لا ينضب ، نرى ذلك في مثل وصف الشاعر محمد بن إبراهيم ابن ظهيرة أرض خالد حين سر بما رآه فيها من مشاهد تبهج القلب . وقد وعّاها حسه الشاعر ويبدجها خياله الخصب ، فراح يخلع الحياة على الموات ، ويهب الحركة للجماد ، إذ يقول :

وَرَدَ الْمَصِيفُ بِصُدْحٍ وَأَوَابِدِ وَحَدَائِقٍ تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدِ
مَرَّ الصَّبَا مِنْ بَطْنٍ مَرٍّ فَاغْتَمَّ فِي أَرْضِ خَالِدٍ طِيبَ عَيْشِ خَالِدِ
هَبَّتْ صَبَاحاً نَسَمَةً هَبَّتْ إِلَى طِيبِ الصَّبُوحِ بِهَا عِيُونُ الرَّاقِدِ
بَاتَتْ تُرْغَبُ فِي التَّهَجُّدِ فَالرُّبَا مَا بَيْنَ غُصْنٍ رَاكِعٍ أَوْ سَاجِدِ
فَكَأَنَّهَا الْأَغْصَانُ عِبَادٌ بِهَا وَكَأَنَّهَا مِنْ رَوْضِهَا بِمَسَاجِدِ
وَدُمُوعُ هَذَا الطَّلِّ قَدْ سَالَتْ عَلَى حَدِّ الزَّهْوَرِ بِكُلِّ غُصْنٍ مَائِدِ
فَالطَّلُّ يَحْكِي شَكْلَ طَلْعِ ذَائِبٍ وَالطَّلْعُ يَحْكِي شَكْلَ طَلِّ جَامِدِ

(1) أي في عصر المؤلف المتوفى سنة 954هـ .

(2) حسن القرى في ذكر أودية أم القرى ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س18 ، ج3 ، 4 ، رمضان وشوال 1403هـ) .

(3) المصدر نفسه .

لَا فَرْقَ فِي الْأَنْهَارِ مِنْ تَجَعِيدِهَا مَا بَيْنَ جَارِي مَائِهَا وَالرَّائِدِ

وَالشَّمْسُ مِنْ خَلَلِ الْغُصُونِ عَلَى كَالنَّقْدِ يَهْوِي مِنْ أَيْدِي النَّاقِدِ (1)

والواضح أن الشاعر لم يمرّ بتلك المشاهد مروراً ، بل توقف عندها وتأمل حتى اتصلت بمشاعره ؛ فجلاها في تلك الصور الأنيقة المعجبة .
ويبدو الجو في الربيع أكثر متعة ، حيث تزهر الأرض وتمطر السماء . وكان من عادة الناس في مكة أن يهرعوا إلى الأودية حولها في أوقات الربيع ؛ لما يجدونه فيها من بيئة خلابة تسعد الرائي . وقد حرص الشعراء على تصوير مشاهداتهم في لوحات شعرية جميلة ، اجتلوا من خلالها محاسن الطبيعة ، واستلهموا مفاتها بمثل قول الشاعر أحمد العليف في الجموم (2) :

حَطَطْنَا بِالْجَمُومِ غَدَاةَ دَجْنٍ وَعَقْدُ الطَّلِّ قَدْ أَرْخَى رِبَاطَهُ

وَنَحْنُ عَلَى بَسَاطٍ مِنْ زُهُورٍ وَقَدْ مَدَّ الرَّبِيعُ بِهِ سِمَاطَهُ

وَعَيْنُ الشَّمْسِ تَرْمُقُنَا بِطَرْفٍ خَفِيٍّ قَدْ حَكَى سَمَّ الْخِيَاطَةِ

عَرُوسٌ تُجْتَلَى حِيناً وَحِينٌ يُدِيرُ سُحْبَهُ قَرْحَ قِمَاطِهِ (3)

وممن وصف ساعات الصفاء في تلك الأجواء الربيعية الممطرة الشاعر أبو بكر ابن أبي الخير ، حيث حلَّ أرض الجموم ، فأثارت شاعريته بأروع الصور التفسيرية لمشاهد الطبيعة ، منها قوله :
أَقْمْنَا فِي الْجَمُومِ بِطَيْبِ عَيْشٍ وَقَدْ بَسَطَ الرَّبِيعُ لَنَا بَسَاطَهُ
وَحَطَّ الْمُزْنَ مِنْ قَطْرِ عَلَيْنَا فَيَا لَهِ مَا أَحْلَى انْحِطَاطَهُ
... وَكَمْ مِنْ فَرْطِ بَانٍ مَاسٍ تَيْهًا وَعَنْقُودٍ غَدَا عَجَلًا فِرَاطَهُ
وَبَرْقُ الْأَفْقِ لَاحَ كَمُرْهَفَاتٍ وَصَوْتُ الرَّعْدِ أَسْمَعَنَا عِيَاطَهُ

(1) المصدر السابق .

(2) الْجَمُومُ : إحدى قرى أودية مكة المشهورة ، ويقال لها : بطن مَرٍّ ، ووادي مَرٍّ الظهران ، تبعد عن مكة حوالي 20 كيلاً على طريق مكة إلى المدينة .

- انظر : المصدر السابق ؛ معجم معالم الحجاز ، عاتق البلادي 176/2 ، 177 .

(3) حسن القرى في ذكر أودية أم القرى ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س18 ، ج3 ، 4 ، رمضان وشوال 1403هـ) .

فَلَا مَضَضٌ رَأَيْنَاهُ بِحَرِّ وَظِلُّ الْمُزْنِ لَمْ يَحُلْ رِبَاطَهُ
كَأَنَّا فِي رِيَاضٍ مِنْ جَنَّانٍ يَحِقُّ لِدِي النَّهْيُ فِينَا اغْتِبَاطَهُ (1)

ولا شك أن العين تأنس برؤية الأرض المعشبة المزهرة والمياه الجارية ، والنفس تسر بالنسيم حين ينقل شذى الأزهار ، فيحيل الجو عطراً يُسَرِّي عن القلب همه ؛ لذلك رأينا الشعراء يكررون هذه الصور في وصفهم كما سبق ، وعلى نحو قول الشاعر محمد النويري في عيون القصب :

رَأَيْتُ (بِشَطِّ الْبَحْرِ) (2) يَا خِلُّ بِهِ جُمِعَتْ كُلُّ اللَّطَائِفِ وَالْعَجَبِ
تَرَاهُ لَجِيناً وَالزَّمْرُدُ عُشْبُهُ وَأَزْهَارُهُ قَدْ صَاغَهَا الْمُزْنُ مِنْ
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا يَا خَلِيلِي نَسِيمُهُ يُبْدِلُ هَمَّ الصَّبِّ وَالْحُزْنَ بِالطَّرَبِ (3)

ومن ذلك قول الشاعر محمد بن عبد القوي :
مِنْ بُكَاءِ الْمُزْنِ مُرْسَلاً كَالْجُمَانِ ضَحِكَ الزَّهْرُ فِي رِيَاضِ الْجَنَّانِ
مَا تَرَى الرَّوْضَ بِاسِماً عَنْ أَقَاحٍ كَلَالِ زَيْنٍ فِي نَيْسَانَ
وَبَهَارٍ حَكَى اصْفِرَّارَ نُضَارٍ وَشَقِيقٍ يَحْمَرُّ كَالْبُرْهَانِ
وَرَبِيعٍ وَشَى الثَّرَى سُندُسياً نَسَجَتْهُ سَحَابُ الْهَتَّانِ
وَتَغَتَّتْ فَوَاحِشُ الدَّوْحِ فِيهِ فَسَرَتْ بِالْحَيَاةِ فِي الْأَغْصَانِ
تُسْقِطُ الطَّيْرَ نَعْمَةً الصَّوْتِ حَسّاً طَرَباً مِنْهُ كَيْفَ بِالْإِنْسَانِ (4)

ومن الشعراء من يذيع ابتهاجه بحلول الربيع ، مظهراً شغفه بوردته الذي يفوق كل طيب ، كالشاعر عبدالمعطي باكتير حيث يقول :
قُلْتُ (إِذَا) (5) أَقْبَلَ الرَّبِيعُ وَوَافَى وَرَدُّهُ الْغَضُّ لَيْتَ ذَاكَ نَصِيبِي
فَخُدُودُ الْمِلَاحِ تُغْزِي إِلَيْهِ وَشَدَاهُ أَرْبَى عَلَى كُلِّ طِيبٍ (6)

(1) المصدر السابق .

(2) في المصدر : بشاطئ ، وعدلت إلى (بشط) ؛ لإقامة الوزن .

(3) نظم العقيان ، السيوطي ، ص 161 .

(4) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 462/2 ، 463 .

(5) في المصدر : إذا ، والتعديل لإقامة الوزن .

(6) النور السافر ، العيدروس ، ص 482 .

ويقول في أبيات آخر :
 الْوَرْدُ سُلْطَانُ الزُّهُوِ رِ وَمَا سِوَاهُ الْحَاشِيَةِ
 فَلَوْلَنِيهِ الْمُحْمَرُّ يُنْ — سَبُّ حُسْنِ خَدِّ الْغَالِيَةِ
 وَإِذَا تَضَوَّعَ نَشْرُهُ يُهْدِي إِلَيْكَ الْغَالِيَةِ (1)

ووصف الشعراء قهوة البن التي ثار الجدل – في بداية ظهورها – واحتدم بين الفقهاء والأمرء والمحتسبين حول تحليلها وتحريمها ، ثم تبين لهم أمرها ، فأصبحت تحتسى في المسجد الحرام وفي البيوت والأسواق جهاً في مكة والمدينة . وكان أول ظهورها في اليمن ، وقد فطن إليها الصوفية ، فاستعانوا بها على السهر ؛ لأنها تحتوي على نوعين من المواد المنبهة الخفيفة التي تزيل الكسل والخمول (2) . وارتاح لها طلبة العلم وأصحاب الدروس في مكة والمدينة حين لمسوا فيها تجديد نشاطهم . يقول عبدالقادر الفاكهي :

إَشْرَبِ الْقَهْوَةَ صِرْفاً تَجِدِ الصَّفْوَ مَزَاجاً
 وَادْكُرِ اللَّهَ عَلَيْهَا تَشْهَدِ الْإِنْسَ سِرَاجاً (3)

وقد أحبها العامة والخاصة ، فأصبحت خمرهم الحلال . ولم يكتف الشعراء بالتعبير عن ارتياحهم لاحتسائها ، بل عنوا بوصف لونها وأنيبتها ، وحرصوا على تصوير ساقيتها تصويراً غزلياً ، متأثرين بشعراء الخمرة كأبي نواس ، لكنهم لم يسفوا كما كان لديه ، إنما هو تصوير عفيف يساق من باب الفكاهة والظرف .

فالشريف أبو نمي (محمد بن بركات) يطلب من ساقيه أن يملأ كأسه بقهوة من البن ؛ وصفها ، كما وصف أنيتها وساقيتها بقوله :

قَهْوَةٌ دَعَجَاءٌ كَخَلَا شُرْبُهَا يُذْهِبُ الْهَمَّ بِنَفْيِ النَّصَبِ
 بِكُؤُوسٍ لَزَوَرْدِيَّاتٍ قَدْ زَانَهَا الطَّهْرُ بِسَاقِ دَرْبِ
 يَزْدَرِي الْغُصْنَ بِقَدِّ أَهْيَفٍ وَيَفُوقُ الْبَدْرَ تَحْتَ السُّحْبِ
 مِثْلُ شَمْسٍ عَن سَمَاءٍ أَسْفَرَتْ أَوْ كَبَدْرٍ قَدْ عَدَا فِي غَيْهَبِ

(1) شذرات الذهب ، ابن العماد 613/10 .

(2) انظر : أدبيات الشاي والقهوة ، محمد طاهر الكردي ، ص 27-41 .

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص 465 .

مائسٌ عَذْبٌ لَطِيفٌ كَيْسٌ بَيْنَ أَرْبابِ السَّعَادَةِ [قَدْ] رَبِّي (1)

ومن الشعراء من استحسن سواد القهوة وأنبتها البيضاء ؛ فشبه ذلك بالطرف الكحيل ، كالشاعر عبدالمعطي باكثير الذي يقول مشيراً إلى ساقِها :

أَهْلًا بِصَافِي قَهْوَةٍ كَالْإِثْمِدِ جُلَيْتَ (فَزَانَتْ) (2) بِالْخَمَارِ
لَمَّا أَدِيرَتْ فِي كُؤُوسٍ لُجَيْنِهَا بِيَمِينِ سَاقٍ كَالْقَضِيبِ الْأَمْلَدِ
يَحْكِي بَيَاضُ إِنَائِهَا وَسَوَادُهَا طَرْفًا كَحِيلًا لَا بِكُحْلِ الْمِرْوَدِ (3)

وممن أجاد وصف القهوة الشاعر أحمد المدني (4) ، إذ يقول :
لِلَّهِ مُحْكَمٌ قَهْوَةٌ تُجْلَى لَنَا فِي أَبْيَضِ الصِّينِيِّ طَابَ شَرَابُهَا
فَكَأَنَّمَا هِيَ مُقْلَةٌ مَكْحُولَةٌ وَدُخَانُهَا مِنْ فَوْقِهَا أَهْدَابُهَا (5)

والواضح مما سبق أن وصف الطبيعة اقتصر على شعراء مكة ، وأنهم لم يتجاوزوا بيئتهم ؛ إذ لم نلاحظ أثراً لمشاهدات الشعراء في رحلاتهم . وربما كان ثمة شعر ضنت به المصادر المتوافرة .

(1) منائح الكرم ، السنجاري 366/3 ، 367 . والأبيات في إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 562/1 ، 563 مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ .

(2) في شذرات الذهب ، ابن العماد 613/10 : فزينت .

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص 483 .

(4) يعرف باليَتِيم ، وهو من شعراء القرن العاشر ، تناول في شعره لوناً من الشعر لم يكن شائعاً لدى شعراء مكة والمدينة في ذلك العصر ؛ إذ وجد في نتاجه خلاعة ومجون وحديث صباية كلها شجون (كما ذكر الخفاجي في الريحانة 428/1) بعد إشارته إلى تدفق طبعه ورقته وفصاحته .

(5) ريحانة الألبا ، الخفاجي 428/1 .

11- الحكمة :

عرف الشعر العربي الحكمة منذ العصر الجاهلي ، وظل الشعر على مدار العصور حافلاً بالحكم التي كانت ثمرة التجارب التي عاشها الشعراء . وإذا كانت الحكمة نتاجاً طبعياً للتجربة والمعاناة ، فإن الثقافة تزيدها نضجاً .

ولما كان شعراء مكة والمدينة من العلماء وطلبة العلم ؛ رأينا آثار ذلك في تجاربهم وآرائهم الخاصة في الحياة من خلال شعر الحكمة المنبث في بعض الأغراض الأخرى .

وقد تناول الشعراء في حكمهم أحوال الزمان المتغيرة ، وأثاروا الحماسة في النفوس وشحذوا العزائم ، كما دعوا إلى نبذ الكسل وإلى الصبر ، ولفتوا الأنظار إلى السلوك القويم الجدير بالاحتذاء . ولم يكن الشاعر منهم يقف ليتأمل ويلقي الحكم ناسياً الموضوع ، ولم نجد في شعر الحكمة لدى شعراء مكة والمدينة مطولات لا ترتبط بالسياق ، وإن جاءت الحكمة في أبيات متتالية فإنها تساق مقدمة لغرض يقتضيها ، كأبيات الحكمة التي جاءت في مقدمة قصيدة الشاعر أحمد العليف في مواساة القاضي أبي السعود بن ظهيرة بعد أن غضب عليه الشريف بركات بن محمد (1) ، يقول الشاعر في بداية قصيدته :

خُذْ مِنَ الدَّهْرِ قُوَّةَ الْمُسْتَطِيعِ واحذر النائباتِ قَبْلَ الْوُقُوعِ
فَلِحُكْمِ الْقَضَاءِ فِي الْعَبْدِ حَالٌ يَنْقُضِي بَيْنَ (نِيَّةٍ) (2) وَشُرُوعِ
... وَإِذَا مَسَّكَ الزَّمَانُ بِضُرٍّ لَا تَكُنْ مِنْ صُرُوفِهِ بِجَزُوعِ
فَالْعَزِيزُ الْكَرِيمُ إِنْ نَالَ مِنْهُ حَادِثُ الدَّهْرِ كَانَ غَيْرَ هَلُوعِ
إِنَّمَا الدَّهْرُ شِدَّةٌ وَرَخَاءٌ فَاصْطَبِرْ صَبْرَ مُحْسِنٍ فِي

(1) ذكرت المصادر أن ابن ظهيرة من الموالين للشريف أحمد بن محمد (جازان) وأنه كتب إليه كتاباً يحثه على القدوم إلى مكة ويعدده بأن يساعده في القبض على الشريف بركات بن محمد . وقد وقع الكتاب بين يدي الشريف بركات قبل أن يصل إلى أخيه أحمد ؛ فقبض الشريف بركات على ابن ظهيرة ، وأودعه السجن ، وصادر أمواله ، ثم أمر بإخراجه إلى القنفذة وإغراقه في البحر .

- انظر : سمط النجوم العوالي ، العصامي 284/4 ، 285 ؛ منائح الكرم ،

السنجاري 114/3-117 ؛ إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 294/1-296 .

(2) في المصدر (نبهة) والمثبت من إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 297/1 .

وَالْقَهْ ثَابِتَ الْجَنَانِ بَعَزْمٍ ثَابِتٍ فِي اللَّقَاءِ غَيْرِ مَرُوعٍ (1)

ومن ذلك أيضاً قصيدة الشريف بركات بن محمد التي نظمها في مدح الملك الأشرف قانصوه الغوري ، وكان الشريف بركات قد اعتذر فيها عن عدم قدرته على الحضور إلى مقام الملك ؛ لما يعانيه من أحوال الزمان المتقلبة ، لذلك نراه يستهل قصيدته بأبيات الحكمة التي تتناول طبيعة الأيام ، مشيراً إلى حالة النفس بين واقعها وطموحها ، يقول منها :

إِنَّ الزَّمَانَ جَدِيرٌ أَنْ طَعِمْتَ بِهِ حَلَاوَةً يَقْتَفِيهَا الصَّابُ وَالسَّلْعُ
إِنْ أَنْكَرَ الْمَرْءُ بِالْأَيَّامِ مَعْرِفَةً بَعْدَ التَّجَارِبِ فَهُوَ الْعَاجِزُ الضَّرْعُ
تَجَرِّي الْمَقَادِيرُ وَالْأَمَالُ وَاقِفَةٌ وَالْمَرْءُ بَيْنَ الرَّجَا وَالْخَوْفِ
إِذَا قَضَى اللَّهُ أَمْرًا فِي خَلِيقَتِهِ لَا الْحَزْمُ يَدْفَعُ مَا يَقْضِي وَلَا يَزْعُ
أَوْ دَبَّرَ اللَّفْظَ أَمْرٌ دَقَّ مَسْلَكُهُ فَالْحَظُّ يَأْخُذُ مِنْهُ فَوْقَ مَا يَدَعُ
مَا عَزَّ مَنْ كَانَ غَيْرَ اللَّهِ نَاصِرُهُ وَذَلَّ مَنْ بِسِوَى مَوْلَاهُ يَمْتَنِعُ (2)

ومن الحكم التي جاءت متتالية مناسبة للمقام تلك الحكم التي حشدها الشاعر أحمد العليف في مستهل قصيدته التي تحدث فيها عن خروج الشريف بركات بن محمد لقتال بني إبراهيم - في سنة 912هـ- الذين نهبوا دور مكة وعاثوا في الحرم . وقد واجههم الشريف بركات وأظهر من الشجاعة وقوة البأس والعزيمة الصادقة ما نال إعجاب الشاعر وأنطقه بهذه الحكم التي سبقت حديثه عن ذلك العمل الجليل الذي قام به الشريف بركات ، قال فيها :

لَا تَحْمِلُ الضَّيْمَ نَفْسُ الْحَرِّ لَوْ بَلَغَتْ مِنْهَا الْيَأَالِي بِأَمْرٍ غَيْرِ مُحْتَمَلِ
صَمٌّ إِذَا سَمَتْ أَمْرًا عَزَّ مَذْرُكُهُ فَمَا يَنَالُ الْعُلَا مَنْ كَانَ ذَا كَسَلِ
وَانْهَضْ سَرِيعًا إِلَى الْغَايَاتِ مُحْتَقِبًا فَذُو الْعَزِيمَةِ لَا يَمْشِي عَلَى مَهَلِ
كَمْ فُرْصَةٍ عَرَضَتْ فِي طَيْهَا ظَفَرٌ فَاتَتْ بِتَذْبِيرِ رَأْيٍ غَيْرِ مُعْتَدِلِ

(1) منائح الكرم ، السنجاري 118/3 .

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 263/3 .

مَا لَمْ تَكُنْ بِرِدَاءِ الْعِزِّ مُرْتَدِيًّا فَدَعْ طِلَابَ الْمَعَالِي عَنْكَ وَاعْتَزِلْ
 وَاعْضِ الْجُفُونَ عَلَى ذَلٍّ وَمَسْكَنَةٍ وَاصْبِرْ عَلَى الضَّيْمِ صَبْرَ الْعَوْدِ
 ... وَعَلَّ النَّفْسَ عَنْ إِلْفٍ وَعَنْ سَكَنِ وَاجْعَلْ هَوَاكَ لِغَيْرِ الْأَعْيُنِ النَّجْلِ
 إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا مَا جَدَّ فِي طَلَبِ حَثَّ الْمَطِيَّةَ فِي وَخْدٍ وَفِي رَمَلٍ (1)

ولا شك أن الحكمة تقع في النفس إذا جاءت منسجمة مع السياق العام ، لا أن تكون موضعاً للاستطراد يخرج بها الشاعر عن غرضه . وقد رأى حازم القرطاجني أن مجيء القليل من أبيات الحكمة في القصيدة مسلك حسن ؛ لما فيه من مراوحة بين المعاني الشعرية والمعاني الخطابية ؛ حيث ذكر أن التخييل هو قوام المعاني الشعرية ، والإقناع هو قوام المعاني الخطابية ، واستعمال الإقناع في الأقاويل الشعرية سائغ إذا كان ذلك على جهة الإلماع في الموضوع بعد الموضوع ، وإنما ساغ ذلك ؛ لأن النفوس تحب الافتتان في مذاهب الكلام وترتاح للنقلة من بعض ذلك إلى بعض ، والشعر المراوح بين معانيه أفضل من الشعر الذي لا مراوحة فيه ، لكن ينبغي أن تكون الأقاويل المقنعة ، الواقعة في الشعر تابعة لأقاويل مخيلة ، مؤكدة لمعانيها ، مناسبة لها في ما قصد بها من الأغراض (2) .

والحكمة عقل والشعر مبني على الخيال ، فإذا شده العقل بقيوده أخفق ، ولكن لا بأس - كما أشار القرطاجني - من إيراد الحكمة التي تعضد المعنى المتحدث عنه .

ولو نظرنا إلى الحكم المنبثة في ثنايا القصائد ؛ لوجدنا أنها جاءت تأييداً لرأي يطلقه الشاعر ، فيسوق حكمته أو حِكْمَه المبرهنة على صحته . من ذلك حديث الشاعر أحمد العليف عن الشريف بركات بن محمد وابنه أبي نمي حينما قام مقام والده في تصريف شؤون الإمارة أثناء غيبته ، حيث أشاد العليف بقيادته وحسن تدبيره ، مشيراً إلى أثر الأب فيما حققه الابن ، لتأتي الحكمة تالية لذلك ، مؤيدة له ، إذ يقول :

لَيْسَ كُلُّ أَمْرٍ يَطِيبُ وَيَرْكُو عَرْسُهُ غَيْرَ طَيِّبِ الْأَعْرَاقِ

(1) سمط النجوم العوالي ، العصامي 319/4 ، 320 .

(2) انظر : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص 361 ، 362 .

رُبَّ سَهْمٍ يُرْضِيكَ مِنْهُ اِعْتِدَالٌ وَكَذَا النَّزْعُ طَائِشُ الْإِطْلَاقِ
وَلَكُمْ صَارِمٌ يَرْوُقُكَ بِالْعَيْنِ مِنْ لَهُ سُوءُ نَبْوَةٍ ۖ وَاصْطِلَاقِ
وِكْرَامُ الْجِيَادِ تَجْرِي عَلَى الْعِرْ قِ وَتَمْتَازُ فِي مَحَلِّ السَّبَاقِ
وَخِيَارُ الْفُرُوعِ مَا جَانَسَ الْأَصْلَ لَ وَمَا جَدَّ فِي طَرِيقِ اللَّحَاقِ (1)

لقد أدرك الشعراء رسالتهم ، فأوجزوا تجاربهم في الحياة ، وبثوها من خلال الحكمة التي أخذت في شعرهم طابع النصيح في بعض الأحيان ، متناولين ما يعرض للناس من مواقف في حياتهم . يقول الشاعر عبدالعزيز المغربي :

ذُوو الْمَنَاصِبِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ نَصَبٌ وَإِلَّا فَهُمْ فِيهَا ذُوو نَصَبِ
فَلَا تُعَرِّجْ عَلَيْهَا مَا بَقِيَتْ وَكُنْ لِلَّهِ مُحْتَسِباً فِي تَرْكِهَا تُصَبِ
لَا سِيَّماً مَنْصِبَ الْقَاضِي فَإِنَّكَ إِنْ تَزَعَّ عَنِ الْحَقِّ فِيهِ كُنْتَ ذَا عَطَبِ (2)

ويقول الشاعر أحمد العليف :
فَلَا تَغْبِطَنَّ الْمُتَرَفِّينَ فَإِنَّهُمْ عَلَى قَدَرٍ مَا يُعْطِيهِمُ الدَّهْرُ (3)
ومن الحكم التي تمس حياة الناس قول الشاعر عبدالعزيز الزمزمي :
لَا تَمْدَحَنَّ فِتًى حَتَّى تُجَرِّبَهُ وَلَا (تَدْمَنَّهُ) (4) مِنْ غَيْرِ تَجْرِبِ
إِنَّ الرِّجَالَ صَنَادِيقُ مُجَرَّبَةٍ وَمَا مَفَاتِيحُهَا غَيْرُ التَّجَارِبِ (5)

ومثلها قول الشاعر أحمد العليف :
بِالْجُودِ يُعْرِفُ قَدْرُ الْمَرْءِ وَالْمِنَّ وَالْفَخْرُ فِي الْفِعْلِ لَا فِي الْمَنْصَبِ
وَالطَّبْعُ يُغْرِبُ عَمَّا فِيهِ مِنْ حَسَبِ كَالْعِرْقِ تُنْبِئُكَ عَنْهُ رُؤْيَا الْعُصْنِ (6)

(1) إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 343/1 . واصطلق النَّابُ : صَرَ ؛ لاحتكاكه بمثله .

(2) الكواكب السائرة ، الغزي 169/2 .

(3) ديوان أحمد العليف ، ورقة 83/أ .

(4) في المصدر : ولا بد منه . وهو نسخ لبيت أبي نواس :

لَا تَحْمَدَنَّ أَمْرًا حَتَّى تُجَرِّبَهُ وَلَا تَدْمَنَّهُ مِنْ غَيْرِ تَجْرِبِ

- ديوان أبي نواس 165/1 . ونسب البيت لأبي الأسد الكناني في حماسة البحري ،

ص 233 .

(5) ديوان الزمزمي ، ورقة 69/أ .

(6) ديوان أحمد العليف ، ورقة 83/أ .

وكل ما سبق يعد من الحكم التي تخاطب الألباب ، فتردها الألسن وتحيلها إلى أمثال سائرة .

وقد ظهر لي من خلال استقراء الشعر في مكة والمدينة قلة شعر الحكمة ، وأن الشاعر أحمد العليف أكثر الشعراء تناولاً للحكمة في شعره ، كما تبين أن الحكم قد جاءت مناسبة للجو العام للنصوص المسوقة فيها ، سواء أكانت في أبيات متعددة أم في بيت أم بيتين .

12- الشعر التعليمي :

الشعر التعليمي هو "الذي ينظمه الشاعر ويضمنه معلومة أو معلومات بقصد حفظها وإدراك المعنى فيها"⁽¹⁾ . وعرف هذا الشعر منذ أقدم العصور "قبل أن يتبلور مفهوم الأدب العام ، وقبل أن يهتدي الإنسان إلى الكتابة وتدوين أفكاره لنقلها إلى من يأتي بعده ، أو من يقطن بعيداً عنه ، فإن إنزال المعرفة أو النصيحة في بيت من الشعر الموزون كفيل بترسيخها في الأذهان ، وإن كان أصحابها من الأميين"⁽²⁾ .

وقد عرف العرب هذا النوع من الشعر في صدر العصر العباسي⁽³⁾ . وظل قائماً حتى العصر المملوكي الذي شهد كثرته وشيوعه وتفوقه وإعجاب الناس به⁽⁴⁾ ، ثم استمر عبر العصور المتعاقبة .

وكان للحياة العلمية النشيطة في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين أثر في ذبوعه في تلك البقاع الطاهرة ؛ حيث وجدنا الشعراء ينظمون في فضل العلم وأهله ، وفي بعض المسائل الدينية واللغوية وغيرها ؛ بغية تقريبها للناس وتسهيلاً للراغبين في حفظها .

وحرص كبار العلماء على المشاركة في ذلك كنجم الدين المرجاني نحوي مكة وفقهها الذي "نظم قصيدة مفيدة سماها (مساعد الطلاب في الكشف عن قواعد الإعراب) ضمنها ما ذكره ابن هشام من معاني الحروف في كتابيه (مغني اللبيب وقواعد الإعراب) وما لغيره في المعنى وشرحها ، وكذا نظم أبياتاً في دماء الحج وشرحها"⁽⁵⁾ . وكذلك محمد بن أبي السعود بن ظهيرة قاضي مكة الذي نظم أرجوزة من سبعة وسبعين بيتاً في مطلع الكواكب الثابتة سماها (جامعة الجواهر)⁽⁶⁾ . ومنهم من نشط في ذلك كالأديب العالم عبدالعزيز بن عبدالواحد المغربي شيخ القراء بالمدينة المنورة الذي ألف عدة منظومات في علوم شتى منها : (منهج الوصول ومهيع السالك للأصول) في أصول الدين ، و(نظم جواهر السيوطي) في علم التفسير ، و(درر الأصول) في أصول الفقه ، و(نتائج الأنظار ونخبة الأفكار للنظار)

(1) المعجم المفصل في الأدب ، محمد التونجي 553/2 .

(2) المعجم الأدبي ، جبور عبدالنور ، ص150 ، 151 .

(3) انظر : تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) ، شوقي ضيف ، ص190-192 .

(4) انظر : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، عمر موسى باشا 159/8 .

(5) الضوء اللامع ، السخاوي 183/7 .

(6) كشف الظنون ، حاجي خليفة 577/1 .

في الجدل ، و(نظم العقود) في المعاني والبيان ، و(تحفة الأحباب) في الصرف ، و(غنية الإعراب) في النحو ، و(نزهة الألباب) في الحساب ، و(الدر) في المنطق (1) .

وكثر العلماء المشاركون في نظم العلوم ، ومنهم الشيخ الشاعر عبدالرحمن بن عيسى ابن مرشد العمري الذي "نظم منظومة في علم التصريف عدتها خمسمئة بيت من بحر الرجز ، سماها (تصريف التصريف) ، وشرحها شرحاً نفيساً سماه (فتح اللطيف)" (2) . وقد نظم أرجوزته هذه في أواخر القرن العاشر الهجري ؛ إذ إنه يقول في آخرها :

فَهَاكَ نَظْمًا شَافِيًا فِي الصَّرْفِ أَلْفَ فِي مَكَّةَ عَامَ أَلْفِ (3)

ومن الشعراء العلماء معمر بن عبدالقوي الذي قال عنه السخاوي : "إنه نظم ما اشتمل عليه كتابي (الجواهر والدرر) من الخصال المقتضية للإطلال بما راق" (4) . وابن عبدالقوي ممن تحدثوا عن العلم وأهله ؛ إذا أشار إلى فضله ومزية أهله في أرجوزة بدأها بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، ثم قال :

وَبَعْدَ ذَا فَالْعِلْمُ أَوْلَى مَا اقْتَنَيْ وَخَيْرُ مَا عُمِرُ الْفَتَى فِيهِ فَنِي
حَامِلُهُ بَيْنَ الْوَرَى عَظِيمٌ وَقَذْرُهُ مُبَجَّلٌ جَسِيمٌ
بِهِ يَنَالُ أَرْفَعَ الْمَرَاتِبِ وَأَحْسَنَ الْأَوْصَافِ وَالْمَنَاقِبِ
أَتْنَى عَلَيْهِ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَخَصَّهُ بِالْقُرْبِ مِنْ جَنَابِهِ

(1) الكواكب السائرة ، الغزي 169/2 ، 170 . وانظر أيضاً : شذرات الذهب ، ابن العماد 496/10 ، 497 ؛ هدية العارفين ، البغدادي 584/1 ؛ المختار المصون من أعلام القرون ، محمد بن حسن 784/2 ، 785 ؛ المدينة المنورة في العصر المملوكي ، المديرس ، ص 311 . وفيه ذكر المؤلف أن المغربي برز في التأليف في المدينة في أواخر العصر المملوكي وأوائل العصر العثماني .

(2) خلاصة الأثر ، المحبي 369/2 .

(3) نزهة الجليس ، الموسوي 284/2 . والشاعر عاش جزءاً كبيراً من حياته في القرن الحادي عشر الهجري ، إذا إنه مات مقتولاً في سنة 1037 هـ .

انظر : ترجمته - فضلاً على المصدر السابق- في : خلاصة الأثر ، المحبي 369/2-376 ؛ نفحة الريحانة ، المحبي 60/4-67 ؛ المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 250-255 ؛ خلاصة الكلام ، دحلان ، ص 69 ، 70 .

(4) الضوء اللامع ، السخاوي 163/10 .

وَمَذْهُهُ فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ جَاءَ كَذَمَ الْجَاهِلِ الْخَبِيثِ (1)

وحث الشاعر عبدالعزیز بن علي الزمزمي على طلب العلم ،
مضمناً قول الرسول ﷺ : «طلب العلم فريضة على كل مسلم...» (2) ، إذ
يقول :

أَطْلُبُ الْعِلْمَ وَنَافِسَ فِي مَعَانِيهِ الْغَمِضَ
فَأَقْدُ جَاءَ حَدِيثُ مَا رَوَى رَاوٍ نَقِضَ
كُلُّ مُسْلِمٍ عَلَيْهِ طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَ (3)

وتحدث الزمزمي عن فضل طالب العلم مضمناً قول الرسول ﷺ :
«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن
الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له
من في السماء والأرض ، حتى الحيتان في الماء ، وإن فضل العالم على
العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن
الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ
بحظٍّ وافر» (4) ، حيث يقول :

لِطَالِبِ الْعِلْمِ فَضْلٌ لَيْسَ يُحْصِيهِ ضَبْطٌ وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
كَرَامَةً تَضَعُ الْأَمْلاكُ أَجْنَحَةَ مِنْهَا لَهُ لَا رِتْضًا صُنْعُ يُعَانِيهِ
اللَّهُ سَهْلٌ لِلْجَنَّاتِ مَسْلَكُهُ بِكُلِّ مَمْشَى لِكَسْبِ الْعِلْمِ يَمْشِيهِ
وَأَنَّ عَالِمَنَا مَنْ فِي السَّمَاءِ لَهُ مُسْتَغْفِرُ وَكَذَا مَنْ فِي أَرْضِيهِ
حَتَّى الْمُقِيمُ مِنَ الْحَيْتَانِ فِي لُجَجِ لَمْ يَذَرِ مَنْ حَلَّ مِنْهَا غَيْرُ بَارِيهِ
وَفَضْلُ هَذَا عَلَى الْعِبَادِ فَضْلُ سَنَاءِ بَذَرِ السَّمَاءِ عَلَى زَهْرِ تَوَازِيهِ
وَالْأَنْبِيَاءُ رِجَالُ الْعِلْمِ وَارِثَةُ لَهُمْ وَمَا خَلَفُوا مَا لَا نَسَمِيهِ
وَإِنَّمَا وَرَثُوا عِلْمًا فَأَخَذَهُ بِأَوْفَرِ الْحَظِّ قَدْ فَازَتْ أَمَانِيهِ

(1) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1205/2 .

(2) سنن ابن ماجه 146/1 .

(3) ديوان الزمزمي ، ورقة 105/أ .

(4) سنن ابن ماجه 146/1 .

هَذَا هُوَ الْفَضْلُ حَقًّا عَنْ مَشَايخِنَا عَنْ الثَّقَاتِ عَنِ الْمُخْتَارِ نَرْوِيهِ (1)

وَضَمَّنَ الشَّاعِرُ عَبْدِ الْمَعْطِيِّ بَاكَثِيرَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الَّتِي جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ أَنَّ الْإِسْلَامَ بَنِي عَلَيْهَا (2) بِقَوْلِهِ :

هَنِيئًا لِمَنْ صَحَّ إِسْلَامُهُ وَنَالَ مِنَ الدِّينِ أَوْفَى نَصِيبٍ
أَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَصَامَ وَحَجَّ وَزَارَ الْحَبِيبَ (3)

وَمِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ أَرَادَ الْحَثَّ عَلَى الْعَنَاءِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ؛ فَصَاغَ ذَلِكَ نِظْمًا ، كَالشَّاعِرِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَلِيٍّ الزَّمْزَمِيِّ فِي تَرْغِيْبِهِ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِرْتَلًا بِتَدْبِيرٍ وَخُشُوعٍ ، وَفِي إِشَارَتِهِ إِلَى تَحَقُّقِ الْمَنْفَعَةِ بِإِجْلَالِهِ ؛ إِذْ يَقُولُ :

يَا قَارِئَ الْقُرْآنِ فِي مُصْحَفٍ (إِرْفَعُهُ) فِي كُرْسِيِّهِ تَرْتَفِعْ
وَكُنْ عَلَى طَهْرٍ وَفِي خَشْيَةٍ وَرَتِّلِ الْآيَاتِ كَيْ تَتَفَعَّلَ (4)

وَصَاغَ الزَّمْزَمِيُّ فَوَائِدَ مَاءِ زَمْزَمٍ وَمَا ذَكَرَهُ الرَّسُولُ ع عَنْهُ بِقَوْلِهِ :

وَمَاءٌ زَمْزَمٌ فِيهِ لِلْأَنَامِ غَدَا كَذَا دَوَاءٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْعِلَلِ
فَهُوَ الشِّفَاءُ لِأَسْقَامِي وَإِنْ كَثُرَتْ وَهُوَ الطَّعَامُ كَذَا عَنْ سَيِّدِ الرُّسُلِ (5)

وَحِينَ رَأَى الشُّعْرَاءُ قَبُولَ هَذَا النُّوعِ مِنَ الشُّعْرِ فِي تِلْكَ الْبَيْئَةِ الْعِلْمِيَّةِ ؛ تَنَاولُوا بَعْضَ الْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ ، حَرَصًا عَلَى إِذَاعَتِهَا وَتَقْرِيْبِهَا إِلَى الْأَذْهَانِ . مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ظَهْرَةَ فِي الْمَسَائِلِ

(1) ديوان الزمزمي ، ورقة 105/ب .

(2) جاء في صحيح مسلم 45/1 : قال رسول الله ع : «بني الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان» . وفي رواية أخرى : «وصيام رمضان وحج البيت» .

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص 480 . والزيارة للمدينة المنورة أو نحوها ليست من أركان الإسلام ، ولا تعد من الحج ، وإنما الوارد هو فضل الصلاة في المسجد النبوي كما جاء في الحديث .

(4) الدر الكمين ، عمر بن فهد 606/1 . وقد وردت لفظة (ارفعه) – التي في عجز البيت الأول – في المصدر : ارفع ، فرجعت للأصل المخطوط ، ورقة 94/أ ؛ فألفيتها كما أثبتتها المحقق ، وقد أضفت الهاء ؛ ليستقيم الوزن والمعنى .

(5) المصدر السابق 606/1 . وقد جاء في الحديث الشريف عن النبي ع أن «ماء زمزم لما شرب له» . سنن ابن ماجه ، ص 443 . كما جاء عنه ع قوله : «إنها مباركة ، إنها طعام طعم» ، أي : تشبع شاربها كما يشبعه الطعام . – صحيح مسلم 1922/4 .

التي يزوج فيها الحاكم :

عَدَمُ الْوَلِيِّ وَفَقْدُهُ وَنِكَاحُهُ وَكَذَاكَ غَيْبُهُ مَسَافَةً قَاصِرِ
وَكَذَاكَ إِغْمَاءٌ وَحَبْسٌ مَانِعٌ أَمَةٌ لِمَحْجُورٍ تَوَانِي الْقَادِرِ
إِجْرَامُهُ (وَتَعَذَّرَ) مَعَ عَضْلِهِ إِسْلَامُ أُمِّ الْفَرْعِ وَهِيَ لِكَافِرٍ (1)

وتناولوا مسائل فقهية أخرى ، كقول أبي السعادات بن ظهيرة في
دماء الحج من أبيات :

أَخِي إِنْ تُرِدْ مَا يُسْتَفَادُ وَيُغْنَمُ (وَالْكَشْفِ) (2) عَنْ حُكْمِ الدِّمَاءِ
... وَتَرَكُ مَبِيتِي ثُمَّ زِيٍّ وَهَكَذَا وَدَاعٌ وَمِيقَاتٌ وَجَمْعٌ مُخَيِّمٌ
فَالْكَلِّ تَرْتِيبٌ وَقَدَرٌ مُحْكَمٌ وَالْحَصْرِ وَالْإِخْصَاءِ حُكْمٌ مُسَلَّمٌ
... وَطَيْبٌ وَوَطْءٌ بَعْدَ أَوَّلِ حِلِّهِ وَبَعْدَ فَسَادِ وَالْمُقَدِّمُ يُحْرِمُ
فَقَدِرٌ وَخَيْرٌ حُكْمٌ مَا قَدْ ذَكَرْتُهُ وَلِلْبَيْتِ ثُمَّ الصَّيْدِ عَدْلٌ مُتَيَّمٌ (3)

لقد كان النشاط العلمي – كما سلف – جزءاً من الحياة العامة لأهل
مكة والمدينة والوافدين إليهما . وما دام الأمر كذلك ، فإنه من الطبيعي أن
نجد اهتمام الشعراء بشؤون طالب العلم ، حتى وجدنا من الشعراء من
تناول أدوات الكاتب ، كالشاعر عبدالمعطي باكثير الذي جمع أسماء الآلة
التي لا يستغني عنها الكاتب ، ونظمها بقوله :

وَمِيمَاتُ الدَّوَاةِ تُعَدُّ سَبْعاً وَسَبْعاً عَدُّهُنَّ بِلا خَفَاءِ
مِدَادٌ ثُمَّ مِخْبَرَةٌ مَقْصٌ وَمِرْمَلَةٌ وَمِصْمَغَةُ الْغَرَاءِ
وَمِخْشَطَةٌ وَمِقْلَمَةٌ مِقْطٌ وَمِصْقَلَةٌ مُمَوِّهَةٌ لِمَاءِ
وَمِخْرَاكٌ وَمِسْطَرَّةٌ مِسَنٌ وَمِمْسَحَةٌ لِحْتَمٍ وَانْتِهَاءِ (4)

وتحدث الشعراء عن معجم الصحاح للجوهري الذي كان "آية في فن

(1) الضوء اللامع ، السخاوي 94/8 ، 95 . ولفظة (وتعذر) – الواردة في حشو الشطر
الأول من البيت الثالث – قد وردت في المصدر (وتعزز) ، والمثبت عن إنباء الغمر ،
ابن حجر 46/3 (الهامش) .

(2) في المصدر : والكشف ، والتعديل ؛ لإقامة الوزن .

(3) الدر الكمين ، عمر بن فهد 342/1 .

(4) شذرات الذهب ، ابن العماد 613/10 .

التأليف المعجمي ، سبق غيره في هذه السبيل ؛ بابتكاره منهجاً جديداً لم يسبق إليه ... وهذا النظام الجديد غير المعروف جعل للصاحح المنزلة الرفيعة التي تفرّد بها بين المعجمات التي سبقته أو عاصرتة (1) .
وهم حينما يشيرون إلى ذلك إنما يبتغون التيسير للراغبين في الاستفادة منه . يقول الشاعر حسن المرجاني (2) :

إِنَّ الصَّاحَّحَ مُفِيدٌ قَدْ غَدَا وَلَهُ مِنْ الْفَضَائِلِ يَشْفِي مَنْ بِهِ وَلَهُ
فَإِنْ أَرَدْتَ بِهِ كَشْفًا لِمُعْضِلَةٍ فَالْبَابُ آخِرُهُ وَالْفَصْلُ أَوَّلُهُ (3)

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر إبراهيم الزمزمي :
وإن تُردَّ كَشَفَ الصَّاحَّحِ لَفْظُهُ فَالْبَابُ آخِرٌ وَفَصْلٌ أَوَّلُ
وإن يَكُ الحَرْفُ الأَخِيرُ عِلَّةٌ فَمِنْ فُصُولٍ آخِرًا يُحْصَلُ (4)

ونظم الشعراء الأسماء التي رغبوا إشاعتها ، كما فعل الشاعر محمد بن أحمد بن الضياء (أبو البقاء) حيث سبك سبعة أبيات ، جمع فيها من أسماء مكة نحو ثلاثين بأسلوب متكلف ، منها قوله :
لِمَكَّةَ أَسْمَاءٌ ثَلَاثُونَ عُدِدَتْ وَمِنْ بَعْدِ ذَاكَ اثْنَانِ مِنْهَا اسْمٌ بِكَّةَ
صَلَاحٌ وَكُوْثَى وَالْحَرَامُ وَقَادِسٌ وَحَاطِمَةُ الْبَلَدِ الْعَرِيشِ بِقَرْيَةِ
... كَذَاكَ اسْمُهَا الْبَلَدُ الْحَرَامُ لِأَمْنِهَا وَبِالْمَسْجِدِ الْأَسْنَى الْحَرَامِ تَسَمَّتِ

(1) مقدمة الصاحح ، بقلم الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار ، ص 118 ، 119 .
(2) هو حسن بن محمد بن أبي بكر بن علي بن يوسف البدر بن النجم الأنصاري المكي ، ويعرف بالمرجاني . ولد سنة 824 هـ بمكة ، وبها نشأ ، حيث حفظ القرآن الكريم وبعض المتون ، ودرس على بعض العلماء في مكة والمدينة الحديث والفقه والنحو ، وقد برع في النحو وشرح مساعد الطلاب في نظم قواعد الإعراب لأبيه ، وأقرأ بعض الطلبة .

- انظر ترجمته في : الضوء اللامع ، السخاوي 122/3 ، 123 .

(3) الضوء اللامع ، السخاوي 123/3 .

(4) الدر الكمين ، عمر بن فهد 605/1 . وقد ورد البيتان في المصدر هكذا:
وإن تُردَّ كَشَفَ الصَّاحَّحِ لِلْفَظِّهِ فَالْبَابُ آخِرُهُ وَفَصْلٌ أَوَّلُ

وإن يَكُ الحَرْفُ الأَخِيرُ حَرْفٌ فَمِنْ فُصُولٍ آخِرًا يُحْصَلُ
عِلَّةٌ
وحصل هذا التغيير مراعاة للوزن .

وَمَا كَثْرَةُ الْأَسْمَاءِ إِلَّا لِفَضْلِهَا حَبَاهَا بِهِ الرَّحْمَنُ مِنْ أَجْلِ كَعْبَةٍ

(1)

ورغب الشعراء في إشاعة أسماء بحور الشعر الستة عشر ؛
فسلكوها في نظم يسهل من خلاله حفظها ، كقول محمد أبي الفرج (2):

إِذَا رُمْتَ ضَبْطًا لِلْبُحُورِ فَهَآكَهَا فَعِدَّتْهَا سِتٌّ وَعَشْرٌ كَذَا نُقِلَ

طَوِيلٌ مَدِيدٌ مَعَ بَسِيطٍ وَوَافِرٍ كَذَا كَامِلٌ هَزَجٌ وَرَجَزٌ مَعَ الرَّمَلِ

سَرِيعٌ سَرَحَتْ لِلْخَفِيفِ قَضِيبٌ (جَثَّتْ) الْقُرْبَ دَارَكَتْ فِي

(3) ١

وفاقه في ذلك الشاعر إسماعيل الزمزمي الذي صاغها في بيتين
أجود من سابقتهما سبكاً ، إذ يقول :

طَوِيلٌ يَمُدُّ الْبَسْطَ بِالْوَفْرِ كَامِلٌ وَيَهْزُجُ فِي رَجَزٍ وَيَرْمُلُ مُسْرَعَا

فَسَرَحَ خَفِيفًا يَفْتَضِبُ نَنَا مَنِ اجْثَّتْ مِنْ قُرْبٍ لِنُدْرِكَ

(4) ١

والواضح أن الشعراء لم يقتصروا على بحر الرجز أو المزدوج منه
أو من غيره من البحور تقليداً للأسلاف الذين أحسوا بسهولتهما فنظموا
عليهما كثيراً من شعرهم التعليمي . كما أن شعراء مكة والمدينة لم يولوا
الأسلوب عنايتهم ؛ إذ غاية ما يرمون إليه الإحاطة بجوانب الموضوع
المتحدث عنه ، ثم صياغة ذلك في كلام موزون مقفى . وإذا كان هذا

(1) الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، ابن ظهيرة ، ص 162 ،
وانظر أسماء مكة ومعانيها في (شفاء الغرام ، الفاسي 47/1-53) .

(2) هو محمد ناصر الدين أبو الفرج . ولد في المدينة المنورة سنة 806 هـ ، ونشأ بها ،
حيث حفظ القرآن الكريم ، ودرس على والده العالم الجليل مفتي المدينة وقاضيتها ، كما
درس على كثير من العلماء الفقه والحديث والتفسير والنحو والمعاني والبيان ، في
المدينة وفي مكة والقاهرة ، وأجاز له عدد منهم ، فدرس وأفتى ، وكتب حواشي مفيدة
على بعض الكتب مثل : المنهاج الأصلي ، وألفية ابن مالك ، والتلخيص ، والجمل في
المنطق ، وعروض الأندلسي ، وغيرها . توفي بالمدينة المنورة في سنة 880 هـ .
- انظر ترجمته في التحفة اللطيفة ، السخاوي 539/3-542 ؛ الضوء اللامع ،
السخاوي 167-165/7 .

(3) الضوء اللامع ، السخاوي 167/7 . ولفظة (جثت) في عجز البيت الثالث في المصدر
(اجتثت) ، والتعديل ؛ لإقامة الوزن .

(4) المصدر السابق 303/2 . ولم يرد في البيتين ذكر البحر المضارع ، كما أن صدر
البيت الثاني غير منسجم في وزنه مع الأشطر الثلاثة . ولعل الكلمة الناقصة هنا تشير
إلى البحر المضارع .

النهج طبعياً في مثل تلك الموضوعات ، فإن ما يؤخذ على بعض الشعراء هو الخلل في وزن بعض الأبيات ، ويزداد اللوم على أولئك الذين ينظمون في أسماء البحور ، فيستبين ضعفهم في هذا الجانب وهذا – إن كانت رواية المصادر صحيحة – ينم عن عدم إحسانهم ما يتحدثون عنه ، وخاصة إذا كان الشعر لمن كان من المشتغلين بعلم العروض كإسماعيل الزمزمي .

الفصل الرابع

الدراسة الفنية

- 1- المعاني .
- 2- بناء القصيدة .
- 3- الألفاظ والتراكيب .
- 4- الأخیلة والصور .
- 5- الأوزان والقوافي .

-1-

يمتاز الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين بوضوح معانيه ؛ حيث نأى الشعراء عن الغموض الكلي في الفكرة ، ويكاد الغموض الرمزي يقتصر على نماذج نادرة من أشعار المتصوفة ، وخاصة تلك الأشعار التي تطاول فيها بعض الشعراء حين صاغوا شعر الغزل في الذات الإلهية .

ووضوح المعنى لا يعني أنه سطحي بعيد عن العمق ، بل وضوح يقربه إلى الأذهان مع احتفاظه بالعمق والاستقصاء للفكرة التي يريد الشاعر عرضها في أبياته ؛ فإذا أراد أن يبين - مثلاً - شجاعة ممدوحه وهيبة جيشه ، أحاط بالفكرة المتحدث عنها بحيث لا يدع مجالاً لمستزيد ، على نحو قول الشاعر حسين العليف في مديح الشريف حسن ابن عجلان وبيان عظمة جيشه وهيبته :

لَمَّا تَقَلَّلَ فِي الْأَبَاطِحِ سَائِرًا
خَلَّتِ الْجِبَالُ مِنَ الْخَمِيسِ
السَّائِرِ

وَعَدَتْ شِعَابُ الْأَبْطَحِينَ كَأَنَّمَا
سَأَلَتْ بِسَيْلِ أَسِنَّةٍ وَبَوَاتِرِ
وَمَقَانِبٍ وَكَتَائِبٍ وَمَوَاقِبِ
وَنَجَائِبٍ وَسَلَاهِبٍ وَعَسَاكِرِ
لَا الْوَحْشُ فِي دَوِّ الْفَلَاةِ بِسَالِمِ
مِنْهَا وَلَا الطَّيْرُ الْمُثَارُ بِثَائِرِ
وَفَوَارِسٍ لَوْ أَنَّ عَنَتَرَةَ اللَّقَا
لَاقَى لَلِقَاهَا بِمُهْجَةٍ صَافِرِ (1)

وانظر كيف استقصى الشاعر أحمد العليف صفات ممدوحه في قطعة شعرية عدتها أربعة أبيات ، كثف فيها المعنى ، فأطلعنا على الخصال التي تكفل له السيادة ، حيث الهيبة وأصالة الرأي والجود وبهاء الطلعة ، إذ يقول :

لَحَظَاتُ طَرْفِكَ فِي الْعَدَى
يُغْنِيكَ عَنْ سَلِّ السُّيُوفِ
وَعَزِيمُ رَأْيِكَ فِي النَّهَى
يَكْفِيكَ عَاقِبَةَ الصَّرُوفِ
وَسُيُولُ كَفِّكَ بِاللَّيْ
بَحْرٌ يَفِيضُ عَلَى الضَّعِيفِ

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 365/2 ، 366 .

وَضِيَاءٌ وَجْهَكَ فِي الدُّجَى أَبْهَى مِنَ الْبَدْرِ الْمُنِيفِ (1)

ومن المعاني العميقة ، البعيدة عن الغموض قول الشاعر محمد الخجندي :

أَمَلٌ يَطْوُلُ وَفِي آجَانِنَا قِصَرُ وَالذَّهْرُ يَنْكَى وَفِي الْأَيَّامِ مُعْتَبَرُ
وَالنَّفْسُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهَا وَالْقَلْبُ مِنْ قَسْوَةٍ كَأَنَّهُ حَجَرُ (2)

ورقي الفكرة ومناسبتها لموضوعها من علامات جودتها ، فإن عدل الشاعر عن ذلك ؛ وقع في الضحالة ، كالنهر والي إذ يقول :

الْمِلْحُ وَالْكُرَاتُ أَشْهَى عِنْدَنَا مِنْ أَكْلِ مَأْمُونِيَّةٍ بِالسُّكَّرِ
وَمَشَاهِدُ الْحَرَمَيْنِ أَعْلَى رُتْبَةٍ مِنْ أَنْ نُقِيمَ بِدَارِ مَلِكٍ أَكْبَرِ (3)

فما علاقة الملح والكراث وأكل المأمونية بمشاهد الحرمين؟! ليس ثمة علاقة ؛ ولذلك ينبغي على الشاعر الابتعاد عن مثل هذا المعنى الرديء ، الدال على ضعف الذوق .

-2-

والسمو سمة بارزة في معاني الشعر لدى شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ إذ اتضح من خلال الدراسة الموضوعية أن الشعر – إلا ما ندر – يحوي أفكاراً موحية بمعانٍ جليلة من حب الخير ونبذ الحقد والإفساد في الأرض .

ومن الأفكار النبيلة التي تناولها الشعراء الدعوة إلى الخير وشكر المنعم – جلت قدرته – على آلائه ، كقول ابن الشوائبي المقرئ :

بَادِرْ إِلَى الْخَيْرِ يَا ذَا اللَّبِّ وَاسْعَ بِهِ لِكُلِّ خَلٍّ تَرَاهُ نَالَهُ الْعَدَمَا
وَاشْكُرْ لِرَبِّكَ مَا أُعْطِيتَ مِنْ نِعَمٍ (تَنَلَّكَ) رَحْمَتُهُ فِي مَوْقِفٍ عَظَمَا (4)

وسمو الأفكار الواضح في نتاج الشعراء صدق لسلوكهم الذي كان نتيجة طبيعية للثقافة الدينية التي اكتسوبها ، فالشاعر عبدالكريم بن ظهيرة – مثلاً – ينزه لسانه من القول البذيء ، ويجنح إلى الخير والسلام ، ويغضي عن الأذى ؛ احتساباً للأجر عند الله ، كما أنه يصفح عن الذنب ؛

(1) ديوان أحمد العليف ، ورقة 53/ب .

(2) الضوء اللامع ، السخاوي 246/6 .

(3) رحلة الشتاء والصيف ، محمد كبريت ، ص 152 .

(4) الضوء اللامع ، السخاوي 174/5 . و(تنلك) في المصدر هكذا : تنال .

استجابة لنداء العقل والدين والحياء ، هذه الفكرة الجليلة يبثها شعراً في أبيات ، منها قوله :

أَنزَرَهُ نَفْسِي عَنْ أَدَى الْقَوْلِ وَإِنِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَالسَّلَامِ أَجَنَحُ
وَأُغْضِي احتِساباً إِنَّ تَجَاهَلَ وَإِنِّي كَرِيمٌ قَدْ أَضُرُّ وَأَنْجَحُ
وَعَقْلِي وَدِينِي وَالْحَيَاءُ يَرُدُّنِي عَنِ الْجَهْلِ لَكِنِّي عَنِ الذَّنْبِ

وقد نهض الشعر برسالته حين حملته الشعراء أفكارهم الخيرة ، فكان أفضل وسيلة لنفاذها إلى القلوب وإيقاظ الغافل منها . يقول الشاعر أحمد البسكري :

إِذَا الْعِشْرُونَ مِنْ شَعْبَانٍ وَافَتْ تَهَيَّأَ لِلصِّيَامِ وَاللَّيَامِ
وَلَا تَكْسَلْ عَنِ الطَّاعَاتِ فِيهِ فَهَذَا الْوَقْتُ وَقْتُ الْاِغْتِمَامِ
فَشَهْرُ الصَّوْمِ قَدْ وَفَاكَ حَقًّا بِكُلِّ الْمُكْرَمَاتِ عَلَى الدَّوَامِ (2)

ويقول الشاعر عبدالعزيز الزمزمي :

أَيُّهَا الْغَافِلُ الْغَبِيُّ تَنَبَّهْ إِنَّ بِالنَّوْمِ يَقْظَةَ النَّاسِ أَشْبَهَ
وَتَأَمَّلْ فَإِنَّمَا النَّاسُ سَفَرٌ دَارُ دُنْيَاهُمْ لَهُمْ دَارُ غَرْبِهِ
كُلُّ يَوْمٍ تَحُلُّ فِي السَّرْحِ مِنْهَا عُصْبَةٌ مِنْهُمْ وَتَرْحَلُ عُصْبَةٌ (3)

وفي الدراسة الموضوعية من الأمثلة على سمو الأفكار ما يغني عن التكرار ، كالتواصل الذي شهدناه في شعر الإخوانيات ، والوفاء الواضح في الرثاء ، وهجاء السلوك المشين ، وبث الشكوى إلى الله ، والفخر بالعيش في تلك البقاع الطاهرة والسير على نهج الرسول ع ، ونظم بعض المسائل العلمية ، وبث الحكم المفيدة ، وكذلك مديح الرسول ع ، دون اللجوء إلى الغلو .

أما ما سار عليه الصوفيون من الاستغاثة بالرسول ع والتوسل بجاهه الكريم ، معتقدين أن ذلك يرفع معاناة العبد في دنياه ؛ فإنه فساد في الأفكار ، ومنه قول الشاعر أحمد الكازروني :

- (1) الضوء اللامع ، السخاوي 310/4 ، 311 .
- (2) المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 79 .
- (3) النور السافر ، العيدروس ، ص 341 .

وَلِي هَفَوَاتٍ قَدْ كَثُرْنَ وَلَا أَرَى لَهَا غَيْرَ جَاهِ الْمُصْطَفَى نَافِعاً
وَجَبِراً لِكَسْرِ طَائِمًا قَدْ شَكَّوْهُ إِلَيْكَ فَدَارِكُنِي لِيَنْجِبِرَ الْوَهْطُ⁽¹⁾

ومن الأفكار النبيلة الواقعية في مديح الأمراء والسلاطين ؛ لأن الشاعر يمدح الأمير أو السلطان الذي يقيم العدل في الأرض وينشر الأمن فيها ويقاتل نصرة للإسلام ، وضد ذلك التملق للممدوح والغلو في ذلك إلى الحد الذي يخرج صاحبه من دائرة العقيدة الصحيحة ، كالمبالغة المذمومة في قول الشاعر أحمد الفاسي مخاطباً الأمير حسن ابن عجلان :
يَا قَاسِمَ الرِّزْقِ بَيْنَ الْخَلْقِ كَيْفَ رَأَى كَقِسْمَةِ اللَّهِ بَيْنَ الْأَرْضِ لِلْمَطَرِ
وَأَفْقَتَ رَبِّكَ فِيمَا قَدْ رَضِيَهُ لَنَا فَطَاوَعَتْكَ يَدُ الْمَكْنُونِ وَالْقَدَرِ
... فَإِنَّ عِنْدَكَ مِنْ عِلْمِ السَّمَاءِ نَبَأً وَأَنْتَ وَارِثُ مُوسَى صَاحِبِ

فالفكرة في الأبيات مستتكرة ، دفع إليها الغلو المذموم في المديح ؛ حيث أسند الشاعر للممدوح من الصفات ما لا يليق إلا لله وحده – عز وجل – كما أن الغلو دفعه إلى أن ينزل ممدوحه منزلة النبي الكريم . ومما لا يشك به مسلم عاقل أن الله – سبحانه وتعالى – هو القسام للأرزاق ، وأنه ليس ثمة بشر تطاوعه يد القدر .

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر عبدالرحمن باكثير في مديح الأمير أحمد بن أبي نمي :

تَكْفَلُ لِلدُّنْيَا بِأَرْزَاقِ أَهْلِهَا وَكُلُّ ابْنِ أَنْثَى لَا يَجُوعُ وَلَا يَغْرَا
وَمَدَّ عَلَى أَبْنَائِهَا مِنْ أَمَانِهِ رُوقاً فَلَا يَخْشَوْنَ بُؤْساً وَلَا

ومن الأفكار الخيرة مديح العلماء الأجلاء الذين أمضوا أعمارهم في سبيل العلم ، أما الغلو في الحديث عن بعض العلماء والتعلق بالأموال والأولياء والصالحين كالذي شاع في ديوان الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي (4) ؛ فإنه مما يتصل بالفكر الصوفي المنحرف عن الطريق المستقيم .

(1) المصدر السابق 192/1 .

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 360/2 ، 361 . وانظر : تعليق المحقق على الأبيات في الهامش .

(3) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 6/أ .

(4) سيأتي الحديث عن شعر عبدالعزيز الزمزمي في الفصل الخامس من هذه الدراسة .

والأفكار السامية في الغزل هي التي تصور الحب العفيف ، أمّا ما وجدنا لدى قلة من الشعراء من تَبَدُّلٍ – حين تغزلوا بالمذكر وحين صَوَّروا لحظات اللقاء بمن يعشقون بتلك الصور التي بدوا فيها أشبه ما يكونون بالذئاب الضارية أمام فرائس وديعة – فإنه مما يندرج في الأفكار الوضيعة (1) .

وهجاء المساوي الخلقية المتفشية في المجتمع هجاء إيجابي يحمل أفكاراً طيبة ، أما ما كان من هجاء مقذع وتنايز بالألقاب فمن الأفكار الرديئة . ويزداد سوء الفكرة إذا كان الهجاء موجهاً إلى عالم ذي فضل ، كهجاء الشاعر محمد الطبري للشيخ أبي السعادات بن ظهيرة الذي يقول منه :

أَبُو السَّعَادَاتِ هَذَا مِنْ شَيْبَتِهِ وَفِي كُهُولَتِهِ مَا حَازَ قَطَّ عُلَا
لَمْ يَأْخُذِ الْعِلْمَ عَنْ شَيْخٍ يُعْرِفُهُ وَجَهَ الصَّوَابِ وَلَا أَصْغَى وَلَا قَبِلَا
... قَدْ ضَيَّعَ الْعُمَرَ حَسْداً لِلْمَلَا وَلَهُ عُجْبٌ وَكِبَرٌ وَحَقْدٌ بِئْسَمَا فَـعَلَا

(2)

-3-

اتضح من خلال الحديث عن المديح النبوي غلو الشعراء في أداء معانيهم ، كما أن معاني المديح – وخاصة مديح الأمراء والسلاطين – وكذلك معاني الرثاء قد اصطبغت بالمبالغة ، حيث يجنح الشاعر للتهويل ، وذكر بعض الصفات التي يمجها الذوق السليم وينكرها العقل . وأغلبها معاني مكررة تكسى اليوم ممدوحاً وغداً آخر . وهذا من نتائج ضعف العاطفة ؛ فنضوب العاطفة يُلجئ إلى الإغراق والتكرار الذي لا يضيف جديداً .

ومن الغلو الذي لا يستسيغه الذوق ولا يقبله العقل قول الشاعر أحمد القليوبي في مديح الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان :

وَاسْلُمَ وَدُمُ وَتَحَكَّمُ وَاسْتَطَلَّ أَبَدًا فَأَنْتَ فِي الْخَلْقِ رَبُّ النَّفْعِ

إذ إنَّ ذلك مخالف للعقيدة الصحيحة ؛ فالله – سبحانه وتعالى – وحده الدائم الذي ينفع ويضر .

ولم يكن ذلك في المديح فحسب ، بل حتى في الرثاء نجد من

(1) انظر : شعر الغزل .

(2) خلاصة الأثر ، المحبي 463/2 ، 464 .

(3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 609/2 .

الشعراء من لا يتورع عن تعظيم المرثي ومنحه صفات لا تليق إلا بالله ،
 فالله – جل جلاله – هو المستحق للتعظيم وهو كاشف الغمء ، لكن
 الشاعر علي بن ناصر الحجازي قد صرف ذلك إلى الشريف محمد بن
 بركات بن حسن بن عجلان ووالده الشريف بركات وهما المخلوقان
 الضعيفان ، حيث يقول :

يَا سَيِّدَ الْأَشْرَافِ نُجَلِّ مُبَارَكَ بَرَكَاتِ زَيْنِ الدِّينِ جَلَّ جَلَالَا
 مَنْ يَكْشِفُ الْغَمَاءَ إِنْ نَزَلَتْ وَمَنْ يُمَسِّي لِكُلِّ هَضِيمَةٍ حَمَّالَا (1)

ومنهم من يجعل السماء والأرض تبكي لفقد المرثي ، كما فعل
 عبدالعزيز الزمزمي في رثاء الوزير آصفخان الكجراتي ، إذ يقول :
 بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ إِذْ فَقَدَتْ تَهْجُدًا عِنْدَ طُولِ الدَّهْرِ لَمْ يَحُلْ (2)

لقد بالغ الشعراء في كثير من معاني المديح والرثاء وكرروا أفكارهم
 (3) ، حتى إن الشاعر قد ينعت ممدوحه بصفة أو صفات ثم يكررها في
 رثائه له حينما يموت ، كما فعل الشاعر حسين العليف في رثاء الشريف
 حسن بن عجلان حينما أعاد المعنى الذي تحدث عنه في إحدى مدائحه (4)

وإذا كان هذا التكرار مؤكّداً اتصاف الممدوح بالنعوت المكررة ،
 فإنه في الوقت نفسه دالٌّ على عجز الشاعر عن إحداث معنى جديد
 يضاف إلى المعاني التي عرضها .

وممن تناول المعنى الواحد في أكثر من قصيدة الشاعر عبدالرحمن
 باكثير ؛ فقد مدح الشريف أبا نمي (محمد بن بركات) قائلاً :
 تَرَى لِلطَّلَى نَثْرًا إِذَا كَانَ ضَارِبًا كَمَا لِلْكُلَى نَظْمًا إِذَا كَانَ طَعَانًا (5)

وأشاد بشجاعته في قصيدة ثانية قائلاً :
 مَلِكٌ يَنْظُمُ الْكُلَى بِالْعَوَالِي مِثْلَمَا يَنْثُرُ الطَّلَى بِالصِّفَاحِ (6)

(1) المصدر نفسه 623/2 .

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص 327 .

(3) انظر : الفصل الثالث (أغراض الشعر) .

(4) انظر : الحديث عن غرض (الرثاء) في الفصل الثالث من هذه الدراسة .

(5) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 13/أ .

(6) المصدر نفسه ، ورقة 29/أ .

كما قال في قصيدة الثالثة :

عَوَالِيهِ فِي نَظْمِ الْكُلَى جَادَ كَمَا فِي الطَّلَى أَسْيَافُهُ جَادَتْ
ووصف رباطة جأشه قائلاً :
تَرَاهُ رَبِيطَ الْجَاشِ ثَبَتًا جَنَانَهُ وَتَلْقَاهُ طَلْقًا بِاسِمِ الشَّغْرِ يَقْظَانَا (2)

ثم أعاد المعنى نفسه في قصيدة ثانية قائلاً :

يَرِدُ الْحَرْبَ وَهِيَ تَهْمِي حُتُوفًا مِنْ ظَبَاهَا بِمَبْسِمٍ وَضَاحٍ (3)

وقال أيضاً في قصيدة الثالثة يمدح أبا نمي :

يَرِدُ الْحَرْبَ وَهُوَ طَلَقُ الْمُحْيَا ثَابِتُ الْجَاشِ بِاسِمٍ مَفْرَاحٍ (4)

وقد يعيد المعنى لممدوح آخر ، كقوله في مديح الشريف أحمد بن أبي نمي :

يَرِدُ الْوَعَى مُتَبَسِّمًا وَسَعِيرُهَا يَرْمِي شَرَارًا بِالْحَمَاةِ تَلْهَبَا
... ثَبِتْ رَبِيطَ جَاشُهُ لَوْ أَنَّهُ يَلْقَى بِهِ جَيْشَ الرَّدَى لَنْ يَذْهَبَا (5)

وهو تكرار للمعنى السابق في مديح الشريف أبي نمي (6) .

والحديث عن المبالغة وفتور العاطفة لدى بعض الشعراء لا ينفي الواقعية (الصدق) الذي لمسناه في كثير من القصائد ، كما رأينا في الشعر الديني وفي الرثاء والإخوانيات والحنين والشكوى والفخر والحماسة والحكمة وغيرها من الأغراض التي عبر فيها الشعراء عن آلامهم وآمالهم وواقع الحياة التي عاشوها والعصر الذي نشؤوا فيه ، حتى كان الشعر بذلك صدًى للحياة وصورة للواقع في ذلك الزمن .

فقد يحس المتلقي بالصدق حين يبث الشاعر ما يداخله من شعور ، على نحو قول الشاعر محمد بن أحمد الخجندي :

حَمَلْتُ ذَنْوَبًا أَثْقَلَ الظَّهْرَ حِمْلَهَا وَهَذَا كِتَابِي لِلْقَبَائِحِ جَامِعُ

(1) المصدر نفسه ، ورقة 8/أ .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 13/أ .

(3) المصدر نفسه ، ورقة 29/أ .

(4) سمط النجوم العوالي ، العصامي 348/4 .

(5) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 31/ب ، 32/أ .

(6) ولا يخفى تأثر الشاعر بقول المتنبي في سيف الدولة :

تَمَرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلَّمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَتَغْرُكَ بِاسِمُ

وَوَاللّٰهُ مَالِيْ صَالِحٍ قَدْ عَمِلْتُهُ وَلَكِنِّيْ فِي رَحْمَةِ اللّٰهِ طَامِعٌ (1)

ولست أعني بذلك الصدق الحقيقي فحسب ، بل كذلك الصدق الفني ، بل إنهما قد يجتمعان في كثير من القصائد (2) .

-4-

والتيار العربي القديم في الجاهلية والإسلام واضح الأثر في المضامين الشعرية لشعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين . وقد رأينا في أثناء الحديث عن الأغراض التي طرقوها أنهم التمسوا ما يناسب الممدوحين من شجاعة وكرم وهمة عالية وعزيمة صادقة ، كما أنهم في غزلهم قد تتبعوا مفاتن المرأة وأبانوا عن عواطفهم نحوها ماضين على نهج الشعراء القدماء ، وكذلك معاني الشعر الأخرى التي غلب عليها التقليد ، اتضح ذلك في مواقف الشعراء من الحياة والناس . ولم يعدلوا عن نهج القدامى إلا لمأماً ، كالذي ورد في الفخر – مثلاً – حين وجدنا الشعراء قد عبروا عن ذواتهم غير منشغلين بتمجيد أقوامهم والإشادة بمفاخرهم كما كان لدى الأوائل .

ومن يمعن الفكر في معاني الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ يلحظ علاقة الشعراء الوطيدة بالتراث الشعري العربي ، حيث نهلوا من معانيه وأظهروا تعلقهم به واستحضارهم له من خلال التضمين .

فقد ينظر الشاعر في قصيدة من الشعر القديم ، فيصوغ أفكاره بوحى منها ، مضيفاً ما يراه مناسباً للمقام المتحدث عنه ، كما فعل الشاعر أحمد العليف حينما رثى السخاوي في قصيدته التي مطلعها :

تَعَزَّ فَإِنَّ الْأَجَرَ لِلصَّبْرِ صَاحِبٌ وَسَلِّمْ إِذَا ضَاقَتْ (عَلَيْكَ)

إذ نجد تأثره ببعض أفكار أبي فراس الحمداني في قصيدته التي مطلعها :

أَبَيْتُ كَأَنِّي لِلصَّبَابَةِ صَاحِبٌ وَلِلنَّوْمِ مَذْبانَ الْخَلِيطِ مُجَانِبٌ (4)

- ديوان أبي الطيب المتنبي 387/3 .

(1) التحفة اللطيفة ، السخاوي 471/3 .

(2) انظر : الفصل الثالث (الدراسة الموضوعية) .

(3) انظر : ديوان أحمد العليف ، ورقة 64/أ . و(عليك) في المصدر ، هكذا : عليه .

(4) انظر : ديوان أبي فراس ، ص 35-39 .

وعلى الرغم من أننا لا نكاد نجد في نتاج الشعراء معنى مبتكراً ؛ فإن ذلك لا يعني أنهم قد ذابوا في معاني الأقدمين ، بل أخذوا منها ما وجدوه ملائماً لما يتحدثون عنه . فالشاعر إبراهيم بن علي الزمزمي قد تجاوز الثمانين من عمره ، وضعف بصره ، وقد نظر إلى بيت الشاعر عوف بن محمّل الخزاعي الذي يقول فيه :

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلُغَتْهَا قَدْ أَحْـ وَجَتْ سَمْعِي إِلَى

فحور المعنى إلى ما يناسب حالته قائلاً :

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَجَاوَزْتُهَا قَدْ أَعْقَبْتُ عَيْنِي بِمِثْلِ الدُّخَانِ (2)

ويقول الشاعر محمد علي بن إسماعيل الطبري في مديح الشريف حسن بن أبي نمي :

تَسْلُ أَسِيافُهُ أَخْلَامَ نَائِمِهِمْ عَلَيْهِ رُعباً وَيَلْقَى الْمَوْتَ يَقْظَانَا

أخذاً المعنى من قول الشاعر أشجع السلمي مخاطباً الرشيد :

وَعَلَى عَدْوِكَ يَا بَنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصْدَانِ ضَوْءُ الصُّبْحِ وَالْإِظْلَامِ

فَإِذَا تَبَّهَ رُغْتَهُ وَإِذَا غَفَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سَيُوفُكَ الْأَخْلَامِ (4)

وتبع الطبري المتنبي في معنى بيته الذي يقول فيه :

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً أَنْتِي رَجُلٌ لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرْنِي (5)

فأجاد الأخذ ؛ حيث صاغ المعنى في معرض حسن ، قائلاً :

تَيَمَّمْتَنِي فَرَقَّ جِسْمِي نُحُولاً مِنْ جَفَاهَا فَعَانِدِي لَا يَرَانِي (6)

وقد تكلم متقدمو النقاد ومتأخروهم على صحة تداول المعاني بين الشعراء ، مشيرين إلى أن المعيب هو أخذ المعنى بلفظه كله أو إفساده .

ومن يرجع الطرف في آراء النقاد ، يجد أن من أهم أسباب تسامحهم في الأخذ والاحتذاء علمهم بأن الشاعر ينبغي أن يكون واسع المعرفة ،

(1) معجم الأدباء ، الحموي 517/4 .

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 606/1 .

(3) نفحة الريحانة ، المحبي 52/4 .

(4) خزانة الأدب ، البغدادى 299/1 .

(5) ديوان أبي الطيب المتنبي 186/4 .

(6) نفحة الريحانة ، المحبي 51/4 .

كثير الاطلاع ، عالماً بمذاهب الشعراء ، وأن تلك المعرفة تقتضي الإلمام بمعانيهم والإفادة منها (1) .

فليس بمذموم إذن أن يُسبق الشاعر إلى موضوع أو فكرة من أفكاره المتناولة ؛ فله أن يتأثر ، ولكن ينبغي أن يحتفظ بنفسه . بل إن ابن رشيق يرى أن الشاعر وإن لم يصف شيئاً – أي ساوى السابق في المعنى – فإن له فضيلة حسن الاقتداء ، إذ يقول : "إن المتبع إذا تناول معنى فأجاده ... فهو أولى به من مبتدعه ، وكذلك إن قلبه أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر ، فأما إن ساوى المبتدع فله فضيلة حسن الاقتداء لا غيرها" (2) .

وقد ذكر في مقام آخر "أن الشاعر يستوهب البيت والبيتين والثلاثة وأكثر من ذلك ، إذا كانت شبيهة بطريقته ، ولا يعد ذلك عيباً" (3) .

فإذا نظرنا في قول الشاعر أحمد العفيف ، مخاطباً الشريف بركات في بني إبراهيم الذين قاتلهم :

لَا تَقْطَعِ الرَّجُلَ مِنْ قَوْمٍ وَتَتْرُكَهُمْ وَالرَّأْسُ فِيهِمْ صَاحِبٌ غَيْرُ

لوجدنا أنه أخذ الفكرة من قول الشاعر :

لَا تَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتُرْسِلْهَا إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَاتَّبِعْ رَأْسَهَا الذَّنْبَا

وقد أحسن العفيف صياغتها وتصريفها ضمن الغرض الذي كان يرمي إليه ؛ إذ إنه كان في موقف إثارة الحماسة في قلب الشريف بركات لتعقب رأس أولئك القوم ، فعلى الرغم من أن الشريف بركات قد هزم بني إبراهيم فإنه لم يظفر – أثناء ذلك – برئيسهم .

وأحمد العفيف أكثر شعراء مكة والمدينة تأثراً بمعاني الأقدمين ، وقد تجد في القصيدة الواحدة أثراً لأكثر من شاعر ، من ذلك – مثلاً – قوله في القصيدة السابقة ، مخاطباً الشريف بركات بن محمد :

(1) انظر : العمدة ، ابن رشيق 280/2-294 ؛ السرقات الأدبية ، بدوي طبانة ، ص48-52 .

(2) العمدة 290/2 ، 291 .

(3) المصدر نفسه 286/2 ، 287 .

(4) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 196/3 .

(5) جاء هذا البيت ضمن أربعة أبيات منسوبة لعروة بن أذينة في (الشوارد ، لعبدالله بن خميس) . وذكر حسن دندشي في (معجم الأبيات الشهيرة) أن البيت لأبي أذينة (هكذا!) . وقد نظرت في ديوان عروة بن أذينة ؛ فلم أجد هذا البيت . وبحث في كثير من المصادر القديمة بغية توثيقه والتحقق من نسبته إلى الشاعر ؛ لكنني لم أهد إلى شيء من ذلك .

يَنَامُ طَرْفَكَ وَالْأَوْهَامُ تُسْهِرُهُمْ خَوْفًا وَتَهْدًا وَالْأَفْكَارُ فِي جَدَلٍ (1)

وهو من قول المتنبي :

أَنَامَ مِلءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ (2)

وليس شرطاً أن يعتمد الشاعر على التذكر أو على استدعاء الفكرة من شاعر بعينه ، بل قد يغترف من ذاكرته فكرة مختزنة غير مدرك مصدرها ؛ لأن من الأفكار ما تداولها أكثر من شاعر ، وقد يعيها الحس وتتشكل في الذهن ، فتقذفها الذاكرة لحظة تداعي المشاعر .

فلو نظرنا في قول الشاعر علي العليّف مادحاً الشريف حسن بن عجلان :

تَرَاهُ إِذْ يُسْأَلُ الْمَعْرُوفَ مُبْتَسِمًا مُسْتَبْشِرًا بِالْعَطَايَا غَيْرَ غَضْبَانَ (3)

لوجدنا أثر بيت زهير في مديح حصن بن حذيفة الفزاري الذي يقول فيه :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ (4)

كما نلاحظ فيه أثراً من قول بشار في المهدي :

لَمَّا رَأَيْتُ بَدَتْ مَكَارِمُهُ نُورًا عَلَى وَجْهِهِ وَمَا اكْتَابَا كَأَنَّمَا جِئْتُهُ أَبْشَرُهُ وَلَمْ أَجِئْ رَاغِبًا وَمُخْتَلِبًا (5)

ويتضح أيضاً أثر الأبيات السابقة في قول الشاعر أحمد العليّف في مديح الشريف بركات بن محمد :

فَتَى تَرِدُ الْأَمَالَ مِنْهَلٍ جُودِهِ فَتَصْدُرُ عَنْهُ وَهُوَ جَذْلَانُ ضَاكِكُ (6)

وكذلك في قول الشاعر عبدالعزيز الزمزمي في الوزير أصفهان الكجراتي :

يُعْطِيكَ وَالْبَشْرُ يَكْسُو صَفْحَتَيْهِ بُغْدًا لِتَقْطِيبِ وَجْهِ الْعَارِضِ (7) . ١

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 193/3 .

(2) ديوان أبي الطيب المتنبي 367/3 .

(3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 370/2 .

(4) شرح ديوان زهير ، ص 123 .

(5) ديوان بشار بن برد 329/1 .

(6) سمط النجوم العوالي ، العصامي 306/4 .

(7) النور السافر ، العيدروس ، ص 139 .

واستقى كثير من الشعراء معانيهم ممن سبقهم ، معيدين أغلب ألفاظهم ، غير قادرين على مجاراتهم . من ذلك قول الشاعر أحمد العليف مفتخراً :

يَسِيرُ النَّاسُ مَا سِرْنَا وَإِنْ لَمْ نَسِرْ أَضْحَوْا لِبَاعْتِنَا وَقُوفًا (1)

فقد أخذ المعنى وأغلب الألفاظ من قول جميل بن معمر :
نَسِيرُ أَمَامَ النَّاسِ وَالنَّاسُ خَلْفَنَا فَإِنْ نَحْنُ أَوْمَانَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا (2)

ومن قول الفرزدق :
تَرَى النَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَانَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا (3)
ويقول العليف أيضاً في رثاء السخاوي :

فَمَا أَنْتَ إِلَّا الشَّمْسُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ إِذَا طَلَعَتْ تَخْفَى لَدَيْهَا الْكَوَاكِبُ (4)

أخذاً المعنى وبعض الألفاظ من قول النابغة الذبياني مخاطباً النعمان :
بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَكِبُ (5)

ومن ذلك قول الشاعر محمد بن ظهيرة في مديح الشريف محمد بن بركات بن حسن ابن عجلان :

فَاقَ الْمُلُوكَ فَلَوْ فِي كَفِّهِ وَزِنُوا بِظَفَرِهِ لَمْ يُسَاوُوا مَنْفَذَ الظَّفَرِ (6)

إذ تأثر ببيت ابن هتيمل في مديح الملك المظفر يوسف الغساني الذي يقول فيه :

=

- (1) ديوان أحمد العليف ، ورقة 42/أ .
- (2) الأغاني ، الأصفهاني 93/8 . والبيت في (ديوان جميل بثينة ، ص132) هكذا :
تَرَى النَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَانَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا
- (3) ديوان الفرزدق 32/2 والبيت لجميل ، وقد سمع الفرزدق جميلاً ينشده والناس مجتمعون عليه "فأشرع إليه رأسه من وراء الناس ، وقال : أنا أحق بهذا البيت منك . قال : أنشدك الله يا أبا فراس ! فمضى الفرزدق وانتحله " .
- الأغاني ، الأصفهاني 341/9 .
- (4) ديوان أحمد العليف ، ورقة 65/أ .
- (5) ديوان النابغة الذبياني ، ص74 .
- (6) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 526/2 .

مَوْلَى الْمُلُوكِ الَّذِي لَوْ أَنَّهُمْ بَظْفَرِهِ نَقَصُوا وَزَنَّا عَنِ الظَّفَرِ (1)
ومثله أيضاً قول الشاعر عبدالرحمن باكثير يمدح الشريف أبا نمي :
إِذَا عَزَا تَقَفُّو الْجَوَارِحُ جَيْشَهُ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ نَصْرِهِ حَيْثُمَا كَانَا
عَوَارِفَ مِنْهُ أَنَّهُ كُلُّ مَعْرَكٍ يُصَيِّرُ مِنْهُ السَّبْعَ وَالطَّيْرَ
حيث يتضح أثر مروان بن أبي الجنوب في قوله يمدح المعتصم :
لَا تَشْبَعُ الطَّيْرُ إِلَّا فِي وَقَائِعِهِ فَأَيْنَمَا سَارَ سَارَتْ خَلْفَهُ زُمَرَا
عَوَارِفَا أَنَّهُ فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ لَا يُعْمِدُ السَّيْفَ حَتَّى يُكْثِرَ الْجَزْرَا (3)
وتناول الشعراء بيت الفرزدق في علي بن الحسين الذي يقول فيه :
مِنْ مَعْشَرِ حُبُّهُمْ دِينَ وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَقَرْبُهُمْ مَنْجَى وَمُعْتَصَمٌ (4)

وممن تأثر به الشاعر عبدالرحمن باكثير ، حيث يقول عن آل البيت
— وهو يمدح الشريف أبا نمي — أَخْذَا الْمَعْنَى وَأَغْلَبَ الْأَلْفَاظُ :
عَدَا حُبُّهُمْ فَرَضًا وَطَاعَتُهُمْ هُدًى وَقَرْبُهُمْ مَنْجَى وَبُغْضُهُمْ كُفْرَا (5)

وقد يأخذ الشاعر المعنى الصحيح ذا المعرض الحسن والكسوة
الجميلة فيجعلهما معرضاً وكسوة أقل جمالاً ، كما فعل الشاعر أبو بكر
بن أبي الخير ببيت المتنبي في مديح سيف الدولة الذي يقول فيه :
تَمَرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلَمَى هَزِيمَةٍ وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَتَغْرُكَ بِاسِمٌ (6)

حيث وظف ابن أبي الخير هذا المعنى في مديحه للشريف بركات بن
محمد فقال :

مُبِيدُ الْعِدَى يَلْقَى الْكَتَائِبَ بِاسِمًا وَيَغْشَى الْمَنَايَا فِي الْوَعَى ضَاحِكًا

وعني الشعراء بالتضمين ، وهو "دليل تعلق واستحضار للتراث
القديم كالمعارضة ، ومجيؤه عفو خاطر ليسد خلة في السياق دليل

- (1) من ديوان ابن هتيمل (درر النحور) 419/1 .
- (2) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 13/ب .
- (3) خزانة الأدب ، البغدادي 291/4 . وربما يكون باكثير قد أخذ المعنى من المتنبي في ميميته التي مدح بها سيف الدولة وذكر بناءه ثغر الحدث .
- (4) ديوان الفرزدق 180/2 .
- (5) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 7/ب .
- (6) ديوان أبي الطيب المتنبي 387/3 .
- (7) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 164/3 .

براعة واستحضار مؤقت ، أما الاحتراف له وقسر النص لاحتماله فدليل
صنعة وتعمل يقعد بالنص دون الجودة⁽¹⁾ .

والناظر في نتاج الشعراء يلحظ صلة المعنى المضمن بالموضوع ؛
إذ ينبث في البيت فيظن متلقيه أنه من سداه ولحمته . وحرصوا أن يكون
المضمّن مشهوراً معروفاً صاحبه للمتلقي ؛ لئلا يلتبس بشعر الشاعر .
فالشاعر أحمد العليف قد أعجب بأعمال الشريف أبي نمي ، فتحدث
عن ذلك في أكثر من قصيدة ، يقول في إحداها :

وَعَادَتُهُ الْفِعْلُ الْجَمِيلُ وَإِنَّمَا (لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا)⁽²⁾

مضمناً صدر بيت المتنبي الذي يقول فيه :
لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي
وللشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي قصيدة أظهر فيها أشواقه إلى
مدينة المصطفى ع وطول رحلته وما عاناه فيها متمنياً بلوغه أربه ، قال
منها :

(إِنَّ الْعُلَا حَدَّثَتْنِي وَهِيَ صَادِقَةٌ) أَنَّ الْوُصُولَ إِلَيْهَا دَرْبُهُ وَعِزُّ⁽³⁾ (4)

مضمناً صدر بيت من لامية الطغرائي يقول فيه :
إِنَّ الْعُلَا حَدَّثَتْنِي وَهِيَ صَادِقَةٌ فِيمَا تَحَدَّثُ أَنَّ الْعِزَّ فِي النَّقْلِ⁽⁵⁾ (5)

وقد جاء هذا التضمين مناسباً للمعنى الذي أراده الشاعر . كما أن
الزمزمي في رثائه للوزير آصفخان الكجراتي قد تحدث عن جوده ،
مشيراً إلى أنه فاق من سبقه ، كما تكلم على أفعاله الشاهدة على فضله
وكرمه ، مستحضراً قول المتنبي :

لَيْتَ الْمَدَائِحَ تَسْتَوْفِي مَنَاقِبَهُ فَمَا كُئِيبٌ وَأَهْلُ الْأَعْصِرِ الْأَوَّلِ

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ

ومن ينعم النظر في بيتي المتنبي ؛ يلحظ أن الزمزمي قد ساق معناه
بتأثير منهما في قوله :

(1) النزعة الإسلامية في الشعر السعودي ، حسن الهويميل ، ص 394 .

(2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 52/أ .

(3) ديوان أبي الطيب المتنبي 281/1 .

(4) ديوان الزمزمي ، ورقة 20/أ .

(5) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي 156/3 .

(6) ديوان أبي الطيب المتنبي 80/3 ، 81 .

أَفْعَالُهُ صَدَقَتْ مَا قَدْ تَكْذِبُهُ أَسْمَاعُنَا مِنْ حَدِيثِ الْجُودِ فِي الْأَوَّلِ

فَانْظُرْ إِلَى فِعْلِهِ وَاتْرُكْ حَدِيثَهُمْ (فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ

ومن الشعراء من ضمن بيتاً كاملاً ، كالشاعر أحمد العليف الذي ضمن قول الفرزدق :

لَيْسَ الشَّفِيعُ الَّذِي يَأْتِيكَ مُنْتَزِراً مِثْلَ الشَّفِيعِ الَّذِي يَأْتِيكَ عُرْيَاناً (2)

حيث أورده العليف في قصيدة يتحدث فيها عن أم الكامل (زوج الشريف بركات بن محمد) . وقد أثنى عليها راجياً شفاعتها لدى الشريف بركات ، فجاء تضمينه استدلالاً على مكانتها ، منسجماً مع ما قبله ؛ إذ يقول :

أَكْرِمَ بَسِيدَةٍ جَاءَتْكَ شَافِعَةً لِلْمُسْتَجِيرِ بِهَا يَرْجُوكَ إِحْسَاناً

(لَيْسَ الشَّفِيعُ الَّذِي يَأْتِيكَ مُنْتَزِراً مِثْلَ الشَّفِيعِ الَّذِي يَأْتِيكَ

ومن دلائل تأثر الشعراء بالتراث وتواصلهم معه ؛ تضمينهم بعض الأمثال العربية المشهورة ، من ذلك قول الشاعر محمد النهروالي :

بَدَا عَرَقٌ فِي خَدِّهِ فَسَأَلَتْهُ إِذَا مَا تَبَدَّى قَالَ لِي وَهُوَ يَمْزَحُ

أَلَا إِنَّ مَاءَ الْوَرْدِ خَدِّي إِنَاؤُهُ (وَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ) (4)

وهو تضمين للمثل العربي المشهور (كل إناء ينضح بما فيه) (5) ولا يخفى ما لهذا التضمين من صلة وثيقة بالمعنى .

وعلى الرغم من أن الشعراء ترعرعوا في تلك البيئة الدينية في المدينتين الطاهرتين ، فإننا لم نشهد ميلاً لديهم إلى الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والارتواء من معينهما الصافي . ولا يعني ذلك أن الشعراء أعرضوا عن ذلك إعراضاً تاماً ، بل المقصود أننا لا نكاد نجد إلا شواهد معدودة عند نفر منهم ، على نحو قول الشاعر

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص 329 .

(2) الأغاني ، الأصفهاني 287/21 .

(3) ديوان أحمد العليف ، ورقة 46/أ .

(4) السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 385/أ .

(5) تمثال الأمثال ، العبدري 522/2 ، وقد جاء هذا المثل في : المستقصى في أمثال العرب ، الزمخشري 224/2 ، هكذا : كل إناء يترشح بما فيه .

الشریف علی بن حسن بن عجلان :

وَقَدْ جَا فِي كِتَابِ اللَّهِ صِدْقًا بِقَوْلٍ عَزَّ قَائِلُهُ الْحَمِيدَا

تَرَى الْحَسَنَاتِ نَجْزِيَهَا بِخَيْرٍ (وبالسيئات سيئات ستؤدى)

وَوَاعَدَ أَنْ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا فَلَا عِزَّ يَدُومُ وَلَا سُعُودًا (1)

فالفكرة في البيت الثاني من قول الباري – جل شأنه - [مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ] (2) . أما صدر البيت الثالث فمن قوله تعالى : [سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا] (3) .

وللاقتباس بُعده الفني ، حيث يضع أيدينا على مصدر مهم من مصادر ثقافة الشاعر ، وفيه إثراء للأفكار إن اعتنى الشاعر به فاقتبس ما يتواءم مع الفكرة المسوقة ، فهذا المعنى القرآني الذي ساقه الشریف علي بن حسن بن عجلان بتلك الصورة الجيدة في البيت الثالث ، أتى به الشاعر الشریف إبراهيم بن حسن بن عجلان عقب الغزل فأفقدته ذلك الإيحاء الجميل ، حين قال :

يَا قَتِيلَ الْحُبِّ صَبْرًا إِنَّ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا (4)

ومن الشعراء من استقى المعنى من الحديث النبوي الشريف ، كعبدالعزیز بن فهد الذي جعل منه منهلاً يغترف من سلسبيله العذب للتأثير في القلوب ، حيث وظفه في سبيل الموعظة قائلاً :

الرَّاحِمُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ مَنْ فِي السَّمَاءِ كَذَا عَنْ سَيِّدِ

وهو من قول الرسول ﷺ : «الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (6) .

ومن التوظيف الجيد لمعنى الحديث النبوي في سبيل النصيح قول الشاعر عبدالعزیز بن علي الزمزمي :

(1) الضوء اللامع ، السخاوي 211/5 . وهكذا وردت قافية الأبيات في المصدر ، وعجز البيت الثاني ورد في المصدر هكذا : وبالسِّيَاسِيَّاتِ سَتُورَا .

(2) الأنعام ، الآية : 160 .

(3) الطلاق ، من الآية : 7 .

(4) غاية المرام ، عبدالعزیز بن فهد 474/2 .

(5) الكواكب السائرة ، الغزي 239/1 .

(6) جامع الترمذي ، ص 448 .

تَمَسَّكَ بِالْحَيَاءِ فَلَيْسَ شَيْءٌ يَصُدُّ عَنِ الْهَوَى إِلَّا الْحَيَاءُ
فَمِمَّا أَدْرَكَتْهُ النَّاسُ مِمَّا حَكَاهُ فِي الْقَدِيمِ الْأَنْبِيَاءِ
حَدِيثٌ جَاءَ مَعْنَاهُ إِذَا لَمْ تَكُنْ تَسْتَحْيِ فافْعَلْ مَا تَشَاءُ (1)

حيث أخذ الفكرة من قول الرسول ع : «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى ، إذا لم تستح فاصنع ما شئت» (2) .

- 5 -

وقد شاعت المعارضات في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين — وهي لون من ألوان تأثر الشعراء — حيث أعجب شعراء البلدتين الكريمتين ببعض القصائد والمقطوعات ؛ فنظموا على منوالها وزناً وقافية ومعنى . والشعراء المعارضون إما من العصور السابقة أو من المعاصرين للشعراء . وقد "جرت العادة على أن يكون الشاعر المحتذى على جانب كبير من الإجابة وحظ من المنزلة والريادة في فنه" (3) كأبي تمام والمتنبي اللذين أثرا في شعراء مكة والمدينة أكثر من غيرهما من الشعراء ، حتى إن قصيدة أبي تمام في رثاء الطوسي قد اعتورها شاعران يقعان في الصدر من شعراء مكة والمدينة ، هما أحمد العليف وعبدالرحمن باكثير .

يقول أبو تمام في بداية قصيدته :

كَذَا فَلْيَجَلِّ الْخَطْبُ وَلْيَقْدَحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاوَهَا عَذْرُ

تُؤَفِّيتِ الْأَمَالَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ

ويقول العليف في بداية معارضته التي يرثي بها عبدالكريم

السمهودي :

نَعَمْ فَلْيَجَلِّ الْخَطْبُ أَوْ يَرْحَلْ فَسَيَانَ عِنْدِي بَعْدَكَ الْعُرْفُ وَالنَّكْرُ

طَوَيْتُ بِكَ الْأَمَالَ عَنْ كُلِّ جَانِبٍ وَمَاذَا عَسَى فِي غَيْرِكَ الطِّيُّ

كما يقول باكثير في بداية قصيدته في رثاء الشريف أحمد بن أبي

(1) ديوان الزمزمي ، ورقة 105/أ .

(2) صحيح البخاري 100/7 .

(3) المعارضات في الشعر العربي ، ابن حسين ، ص 25.

(4) ديوان أبي تمام 79/4 ، 80.

(5) ديوان أحمد العليف ، ورقة 82/أ.

نمي :

تَلَقَّ الْقَضَا مِمَّنْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ وَأَنْتَ بِهِ رَاضٍ وَجِلْبَابُكَ الصَّبْرُ
وَكُنْ عِنْدَمَا تَجْرِي الْمَقَادِيرُ لَابِساً لَهَا ثَوْبَ تَسْلِيمٍ فِي طِيَّهَا الْأَجْرُ⁽¹⁾

وواضح أن الشعراء متفقون في الوزن والقافية والغرض ؛ فالقصائد الثلاث من البحر الطويل ، رويها الراء ، والقافية فيها مطلقة ، وهي في القصائد الثلاث من المتواتر . كما أن القصائد تتحد في الغرض ، وهو الرثاء.

ويختلف باكثر عنهما في البداية ؛ حيث لم يتابع أبا تمام الذي بدأ قصيدته وكأن حديثاً سابقاً مضى قبله . ومثل هذه البداية تدل "على ما كان يصطرع في نفس أبي تمام من معانٍ وصور تتثال عليه ؛ ويعقلها تفكيره عن الظهور"⁽²⁾ .

وإذا كان العليّ قد سار على نهج أبي تمام في مطلعته الذي لا يشعر ببداية القصيدة ؛ فإن باكثر قد أحسن في مطلع قصيدته الموحى ببدايتها وغرضها ، مع جودة لفظه ومعناه . ولا يضيره الضرورة البادية في صدره ، وهي قصر الممدود (القضاء) ؛ لأنها من الضرائر اليسيرة كما ستأتي الإشارة إلى مثل ذلك⁽³⁾ .

ويكاد العليّ وباكثر يتفقان مع أبي تمام في كثير من المعاني التي تناولها . يقول العليّ من قصيدته :

أَلَا إِنَّ نَفْساً لَمْ تَمُتْ فِيكَ حَسْرَةً
وَعَيْنَا عَلَى فَقْدِكَ لَمْ يَجْرِ دَمْعُهَا
... عَجِبْتُ لِقَبْرِ صَارَ فِيهِ مُغَيَّباً
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فَرْقَةً بَعْدَ فَرْقَةٍ
... أَبْعَدَ كَرِيمِ الدِّينِ تَبَقَّى كَرِيمَةً
عَلَى صَبْرَهَا فِي الْكَرْبِ لَيْسَ لَهَا
فَلَا بَرَحَتْ تَجْرِي بِهَا أَدْمُعُ حُمْرُ
وَكَيْفَ يَطِيبُ الْبَرُّ فِي الْقَبْرِ
إِذَا ذُكِرَتْ يَنْهَدُ مِنْ هَوْلِهَا الصَّخْرُ
مَعَ الدَّهْرِ لَا وَاللَّهِ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ⁽⁴⁾

ويقول باكثر من قصيدته :

وَمُدَّ قَدَحَ الدَّهْرِ الْمَعَالِي بِرُزْنِهِ
فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاوَهَا عُدْرُ

(1) ديوان عبدالرحمن باكثر ، ورقة 20/أ.

(2) الفن والصناعة في مذهب أبي تمام ، الربدوي ، ص187.

(3) سيأتي الحديث عن ذلك عند تناول المطلع في مبحث بناء القصيدة.

(4) ديوان أحمد العليّ ، ورقة 82/ب.

بَكَاهُ الْعُلَا وَالْمَجْدُ وَالْحِلْمُ وَالنَّدَى
... وَكَفَّاهُ كَفُّ الْعُلَا بِبَنَانِهِ
وَأَكْفَانُهُ الْبَيْضُ الشَّرِيفَةُ مَا أَتَى
وَلَا قَيْدَ رُمَحٍ فِي السَّمَاءِ وَبُقْعَةٍ
عَجِبْتُ لِقَبْرِ قَدْ حَوَاهُ وَكَانَ مِنْ

ومن قصيدة أبي تمام قوله :

تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى
... أَمِنْ بَعْدِ طَيِّ الْحَادِثَاتِ مُحَمَّداً
... كَذَلِكَ مَا نَنَفَكَ نَفَقِدُ هَالِكاً
... وَكَيْفَ احْتِمَالِي لِلْسَّحَابِ صَنِيعَةٍ
مَضَى طَاهِرَ الْأَثْوَابِ لَمْ تَبْقَ رَوْضَةٌ
ثَوَى فِي الثَّرَى مَنْ كَانَ يَحْيَا بِهِ الثَّرَى

وَيَغْمُرُ صَرْفَ الدَّهْرِ نَائِلُهُ

والقصائد الثلاث تلتقي في الموضوع . وعلى الرغم من أن الشعراء الثلاثة تحدثوا عن المراثيين وآثار فقدهم ، فإن باكتير قد أطنب في أبيات العزاء والتأبين ، كما أنه في تأبينه قد بالغ في بعض الأبيات . وباكتير كالعفيف متأثر بالقصيدة المعارضة ، لكنه لم يقف عند المعاني التي تناولها أبو تمام ، بل أطلال النفس حتى بلغت قصيدته (76 بيتاً) ، والقصيدة المعارضة (30 بيتاً) ، أما قصيدة العفيف فتقع في (31 بيتاً).

ولا ريب أن الطول فحسب ليس مقياس جودة ، لكنه في قصيدة باكتير شاهد على إضافته ، وهي إضافة جيدة (3) لولا بعض الأبيات التي بالغ فيها الشاعر ، مثل قوله عن آثار فقد المرثي :

مُصَابٌ أَزَالَ الرَّاسِيَّاتِ وَهَوُلُهُ أَرَاعَ فَمَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ الْحَشْرُ
وَقَدْ شَابَتِ الْوُلْدَانُ وَالنَّاسُ قَدْ عَدَوْا سَكَرَى لِمَا لَاقَوْا وَلَيْسَ بِهِمْ سُكْرُ

(1) ديوان عبدالرحمن باكتير ، ورقة 21/ب ، 22/أ.

(2) ديوان أبي تمام 81/4 ، 83 ، 84.

(3) انظر القصيدة في ديوانه ، ورقة 20/أ – 22/ب.

وَكَادَتْ مَصَابِيحُ الدُّجْنَةِ لَمْ تُضِئْ وَلَا لَيْلُهَا يَسْرِي وَلَمْ يَطْلُعِ الْفَجْرُ
... وَقَدْ أَظْلَمَتْ أَرْضُ الْحِجَازِ لِفَقْدِهِ وَلَمْ يَخُلْ مِنْ ذَاكَ الشَّامُ وَلَا مِصْرُ
وَقَدْ لَبَسَ الْبَيْتُ الشَّرِيفُ لِمَوْتِهِ حَدَاداً وَنَاحَ الرُّكْنُ وَانْتَحَبَ

وعارض محمد بن أحمد النهروالي ابن خفاجة في بائيته المشهورة⁽¹⁾ التي استهلها بقوله :

بِعَيْشِكَ هَلْ تَدْرِي أَهْوَجُ الْجَنَابِ تَخُبُّ بِرَحْلِي أَمْ ظُهُورُ النَّجَابِ
فَمَا لُحْتُ فِي أَوْلَى الْمَشَارِقِ فَأَشْرَقْتُ حَتَّى جُبْتُ أُخْرَى الْمَغَارِبِ
وَحِيداً تَهَادَانِي الْفَيَافِي فَأَجْتَلِي وَجُوهَ الْمَنَآيَا فِي قِنَاعِ الْغِيَاهِبِ
وَلَا جَارَ إِلَّا مِنْ حُسَامٍ مُصَمِّمٍ وَلَا دَارَ إِلَّا فِي قَتُودِ الرِّكَائِبِ
وَلَا أَنَسَ إِلَّا أَنْ أَضَاحِكَ سَاعَةً تَغُورَ الْأَمَانِي فِي وَجُوهِ الْمَطَالِبِ⁽²⁾

يقول النهروالي في بداية قصيدته :

بِسَيْفِ الْحَجَى عِنْدَ اهْتِزَازِ النَّوَابِ تَقَلَّدْتُ فَاسْتَعْنَيْتُ عَنْ كُلِّ قَاضِبِ
وَجَرَدْتُ مِنْ رَأْسِي الشَّدِيدِ عَزَائماً أَقْلُ بِهَا حَدَّ السُّيُوفِ الْقَوَاضِبِ
وَلِي هِمَّةٌ أَسْمُو بِصَارِمِ عَزْمِهَا إِذَا السَّيْفُ قَدْ أَعْيَا صُدُورَ الْكَتَابِ
وَمَا فَاتَنِي فَضْلٌ أَرَدْتُ اقْتِنَاءَهُ وَمَا غَرَبَتْ عَنِّي صِعَابُ الْمَطَالِبِ
وَكَمْ خَطَبَ الْعَلْيَاءَ غَيْرِي وَلَمْ يَنْلُ وَنِلْتُ لِأَنِّي كُنْتُ أَكْرَمَ خَاطِبِ
... وَمَا النَّاسُ إِلَّا حَاسِدٌ وَمُعَانِدٌ وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا رَاجِعٌ فِي الْمَوَاهِبِ⁽³⁾

والقصيدتان من البحر الطويل ، قافيتهما مطلقة من المتدارك والروئي في القصيدتين الباء . والتأمل في الحياة ظاهر في أبيات الشاعرين ؛ فقصيدة ابن خفاجة غرضها التذكر والاعتبار من الحياة على الرغم مما تنطق به أبياتها من رحلة ووصف للجبل . ومعاني ابن خفاجة عميقة موحية يبدو عليها الحزن ، ويتضح سموها ؛ حيث حفلت بالإيمان بالله ، فالبشر فانون والبقاء لله وحده.

(1) المصدر نفسه ، ورقة 21/أ.

(2) ديوان ابن خفاجة ، ص 215.

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص 499.

وعلى الرغم من سمو الأفكار التي تناولها النهروالي، فإنه في تجربته لم يقترب من عمق ابن خفاجة الواضح في هذه القصيدة ؛ فقصيدة النهروالي (17بيتاً) ، وقصيدة ابن خفاجة في الرواية التي بين أيدينا (26بيتاً) حوت تعاطفاً مع الجبل حين صوره إنساناً حياً يحس ويجاوبه . وقد فقدت قصيدة النهروالي تلك الصور الجيدة التي حفلت بها قصيدة ابن خفاجة ومابداً فيها من تشخيص ، حين نقل الجبل من عالم الجماد إلى عالم الحس والشعور ، وجعله صورة حية متحركة ؛ فهو شخص يأنس إلى الشاعر فيفضي إليه بأسراره :

أَصَحْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ أَخْرَسٌ صَامِتٌ فَحَدَّثَنِي لَيْلُ السَّرَى بِالْعَجَائِبِ
وَقَالَ أَلَا كَمْ كُنْتُ مَلْجَأً فَاتِكِ وَمَوْطِنٌ أَوَاهٍ تَبْتَلُ تَائِبِ
وَكَمْ مَرَبِّي مِنْ مُدْلَجٍ وَمَوْوَبٍ وَقَالَ بَظْلِي مِنْ مَطْيٍ وَرَاكِبِ (1)

وظهر في أبيات النهروالي اعتداده بنفسه ، وبعض الحكم المستوحاة من أفكار ابن خفاجة مثل قوله :

فَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مُقْبِلٌ مَعَ سَاعَةٍ وَلَا الْعُمْرُ مَعَ طَوْلِ الْمَدَى غَيْرِ
حيث نجد فيه أثراً من قول ابن خفاجة :
بَلِيلٍ إِذَا مَا قَلْتُ قَدْ بَادَ فَاَنْقَضَى تَكْشَفَ عَنْ وَعْدٍ مِنَ الظَّنِّ (2)

وكقول النهروالي :

وَمَا شَادَ بُنْيَانَ الْعَلَا مُتَهَوِّرٌ وَلَا سَادَ مَنْ لَمْ يَفْتَكِرْ فِي
إذ نظر فيه إلى قول ابن خفاجة :

وَقَوْرٌ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَاةِ كَأَنَّهُ طَوَالَ اللَّيَالِي مُطَرِّقٌ فِي الْعَوَاقِبِ (5)

ومن معارضات شعراء مكة والمدينة للقدماء معارضة الشاعر أحمد العليف قصيدة المتنبي في سيف الدولة – البالغة (28 بيتاً) – التي بدأها بقوله :

- (1) ديوان ابن خفاجة ، ص216.
- (2) النور السافر ، العيدروس ، ص499.
- (3) ديوان ابن خفاجة ، ص215.
- (4) النور السافر ، العيدروس ، ص499.
- (5) ديوان ابن خفاجة ، ص216.

أَعْلَى الْمَمَالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى الْأَسَلِ وَالطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيهِنَّ كَالْقَبْلِ (1)

حيث عارضه العليف بقصيدة مدح بها الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان - عدتها (148 بيتاً) - قال في مطلعها :
الْعِزُّ تَحْتَ ظِلَالِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلُ يَوْمَ الطَّعَانِ وَسَبْقِ السَّيْفِ
وقد تحدث الشاعران عن انتصار الممدوحين . يقول العليف ،
متناولاً انتصار ممدوحه :

دَبَّتْ إِلَيْهِمْ مَنَائِيَاهُمْ بِصَدْمَتِهِ دَيْبَبَ كَأْسِ الطَّلَا فِي الشَّارِبِ
نَامُوا وَمَا نِمْتَ عَنْ وَثْرِ تَحَاوُلِهِ وَالْقَوْمُ فِي غَفْلَةٍ يَزْعَوْنَ
مَا زِلْتَ تَرْكُضُ فِي مِضْمَارِ دَلِيلِكَ النَّصْرُ فِي حِلٍّ وَمُرْتَحِلِ (3)

وهو متأثر بالمتنبي ، حيث يقول عن انتصار ممدوحه :
وَكَمْ رِجَالٍ بِلَا أَرْضٍ لِكَثْرَتِهِمْ تَرَكْتَ جَمْعَهُمْ أَرْضاً بِلا رَجُلٍ
مَا زَالَ طَرْفُكَ يَجْرِي فِي دِمَائِهِمْ حَتَّى مَشَى بِكَ مَشَى الشَّارِبِ (4)

وعلى الرغم من تأثر العليف بالمتنبي ، فإنه قد خرج من عباءته في هذه القصيدة ؛ فأطنب في حماسته وفي حديثه عن ممدوحه . وأبيات العليف التي انفك فيها من أثر المتنبي كثيرة ، فقصيدته طويلة ، وحسبنا أن نعرف أن أبيات الحماسة فيها فقط ضعف أبيات المتنبي جميعاً . كما أن العليف قد تحدث عن الممدوح وفصل الكلام على الانتصار ووصف عظمة الجيش وصفاً لا تجده لدى المتنبي (5) . ومن حديث العليف عن ممدوحه قوله :

تَفَرَّعَتْ عَنْ صَمِيمِ الْمَجْدِ دَوْحَتُهُ مِنْ مَعْدِنِ الْوَحْيِ مَثْوَى خَاتَمِ
مَوْصُولَةٍ بِرَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ أَكْرَمُ بِفَرْعِ بَذَاكَ الْأَصْلِ مُتَّصِلُ
مُقَابِلٍ بَيْنَ فَرْعِي دَوْحَةٍ شَرُفَتْ بَيْنَ الْبُتُولِ وَبَيْنَ الطَّالِبِي عَلِيٍّ (6)

- (1) ديوان أبي الطيب المتنبي 34/3.
- (2) سمط النجوم العوالي ، العصامي 319/4.
- (3) المصدر نفسه 322/4.
- (4) ديوان أبي الطيب المتنبي 41/3.
- (5) انظر : الفصل الثالث (مديح الأمراء الأشراف).
- (6) سمط النجوم العوالي ، العصامي 320/4.

-2-

ومن الشعراء – في مكة والمدينة – من عارض بعض شعراء الشام ومصر في الفترة القريبة من عهدهم ، كالشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي الذي عارض قصيدة الخطيب بن داريا – شاعر دمشق في عصره (810-740هـ) ، تلك القصيدة التي يقول في مطلعها :

هَاتِ اسْقِي الصَّهْبَاءَ يَا مُؤْنِسِي قَدْ فَاحَ نَشْرُ الْوَرْدِ وَالنَّرْجِسِ (1)

حيث يقول الزمزمي معارضاً :

لِيَحْتَسِ الصَّهْبَاءَ مَنْ يَحْتَسِي حَسْبِي لَمَى مَرَشَفِكَ الْأَعْسِ (2)

والقصيدتان من البحر السريع والقافية فيهما مطلقة ، من المتدارك ، رويها السنين . تتكون قصيدة ابن داريا من (15 بيتاً) تناول فيها الخمرة والغزل ، أما قصيدة الزمزمي فعدتها (62 بيتاً) بدأها بحديث الغزل ، وتسفيه شاربي الخمر ، لينتقل إلى ممدوحه الشريف أبي نمي في البيت الثاني والعشرين.

فالزمزمي عارض ابن داريا ، مستوحياً شيئاً من أفكار مقدمته ، لينطلق بعد ذلك إلى المديح ، مفصلاً الحديث عن ممدوحه. وبعيداً عن المعاني الخمرية التي عرضها ابن داريا في قصيدته ؛ فإنه فاق الزمزمي في تصويره ، إذ لم يبلغ شاعرنا شأوه في ذلك . يقول ابن داريا في بداية قصيدته بعد المطلع :

وَالْوَقْتُ قَدْ رَاقَ وَرَقَّ الْهَوَى	وَجَادَ بِالْوَصْلِ الزَّمَانُ الْمُسِي
وَالرَّوْضُ قَدْ وَافَى بِأَزْهَارِهِ	يَتِيَهُ فِي زَاهٍ مِنَ الْمَلْبَسِ
كَأَنَّمَا الْأَغْصَانُ غَيَّدُ وَقَدْ	لَيْسَنَ أَلْوَاناً مِنَ الْأَطْلَسِ
... كَأَنَّمَا الْوَجْنَاتُ نَارٌ ذَكَتْ	لَكِنْ بَغَيْرِ الْعَيْنِ لَمْ تُقْبَسِ
فَعَاظِنِيهَا غَيْرَ مَمْرُوجَةٍ	رَاحاً بِهَا يُجْلَى صَدَا الْأَنْفَسِ
وَأِنْ يَكُنْ لَأَبَدٍ مِنْ مَرْجَهَا	فَمِنْ رَضَابِ الشَّادِنِ الْأَعْسِ (3)

ومن مقدمة الزمزمي بعد المطلع :

(1) نزهة الجليس ، الموسوي 290/1.

(2) المصدر نفسه 287/1.

(3) المصدر السابق 290/1.

عَلَيَّ أَطْلِقْ مِنْهُ كَأْسِي وَلَا تَبْخُلْ بِحَبْسِ الْكَأْسِ يَا مُؤْنِسِي
 فِي طَرْفِكَ الْوَسْنَانِ وَالْخَدَّ مَا يَهْزَأُ بِالْوَرْدِ وَالْتِرْجَسِ
 ... فَعَاظِنِي مِنْ فَيْكِ مِسْكِيَّةَ يَفْوُحُ مِنْهَا الطَّيْبُ فِي الْمَغْطَسِ
 وَاجِلُ صَدَا نَفْسِي بِأَنْفَاسِهَا فَإِنَّهَا تَجَلُّو صَدَا الْأَنْفَسِ
 ... تِلْكَ سُلَافِي لَسْتُ مِنْ غَيْرِهَا أَرْتَشِفُ الرَّاحَ وَلَا أَحْتَسِي
 مَالِي وَلِلْخَمْرِ وَشُرَّابِهَا إِيَّاكَ يَا نَفْسُ بِهِمْ تَأْنِسِي (1)

ومن ذلك معارضة الشاعر محمد النهروالي الشاعر المصري ابن مطروح (592-649هـ) في قصيدته التي مطلعها :

خُذُوا قَوْدِي مِنْ أَسِيرِ الْكَلِّ فَوَاعَجَبًا لِأَسِيرِ قَتْلِ

حيث بدأ النهروالي معارضته قائلاً :

أَلَا حَلَّلَ اللَّهُ سَيِّفَ الْمُقْلِ فَكَمْ ذَا أَبَادَ وَكَمْ ذَا قَتَلَ

وقد اتفقت القصيدتان وزناً وقافيةً ومعنىً ، كما تساوتا في الطول ؛ حيث بلغت كل واحدة منهما (16 بيتاً).

والنهروالي يتابع ابن مطروح في غزله الصريح وما كشفه من لحظات اللقاء بمحبوبه ، غير متورع عن التصريح بما يكدر الذوق السليم (2).

-3-

وهناك معارضات بين شعراء مكة والمدينة – في القرنين التاسع والعاشر الهجريين – أنفسهم ، فقد نظم الشاعر أحمد بن علي البسكري قصيدة من (25 بيتاً) قال في بدئها :

تَبَسَّمَ فَاتَنِي يَوْمًا بِبُرْقَةٍ فَذَابَتْ مُهْجَتِي وَارْدَدْتُ عِشْقَهُ

وَحَيَّرَنِي وَصَيَّرَنِي ذَلِيلًا وَأَشْعَلَ فِي الْفَوَادِ وَقِيدَ حُرْقَهُ (3)

وهي معارضة لقصيدة الشاعر محمد بن عبداللطيف الجامي (4)

(1) المصدر نفسه 287/1 ، 288.

(2) انظر القصيدتين في : إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 556/1-558.

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص570.

(4) هو محمد بن الشيخ عبداللطيف الجامي المكي ، العالم ، الفاضل . ولد بمكة المشرفة ونشأ بها ، وقرأ على يد والده وغيره من مشايخ مكة ، حتى برع وصار يعد من =

المكونة من (11 بيتاً) مدح بها عبدالقادر العيدروس (صاحب كتاب
النور السافر) بدأها بقوله :

لِمَنْ حُلَّ الْكَرَامَةِ مُسْتَحَقَّةٌ لِمَنْ أَدَّى لِبَاسِ الْفَقْرِ حَقَّهُ
... تَفَقَّهَ فِي الْعُلُومِ صَغِيرَ سِنٍ لَقَدْ نَالَ السَّعَادَةَ مَنْ تَفَقَّهَ (1)

وعلى الرغم من قصر قصيدة الجامي ، فإنها لم تخل من أحد عيوب
القافية ؛ حيث يلحظ المتلقي الإيطاء من خلال تكرار كلمة القافية (خِرَقَه)
بمعناها في البيتين العاشر والحادي عشر.

والبسكري قدّم لمعارضته بحديث الغزل كما تبين في البيتين السابقين
؛ حيث كشف عن اشتعال قلبه وازدياد عشقه لمحبيه ، ثم انتقل إلى
الممدوح عارضاً عليه شكواه من صدور فاتنه ، إذ يقول :

فَلَمَّا أَنْ تَمَادَى فِي صُدُودِي وَأَدْمَى مُقْلَتِي وَالْعَظْمَ دَقَّهُ
وَصِرْتُ مَوْلَهَا صَباً كَنِيباً حَزِينَ الْقَلْبِ مِنْ بُعْدِ وَشَقِّهِ
ثَبَّيْتُ عِنَانَ شَكْوَائِي إِلَى مَنْ حَبَاهُ اللَّهُ مَغْرِبَهُ وَشَرَقَهُ (2)

ثم بدأ يتحدث عن الممدوح منذ البيت العاشر ، محسناً التخلص إلى
غرضه . وعلى الرغم من أنه أضاف هذه المقدمة الغزلية المكونة من
تسعة أبيات ، فإنه في بيتين منها قد أخذ لفظة القافية من القصيدة
المعارضة ، كما أن أحدهما متأثر بها من حيث المعنى ، حيث يقول فيه
البسكري – وهو البيت الثالث في المقدمة - :

فَقُلْتُ لَهُ تَرَفَّقْ بِي وَسِرْبِي طَرِيقَ اللَّاءِ قَدْ أَضْحَوْا أَرْقَهُ (3)
إذ نظر فيه إلى قول الجامي :

لِمَا قَدْ نَالَ مِنْ خُلُقٍ وَحِلْمٍ لَهُ الْأَخْرَارُ قَدْ أَضَحَتْ أَرْقَهُ (4)

ويقول البسكري في البيت الآخر – وهو السادس في مقدمته الغزلية

الأعيان . له في الأدب قدم راسخة ؛ حيث أنتج نظماً ونثراً يعدان من جيد ما أنتجه
معاصروه . توفي في أول القرن الحادي عشر الهجري .
- المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص416 .

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص569.

(2) المصدر نفسه ، ص570.

(3) المصدر السابق ، ص570.

(4) المصدر نفسه ، ص570.

- :

يُؤَاصِلُ صَدَّهُ فِي كُلِّ حِينٍ وَيَمْنَعُ رِفْدَهُ وَكَذَلِكَ نُطْقُهُ (1)

ولفظه القافية (نطقه) إعادة لقافية البيت الثاني من قصيدة الجامي ، وليس ذلك فحسب ؛ بل إن ستة أبيات غير هذا مأخوذة قوافيها من القصيدة المعارضة . كما أن البسكري في معارضته كان عالمة على الجامي ؛ إذ استقى منه بعض معانيه دون أن يضيف شيئاً ، يقول البسكري عن الممدوح :

هُوَ الْحَبْرُ الْإِمَامُ وَنَجْلُ شَيْخٍ وَمَنْ نَالَ الْعُلُومَ بِلَا مَشَقَّةٍ (2)

وهو من قول الجامي :

حَبَاهُ اللَّهُ عِلْمًا مِنْ لَدُنْهُ بِلَا كَدٍّ أَتَاهُ وَلَا مَشَقَّةٍ (3)

ومن ذلك قول البسكري :

بِهِ أَبْدَى كَرَامَاتٍ عِظَامٍ وَسَطَرَهَا بِمَعْرِفَةٍ وَدِقَّةٍ (4)

وقد نظر فيه إلى قول الجامي :

فَيَاكَ عَالِمٍ عَالِمٍ إِمَامٍ لَهُ فِي الْعِلْمِ تَحْقِيقٌ وَدِقَّةٍ (5)

ولكنه لم يبلغ شأوه . ومثل ذلك قوله :

فَلَا زَالَتْ دَرَارِيهُهُ تَوَالِي عَلَيْنَا سَرْمَدًا مَا نَالَ أَفَقَّةٍ (6)

إذ أخذه من قول الجامي :

سَلِيلُ الْعَيْدَرُوسِ أَبَا وَأَمَّا وَمِنْ بَدْرِ السُّعُودِ أَنْارَ أَفَقَّةٍ (7)

بل إن البسكري قد ضَمَّنَ شطراً من القصيدة المعارضة ، حيث قال

:

لِذَا قَدْ قَالَ رَبُّ الْفَضْلِ قَبْلِي (أَبَانَ بِهِ لَدَى الْفَضْلَاءِ حِذْقَهُ) (8)

(1) المصدر نفسه ، ص570.

(2) المصدر نفسه ، ص570.

(3) المصدر نفسه ، ص569.

(4) المصدر نفسه ، ص571 .

(5) المصدر السابق ، ص569.

(6) المصدر نفسه ، ص571.

(7) المصدر نفسه ، ص569.

(8) المصدر نفسه ، ص571.

وبصرف النظر عن هذا التضمين في الشطر الثاني ، فإن البسكري قد صاغ الشطر الأول صياغة رديئة ؛ فهي أقرب إلى النثر منها إلى الشعر.

ولم تكن المعارضات لدى شعراء مكة والمدينة مقصورة على القصائد ؛ إذ وجد بعض المقطوعات التي قد ينظمها أحد الشعراء ، فتلقى صدّي لدى جماعة من شعراء بلده ، كالمقطوعة التي نظمها الشريف الشاعر حسن بن عجلان ، المكونة من أربعة أبيات بدأها بقوله :

بِهَذَا الْفُتُورِ وَهَذَا الْهَيْفِ يَهُونُ عَلَى عَاشِقِكَ التَّلَفُ
أَسَرَّتِ الْقُلُوبَ بِهَذَا الْجَمَالِ لَ وَأَوْقَعَتْهَا فِي الْأَسَى وَالْأَسَفِ⁽¹⁾

وقد تناولها بعض الشعراء معارضين ، منهم محمد بن موسى الذي عارضها بقصيدة عدتها عشرة أبيات ، قال في بدايتها :

لِمَا أَبْدَعَ اللَّهُ مِنْ ذَا التَّرَفِ تَلَا فُ مُحِبِّكَ قَبْلَ التَّلَفِ
وَمَاضِمَةُ الْعَطْفِ مِنْ لَيْنِهِ عَسَى عَطْفُهُ لِي فَيَمُنَّ عَطْفُ⁽²⁾

كما عارضها الشاعر محمد بن عبد الوهاب الياضي بقوله :
بِمَا فِيكَ يَا خَلٌّ مِنْ ذَا الْهَيْفِ وَمَعْلُولُ تُغْرِكَ لَمْ يُرْتَشَفِ
تَرَفَقَ بِي يَا بَدِيعَ الْجَمَالِ وَرَاقِبَ بِي مَنْ عَلَيْهِ الْحِلْفُ⁽³⁾

وقد تم تناول مثل هذا في شعر الإخوانيات بوصفه نوعاً من أنواع المطارحات الأدبية التي كانت تجري بين الشعراء.

هذه بعض القصائد والمقطوعات التي نظمها شعراء مكة والمدينة – في القرنين التاسع والعاشر الهجريين – معارضة لسابقيهم وللمعاصرين لهم⁽⁴⁾ . اتضح من خلالها أن الشعراء لم يكونوا في كلّ الأحيان عالة على الشعراء المعارضين ؛ إذ إن من الشعراء من أضافوا ما يُشعر المتلقي وكأن دماً جديداً يسري في النص المعارض ، على الرغم من استيحاء المعنى من

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 355/2.

(2) المصدر السابق 355/2.

(3) المصدر نفسه 357/2.

(4) انظر أمثلة أخرى في : غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 160/3 ، 161 ؛ النور السافر ، العيدروس ، ص 217 ؛ سمط النجوم العوالي ، العصامي 342/4-346 ، 374 ؛ إتحاف فضلاء الزمن ، محمد الطبري 373/1-401 ؛ ريحانة الألبا ، الخفاجي 386/1 ؛ منائح الكرم ، السنجاري 144/3-146.

النص المعارض.

وعلى الرغم من أن المعارضة محاكاة لشاعر آخر ، فإن ذلك لا يمكن أن يعد تقليداً محضاً على كل حال ؛ لأن الشاعر قد يكون مدفوعاً إلى المعارضة من باب المشاركة الاجتماعية في أمر ما ، فيعتمد إلى محاكاة قصيدة معينة ، تناولت ذلك الأمر ، فأثارت نفسه الشاعرة التي لا شك أنها ستتأثر بموسيقاها وبموضوعها ، و"الشاعر الموهوب لا يتصنع القول حين يعارض شاعراً ، وإنما تتفجر المعاني من نبع القلب... فمن العسير أن نتصور الشاعر مستعبداً لمن يعارضه ، وإن تأثر خطواته في الوزن والقافية والموضوع . والمعارضة في صميمها هي تلاقي روحين وائتلاف قلوبين ، أو صدام نفسيين واقتتال عبقريتين" (1) .

(1) الموزانة بين الشعراء ، زكي مبارك ، ص 373 ، 374.

والخلاصة أن معاني الشعر قد اتسمت بالوضوح والعمق ، كما غلب
السمو على كثير من الأفكار التي طرقها الشعراء . وعلى الرغم من أن
الصدق سمة غالبية على الأفكار ، فإنها لم تخل من الغلو والتكرار في
بعض الأحيان . وقد اتضح من خلال الحديث عن المعاني تأثر الشعراء
بأسلافهم ، وعلاقتهم الوطيدة بالتراث الشعري العربي .

2- بناء القصيدة :

أ- المطلع :

المطلع هو البيت الأول من القصيدة كما غلب استعماله عند النقاد القدامى والمحدثين . وعلى الرغم من أن الدارسين المحدثين لم يتعرضوا صراحة للتفريق بين مطلع القصيدة ومقدمتها ، فإن الواضح من استخدامهم أن المطلع هو البيت الأول من القصيدة وأن المقدمة هي الأبيات السابقة للموضوع (الغرض الرئيس) .

وقد حظي مطلع القصيدة بعناية القدماء ؛ لأن الشعر كما يقول ابن رشيق : "قفل أوله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره ، فإنه أول ما يقرع السمع ، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة" (1) .

والناظر في مطالع القصائد لدى شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين يلحظ حرصهم على كون البيت الأول دالاً على غرض القصيدة ؛ فالشاعر أحمد الحرازي في تهنئته للشريف بركات بن محمد بقدم ولده قد بدأ قصيدته بقوله :

لِيَهْنِكَ يَا مَلِيكَ الْعَصْرِ يَا مَنْ طَوَّلَ عِزَّهُ سَعْدُ السُّعُودِ (2)

حيث أبان الشاعر عن غرضه من خلال هذا المطلع الذي جاء مناسباً للمقام ؛ إذ إنه يهنئ أميراً جليلاً ، وهي مناسبة يليق بها هذا الإيحاء بالهناء والعز والسعد .

وإذا رثى الشاعر بدأ بما يوحي بغرضه وما ينبئ عن مشاعر ألمه ولوعته على فقد من يحب ، كقول الشاعر محمد السمرقندي في رثاء الإمام عبدالقادر الشافعي :

مَاتَ الْإِمَامُ فَعَيْشِي بَعْدَهُ كَدْرٌ وَدَمْعُ عَيْنِي لَا يَنْفَكُ يَنْحَدِرُ (3)

حيث لخص الشاعر مضمون قصيدته في هذا المطلع ، مبرزاً مقام المرثي ، كاشفاً عما آلت إليه حالة الراثي .

ومن البلاغيين من عد ذلك براعة استهلال ، يقول القزويني : "وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود ، ويسمى براعة الاستهلال" (4) .

(1) العمدة 218/1 .

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 259/3 .

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص 355 .

(4) بغية الإيضاح ، الصعيدي 151/4 .

وفي ذلك نظر ؛ إذ إن البراعة بمعناها اللغوي تعني التفوق (1) ،
وثمة مطالع تناسب الغرض لكنها لا تتسم بالبراعة ، منها قول الشاعر
عبدالعزیز الزمزمي :

هَيِّجْ أَشْجَانِي بَغَاءُ زَيْنَبٍ وَقَوْلُهَا لِأَخْتِهَا أَيْنَ أَبِي (2)

فهذا المطلع قد يفصح عن الحنين (غرض القصيدة) لكنه رديء
السبك ؛ ولذلك لا ينبغي أن يوصف بالبراعة .

والتزام الشعراء بملاءمة مطالعهم للأغراض التي أنشئت القصائد
من أجلها ليس علامة تفوق ، ولكنه معيار من معايير الجودة ، إن تضافر
مع غيره من حسن اللفظ وعذوبته ووضوح المعنى وجودته ؛ عُدَّ من
دلائل البراعة ، يقول الثعالبي: "حق المطلع الحسن والعذوبة لفظاً
والبراعة والجودة معنى ؛ لأنه أول ما يقرع الأذن ويصافح الذهن ، فإذا
كان حاله على الضد مجَّه السمع ، وزجَّه القلب ، ونَبَّتْ عنه النفس" (3) .

والمطالع التي تجمع هذه المحاسن قليلة لدى شعراء مكة والمدينة في
القرنين التاسع والعاشر الهجريين . وقد جاءت مطالع أحمد العليف
أكثرها جودة ، حيث نجد فيها روح أبي تمام والمتنبي في مطالعهما التي
أصبح أكثرها حكماً تردد وأمثالاً يستشهد بها .

وأثر المتنبي واضح في بعض مطالع العليف ، كقوله :

الْعِزُّ تَحْتَ ظِلَالِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ يَوْمَ اللَّقَاءِ وَسَبَقَ السَّيْفُ لِلْعَدْلِ (4)

إذ نظر فيه إلى قول المتنبي :

أَعْلَى الْمَمَالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى وَالطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيهِنَّ كَالْقَبْلِ (5)

وبعض مطالع العليف ينطبق عليها ما قاله ابن رشيق عن أبي تمام ،
حينما ذكر أنه كان "فخم الابتداء ، له روعة وعليه أبهة" (6) .

ومن المطالع الجيدة للعليف قوله إثر انتصار الشريف بركات بن
محمد في غزوة من غزواته :

(1) انظر : لسان العرب ، مادة (برع) .

(2) ديوان الزمزمي ، ورقة 102/ب .

(3) يتيمة الدهر 161/1 .

(4) ديوان أحمد العليف ، ورقة 35/ب .

(5) ديوان المتنبي 34/3 .

(6) العمدة 233/1 .

السَّيْفُ يُعْرِبُ عَمَّا أَعْجَمَ الْقَلَمُ فَجَوْدُ الْكَلَمِ إِنْ لَمْ يَنْجَعِ الْكَلِمُ (1)

ومن عوامل جودة هذا المطلع وضوح معناه ومناسبته لغرضه ، كما أن الشاعر أحسن اختيار مفرداته وأجاد سبك عباراته ؛ فالألفاظ جزلة تتلاءم مع غرض القصيدة ، والبيت ذو جرس رائع ؛ لما أحدثه الشاعر من تصريح (القلم – الكلم) ومجانسة بين (الكلم والكلم) فضلاً على أن قصر الألفاظ قد زاد من جمال إيقاعها .
وأفضل من ذلك إذا كان البيت الثاني مثل المطلع في الجودة ، كقول أحمد العليف :

أَقِمِّ عَلَى الْعِزِّ أَوْ قَوِّضْ عُرَى وإِقْرَعْ حَصَى الْبَيْدِ بِالْمَهْرِيةِ
وَإِنْ نَبَا بِكَ حَالٌ أَوْ جَفَا سَكَنٌ فَأُتْرِكَ هَوَاكَ وَخَلَّ الدَّارُ

وقد عد حازم القرطاجني ذلك أحسن ابتداء (3) . وأقل الشعراء حظاً في ذلك عبدالعزیز الزمزمي الذي لم يوفق في مطالعه . ورداءة المطلع لديه امتداد للضعف البين في أسلوبه ، حتى حينما يزعم اقتفاء شاعر كبير كالمتنبي لا يحسن ذلك ؛ حيث ينهج سبيله في مطلع يعد من أسوأ مطالع المتنبي ، وهو قوله في مديح شجاع الأسدي (وكان ذلك في صبا المتنبي) :

أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْرُقُ وَجَوَى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَفَّقُ (4)

إذ يقول الزمزمي متكلفاً :

أَرَقْتُ وَمَنْ يَعْتَاذُهُ الْهَمُّ يَأْرُقُ وَيَجْزَعُ مِمَّا قَدْ عَرَاهُ وَيَقْلُقُ (5)

وقد عد ابن رشيق البداية الرديئة ناتجة "من غفلة في الطبع وغلظ ، أو من استغراق في الصنعة" (6) .

وربما استدل المتلقي على الغفلة وغلظ الطبع من خلال لفظة لم يحسن الشاعر وضعها في مكانها كلفظة (الغبي) في مطلع الشاعر

(1) ديوان أحمد العليف ، ورقة 22/أ . وفي غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 283/3 جاءت لفظة (ينفع) بدلاً من (ينجع) في عجز البيت .

(2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 25/أ .

(3) انظر : منهاج البلغاء ، ص 310 .

(4) ديوان المتنبي 332/2 .

(5) ديوان الزمزمي ، ورقة 95/أ .

(6) العمدة 223/1 .

عبدالعزیز الزمزمي في رثاء الشيخ حامد الجبرتي ، حيث يقول :
أَيُّهَا الْغَافِلُ الْغَيْيُّ تَبَّهْ إِنَّ بِالنَّوْمِ يَقْظَةُ النَّاسِ أَشْبَهُ (1)

فهي لفظة مستكرهة ، قد تصرف المتلقي عن الموعظة التي أراد الشاعر إلقاءها عليه ، مستغلاً هذه المناسبة . ومما يؤخذ على الشاعر أيضاً أنه بدأ رثاءه بأسلوب إنشائي مثير ، جانحاً إلى الجزالة في موقف يتطلب الرقة . وقد يكون ذلك مناسباً لو أن الغرض هجاء أو أن القصيدة خالصة للإثارة والنصح .

ومما يحمد للشعراء في مطالعهم – فضلاً على مراعاة الغرض ووضوح المعنى – عدم اللجوء إلى الضرورة إلا نادراً ، وإذا ألفينا شيئاً من ذلك وجدناه مقبولاً ، كقصر الممدود في مثل قول الشاعر عبدالرحمن باكثير مهنئاً الشريف أبا نمي بعافية نجله :

يا واحد الدهر بلْ يا خامس الخلفاء شفاء أحمد فيه للوجود شفاء (2)

وقصر الممدود "من الضرائر اليسيرة التي لا يترتب عليها – في الغالب – اختلاف إعراب أو تغير معنى" (3) .

ومن الضرورات النادرة أيضاً التي لجأ إليها الشعراء في مطالعهم صرف ما لا ينصرف ، كقول أحمد العليف :

أَبَا شَرَفٍ أَضَحَّتْ بِوَجْهِكَ طَيِّبَةً مَنِ الْبَدْرِ أَبْهَى بَلْ مِنَ الشَّمْسِ أَشْنَى (4)

وعلى الرغم من أن للشاعر صرف ما لا ينصرف إذا اضطر ، فإنه من الأولى أن يتحاشى الوقوع في أيٍّ من الضرورات الشعرية في المطلع ؛ لأنه أول ما يقرع الأذن والبال على ما بعده (5) .

وعني شعراء مكة والمدينة بالتصريح في مطالعهم . والتصريح تقليد أدبي اهتم به القدماء وتوخاه فحول الشعراء . وقد رأى ابن سنان الخفاجي "أن التصريح يحسن في أول القصيدة ؛ ليميز بين الابتداء وغيره ، ويفهم قبل تمام البيت روي القصيدة وقافيتها" (6) .

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص 341 .

(2) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 34/أ .

(3) القول المبين في الضرورة الشعرية عند النحويين ، إبراهيم الحندود ، ص 196 .

(4) ديوان أحمد العليف ، ورقة 51/ب .

(5) وإذا كانت الضرورة الشعرية نادرة في المطلع لدى شعراء مكة والمدينة ، فإنها في ما سواه ظاهرة لا تكاد تخلو منها قصيدة ، وخاصة قصر الممدود وصرف الممنوع .

(6) سر الفصاحة ، ص 181 .

وللتصريح أثر في نفس المتلقي حين يجيء غير متكلف ، كقول الشاعر أبي السعادات الفاكهي :

قَلْبُ الْفَوَادِ وَبِالصُّدُودِ يُرَوِّعُ وَالْقَلْبُ دَابَّاً بِالْفِرَاقِ يُصَدِّعُ

إذ إن الأذن تستريح لهذا التوازن وتجانس الصوت في آخر المصراعين .

ومن المطالع ما لا يقوم بنفسه ولا يتم معناه إلا بالبيت الذي يليه ، كقول الشاعر محمد بن علي بن ظهيرة في مفتتح قصيدته التي رثى بها الشيخ عبدالقادر المالكي:

يَعِزُّ عَلَى بَيْتِ الرِّئَاسَةِ وَالْعِلْمِ وَأَهْلِ الْمَعَالِي وَالْفَضَائِلِ وَالْحِلْمِ

رَحِيلُ إِمَامٍ يُتِمُّ الْعِلْمَ بَعْدَهُ وَكَانَ لَهُ أَصْلٌ مَنِيعٌ مِنَ الْيُتِمِّ (2)

وإذا كان أغلب النقاد قد عدوا تضمين الإسناد عيباً في المعنى (3) فإنه في مفتتح أبيات القصيدة أشد ؛ إذ إن المعنى إذا جاء مكثفاً في البيت الأول دل على مقدرة الشاعر على الإيجاز . وقد رأينا في المطالع السابقة أن الشاعر قد يلخص غرض القصيدة في مطلعها ، وأن ذلك من معايير جودته .

ب- المقدمة والتخلص :

لم يلتزم شعراء مكة والمدينة بالمقدمات التي انتهجها الشعراء الجاهليون ومن تبعهم ممن اعتادوا بدء قصائدهم بالغزل التقليدي أو البكاء على الأطلال وغيرها من المقدمات التقليدية ، بل اكتفوا منها بالمقدمة الغزلية ، ومنهم من تناول ألواناً من المقدمات التي جدت لدى شعراء العصر العباسي كالشكائية من الدهر والحكمة والحماسة ووصف الطبيعة .

وقد اقتصرت المقدمات لدى شعراء مكة والمدينة – من خلال ما عثرت عليه من شعر – على قصائد المديح ، وثمة قصائد مدحية قليلة لم تصحب بمقدمات . وجاءت المقدمة الغزلية أكثر من غيرها تليها

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص386 .

(2) نيل المنى ، محمد بن فهد 317/1 .

(3) انظر : العمدة ، ابن رشيق 171/1 ؛ نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، ص209 وقد عده قدامة من عيوب انتلاف المعنى والوزن معاً ، وسماه (المبتور) ، أما ابن الأثير في (المثل السائر 236/3) فقد ذكر أنه غير معيب ، وكذلك السكاكي (انظر : سر الفصاحة ، ابن سنان ، ص179 ، الهامش) .

المقدمة الحماسية . وأكثر الشعراء تناولاً للمقدمة الغزلية عبدالرحمن باكثير يليه الشاعر أحمد العليف ، كما أن باكثير أكثر الشعراء إطالة للمقدمة ، وقد بلغت أطول مقدمة عنده (45 بيتاً) والقصيدة كلها (91 بيتاً) أي أن مقدمتها قد تساوت في عدد الأبيات مع موضوع القصيدة ، وهي أطول مقدمة في نتاج هؤلاء الشعراء (1) ، وأقصر المقدمات (5 أبيات) وهي مقدمة غزلية من قصيدة للشاعر أحمد العليف عدتها (31 بيتاً) (2).

والاتجاه السائد لدى النقاد والباحثين قديماً ومحدثين هو أن المقدمة لا تخرج عن نطاق غرض القصيدة ومضمونها من ناحية الدلالة النفسية ، فالشاعر يمدح راجياً رضا الممدوح وما يترتب على هذا الرضا ؛ ولذلك يحاول أن يشد انتباهه لسماع القصيدة والانفعال بها ، كما أن المقدمة تهيء النفوس للانفعال بمعاني القصيدة (3) . يقول ابن رشيق : "لشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب ؛ لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء ، وإن ذلك استدراج إلى ما بعده" (4) .

وهو بذلك تابع لابن قتيبة الذي ذكر أن "مقصد القصيد إنما ابتداء فيها بذكر الديار ... ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ؛ ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه ؛ لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ؛ لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر ... فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وضمامة التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكارة في المسير ؛ بدأ في المديح ... " (5) .

(1) هذه مقدمة خميرية على غير عادة الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وقد تخلص الشاعر إلى ممدوحه في البيت (46) ، حيث قال :

هَاتِيهَا لِي فَمُخْلِصِي مِنْ خَطَايَا
فِي مَعَادِي مَدْحُ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ

ذِي الْمَعَالِي أَبِي نَمِي...

- انظر القصيدة في : ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 8/ب - 11/ب .

(2) انظر القصيدة في : ديوان أحمد العليف ، ورقة 30/أ ، 30/ب .

(3) انظر : مطلع القصيدة العربية ودلالاته النفسية ، عبدالحليم حفي ، ص 50 ، 51 .

(4) العمدة 225/1 .

(5) الشعر والشعراء 74/1 ، 75 .

وإذا كانت هذه الأقوال تهدف إلى غاية واحدة هي الاتجاه إلى المخاطب ومحاولة التأثير فيه ؛ فإن ثمة آراء أخرى ترى أن المقدمة تعبر عن نفسية الشاعر حين إنشائها ، فعندما "يسيطر عليه غرض خاص يخيم عليه جو يناسب هذا الغرض ، وحينئذ يكون الغزل الذي في مفتتح القصيدة مسيطراً عليه هذا الجو ؛ فيكون فرحاً إن كانت القصيدة فرحة ، وحزناً إن كانت حزينة ، ومفتخراً إن كانت فخراً ، ومعاتباً إن كانت عتاباً..."⁽¹⁾ .

فالشاعر في مختلف الأحوال يخاطب ممدوحه بمعان أفرزتها الحالة الشعورية التي كان عليها ، سواء أكان حديثه عن وصل محبوبته أم صدودها أم هجرانها أم غير ذلك من الحالات التي لونت أفكاره ، وهو في ذلك كله حديث قريب من النفس المفطورة على إلف النساء والإصغاء إلى الحديث عنهن .

وحين نمعن الفكر في مقدمات المدائح التي أنتجها شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ نجد ملاءمتها للأغراض المسوقة لها ، نستشف ذلك من خلال حالة الشاعر النفسية التي تظهرها أبيات المقدمة ؛ إذ قد تتجلى في كثير من الأحيان نفسية الشاعر من معاني المقدمة وإيحاءاتها ، على الرغم من أننا قد لا نعرف الظروف المحيطة بالشاعر إبان النظم ، فمثلاً الشاعر أحمد العليف قد جعل من الغزل رمزاً لموقفه من الشريف بركات ومشاعره نحوه في قصيدته⁽²⁾ التي قال في مطلعها :

حَرَكَتْ يَوْمَ آذَنْتُ بِالْفِرَاقِ سَاكِنًا بَيْنَ أَضْلَعِي وَالتَّرَاقِ

والم تأمل في أبيات القصيدة ؛ يدرك أن الشريف بركات قد رحل إلى السلطان مخلفاً ابنه أبا نمي على البلاد ، ثم عاد فحياه الشاعر بهذه القصيدة التي جاءت مقدمتها حاملة مشاعره نحو محبوبته ، وألم الفراق ، ولذة اللقاء في (25 بيتاً) منها قوله بعد المطلع :

وَدَعَتْني إِذْ وَدَّعْتِني وَقَالَتْ كُنْ عَلَى الْعَهْدِ وَالْمَوَدَّةِ بَاقِ

(1) أسس النقد الأدبي عند العرب ، أحمد بدوي ، ص 310 .

(2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 18/ب - 19/ب .

لَا رَعَى اللَّهُ يَوْمَ جَدَّ بِهَا السَّيِّئَ رُ وَلَا كَانَ يَوْمَ وَشَكَّ الْفِرَاقِ
غَادَرْتَنِي وَدَمَعُ عَيْنِي طَلَيْقُ وَفَوَادِي وَمُهْجَتِي فِي وَثَاقِ
فَلَعَمْرِي لَوْلَا التَّعَلُّ بِالْوَصْلِ لِقَضَتْ مُهْجَتِي مِنَ الْإِشْفَاقِ
... ظَمِئْتُ مُهْجَتِي لِطَوْلِ التَّنَائِي وَسَقَانِي الْهَوَى بِكَأْسِ دِهَاقِ
إِنْ أَذَمَ الزَّمَانُ أَيَّامَ هَجْرِي أَحْمَدُ الْوَصْلَ فِي اللَّيَالِي الْبَوَاقِ
رُبَّ بُعْدٍ يَكُونُ دَاعِيَةً الْقُرْبَ بَ وَقُرْبٍ وَسِيْلَةً لِلْفِرَاقِ

والشاعر أحمد العليف غالباً ما يفصح عن حالته وينبئك عن ملامح قصيدته من خلال المقدمة ؛ فهو شاكٍ دائماً ، لم ينل أربه ، وقد جاءت مقدماته الغزلية كاشفة عن نفسيته التي قل أن نجدها فرحة مستبشرة ؛ فمحبوبته دائماً ما تعلله بالوصل والهجر دونه ، وتطمعه بالوعد لكنها لا تفي ، وهكذا هو في دنياه لا يقنع ؛ حيث شغل نفسه كما فعل المتنبي حين شغله طموحه عن صفو العيش .

وقد جعل العليف مقدمات قصائده الغزلية وسيلة لاستمالة ممدوحه ؛ إذ صرح بذلك قائلاً :

يَلْبِيقُ النَّصَابِي بِالشَّبَابِ وَذِي وَلَوْ بَلَغَ الْمَأْمُولُ مِنْهُ فَقَدْ أَخْطَا
وَلَكِنْ إِذَا رَامَ الْأَدِيبُ مَدِيحَةَ لِأَكْرَمِ مَمْدُوحٍ بِهِنَّ لَهُ وَطَا (1)

فالغزل إذن مطيته إلى قلب الممدوح ووسيلة من وسائل تكسبه . يقول في بداية قصيدة مدح بها الشريف بركات بن محمد :

أَمَّا وَالْهَوَى لَوْلَا الْحَبِيبُ لَمَازَرْتُ مُضْنَى بِالْعَوَالِي مُطْنِبُ
وَلَا بَتَّ صَبَاً كُلَّمَا لَاحَ بَارِقُ يُرَوِّقُ طَرْفِي حِينَ يَبْدُو وَيَحْجُبُ
وَمَا كُنْتُ لَوْلَا حُرْمَةُ الْحُبِّ أَجِيءُ عَلَى حُكْمِ الْغَرَامِ وَأَذْهَبُ (2)

وقد أبدى حرقته على هجر من يحب ، وتذكر عهده الماضي بمرارة قائلاً :

عَفَا اللَّهُ عَنْهَا كَمْ تُعَلِّلُ مُهْجَتِي وَبِي جَمْرَةً مِنْ حَرِّهَا تَتَلَهَّبُ

(1) المصدر السابق ، ورقة 31/ب .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 45/أ .

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى الْهَجْرِ فَذَلِكَ فِي دَعْوَى الْمَحَبَّةِ يَكْذِبُ (1)

ثم يتحدث عن الزمن الماضي ، فيذكر عهد الشباب وما كان يلقاه من وصل محبوبته ، ويحاول تعزية نفسه بالصبر على عوادي الدهر وسوء الحظ المصاحب له ، ليتخلص إلى ممدوحه ، مبدياً حاجته إليه بقوله :

وَلَوْلَا أَبُو عَجَلَانَ دَامَتْ سُعُودُهُ لَمَّا كُنْتُ فِي صَفْوٍ مِنَ الْعَيْشِ

مَلِيكَ دَعَائِي جُودُهُ فَأَجَبْتُهُ وَأَذْرَكْتُ مِنْهُ فَوْقَ مَا أَتَلَّابُ

أَبَتَ نَفْسُهُ إِلَّا سَمَاحاً وَإِنَّمَا لِكُلِّ فَتَى فِي صَالِحِ الْفِعْلِ مَذْهَبُ

فِيَا بَرَكَاتِ الْفَضْلِ دَعْوَةٌ نَازِحِ يُنَادِيكَ مِنْ بُعْدِ الدِّيَارِ وَيَرْغَبُ

وَيَا بَرَكَاتِ الْجُودِ وَالْمَرْءُ إِنْ عَلَيْهِ عَوَادِي الدَّهْرِ يَشْكُو وَيَنْدُبُ (2)

ومن إحسان العليف في قصيدتيه السابقتين حسن تخلصه ؛ حيث جاء غزله ممتزجاً بمديحه ، حين كان معنى الثاني مرتبطاً بالأول ، وبذلك لم يكن الانتقال فجائياً .

ومن المقدمات التي تحكي موضوعها وتبرز نفسية صاحبها قول الشاعر عبدالله بن أبي الخير :

تَذَكَّرَ رُبْعَ الْعَامِرِيَّةِ وَالْمَغْنَى مُحِبُّ بَكَى يَوْمَ الْفِرَاقِ فَمَا أَغْنَى

يُهَيِّجُهُ مَرُّ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى وَيُزْعِجُهُ سَمْعُ الْحَمَامِ إِذَا غَنَى

بِهِ مِنْ أَلِيمِ الْوَجْدِ شَوْقٌ يَهْزُهُ وَيَجْذِبُهُ لِلْغَانِيَاتِ وَالْمَغْنَى (3)

فالشاعر كما يتضح من أبياته محب يهيجه مر النسيم ، ويغلبه الشوق إلى الحسنات ، وهي معبرة عن مضمون قصيدته التي يظهر فيها شوقه إلى الشريف بركات بن محمد حينما كان بالقاهرة ، إذ يقول منها :

تَرَى هَلْ يَجُودُ الدَّهْرُ مِنْهُ بَعُودَةٍ نَكُونُ بِهَا بَعْدَ الْبُعَادِ كَمَا كُنَّا

وَيَجْمَعُنَا بَعْدَ التَّفَرُّقِ جَامِعٌ نَقْضِي لُبَانَاتِ الصَّبَابَةِ مِنْ لُبْنَى

وَيَبْدُو زَمَانُ السَّعْدِ فِي طَالِعِ الْهَنَاءِ كَطَالِعِ زَيْنِ الدِّينِ ذِي الطَّلَعَةِ

الْحُسْنَى (4)

(1) المصدر نفسه ، ورقة 45/أ .

(2) المصدر السابق ، ورقة 45/أ ، 45/ب .

(3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 162/3 .

(4) المصدر نفسه 162/3 ، 163 .

يتضح من خلال هذه الأبيات أن الشاعر قد مهد لانتقاله إلى ممدوحه ، بادئاً بتذكّر ديار من يحب والشوق إليها ، متخذاً من الاستفهام وسيلة فنية لتخلّصه . وهو استفهام يتساءل من خلاله عن إمكان عودة الوصال ، متمنياً أن يكون حظه في ذلك من السعد والهناء كشأن الممدوح . وانطلق بعد ذلك في تعداد ما يتمتع به ممدوحه من صفات .
 وإذا كانت القصيدة مسوقة لتهنئة الممدوح ؛ رأينا المقدمة الغزلية معبرة عن ذلك ، حين تجيء المعشوقة وافية ، مبهجة قلب الصب بوصلها . ونجد ذلك في مثل قصيدة الشاعر عبدالرحمن با كثير التي مدح بها الشريف أحمد بن أبي نمي مهنئاً إياه بالولاية ، حيث بلغت (152 بيتاً) استهلها بمقدمة غزلية عدتها (29 بيتاً) حملت من البشر والسعادة ما يتلاءم مع المناسبة . يقول في بدايتها :

وَفَتْ صَبَّهَا بَعْدَ الْجَفَا عَادَةً عَذْرَا وَمَذَّ لَامَهَا قَالَتْ لَعَلَّ لَهَا عَذْرَا
 وَزَارَتْهُ لَكِنْ بَعْدَ طُولِ تَشَوُّقٍ إِلَيْهَا وَلَا لَوْمْ عَلَيْهَا وَلَا إِزْرَا
 وَجَاءَتْهُ وَالْأَشْوَاقُ جاذِبَةٌ لَهَا وَشَاكَّتُهُ مَا تَلْقَاهُ وَهُوَ بِهِ أَدْرَى
 وَأَطْفَتْ بِبَرْدِ الْوَصْلِ حَرَّ بَعَادِهِ فَبَاتَ وَلَا يَشْكُو بَعَاداً وَلَا حَرّاً (1)

ثم وصفها وأحسن تصوير مفاتها ، مبدئاً عاطفته تجاهها ، منتهياً إلى الحديث عن أيامه الخالية ، مشيراً إلى حاضره والشيب في مفرقه ، جاعلاً ذلك إرهاباً للانتقال إلى ممدوحه ، إلى أن يقول :

فَمَالِي وَلِلتَّشْيِيبِ بِالْغَيْدِ وَالطِّبَا وَبِالْوَشْمَةِ الْخَضْرَا وَبِالْوَجْنَةِ
 وَقَلْبِي قَدْ أَطْلَقْتُهُ مِنْ يَدِ الْهَوَى وَكَانَ لِسُلْطَانِ الْغَرَامِ مِنَ الْأَسْرَى
 وَفِكْرِي عَنْ صَوْغِ الْمَدِيحِ فَطَمْتُهُ سِوَى صَوْغِ مَدْحِي فِي ابْنِ فَاطِمَةَ
 أَبِي الظَّفَرِ الْمَنْصُورِ أَحْمَدَ مَنْ سَمَاءَ الْمَعَالِي وَامْتَطَى الْأَنْجَمَ الزَّهْرَا (2)

وحينما مدح الشاعر عبدالعزيز الزمزمي (3) الشريف أبا نمي وهناه بعرض ابنه الشريف أحمد ، تحدث في مقدمته الغزلية عن الأنس مع النديم

(1) ديوان عبدالرحمن با كثير ، ورقة 4/أ .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 5/أ .

(3) ورد في سمط النجوم العوالي ، العصامي 338/4 – أن القصيدة لعبدالعزیز بن محمد الزمزمي ، والحقيقة أنها لعبدالعزیز بن علي الزمزمي (976-900هـ) ؛ لأن ابن محمد قد ولد سنة 975هـ ، بعد وفاة أحمد بن أبي نمي (961هـ) .

المحبيب وصفاء العيش معه ، مصوراً مواطن الجمال فيه . وهي مقدمة موحية بانسراح صدره مما يتواءم مع غرضه ، حيث الحديث عن ممدوحه أبي نمي ذي الأخلاق السمحة الذي يستأنس بضيفه ويتنصّر وجهه سروراً بصحبه ، كما أنها تتوافق مع تهنئته للشريف أحمد بن أبي نمي ودعائه له بطيب العيش . يقول في مستهلها :

لِيَحْتَسِ الصَّهْبَاءُ مَنْ يَحْتَسِي حَسْبِي لَمَى مَرَشَفِكَ الْأَعْسِ
عَلَيَّ أَطْلِقْ مِنْهُ كَأْسِي وَلَا تَبْخُلْ بِحَبْسِ الْكَأْسِ يَا مُؤْنِسِي
فِي طَرْفِكَ الْوَسْنَانِ وَالْخَدِّ مَا يَهْزَأُ بِالْوَرْدِ وَبِالنَّرْجِسِ
... أَنْتَ سَمِيرِي وَنَدِيمِي فَلِي فَكِهَةٌ مِنْ لَفْظِكَ الْأَكْسِ

وقد أحسن الشاعر التخلّص إلى الحديث عن ممدوحه أبي نمي ، إذ يقول :

لِلَّهِ أَوْقَاتٌ تَقْضَتْ لَنَا مَعَ كُلِّ شَهْمٍ فَكِهِ كَيْسِ
وَنَحْنُ فِي مَجْلِسِ أَنْسٍ بِهِ أَبُو نَمِيٍّ صَاحِبُ الْمَجْلِسِ
سُلْطَانُ أَقْطَارِ الْحِجَازِ الَّذِي بَغِيرِهِ الْأَقْطَارُ لَمْ تُحْرَسِ (1)

وجاءت المقدمات الحماسية مصاحبة لمدائح الأمراء أثناء الحروب وعقب انتصاراتهم . ولا شك أنها مما يناسب تلك المقامات . يقول ابن الأثير متحدثاً عما ينبغي للشاعر مراعاته في افتتاح قصائد المديح : "وأما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادث ، كفتح معقل أو هزيمة جيش أو غير ذلك ، فإنه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل ، وإن فعل ذلك دل على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية ، أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه" (2) .

وأكثر شعراء مكة والمدينة التزاماً بذلك الشاعر أحمد العليّ ، وقد تنبث بعض الحكم في أثناء حماسته ، كقوله في مقدمة إحدى قصائده التي مدح بها الشريف بركات بن محمد إثر أحد انتصاراته :

الْعِرَّ تَحْتَ ظِلَالِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ يَوْمَ الطَّعَانِ وَسَبَقِ السَّيْفِ لِلْعَدْلِ
وَالْمَجْدُ مَا شَادَ ذِكْرًا أَوْ بَنَى شَرَفًا يَبْقَى وَمَا شَدَّ رُكْنَ الْمُلْكِ وَالِدُولِ

(1) نزهة الجليس ، الموسوي 288/1 .

(2) المثل السائر 119/3 .

... لَا تَحْمِلُ الضَّيْمَ نَفْسُ الْحُرِّ لَوْ مِنْهَا الْيَالِي بِأَمْرِ غَيْرِ مُحْتَمَلٍ
... وَانْهَضْ سَرِيعاً إِلَى الْغَايَاتِ فَذُو الْعَزِيمَةِ لَا يَمْشِي عَلَى مَهَلٍ
... إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا مَا جَدَّ فِي طَلَبٍ حَتَّى الْمَطِيَّةِ فِي وَخْدٍ وَفِي رَمَلٍ

ثم يتخلص ببراعة إلى ممدوحه في البيت العشرين من هذه القصيدة الطويلة التي تبلغ (148 بيتاً) ، إذ يقول :

لَا يُدْرِكُ الثَّارَ إِلَّا كُلُّ ذِي حَسَبٍ بِالسَّيْفِ مُشْتَمِلٍ بِالرَّمْحِ مُعْتَمِلٍ
مِثْلُ الشَّرِيفِ أَبِي عَجْلَانَ مَنْ قَنَاطُهُ بِنَجِيعِ الْفَارِسِ الْبَطْلِ
الْفَاطِمِيُّ الَّذِي عَزَّتْ مَنَاقِبُهُ عَنِ النَّظَائِرِ وَالْأَشْبَاهِ وَالْمُثَلِّ (1)

وقد تناول الشاعر عبدالرحمن باكثر الحماسة والحكمة في مقدمة القصيدة ، لكنه مقل ، أما بقية الشعراء فلم يحفلوا بشيء من ذلك ، ويبقى الشاعر أحمد العليف أكثرهم تنوعاً في المقدمة ؛ إذ قدم لبعض قصائده بالغزل والحماسة والحكمة ، كما أنه شكا من الدهر في بعضها . ودرج أصحاب المدائح النبوية على استهلالها ببث حنينهم إلى المدينة المنورة والرحيل إليها بمطاياهم ، وذكر معالمها وما حولها ، مجيدين التخلص إلى مديحه (2) .

ووصف بعض الشعراء الطبيعة في مقدمة قصيدة المدح ، وممن عمد إلى ذلك الشاعر محمد بن عبدالقوي . وهو من مداحي الشريف بركات بن حسن بن عجلان ، ومن الذين جعلوا من قصيدة المدح وسيلة للاستعطاف وطلب النوال من الممدوح ، فهو - مثلاً - يصف الربيع في صدر مدحة من مدائحه للشريف بركات بن حسن ابن عجلان ، فيحيل الأرض رياضاً تسر الناظرين بزهرها الضاحك بعد أن بكت السحب وانهمرت دموعها ، وهي صور تشخيصية يعرضها في مقدمته على نحو ما كان لدى البحري في حديثه عن الربيع وفي تشخيصه مظاهر الطبيعة في بعض قصائده التي يقول في إحداها عن السحاب :

يَبْكِي فَيُضْحِكُ وَجْهَ الْأَرْضِ عَنْ كَالْوَشْيِ بَلَّ لَا تَرَى وَشْيًا

وابن عبدالقوي يصور المطر وفعله بالأرض ، والسعادة التي يحظى

(1) سمط النجوم العوالي ، العصامي 320/4 .

(2) انظر : الحديث عن المدائح النبوية في الفصل الثالث (الشعر الديني) .

(3) ديوان البحري 2444/4 .

بها من عليها قائلاً :

مِنْ بُكَاءِ الْمُزْنِ مُرْسَلاً كَالْجَمَانِ ضَحِكَ الزَّهْرُ فِي رِيَاضِ الْجَنَانِ
مَا تَرَى الرَّوْضَ بِاسِمَاءَ عَنْ كَلَالِ زَيْنٍ فِي نَيْسَانَ
وَبَهَارِ حَكَى اصْفَرَارِ نُضَارِ وَشَقِيقِ يَحْمَرِّ (كالبرهان)
وَرَبِيعِ وَشَى الثَّرَى سُنْدُسِيًّا نَسَجَتْهُ سَحَابُ الْهَتَّانِ
وَتَغَتَّ فَوَاحِشُ الدَّوْحِ فِيهِ فَسَرَتْ بِالْحَيَاةِ فِي الْأَغْصَانِ
تُسْقِطُ الطَّيْرُ نَغْمَةَ الصَّوْتِ حَسًّا طَرَبًا مِنْهُ كَيْفَ بِالْإِنْسَانِ (1)

ويتضح لمن يمعن الفكر في الأبيات علاقتها بما سيؤول إليه من حديث عن الممدوح ؛ حيث إن عطاءه يبذل الشطف في العيش رغداً ، ويسعد النفس كما المطر الذي يحيي الأرض ويوشي ثراها بما يبهج الرائي من ألوان الزهور في الروضات . وقبل أن يتخلص إلى مدحه ، يختلق حواراً مع صاحبه ، عارضاً أحوال الناس ، فكما أن ثمة أرضاً مجدبة وأخرى قد كساها الربيع ، هناك أيضاً من لا يجد ما يتقي به لسعات البرد في الشتاء ، ومن يلتحف الصوف ، وقد أشار إلى أن تلك قسمة رب العباد الذي يسرّ للفضلاء منهم سبل البذل ، حيث يقول :

قَالَ لِي صَاحِبِي وَأَعْجَبُ مِنْهُ مَا دَرَى أَنَّنِي مِنَ الْعُمَيَّانِ
لَكَ عَزْمٌ عَلَى التَّفَرُّجِ مَعْنَا فِي (عَلَى) (2) أَوْ (سَمَارِ) (3) مِنْ
قُلْتُ لِلْبَرْدِ عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ لَلْ سُقُوطِ يَضُرُّ بِالْأَبْدَانِ
فَمُدْفَى بِثُوبِ صُوفٍ مُفَرَّى وَيُغَيِّرُ الشِّتَا عَلَى الْعُرْيَانِ
قِسْمَةً فِي الْأَنَامِ قَدْرَةُ رَبِّ حَاكِمٍ بِالْمَزِيدِ وَالنَّقْصَانِ

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 462/2 ، 463 . وقافية البيت الثالث (كالبرهان) قد وردت في الأصل - كما ذكر المحقق في هامش ص 463 - (البرهمان) . وصوابها (البرهمان) ، وهو العُصْفَر . والحسُّ : الجَلْبَة .

(2) عَلَى : هي عَلِي التي من وادي رَهْجَان ، وتنطق علي - وهولحن واضح - وهي على قرابة 40 كيلاً من مكة ، من الجهة الجنوبية الشرقية .
- معالم مكة التاريخية ، البلادي ، ص 11 ، 194 .

(3) سَمَار : جبال ترى من عرفة جنوباً ، دونها وادي نَعْمَان .
- معجم معالم الحجاز ، البلادي 233/4 .

جَلَّ مَنْ أَفْقَرَ الْفَقِيرَ وَأَعْطَى مَنْ يَشَا مَا يَشَا مِنَ الْإِمْكَانِ
وَحَذَاهُ عَلَى التَّصَدَّقِ فَضْلاً لِيَرَى مَا يَكُونُ فِي الْإِمْتِحَانِ
فَجَوَادٌ مُمَدِّحٌ مُسْتَجَادٌ يَبْذُلُ الْمَكْرَمَاتِ سَمَحُ الْمَبَانِي
كَابِنِ طَهَ أَبِي زُهَيْرِ الْمُصَفَّى زَيْنِ آلِ النَّبِيِّ الْعَدْنَانِ (1)

وعلى الرغم من أن هناك صلة بين مقدمة القصيدة وغرضها الرئيس ؛ فإن الشاعر لم يوفق في انتقاله إلى غرضه . ومثل هذا الاقتضاب نادر في قصائد الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .

أما جل قصائدهم فقد أحسنوا فيها التخلص إلى المدح – كما تبين فيما سبق – حيث وجدنا الامتزاج بين المقدمة والغرض من خلال انتقال الشاعر منهم "من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاصاً رشيقاً دقيق المعنى ، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني ؛ لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما ، حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد" (2) .

وإصابة الشعراء في تلك المقدمات واضحة ؛ حيث جاءت نهاياتها ممهدة للانتقال ، كما رأينا في شعر أحمد العليف وعبدالرحمن باكثير وعبدالعزیز الزمزمي وكذلك عبدالله ابن أبي الخير ؛ حينما مهد لتخلصه بالاستفهام المصحوب بالتمني .

ووسائلهم في التخلص عديدة ، منها أيضاً تضمين الإسناد بغية الربط بين المقدمة والغرض . وعلى الرغم من أن النقاد قد استقبحوا التضمين ، فإنه وسيلة فنية ناجحة لتسهيل الانتقال ، كما في قول الشاعر محمد الفيومي في النهاية من مقدمة قصيدة مدح بها الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان :

تَمَنَيْتُ مِنْهَا طَيْفَهَا فَتَحَجَّبَتْ عَلَيَّ وَقَالَتْ لِي هَوَى وَتَنَامَ
وَلَمَّا أَبَتْ الْحَاضَهَا سَلَّمَ مُهْجَتِي وَعَزَّ عَلَى نَارِ الْخُدُودِ سَلَامُ
جَعَلْتُ رَفِيقِي اللَّيْلَ وَالنَّضْوَا وَصَابَرْتُ فِيهِ وَحْدَةً وَظَلَامُ

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 463/2-465 .

(2) خزانة الأدب ، الحموي 329/1 .

عَسَى ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ يَنْظُرُ فَيُعْقِدُ لِي مِنْ حَرْبِهِمْ ذِمَامٌ (1)

ومضى بعد ذلك يعدد صفات الممدوح .

ومن الأساليب الفنية التي عمد إليها الشعراء للتخلص الحسن إلى المديح أسلوب القسم المرتبط بالتضمين - على الأغلب - كما في قول الشاعر محمد بن عبد القوي في نهاية مقدمته لقصيدة مدح بها الشريف بركات بن حسن بن عجلان :

لا تَجْزَعَنَّ إِذَا بُلِيَّتْ بِجَفْوَةٍ	مِمَّنْ تُحِبُّ وَرَجَّ يَوْمَ وَصَالِهِ
... واسألُ بُرُوقاً بِالْحِمَى هَلْ خَيَّمُوا	بِالْمُنْحَنِ وَبِشِيحِهِ وَظِلَالِهِ
... قَسَماً بِشِعْبِيهِ وَبِالصَّخَرَاتِ مِنْ	هَضَبَاتِهِ وَبِأَيْكِهِ وَبِضَالِهِ
وَبِسَادَةٍ شَرُفَتْ بِهِمْ أَرْجَاؤُهُ	فَنَشَا غِرَاسُ الْعِزِّ بَيْنَ حِلَالِهِ
وَالْبَيْتِ وَالْحَرَمِ الشَّرِيفِ وَمَوْقِفِ	لِلْحَجِّ بَيْنَ حَرَامِهِ وَحَلَالِهِ
إِنْ رُمْتُ عَنْكَ أَبَا زُهَيْرٍ سَلْوَةً	كُنْتُ الَّذِي بَاعَ الْهُدَى بِضَلَالِهِ
أَمْ كَيْفَ أَسْأَلُو عَنْ وَدَادِ خَلِيفَةٍ	مَا عِشْتُ إِلَّا فِي (وَرِيفِ) ظِلَالِهِ
مَلِكٍ إِذَا قَاتَنَا جَوَادٌ بِاسِلٌ	فَكَأَنَّمَا جِئْنَا بِبَعْضِ خِصَالِهِ (2)

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 618/2 .

(2) المصدر السابق 458/2 ، 459 . والشاعر في هذه الأبيات أقسم بغير الله ، والحلف بغير الله من الشرك . وقد جاءت لفظة (وريف) في عجز البيت السابع في المصدر ، هكذا : (وريق) .

ج- الطول والوحدة :

-1-

يحسن قبل الحديث عن الطول والقصر في القصيدة لدى شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين الإشارة إلى أن النقاد العرب القدماء لم يحددوا طولاً معيناً للقصيدة ، لكنهم عرفوا نوعي القصيدة الطويلة والقصيرة ، ومنهم من أوماً إلى القصيدة المتوسطة حين طالب الشاعر بالتوسط في مقادير الأمداح ، خاصة في مدح الملوك ، وعرفوا المقطوعة ، وخلط بعضهم بينها وبين القصيدة وهو يتحدث عن الإطالة والإيجاز (1) .

والناظر في نتاج الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين يلحظ ميلهم إلى المقطوعات والقصائد القصيرة التي تقل عن العشرين بيتاً وتزيد على الستة أبيات ، يليهما القصائد المتوسطة التي تتراوح ما بين عشرين وخمسين بيتاً ، ثم القصائد الطويلة التي تتجاوز خمسين بيتاً ، على أن منها ما تتجاوز أبياتها المئة ، بل قد تطول جداً فتزيد على الثلاثمئة بيت ، كقصيدة الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي الهمزية في مديح الرسول ع البالغة 367 بيت (2) . هذا فضلاً على الأبيات المفردة والنتف المكونة من بيتين المبنوثة في كثير من كتب التراجم وبعض الكتب التاريخية.

وأكثر الشعراء إطالة للقصائد عبدالرحمن باكثير ، يليه أحمد العليف ، ثم عبدالعزيز ابن علي الزمزمي.

وقد جاء الطول مصاحباً للمدائح النبوية وقصائد المديح ، وخاصة ما كان منها مشتملاً على مقدمة ، إذ إن من المقدمات ما تجاوزت الأربعين بيتاً ، وغلب على شعر الرثاء التوسط في الطول . ولا شك أن لموهبة الشاعر أثراً كبيراً في طول نفسه ، كما أنها تقوده في بعض الأحيان إلى القصد في القول ؛ لأن التجارب الشعرية مختلفات في المقدار الذي يستوعبها . ولطبيعة الغرض وجدنا أن النتف والمقطوعات الشعرية والقصائد القصيرة تشيع في شعر الموعظة والزهد والإلهيات وبعض الهجائيات وكذلك في الإخوانيات ، ولا تكاد تزيد القصائد الإخوانية ذات

(1) انظر: بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث ، يوسف بكار ، ص 252 ، 253.

(2) ديوان الزمزمي ، ورقة 2/ب - 12/أ.

التوسط في الطول على عدد أصابع اليد الواحدة فيما وقفت عليه من الشعر ، أما الطويلة فقد نأى عنها الشعراء في هذا الغرض . "قال بعض العلماء : يحتاج الشاعر إلى القطع حاجته إلى الطوال ، بل هو عند المحاضرات والمنازعات والتمثل والملح أحوج إليها منه إلى الطوال"(1)

ويبدو أن كثيراً من النتاج الشعري لشعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين قد ضاع ؛ لعدم اهتمام الشعراء بتدوينه ، ولأن كتاب التراجم والحوادث التاريخية لا يعنون إلا بالأبيات التي تصلح للتمثل لما هم بصدد الحديث عنه ؛ ولذلك شاعت الأبيات المفردة والنتف والمقطعات الشعرية ، وشكلت مع القصائد القصيرة نسبة تفوق القصائد المتوسطة والطويلة.

-2-

والطول ليس مقياساً لجودة القصيدة إن لم يصاحبه جودة في بنائها ، فابن رشيق - مثلاً- أشار إلى أقوال من احتج بتفضيل النابغة الذبياني على غيره من الشعراء وذكر منها أنه أكثرهم طويلة جيدة (2) ، إذ لم يكن الطول فحسب معياراً لتقديمه على غيره.

ومن ينعم النظر في القصائد الطويلة التي نظمها شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ يجد أنها حافلة بالمبالغة في أداء المعنى ، والتكرار ، والتفاوت بين بعض أجزائها ؛ مما أظهر عليها التكلف ، كما شاع ذلك في كثير من القصائد ذات الطول المتوسط . وعلى الرغم من توافر الجو النفسي في كثير من القصائد ، فإنه ليس كافياً ما لم يكن ثمة التزام في "ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور ، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفته فيها ، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر"(3) .

والوحدة الموضوعية متوافرة في جل القصائد التي نظمها شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وهي قليلة في

(1) العمدة ، ابن رشيق 186/1.

(2) المصدر نفسه 99/1.

(3) النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ، ص373.

مدائح الأمراء . ومن الشعراء من يحشد بعض الأفكار الثانوية التي تخدم غرضه ، كأن يمدح قائداً منتصراً ، فيصف المعركة ويهجو أعداءه ، ولا يكون في ذلك خروج عن وحدة الموضوع . كما أننا لا يمكن أن نعد الشاعر قد خرج عن موضوع الرثاء – مثلاً – حينما يبيث الحكمة المنسجمة مع السياق . على أن ثمة قصائد قد فقدت وحدة الموضوع حينما خرج شعراؤها من موضوعاتهم إلى أغراض أخرى ، كالشكوى التي ساقها الشاعر محمد بن عبدالقوي في معرض مديحه للشریف بركات بن حسن بن عجلان ، حيث يقول بعد أن أسبغ عليه بعض الصفات الحسنة :

وَنَثْنِي عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ أَهْلُهُ	فَحُقَّ لَهُ حُسْنُ الْمَدِيحِ وَأَسْنَاهُ
وَحُسْنُ الثَّنَا مَا أَوْجَزَ الْقَوْلَ رَبُّهُ	وَضُمِّنَ قَامُوسُ الْمَحَاسِنِ مَعْنَاهُ
فِيَا بَا زُهَيْرٍ دُمْتَ حِصْنًا وَمَلْجَأً	يَبْتَئُكَ بَعْدَ اللَّهِ ذُو الْحُزْنِ شَكْوَاهُ
بَكَيْتُ وَمَا لِلْمَرْءِ بُدٌّ مِنَ الْبُكَاءِ	إِذَا كُفَّتَا فِي آخِرِ الْعُمُرِ عَيْنَاهُ ⁽¹⁾

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 461/2 ، 462.

د- الخاتمة :

اصطلح النقاد القدماء على تسمية الخاتمة بالمقطع ، واستحسنوا أن يكون البيت الأخير في القصيدة موحياً بنهايتها مع جودته ومناسبته للمعنى المتحدث عنه . يقول أبو هلال العسكري موجهاً حديثه إلى الشاعر : "ينبغي أن يكون آخر بيت قصيدتك أجود بيت فيها ، وأدخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها"⁽¹⁾ . ويقول العلوي : "ينبغي لكل بليغ أن يختم كلامه في أي مقصد كان بأحسن الخواتم ، فإنها آخر ما يبقى على الأسماع ، وربما حفظت من بين سائر الكلام ؛ لقرب العهد بها ... وينبغي تضمينها معنى تاماً يؤذن السامع بأنه الغاية والمقصد والنهاية"⁽²⁾

والمتابع لخاتمة القصيدة لدى شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ يلحظ ظاهرين بارزتين : أولاهما الصلاة على النبي ع والأخرى الدعاء لمن وجهت إليه القصيدة ، سواء أكان ممدوحاً أم مهناً أم مرثياً . وقد يجمع الشاعر في ختام قصيدته الدعاء والصلاة على النبي ع ، ومن الشعراء من ختم قصيدته بالتأريخ الشعري⁽³⁾ .

فالصلاة على النبي ع ظاهرة أغرم بها الشعراء ، لا يكادون يعدلون عنها حتى في المقطوعات . يقول الشاعر إبراهيم الزمزمي في ختام مقطوعة عدتها خمسة أبيات :

وَصَلِّ يَا رَبِّ عَلَى الْمُصْطَفَى وَالْأَصْحَابِ طَوَّلَ الزَّمَانِ⁽⁴⁾

وقد خضع الشعراء لهذا التقليد ، ولم يعد الشاعر منهم مهتماً بانقطاع بيته الأخير عما قبله ، إذ غاية ما يفكر فيه أن يكون ختامه صلاة على النبي المختار ع ، فالشاعر محمد بن عبد القوي قد ختم إحدى قصائده بإعلان حبه وولائه للشریف بركات بن محمد قائلاً :

أَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ وَالْأَرْكَانِ قَاطِبَةً وَالْمَشْعَرَيْنِ وَسَفْحِ حَوْلِهِ رَحَبٌ

لَمْ أَقْضِ بَعْضَ الَّذِي أَوْلَيْتَ مِنْ لَكِنْ هَذَا مُؤَدَّى بَعْضِ مَا يَجِبُ⁽⁵⁾

(1) الصناعتين ، ص 443.

(2) الطراز 183/3.

(3) سيأتي الحديث عن ظاهرة التأريخ الشعري في نتاج شعراء مكة والمدينة - في القرنين التاسع والعاشر الهجريين - في مبحث (الألفاظ والتراكيب) من هذا الفصل .

(4) الدر الكمين ، عمر بن فهد 606/1.

(5) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 77/3 . وقد أقسم بغير الله ، وهو غير جائز.

وقد انتهت الفكرة التي كان يتحدث عنها في هذا البيت الذي جاء
تتويجاً لمشاعره نحو الأمير ، لكنه لم يكتف بذلك ، بل أحب أن يقلل
كلامه بالصلاة على الرسول ع فبان تكلفه حين قال :

ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرٍّ مَا لَاحَ فِي الْأَفْقِ بَرْقٌ أَوْ سَرَتْ

ويأتي الختام بالصلاة على الرسول ع محبوباً ضمن القصيدة دون أن
يحس المتلقي بالنشاز أو الانقطاع ، حين يكون الحديث عن المصطفى ع
كقول الشاعر معمر بن عبد القوي في ختام مدحة نبوية :

وَقَدْ أَتَيْنَاكَ وَالْأَمَالَ قَائِلَةً بُشْرَاكُمْ فَقِرَاكُمْ بَعْضُ مَا يَجِبُ

صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ ثُمَّ عَلَى آلٍ وَصَحْبٍ لَهُمْ فَوْقُ

ومن ذلك قول الشاعر أحمد الكازروني :

وَحُذِّ بِيَدِي يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ عِنْدَمَا أَقْدَمُ يَوْمَ الْعَرْضِ إِذْ يُنْصَبُ الْقِسْطُ

هُنَاكَ لَكَ الْعُلْيَا هُنَاكَ لَكَ الرِّضَا هُنَاكَ لَكَ الْعِزُّ الَّذِي مَالَهُ خُلْطُ

عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ ثُمَّ سَلَامُهُ وَآلِكَ وَالْأَصْحَابِ مَا اضْطَرَبَ

وانظر إلى الشاعر نابت الزمزمي في هذه المقطوعة التي لا تتجاوز
ثلاثة أبيات ؛ كيف صاغ الختام صلاة وسلاماً على الرسول بسبك حسن
يشعر المتلقي بالتحامها مع البيتين السابقين ، حيث يقول :

تَشْفَعُ يَا مُسِيءٌ بِذِي الْمَعَالِي إِمَامَ الرُّسُلِ خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ

كَرِيمِ الْأَصْلِ طَهَ مَنْ أَتَاهُ يَرُومُ الْأَمْنَ حَلَّ عَنِ الشَّقَاءِ

عَلَيْهِ صَلَاةُ رَبِّي كُلَّ حِينٍ وَسَلَامٌ فِي الصَّبَاحِ وَفِي الْمَسَاءِ

على أن بعض القصائد أصبحت كالرسائل النثرية التي تفتتح بالتسليم
وتختتم بالصلاة على الرسول الكريم ع وبخاصة القصائد الإخوانية ،
كقصيدة الشاعر عبد القادر بن السراج التي يتشوق فيها إلى السخاوي ؛
حيث افتتحها بالسلام قائلاً :

(1) المصدر نفسه 77/3.

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1206/2 . وقد أثبت المصدر همزة (السماء) على الرغم
من أن صحة الوزن تقتضي حذفها (ضرورة) كما ورد في الأصل المخطوط ، ورقة
170/أ.

(3) الجواهر الثمينة ، محمد كبريت 192/1.

(4) الضوء اللامع ، السخاوي 195/10.

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ مَشُوقٍ مُتَيِّمٍ يَوَدُّ لِقَاكُمْ كُلَّ حِينٍ بِمَكَّةَ (1)
واختتمها بالصلاة على الرسول وآله وصحبه والتابعين ، حيث يقول

وَصَلَّى إِلَهُ الْعَرْشِ رَبِّي دَائِمًا عَلَى الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ خَيْرِ
وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ وَحِزْبِهِمْ وَأَشْيَاعِهِ مَعَ آلِهِ ثُمَّ عَثَرَهُ (2)

ولم تعد الخاتمة مقتصرة على البيت الأخير ؛ إذ أصبح الشعراء لا يكتفون بالصلاة على النبي ع ، بل يضمون إليها الصحابة والتابعين كما مرَّ في خاتمة ابن السراج ، وكقول الشاعر إبراهيم الزمزمي في ختام تقريظه لكتاب (نهاية التقریب) لابن فهد :

ثُمَّ صَلَاةَ اللَّهِ ذِي الْجَلَالِ عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَالْآلِ
وَصَحْبِهِ الْأَفَاضِلِ الْأَكَابِرِ مَا حَدَّثَ الْقَارِي عَلَى الْمَنَابِرِ (3)

وقد تتحول الصلاة على النبي ع من إشعار بنهاية القصيدة إلى موضوع مستقل ، وربما سبقت بأبيات فيها دعاء للمعني في القصيدة ، كما جاء في قول الشاعر محمد بن أحمد الفاكهي في ختام قصيدته التي رثى بها الأمير خداوند :

يَا رَبِّ يَا رَحْمَنُ يَا صَمَدُ اغْفِرْ لِمَنْ قَدْ مَضَى فِي غَايِرِ
وَاحْفَظْ لِمَنْ قَدْ بَقِيَ وَابْقِيهِ فِي وَجَمَلِ الْكُلِّ وَاحْمِلْ كُلَّ ذِي
ثُمَّ الصَّلَاةَ عَلَى الْمُخْتَارِ صَفْوَتِهِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مِنْ فَهْرٍ وَمِنْ مُضَرِ
كَذَا السَّلَامُ عَلَيْهِ دَائِمًا أَبَدًا صَلَّى عَلَيْهِ إِلَهُ الْخَلْقِ وَالْفِطْرِ
وُخْصَ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا وَعَثَرَتُهُ وَالتَّابِعِينَ لَهُ فِي كُلِّ مُفْتَخَرٍ (4)

وأجود من ذلك مجيء الصلاة على الرسول ع في بيت واحد في ختام القصيدة .

والقصيدة كان ذلك سبيلاً إلى التدرج في المعنى قبل بيت الختام . وممن عمد إلى ذلك الشاعر أحمد الحرازي ، إذ يقول في ختام قصيدة هنا بها

(1) المصدر نفسه 274/4.

(2) المصدر نفسه 275/4.

(3) الدر الكمين ، عمر بن فهد 605/1.

(4) النور السافر ، العيدروس ، ص366.

الشریف بركات بن محمد بمناسبة قدوم ولده :

تَهَنَّأَ أَبَا زُهَيْرٍ وَأَعْلَىٰ وَابْقَ قَرِيرَ الْعَيْنِ فِي كَنَفِ الْوُرُودِ

أَدَامَ اللَّهُ عِزَّكَ فِي نُمُوِّ مَلِيكَ الْعَصْرِ فِي عَيْشِ رَغِيدِ

وَصَلَّىٰ ثُمَّ سَلَّمَ كُلَّ حِينٍ عَلَى الْمُخْتَارِ ذِي الْعَرْشِ

والظاهرة الأخرى المنتشرة في ختام القصيدة لدى شعراء مكة والمدينة - في القرنين التاسع والعاشر الهجريين - الدعاء لمن وجهت إليه القصيدة ، كقول الشاعر الشریف بركات بن محمد في ختام قصيدة مدح بها الأشرف قانصوه الغوري :

فَلَا بَرَحْتَ عَلَى الْأَمْلَاكِ قَاطِبَةً مُمْلَكًا تَمْلِكُ الدُّنْيَا وَمَا جَمَعُوا (2)

ومثل هذا الختام مناسب لمقام الممدوح وداخل في المعنى الذي كان الشاعر بصدده ؛ إذ إنه تكلم على مدة حكم الممدوح وطيب أيامه التي شبهها بالغرر في جيد الدهر ، كما تحدث عن حلمه وحزمه في تأديب الخارجين على ملكه ، خاتماً ذلك بهذا المقطع الحسن.

ومن الشعراء من ينهي قصيدته بما لا يتناسب مع غرضه ، كالشاعر علي العليفي في ختام مديحه الشریف حسن بن عجلان ، حيث يقول :

فَاسْلَمْ وَدُمُ فِي نَعِيمٍ لَا نَفَادَ لَهُ وَكُلُّ حَيٍّ وَإِنْ طَالَ الْمَدَىٰ فَاِنْ (3)

وإذا كان صدر البيت مناسباً لمقام الممدوح ؛ حيث دعا له بالسلامة والنعيم الدائم ، فإن عجزه أصلح لغرض الرثاء ؛ لما فيه من إحياء بالتعزية ، مما يتناقض مع المعنى في الشطر الأول من البيت ويتنافى وغرض الشاعر.

وخير من ذلك قول الشاعر خضر الموصلي في ختام قصيدة مدح بها الشریف حسن بن أبي نمي :

وَاسْلَمْ وَدُمُ فِي سُرُورٍ بَلٍّ وَفِي مَا قَامَ بِالرُّوحِ بَلٌّ بِاللَّهِ أَجْسَامُ (4)

ولم يكن دعاء الشعراء في ختام قصائدهم مقصوراً على الملوك أو

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 261/3 . والواجب على الشاعر أن يبتعد عن وصف الرسول ع بذی العرش المجید ؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - هو ذو العرش المجید ، وإسباغ ذلك على الرسول الكريم غلو مذموم.

(2) المصدر نفسه 271/3.

(3) المصدر السابق 373/2.

(4) خلاصة الأثر ، المحبي 131/2.

الأمراء ، بل دعوا لبعض العلماء في ختام مراثيهم . والدعاء للمرثي
بجنات الخلد ولقبره بالسقيا ملائم في مناسبات الرثاء ، كقول الشاعر
عبدالعزیز الزمزمي في ختام قصيدته التي رثى فيها الشيخ حامد الجبرتي

رَوَّحَ اللَّهُ مِنْكَ فِي الْخُلْدِ رُوحاً وَسَقَى صَيِّبُ الْحَيَا مِنْكَ تُرْبَةً⁽¹⁾

وممن عمد إلى مثل ذلك الشاعر أحمد العليف ، حيث ختم قصيدته
في رثاء السمهودي ببيتين ، دعا فيهما للشيخ بالرحمة ولقبره بالسقيا قائلاً

سَقَى اللَّهُ فِي سَمْهُودِ قَبْرٍ يَحْلُهُ عَظِيمُ الْحَيَا وَالْعِلْمِ وَالنَّائِلُ الْعَمْرُ

وَتَغْشَاهُ مِنْ رَبِّ الْبَرِيَّةِ رَحْمَةٌ وَيَنْهَلُ مِنْ أَرْجَائِهِ السُّحْبُ

وختم بعض الشعراء قصائدهم بالتأريخ الشعري لبعض المناسبات ،
كما فعل عبدالمعطي باكثير حينما هنا الشيخ العيدروس – بمناسبة بناءه
بيتاً – بقصيدة ختمها بقوله :

وَمِنْ السَّعَادَةِ قَدْ أَتَى تَارِيخُهُ (بَيْتُ السَّعَادَةِ) فَهُوَ مِنْ آيَاتِهِ

كما ختموا بعض القصائد الرثائية بتاريخ الوفاة ، كقول الشاعر
محمد السمرقندي في ختام رثائه للشيخ عبدالقادر الشافعي (ت 966هـ) :

تَارِيخُهُ (جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَنْزِلُهُ) ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى مَنْ حَقَّهُ

* * *

والواضح من خلال الحديث عن بناء القصيدة حرص الشعراء على
كون البيت الأول مناسباً للغرض ، وتبين أن المطالع المتفوقة قليلة ، وأن
الشاعر أحمد العليف أكثر الشعراء إجادة في المطلع ، كما أن عبدالعزیز
الزمزمي أقل الشعراء حظاً في ذلك ، وأبان الحديث عن المطلع إحسان
الشعراء في إيضاح المعنى وندرة اللجوء إلى الضرورة ،
وظهرت عناية الشعراء بالتصريح في جلّ مطالعهم.

واتضح في الكلام على مقدمة القصيدة اقتصارها على قصائد المديح

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص 343.

(2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 82/ب.

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص 459.

(4) المصدر نفسه ، ص 356.

وعدم التزام شعراء مكة والمدينة بالنهج الذي كان عليه الشعراء الجاهليون ومن تبعهم ، وتبين أن أطول مقدمة قد بلغت (45 بيتاً) وأقصرها (5 أبيات) وأن تلك المقدمات قد ناسبت الأغراض المسوقة لها ، كما تناول الحديث إجادة الشعراء في تخلصهم إلى ممدوحهم وندرة الاقتضاب في قصائدهم.

وظهر من الحديث عن طول القصيدة عند شعراء مكة والمدينة ميلهم إلى المقطوعات والقصائد القصيرة ، وأن الطول كان مصاحباً للمدائح النبوية وقصائد المديح ، كما أن القصر قد شاع في شعر الموعظة والزهد والإلهيات والإخوانيات والهجاء.

وبان من الحديث عن الوحدة توافر الوحدة النفسية وكذلك الوحدة الموضوعية في كثير من القصائد .

أما خاتمة القصيدة فقد برزت فيها ظاهرتان شائعتان في نتاج الشعراء هما : الصلاة على النبي ﷺ والدعاء للمعني في القصيدة ، كما أن بعض القصائد قد جاءت مختومة بالتأريخ الشعري.

ويبدو أن ذلك التقليد الشعري الذي سار عليه الشعراء قد صرف كثيراً منهم عن الاهتمام بالخاتمة ؛ فلم نجد ختاماً ببعض الحكم الجيدة ، وعناية بالبيت الأخير من حيث عذوبة اللفظ وجودة المعنى والمبنى.

3- الألفاظ والتراكيب :

-1-

الوضوح سمة غالبية على لغة الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ حيث نأى الشعراء عن الإغراب في اللفظ والتعقيد في العبارة ، وحرصوا على مواءمة الألفاظ للأفكار المسوقة لها ؛ فشاعت الجزالة في أغراض المديح والفخر والحماسة والهجاء والشعر السياسي وشعر الحكمة ، على أن الرقة قد واكبت كثيراً من شعر الغزل والحنين والشكوى والإلهيات والندب الجاري في رثائهم . والناظر في نتاج الشعراء ؛ يلحظ أن الأسلوب الجزل أكثر دوراناً في شعرهم.

فقد جاءت قصائد المديح حافلة بالألفاظ الجزلة على نحو قول الشاعر محمد بن عبد الوهاب بن يعقوب مادحاً الشريف بركات بن محمد :

أَعْظَمُ بِهِ مِنْ مَلِيكَ صَارِمٍ بَطْلٍ حَامِي الْمَدَائِنِ وَالْأَرْمَاحُ تَشْتَجِرُ⁽¹⁾

وكقول الشاعر أحمد النويري في مديح الشريف بركات بن محمد أيضاً :

هَذَا الْهَمَامُ الَّذِي إِنْ سَلَ صَارِمُهُ خَوَاصِرُ الْأَسَدِ مِنْ بَأْسَاهُ⁽²⁾

ولو عدنا إلى مدائح الشعراء الكثيرة وإلى فخرهم وحماستهم وهجائهم وحكمهم وما تناولوه من وصف الحروب والأحوال المختلفة – آنذاك – لوجدنا أن مثل هذه الموضوعات زاخرة بالألفاظ والعبارات الجزلة التي تتناسب مع تلك المضامين ، مثل : الضراغم ، الخضارم ، السلاهب ، العز ، الهزبر ، البطل ، الأبى ، الجحفل ، الصِّفَاح ، النجيع ، السمهري ، الطاعن ، الطعان ، تسل أسيافه ، عزم يبيد الخيل ، إن تقترع بيض الصوارم ، لي همة أسمى بصارم عزمها ، أفل بها حد السيوف القواضب ، ثوروا إلى حرب الصليب بعزيمة ، صمم إذا سمت أمراً عز مدركه ، انهض سريعاً إلى الغايات ، إن الرجال صناديق مجربة ، لنا مكة الغراء داراً.

كما أننا لو أرجعنا الطرف في غزلهم ووصفهم ورثائهم وابتهاالاتهم وحنينهم وشكواهم ؛ للاحظنا شيوع الألفاظ والعبارات الرقيقة ، مثل :

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 223/3.

(2) المصدر نفسه 75/3.

النوى ، الحب ، الهوى ، الحسن ، الحال ، الرضا ، ماء الورد ، الظبي ، السلسبيل العذب ، الثغر ، الجوى ، الهيف ، الجمال ، النسيم ، الحبيب ، البدر ، المها ، ألا ليت شعري ، طالت غربتي ، واحيرتي مات حظي ، ضاق ذرعي ، رمتنا يد النوى ، لله قلبي وما يلقاه من حرق ، تيممتني فرق جسمي ، أذابت قلبي ، ضحك الزهر في رياض الجنان ، هبت صباحاً نسمة ، أقبل الربيع.

وقد تحدث ابن الأثير عن الألفاظ الجزلة والرقيقة ، مشيراً إلى أن لكلٍ منها موضعاً يحسن استعماله فيه ؛ حيث ذكر أن "الجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك" (1).

وشعراء مكة والمدينة قد وفقوا إلى إعطاء تلك المضامين التي تحدثوا عنها ما يناسبها من ألفاظ وعبارات ، وحسبنا - فضلاً على ما تقدم - أن نستمع إلى هذا الأسلوب الجزل للشاعر محمد النهروالي في حديثه عن سنان باشا وجيشه الذي فتح اليمن ، حيث يقول :

وَحِينَ أَتَاهُ أَنْ قَدْ اخْتَلَّ جَانِبٌ مِنْ الْيَمَنِ الْأَقْصَى أَصَرَ عَلَى
وَسَاقَ لَهَا جَيْشاً خَمِيساً عَرْمَماً تُذَكُّ فِجَاجَ الْأَرْضِ فِي السَّهْلِ
لَهُمْ أَسَدٌ شَاكِي السِّلَاحِ عَرِيْنُهُ طَوَالَ الرِّمَاحِ السَّمْهَرِيَّةِ وَالْبُتْرِ
وَزَيْرٌ عَظِيمُ الشَّانِ ثَاقِبٌ رَأْيُهُ يُجَهِّزُ فِي آنٍ جُيُوشاً مِنَ الْفِكْرِ
يَقُومُ بِأَعْبَاءِ الْوِزَارَةِ قَوْمَةٌ تَشُدُّ جُيُوشَ الدِّينِ بِالْأَيْدِ

وقد يرق أسلوب الشاعر في الحالات التي تتطلب ذلك ، كالرثاء في مثل قول الشاعر محمد بن علي بن ظهيرة راثياً الشيخ عبدالقادر المالكي :

فَلَا غَرَوَ أَنْ أَضَحَّتْ عَلَيْهِ مَدَامِعُ تَفِيضُ مِنَ الْأَجْفَانِ مِنْ لَوْعَةٍ
ولحالة الشاعر حين ينجي ربه - مبتهلاً إليه ، طامعاً في عفوه -

(1) المثل السائر 275/1.

(2) البرق اليماني ، النهروالي ، ص 14.

(3) نيل المنى ، محمد بن فهد 317/1.

عظيم الأثر في أسلوبه ؛ حيث نجد الأفكار تصاغ بلغة تفيض رقة ، من ذلك قول الشاعر معمر بن عبد القوي ، معترفاً بتقصيره ، متوسلاً إلى ربه ، راجياً مغفرته :

يَا رَبِّ إِنِّي بِالتَّقْصِيرِ مُعْتَرِفٌ وَمِنْ ذُنُوبِي فِي خَوْفٍ وَفِي وَجَلٍ
... وَلَيْسَ لِي عَمَلٌ أَرْجُو النِّجَاةَ بِهِ إِلَّا رَجَاؤُكَ يَا مَنْ جُودُهُ أَمْلِي
وَقَدْ سَأَلْتُكَ يَا وَهَّابُ مَغْفِرَةً تَمْحُو بِهَا كُلَّ مَا أَسْلَفْتُ مِنْ زَلَلٍ
وَتُوبَةَ لَيْسَ فِيهَا مَا يُكَدِّرُهَا تَجْلُو بِهَا الْحَالَ مِنْ قَبْلِ أَنْقِضَا

كما أن الشعراء في وصفهم وغزلهم ، بل وفي تعبيرهم عن الآلام وشكواهم وأشواقهم إلى من يحبون قد مالوا إلى الرقة ، فتحقق بذلك التلاؤم بين الألفاظ والمعاني . من ذلك قول الشاعر أحمد العليف يصف فتاة ذات حسن وبهاء :

عَذْرَاءُ تُعْرِبُ عَنْ فَضْلٍ وَإِنْ نَطَقَتْ تَبَسَّمَتْ عَنْ نَفْسِ الدَّرِّ فِي الصَّدَفِ
بَيِّضَاءُ مَكْحُولَةٌ قَدْ زَانَهَا حَوْرٌ فِي لَحْظِهَا زِينَةُ الْأَجْفَانِ بِالْوَطْفِ
تَمِيسُ كَالْبَانَةِ الْغَنَاءِ إِنْ خَطَرَتْ تَكَادُ تَنْقُدُ مِنْ لَيْنٍ وَمِنْ تَرَفٍ (2)

والحقيقة أن اللغة صدى للعاطفة ؛ فبعض الشعراء – مثلاً – قد أبانوا عن حبهم للرسول ع في قصائد وضحت من خلالها رقة العاطفة لدى كل من أولئك الشعراء ، فكان لذلك الأثر الكبير في اللغة التي عبروا من خلالها عن مشاعرهم ؛ حيث جاءت قصائدهم حافلة بالرقة والعذوبة في الألفاظ والسهولة واللفظ في العبارات ، كقول الشاعر إبراهيم الخجندي :

بِإِلَهِ حَبِّي غَنِّ لِي عَنْ وَخِي لَيْلِي وَالسَّمَرِ
وَعَنْ الْعُذْيَبِ وَبَارِقِ وَعَنْ السَّحَابِ مَعَ الْمَطَرِ
وَعَنْ الْغَوِيرِ وَحَاجِرِ مَعَ سَاكِنِيهِ وَالْغُرَرِ
... وَعَنْ الثَّيَّاتِ الثِّي مِنْهَا اسْتَبَانَ لَنَا الْقَمَرُ

(1) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1207/2.

(2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 48/ب.

بَذْرٌ ثَوَى وَسَطَ (الْحَشَا ١) فَلَا فِرَارَ وَلَا مَفْرَ
 حَتَّى أَرَى ذَاكَ الْبَهَا ذَاكَ الْمَنَى ذَاكَ الْوَطْرَ
 وَأَحْطَ خَدِّي فِي الثَّرَى وَأَقُولُ يَا سَيِّدَ مُضَرَ
 مِنِّي الصَّلَاةُ عَلَيْكَ وَالتَّ — سَلِيمُ يَا خَيْرَ الْبَشَرِ (2)

وعلى الرغم من مجيء هذه الأبيات على نهج أهل التصوف الذين أخرجوا المديح النبوي في قالب الغزل ؛ فإنها تمتاز بعذوبة الألفاظ وسلاسة العبارات.

وليست العذوبة مقصورة على الألفاظ الرقيقة فحسب ، بل إنها يمكن أن تتحقق في الجزل منها ، يقول ابن الأثير : "ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجهية البداوة ، بل أعني بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع ، وكذلك لست أعني بالرقيق أن يكون ركيكاً سفساً ، وإنما هو اللطيف ، الرقيق الحاشية ، الناعم الملمس" (3) .

وقد تحققت العذوبة والجزالة في مثل قول الشاعر عبداللطيف بن أحمد باكثير (4) :

أَنَا قَاعَةُ الْمَجْدِ الَّتِي هَتَفَ الْفَخَارُ بِهَا وَغَرَّدَ
 ... أَسْمُو عَلَى ذَاتِ الْعَمَا دِ وَأَزْدَرِي الصَّرْحَ الْمَمَرَّدَ
 وَأَطَاوِلُ السَّبْعِ الطَّبَا قَ وَلَا أَرَى الْإِكْلِيلَ مَقْعَدَ (5)

وقصر الكلمات يزيد من عذوبتها وخفتها على اللسان والسمع ، مما يثري الموسيقى الداخلية ، وهو أيضاً من الدلائل على فصاحة الشاعر ؛

(1) في المصدر : الحشا . والهمزة ؛ لإقامة الوزن .

(2) التحفة اللطيفة ، السخاوي 106/1 .

(3) المثل السائر 275/1 .

(4) هو عبداللطيف بن أحمد بن محمد بن سلمة بن عبدالرحمن بن عمر باكثير . ولد بمكة المشرفة سنة 911 هـ . أخذ العلم عن والده وعن إخوانه وبعض العلماء في الحرمين وفي الشام ، وبرع في العلوم العقلية والنقلية وفاق أقرانه ، درّس في بعض مدارس الشام ، وفي المسجد الحرام ، وتولى قضاء الشافعية في الحجاز ، ونظر الحرم الشريف ، وخطبة الموقف في عرفات ، توفي سنة 946 هـ .

- انظر ترجمته في : السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 226/أ - 230/أ .

(5) السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 229/ب .

فابن سنان الخفاجي قد ذكر أن اعتدال الكلمة (قلة حروفها) من شروط الفصاحة (1).

ومن الألفاظ القصيرة العذبة ذات الإيقاع المؤثر قول الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي مادحاً الرسول ع :
جَبِينَهُ قَمَرٌ قَدْ زَانَهُ خَفَرٌ وَثَغْرُهُ دُرٌّ غَرٌّ وَمَرْجَانُ
فَالْبَدْرُ يَخْجَلُ مِنْ أَنْوَارِ مُهْجَتِهِ وَالشَّمْسُ مِنْ حُسْنِهِ الْوَهَّاجِ

-2-

والألفاظ المبتذلة قليلة في نتاج الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، أعني بذلك الألفاظ التي لاكتها العامة حتى عطلت إشعاعها . ولغة الأدب ينبغي أن تكون وسطاً بين الغرابة والابتذال ؛ ولذلك فإن لفظة (الدماغ) مبتذلة في قول الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي :

أَصَابَتْ أَخِي ضَرْبَةً فِي الدِّمَاغِ وَأَخْشَى تَصِيرُ بِهِ لِلْحِمَامِ (3)

والألفاظ التي تتحدث عن بعض الخضر والأكلات ومواد الطبخ تفسد الشعر إن أقحمت فيه ، كقول الشاعر محمد النهروالي :
الْمِلْحُ وَالْكُرَاتُ أَشْهَى عِنْدَنَا مِنْ أَكْلِ مَأْمُونِيَّةٍ بِالسُّكَّرِ (4)

وقد يدخل الشاعر في كلامه لفظة عامية أو مولدة أو أجنبية أو فصيحة مبتذلة ، فلا توصف بالابتذال إذا كان السياق يقتضي ذلك كأن تكون في مقام هجاء ، مثل قول الشاعر علي بن ناصر الحجازي :

فَقُلْ لَهُمْ نَكَبُوا عَنْ طَرَفِهَا فَمَتَى لَزْتُ مَعَ الْجُودِ فِي مِضْمَارِهَا

تَرْحَرُّوا عَنْ مَقَامِ الْمَجْدِ مَرَابِضُ الْأَسَدِ لَا تَدْنُو لَهَا الْبَقَرُ (5)

فَلَفِظْتُ (الْحُمُرُ) و(البقر) مناسبتان في هذا السياق ، وقديماً قال البحتري :

(1) سر الفصاحة ، ص78.

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1226/2.

(3) ديوان الزمزمي ، ورقة 68/ب.

(4) رحلة الشتاء والصيف ، محمد كبريت ، ص152.

(5) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 142/3 ، 143.

عَلَيَّ نَحْتُ الْقَوَافِي مِنْ مَقَاطِعِهَا وَمَا عَلَيَّ لَهُمْ أَنْ تَفْهَمَ الْبَقْرُ (1)

ولغة الحياة اليومية مقبولة إن جاءت في الأسلوب من باب التطرف ، كقول الشاعر عبدالرحمن بن علي الواحدي :

شَهْرُ الصَّيَّامِ تَقَضَّتْ أَيَّامُهُ بِالتَّهَانِي
قَالُوا اكْمَلُوهُ بِسِيَّتٍ فَقُلْتُ سِيَّتِي أُمُّ هَانِي (2)

لفظة (الست) ، أي (السيدة) لفظة مولدة تجري على السنة العامة ، لكنها قد تكون مقبولة في مثل هذه الحالة "فدلالات الألفاظ والتراكيب لا تتحدد غالباً بمعزل عن مقتضيات أحوالها التي اشترط البلاغيون تحقيقها في الكلام الفصيح حتى يوصف بالبلاغة ، ومقتضى الحال أساس قديم للبلاغة" (3) .

واتسم أسلوب الشعر لدى طائفة من الشعراء باللغة العلمية ، فبات أقرب إلى النظم منه إلى الشعر ، وترددت الأساليب النثرية التي ليس لها من الشعر إلا الوزن والقافية ، كقول نابت الزمزمي في ختام مدحة لتقي الدين محمد بن فهد :

أَبْقَاهُ رَبِّي فِي خَيْرٍ وَفِي نَعَمٍ وَرَدَّ كَيْدَ الْعَدَى عَنْهُ وَمَنْ حَسَدَا
قَدْ قَالَ ذَلِكَ عَبْدٌ وَهُوَ مُعْتَذِرٌ مُقْصِرٌ يَبْتَغِي إِغْضَاءَ مَنْ نَقَدَا
الزَّمْزَمِيُّ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ نَابِتٌ مَنْ يَرْجُو لَزْلَاتِهِ عَفْوَ إِلَهِ غَدَا (4)

وكقول محمد النهروالي :

أَفِيقْ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَحْمَتُهُ عَمَّتْ جَمِيعَ الْعِبَادِ (5)

وتسللت إلى شعرهم عبارات عديدة ليست من لغة الشعر ، مثل (هذا وليس القصد) في قول عبدالرؤوف الواعظ من قصيدة هنا بها الشيخ حسين المالكي ، حينما ولي قضاء المدينة :

(1) ديوان البحري 955/2.

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 815/2 ، ولفظة (تقضت) في المصدر (انقضت) ، وقد رجعت إلى الأصل المخطوط (ورقة 118/ب) فوجدتها كما أثبت .

(3) ظاهرة الابتذال في اللغة والنقد ، محمد علي رزق الخفاجي ، ص 6 .

(4) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1227/2 .

(5) الفوائد السنينة في الرحلة المدنية والرومية ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س 16 ، ج 7 ، 8 ، محرم وصفر 1402هـ).

هَذَا وَلَيْسَ الْقَصْدُ إِلَّا مَكَّةَ فَلَاكَ التَّرْقِي وَالْمَرَاتِبُ كَالْخَدَمِ (1)

ومن ذلك (بالجملة والتفصيل) في قول محمد النهروالي :

هَذَا وَبِالْجُمْلَةِ وَالتَّفْصِيلِ إِنِّي كَمَا تَعْهَدُ يَا خَلِيلِي (2)

وتردت أساليبهم من جراء العبارات النثرية وضعف السبك ، يتضح ذلك في مثل قول نابت الزمزمي :

وَبَعْدَ ذَا فَلَقَدْ أَفَادَ سَيِّدُنَا وَشَيْخُنَا الْعَالِمُ الْحَبْرُ الَّذِي

والتقريرية سمة بادية على نتاج طائفة من الشعراء ، حتى إن المتابع ليلحظ السرد وتراكم المفردات والتراكيب الوصفية بدلالاتها العادية اليسيرة ، نجد ذلك في مثل قول الشاعر عبدالمعطي باكثير مخاطباً شيخ بن عبدالله العيدروس :

قَدْ عِشْتَ فِي أُمِّ الْقَرْي دَهْرًا عَلَى تَحْصِيلِ عِلْمٍ ثُمَّ دَرَسَ قَرَانِ

وَعِبَادَةٍ وَزَهَادَةٍ فِي خُلُوءٍ مُتَسَتِّرًا عَنْ سَائِرِ الْإِخْوَانِ

وَكُتِبَتْ فِي الْحَجَّاجِ وَالْعُمَارِ وَالْزَّوَارِ وَالْعِبَادِ مُنْذُ زَمَانِ (4)

وتتضح تقريرية الأداء والسرد فيما وجد لدى شعراء المدائح النبوية من ذكر لأسماء المواقع التي يمرون بها في رحلتهم إلى المدينة المنورة ؛ حيث تتحول القصيدة عندهم إلى معجم لأسماء الأماكن ، من ذلك قول الشاعر محمد النهروالي عن الركب السائرين نحو طيبة الطيبة :

مَرُّوا بِمَرٍّ ثُمَّ بِالْبَرْقَاءِ دُجَى وَاسْتَقْبَلُوا صُبْحاً رَبَّاً عُسْفَانِ

وَطَوَّوْا خُلَيْصاً ثُمَّ مِنْهَلٍ رَابِعٍ وَالْخَبْتِ فِي نَصٍّ وَفِي ذَمْلَانِ

وَقَضَوْا بِبَذَرٍ مَارَباً وَتَيَمَّمُوا الصَّافِرَاءِ ثُمَّ الْخَيْفَ ذَا الْأَفْنَانِ

وَبِذِي الْحُلَيْفَةِ طَابَ مَسْعَاهُمْ وَقَدْ هَمُّوا مِنَ الْأَشْوَاقِ بِالطَّيْرَانِ

وَتَوَجَّهُوا نَحْوَ الْمَدِينَةِ ضَحْوَةً قَرُّوا بِهَا عَيْنًا مَعَ الرُّكْبَانِ (5)

(1) السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 372/ب.

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص500.

(3) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1227/2.

(4) النور السافر ، العيدروس ، ص491.

(5) الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية ، النهروالي ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة

-3-

والمعجم الشعري في تلك البيئة الدينية حافلٌ بكثير من الألفاظ الإسلامية ، كلفظ الجلالة ، وصيغ الدعاء بذكر أسماء الله الحسنى كالإله ، والرحمن ، والرزاق ، والوهاب ، كما تكرر ذكر نبينا محمد ﷺ باسمه وبنعوته كالرسول ، والنبى ، والبشير ، والمصطفى ، وشاع الحقل الدلالي للأخلاق ، مثل : الفضائل والسماحة والتقوى ، وترددت لفظة العلم في مديح العلماء ، كما شاعت بعض الألفاظ في مديح الأمراء والسلاطين وفي الشعر السياسي كالشجاعة والهمة والعزيمة ونحوها مما يتصل بالقوة ، ومما شاع أيضاً لفظة الكرم ومرادفاتها ، كالجود والعطاء والندى.

ولا شك أن لتلك البيئة التي تعج بالعلماء وحلقات الذكر الأثر الكبير في شيوع تلك الألفاظ الإسلامية والدلالات النبيلة لمفردات المعجم الشعري لشعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، كما أن الحروب التي شهدتها ذلك العصر قد ألقت بظلالها على لغة الشعر ؛ فرأينا غلبة الألفاظ التي تدل على القوة في مدائح الشعراء للأمراء والسلاطين . وبسبب الحالة النفسية التي تصاحب الشعراء عند مفارقة موطنهم ؛ رأينا استفهام التمني يتكرر في حنينهم وشكواهم مرددين عبارة (ليت شعري) المصحوبة بحرف الاستفتاح (ألا) قبلها وحرف الاستفهام (هل) بعدها . وحنينهم ذو مزية ظاهرة – كما سلف في شعر الحنين – لخصوصية المكان وسمو الوجهة ، فالشاعر علي بن أيوب (ابن الشيخة) يصدق بأمنيته ، كاشفاً عن عاطفته الإسلامية بقوله :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَزُورَنَّ رَوْضَةَ ⁽¹⁾ بِهَا خَيْرَةُ اللَّهِ الْمُهَيَّمِينَ مِنْ خَلْقِهِ

وتتضح عاطفته الإسلامية من خلال تكرار هذا الأسلوب الإنشائي في أكثر من قصيدة ، من ذلك قوله أيضاً :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةَ ⁽²⁾ بِوَادِي مَنَى حَيْثُ الذَّنُوبُ تَزُولُ

هذا ، وإن التكرار أسلوب عرفه أدبنا العربي منذ القدم . وقد ورد في

=

العرب : س16 ، ج7 ، 8 ، محرم وصفر 1402هـ).

(1) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1005/2.

(2) المصدر نفسه 1005/2 ، وقد جاءت لفظة (تزول) في المصدر (نزول) بالنون ، فرجعت إلى الأصل المخطوط (ورقة 150/ب) فألفيتها كما أثبتتها (بالتاء).

الشعر والنثر لأغراض مختلفة ، قال ابن فارس : "ومن سنن العرب التكرار والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر" (1) .

وقد جاء التكرار في أساليب شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين . وعلى الرغم من أنه ورد في مختلف الأغراض ، فإنه في رثائهم أكثر ، وهذا أمر طبعي ؛ فمن يدقق النظر في شعر الأسلاف ، يجد أن التكرار وثيق الصلة بالرثاء ، وأن الحالة النفسية للراثي هي أهم الأسباب المؤدية إلى التكرار ، وقد أشار النقاد إلى ذلك ، كابن رشيق الذي يرى أن "أولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء ؛ لمكان الفجيلة وشدة القرحة التي يجدها المتفجع" (2) .

فقد يفقد الشاعر عزيزاً ، فيكتوي فؤاده أسى على فراق من يحب ، فيجد في التكرار راحة حين يبث من خلاله شيئاً مما يتضرم به قلبه ، كتكرار الشاعر عبدالرحمن باكثير (لهف قلبي) حين فقد أحد أحبائه ، حيث قال متلهفاً على تلك الخصال التي كان يتمتع بها الفقيد :

لَهْفَ قَلْبِي عَلَى مَنَاهِلِ حُبٍّ قَدْ صَفَتْ لِي مِنْهُ بِغَيْرِ زَحَامٍ
لَهْفَ قَلْبِي عَلَى صَفَاءِ وَدَادٍ لَمْ يُكْدَرْ بِجَفْوَةٍ وَمَلَامٍ
لَهْفَ قَلْبِي عَلَى عُقُودٍ وَلَآئٍ لَمْ تُغَيَّرْ وَثِيقَةُ الْإِبْرَامِ (3)

وهذا شبيه بتكرار ابن الرومي (لهف نفسي) في قصيدته التي أنشأها في رثاء أهل البصرة حينما وقعت في يد الزنج ، حيث كرر تلهفه على البصرة في مطالع الأبيات ، وتلاها بنعوت تنبئ عن اعتزازه بتلك المدينة ؛ إذ علل تلهفه بأنها معدن الخيرات وقبة الإسلام وفرضة البلدان (4) .

وقد يكون التكرار من خلال الحقل الدلالي ، كما فعل عبدالعزيز بن علي الزمزمي حين أظهر لوعته وبث حزنه على فقد صديق أثير عنده من خلال تكرار حرف النداء (يا) ونعت الفقيد المنادى مرة بالجليس وثانية بالصديق وثالثة بالسمير . وتكرار النداء مع هذه الألفاظ المجتمعة في الحقل الدلالي تأكيد على صلة المرثي بالشاعر ومدى قربه منه ،

(1) الصاحبي ، ص 77.

(2) العمدة 76/2.

(3) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 39/ب.

(4) انظر ديوان ابن الرومي 2377/6 ، 2378 ، وانظر تلهفه على شبابه في ص 2368 ، 2369 .

وفجيعته على فقده .

يقول الزمزمي :

يا جَلِيسِي الَّذِي عَلَى كُلِّ خَيْرٍ فِعْلُهُ دَلٌّ وَالْمَقَالُ وَنَبَّهُ
يا صَدِيقِي الَّذِي يُكَافِحُ عَنِّي زَمَنِي إِنْ عَدَا وَيَذْفَعُ خَطْبَهُ
يا سَمِيرِي لَقَدْ تَقَرَّحَ جَفْنِي سَهراً مُذْ أَتَى الرَّدَى إِنْ تَبَّهُ (1)

ومن الشعراء من كان مقرباً من بعض الأمراء ، حتى إذا ما قضى الأمير نحبه ، أظهر الشاعر الأسى على فراقه ، وربما على فراق ما كان يصله من عطاء ذلك الأمير ، وما كان يجده من مكانة إبان حياته . ومن أولئك الشعراء حسين العليف الذي كرر الفعل الماضي (مات) في رثائه الشريف حسن بن عجلان ، حيث يقول :

ماتَ الَّذِي يُعْطِي الْوَجَابَ بِنَخْلِهَا وَيَجُودُ جُرْدَ الْخَيْلِ بِالْأَرْسَانِ
...ماتَ الَّذِي أَعْطَى وَأَمْضَانِي بِمَا أَقْنَى وَأَغْنَانِي بِمَا أَقْنَانِي
...ماتَ الَّذِي لَوَجِئْتُ أَطْلُبُ كُلَّ مَا قَدْ حَلَّ فِي أَعْطَانِهِ أَعْطَانِي
ماتَ الَّذِي أَعْلَى عَلَى هَامِ السُّهَى قَدَرِي وَفَوْقَ النَّيِّرِينَ مَكَانِي (2)

والحاح الشاعر على الفعل (مات) في مطالع الأبيات ، وحديثه بعد ذلك عن الأفعال الكريمة للمرثي وتقديره له إشارة واضحة إلى أسى الشاعر على فقده . وقد جاء الفعل الماضي هنا موحياً بحزن الشاعر على رحيل تلك الأيام الجميلة التي كانت تجمعها بالأمير ، حيث كان السعد بنواله وصحبته.

وقد كرر الشاعر في القصيدة نفسها الفعل المضارع (تبكي) مؤذناً بذلك عن استمرار الحزن على رحيل الأمير ، محاولاً استغلال هذا التكرار لبيان مكانة الأمير وأثر فقده على كل بقعة ، وعلى كل قبيلة ، بل إنه ليبالغ فيعم بذلك الإنس والجن . وقد جاء تكراره من خلال السرد الممل ، بادئاً بذكر مكة ومواضعها الطاهرة ، حيث أنطقها بكاءً عليه قائلاً :

تَبْكِي عَلَيْكَ أَبَا عَلِيٍّ مَكَّةَ الـ غَرًّا وَيَبْكِي الْبَيْتُ ذُو الْأَرْكَانِ

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص343.

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 387/2 ، 388.

يَبْكِي الْمُصَلَّى وَالْحَطِيمُ وَزَمَزَمَ وَالْحَجَرُ وَالْحَجَرُ الْعَظِيمُ الشَّانِ
يَبْكِي الصَّافَا وَالْمَرْوَتَانِ وَمَنْ سَعَى فِيهِنَّ مَنْ مَاشٍ وَمِنْ رُكْبَانِ
... تَبْكِي عَلَيْكَ قَبَائِلُ الْيَمَنِ الَّذِي أَغْنَيْتَ قَاصِيَهَا مَعَاً وَالذَّانِي
تَبْكِي بَنُو سَامٍ وَحَامٍ فِي الْوَرَى يَبْكِي لَكَ الْإِنْسِيُّ ثُمَّ الْجَانِي (1)

وتكرار مطالع الأبيات سمة ظاهرة في أسلوب الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، ليس في الرثاء فحسب – كما تبين فيما سبق من أمثلة – بل في سائر الأغراض . وأكثر الشعراء تناولاً لذلك عبدالرحمن باكثير الذي يقول في إحدى مدائحه للشريف أبي نمي ، مركزاً على شرف أصله :

نَجَلُ مَنْ أَظْهَرَ الشَّرَائِعَ وَالْحَقَّ وَأَمْسَى لِمَلَّةِ الْكُفْرِ مَاحِ
نَجَلُ مَنْ جَاءَنَا بِدِينٍ عَرَفْنَا مِنْهُ حُكْمِي حَلَالِهِ وَالْمُبَاحِ
... نَجَلُ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِيهِ مِنْ جُمْلَةِ الْمَدَاحِ (2)

والواضح أن الشاعر أراد أن يؤكد هذه الصفة التي تعد مفخرة للممدوح ، فكرر لفظة (نجل) في مطالع الأبيات السابقة . والتكرار إدراك من الشاعر أنها من أَجَلِ الصفات التي يمكن أن يقدّم بها الممدوح على غيره.

وقد يكرر الشعراء في غزلهم اسم المحبوبة تلوذاً ، أو يكررون صفة موحية بالنعومة واللين ، ينطلق منها الشاعر في بداية كل بيت ، مفصلاً أمارات الجمال ، كما فعل الشاعر علي الجم حينما كرر (غادة) في مطالع أبياته ، مصوراً تلك الغادة بقوله :

غَادَةٌ فِي وَشَاحِهَا حِينَ تَبْدُو مِنْ لَالِي حُلِيِّهَا فِي جُرُوزِ
غَادَةٌ تَسْلُبُ الْبُدُورَ إِذَا مَا سَفَرْتُ عَنْ مُوشَمِّ مَغْرُوزِ
غَادَةٌ قَدْ سَعَتْ بِكَأْسِ مُدَامٍ مَرْجَتْهُ بِالْغَنَجِ وَالتَّغْمِيزِ (3)

فإيحاء هذه الصفة وما تحمله من رقة وعذوبة يشد المتلقي حين

(1) المصدر نفسه 391-388/2.

(2) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 28/ب.

(3) سمط النجوم العوالي ، العصامي 374/4. والجروز : جمع الجزر ، وهو لباس النساء من الوبر والفرو الغليظ .

تكرارها ، ويجعله متشوقاً إلى متابعة الشاعر .
ومن الشعراء من يتخذ من تكرار الاستفهام في الغزل وسيلة فنية لاستجلاء صفات الجمال ومواطن الحسن ، كالشاعر محمد النهروالي الذي أصيب بالدهشة والحيرة من تلك المفاتن المجتمعة في فاتنته ، حتى أصبح لا يدري أهذا الذهول الذي أصابه من آثار وجده مما رأى ، أم أنه قد جُنَّ ، حيث يقول :

أَتَفَاحَةٌ أَمْ وَجَنَةٌ بِدِمَائِنَا مُضَرَّجَةٌ أَمْ ذَا الشَّقِيقِ أَمْ الْوَرْدُ
أَتَغْرِكِ أَمْ بَرْقٌ يَلُوحُ سَنَاوُهُ أَمْ اللَّوْلُؤُ الْمَنْظُومُ أَعَوَزَهُ الْعِقْدُ
أَرِيقُكِ أَمْ مَاءُ الْحَيَاةِ أَمْ الطَّلَا أَمْ السَّلْسَبِيلُ الْعَذْبُ هَذَا أَمْ الشَّهْدُ
أَمِغْطُفُكِ الْمَيَّاسُ فِي حُلِّ الصَّبَا أَمْ الْأَسْلُ الْعَسَّالُ يَهْتَزُّ أَمْ قَدْ
أَهَذَا كَثِيبُ الرَّمْلِ أَمْ كَفَلُ يَرَى أَخَصُرُ بِهِ دَارَ النَّطَاقِ أَمْ الْبَنْدُ
تَشَابَهَتْ الْأَرَا فَلَمْ أَدْرِ مِنْ جَوَى أَهَذَا جُنُونٌ قَدْ عَرَانِي أَمْ وَجْدُ (1)

وقد يكون في التكرار غنى للمعنى إذا "استطاع الشاعر أن يسيطر عليه سيطرة كاملة ، ويستخدمه في موضعه ، وإلا فليس أيسر من أن يتحول هذا التكرار نفسه بالشعر إلى اللفظية المبتذلة التي يمكن أن يقع فيها أولئك الشعراء الذين ينقصهم الحس اللغوي والموهبة والأصالة" (2) .

ومن التكرار الذي لا يضيف للمعنى شيئاً ذا بال قول الشاعر علي بن محمد الفاكهي حينما رأى فهرست كتب لتقي الدين محمد بن فهد :

وَقَفْتُ عَلَى فِهْرِسْتِ كُتُبٍ لِشَيْخِنَا بِهَا ذِكْرُهُ بَيْنَ الْبَرِيَّةِ قَدْ فَشَا
فَأَلْفَيْتُهَا أَلْفًا وَأَلْفًا وَثَالِثًا وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ (3)

ولو قال : ثلاثة آلاف ؛ لكفانا هذا التكرار الخالي من الإحياء . وهو غير بعيد من أبي نواس حينما قال :

أَقْمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا وَيَوْمٌ لَهُ يَوْمُ التَّرْحَلِ خَامِسُ (4)

(1) الفوائد السننية ، النهروالي ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س16 ، ج7 ، 8 ، محرم وصفر 1402هـ).

(2) قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، ص 263 ، 264.

(3) الدر الكمين ، عمر بن فهد 395/1.

(4) ديوان أبي نواس ، ص37.

وقد يأتي التكرار مملاً في بعض الأساليب ، حينما يتخذ منه الشاعر وسيلة للتفصيل والسرد ، كقول عبدالعزيز بن علي الزمزمي :

وَمَا كَانَ هَمِّي مِنْ عَدُوٍّ أَخَافُ مِنْ أَذَاهُ عَلَى نَفْسٍ وَمَالٍ وَأَشْفَقُ
وَلَا مِنْ حَبِيبٍ بَتَّ مِنْهُ مُتِيماً وَهَلْ شَائِبٌ مِثْلِي يُحِبُّ وَيَعْشَقُ
وَلَا أَنَا ذُو دُنْيَا وَلَا ذُو وَلَايَةٍ بِتَذْيِيرِهَا مِنِّي الْفَوَادُ مُعَلَّقُ
وَلَا رَاكِبٌ بَحْرًا أَفْكَرُ لَيْلَتِي جَمِيعاً أُنْجُو مِنْهُ أَمْ فِيهِ أَغْرَقُ
وَلَا ذَهَبَتْ نَفْسِي إِلَى الْفِكْرِ فِي تَصِيرِ إِلَيْهِ وَهُوَ بِالنَّفْسِ أَلِيقُ
وَلَا الْفِكْرُ فِي شَأْنِ الْعِيَالِ أَهْمَنِي وَتَوْقاً بِأَنَّ اللَّهَ لِلْخَلْقِ يَرْزُقُ
وَلَا حَمْلُ عِبَاءٍ مِنْ دُيُونٍ كَثِيرَةٍ بِهَا أَنَا مَا بَيْنَ الْبَرِيَّةِ مُوثِقُ
وَلَكِنْ هَمِّي لِلَّتِي سَقَمَ جَفْنُهَا أَبِي أَنْ أَجْفَانِي عَلَى الْغَمَضِ

فعلى الرغم من تكرار (لا) النافية المسبوقة بواو العطف سبع مرات في هذه الأبيات ، فإننا لا نكاد نجد ذلك الأثر الإيجابي لهذا التكرار ، وربما يكون من أهم أسباب ذلك أنه جاء في خضم هذه التجربة الأدبية الضعيفة . ومما ينبغي التنبيه إليه أنه "لا ترتفع نماذج هذا اللون من التكرار إلى مرتبة الأصالة والجمال إلا على يدي شاعر موهوب يدرك أن المعول في مثله ، لا على التكرار نفسه ، وإنما على ما بعد الكلمة المكررة ، فإن كان مبتذلاً ، رديئاً ؛ سقطت القصيدة" (2) .

-4-

ونهج الشعراء الأسلوب البديعي ؛ فظهر التكلف في كثير من نماذجه . وأكثر الفنون البديعية تناولاً لدى الشعراء الجناس ، كقول أحمد القليوبي مادحاً الشريف بركات بن حسن بن عجلان :

تَقِيَّ نَقِيٍّ طَاهِرٌ ظَاهِرٌ حَمَى حَمَى الدِّينِ والدُّنْيَا فَلَا زَالَ يُنْصَرُ
... بِجِدٍّ وَجَدِّ قَدْ عَلَا وَغَلَا مَعَا وَلَا غَرَوْ أَنْ يَغْلُو شَرِيفٌ

وقد ورد الجناس في القرآن الكريم وفي الشعر العربي القديم ، فهو ليس بمذموم إن جاء حسبما يتفق للشاعر ويحضر في خاطره ، يقول

(1) ديوان الزمزمي ، ورقة 95/أ.

(2) قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، ص 264.

(3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 504/2 ، 505.

عبدالقاهر الجرجاني : "أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه" (1) .

لكنه غير مقبول حينما يأتي وقد ظهر عليه التصنع وبأن الشاعر قد سعى إليه وجدّ في طلبه ، صارفاً المعنى من أجل تحقيقه ، كقول محمد بن عبدالقوي في مديح الشريف حسن بن عجلان :

وَكَسَرْتَ كِسْرَى عَنْ تَعَاظِي تَيْهِهِ وَقَصَرْتَ قَيْصَرَ عَنْ مَدَى
وَسَلَبْتَ عَنْ نِعْمَانٍ نِعْمَةً مُلْكِهِ لَمَّا نَعَى فِي الْحِيرَةِ الْفَيْحَاءِ
... لَكَ تَبَعٌ فِيمَا تَمَلَّكَ تَابِعٌ وَكَذَلِكَ الْمَاضِي مِنَ الْعُظْمَاءِ (2)

ويقيني أنه لم يأت بألفاظ (كسرت ، قصرت ، نعمة ، تابع) إلا ليحقق التجانس مع تلك الأسماء (كسرى ، قيصر ، نعمان ، تبع).

ومن التكلف الذي انحدر بأسلوب الشعر قول عبدالله بن أبي الخير ممتدحاً الشريف بركات بن محمد :

بَعِيدُ الْمَدَى مِنْ ذِي الْعِدَى فَائِضٌ عَفِيفُ الرِّدَا مُهْدِي الْهُدَى سَيِّدٌ
قُرِينُ السُّهَى يُعْطِي اللَّهَى فَاتِحُ الْهَى بَدِيعُ النَّهَى رَبُّ الْبَهَا كَامِلٌ

بل إن من الشعراء من يجري خلف الجناس قصداً ، فيقحم ألفاظاً مبتذلة ، غير مكترث بذلك ما دام قد حقق التجانس الذي أراده ، كلفظة (جرمي) في قول الشاعر أحمد القليوبي :

عَسَى بِهِ اللَّهُ أَنْ يَغْفُو وَيَصْفَحَ عَنْ جُرْمِي وَجُرْمِي وَإِسْرَارِي
والحاح الشعراء على الصنعة قادهم إلى الركافة ، وبخاصة أن كثيراً من المشتغلين بالعلم قد اقتحموا ساحة الشعر ، ظانين أن الأمر لا يحتاج إلى موهبة تشعلها العاطفة والتجربة ، بل يكفي أن يكون الواحد منهم مقتدراً على قول أبيات معدودة موزونة ، ليسجل اسمه في قائمة الشعراء ، فلنستمع إلى مبلغ ما وصل إليه التكلف لدى تلك الطائفة من الشعراء في مثل قول محمد بن علي العبدري في جلال الدين البلقيني :

عَوْدُ الْإِمَامِ لَدَى الْأَنَامِ كَعِيدِهِمْ بَلْ عَوْدٌ لَا عِيدٌ أَعَادَ مِثْلَهُ

(1) أسرار البلاغة ، ص7.

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 381/2.

(3) المصدر نفسه 163/3 ، 164.

(4) الدر الكمين ، عمر بن فهد 528/1.

أَجْلَى جَلالِ الدِّينِ عَنَّا غَمَّةٌ زَالَتْ بِعَوْنِ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ (1)

ومن الشعراء من أضاف إلى الجنس لونا آخر من البديع وهو التصدير (رد العجز على الصدر) ، وذلك بذكر الكلمة في الشطر الأول ، ثم إعادتها في القافية ، كقول أبي السعادات بن ظهيرة في جلال الدين البلقيني :

هَنِيئاً لَكُمْ يَا أَهْلَ مِصْرَ جَلالِكُمْ عَزِيْزٌ فَكَمْ مِنْ شُبْهَةٍ قَدْ جَلَّ لَكُمْ
وَلَوْ لَا اتِّقَاءُ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ لَقَلْتُ لِفَرَطِ الْحُبِّ جَلَّ جَلالِكُمْ (2)

فقد تكررت لفظة (جلالكم) بمعنى مختلف "ولئن لم تنطو - في الحقيقة - على معنى متجدد ، فقد انطوت على روح صاحبها وقدراته البديعية التي سمحت له التلاعب بالألفاظ والمعاني كيفما شاء" (3) .
والحرص على التصدير قادهم إلى التكلف الواضح ، نجد ذلك في مثل قول الشاعر علي بن داود القادري (4) في الجلال أبي السعادات بن ظهيرة يهنئه بشهر :

شَهْرٌ عَزِيْزٌ عِزُّهُ بِجَلالِكُمْ جَلَّ الَّذِي قَدْ عَزَّكُمْ بِجَلالِكُمْ
يَا أَهْلَ مَكَّةَ سُدْتُمْ بِجَلالِكُمْ جَلَّ الْجَلالُ جَلالِكُمْ بِجَلالِكُمْ
صَغْبُ الْعُلُومِ تَبَيَّنَتْ فَجَلالِكُمْ جَلَّى الشُّرُوحَ جَمِيعَهَا لِجَلالِكُمْ (5)

ومما يدل على أن ذلك لم يكن يجري في شعرهم عفواً من غير كدٍ أنهم يتنافسون في تحقيقه من خلال إخوانياتهم . ولعل ما جرى بين ابن بردبك وعلي الخجندي خير شاهد على ذلك ؛ فقد ورد في كتاب التحفة اللطيفة (6) أن ابن بردبك قال للخجندي : قد عملت أحد عشر بيتاً

(1) الضوء اللامع ، السخاوي 13/9

(2) النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي 238/14.

(3) آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، ياسين الأيوبي ، ص 417.

(4) هو علي بن داود بن علي القادري ، ولد بمكة ، ونشأ بها ، حيث درس على عدد من علمائها والقادمين إليها ، تولى نيابة القضاء في مكة ، كما ولي قضاء جدة وحسبتها ونظر جامعها وأوقافها . توفي في الإسكندرية سنة 842هـ عن عمر يناهز الثلاثين .

- انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 1025/2 - 1028 ؛ الضوء

اللامع ، السخاوي 219/5 ، 220 .

(5) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1027/2 . وقد جاء عجز البيت الثالث في المصدر هكذا :

جل الشروح جميعها فجلالكم .

(6) 247/3 .

وعرضتها على جماعة من شعراء مصر ؛ ليزيدوا عليها بيتاً ، فعجزوا ؛
لالتزامي رد العجز على الصدر المتجانسين ، فسأله إنشادها ، ففعل ،
فكان الحادي عشر منها :

مَا آلَ قَلْبِي جَهْدًا عَنْ مَحَبَّتِهِ حَتَّى الْأَقْيِهِ فِي يَوْمِ الْمَالِ لَهُ

وقد رد العجز وهو (المال) على الصدر وهو (ما آل) مع تجانسهما
، فقال الخجندي بديهة :

إِنْ كَانَ سَافَ لَهُ قَلْبِي قَلَى أَبَدًا فَقَطَّعَ اللَّهُ فِيهِ مِنْهُ سَافِلُهُ

فاستحسن ابن بردبك ذلك وقال : هؤلاء عرب ونظمهم طبع ونظمنا
تكلف . فلما بلغ ذلك الشاعر محمد بن إبراهيم الخجندي (والد علي) قال :
لَوْ رَامَ قَلْبِي سُلوًا عَنْهُ جَادَلُهُ مِنِّْي الْغَرَامُ وَلَوْ دَمْعًا لَجَادَلُهُ

ومما جاء في الغزل من رد العجز على الصدر المتجانسين قول
الشاعر محمد بن أحمد الخجندي :

مِثْلُ مَحْبُوبِي جَمَالٌ مَا نَشَا حَازَ لَيْنَ قَوَامٍ مَا نَشَا

وَحَشَى مُنْذُ تَبَدَّا قَمَرًا شَغَفَا كُلَّ فَوَادٍ وَحَشَا

وَفَشَا دَمْعِي بِسِرِّي عَنَّا يَا شِفَا الْمُهْجَةِ بِالْوَصْلِ شَفَا (1)

ومن الشعراء في مكة والمدينة – في القرنين التاسع والعاشر
الهجريين – من جانس بين كلمات القافية ، حيث جاءت القوافي مشتركة
في الجناس التام (2) ، نجد ذلك في مثل قول الشاعر عبدالرؤوف الواعظ
من قصيدة بلغت أحد عشر بيتاً ، فقى كل واحد منها بكلمة (عودي)
متحدثاً عن حسناء شغلت قلبه :

ذَا طَرْفٍ وَقَامَةٍ مُذْعَرَّتِي بِهِمَا صِرْتُ بَيْنَ سَيْفٍ وَعُودٍ

يَا رَعَاهَا إِلَهُ إِنْ مَعْنَى بِهِوَاهَا قَدْ صَدَّ هَجْرًا وَعُودِي

أَلْبَسَتْهُ بِذَا الْغَرَامِ نُحُولًا وَكَسَتْهُ مِنَ الضَّنَا ثُوبَ عُودِي (3)

والتكلف ظاهر على هذا النص ، حيث راعى الشاعر القافية حين
اهتم بمجيئها كلمة واحدة دون الالتفات إلى بقية الألفاظ والجمل في

(1) الضوء اللامع ، السخاوي 315/6.

(2) انظر حديث الرافعي عن القوافي المشتركة في كتابه (تاريخ آداب العرب 362/3).

(3) السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 373أ.

الأبيات ومدى ملاءمتها للمعنى "ولقد حمل جميع النقاد والأدباء على هذا اللون من النظم ، ورأوا فيه سمة النظم لا سمة الشعر والشعور ، وقالوا : إن خير ما فيه هو الذي انقادت فيه القافية انقياداً سهلاً ، وجاءت متمكنة طائفة غير متكلفة"(1) .

ونوع شعراء مكة والمدينة في أساليب نظمهم ، فجاءوا بمحبوك الطرفين ، وهو نوع من المنظوم تكون فيه كل أبيات القصيدة أو القطعة مبتدأة ومختتمة بحرف واحد من حروف المعجم . وقد ذكر الرافعي أن "أول من جاء بشيء من ذلك أبو بكر محمد ابن دريد (ت 321هـ)"(2) . وممن تناول ذلك الشاعر عبدالمعطي باكثير في قصيدة قافية الروي ، بلغت (26بيتاً) كل واحد منها يبدأ بحرف القاف المماثل للروي ، منها قوله :

قَمَرٌ يُدِيرُ الشَّمْسَ فِي كَاسَاتِهِ وَبِثَغْرِهِ مِثْلُ الْمُدَامَةِ بَلْ أَرَقُ
قَدْ يَحَاكِي السَّمْهَرِيَّ وَمُقَلَّةً كَالسَّيْفِ وَاللَّحْظِ السَّهَامِ إِذَا رَشَقُ
قَوْسُ الْحَوَاجِبِ مُوتَرٌ لِقَتَانَا وَلِذَا قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ عَدَتْ دَرَقُ
قَلِقَ الْوِشَاحُ بِخَصْرِهِ وَتَرَاهُ قَدْ صَمَتَتْ خَلَاخِلُهُ وَدُمْلَجُهُ نَطَقُ (3)

والتورية فن بديعي تصرف فيه الشعراء ، ولا سيما في الأغراض غير الجدية ، كالإخوانيات والغزل ، يقول الشاعر محمد النهر والي :

تَوَقَّ مِنَ الشِّتَاءِ وَلَا تُخَاطِرْ بِنَفْسِكَ قَائِلًا إِنِّي جَلِيدُ
فَرَضْنَا أَنَّ جِسْمَكَ مِنْ حَدِيدٍ فَهَلْ يَقْوَى عَلَى الْبَرْدِ الْحَدِيدُ (4)

فمن يمعن الفكر ؛ يلحظ أن الشاعر لا يقصد في قوله : (البرد) المعنى القريب ، وهو برودة الجو ، بل يريد (السحل) وهو تأكل الحديد حينما تجري فيه الآلة (المبرد).

وقد مرَّ الشاعر أبو عبدالله الفيومي في الوجه (وهو مورد ماء قرب المدينة) فأنشد :

وَلَمَّا وَجَدْنَا الْوَجْهَ عِنْدَ وُرُودِهِ خَلِيًّا مِنَ الْمَاءِ الْقَرَّاحِ فَنَاوَهُ

(1) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، بكري شيخ أمين ، ص 191.

(2) تاريخ آداب العرب 3/367.

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص 484.

(4) الجواهر الثمينة ، كبريت 591/2.

زَمَمْتُ مَطِيَّيْ ثُمَّ قَلْتُ تَرَحَّلُوا فَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِ إِذَا قَلَّ مَاؤُهُ (1)

فالمعنى القريب لقوله : فلا خير في وجه إذا قل ماؤه ، هو وجه الإنسان إذا قل حياؤه ، لكن الشاعر أراد بالوجه الموضع المسمى (الوجه) مشيراً إلى أنه قد شح بالماء ، وما دام الأمر كذلك ، فإن الترحل عنه خير من الإقامة فيه .

وللشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي جارتان اسم الأولى (غزال) والأخرى (دام السرور) ، وقد باعهما ، فندم على ذلك وقال :

بِجَارِيَّتِي كُنْتُ قَرِيرَ عَيْنٍ وَأَفْقُ مَسَرَّتِي بِهِمَا مُنِيرٌ
فَنَقَرَ صَرْفُ أَيَّامِي غَزَالِي فَمَا دَامَتْ وَلَا دَامَ السُّرُورُ (2)

والمعنى في قوله : ولا دام السرور - كما يتضح لمن يتلقى البيت - أنه فقد السعادة التي كان يعيش فيها ، ولكن الشاعر أراد بـ(دام السرور) اسم تلك الجارية .

وقد وجد الشعراء في المصطلحات العلمية ميداناً للتورية ، كقول حسين العليفي في تقي الدين بن فهد :

مُحَمَّدٌ اسْمُهُ فِي النَّاسِ يُدْعَى وَبِالْإِسْنَادِ قَدْ أَضْحَى عَلِيًّا (3)

فالمعنى القريب أن اسمه قد صار علياً بدلاً من محمد ، لكنه لم يرد ذلك ، بل قصد أنه أضحى عالي النسب والقدر .

ومن ذلك قول الشاعر محمد النهروالي عن غزاة سكنت قلبه :

مِنْ مُبْتَدَا خَبْرِي جَاءَتْ تَقُولُ بِوَاوٍ صَدَغَ لِنَحْوِ الْبَيْتِ تَنْعَطُفُ (4)

وكذلك قول الشاعر علي بن ناصر الحجازي ، معبراً عن مشاعره تجاه شيخه شمس الدين السخاوي :

إِلَى نَحْوِ الْإِمَامِ نَمَى ضَمِيرِي فَمَيَّزَ رَفْعُهُ (تَكْسِيرَ) حَالِي (5)

(1) رحلة الشتاء والصيف ، كبريت ، ص16.

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص432 ، وقوله : فما دامت في المصدر : فلا دامت ، والمثبت عن معالم الأدب العربي في العصر الحديث ، عمر فروخ 433/1.

(3) الدر الكمين ، عمر بن فهد 708/1.

(4) إتحاف فضلاء الزمن ، محمد الطبري 559/1.

(5) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1059/2 ، ولفظه تكسير في عجز البيت وردت في

-5-

ومن مظاهر التكلف في لغة الشعر لدى شعراء مكة والمدينة التاريخ الشعري ، وهو "أن يأتي الشاعر أو المتكلم بكلمة أو كلمات إذا حسبت حروفها بحساب الجُمَل (1) بلغت عدد السنة التي يريدونها المتكلم" (2) . وهو رياضة ذهنية كلف بها الشعراء ، عادين ذلك إبداعاً يتبارون فيه ؛ حيث اعتادوا ختام قصائدهم بالتاريخ الشعري لبعض الحوادث التي استرعت انتباههم.

وعلى الرغم من أن الشعراء قد عدوا ذلك إبداعاً ، وأن من الباحثين من سلكه في أنواع البديع "فإن الذوق السليم يمجّه إذا كان حشواً بلا معنى ، أو كان معقداً ، أو لم يرتبط بما قبله . وأحسنه ما كان فيه فائدة

=

المصدر : كسر ، والتعديل ؛ لإقامة الوزن.

(1) هو حساب في الحروف الهجائية ، وطريقته أن يخصص رقم لكل حرف من الحروف الأبجدية (أَبْجَدْ ، هَوَزْ ، حُطِي ، كَلْمُنْ ، سَعْفَصْ ، قَرَشَتْ ، ثَخَذْ ، ضَنْغْ) على النحو التالي :

أ = 1	ب = 2	ج = 3	د = 4
هـ = 5	و = 6	ز = 7	
ح = 8	ط = 9	ي = 10	
ك = 20	ل = 30	م = 40	ن = 50
س = 60	ع = 70	ف = 80	ص = 90
ق = 100	ر = 200	ش = 300	ت = 400
ث = 500	خ = 600	ذ = 700	
ض = 800	ظ = 900	غ = 1000	

- انظر : الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ، جرجي زيدان ، ص 178 ، 179 .
ويلاحظ أن حرف الخاء سقط من هذا المرجع ، إذ لم يُدَوَّن مع الحروف الأبجدية ، وقد وضع بدلاً منه الزاي.

(2) نفحات الأزهار على نسيمات الأسحار في مدح النبي المختار ، النابلسي ، ص 336 .
"وقد اشترط أصحاب هذا الفن عدة شروط لضبطه وحسن وضعه ، منها أن يتقدم على ألفاظه كلمة (أَرَّخْ) ، أو (أَرَّخُوا) ، أو ما دل على التاريخ . وإذا تصرف الشاعر في تقديم أو تأخير أو زيادة بعد لفظة (التاريخ) أشار إليه ؛ لئلا يستغلق على القارئ ... ومن شروط هذا الفن أن الحروف تحسب على صورتها دون مراعاة لفظها ؛ فتحسب مثلاً كلمة (فتى) ياء ، وتاء التانيث المنقطة تاء ، وغير المنقطة هاء ، ولا يحسب المشدد إلا حرفاً ، والهمزة التي لا كرسى لها لا تحسب شيئاً ، ويحسبون ألف الإطلاق ألفاً ، وهلم جرا".

- مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، بكري شيخ أمين ، ص 170 ، 171.

تاريخية" (1).

ولو لم يكن في شيوع هذا النوع من الشعر إلا أنه حفظ كثيراً من الوقائع ، ودَوَّنَ تاريخ الإصلاحات والأعمال الجليلة التي كان يقوم بها الحكام وغيرهم ؛ لكفى أن يكون مسوغاً لدراسته.

وقد اعتمد شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين التاريخ الهجري أساساً لنظمهم ، مؤرخين كل مناسبة ؛ إذ لم تكن عنايتهم بالأعمال الجليلة التي تهم المجتمع آنذاك فحسب ، بل دفعتهم العلاقات الاجتماعية إلى الاهتمام بتاريخ بعض الأعمال الخاصة لبعض أبناء المجتمع ، وخاصة إذا كان شيخاً جليلاً ، كالقاضي تاج الدين المالكي الذي عمل خزانة كتب ، فلقي اهتماماً من الشاعر عبداللطيف بن أحمد باكثير ؛ حيث نظم أبياتاً أرخ فيها هذا العمل ، قال فيها على لسان الخزانة :

يَا مَالِكِي اللَّهِ شَرٌّ فَنِي وَأَنْزَلَنِي مَحَلَّكَ
وَأَعَزَّ بِالْعِلْمِ الشَّرِيْـۤمِ فَمَكَاتِنِي وَبِهِ أَحَلَّكَ
فَلِذَا عُدِدْتُ خِرَانَةَ قَالَتْ لِرَاجِي الْعِلْمِ هَلْ لَكَ
مِصْدَاقُ قَوْلِي أَنْ تَا رِيْخِيْ أَتَى (تُحَفُّ بَدْتُ لَكَ) (2)

وحفظ الشعراء تاريخ كل ما يجري على تلك البقاع الطاهرة ، فقد صفح باب الكعبة – شرفها الله تعالى – بالفضة وطلبت بالذهب ؛ فأرخ الأدباء ذلك ، منهم الشاعر عبدالرؤوف الواعظ ، إذ يقول :
أَشَارَ بِأَنْ يُصَفَّحَ بَابَ بَيْتِ سُلَيْمَانَ الْمُعْظَمِ خَيْرُ عَادِلٍ
أَتَى تَارِيْخُ تَصَفِيْحِ بَدِيْعِ (بِهَذَا الْبَابِ يَنْجَحُ كُلُّ نَازِلٍ) (3)

وهذا التاريخ يوافق سنة 953هـ ، وليس سنة 952 كما ورد في نزهة الجليس (4) . وما ذكره الشاعر هو التاريخ الصحيح (1) يؤيد ذلك

(1) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، بكري شيخ أمين ، ص 171. وانظر : الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر ، الرداوي 854/2 ، 855 ؛ فقد أشار المؤلف إلى أول من عده من أنواع البديع ، وأول من جعله فناً مستقلاً عن التعمية.

(2) السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 230/أ . ومجموع هذه الحروف في حساب الجُمَّل (944) ، أي : أن تاريخ عمل الخزانة سنة 944هـ.

(3) منائح الكرم ، السنجاري 346/3.

(4) 291/1.

شاعر آخر في المناسبة نفسها هو محمد بن علان الصديقي ، إذ يقول :
 سُلَيْمَانُ مَوْلَانَا ابْنُ عَثْمَانَ أَمْرُهُ أَتَى أَنْ بَابَ اللَّهِ بِالْوَرْقِ يُصَفَّحُ
 وَمَا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ إِلَّا مُؤَرَّخًا بِ(قَمٍ عِنْدَ بَابِ اللَّهِ عَلَيْكَ تُمْنَحُ) (2)

وقوله : (قم عند باب الله عليك تمنح) يوافقه سنة 953هـ.
 ورممت الكعبة الشريفة في سنة 959هـ فأرخ ذلك الشاعر
 عبدالعزيز الزمزمي بقوله :

يَا مَعْشَرَ الْإِسْلَامِ بُشِّرِي لَنَا وَوَاجِبُ لِلَّهِ مِنَّا الثَّنَا
 صَلُّوا وَطُوفُوا وَاشْكُرُوا رَبَّكُمْ وَمَتَّعُوا مِنْ بَيْتِهِ الْأَعْيُنَا
 وَادْعُوا لِسُلْطَانِكُمْ إِنَّهُ لَمَّا وَهَى رَمَمَ مِنْهُ الْبِنَا
 وَقَدْ أَتَى تَارِيخُ تَرْمِيمِهِ (رَمَمَ بَيْتَ اللَّهِ سُلْطَانُنَا)
 هَبْ لَهُ يَا رَبِّ فِي عُمْرِهِ وَعَافِهِ وَامْنَحْهُ كُلَّ الْمُنَى (3)

ويلاحظ أن الشاعر قد جاء ببيت بعد البيت الذي أرخ فيه ، حيث دعا
 فيه للسلطان الذي أمر بترميم الكعبة . وقد جرت عادة الشعراء أن يكون
 التاريخ آخر النظم ؛ ابتغاء أن يكون آخر ما يرتسم في ذهن المتلقي.
 والغالب في التاريخ الشعري أن يكون في عجز البيت الأخير ، وقد
 يجيء في جزء منه ، كما أن التاريخ قد يستخرج من البيت الأخير كله ،
 كأن تكون كلمة التاريخ - التي يشترط أن تتقدم عليه - في البيت الذي
 قبله ، كما في قول الشاعر صلاح الدين القرشي (4) مؤرخاً لمنبر الرخام

(1) انظر منائح الكرم ، السنجاري 345/3.

(2) المصدر السابق 345/3.

(3) المصدر نفسه 328/3 ، 329 . وقد ورد هذا النص في إتحاف فضلاء الزمن ،
 الطبري 482/1 مخالفاً لهذا الترتيب ، وذكر صاحب الكتاب أن الترميم في سنة
 958هـ وهو مخالف للتاريخ الصحيح.

(4) هو صلاح الدين القرشي الهاشمي ، عالم ، شاعر ، كان من فضلاء مكة وأدبائها .
 تتلمذ على الشيخ عبدالعزيز الزمزمي في فنون عديدة ، وتولع بالنكت الشعرية ، ومدح
 الشريف أبا نمي وابنيه حسن وثقبة . توفي بمكة المكرمة سنة 980هـ عن عمر يناهز
 الخمسين .

- انظر ترجمته في : المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، أبو الخير ،

ص 223 .

الذي بعثه السلطان سليمان بن سليم إلى المسجد الحرام في سنة 966هـ (1)

شَيَّدَ اللَّهُ مُلْكَ مَنْ أَسْبَغَ اللَّهُ ظِلَّهُ
وَبِأَمِّ الْقُرَى لَقَدْ ضَاعَفَ اللَّهُ نُزْلَهُ
إِنَّ ذَا الْمَنْبَرِ السَّانِي قَدْ حَوَى الْحُسْنَ كُلَّهُ
هَآكَ تَارِيخُهُ الَّذِي شَهِدَ الْخَلْقُ فَضْلَهُ
(السُّلَيْمَانُ مِنْبَرٌ بِالْإِدْعَا شَاهِدٌ لَهُ) (2)

ومجموع حروف البيت الأخير على حساب الجمل (966) وهو ما يوافق تاريخ المنبر.

ومن أصحاب هذا الفن من اشترط ألا يكون ثمة فاصل بين لفظ أرخ وواحدة مما يشتق من التاريخ وبين كلمات التاريخ (3) ؛ لئلا يلتبس الأمر على المتلقي . وهناك من يرى أنه لا بأس ، ولكن ينبغي على الشاعر أن يشير إلى تصرفه في أي تقديم أو تأخير أو زيادة بعد لفظة التاريخ (4) . ومما يمكن أن يستغل على المتلقي قول الشاعر عبدالمعطي باكثير من قصيدة أنشأها حينما عمر الشيخ شيخ بن عبدالله العيدروس مسجداً في (سرت) مؤرخاً لذلك :

يَا لَهَا بِقَعَةٍ سِرُّهَا قَدْ حَصَلَ وَبِهَا مَسْجِدٌ فَضْلُهُ لَمْ يَزَلْ
جَاءَ تَارِيخُهُ رَافِلاً فِي حُلِّ (مَسْجِدٌ خَالِصٌ لَوَجْهِ اللَّهِ جَلٍّ) (5)

حيث إن قوله : (رافلاً في حل) قد فصل بين لفظة التاريخ والكلمات

(1) جاء في منائح الكرم ، السنجاري 309/3 ، وإتحاف فضلاء الزمن ، محمد الطبري 496/1 : أن ورود المنبر سنة 956هـ وهو خطأ ، فقد أرخه عدد من الأدباء في هذين المصدرين وفي مصادر أخرى بما يوافق سنة 966هـ ، كما أن المؤرخين قد أيدوا الأدباء في ذلك . انظر : الأرج المسكي ، علي الطبري ، ص 177 ، 178 ؛ مرآة الحرمين ، إبراهيم باشا 254/1.

(2) منائح الكرم ، السنجاري 310/3 ، 311 . وفيه مد (بالدعا) ، والقصر ؛ لإقامة الوزن . وهذه الأبيات في الأرج المسكي ، علي الطبري ، ص 178 ؛ مرآة الحرمين ، إبراهيم باشا 254/1 واردة بروايات مختلفة.

(3) نفحات الأزهار ، النابلسي ، ص 336.

(4) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، بكري شيخ أمين ، ص 170.

(5) النور السافر ، العيدروس ، ص 377.

التي تؤدي إلى التاريخ المطلوب ، حتى إن الأمر قد التبس على صاحب النور السافر فوضع إشارة تنصيص بدءاً من كلمة (رافلاً) وقد نبه المحققون على ذلك . والشطر الثاني هو الذي إذا جمعت حروفه وافقت سنة البناء ، وهي (971هـ).

وأشد من ذلك لبساً ما فعله الشاعر صلاح الدين القرشي ، حيث عمل تاريخاً لدخول السيل الحرم في سنة 971 هـ ، حينما فاضت أودية بمكة ، حتى إنه قد علا على الركن اليماني مقدار ذراع ، قال عنه مؤرخاً :

يَا سَائِلِي تَارِيخَ سَيْلٍ طَمًا عَلا عَلَى الرُّكْنِ الِيمَانِي

لفظة (ذراع) توافق في حساب الجمل 971 ، وهو تاريخ هذه الحادثة ؛ ولكن الفاصل بين لفظة (تاريخ) ولفظة (ذراع) قد يحدث لبساً لدى المتلقي.

وتناول الشعراء بعض الحوادث التاريخية ، كما فعل عبدالمعطي باكثير حينما أرخ لأخذ جنكيز خان أحمد أباد بقوله :

لَا تَعْجَبُوا لِلنَّصْرِ جَنًّا كَيْزَخَانَ فِي عَزَّتِهِ
نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ وَالسَّغْدُ فِي غُرَّتِهِ
وَقَدْ أَتَى تَارِيخُهُ (النَّصْرُ فِي طَلْعَتِهِ) (2)

ويفهم من قوله : (النصر في طلعتة) أن الحادثة في سنة 975 هـ. وإذا توفي علم من الأعلام أرخ الشعراء ذلك ، سواء من خلال قصيدة الرثاء أو بأبيات معدودة تنشأ لتأريخ المناسبة. وهي أبيات – على الأغلب – متكلفة .

ومن التاريخ المسوق ضمن قصيدة الرثاء قول الشاعر عبدالعزيز الزمزمي في مرثية الوزير آصفخان الكجراتي ، مؤرخاً مصرعه :

يَا مَنْ يُسَائِلُ عَنْ تَارِيخٍ عَنْهُ الْجَوَابُ (انْقَضَى) فَانْكَفُفْ وَلَا

ولفظة (انقضى) توافق (961) وهي السنة التي قتل فيها المرثي . وعلى الرغم من أن الشاعر قد فصل بين لفظة التاريخ والكلمة التي

(1) المصدر نفسه ، ص376.

(2) المصدر نفسه ، ص483.

(3) المصدر السابق ، ص330.

يتكون من حروفها التاريخ المطلوب ؛ فإنه قد أوضح ذلك بقوله : (عنه الجواب) ، كما أنه قد أزال اللبس فيما جاء بعد الكلمة التي كونت التاريخ المطلوب ؛ حينما جاء بصيغة الأمر (فاكفف ولا تسل).

وأوضح من ذلك حينما يكون الفاصل لفظة مؤكدة ، كما جاء في التأريخ الذي نظمه الشاعر عبدالرحمن الخفاجي (1) حينما توفي الشاعر عبدالعزيز الزمزمي ، إذ قال :

إِنَّ مَنْ أَجْرَى الدَّمُوعَ عَلَى عِزِّ دِينِ اللَّهِ قَدْ أَفْلَحَ
قَدْ أَتَى تَارِيخَهُ ضَبْطاً (بِجَنَانِ الْخُلْدِ قَدْ أَصْبَحَ) (2)

فقله : (ضبطاً) لم يحسب في التاريخ ، وحروف ما بعده تساوي في حساب الجُمَّل (976) وهي السنة التي توفي فيها الزمزمي. وأكثر الشعراء من التأريخ للوفيات ، وكثرت الأبيات المفردة والنتف التي لا تكلفهم مزيد تفكير ، حتى إن منهم من يعمل ذلك على البديهة كما حصل للشاعر على الجم الذي دخل على الشريف أبي نمي معزياً في ولده السيد بركات ، فرآه وقد أخذ منديلاً يمسح به دموعه التي انهلت ، وعندئذ أنشده ارتجالاً :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَزِيزُ وَمَنْ رَقَى هَامَ الْعُلَا رَفَعَ الْمُهَيْمِنْ شَانَهُ
لَا تَبْكُ مَرْحُوماً أَتَى تَارِيخَهُ (بَرَكَاتُ أَنْزَلَهُ اللَّطِيفُ جَنَانَهُ) (3)

وحروف عجز البيت الثاني توافق في حساب الجمل (985) وهي سنة وفاة الشريف بركات بن أبي نمي.

وقد تفاوت الشعراء في نظمهم ، فمنهم من يأتي تاريخه الشعري حشواً بلا معنى ، يضمه سبك رديء ، كعبد القادر الأنصاري حينما أرخ حلولة مسجد الجموم قائلاً :

قَدْ حَلَّ فِي مَسْجِدِ هَذَا الْوَادِي عَبْدٌ مِنَ التَّقْوَى قَلِيلُ الزَّادِ

(1) نعتة صاحب السلافة بالشيخ ، ووصفه صاحب النور السافر بالأديب المكي ، ذاكراً له قصيدة رثائية أرخ فيها وفاة القاضي محمد حاجي الذي مات في مكة سنة 979هـ (انظر النور السافر ، العيدروس ، ص459) ولم أعثر له على ترجمة فيما اطلعت عليه من مصادر.

(2) سلافة العصر ، ابن معصوم ، ص189 ، 190.

(3) خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، دحلان ، ص55.

يُسَمَّى عَبْدُ الْقَادِرِ الْأَنْصَارِيِّ خَلَّصَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَوْزَارِ

فِي يَوْمٍ تَاسِعٍ عَشَرَ الْمُحَرَّمِ فِي عَامِ (طَظْ) مِنْ هِجْرَةِ الْمُكْرَمِ⁽¹⁾

ومنهم من يتفنن في إخراج التاريخ ، كجمال الدين الإسفراييني حينما أرخ ابتداء الهدم والتعمير في المسجد الحرام في عهد السلطان سليم بن سليمان خان ، حيث قال :

تَارِيخُ هَدْمِ الْمَسْجِدِ (فِي رَابِعِ الْعَشْرِ بُدِي) (2)

"وهو تاريخ عجيب ؛ إذ معناه الحسابي يؤدي إلى تعيين السنة [980] ومعناه اللفظي يؤدي إلى تعيين يوم البداية" (3) .

وهذا أمر يسير إذا نظرنا إلى مثل ما فعله الشاعر عبدالقادر بن محمد الطبري ، حيث نظم قصيدة قال عنها مصطفى صادق الرافعي : "وهي تسعة عشر بيتاً يستخرج منها سبعة أبيات تكون تواريخ لسنة 998 بطريقة لم أر مثلاً للمتأخرين على كثرة ما تكلفوا من ذلك" (4) . وقد مدح بها الشاعر الحسن بن أبي نمي ، وجاءت أبياته على وزن البحر البسيط ، قال في مطلعها :

إِنْ قِيلَ مُضْنَاكَ مَعْلُومُ الْغَرَامِ لَهْوَ الْمَزَاحِ وَحَالِيهِ فَعْنَةُ سَلِي⁽⁵⁾

وطريقة استخراج تواريخها كما شرحها صاحبها كما يلي : التاريخ الأول يستخرج من أخذ الحروف الأوائل من الأبيات وضمها ، ثم قراءتها بدءاً من البيت الأول إلى التاسع عشر ؛ لأن المؤلف يقول : "وطريق استخراج تواريخها المنتظمة من ألفاظها المستحكمة أن تقرأ هبوط الحروف الأوائل من أوائل الأبيات... فيحصل التاريخ الأول" (6) .

(1) حسن القرى في ذكر أودية أم القرى ، جار الله بن فهد ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س18 ، ج3 ، 4 رمضان وشوال 1403هـ). وقد ذكر ابن فهد في هذا المصدر أن الشاعر أنشده الأبيات في شهر رجب سنة 920هـ ، وأثبت لهذا الشاعر بعدها بيتين أجود من هذه . وهو محيي الدين عبدالقادر بن جلال الدين أبي السعادات ، الأنصاري ، المكي ، المالكي . عالم ، شاعر ، تولى القضاء ، كان والده رئيساً للقضاة بمكة .

(2) سمط النجوم العوالي ، العصامي 98/4.

(3) المصدر نفسه 98/4.

(4) تاريخ آداب العرب 382/3.

(5) عيون المسائل من أعيان الرسائل ، عبدالقادر الطبري ، ص38.

(6) المصدر نفسه ، ص39.

ويتحقق التاريخ الثاني بأخذ الحرف الأول من التفعيلة الثالثة في كل بيت ، ثم قراءتها نزولاً كما حصل في التاريخ الأول ؛ لأن صاحبها يقول : "ثم تنتقل إلى الأول [أي : الحرف الأول] الذي يعزى لثالث الأجزاء [أي : التفاعيل] فيحصل الثاني [أي : التاريخ الثاني] بأسلوب الأول [أي : أن تقرأها نزولاً كالتاريخ الأول]" (1) . ويؤخذ التاريخ الثالث من الحرف الأخير في عروض كل بيت ، وإن كان البيت مصرعاً يؤخذ ما قبل الأخير من حروف العروض ، ثم تضم الحروف وتقرأ مرتبة تنازلياً كالذي قبلها ، وكذلك بقية التواريخ ؛ فالرابع يستخرج من أخذ الحروف الأوائل من الشطر الثاني في كل بيت ، والخامس من أوائل التفعيلة الثانية ، والسادس يؤخذ من الحروف الأوائل في التفعيلة الثالثة من عجز كل بيت . أما التاريخ السابع فقد ذكر المؤلف أنك "إن نظرت لآخر شطر من القصيدة أيها السامع ، حصل تمام العدة وهو السابع" (2) . وآخر بيت من القصيدة هو قوله :

نَمَقْتُ تَارِيخَهَا نَظْمًا وَيَضْبِطُهُ (إِتْمَامُ مَذْحِكٍ مَوْقُوفٌ عَلَيَّ

ويتضح مما سبق أن الحروف التي تُكوّن التاريخ الشعري المراد أكثر ما تكون في كلمات تؤلف عجز البيت الأخير من القصيدة أو المقطوعة أو النتفة . وقد تأتي في البيت الأخير كله ، كما أن التاريخ المطلوب قد يقع بكلمة واحدة ، قد تكون قافية للبيت الأخير أو في حشوه . كما تبين أيضاً أن شعراء القرن العاشر الهجري قد نشطوا في هذا النوع من النظم ، وخاصة في النصف الثاني من ذلك القرن . ولم نر مثل هذا النشاط لدى شعراء القرن التاسع الهجري .

والثابت من خلال تناول نتاج الشعراء في هذا اللون من الشعر أنهم لم يتفننوا في إخراجه تفنناً يلفت أنظار متابعيه ، وإن حصل شيء من ذلك كالذي فعله عبدالقادر الطبري فإنه على سبيل الندرة . وهو في أنماطه المختلفة نوع من التكلف الذي داخل أسلوب الشعر .

- 6 -

هكذا كانت لغة الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ حيث كان الوضوح سمة غالبية على أساليب الشعراء التي

(1) المصدر نفسه ، ص40.

(2) المصدر نفسه ، ص41.

(3) المصدر السابق ، ص39.

رأينا أنها ترددت ما بين الأسلوب الجزل في الأغراض التي كانت تتطلب ذلك ، والأسلوب الرقيق فيما يناسبه من أفكار . ولا يكاد المتتبع للغة الشعر يجد ألفاظاً مبتذلة إلا لمأماً ، وسيوضح له أن المعجم الشعري قد حفل بكثير من الألفاظ ذات الدلالات السامية . وقد تبين من خلال الحديث عن التكرار أن الشعراء وظفوه لخدمة المعاني التي كانوا يتحدثون عنها ، كما اتضح أن الشعراء تصرفوا في بعض الفنون البديعية ، وأن التكلف قد بان في أساليبهم كما هو شأن أدباء عصرهم.

والمتابع للغة الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ يلحظ متانة التركيب لدى بعض الشعراء ، واللغة العلمية التي حولت الشعر إلى نظم ضعيف السبك لدى طائفة منهم . وعلى الرغم من ذلك فإن تصنيف الشعراء أمر غير يسير ؛ لأننا نجد أن الشاعر الواحد يتذبذب نتاجه بين الإجادة والإخفاق ، وربما يكون مرد ذلك – في الغالب – إلى قوة العاطفة أو ضعفها ، إذ إنه عند افتعال الموقف تأتي الألفاظ – على الرغم من متانتها وفصحاتها – ضعيفة البناء.

ويمكن القول بعد ذلك : إننا قد نجد الأسلوب القوي لدى بعض الشعراء الذين أحسنوا انتقاء المفردات وأجادوا سبك العبارات ، مثل : أحمد العليف وعبدالرحمن باكثير ومحمد النهروالي وغيرهم من الشعراء ، لكن السمة الغالبة على لغة الشعر التقريرية في الأداء ومباشرة السرد وتراكم المفردات غير الموحية.

وعلى الرغم من أن غالب الشعراء من المغمورين الذين لا يملكون الموهبة ، فإنهم أيضاً قد انشغلوا عن تجويد شعرهم وتهذيبه ؛ ومن هنا وجدنا الضعف في كثير من نماذجه . ويبدو أن أولئك الشعراء قد حاولوا استغلال معجم التخاطب اليومي لا المعجم اللغوي ؛ بغية تقريب شعرهم إلى أبناء مجتمعهم . وهذا أوقع كثيراً منهم فيما يشبه عامية التركيب ، مما نزع عن الشعر بهاءه ورونقه.

4- الأخيلة والصور :

الخيال عنصر مهم في الشعر ، فهو "الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم"⁽¹⁾ ، وهو "أساس الصورة الأدبية مهما تكن درجته الفنية"⁽²⁾ . والصورة من أهم عناصر القصيدة ؛ إذ تعد "الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة"⁽³⁾ .

وتأتي الصورة - عادة - تجسيدا لشعور قائلها ، وتصويراً لفكرة وعاطفة مستقرة في نفسه ؛ ولذلك لا بد أن تكون وافية بالمعنى المرسومة من أجله ، وألا تركز على التشابه الحسي المجرد "فالصورة ليست من قبيل الزينة الطارئة على المعنى الأصلي"⁽⁴⁾ .

ولو نظرنا في نتاج شعراء مكة والمدينة ؛ لوجدنا أن وسائل تشكيل الصورة متعددة ، كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز العقلي والمجاز المرسل ، كما أنهم قد رسموا بعض الصور الذهنية الخالية من هذه الفنون البلاغية .

-1-

فالتشبيه فن بياني أكثر منه شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ إدراكاً منهم لقيمته الفنية ، حيث يتيح لهم تصوير خلجات أنفسهم وما يدور فيها من أفكار . وأكثر الأغراض احتضاناً لهذا الفن المديح ، حيث إن "التشبيه وسيلة مؤثرة في وصف الممدوحين ؛ لأنه يربط بينهم وبين نماذج المشبه به التي يختارها الشاعر ، كأن يجعل الممدوح بحراً في الكرم ، فهذا يعني أن المشبه قد اتصف بصفة عظيمة وحاز على قدر عالٍ من السخاء"⁽⁵⁾ .

وقد اعتمد الشعراء في أغلب تشبيهاتهم على المدركات بالحواس ، حيث يجيء المشبه به محسوساً . ولا شك أن للبيئة ومظاهرها المحسوسة أثراً في ذلك ؛ فأثر البيئة واضح في مثل قول الشاعر علي بن ناصر الحجازي مادحاً السادة الأشراف :

(1) في النقد الأدبي ، شوقي ضيف ، ص167.

(2) أصول النقد الأدبي ، الشايب ، ص243.

(3) النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ، ص417.

(4) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، جابر عصفور ، ص423.

(5) الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد ، إبراهيم الغنيم ، ص133.

يا سادة تُشرقُ الدُّنيا بِبَهْجَتِهِمْ كَأَنَّهُمْ فِي الدِّيَاجِي أَنْجَمٌ زُهِرُ (1)

حيث شبه الشاعر طلعتهم المضيئة واهتداء الناس بهم بالنجوم المتألئة وسط الظلام . وهذا التشبيه حسي في كل عناصره ؛ فالمشبه والمشبه به حسيان ، وكذلك وجه الشبه ، وهو الإضاءة واهتداء الناس . ومن التشبيه الحسي أيضاً قول الشاعر أحمد العليف في وصف حسناء :

تَمِيسُ كَالْبَانَةِ الْغَنَاءِ إِنْ خَطَرَتْ تَكَادُ تَنْقُدُ مِنْ لَيْنٍ وَمِنْ تَرَفٍ (2)

فهي في تشبيها في مشيتها ونعومتها ولينها وطول قوامها شبيهة بغصن البان في ليونته وطوله ، والجامع بينهما الرقة وطول القوام . وتشبيه المعقول بالمحسوس نادر في نتاج الشعراء ، ومنه قول عبدالعزيز الزمزمي في رثاء آصف خان الكجراتي :

أَعْظَمُ بِنَازِلَةٍ فِي الْكَوْنِ طَارَ بِهَا بَرّاً وَبَحْراً مَسِيرُ السُّفْنِ وَالْإِبِلِ
... أَهْدَتْ لِأَهْلِ الْحِجَازِ الْيَأْسَ بَعْدَ وَالْيَأْسِ بَعْدَ الرَّجَا كَالظِّلِّ بِالْأَسَلِ (3)

فقد جسم الشاعر اليأس حين شبهه في هذه الصورة (وهو أمر معنوي) بالظل ، وهو مادي محسوس . ومن ذلك أيضاً قول عبدالمعطي باكثير في مديحه شيخ بن عبدالله العيدروس :

خُلِقَ كَالنَّسِيمِ سَهْلٌ وَجُودٌ فِي يَدَيْهِ كَالْوَابِلِ الْمِرَارِ (4)

فالخلق شيء معنوي ، والشاعر – في هذا البيت – قد شبهه بالنسيم ، وهو شيء مادي .

وأغلب تشبيهات شعراء مكة والمدينة جاءت من غير ذكر وجه الشبه . ولا شك أن إهمال وجه الشبه يكسب التشبيه نوعاً من الغموض ويمنحه شيئاً من الطرافة والحيوية "وليس حذف وجه الشبه حتمياً في ذلك ؛ لأنه قد يحذف للعلم به عند كل المتلقين ، وذلك إذا كان المشبه به ووجه الشبه من الأمور المألوفة المتكررة" (5) .

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 140/3 .

(2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 48/ب .

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص 326 .

(4) المصدر نفسه ، ص 298 .

(5) الصورة الفنية مثال ونقد ، إبراهيم الغنيم ، ص 136 .

وقد وردت تشبيهاتهم المجللة (التي لم يذكر فيها وجه الشبه) على نوعين ، أحدهما تشبيه بعيد والآخر قريب . ومن التشبيه البعيد قول الشاعر أحمد العليف يمدح السادة الأشراف :

تَسْنَمُوا غَارِبَ الْأَهْوَالِ وَامْتَرَجُوا مَعَ الْخُطُوبِ امْتِزَاجَ النَّوْمِ

حيث شبه الشاعر دربتهم وتعايشهم مع الأحداث الجسام بسبب كثرة مقارعة الخطوب بامتزاج النوم بالعين حين يغشاها . ووجه الشبه شدة الالتحام والتعود . وواضح أن هذا الجامع لا يصل إليه الذهن إلا بعد تفكير.

ومثل ذلك قول أحمد العليف أيضاً مادحاً الشريف بركات بن محمد :

وَرُغِبُ ذِكْرِكَ يَجْرِي فِي جَرِي السَّقَامِ بِجَسْمِ الْوَاهِنِ

فوجه الشبه سريان الألم وشدة لدغته ، وهذا مما يحتاج إلى إمعان فكر لاستنتاجه.

ومن التشبيه المجلل القريب الجاري في أشعارهم قول عبدالعزيز بن علي الزمزمي يمدح جنود أبي نمي :

هُم كَأَسْوَدِ الْغَابِ لَكِنَّهَا دُونَهُمْ فِي شَرَفِ الْأَنْفُسِ (3)

حيث شبه أفراد الجيش بالأسود ، ولم يذكر وجه الشبه (وهو الشجاعة) وهذا أمر واضح لا يحتاج إلى إعمال فكر.

أما التشبيه المفصل (الذي ذكر فيه وجه الشبه) فقليل في نتاج شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، ومنه قول الشاعر أحمد العليف في مديح الشريف بركات بن محمد :

مِثْلُ الْغَضَنْفَرِ فِي الْهَيْجَاءِ يَوْمَ وَفِي السَّمَاحَةِ مِثْلُ الْعَارِضِ

-2-

وعلى الرغم من أن الاستعارة أهم وسائل التصوير البياني ؛ فإنها أقل وروداً من التشبيه في نتاج شعراء مكة والمدينة . وتتبع أهمية

- (1) ديوان أحمد العليف ، ورقة 36/أ.
- (2) سمط النجوم العوالي ، العصامي 322/4 ، وفي الديوان ، ورقة 36/ب : (الخائف) الوجل بدلاً من الواهن.
- (3) نزهة الجليس ، الموسوي 289/1.
- (4) ديوان أحمد العليف ، ورقة 36/ب.

الاستعارة من كونها مسلكاً تصويرياً يحقق الإيجاز والتشخيص والتجسيم . وهذه سبل يتنافس من خلالها الشعراء للوصول إلى جمال التصوير . وقد ذكر عبدالقاهر الجرجاني وهو يتحدث عن الاستعارة المفيدة أنها "تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ... [و] إنك ترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية" (1) .

واعتمد الشعراء في تصويرهم على الاستعارة المكنية . ولا يعني ذلك أنهم أهملوا الاستعارة التصريحية ، بل إن ورودها كان قليلاً ، ومنه قول الشاعر محمد النهروالي :

شَمْسُ الضَّحَى بَعْدَ الْعِشَاءِ زَارَتْ فَزَالَ تَلَهُّفِي (2)

حيث شبه محبوبته بالشمس بجامع الجمال والوضاءة ، ثم استعار اللفظ الدال على المشبه به (وهو الشمس) للمشبه (وهو محبوبته) على سبيل الاستعارة التصريحية.

والاستعارة المكنية "أبلغ وأكثر تأثيراً في النفس ، وأجمل تصويراً ؛ وذلك لأن العمل الإبداعي فيها أدق منه في الاستعارة التصريحية" (3) . فلننظر إلى هذه الصورة التشخيصية التي أبدعها الشاعر محمد بن أبي السعود بن ظهيرة مخاطباً الشريف محمد بن بركات ، حيث يقول :

إِنَّ الْخِلَافَةَ قَدْ نَادَتْكَ مُعْلَنَةً أَسْرِعْ إِلَيَّ رَعَاكَ اللَّهُ مِنْ مُضَرٍ (4)

حيث أنطق الخلافة ؛ فباتت تنادي الأمير معلنة حاجتها إليه ، حاثّة إياه على الإسراع إليها . والخلافة لا تنطق فتنادي وتعلن حاجتها للأمير ، ولكنها الاستعارة المكنية التي أنطقتها بما باحت به.

ونستبين قدرة الشعراء على التخيل في شعر الوصف ، حين نجد الحس الشعاري والخيال الخصب الذي يدبج صوراً نرى فيها خيالاً حركياً ، يوضح أسرار الطبيعة من خلال الغوص إلى أعماقها ، على نحو قول الشاعر أبي عبدالله الفيومي عن حديقة أم شميلة في أرض حسان من وادي مر :

(1) أسرار البلاغة ، ص33.

(2) المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص398.

(3) البلاغة فنونها وأفنانها ، فضل حسن عباس 176/2.

(4) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 527/2.

وَقَدْ نَسَجَتْ أَيْدِي الرَّبِيعِ بِرَسْمِهَا قَمِيصاً مِنَ الزَّهْرِ الشَّدِيِّ مُدَثَّرُ
وَوَجْهُهُ تَرَاهَا تَحْتَ خُضْرَةِ رَوْضِهِ مَلِيكَ غَدَا فِي ثَوْبِ خَزٍّ مُدَثَّرُ
وَالْبَسَ أَجْيَادَ النَّخِيلِ قَلَائِدًا عَقِيقٌ وَيَاقُوتٌ وَتَبَرٌّ وَجَوْهَرُ
وَلَيْلُ غَيُومِ الْجَوِّ أَرْخَى سُدُولَهُ وَلَكِنَّهُ مِنْ أَوْجِهِ الصَّحْبِ مُقْمَرُ
... وَقَدْ ضَحِكَ النُّوَارُ فِي طَيِّ كَمِّهِ وَرِيحُ الصَّبَا فِي ذَيْلِهِ تَتَعَثَّرُ
وَقَدْ جَرَّدَ الْبَرْقُ الْيَمَانِي سَيْفَهُ وَظَلَّ خَطِيبُ الرَّعْدِ يَنْهَى وَيَأْمُرُ
وَقَدْ نَظَمَتْ أَيْدِي النَّدَى الدَّرَّ فِي الرَّبَى وَقَدْ سُلَّ سَيْفُ الْمَاءِ وَهُوَ

لقد شخّص الشاعر مظاهر الطبيعة ؛ فللربيع أيد نسجت قميصاً من الزهر ، ومشهد البقعة الخضراء كملك قد تدثر بالخز ، والنخيل لابسة قلائد من عقيق وياقوت وتبر ، والليل مرخ سدوله ، كما ضحك النوار ، وأصبح البرق إنساناً قد سل سيفه ، كما أن الشاعر قد أحال الرعد خطيباً ينهى ويأمر ، والندى إنساناً له أياد تنظم الدر.

وهذه الصورة التفسيرية (2) من أجمل الصور التي أبدعها الشعراء . وهي صورة تشبيهية يفسر بها الأديب الطبيعة من حوله ، ويتأمل في محاسنها ، ويتفهم أسرارها منطلقاً من النظرة الحسية إلى التأمل ، والعناية بتفسير المشاهد أكثر من العناية بوصفها ؛ حيث تصبح صورته تفسيراً للأثر النفسي لا وصفاً للمنظر المشاهد.

ومن الصور التفسيرية أيضاً قول الشاعر محمد بن عبد القوي :
مِنْ بُكَاءِ الْمُزْنِ مُرْسَلاً كَالْجَمَانِ ضَحِكَ الزَّهْرُ فِي رِيَاضِ الْجَنَانِ
مَا تَرَى الرَّوْضَ بِاسِماً عَنْ أَقَاحِ كَلَالِ زَيْنٍ فِي نَيْسَانَ
وَبَهَارِ حَكَى اصْفَرَّارِ نُضَارِ وَشَقِيقٍ يَحْمَرُّ (كَالْبَرْهَانِ)
وَتَغْتَفُ فَوَاحِشَ الدَّوْحِ فِيهِ فَسَرَتْ بِالْحَيَاةِ فِي الْأَغْصَانِ

(1) المصدر نفسه 620/2.

(2) تسمى الخيال البياني أو التفسيري كما ذكر أحمد الشايب في (أصول النقد الأدبي ، ص218) ، والخيال المتأمل أو الموحى كما ذكر كمال أبو مصلح في (الكامل في النقد الأدبي ، ص124).

تُسْقِطُ الطَّيْرَ نَغْمَةَ الصَّوْتِ حَسًّا طَرَباً مِنْهُ كَيْفَ بِالْإِنْسَانِ (1)

لقد أدرك الشاعر جمال الطبيعة فكان هذا المشهد الحي الذي صور فيه هذا الروض والزهر يتضاحك في أفيائه بعد أن بكت السحاب وذرفت قطراتها اللؤلؤية . والشاعر – كما هو واضح – لم يمر بما شاهده مكتفياً بمتعة النظر ووصف مظهره الخارجي ، بل توقف عنده وتأمله حتى اتصل بمشاعره وتفاعل معه ، فجلاه في هذا الثوب القشيب .

-3-

ومن وسائل التصوير البياني لدى شعراء مكة والمدينة الكناية ، وهي لون من ألوان الغموض الأدبي الحسن ؛ لاشتمالها على معنى بعيد مراد ، ومعنى قريب متروك ؛ ذلك أن الشاعر يريد "دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى ، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له ، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع" (2) .

وقد استطاع الشعراء من خلال الصورة الكنائية أن يسبغوا على ممدوحهم صفات جليلة بأسلوب بليغ موجز ، لجؤوا فيه إلى ترسم خطي السابقين ، وحرصوا على الوضوح في المعنى الكنائي ؛ فالمتابع للكناية في آثارهم الشعرية يلحظ سهولة الانتقال من المعنى الأصلي إلى المعنى الكنائي دون حاجة إلى طويل تأمل . من ذلك قول الشاعر أبي بكر عبدالله بن أبي الخير مشيداً بشجاعة الشريف بركات بن محمد :

طَوِيلُ نَجَادِ السَّيْفِ لَيْثٌ مُجَرَّبٌ شَدِيدُ مَجَالِ الطَّعْنِ إِنْ قَصَدَ

ف(طويل نجاد السيف) كناية عن طوله . والنِّجَادُ : حمائل السيف ، فإنها إذا كانت طويلة كان ذلك دليلاً على طول قامة الفارس صاحب السيف "والطول والشجاعة عند العرب صفتان متلازمتان غالباً" (4) وهما محمودتان عندهم ؛ لذلك حرص الشاعر على تنويع ممدوحه بهاتين الخصلتين في هذا البيت . وهذه الكناية مرتبطة بتلك البيئة التي كانت مسرحاً لحروب عديدة ، كان السيف فيها أشهر أسلحة القتال . وهي

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 462/2 ، 463 . وقافية البيت الثالث (كالبرهان) قد وردت في الأصل – كما ذكر المحقق في هامش ص 463 – (البرهمان) . وصوابها (البهرمان) ، وهو العُصْفُرُ . والحَسُّ : الجَلْبَةُ .

(2) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، ص 157 .

(3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 164/3 .

(4) علم البيان بين النظريات والأصول ، ديزيرة سقال ، ص 179 .

مناسبة في مقام مديح أمير قائد ؛ إذ لا شك أنَّ هيئته ستلقي بظلالها على بلاده في ذلك العصر الذي أَلَمَّت به بعض الاضطرابات.
ومن الكنايات المناسبة للمقام ، النابعة من البيئة العربية الصحراوية قول الشاعر الشريف بركات بن محمد متحدثاً عن عهده في ظل السلطان قانصوه الغوري :

حَتَّى اسْتَقَامَ بِهِ مَنْ كَانَ ذَامِلًا وَرَافِقَ الشَّاةِ فِيهِ الذَّنْبُ

وهي كناية عن الأمن الذي تعيشه البلاد في ظل السلطان . وقد أراد الشاعر تأكيد هذه الصفة المعنوية ؛ فنقلها من خلال هذا المشهد الحسي (ورافق الشاة فيه الذنب والضبع) . وإن من أسباب جمال هذه الكناية أن الشاعر أبرز المعقول في هذه الصورة المحسوسة . وتجسيد المعنى وإبرازه في صورة مادية تزخر بالحياة والحركة مثل هذه الصورة أدعى لتأكيده ورسوخه في النفس.

ولأن الكناية من الأساليب البيانية التي تضي على المعنى جمالاً وتزيده قوة ؛ اتخذها الشعراء وسيلة فنية لإبراز مفاتن المرأة ، نجد ذلك في مثل قول الشاعر عبدالرحمن باكثير يصف حسناء :

طَوِيلَةٌ مَجْرَى الْعَقْدِ وَالْجَيْدُ قَدْ بَعْدَ حَكَى فِي النَّظْمِ مَبْسِمَهَا

فقوله : (طويلة مجرى العقد) كناية عن طول عنقها ، وهي من صفات الجمال في المرأة . والشاعر لم يصرح بطول العنق ، بل جاء بالدليل على إثبات هذه الصفة الحسنة – وهو طول مجرى العقد - . وتقديم المعنى مصحوباً بالدليل أكثر تأكيداً وبلاغة ؛ فقد ذكر عبدالقاهر الجرجاني "أن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد في وجودها أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غفلاً"(3) .

ومن أجل ذلك نجد الكناية مناسبة في الرثاء أيضاً ؛ حيث إن من عادة الشعراء تعداد مناقب المرثيين على نحو قول الشاعر عبدالعزيز الزمزمي في رثاء الشيخ حامد الجبروتي :

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 268/3.

(2) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 12/أ.

(3) دلائل الإعجاز ، ص 57 ، 58.

طَاهِرُ الذَّيْلِ لَمْ يُزَنَّ بِسُوءٍ صَيَّنَ مَا عَلَيْهِ تُوَثِّرُ سُبَّةٌ (1)

فقوله : (طاهر الذيل) كناية عن العفاف ؛ إذ إن بين طهارة الذيل المذكورة والعفاف تلازم وارتباط ، والذهن ينتقل من طهارة الذيل المنصوص عليها إلى صفة العفاف المكني عنها ؛ لأن الحرص على طهارة الذيل تستلزم عادة الحرص على العفاف.

والكناية عن الصفة أكثر أنواع الكناية شيوعاً لدى شعراء مكة والمدينة ؛ ولعل السبب في ذلك كثرة شعر المديح وما يحويه من صفات جليلة ، ولا شك في أن ذكر الصفات الحميدة كائنة في أغراض أخرى غير المديح كالغزل والرثاء ، ولذلك نجد أكثر الكنايات نابعة من صفات الإنسان.

والكناية عن الموصوف وكذلك الكناية عن النسبة تردان بصورة قليلة وبنسبة متقاربة . فقد يلجأ الشاعر إلى ذكر صفة لها اختصاص ظاهر بموصوف معين ، قاصداً بذكرها الدلالة على ذلك الموصوف ، كقول أحمد العليف مادحاً الشريف بركات بن محمد حينما انتصر على أعدائه :

أَذَقْتُ آبَاءَهُمْ تَكْلَ الْبَنِينَ كَمَا أَيْمَتَ مِنْهُمْ ذَوَاتِ الدَّلِّ وَالْكَحْلِ (2)

فقوله : (ذوات الدل والكحل) كناية عن النساء . فهو لم يعمد إلى التصريح وإلى أسلوب اللغة المجردة ، وإنما فزع إلى الكناية عن النساء بذوات الدل والكحل في هذا السياق ؛ لإظهار حال المرأة وما هي عليه من النعومة والدلال ، وما يتصل بذلك من اتخاذ أسباب الجمال الذي لا جدوى منه ؛ لأنهن فقدن الرجال . ولا شك أن الدلال والتجمل الذي تقوم بهما الحسناء يفقدان معناهما ، بل وينقلبان حسرة وألماً على أولئك القوم في ظل ذهاب الرجال في طاحونة الحرب . وهذا ما أراد الشاعر إبرازه ولفت الأذهان إليه.

وقد يرغب الشاعر في تنقية شعره من بعض الألفاظ المستهجنة فلا يصرح بها ويأتي بما يدل عليها ، كقول الشاعر الشريف أبي نمي :

شَنَّفِ الْكَأْسَ بِحَيَا وَهَبِ بَنَتْ بُنٍ لَيْسَ بَنَتْ الْعَنْبِ (3)

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص342.

(2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 37/أ.

(3) إتحاف فضلاء الزمن ، محمد الطبري 562/1.

فقله : (بنت العنب) كناية عن الخمرة . وقد أراد الشاعر أن يبين أن كأسه المطلوب من قهوة البن التي أحلها الله ، نافياً أن يكون من الخمر المحرم ، ولم يقل أيضاً القهوة ؛ كي لا ينصرف الذهن إلى الخمرة ، بل دفع هذا التوهم بالتفصيل ؛ فكنى عن قهوة البن التي أحلها الله بـ(بنت بن) وكنى عن الخمرة المحرمة بـ(بنت العنب).

وربما رغب الشاعر في إثبات صفة لممدوحه ، فترك إثبات هذه الصفة للممدوح ، وأثبتها لشيء آخر شديد الصلة به ، وبذلك يصبح ثبوتها لما يتصل به دليلاً على ثبوتها له ، كقول أحمد العليف مادحاً الشريف بركات بن محمد :

إِذَا سَارَ سَارَ الْجُودُ يَخْذُو رِكَابَهُ وَإِنْ بَرَكَتْ عَنْ سَيْرِهَا فَهُوَ

حيث كنى عن نسبة الجود إلى الممدوح بإثباته للمكان الذي تحل فيه ركبته (أي الذي يوجد فيه الممدوح) ، وإن توقفت عن المسير فالجود كائن في محل إقامتها . ويتضح جمال الكناية في هذا الخيال الرائع ؛ حيث رسم الشاعر الجود في صورة حي متحرك يسير لسير الممدوح ويسكن لسكونه.

ومن الكناية عن نسبة أيضاً قول الشاعر محمد بن عبدالقوي في مديح علي بن حسن بن عجلان :

إِذَا مَا عَلِيٌّ بَيْنَ جَنْبَيْكَ فِي الْوَعَى فَأَهْوَنُ مَا يَلْقَاكَ فِيهِ الضَّرَاغُمُ (2)

فقد أراد الشاعر أن ينسب صفتي الشرف والشجاعة للكائنتين في الصحابي الجليل علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – إلى الممدوح ، فعدل عن نسبتها إليه مباشرة ونسبهما إلى ماله اتصال وثيق به قائلاً : (بين جنبيك) . وفي ذلك زيادة تأكيد لإثبات تمثله شخصية الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه - . وواضح أن أسلوب الكناية هذا أبلغ من التصريح وأكثر إثارة للمتلقى.

-4-

وتشكلت الصورة لدى شعراء مكة والمدينة عن طريق المجاز العقلي والمجاز المرسل بنقل المعنى من حقيقته العادية إلى ما يجعله أقوى وأكثر تأثيراً في النفس "وهما من أساليب البلاغة والبيان بما فيهما

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 203/3 .

(2) المصدر نفسه 495/2 .

من تعبير موجز عن معنى كبير ، أو بناء علاقة لطيفة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي يحسن بها المعنى ويشد النفس إليه" (1) .
والمجاز العقلي يقوم على الإسناد ، أي : أن يكون المعنى فيه قائماً على مسند ومسند إليه ، وقيمة الصورة الشعرية المرسومة من خلاله نابعة من طبيعة هذا الإسناد.

والناظر في نتاج شعراء مكة والمدينة ؛ يلحظ غزارة الإسناد إلى الليلي والدهر إسناداً مجازياً ، بحيث ينسبون إليهما ما ليس لهما ، وما لا يتأتى منهما ، كقول الشاعر أحمد العليف :

مَالِي وَمَا لِلْيَالِي كُلَّمَا جَنَحَتْ سَالَمْتُهَا وَهِيَ لَا رَعْيَ وَلَا ذِمَمُ
... فِي كُلِّ حِينٍ عَلَى عَمْدٍ تُقَارِعُنِي وَلَيْسَ لِي عِنْدَهَا ذَنْبٌ فَأَجْتَرُمُ (2)

فقد أسند الجنوح والمقارعة إلى الليلي ، وهذا إسناد غير مقبول حسب أصل اللغة ، وهو من عمل العقل وتصرفه فيها ؛ فالليالي ليست كائناً حياً قادراً على الجنوح والمقارعة ، ولكنها زمن للأفعال المذكورة في البيتين ، ومن أجل ذلك جاز للشاعر تصرفه ، وهذا أبلغ في أداء المعنى ؛ فالشاعر قد اتخذ من هذا اللون البلاغي وسيلة فنية لتصوير الأثر الواقع على نفسه مما يجري في الليلي ، وقد كشفت هذه الصورة – كما هو واضح – عن البعد النفسي لشخصية الشاعر الذي أفضى بما في داخله وأبان عن وقع الزمن وما فيه من أحداث وتأثير ذلك كله على نفسه.

ونسبوا للدهر قسمة الحظوظ مجازاً ، كما فعل الشاعر أحمد الفاسي حين قال :

فَاكْتُبْ بِخَطِّكَ إِنَّ الدَّهْرَ يَقْسِمُ مِنَ الْخُطُوطِ كَحَظِّ الْعَاضِبِ

والدهر في الحقيقة لا يستطيع أن يقسم له الحظوظ ، والشاعر مدرك أن ذلك ليس من شأن الدهر ، وأنه لن يتحقق له مراده إن هو اعتمد عليه ، ولكنه أسند القسمة إلى الدهر ؛ لأنه زمن لهذا الفعل . وهو يأمل أن يكون حظه فيما يستقبل من أيام نافذاً ، محققاً رغباته ؛ فجاء تعبيره بالفعل المضارع الدال على الحال والمستقبل . ويبدو أن أمله يتجدد مع كل

(1) الصورة بين البلاغة والنقد ، أحمد بسام ساعي ، ص 96 .

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 284/3 .

(3) المصدر نفسه 362/2 .

لحظة من لحظات زمنه ، ومن هذا المنطلق يكون لهذا التعبير المجازي أثره في أداء المعنى.

وربما كان للأحداث التي عاشها الشعراء في ذلك العصر أثر في كثرة الإسناد إلى الزمن ، كالليالي والدهر وغيرهما ؛ فالشاعر إما شاكٍ من أحداث تجري له ، أو أنه يتطلع إلى تغير حاله ، ولا شك أن الزمن ظرف لكلا الحالتين ؛ ولذلك صار الإسناد إليه.

وشاع الإسناد إلى سبب الفعل ، وأغلبه وارد في مدائح الشعراء ؛ وذلك حسن في سياق المديح ، حيث أبرز الشعراء مآثر الممدوحين وجعلوهم سبباً في كل ما تحقق للبلاد والعباد ، فالشاعر محمد بن عبد الوهاب بن يعقوب قد مدح الشريف بركات بن محمد بن بركات ، مشيداً بأثره الجليل في تعمير أم القرى ودحر الشر وأهله ، كما أشار إلى التفاته إلى الأقطار الأخرى تعميراً ودحراً للشر ، حيث يقول :

عَمَرْتُ أُمَّ الْقُرَى مِنْ بَعْدِ مَا وَكَانَ فِيهَا تَوَالِي الشَّرِّ وَالشَّرَرِ
أَذْهَبْتَ ذَاكَ بِحَمْدِ اللَّهِ مُنْتَصِراً حَتَّى اضْمَحَلَّ فَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ
ثُمَّ انْتَهَيْتَ إِلَى الْأَقْطَارِ تَعْمُرُهَا شَاماً وَشَرْقاً لِتَمْحُو كُلَّ مَا

فقد أسند التعمير إلى الأمير ، والأمير نفسه لم يعمر ، بل كان سبباً في التعمير ؛ حيث أمر به وأنفق عليه . وقد تحقق من خلال هذه الصورة تضخيم عمل الممدوح ، فضلاً على الإيجاز في أداء المعنى.

ومن الشعراء من يسند إلى السبب ؛ لأنه الآلة أو الوسيلة التي حدث من خلالها الفعل . وممن عمد إلى ذلك الشاعر عبدالرحمن باكثير حيث قال في مديح الشريف أحمد بن أبي نمي :

وَالْمُلْكُ لَا تَبْنِي دَعَائِمَ مَجْدِهِ إِلَّا السَّلَاحُ وَالْقَوَاضِبُ وَالْقَنَا (2)

والخيل والسيوف والرماح لا تبني دعائم الملك ، بل إن من يفعل ذلك راكبو الخيل وحاملو السيوف والرماح . وهذه أسباب ووسائل تستخدم في سبيل إقامة المجد ، لكن الشاعر أسند إليها الفعل مجازاً . ولا يخفى ما في هذا من مبالغة في إثبات معنى القوة والشجاعة التي يحتاجهما من أراد إقامة دعائم المجد لملكه . وهذه الصورة أبلغ من

(1) المصدر السابق 224/3.

(2) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 18/أ.

التركيب الجاري على الحقيقة.

لقد تبين من خلال الأمثلة السابقة أن المجاز جاء عن طريق الإسناد ، أي أن المعنى قد قام على مسند ومسند إليه . ولا نكاد نمضي في تتبع أشعارهم حتى نجد نوعاً آخر طرقه شعراء مكة والمدينة لم يحصل المعنى فيه عن طريق الإسناد ، بل المجاز كائن في اللفظة ، وهو ما أسماه البلاغيون المجاز المرسل ؛ حيث ينقل المعنى من دلالة اللفظة الحقيقية إلى دلالة جديدة تدعو إلى التأمل ، على أن تكون العلاقة بين الدالتين غير المشابهة ، مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي (1).

وهذا اللون أقل من سابقه وروداً لدى شعراء مكة والمدينة ، وقد أتى من خلال بعض النماذج التي جاء أغلبها في غرض المديح ، حيث استعان به الشعراء لتحقيق المبالغة حينما يبتغون إيصال صفة من صفات الممدوحين حداً بعيداً ، على نحو قول الشاعر محمد النويري مادحاً الشريف بركات بن محمد بن بركات مهنئاً إياه بالولاية :

يَا مَالِكاً قَلْدَ التَّشْرِيفِ فِي حَرَمٍ خَرَّتْ لِهَيْبَةِ ذَاكَ الْعُجْمِ

فالصورة توحى بأن العجم والعرب – صغيرهم وكبيرهم ، ذكرهم وأنثاهم ، الرئيس منهم والمرؤوس – قد خضعوا لهيبة الممدوح . والحقيقة خلاف ذلك ؛ إذ إنه لا يمكن أن تقر هيئته في نفوس هؤلاء جميعاً . إذن الشاعر عبر بالكل عن الجزء من باب التكثير وتفخيم شأن الممدوح وبيان مدى هيئته . وقد استعان بهذا التعبير المجازي للتأثير في المتلقي ، ملقياً في روعه عظمة الممدوح ، حتى لكأن كل فرد من العجم والعرب في أنحاء المعمورة في السهول وثنایا الجبال ، في البادية والحاضرة قد خرَّ هيبةً للممدوح . هكذا منح المجاز المرسل بعلاقة الكلية المعنى هذا القدر من المبالغة في عظمة شخصية الممدوح ، حتى كان مهيباً إلى هذا الحد البعيد.

وقد يعبر الشعراء بالجزء تنويهاً بأهميته ، كقول أحمد العليف :

تَكَفَّلْتُ لَكَ أَطْرَافَ الرِّمَاحِ بِهِمْ وَالْمُرْهَفَاتُ وَكُلُّ بِالْوَفَاءِ مَلِي (3)

(1) انظر : شرح التلخيص ، القزويني ، ص 137.

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 75/3.

(3) المصدر نفسه 192/3.

فقد ذكر أطراف الرماح ، ولم يقل الرماح ، فما سر ذلك؟ عبر الشاعر بالجزء (الأطراف) ؛ لأن الطرف هو الجزء الأقوى النافذ إلى الأجسام المستهدفة . ولا ريب أنه ليس كل جزء صالحاً لأن يراد به الكل ، وإنما لابد أن يكون جزءاً مهماً وأساساً في هذا الكل كهذا الجزء (أطراف الرماح) ؛ إذ إن الرماح ذاتها بدون هذه الأطراف المسنونة ، المصقولة ، الجارحة ، لا يمكن أن يكون لها التأثير المراد من النفاذ إلى أجساد الأعداء.

واتكأ الشعراء على علاقة المحلية في سبيل الإشادة بمكانة الممدوحين ؛ إذ قد يستعمل الواحد منهم اللفظة في معنى مجازي يهدف إليه مع كون المعنى الحقيقي بالنسبة للمعنى المجازي المراد مكاناً ، من ذلك قول الشاعر عبدالقادر العراقي :

وَأَصْبَحْتُ مَكَّةَ الْغُرَاءِ بَاكِئَةً بِمَدْمَعٍ فِي شِعَابِ الْأَرْضِ

فقد جعل الشاعر مكة تبكي أسى لما حصل لأمرها . ومكة مكان للباكين ، فالذي بكى أهل مكة ، إذ المدينة لا تبكي ، وهو في الحقيقة لا يقصد ذلك ، بل يريد من فيها من الناس ، وربما شمل غيرهم من الأحياء ، ولكنه عدل عن ذلك وعبر بالمكان الذي يحلون فيه . وهذا الأسلوب أبلغ في أداء المعنى ؛ حيث إن هذه الصورة توضح أن كل حي في مكة أصبح يضج بكاءً على ما حصل للأمير . وبذلك تحقق الصورة المراد من الدلالة على مكانته وعلو قدره.

وقد يرغب الشعراء في إبراز أهمية خصلة من خصال الممدوحين ، فيطلقون هذه الصفة (السبب) على ما تسببه من أمور محمودة ، كما فعل أحمد العليّف مادحاً الأمراء الأشراف بقوله :

مُلُوكٌ رَعَيْنَا الْجُودَ حَوْلَ حِمَاهُمْ خَصِيْبًا وَسَاهَمْنَاهُمْ الْمَالَ

فالجود ، مجاز مرسل علاقته السببية ؛ لأن الجود سبب في المعنى المراد ، وهو الخير الذي تحقق فتمتعوا به ، بل إن الجود لا يرعى ، ولكن الشاعر جاء بهذا التعبير المجازي ؛ لبيان أهمية البذل وأثره فيما تحقق من عيش هنيء . وهذه الصورة المجازية قد غيرت من نمط الأسلوب ، فأضفت عليه مسحة من الجمال ، فضلاً على إبراز هذه

(1) المصدر السابق 156/3.
(2) ديوان أحمد العليّف ، ورقة 11/أ.

الصفة الجلييلة في الممدوحين.

هذه أبرز العلاقات التي تناولها الشعراء ، وقد رأينا كيف استطاعوا منح بعض الألفاظ القدرة على تجاوز معانيها الأصلية إلى معانٍ أخرى ؛ لمقاصد فنية منشودة.

-5-

وإذا كان المفهوم القديم للصورة قد قصرها على تلك الفنون البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز عقلي ومجاز مرسل ، فإن النقد الحديث قد وسّع من إطارها " فلم تعد الصورة البلاغية هي وحدها المقصودة بالمصطلح ، بل قد تخلو الصورة – بالمعنى الحديث – من المجاز أصلاً ، فتكون عبارات حقيقية الاستعمال ، ومع ذلك فهي تشكل صورة دالة على خيال خصب" (1) .

والصورة التي لا تحتوي على شيء من الأساليب البلاغية المعروفة هي الصورة الذهنية (2) . وهي قليلة لدى شعراء مكة والمدينة ، ومنها قول أحمد العليف في وصف حسناء :

بَيْضَاءُ مَكْحُولَةٌ قَدْ زَانَهَا حَوْرٌ فِي لَحْظِهَا زَيْنَةُ الْأَجْفَانِ

فهذه الصورة الذهنية قد نقلت هذا الجمال بشكله الواقعي . وعلى الرغم من ذلك فإنها تستثير المتلقي وتحرك مشاعره بهذا الوصف الجميل الذي يمكن تخيله ورسمه.

وقد أبان الشاعر عبدالرحمن باكثير عن شجاعة ممدوحه الشريف أبي نمي من خلال هذا المشهد التصويري ، الحركي ، الخالي من المجاز ، حيث يقول :

وَإِنْ تَقْتَرِعْ بَيْضُ الصَّوَارِمِ بِالْقَتَا وَأَبْصَرْتَ كُلًّا مِنْ طَلَى الْمَوْتِ

تَرَاهُ رَبِيطَ الْجَاشِ ثَبَتًا جَنَانُهُ وَتَلْقَاهُ طَلْقًا بِاسِمِ الثَّغْرِ يَقْظَانَا

وَتَنْظُرُ مَا بَيْنَ الْمَقَانِبِ وَالْقَتَا بِخَطَارِهِ يَخْتَالُ فِي الدَّرْعِ جَذَلَانَا (4)

فالشاعر قد رسم رباطة جأش الممدوح من خلال عرضه هذه

(1) الصورة في الشعر العربي ، علي البطل ، ص 25.

(2) انظر : النقد التطبيقي والموازنات ، محمد الصادق عفيفي ، ص 170 ، 171.

(3) ديوان أحمد العليف ، ورقة 48/ب.

(4) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 13/أ.

الصورة التي يبدو فيها باسمًا ، طلق المحيّا ، مشهراً سيفه ، يقظاً ، قوي القلب في وقت لا يُسمع فيه إلا صوت الرماح والسيوف الضاربة ، ولا يُرى إلا شبح الموت محيطاً بالمكان.

-6-

ومن ينعم النظر في المصادر التي استقى منها الشعراء صورهم ؛ يلحظ أن أغلبها من الطبيعة بأفاقها المتنوعة من أرض وسماء ، وما فيهما من أشجار وجبال وبحار ودواب وسحب تهطل وأنهار تجري ونجوم وكواكب . ولم يخرجوا عما كان عليه الشعراء الأوائل .
فقد شبهوا نعومة الحسناء بغصن البان ، كما فعل عبدالرحمن باكثير الذي لم يكتف بذلك ، بل استقى من مظاهر الطبيعة الأخرى شبيهاً لحليها إذ يقول :

مَهَاةٌ كَخُوطِ الْبَانِ يَعْقِدُ خَصْرَهَا إِذَا نَهَضَتْ أَرْدَاهَا وَارْتَجَّاهَا
كَأَنَّ الثَّرِيَّا قَرِظَهَا وَكَأَنَّهَا قِلَادَتُهَا الْإِكْلِيلُ وَالْبَدْرُ تَاجُهَا (1)

وإشراقة وجه الحسناء لدى الشاعر أحمد العليف كالشمس ، حيث يقول :

فَتَاةٌ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي بِوَجْهِهَا إِذَا شِمَّتْهَا خِلَّتِ الْمُحَجَّبُ نُورَهَا (2)

وطلعة ممدوحه تشع نوراً كالكوكب الساري ، حيث يقول عن بركات بن محمد ابن بركات :

أَبُو زُهَيْرِ الَّذِي لِأَلَاءِ غُرَّتِهِ وَنُورِ طَلْعَتِهِ كَالْكُوكَبِ السَّارِي (3)

أما الشاعر أحمد البسكري فلم يكتف بجعل غرة ممدوحه كالكوكب الساري ، بل أراد أن يصل به أعلى درجات الكمال ، حيث مدح الشيخ عبدالله العيدروس ، مشيراً إلى أن له غرة كالقمر ليلة تمامه ، إذ يقول :

نُورُ غُرَّةِ كَالْبَدْرِ فِي تَمِّهِ تَرْتَاحُ مِنْهُ النَّدَى وَالْغَالِيَةُ (4)

وساقي قهوة البن للشریف أبي نمي كما يقول :

- (1) المصدر نفسه ، ورقة 39/أ.
- (2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 10/أ.
- (3) المصدر نفسه ، ورقة 29/ب.
- (4) النور السافر ، العيدروس ، ص 299.

مِثْلُ شَمْسٍ عَنْ سَمَاءٍ أَسْفَرَتْ أَوْ كَبَدْرٍ قَدْ غَدَا فِي غَيْهَبٍ (1)

ويرى الشاعر عبدالعزيز الزمزمي أن وجه مؤنسه روض جديد ، إذ يقول مخاطباً إياه :

وَجْهُكَ لِي رَوْضٌ جَدِيدٌ إِذَا أَخْلَقْتَ الْأَرْضَ الْقَبَا السُّنْدُسِي (2)

وسيجد المتابع لمصادر الشعر أنه في معرض لمظاهر الطبيعة الصامته والمتحركة ؛ فقدوم الأمير كالغيث الساقى للأرض ، وهيبته في مَقْدَمِهِ كالأسد ، كما يقول الشاعر أحمد القليوبي عن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان :

قَدِمْتَ كَالْغَيْثِ رَوَى الْأَرْضَ وَجِئْتَ كَاللَّيْلِ فِي خُبَرٍ وَفِي
وَالْتَشْبِيهِ بِالْأَسَدِ كَثِيرٌ فِي مَدِيحِ الْأَمْرَاءِ بِالشَّجَاعَةِ ، من ذلك أيضاً قول أحمد الحرازي مادحاً الشريف بركات بن محمد بن بركات :

هَزْبَرٌ لَا يُطَاقُ لَهُ نِزَالٌ إِذَا مَا الْحَرْبُ كَالنَّارِ الْوَقُودِ (4)

وكذلك في وصف أفراد جيوشهم ، فالشاعر علي الجَم يتحدث عن غزو الشريف حسن بن أبي نمي جبل شمر ، ويشير إلى شجاعة جيشه قائلاً :

وَلْيُؤْتِ تَلْقَى الْحُتُوفَ اشْتِيَاقاً كَلْقَى الْحَبِيبِ حِينَ الْوَصَالِ (5)

ومن الشعراء من يشبه عظمة الجيش وبأسه بالبحر ، كعبدالعزیز الزمزمي حينما مدح أبا نمي إثر انتصاره على النصارى وإخراجهم من جدة ، إذ قال :

أَتَوْكَ كَالْبَحْرِ فَصَارُوا لَدَى بَخْرِكَ كَالْجَرَعَةِ لِلْمُخْتَسِي (6)

والتشبيه بالبحر أغلب ما يكون في وصف الكرم وكثرة عطاء الممدوح . من ذلك قول عبدالرحمن باكثير مادحاً الشريف أبا نمي :

(1) إتحاف فضلاء الزمن ، محمد الطبري 563/1.

(2) نزهة الجليس ، الموسوي 287/1.

(3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 607/2.

(4) المصدر نفسه 260/3.

(5) سمط النجوم العوالي ، العصامي 375/4.

(6) نزهة الجليس ، الموسوي 289/1.

كَفَّهُ لِلْعَفَاةِ بَحْرٌ خِضَمٌ لَيْسَ فِيهِ وَلَيْسَ مِنْهُ انْتِزَاحٌ (1)

والشاعر ابن بيته ، يستقي منها صوره سواء من طبيعتها – كما مرّ – أو مما يتداوله في حياته اليومية ، فالشاعر الشريف أبو نمي حينما أقلقه الهم وجافاه النوم ؛ تصور أن مضجعه قد بلغ من الخشونة وكأن شوك القتاد على فراشه ، فجنبه لا يستقر على حال ، إذ يقول :

جَفَتِ الْمَضَاجِعُ جَانِبِي فَكَأَنَّمَا شَوْكُ الْقَتَادِ عَلَى الْفِرَاشِ

وشبه عبدالمعطي باكتير القهوة بالكحل قائلاً :

أَهْلًا بِصَافِي قَهْوَةٍ كَالْإِثْمِدِ جُلَيْتَ فَرَأْنْتَ بِالْخِمَارِ الْأَسْوَدِ (3)

والكحل مادة معروفة متداولة في حياتهم اليومية . ومن ذلك عدة المقاتل كالسيف والرمح وغيرهما ، فقد جعل الشاعر عبدالرحمن باكتير عودة الشريف أحمد بن أبي نمي إلى وطنه كعودة السيف إلى غمده بعد مضيه في نحور الأعداء ، إذ يقول في معرض مديحه :

فَعَادَ إِلَى أَوْطَانِهِ عَوْدَ مُرْهَفٍ إِلَى غَمْدِهِ مِنْ بَعْدِ مَا وَرَدَ النَّحْرَا

ومن الأدوات اليومية التي اتخذها الشعراء مصدراً من مصادر صورهم في الغزل بعض أدوات الزينة كاللؤلؤ ، وبعض العطور كالمسك والعنبر . من ذلك قول الشاعر علي الجم في وصف حسناء :

ذَا تُغَرِّ كَالدَّرِّ فِي لَأَزْوَرِدٍ بِرِضَابٍ يَحْكِي ابْنَةَ الْعُنُقُودِ

نَافِحٌ عَنْ مِسْكِ ذِكِّي وَعِطْرِ عَنَبَرِيٍّ وَفَاتِقٍ عَنْ وُرُودِ (5)

والصورة المستمدة من الإنسان متمثلة في التشخيص الذي سبق عرض نماذج منه ، ومنه قول الشاعر محمد بن عبدالقوي :

تَبَسَّمتِ الدُّنْيَا سُرُوراً وَأَصْبَحَتْ مَعَالِمُ هَذَا الْكَوْنِ تَرْفُلُ فِي الْهَنَا

فالدنيا تبتسم مسرورة كالإنسان ، ومعالم الكون تعيش في رغد وهناء.

(1) سمط النجوم العوالي ، العصامي 351/4.

(2) منائح الكرم ، السنجاري 364/3.

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص483.

(4) ديوان عبدالرحمن باكتير ، ورقة 7/أ.

(5) سمط النجوم العوالي ، العصامي 377/4.

(6) إتحاف الوري ، عمر بن فهد 109/4.

وحيثما نمضي مع الشعراء في صورهم ؛ نجد أن ثقافتهم قد أمدتهم ببعض المصادر لتلك الصور التي أبدعوها ، يتضح ذلك في مثل قول الشاعر بركات بن حسن بن عجلان يعاتب أخاه أبا القاسم :

قَدْ جِئْتُ مَا جَا كَلْبِيًّا فِي عَشِيرَتِهِ لَوْ أَنَّ فِينَا غَلَامًا مِثْلَ جَسَّاسِ

وواضح أن ثقافة الشاعر قد وعت قصة كليب وائل مع ابن عمه جساس بن مرة البكري ؛ فوظفها في عتابه . وهي قصة مشهورة ؛ حيث غدر جساس بابن عمه كليب (أعز العرب في زمانه) فقتله ، فثارت تغلب بقيادة المهلهل لدم كليب ، ونشبت الحرب بين الحيين (تغلب وبكر) وهي الحرب التي جرت في العصر الجاهلي ، المعروفة بالبسوس⁽¹⁾.

ومن ذلك قول عبدالرحمن باكثير مادحاً الشريف أبا نمي :

فَكَيْفَ بَرَهْطٍ قَدْ هَمَمْتَ بِغَزْوِهِمْ تَفَانُوا تَفَانِي قَوْمِ عَبَسَ وَذُبْيَانِ

حيث استقى الشاعر مصدره في هذا التشبيه من ثقافته التي أدركت آثار حرب داحس والغبراء ، تلك الحرب التي تشارك فيها أبناء العشيرة في إفناء بعضهم بعضاً قبل أن يدرك الحارث بن عوف وهرم بن سنان الصلح ويوقفوا نزيف الدم بين الفريقين⁽²⁾ .

والقرآن الكريم مصدر مهم نهل منه بعض الشعراء ، كحسين العفيف في رثاء الشريف حسن بن عجلان ، إذ يقول :

وَلَقَدْ ظَنَنْتُ الْأَرْضَ بَعْدَ وَفَاتِهِ مَادَتْ بِمَنْ فِيهَا مِنَ السُّكَّانِ

وَتَزَلْزَلَتْ أَطْوَادُهَا وَسَمَاوُهَا إِنَّ شَقَّتْ فَكَانَتْ وَرَدَةً كَدِهَانَ⁽³⁾

إذ نظر في هذه الصورة إلى قول الباري - جل شأنه - : [فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرَدَةً كَالدِّهَانِ]⁽⁴⁾ .

وممن عمد إلى ذلك الشاعر محمد علي بن إسماعيل الطبري في مديح الشريف حسن بن أبي نمي ، حينما انتصر على بني خالد ، حيث قال :

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 455/2.

(2) انظر خبر هذه الحرب في : (الكامل في التاريخ ، ابن الأثير 472/1-485).

(3) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 14/أ.

(4) انظر خبر داحس والغبراء في : (الكامل في التاريخ 509/1-522).

(5) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 387/2.

(6) الرحمن ، الآية 37.

وَجَرَّعَتْهُمْ كُؤُوسَ الْحَيْنِ مُثْرَعَةً وَقَائِعَ تَتْرُكُ الْوِلْدَانَ شِيْبَانَا (1)
إذ استقى ذلك من قوله - سبحانه وتعالى - : [فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ
يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا] (2) .

-7-

وإذا نظرنا إلى الصورة الحسية لدى الشعراء ؛ وجدنا أن الصورة
البصرية هي السائدة في نتاجهم ، وهذا أمر طبعي ؛ إذ لا شك أن الحواس
نوافذ ندرك من خلالها الأشياء ، ولكن نافذة البصر أوسعها . ولو عدنا
إلى شعرنا القديم ؛ لوجدنا أن الصورة البصرية هي الصورة الحسية
الشائعة . يقول الدكتور نصرت عبدالرحمن : "وأول ما نلاحظه في الشكل
الحسي للصورة الجاهلية هو الصورة البصرية ، فإن الكثرة الكاثرة من
الصور الجاهلية بصرية" (3) .

والحديث عن الصورة البصرية يقودنا إلى الحديث عن الألوان ، إذ إن
"اللون أحد المحسوسات المكونة للصورة ، لكنه يتقدم غيره من المحسوسات
، ويكون له من بعد دلالات وإيحاءات ورموز تفوق ما عده من سائر
المحسوسات" (4) .

وأكثر الألوان شيوعاً فيما وقفت عليه من شعر شعراء مكة والمدينة
الأبيض ثم الأسود فالأحمر والأخضر . وقد وظفوا الألوان رموزاً
للمعاني ؛ فهي تبرز ما يريد الشاعر إظهاره من أفكار ، وتكشف عن
نفسيته ، كما أننا نجد فيها تكتيفاً للمعنى ، فالشاعر عبدالعزيز بن علي
الزمزمي - مثلاً - مدح الشريف أبا نمي وأراد أن يحكي عن نقاوة
العرض النابعة من الصفاء والطهر والشرف الذي يتمتع به الممدوح ،
فعبّر باللون قائلاً :

أَعْدَاؤُهُ دَنَسَهُمْ لَوْمُهُمْ وَعَرِضُهُ الْأَبْيَضُ لَمْ يَدْنُسْ (5)

والبياض إيحاء بذلك كله . وقد يأتي اللون الأبيض إيحاءً بالنصر
وشرف الهدف ، كقول الشاعر علي الجم متحدثاً عن انتصار الشريف
حسن بن أبي نمي :

(1) نفحة الريحانة ، المحبي 52/4.

(2) المزمّل ، الآية 17.

(3) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، ص 191.

(4) الصورة الشعرية واستيحاء الألوان ، يوسف حسن نوفل ، ص 225.

(5) نزهة الجليس ، الموسوي ، ص 289.

خَفَقَتْ بِالسَّعُودِ رَايَاتُهُ الْبَيْدَ — ضُفْرَا حَتَّ كَالزَّهْرِ جُنْحٌ

واللون قد يأتي مباشراً كالبيتين السابقين ، وقد يكون البياض غير مباشر — وهو الأكثر لدى شعراء مكة والمدينة — كالنور ، والصبح ، والبرق ، والبدر ، والشمس ، وما أشبهها مما يوحي بالبياض ، كقول الشاعر نابت الزمزمي في مديحه الرسول ع :

جَبِينُهُ قَمَرٌ قَدْ زَانَهُ خَفَرٌ وَثَغْرُهُ دُرٌّ غَرٌّ وَمَرْجَانٌ (2)

والبياض واضح في القمر والدرر الغر . فجبينه — عليه الصلاة والسلام — منير بهي الطلعة كالقمر ، وثغره متألئ في حسنه وبهائه كاللؤلؤ . واللون الأبيض هنا أوحى بالإضاءة والحسن والبهاء التي أراد أن يعبر عنها الشاعر من خلال هذا التشبيه.

وسواء أكان اللون الأبيض مباشراً أم غير مباشر فإنه حمل دلالات جميلة ، كالعزيزمة الصادقة ، والنصر ، والصفاء ، والطهر ، والأمن والاستقرار ، والجمال ، والإضاءة ، والبهاء ، وغيرها من الإحياءات الجيدة.

وجاء اللون الأسود — على الأغلب — دالاً على الظلمات ، والمصائب ، والحقد ، والتقهر ، سواء أكان مباشراً أم غير مباشر . والأسود المباشر قليل ، ومنه قول الشاعر علي الجهم مادحاً الشريف أبا نمي :

يَخْتَشِي الدَّهْرُ مِنْ سَطَاهُ وَتَخْشَا هُ الْمَنَائِيَا بِالْحَادِثَاتِ السُّودِ (3)

وقد لون الشاعر الحادثات بالسواد ؛ ليوحي بما تحمله من إهلاك وما تجره من مصائب.

وأكثر ما يجيء اللون الأسود غير مباشر ، كالظلام ، والليل ، والدجى ، والمساء . وقل أن يأتي السواد — سواء أكان مباشراً أم غير مباشر — دون أن يكون مصاحباً للون الأبيض . وهذه مزية ؛ لأن الألوان المتضادة أكثر إثارة "والشيء يظهر حسنه الضد" (4).

(1) سمط النجوم العوالي ، العصامي 377/4.

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1226/2.

(3) سمط النجوم العوالي ، العصامي 378/4.

(4) هذا عجز بيت لدوقلة المنبجي صدره (ضدان لما استجمعا حسناً).

- عن معجم الأبيات الشهيرة ، حسن نمر دندشي ، وجاء في معجم لآلئ الشعر ، إميل يعقوب ، ص 117 ، أن البيت لعلي بن جبلة ، والعجز : وال ضد يظهر حسنه

وقد أشار ابن سنان الخفاجي إلى فضل تضاد الألوان في قوله : "ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ؛ ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة" (1) .

فلننظر هذا التباين ودلالاته في مديح الشاعر أحمد العليف الشريف بركات بن محمد بن بركات ، بعد أن أنكر على القاعدين تطلعهم إلى الإمارة ، مشيراً إلى أن الممدوح قد سهر واقتحم الخطوب ؛ لإعادة ملكه في وقت سكن فيه أولئك للنوم والراحة ، حيث يقول :

أَيْنَ كَانُوا أَبَا زُهَيْرٍ وَقَدْ ذُتَّ عَنِ الْمُلْكِ وَالْخُطُوبِ عِظَامُ
حِينَ أَدَجَى ضِيَاؤُهَا وَتَوَارَى صُبْحُهَا فَانْجَلَى بِكَ الْإِظْلَامُ (2)

فقد عبر الشاعر عن الأمن والاستقرار والحالة السعيدة التي تعيشها البلاد في ظل الممدوح باللون الأبيض (ضياؤها) ، لكن ذلك كله قد زال حينما ابتعدت الإمارة عنه ، حيث عاشت البلاد في حالة غير مستقرة ، عبر عنها الشاعر باللون الأسود (أدجى) . كما أن إشراقة الوجوه وتجدد الخيرات الذي عبر عنه باللون الأبيض (صبحها) قد توارى ، فعاشت في حالة أشبه بالظلمة التي انقشعت بعودة الممدوح إلى ملكه.

ويتضح جمال التصوير من خلال التضاد بين الأبيض والأسود في قول الشاعر عبدالرحمن باكثير :

وَبُدُورٌ تُضِيءُ فِي جُنْحِ لَيْلٍ أَمْ شُعُورٌ فِيهَا وَجُوهٌ صَبَاحُ
إِنْ تَثَبَّتْ تُرِيكَ غُصْنًا وَحَقْفًا وَمَسَاءً مِنْ تَحْتِهِ الْإِصْبَاحُ (3)

حيث يرى الشاعر أن الوجوه المشرقة الجميلة وقد أحاط بها الشعر الأسود تشبه البذور المضيئة في ظلمة الليل ؛ فالوجوه منيرة جميلة كالبدور في إضاءتها وجمالها ، والشعر في سواده كالليل . والسواد في هذه الصورة يحمل إيحاءً جميلاً ؛ إنه دليل الشباب ونضارته. وجاء اللون الأحمر موحياً بالشدة ، والدمار ، والهلاك ، والقتل . ولم

=

الضد.

- (1) الصنائعيتين ، العسكري ، ص54.
- (2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 14/ب.
- (3) سمط النجوم العوالي ، العصامي 346/4.

يأت مباشرةً إلا في قليل من النصوص ، كقول محمد الفاكهي :
أَمَّا السُّنُونُ فَإِنِّي سَوْفَ أَرْقُمُهَا بِحُمْرَةِ بِحَسَابِ الْجُمَلِ الْبُهِرِ (1)

وهو بيت من قصيدة يرثي بها الأمير خداوند الذي مات قتيلاً ؛
ولذلك فإن الشاعر سوف يرقم السنين بهذا اللون ، وهو فعل معبر عن
نفسية الشاعر في تلك اللحظة التي حزن فيها على المرثي الذي كان
"أميراً ، كبيراً ، جليل القدر ، رفيع المنزلة ، حسن الأخلاق ، كثير
الإنفاق... محبباً إلى الناس... محبباً لأهل الخير والفلاح" (2).

ومن المعروف لدى العرب أن "السنة الحمراء هي الشديدة ،
والموت الأحمر موت القتل ؛ وذلك لما يحدث عن القتل من الدم ،
وكثيراً ما يطلقون الحمرة على الشدة" (3) .

وقد يأتي اللون الأحمر مع الأبيض ، كقول الشاعر أحمد العليف
مادحاً الشريف بركات بن محمد بن بركات :

فَتَى يَرِدُ الْهَيْجَاءَ بَيْضٌ سَيُؤْفُهُ فَيَصْدُرُ عَنْهَا وَلَوَانُهَا حُمْرُ (4)

فاللون الأحمر هنا هو الدم الذي ارتوت منه سيوف الممدوح حين
تحولت ألوانها البيضاء إلى حمرة من دماء الأعداء . وقد عبر الشاعر
عن شجاعة ممدوحه وقدرته على سفك دماء الأعداء من خلال اللون .
ويأتي جمال التصوير هنا من الازدواج في اللون (الأبيض - الأحمر) ؛
إذ رسم الشاعر منظرًا مشكلاً أكثر إثارة . واللونان الأبيض والأحمر
يعرضان تآلف الأضداد ؛ حيث النصر والعزة والعزيمة الصادقة والحياة
الهنئية قبالة الهزيمة والذلة والقتل والتشريد.

وأكثر ما يجيء مثل هذا في مديح الأمراء الأشراف ، حين يبرز
الشعراء شجاعتهم وسحقهم للخصوم . وممن مدحهم وتناول ذلك الشاعر
أبو بكر بن أبي الخير ، حيث يقول عنهم :

بَيْضُ الصَّوَارِمِ عِنْدَ مُحْتَبِكِ الْقَنَا حُمْرُ الْأَسِنَّةِ مِنْ طُلَى وَكُثُودِ (5)

وأكثر ما يأتي اللون الأحمر غير مباشر ، كالنار ، والجمر ، والدم .

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص365.

(2) المصدر نفسه ، ص363 ، 364.

(3) لسان العرب ، مادة (حمر).

(4) ديوان أحمد العليف ، ورقة 17/ب.

(5) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 296/3 . والطلى : جمع طلاة ، أي : العنق أو
صفحته ، كُثُودٌ : جمع كَنَدٍ ، أي : الكاهل ، أو مجتمع الكتفين.

وفيه إحياء بالشدة - كما سبق - نجد ذلك في مثل قول أحمد العليف :
أَفِي كُلِّ عَامٍ فَرْقَةٌ بَعْدَ فَرْقَةٍ تُوَجَّجُ نَاراً فِي الْفَوَادِ لَهَا

ففراق الأحبة متعب شديد الوقع على القلب ، وهذا الفراق الشديد نار حمراء تشتعل في الفؤاد ؛ فتصلاه بحرّها . هكذا عبر الشاعر باللون الأحمر في هذا الموقف الذي أبان من خلاله معاناته من شدة الفراق .
ويكاد اللون الأخضر يتساوى مع الأحمر في نتاج الشعراء . واللون الأخضر ذو إحياء برغد العيش ، والخصب ، والنماء ، والطمأنينة ، والطيبة والفطرة ، والتفاؤل .

ويأتي أكثر اللون الأخضر مباشراً ، كقول الشاعر أحمد القليوبي :
وَأَصْبَحَ الْكَوْنُ مَسْرُوراً وَمُعْتَبِطاً يَمِيسُ بِالتَّيِّهِ فِي أَثْوَابِهِ الْخَضِرِ

فالأخضرة هنا إحياء بالخصب والرغد والعيشة المطمئنة .
ويعبر الشعراء باللون الأخضر عن التفاؤل والخير ، كقول عبدالرحمن باكثير - مع ما فيه من التضمين - في رثاء الشريف أحمد بن أبي نمي :

وَأَكْفَأُهُ الْبَيْضُ الشَّرِيفَةَ (مَا أَتَى لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ
وواضح ما في هذا التدبيح من إحياء جميل ؛ حيث كنى به عن المصير الخير للمرثي لما علم أن أهل الجنة يلبسون الحرير الأخضر .
وندر مجيء اللون الأخضر غير مباشر ، مثل قول عبدالعزيز الزمزمي :

وَجْهُكَ لِي رَوْضٌ جَدِيدٌ إِذَا أَخْلَقْتَ الْأَرْضَ الْقَبَا السُّنْدُسِي (4)

والخضرة هنا - روض جديد - إحياء بالفطرة والعطاء .
وقد اجتمعت الألوان الأربعة (الأبيض ، والأسود ، والأحمر ، والأخضر) في قول علي الجم مادحاً الشريف حسن بن أبي نمي إثر أحد

(1) ديوان أحمد العليف ، ورقة 50/أ .

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 607/2 .

(3) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 22/أ . وفيه تضمين لجزء من بيت أبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطائي ، إذ يقول : تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمُراً فَمَا أَتَى لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ خَضِرٍ

- ديوان أبي تمام 81/4 .

(4) نزهة الجليس ، الموسوي 287/1 .

انتصاراته :

زُرْتُهُمْ وَالشَّبَابُ يَشْفَعُ لِي وَالـ
وَحَمَامُ الْأَرَكَ تَشْدُو بِمَدْحِ الـ
... شَيْدَ الدِّينِ بِالْعَوَالِي وَأُضْحَى
وَحَمَى الْبَيْتِ وَالْحَطِيمِ بَبِيضٍ
وَبِخَيْلٍ سَوَاقٍ وَجِيَادٍ
... وَبِهِمْ أَبْيَضُ الْمَحْيَا [مَثِيلٌ] (1) الـ
... يَخْتَشِي الدَّهْرُ مِنْ سَطَاهُ وَتَخْشَا
عَيْشُ يَخْضَرُ مِنْهُ يَانِعُ عُودِي
مَلِكِ الْأَمَجَدِ الْكَرِيمِ الْجُدُودِ
بِالْمَعَالِي كَالْوَالِيهِ الْمَعْمُودِ
مُسْرِفَاتٍ تَجَاوَزَتْ فِي الْخُدُودِ
سَابِحَاتٍ تَدُوسُ قَلْبَ الْحَسُودِ
بَذْرِ بَالْتَمَّ وَالْبَهَا وَالسُّعُودِ
هَ الْمَنَايَا بِالْحَادِثَاتِ السُّودِ (2)

واجتماع هذه الألوان أعطى منظراً ملوناً ؛ إذ رسم الشاعر أفكاره ولونها في هذه الأبيات ، حيث يتضح من قوله : (والعيش يخضر) أنه في صفو من عيشه ونعيم ، كما يوحي اللون الأبيض في قوله : (حمى البيت والحطيم ببيض) بالتطهير والعدل والنقاء الذي تفعله السيوف ، وقد ألبست السيوف الجياد جلابيب من الدماء ، تخضبت بها زنودها ؛ فزاد ذلك في تركيب اللون . لقد أصبح اللون الأحمر (الدم) كالجلابيب من كثرة القتلى وعظم الانتصار . والممدوح (أبيض المحيا) واللون هنا يوحي بأنه مشرق الوجه ، بهي الطلعة ، يعلوه البشر والسعد . وقد أراد الشاعر الإيحاء بما تحمله الحوادث من إهلاك وما تجره من مصائب ؛ فلونها بالسواد.

ومن الشعراء من يمزج في البيت الواحد بين عدة ألوان ترمز لما يريد أن يكشفه ، وما يبتغيه من إثارة ، كما فعل الشاعر محمد بن أبي السعود بن ظهيرة في مديحه للشريف محمد بن بركات ، إذ قال :

يَا مُصْدِرَ الْبَيْضِ حُمْرًا بَعْدَمَا نَحُورَ ثَغْرِ الْأَعَادِي السُّودِ

فَالسِّيُوفُ الْمُتَلَأَلَةُ بِيَاضاً تَعُودُ مِنَ الْأَعْدَاءِ حُمْرَاءَ اللَّوْنِ بَعْدَ أَنْ تَتِمَّكَنَ مِنْ نَحُورِهِمْ ، ولكنه في هذا البيت قد لون الأعداء باللونين الأسود والأصفر . والسود هم الحاقدون الناقمون ، أما الأصفر فهم

(1) في المصدر : مغير أو منير – غير واضحة – وكلاهما غير مناسبين للمعنى.

(2) سمط النجوم العوالي ، العصامي 377/4 ، 378.

(3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 527/2.

المنافقون الذين يتلونون ويتقلبون في مواقفهم على أكثر من وجه غيرة وحسداً.

واللون والحركة عنصران برزا في الصورة البصرية . والصورة الحركية واضحة فيما مرّ ، وفي مثل قول الشاعر حسين العليف ، مادحاً الشريف حسن بن عجلان :

وَقِسِيْ نَصْرِكَ لَمْ يَزَلْنَ سِهَامُهَا تُصْمِي الْقُلُوبَ وَكُلَّ ذَاتِ حَوَافِرِ
فَكَأَنَّمَا هِيَ فِي إِصَابَتِهَا الْعَدَى شُهْبٌ تَقْضُ عَلَى مَرِيدٍ فَاجِرٍ (1)

-8-

ومن الشعراء في مكة والمدينة من صَوَّرَ ، مُرَكِّزاً على التشابه الحسي بين المشبه والمشبه به دون مراعاة للذوق ؛ فأضحت صورهم ضعيفة سامجة ، فالشبه الحسي بين كفل المرأة وكثيب الرمل قاد الشاعر عبدالرحمن باكثير إلى وصفها بقوله :

هَضِيمَةٌ كَشَحٍ لَمْ يَزَلْ عُودُ يَنْوُءُ بِأَحْقَافٍ وَيَحْمِلُ كُثْبَانَا (2)

لقد نظر الشاعر إلى الجامع بينهما على شاكلة الشعراء القدماء ؛ فعبر عن ضخامة كفلها من خلال هذه الصورة التي لا أرى أنها تقدم إحياءً جميلاً.

والإحياء المناسب مهم في التصوير ، فأبي إحياء يمكن أن يقبله الذوق في الجامع بين الحالة حينما سمع الشاعر خبر موت الوزير الكجراتي وبين السكر في مثل قول الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي :

أَصَمَّ أَدْنِيَّ بِهِ النَّاعِي وَأَسْمَعَنِي أَمْرًا بِهِ صَرْتُ مِثْلَ الشَّارِبِ

بل كيف يقبل الذوق هذا المديح الذي أطلقه الشاعر عبدالرحمن باكثير ، واصفاً حالة الشريف أبي نمي حين يسمع المديح بأنه كالثمل من فرط فرحته :

وَتَرَاهُ يَهْتَزُّ مِنْ نَشْوَةِ الْمَدِّ حِ فَتُلْفِيهِ ثَامِلًا وَهُوَ صَاحٍ (4)

وعلى الرغم من صحة التشبيه في كثير من تلك الصور ، فإنها تفقد

(1) المصدر نفسه 366/2.

(2) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 11/ب.

(3) النور السافر ، العيدروس ، ص326.

(4) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 29/ب.

التناسق بينها وبين سياقاتها ؛ مما جعل الذوق السليم يمجها. هذه أبرز ملامح التصوير لدى شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، رأينا من خلالها أن التشبيه فن بياني أكثر منه الشعراء ، متكئين على المدركات الحسية ، متأثرين ببيئتهم في كثير من صورهم . وقد اتضح أن من وسائل تشكيل الصورة لديهم أيضاً : الاستعارة والكناية والمجاز المرسل والمجاز العقلي ، كما وجد لديهم بعض الصور الذهنية التي لا تعتمد على شيء من هذه الفنون . ورأينا أيضاً قدرة الشعراء على تجسيم المعنويات وتشخيص الجوامد والتصوير من خلال اللون.

5- الأوزان والقوافي :

-1-

الوزن قِوام الشعر ، والقافية ذات أهمية كبرى في إحداث الموسيقى المنشودة . وانطلاقاً من كونهما "من ألزم العناصر للغة الشعر وأسلوبه ، ومن أدق مقاييسه النقدية"⁽¹⁾ ؛ اهتم بهما النقاد ولقيا عناية الشعراء . والناظر في النتاج الشعري لشعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ يلحظ أنهم قد جروا في أوزانهم وقوافيهم على سنن من كان قبلهم من شعراء العربية . فالطويل أكثر البحور الخليلية التي نظموا عليها ، يليه البسيط ، فالكامل ، ثم الوافر والخفيف بنسبة متقاربة ، وهما متوسطا الشيوخ ، يليهما السريع ، ثم الرمل والرجز ومجزوء الكامل والمتقارب بنسبة متقاربة ، ولكن النظم عليها كان قليلاً . أما المنسرح والمجتث ومخلع البسيط ومجزوء الرمل ومجزوء الرجز فأوزان قد جرت في أشعارهم ، ولكن بصورة نادرة . ونوعوا في قوافيهم ؛ حيث نجد الازدواج والتخمين والتوشيح والقوافي المشتركة .

-2-

والواضح من خلال استعراض الأوزان التي نظم عليها شعراء مكة والمدينة أنهم جاروا الشعراء العرب الفحول الذين أكثروا من النظم على الطويل والبسيط والكامل ، وتوسطوا في النظم على الوافر والخفيف "فالبحر الطويل قد نظم منه ما يقرب من ثلث الشعر العربي... [كما أن] كلاً من الكامل والبسيط يحتل المرتبة الثانية في نسبة الشيوخ ، وربما جاء بعدهما كلٌّ من الوافر والخفيف . وتلك هي البحور الخمسة التي ظلت في كل العصور موفورة الحظ ، يطرّقها كل الشعراء ويكثرّون النظم منها ، وتألفها آذان الناس في بيئة اللغة العربية"⁽²⁾ . كما أن شعراء مكة والمدينة قد سايروا الشعر العربي في نسبة شيوخ المجزوءات ؛ فقد جاء مجزوء الكامل في مقدمتها عندهم ، وهو "أكثر

(1) أصول النقد الأدبي ، الشايب ، ص318 .
(2) موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس ، ص210 .

البحور القصيرة شيوعاً في الشعر العربي" (1) . وجاءت الأوزان – في الأغلب من أشعارهم – مناسبة للموضوعات المطروقة ، وحتوت الأوزان الطويلة (كثيرة المقاطع) – كبحور الطويل والبسيط والكامل – أغلب أغراض المديح والثناء والفخر والحماسة والشعر الديني وشعر الغزل والحنين والشكوى . فالمديح – مثلاً – أكثر ما أتى على الطويل والبسيط ثم الكامل ، وجُل الشعر الديني منظوم على وزني الطويل والبسيط ، وأغلب الرثاء والحنين والشكوى على الطويل ، أما الغزل فأكثر ما جاء على الطويل فالبسيط ثم الخفيف . ومثل هذه الأوزان تستوعب تلك الموضوعات التي تتطلب طول نفس ؛ ولذلك جاءت عليها قصائدهم الطويلة والمتوسطة في طولها . فالطويل بحر طابعه الجدية والرصانة ، يستوعب أغراضاً عديدة ؛ لذلك يعتمد إليه أصحاب التجارب الجادة التي تحتاج إلى طول نفس . وقد اشتمل على كثير من المدائح والشعر الديني والمراثي والحنين والشكوى والفخر ، حتى شعر الغزل كان للطويل النصيب الأوفى منه ؛ ربما لأن كثيراً من قصائد الغزل قد وردت مقدمات للمدائح المنظومة على هذا البحر . والبحر الطويل رحب الصدر ، أكثر مناسبة من غيره لاختلاف الموضوعات في القصيدة الواحدة ، فقد أخذ من "حلاوة الوافر دون انبثاره ، ومن رقة الرمل دون لينه المفرط ، ومن ترسل المتقارب المحض دون خفته وضيقه ، وسلم من جلبه الكامل وكزازه الرجز ، وأفاده الطول أبهة وجلالة ، فهو البحر المعتدل حقاً ونغمه من اللطف بحيث يخلص إليك وأنت لا تكاد تشعر به" (2) .

وقد استغل الشعراء البحر الطويل للحديث عن الممدوحين ووصف بطولاتهم ، واتخذوا من رحابته مجالاً لبث أحوالهم وسرد ما تكنه صدورهم من أحاديث العشق وأفعال الغرام التي وصلنا شطر منها مصاحباً لقصيدة المدح ، فهذا الشاعر عبدالرحمن باكثير يحكي عن ماضيه ، مستعيداً أيام الشباب ، سارداً طرفاً من قصة عشقه ، ملتفتاً إلى حاضره ، إذ يقول :

(1) المرجع نفسه ، ص119 .

(2) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، عبدالله الطيب 443/1 .

تَمَنَّ عَلَى الْمُضْنَى بِإِرْسَالِ طَيْفِهَا إِلَيْهِ وَمَنْ ذَاقَ الصَّبَابَةَ لَا يَكْرَا
رَعَى اللَّهُ دَهْرًا كُنْتُ سُلْطَانَ أَوَاصِلُهَا فِيهِ وَلَا أَشْتَكِي هَجْرًا
لَهَوْتُ بِهَا فِي عُنُقَوَانِ شَبِيبَتِي وَكَانَتْ غُصُونُ الْعُمْرِ يَانِعَةً
وَلَمَّا مَضَى عَصْرُ الشَّيْبَةِ وَمَرَّ وَمَا أَحْلَاهُ مِنْ زَمَنِ مَرًّا
وَنَبَّهْنِي مِنْ نَوْمِ لَهْوِي وَشَبِيبَتِي صَبَاحَ مَشِيبٍ لَاحَ فِي مَفْرِقِي
دَعَانِي هَوَاهَا لِلتَّصَابِي فَلَمْ أَجِبْ وَقُلْتُ لَهُ أَرْهَقْتَنِي فِي الْهَوَى
أَبْعَدَ مَشِيبِي تَبْتَغِي مِنِّي الصَّبَا لَقَدْ جِئْتَ يَا دَاعِي الْهَوَى خَطَّةً⁽¹⁾

ويمضي الشاعر بمتلقيه من خلال هذه النغمة المنسابة لتفعيلات هذا البحر ؛ لِيُسَلِّمَهُ إِلَى الْمَدِيحِ بِلُطْفِ مَنَبْعِهِ هَذِهِ الذَّبِذْبَاتِ الْهَادِئَةِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الرِّنَةِ الْمَوْسِيقِيَّةِ الْوَاضِحَةِ لِهَذَا الْبَحْرِ ، حَيْثُ يَقُولُ عَنْ مَمْدُوحِهِ الشَّرِيفِ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي نَمِي:

وَفَكَّرِي عَنْ صَوِّغِ الْمَدِيحِ فَطَمْتُهُ سَوَى صَوِّغِ مَدْحِي فِي ابْنِ فَاطِمَةَ
أَبِي الظَّفَرِ الْمَنْصُورِ أَحْمَدَ مِنْ رَقَا سَمَاءَ الْمَعَالِي وَامْتَطَى الْأَنْجُمُ
... هَزَبَرْتُ خَافَ الْأَسَدُ مِنْ سَطَوَاتِهِ أَلَسْتُ تَرَاهَا خِيفَةً تَسْكُنُ الْقَفْرَا
جَوَادٌ لَقَدْ أَخْطَا الَّذِي قَاسَ جُودَهُ بِسُخْبٍ وَهَذَا كَفَّهُ تُمَطِّرُ التَّبْرَا⁽²⁾

ويقترِبُ الْبَحْرُ الْبَسِيطُ مِنَ الطَّوِيلِ فِي نَتَاجِ شِعْرَاءِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، وَهُمَا "أَطْوَلَا بِحُورِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ وَأَعْظَمَهَا أَبْهَةً وَجَلَالَةً"⁽³⁾ ؛ وَلِذَلِكَ عَمِدَ الشَّعْرَاءُ إِلَى الْبَسِيطِ أَيْضاً فِي كَثِيرٍ مِنْ مَدَائِحِهِمْ وَغَزَلِهِمْ وَفَخَرَهُمْ وَحَمَاسَتَهُمْ وَأَشْعَارَهُمُ الدِّينِيَّةَ . وَأَكْثَرُ مَا وَرَدَ الْبَحْرُ الْكَامِلُ فِي الْمَدِيحِ ، أَمَّا الْخَفِيفُ فَجَلَّ وَرُودُهُ فِي الْغَزْلِ وَالْمَدِيحِ.

-3-

وَمِنَ النِّقَادِ مَنْ يَرْبِطُ بَيْنَ الْوِزْنِ وَالْمَوْضُوعِ الشَّعْرِيِّ ؛ فَيُرَى أَنَّ ثَمَةَ مَوْضُوعَاتٍ لَا يَصْلُحُ لَهَا إِلَّا أَوْزَانٌ بَعِيْنَهَا كَحَازِمِ الْقُرْطَاجَنِيِّ إِذْ يَقُولُ :
"وَلَمَّا كَانَتْ أَغْرَاضُ الشَّعْرِ شَتَّى ، وَكَانَ مِنْهَا مَا يَقْصِدُ بِهِ الْجَدَّ

(1) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 5/أ.

(2) المصدر نفسه ، ورقة 5/أ ، 5/ب.

(3) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، عبدالله الطيب 443/1.

والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة ، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم وما يقصد به الصغار والتحقير ؛ وجب أن تحاكي تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس ، فإذا قصد الشاعر الفخر ؛ حاكي غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة ، وإذا قصد في موضع قصداً هزلياً أو استخفافياً وقصد تحقير شيء أو العبث به ؛ حاكي ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء ، وكذلك في كل مقصد . وكانت شعراء اليونانيين تلتزم لكل غرض وزناً يليق به ولا تتعداه فيه إلى غيره" (1) .

ومضى حازم القرطاجني بعد ذلك يفصل القول في صفات البحور وما يناسب كل واحد منها من أنواع الكلام (2) .

ومن النقاد في العصر الحديث من تابع القرطاجني ، كسليمان البستاني في (مقدمته لإلياذه هوميروس) (3) ، وعبدالله الطيب في كتابه (المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعاتها) (4) ، وأحمد الشايب في (أصول النقد الأدبي) (5) .

وأغلب النقاد لا يرون أن لكل موضوع بحراً لا يصلح إلا له ، ومنهم : إبراهيم أنيس (6) ، ومحمد غنيمي هلال (7) ، ومحمد مندور (8) ، وشوقي ضيف (9) ، ويوسف بكار (10) .

وجل النقاد لا ينكرون وجود علاقة بين الموضوع والوزن ، ولكنهم يرفضون أن تخصص بحور لأغراض بعينها ، فإبراهيم أنيس يرى أن ثمة علاقة قوية بين الوزن والحالة النفسية للشاعر حين نظمه ؛ يتحدد من خلالها الوزن الملائم ، فتأتي التجربة على بحر طويل أو متوسط أو

(1) منهاج البلغاء ، ص266.

(2) انظر الصفحات : 205 ، 267-270.

(3) ص91 ؛ نقلاً عن عضوية الموسيقى في النص الشعري ، عبدالفتاح صالح نافع ، ص70.

(4) انظر حديثه عن البحور الخليلية في الجزء الأول ؛ فهو قائم على هذا الرأي.

(5) ص 322 - 324.

(6) موسيقى الشعر ، ص195 ، 196.

(7) النقد الأدبي الحديث ، ص441 ، 442.

(8) الأدب وفنونه ، ص54.

(9) في النقد الأدبي ، ص152.

(10) بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث ، ص167.

قصير (1) .

وتبعه محمد غنيمي هلال مشيراً إلى "أن القدماء من العرب لم يتخذوا لكل موضوع من هذه الموضوعات وزناً خاصاً أو بحراً خاصاً من بحور الشعر القديمة ؛ فكانوا يمدحون ويفاخرون ويتغزلون في كل بحور الشعر ، والأمر بعد ذلك متروك للشاعر... وكل بحر بعد ذلك قالب عام يستطيع الشاعر أن يضيف عليه الصبغة التي يريد بما يصف فيه من عبارات وكلمات ذات طابع خاص" (2) .

ويبدو أن معرفة المناسبة التي قيلت فيها القصيدة – في بعض الأحيان – عامل مساعد في إصدار الحكم على ملاءمة الوزن للموضوع المتحدث عنه ؛ فقد نقف – مثلاً – حائرين أمام قصيدة الشاعر أحمد العليف في مديح السيد حسين السمهودي البالغة (15 بيتاً من مجزوء الكامل) تلك القصيدة التي يقول في مطلعها:

قَدْ قَالَ أَرْبَابُ النَّهْيِ أَهْلُ النَّبَاهَةِ وَالْحَجَى (3)

وسبب الحيرة هو عدم معرفة بيئة النص أو السبب المباشر لنظمه ، ومعرفة ذلك تؤول إلى الحكم الأقرب إلى الصواب في موافقة مجزوء الكامل لعاطفة الشاعر تلك اللحظة ؛ فإن كانت القصيدة واردة في مراسلة أو جلسة إخوانية ؛ قلنا : إن الإيقاع السريع لمجزوء الكامل موافق لحالة الفرح والأنس مع الصحب التي صاحبت الشاعر إبان إنشادها ، ذلك "أن النظم حين يتم في ساعة الانفعال النفساني يميل عادة إلى تخير البحور القصيرة وإلى التقليل من الأبيات" (4) وإلا فإن "المدح ليس من الموضوعات التي تنفعل لها النفوس وتضطرب لها القلوب ، وأجدر به أن يكون في قصائد طويلة وبحور كثيرة المقاطع ، كالطويل والبسيط والكامل ، ومثل ذلك يمكن أن يقال في الوصف بوجه عام" (5) .

وحينما ننظر في قصيدة عبدالرحمن باكثير الرائية التي مدح بها الشريف أبا نمي نجد أنها بلغت (75 بيتاً من مجزوء الرجز) . ومن يعن الفكر في أبيات القصيدة ؛ يلحظ أنفاس الشاعر تتلاحق في ثنايا تفعيلات

(1) انظر : موسيقى الشعر ، ص 193-201.

(2) النقد الأدبي الحديث ، ص 441 ، 442.

(3) ديوان أحمد العليف ، ورقة 86/أ.

(4) موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس ، ص 197.

(5) المرجع نفسه ، ص 196.

هذا الوزن السريع في إيقاعه ، على نحو قول الشاعر:

أَبُو نَمِيٍّ الصَّفْوُ مِنْ آلِ النَّبِيِّ الْبَرَّةِ
الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ مَنْ فِيهِ الْعُلا مُنْصَرَّةِ
لَا مَلِكٌ يُذْرِكُ فِي شَأْنِ الْمَعَالِي أَثَرَهُ
وَلَا يُدَانِيهِ وَلَا يَعْصِيهِ فِيمَا أَمَرَهُ
بَلِ الْمُلُوكُ كُلُّهُمْ بِأَمْرِهِ مُؤْتَمَرُهُ (1)

وأجدر بالشاعر في مثل هذه الحالة أن يكون أكثر هدوءاً ؛ فمعاني القصيدة لا توحى بأن الشاعر كان في موقف حماسي يتطلب هذه النبرة . ويبدو لي أن صفات الممدوح الجليلة التي أراد الشاعر التعبير عنها أحوج ما تكون إلى بحر أكثر هدوءاً وأطول مقاطع ، خاصة أن الشاعر ممن عرف بطول نفسه وقدرته على مثل ذلك.

-4-

ونوع الشعراء في القوافي ، محاكين شعراء العربية في العصور السالفة ؛ فنظموا القوافي المزدوجة من الرجز ، وهي التي تتغير مع كل بيت مع مراعاة أن تكون الأبيات مصرّعة . ولقد لقب هذا النمط من الرجز "بحمار الشعر ؛ لسهولة الحمل عليه" (2) .

وقد كثر عليه نظم العلوم (3) ، وقصص التاريخ (4) ، والحكم ، على نحو قول معمر بن عبد القوي عن العلم:

حَامِلُهُ بَيْنَ الْوَرَى عَظِيمٌ وَقَذْرُهُ مُبْجَلٌ جَسِيمٌ
بِهِ يَنَالُ أَرْفَعَ الْمَرَاتِبِ وَأَحْسَنَ الْأَوْصَافِ وَالْمَنَاقِبِ (5)

ومن الشعراء من ركب هذا البحر في سبيل العتاب ، كمحمد بن أحمد النهروالي الذي بعث إلى أحد أصحابه في المدينة الشريفة منظومة ، يقول منها:

وَبَعْدُ فَالْعَبْدُ لَهُ عِتَابٌ عَلَيْكَ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي كِتَابٌ

(1) ديوان عبدالرحمن باكثير ، ورقة 27/أ.

(2) تاريخ آداب العرب ، الرافعي 152/3.

(3) انظر : الشعر التعليمي في (الفصل الثالث).

(4) انظر : الشعر السياسي في (الفصل الثالث).

(5) الدر الكمين ، عمر بن فهد 1205/2.

مَعَ أَنَّنِي أَرْسَلْتُ كُتْبًا عِدَّةً وَلَمْ أَكُنْ أُنْسَى لَكَ الْمَوَدَّةَ
فَهَلْ نَسِيتَ يَا فَتَى وَدَادِي أَمْ غَيَّرَكَ الدَّهْرُ بِالْبَعَادِ
أَمْ الْقَرَّاطِيسُ غَدَّتْ ثَمِينَةً أَمْ هِيَ لَا تُوجَدُ فِي الْمَدِينَةِ (1)

وعني الشعراء بالتخميس ، حيث يأخذ الواحد منهم بيتاً من القصيدة التي يريد تخميسها ، فيمهد له بثلاثة أشطر من شعره ، ثم يجعل شطري كل بيت من القصيدة الخمسة الرابع والخامس في قصيدته (2) .

وقد شاع التخميس لدى طائفة من الشعراء ، منهم محمد بن محمد بن الضياء ، وأبو بكر بن أبي الخير ، وعبدالمعطي باكثير ، وعبدالعزیز بن علي الزمزمي.

ويعد الزمزمي أكثر شعراء مكة والمدينة عناية بالتخميس ، وله في ذلك ديوان مخطوط لم يحو كل ما خمسه ، سماه (قصب السبق في تخميس القصص الحق) ، فيه تخميس لبردة البوصيري التي كان لها صدی عظیم لدى كثير من الشعراء.

ومن تخميسه للبردة قوله:

عَلَيْكَ نَفْسُكَ صُنْهَا تُذَرِّكَ الْأَمَلَا فَطَبَّعَهَا إِنْ تَرُمُ تَكْمِيلُهُ كَمَلَا
تُعْطِي الْقِيَادَ وَتَهْوِي الْعِلْمَ (وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمَلُهُ شَبَّ
(حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطَّمَهُ يَنْفَطِمِ)

فَطَفَّلَهَا أَفْطَمَهُ وَاحْرِصْ أَنْ تُرَبِّيَهُ وَاعْلَظْ عَلَيْهِ وَأَسْخِطْهُ لِتُرْضِيَهُ
وَإِنْ حَدَبْتَ عَلَيْهِ أَنْ تُرْقِيَهُ (فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَازِرْ أَنْ تُؤْلِيَهُ)

(إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُصِمُّ أَوْ يَصِمُ) (3)

وممن نالت عنايته قصيدة البردة – كغيره من الشعراء – محمد بن محمد بن الضياء الذي عنون تخميسه بـ(تخليص الزبدة في تخميس

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص500 .

(2) ومنه أن يبدأ الشاعر بشطر من نظم غيره ، ثم يرفده بثلاثة أشطر من نظمه ، ثم يختم ذلك بعجز الشطر الأول . ويجب أن يكون الشطر الأول والشطر الأخير (في البيت الأول) مُصَرَّعاً.

- المعجم المفصل في الأدب ، محمد التونجي 234/1.

(3) قصب السبق ، ورقة 13/ب .

البردة) ، ومن هذا التخميس قوله في مديح الرسول ع :
 فَهُوَ الَّذِي رَيْقُهُ يَشْفِي مِنَ السَّقَمِ تَفْلُتُهُ جَلَّتِ الْآبَارُ فِي الطَّعَمِ
 فاعْجَبْ لِتَغْرِيدِ كَالْدَّرِ مُنْتَظِمِ (وَمَا حَوَى الْغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ
 (وَكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْهُ عَمِي)
 لَمَّا رَأَوْا غَارَ ثَوْرٍ كُلُّهُمْ عُمِيَا وَصَارَ بَذْرُ الدَّجَى بِاللَّطْفِ
 وَقَالَ يَا صَاحٍ لَا تَحْزَنْ فَلَنْ يَرِيَا (فَالْصَّدَقُ فِي الْغَارِ وَالصِّدِّيقُ لَمْ
 (وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرَمِ) (1)

ولا ريب أن الدافع الأكبر للتخميس هو الإعجاب الذي تحظى به القصيدة الخمسة من لدن الشاعر الذي يعتمد إلى هذا النوع من النظم. والشاعر في مكة والمدينة قد تستهويه قصيدة أو أبيات لشاعر خارج بيئته ، أو لواحد من المجاورين ؛ فيعتمد إلى تخميسها (2) ، وقد يكون التخميس لشاعر معاصر من شعراء البلديتين الكريميتين من باب الإعجاب بالقصيدة والمشاركة الوجدانية في بعض المناسبات ، كما فعل الشاعر أبو بكر بن أبي الخير حينما خمس قصيدة معاصره أحمد العليف التي أنشأها مواساة للقاضي أبي السعود بن ظهيرة بعد أن غضب عليه الشريف بركات بن محمد (3) .

يقول ابن أبي الخير:
 أَعْيُنُ الْحَادِثَاتِ غَيْرُ هُجُوعٍ عَنْ رَفِيعٍ لِلْقَدْرِ ثُمَّ وَضِيعٍ
 فَإِذَا خَفَتْ هَوْلَ خَطْبٍ فَظِيعٍ (خُذْ مِنَ الدَّهْرِ قُوَّةَ الْمُسْتَطِيعِ)
 (وَاحْذَرِ النَّائِبَاتِ قَبْلَ الْوُقُوعِ)

حَالُ دُنْيَاكَ كَالْحُرُوبِ سَجَالٍ وَطِلَابُ الْبَقَاءِ فِيهَا مُحَالٌ
 وَنَهَايَاتُ مَنْ يَعِيشُ ارْتِحَالٌ (فَلِحُكْمِ الْقَضَاءِ فِي الْعَبْدِ حَالٌ)

(1) تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة المنورة والقبر الشريف ، ابن الضياء ، ص 93 ، وهو كتاب محقق ، لكن الأبيات لا تخلو من بعض الأخطاء المطبعية الواضحة التي تم تداركها.

(2) انظر : النور السافر ، العيدروس ، ص 431 ، 432 ، 559.

(3) انظر قصة الشيخ ابن ظهيرة مع الشريف بركات في الفصل الثالث (شعر الحكمة).

(يَنْقُضِي بَيْنَ نِيَّةٍ وَشُرُوعٍ) (1)

وقد لا يكون التخميس لقصيدة كاملة ؛ إذ من الشعراء من تروق له بعض الأبيات ، فيقوم بتخميسها ، كما فعل الشاعر أحمد بن علي البسكري في تخميسه بيتين للشاعر عبدالمعطي باكثير ، حيث يقول البسكري:

أَدْعُوكَ يَا رَبَّ فِي الْإِصْبَاحِ تَمُنُّ عَلَيْنَا مِنَ النَّيِّرَانِ بِالْإِعْتِاقِ
وَتُبْسِطُ الرِّزْقَ يَا وَهَّابُ يَا خَلَّاقُ (يَا مَالِكُ الْمُلْكِ يَا فَتَّاحُ يَا رَزَّاقُ)

(يَا مَنْ تَكْفَلُ لِكُلِّ الْخَلْقِ بِالْأَرْزَاقِ)

فَرَجَّ عَلَيْنَا إِلَهِي كُلَّ أَمْرٍ ضَاقَ وَامْنُنْ بِرِزْقِي وَسَيِّعِ فَائِقِي دَفَاقُ
يَا رَبِّ عَيْشًا هَنِيئًا صَافِيًا قَدْ رَاقُ (يَا رَبِّ عَطْفًا عَلَيْنَا مِنْكَ

(مِنْ كُلِّ هَوْلٍ شَدِيدٍ زَائِدٍ عَوَاقٍ) (2)

ويتضح فيما بين أيدينا من نتاج شعري لشعراء مكة والمدينة أنهم لم يعنوا بالموشحات ، إذ لا نكاد نجد إلا قليلاً منها أنشأها الشاعر عبداللطيف بن سليمان باكثير (3) والشريفان بركات بن حسن بن عجلان ، وبركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان الذي يقول في أحدها:

أَكْتُمُ السِّرَّ وَيَاكَ لَا تُفْشِي بِالرَّشَا أَلْعَسِي
فَهُوَ يُزْرِي الْغُصُونِ إِذْ يَمْشِي فِي الرِّدَاءِ السُّنْدُسِي
مَا عَلَى الصَّبِّ فِي الْهَوَى عَارُ إِنَّ تَمَادَى الْكَمَدُ
إِنَّ لِي فِي الْغَرَامِ أَوْطَارُ وَاصْطَبَّارِي نَفْدُ
وَاللَّوَاحِي فِي لَوْمِهِمْ جَارُوا وَأَنَا أَبْدِي الْجَلْدُ
رَبِّ يَأْذَا الْجَلَالِ وَالْعَرْشِ كُنْ بِهِ مُؤْنِسِي

(1) إتحاف فضلاء الزمن ، محمد الطبري 297/1.

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص559.

(3) هو عبداللطيف بن سليمان بن أبي كثير (باكثير) المكي. عالم ، شاعر ، أقام في دمشق مدة طالباً للعلم ، ورحل إلى بغداد ، ثم تولى قضاء مكة وأضيف إليه قضاء جدة ونظر الحرم الشريف . توفي في مكة قرابة سنة 950هـ .

- انظر ترجمته في : الكواكب السائرة ، الغزي 179/2-181 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 404/10 .

وَبَوَّصِلِ الْحَبِيبِ فِي الْفَرْشِ جُذْ وَلَا تَخْـبِسْ (1)

ومن الشعراء من نظم على القوافي المشتركة ، وهو نظام ظاهر التكلف ؛ حيث تأتي القافية في جميع أبيات القصيدة كلمة واحدة ، ولكنها تختلف في معناها باختلاف الأبيات ، على نحو قول الشاعر عبدالمعطي باكثير مخاطباً شيخ بن عبدالله العبدروس ، وقد طلب منه جارية:

يَا سَيِّدًا نِعْمَتُهُ فَوْقَ الدَّرَارِي الْجَارِيَةِ
وَجُودُ كَفِّهِ غَدَا مِثْلَ الرِّيحِ الْجَارِيَةِ
تَدُومُ فِي عِرْكَ مَا جَرَتْ بِبَحْرِ جَارِيَةِ
فَكَلَّمَا تُرِيدُهُ الْـ أَقْدَارُ فِيهِ جَارِيَةِ
أَنْجِزْ لِعَبْدٍ سَيِّدِي وَعَدَ رُجُوعِ الْجَارِيَةِ
هَبْـأَتُكُمْ مَبْرُورَةً مِنْ الزَّمَانِ جَارِيَةِ
وَسَيِّلْ هَامِي فَضْلِكُمْ كَمَاءِ عَيْنِ جَارِيَةِ
وَلَطِّفْكُمْ بِعَبْدِكُمْ كَفَّ الدَّمُوعِ الْجَارِيَةِ (2)

وهذه المجانسة بين كلمات القافية لون من ألوان التكلف ، أراد به الشاعر إظهار براعته ، لكنه في الحقيقة انقاد لسلطان هذه القافية وبات مشغولاً بتحقيق التجانس ؛ فحدّ ذلك من تصرفه في المعنى.

-5-

وإذا كان للوزن ذلك الأثر في النفس ؛ بما يبعثه من موسيقا تخاطب الإحساس ، فإن هذا الأثر يزداد إذا توافرت القافية الحسنة ؛ لما تضيفه بموسيقاها من إيقاع جميلٍ قد لا يتحقق من خلال الوزن فحسب. وقد أدرك شعراء مكة والمدينة أهمية القافية ؛ فكانت عنايتهم بقوافيهم واضحة فيما بين أيدينا من نتاجهم الشعري ، حيث أتوا بها

(1) منائح الكرم ، السنجاري 145/3 . والشاعر في هذا يعارض السلطان قانصوه الغوري بموشحه الذي مطلعته:

أَيَا غَزَالًا بِلَحْظَةٍ يَنْشِي نَشَاءَ الْأَكْمَـؤُسِ

- انظر : منائح الكرم 144/3.

(2) النور السافر ، العبدروس ، ص 483 . وانظر الحديث عن القوافي المشتركة في مبحث (الألفاظ والتراكيب).

متمكنة يتشوفها المعنى.

ومن مظاهر عنايتهم بالقافية أيضاً التنويع فيها الذي سبق بيانه ، وهو من باب التفنن ومسايرة العصر ، لكن النظم على القوافي المزدوجة عند بعض الشعراء من دلائل فقرهم اللغوي ، وخاصة الذين أكثروا من ذلك ، كمعمر بن عبد القوي ومحمد النويري وإبراهيم الزمزمي ، وفي مقابل ذلك نجد التزام أغلب الشعراء بالقافية الواحدة على الرغم من طول القصائد التي منها ما تجاوز الثلاثمئة ، ومع ذلك لا نكاد نجد عيباً إلا في القليل منها.

ومن العيوب التي يمكن أن تؤخذ على بعض الشعراء أن تكون لفظة القافية مستكرهة لا تناسب الغرض ، كلفظة (الجنابة) التي أوردها الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي في مديحه الرسول ع حين قال:

كُنْ لَنَا صَاحِباً إِذَا مَا ارْتَحَلْنَا وَامْتَطَيْنَا لِلْقَبْرِ ظَهَرَ الْجَنَازَةِ (1)

والشاعر في مقام مديح لأفضل خلق الله ، فالواجب إذن أن يوجه عنايته للقافية ، مراعيّاً الجانب النفسي للمتلقى . يقول حازم القرطاجني : "فأما ما يجب في القافية من جهة عناية النفس بما يقع فيها ، واشتهار ما تتضمنه مما يحسن أو يقبح ، فإنه يجب ألا يوقع فيها إلا ما يكون له موقع من النفس بحسب الغرض ، وأن يتباعد بها عن المعاني المشنوءة والألفاظ الكريهة ، ولا سيما ما يقبح من جهة ما يتفاعل به ، فإن ما يكره من ذلك إذا وقع في أثناء البيت ، جاء بعده ما يغطي عليه ويشغل النفس عن الالتفات إليه ، وإذا جاء ذلك في القافية ، جاء في أشهر موضع وأشدّه تلبساً بعناية النفس ، وبقيت النفس متفرغة لملاحظته والاشتغال به ولم يعقها عنه شاغل" (2) .

وقد تكون لفظة القافية جميلة ذات معنى رقيق ، لكنها لا تتواءم مع المعنى العام الذي يتحدث عنه الشاعر ، من ذلك قول أبي عبد الله الفيومي:

تَأْمَلِ الْبَحْرَ وَالْبَدْرَ الْمُنِيرَ وَقُلْ جَلَّ الْمُؤَلَّفُ بَيْنَ الْمَاءِ وَاللَّهَبِ

كَأَنَّما الرِّيحُ فَوْقَ الْمَاءِ قَدْ نَسَجَتْ دِرْعاً فَحَلَاهُ ضَوْءُ الْبَدْرِ بِالذَّهَبِ (3)

فقد جاء بقوله (بالذهب) قافية للبيت الثاني لتوافق ما قبلها (الذهب)

(1) ديوان الزمزمي ، ورقة 23/أ.

(2) منهاج البلغاء ، ص 275 ، 276.

(3) رحلة الشتاء والصيف ، محمد كبريت ، ص 76.

دون مراعاة للمعنى . ولا ريب أن الشاعر قد وصف هذا المنظر الذي شاهده ، فأحسن في ذلك ؛ من خلال هذا الخيال الرائع والتشخيص الجميل ، لكنه لم يوفق لإكماله بقافية تلائم المعنى ؛ ذلك أن الذهب ذو لون أصفر ، والبدر حينما يلقي بضوئه على البحر لا يعطي لوناً كالذهب . ولم تخل بعض قصائدهم من عيوب القافية كالتضمين والإيطاء والإقواء . ومن تضمين الإسناد الجاري في شعرهم قول الشاعر علي بن أحمد الشوائطي:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً عَلَى سَطْحِ دَارِي فِي مَنَى وَأَقُولُ
رَعَى اللَّهُ أَيَّاماً مَضَيْنَ وَحُبُّكُمْ عَلَى عَهْدِهِ بَاقٍ وَلَيْسَ يَزُولُ (1)

والبيت الأول - كما هو واضح - لا يقوم بنفسه ، فأسنده الشاعر إلى البيت الثاني ؛ ليتم معناه.

ومنه قول أبي عبد الله الفيومي:

إِنْ كَانَ قَدْ قَضِيَ الْفِرَاقُ وَصَدَّنِي عَنْكُمْ حِجَازٌ مِنْ نَوَى لَا يُدْفَعُ
فَأَنَا الَّذِي دَمَعِيَ الْعَقِيقُ وَحَاجِرِي يَا بَدْرُ بَعْدَ الْبُعْدِ عَنْكُمْ يَنْبُعُ (2)

والتضمين ليس معيباً على كل حال ، فهو في الشعر القصصي مطلوب ؛ لأنه يساعد على السرد وترابط المعنى ، وربما كان عاملاً من عوامل تحقق الوحدة العضوية في القصيدة . ومن القدماء من لم يعده عيباً كالسكاكي (3) وابن الأثير (4) اللذين يريان أن نظيره قد ورد في بعض فواصل القرآن الكريم.

ومن عيوب القافية الواردة في الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين الإيطاء ، كقول أبي السعادات الفاكهي:

أَتَى بِرَأْسِ رَئِيسٍ كَانَ مَفْخَرَنَا كَأَصْلِهِ مَنَّبَعِ الْإِحْسَانِ وَالظَّفَرِ (5)

وبعد ثلاثة أبيات قال:

أَكْرَمَ بِهِ وَفَرُوعٍ مِنْهُ قَدْ بَسَقَتْ وَبَيْتِ سَلْمَانَ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالظَّفَرِ (6)

(1) الدر الكمين ، عمر بن فهد 987/2.

(2) الدرر الفرائد ، الجزيري 1418/2.

(3) عن : سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، ص 179 ، الهامش (1).

(4) انظر : المثل السائر 236/3 ، 237.

(5) النور السافر ، العيدروس ، ص 364.

(6) المصدر نفسه ، ص 364.

مكرراً القافية (الظفر) مع أن المعنى في اللفظتين المكررتين واحد.
وقد يكون الفاصل بين لفظتي القافية بيتاً واحداً فقط ، كقول
عبدالمعطي باكثير :

أَبْدَيْتَ فِيهِ فَوَائِدًا وَفَرَائِدًا بِفَصِيحٍ نَطَقٍ مَعَ صَاحِبِ بَيَانٍ
أَبْرَزْتَ دُرّاً مِنْ مَكَامِنٍ وَضَعِهِ كَعَرَائِسٍ تُجَلَّى عَلَى الْأَذَانِ
فَرَرْتَ كُلَّ دَقِيقَةٍ وَجَلِيلَةٍ بِعِبَارَةٍ عَذَبَتْ بِحُسْنِ بَيَانٍ (1)

فقد كرر لفظة (بيان) بمعناها في بيتين ، مع أنه لم يفصل بينهما إلا بيت واحد فقط . ويبدو أن الشعراء في مكة والمدينة لم يعبؤوا بذلك ، حتى إنهم اعتادوا تكرار القافية بمعناها في بيتين متتاليين (2) .

والإقواء عيب من عيوب القافية ، وهو كما يقول الأخفش : "رفع بيت وجر آخر" (3) ، ولكنه في رأي أبي عمرو بن العلاء : "أن تختلف حركات الروي ، فبعضه مرفوع وبعضه منصوب أو مجرور" (4) . ولا نكاد نجد ذلك فيما بين أيدينا من شعر لشعراء مكة والمدينة إلا في قصائد قليلة ، كقصيدة الشاعر أبي عبدالله الفيومي في مديح الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان ، التي يقول في مطلعها:

رُبُوعٌ عَلَى سَفْحِ النَّقَا وَخِيَامٌ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُضْنَى الْكَئِيبِ سَلَامٌ (5)

إذ يقول منها:

خُذُوا بِدَمِي هَذِي الْحِجَازِيَّةَ الَّتِي رَمَتْ مِنْ قِسِي الْحَاجِبِينَ

وواضح أن لفظة (سهام) التي جاءت منها القافية منصوبة ، لكن الشاعر أتبعها الروي المرفوع مما جعل الإقواء ظاهراً في هذا البيت (7) . هذه أبرز العيوب التي تضمنها شعرهم ، وهي عيوب لم يخل منها شعر في عصر من العصور.

- (1) المصدر نفسه ، ص461.
- (2) انظر - على سبيل المثال - : الدر الكمين ، عمر بن فهد 1072/2 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 280/9 ؛ غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 620/2.
- (3) لسان العرب ، مادة (قوا).
- (4) المصدر نفسه ، مادة (قوا).
- (5) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 617/2.
- (6) المصدر نفسه 618/2.
- (7) وهناك أكثر من بيت في هذه القصيدة حصل فيه إقواء . انظر القصيدة كاملة في المصدر السابق ، 619-617/2.

وأكثر الحروف التي جاءت رويًا في نتاج شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين هي (ب ، ر ، ل ، م ، ن) وجاءت حروف (ء ، د ، ع) متوسطة الشيوخ ، أما حروف (ت ، ج ، ح ، س ، ط ، ق ، ك ، هـ) فقليل ورودها في قوافيهم ، وأقل منها حروف (ث ، ز ، ص ، ض ، ف ، و ، ي) حيث جاءت نادرة الاستخدام.

والواضح إذن – فيما بين أيدينا من نتاج شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين – أن الشعراء نظموا على ثلاثة وعشرين حرفاً ، وأن الحروف التي أهملوها هي (خ ، ذ ، ش ، ظ ، غ) وهذه هي القوافي الحوش التي تجنبها الأوائل ، ولم يركبها إلا قلة منهم ، فلم يجيئوا إلا بالغث (1) .

والثاء من القوافي الحوش أيضاً ، وهو حرف مهمل لدى شعراء مكة والمدينة ، ولم يتناوله رويًا – حسب اطلاعي – إلا أحمد العليف في قصيدة ومقطوعة هجائيتين (2) .

وحروف الروي التي شاعت في قوافي شعراء مكة والمدينة شيوعاً كثيراً أو متوسطاً من القوافي الذلل التي كثر دورانها في الشعر العربي (3) . ومن اللافت للانتباه أنهم أيضاً قد جاروا الشعراء القدماء في ندرة استخدام القوافي النفر (4) . ويبدو أن هذه نتيجة طبيعية تؤكد ما لمسناه سابقاً من تأثرهم بالشعر القديم شكلاً ومضموناً.

والقوافي المطلقة هي الغالبة في نتاج شعراء مكة والمدينة ، وقد استخدموا القوافي المقيدة ، لكن بنسبة قليلة لا تصل – حسب اطلاعي – إلى ربع القوافي المطلقة . ومن الثابت أن القافية المقيدة قليلة الشيوخ في

(1) انظر : المرشد ، عبدالله الطيب 79/1.

(2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 70/ب – 71/ب.

(3) انظر : المرشد ، عبدالله الطيب 58/1 وما بعدها . وقد تناول المؤلف الهمزة بعد تناوله القوافي الحوش ، مشيراً إلى أن الهمزة حرف هجين ، ولكنه ذكر أنه قريب من القوافي الذلل ، وأنه أكثر ما يجيء سهلاً إذا كان بعد ألف ممدودة (المرشد 80/1 ، 81).

ولو نظرنا فيما بين أيدينا من الهمزيات في نتاج شعراء مكة والمدينة ؛ لوجدنا أن الهمزة فيها قد سبقت بألف المد ، مما ينفي عنها الهجئة - التي ذكرها الدكتور الطيب – ويجعلها أكثر سهولة.

(4) انظر : المرجع السابق 75/1-79.

-6-

وللموسيقا الداخلية في القصيدة أثر في إيصال المعنى . وقد يتحقق ذلك باستغلال الكلمات أو الحروف ذات الإيقاع الموحى بالفكرة المتحدث عنها . وهذا لا يتأتى إلا لشاعر قد أوتي القدرة على تطويع اللغة لما يريد التعبير عنه.

وهذا النوع من الموسيقى لم يلق كبير عناية من الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين . وهذا لا يعني أن شعرهم خلّو منه ، بل إيضاح لعدم تعدد مظاهره في كثير من القصائد ؛ لأننا لا نجد إلا بعض المثيرات التي تتظافر مع الوزن لتشكل إيقاعاً يشد السامع ، كالترصيع في مثل قول الشاعر أحمد القليوبي مادحاً الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان:

حَبْرٌ لِمُعْتَرِفٍ بِحَرٍّ لِمُعْتَرِفٍ جَبْرٌ لِمُنْكَسِرٍ كَثُرَ لِمُقْتَرِرٍ (2)

وكقول محمد بن عبد الوهاب بن يعقوب :

عَرَّارٌ قَدْ جَاءَكُمْ بِالنَّصْرِ مُرْتَدِيًّا بِالْبَشْرِ مُبْتَسِمًا بِالْعَزِّ مُؤْتَرِرٌ (3)

ومن مظاهر الموسيقى الداخلية التي قد نجدها في بعض القصائد التقسيم ، الذي يتضح حسن وقعه على الأذن حين "تجزئة الوزن إلى مواقف أو مواضع يسكت فيها اللسان أو يستريح أثناء الأداء الإلقائي" (4) . ومنه قول الشاعر محمد النويري:

يَا زِينَةَ الْعِقْدِ قَدْ وَافَتْكَ أَرْبَعَةٌ النَّصْرُ وَالْبَشْرُ وَالْإِسْعَادُ

وقد يدرك المتابع لهذا التقسيم أن المد في (الإسعاد) السابق للقافية قد زاد من جمال الإيقاع في هذا البيت.

ويصبح التقسيم أكثر إثارة حينما يكون الوقف على لفظتين متوازيتين ، كقول الشاعر الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان:

(1) انظر : موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس ، ص 289.

(2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 608/2.

(3) المصدر نفسه 225/3.

(4) المرشد ، عبدالله الطيب 303/2.

(5) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 76/3.

إِنْ كَانَ ذَنْبٌ فَإِنَّ الْعَفْوَ يَغْفِرُهُ أَوْ كَانَ عَثْبٌ فَإِنَّ الصَّفْحَ مُتَّبِعٌ
والتنوين في لفظتي (ذَنْبٌ) و(عَثْبٌ)⁽¹⁾ - كما هو واضح - قد أضفى
نغمة تستريح إليها الأذن.

وتكرار الصوت باعث قوي للموسيقا الداخلية . وإذا كان هذا
الصوت من حروف الصفير ؛ فإن وقعته أكثر إثارة . وقد يجيء هذا
الصوت من خلال الجناس ، أو رد العجز على الصدر ، أو تكرار كلمة
أو كلمات ذات حروف تساعد على إثراء الموسيقا الداخلية ، وقد نجد ذلك
في قول الشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي:

فِيكَ جَمِيعُ الْبَسْطِ يَا فَاتِنِي بَسْطِي إِذَا خِلْتُكَ فِي الْمَجْلِسِ
لَقَدْ صَفَا الْعَيْشُ بِسَفْحِ الصَّفَا وَأَحْسَنَ الصَّنْعَ الزَّمَانُ الْمُسِي
فَعَاطِنِي مِنْ فِيكَ مِسْكِيَّةً يَفُوحُ مِنْهَا الطِّيبُ فِي الْمَعْطِسِ
وَاجِلْ صَدَا نَفْسِي بِأَنْفَاسِهَا فَإِنَّهَا تَجْلُو صَدَا الْأَنْفَسِ (2)

و"الشاعر يستخدم الأصوات التي تتلاءم بصورة ما مع الجو النفسي
والشعوري للقصيدة ، كما يستخدم هذه الأصوات ليعبر من خلالها عن
فكرة أو معنى ، وبهذا يمكن أن نجد ما يمكن أن نسميه الصدى الصوتي
للمعنى ، أو التمثيل الصوتي للمعنى" (3) .

ولا غرابة إذن حين نجد شيوع المد في شكواهم وفي كثير من
أشعارهم الدينية التي كانوا يبتهلون بها إلى الله ، يمدون أصواتهم راجين
عفوه ، مكررين ندائه ، إنه صدى الأنفس التي وجدت فيه تنفيساً وبتاً ،
على نحو قول الشاعر إبراهيم الخجندي:

يَا رَبِّ أَنْتَ غِيَاثُ الْمُسْتَجِيرِ بِهِ أَنْتَ الدَّلِيلُ لِمَنْ تَاهَ الطَّرِيقُ بِهِ
يَا مُنْقِذَ الْمُبْتَلَى اللَّهْفَانِ مِنْ خَطَرٍ يَا عَالِمَ سِرِّ قَلْبِي فِي تَقَلُّبِهِ
يَا مُنْجِيَ الْهَالِكِ اللَّهْفَانِ مِنْ يَا فَالِقَ الصُّبْحِ مِنْ دِيَجُورِ غَيْهَبِهِ
عَجَلْ بِحَقِّكَ يَا مَوْلَايَ مُلْتَمِسِي وَانْظُرْ إِلَى غَافِلٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِ (4)

(1) المصدر نفسه 267/3.

(2) نزهة الجليس ، الموسوي 288/1.

(3) التمثيل الصوتي للمعاني ، حسني عبدالجليل ، ص 60.

(4) التحفة اللطيفة ، السخاوي 107/1.

والخلاصة أن شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين قد حاكوا شعراء العربية الفحول في نسبة شيوع البحور ، وأنهم قد وقَّعوا في الملاءمة بين الأوزان والأغراض المنظومة عليها ، كما أنهم نوَّعوا في القوافي ؛ فنظَّموا على القوافي المزدوجة وخمسوا بعض القصائد ووجد لديهم شيء من التوشيح والقوافي المشتركة.

وعلى الرغم من عنايتهم بالقافية ؛ وجد عندهم بعض العيوب التي لا يخلو منها شعر في عصر من العصور . وقد تبين من خلال القوافي أنهم نظموا على ثلاثة وعشرين حرفاً ، مجارين الشعراء القدماء في النظم على القوافي الذلل ، وأن الحروف التي أهملوها لم تلق عناية من الشعراء الأوائل . كما اتضح شيوع القوافي المطلقة وقلة القوافي المقيدة كشأن الشعر العربي عامة.

أما الموسيقى الداخلية فقد اتضح أنها لم تلق ما تستحقه من عناية ، على الرغم مما وجد في بعض القصائد من مظاهرها المؤثرة التي تبعث إعجاب المتلقي.

ومن يرجع الطرف في نتاج شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ يلحظ كثرة اللجوء إلى الضرورة الشعرية ، وهي – في الأغلب – من الضرورات السائغة ، وأكثر ما ورد منها صرف الممنوع وقصر الممدود (1) .

(1) هناك ضرورات قبيحة ، وأخطاء لغوية لا يمكن إدراجها ضمن الضرورات المتاحة للشعراء ، ولكنها نادرة لا تستحق الذكر .

الفصل الخامس

من شعراء القرنين

- 1- محمد بن عبد القوي (781-852هـ) .
- 2- أحمد العليف (851-926هـ) .
- 3- عبدالعزيز الزمزمي (900-976هـ) .

الحديث في هذا الفصل عن ثلاثة من أعلام الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .
واختيار هؤلاء الشعراء لا يعني أنهم الأفضل ، وإن كانوا من أشهر شعراء المدينتين المقدستين ؛ بل تضافرت عوامل عديدة أدت إلى اختيارهم ، من أهمها : أنهم يمثلون مستويات الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ شعر أحمد العفيف القوي ، وشعر ابن عبدالقوي المتوسط ، وشعر عبدالعزيز الزمزمي الرديء ، كما أن نتاجهم الشعري قد شمل موضوعات الشعر التي طرقتها الشعراء في مكة والمدينة آنذاك . والناظر في المدة الزمنية التي عاش فيها كل واحد من هؤلاء ؛ يلحظ أن نتاج الأول منهم قيل في الثلث الأول من المدة المحددة لهذه الرسالة ، وأن نتاج الثاني قيل في الثلث الثاني منه ، بينما قال الثالث منهم أكثر نتاجه الشعري في الثلث الثالث من هذين القرنين .

1- محمد بن عبدالقوي :

-1-

هو قطب الدين أبو الخير محمد بن عبدالقوي البجائي ، المغربي الأصل ، المكي المولد والمنشأ ؛ إذ إن والده قدم إلى الديار المصرية في شببته ، فأخذ بها عن بعض العلماء ، ثم تحول إلى مكة ، فقطنها أكثر من ثلاثين سنة أخذاً عن بعض العلماء فيها ، ثم درّس وأفتى حتى توفي فيها مخلفاً ذكراً حسناً .

وقد ولد ابنه محمد (صاحب الترجمة) بمكة في سنة 781هـ⁽¹⁾ ، ونشأ بها فحفظ القرآن الكريم وألفية ابن مالك وبعض المتن ، ودرس على والده ، كما أخذ عن عدد كبير من العلماء في مكة والمدينة الحديث والفقه والنحو ، منهم أبو بكر المراغي ، وجمال الدين بن ظهيرة ، وشمس الدين بن الجزري ، وأبو الفضل النويري و خليل بن هارون الجزائري ، والشريف عبدالرحمن الفاسي . وقد أجاز له عدد من العلماء ، كما تتلمذ عليه جماعة من أهل العلم ، من أشهرهم : عمر بن فهد وشمس الدين السخاوي .

ومحمد بن عبدالقوي من أسرة عالمة ، ظهر فيها بعض الشعراء ؛ فوالده — كما سلف — أحد علماء عصره ، وأخوه أحمد⁽²⁾ عالم شاعر ، وكذلك كان ابن صاحب الترجمة يحيى⁽³⁾ أحد العلماء الشعراء في مكة ،

(1) ذكرت المصادر التي تحدثت عنه أن ولادته في سنة 781هـ ؛ اعتماداً على ما ذكره في أحد أبياته ، إذ يقول ذاكراً الشهر واليوم الذي ولد فيه :

بِوَحْدَةِ بَعْدِ الثَّمَانِينَ مَوْلِدِي بِمَكَّةَ مِنْ شَوَّالِ ثَالِثَةِ الْعَشْرِ

- الدر الكمين ، عمر بن فهد 170/1 .

وقد ذكر السخاوي (في الضوء اللامع 73/8) البيت هكذا :

بِثَانِيَةِ بَعْدِ الثَّمَانِينَ مَوْلِدِي بِمَكَّةَ مِنْ شَوَّالِ ثَالِثَةِ الْعَشْرِ

والبيت يشير إلى أنه ولد في سنة 782هـ ، ولا يخفى أن لفظة (شواله) قد أخلت بوزن العجز ، والأصح رواية ابن فهد (شوال) . وابن فهد أكثر ملازمة لشيخه ابن عبدالقوي من السخاوي ، وقد روى عنه كثيراً من شعره ؛ لذلك فإن الأرجح أن ولادته في سنة 781هـ كما جاء في رواية ابن فهد (بوحدة بعد الثمانين مولدي ...) .

(2) انظر : الدر الكمين 466-464/1 .

(3) انظر : المصدر نفسه 1251-1249/2 .

وليحيى ابنان من ذوي العلم : إدريس⁽¹⁾ ومعمار⁽²⁾ ، ويعد معمر أحد شعراء مكة في القرن التاسع الهجري ، كما أن مريم بنت محمد بن عبدالقوي⁽³⁾ إحدى النساء العالمات بمكة . وقد ذكر عمر بن فهد في أكثر من موضع في كتابه (الدر الكمين) أن لمحمد بن عبدالقوي ابناً اسمه محمد ، لكنه لم يترجم له .

وكان ابن عبدالقوي حلو المحاضرة ، راوية للأخبار ، ذا معرفة بالتاريخ وإلمام بمواضع في مكة يجهلها الناس ، ذكر السخاوي أنه "أكثر من مطالعة التاريخ بحيث صار يحفظ منه كثيراً ، لا سيما تواريخ الحجاز وما يتعلق بعربها ومحالها ، وتميز في الأنساب الجاهلية وغيرها"⁽⁴⁾ ، كما ذكر أنه ذو "حافظة في التاريخ قوية وذكاء يتسلط به على الخوض في كثير من الفنون بحيث قضي له بالتقدم فيها مع قلة مطالعته"⁽⁵⁾ . كف بصره في آخر حياته ؛ فآلمه ذلك كثيراً ، وبث شكواه شعراً ، مظهراً سبب حزنه بقوله :

بَكَيْتُ وَمَا لِلْمَرْءِ بُدٌّ مِنَ الْبُكَاءِ إِذَا كُفَّتَا فِي آخِرِ الْعُمْرِ عَيْنَاهُ

وَمَا بِيَ مِنْ حُزْنٍ وَلَسْتُ بِأَسْفٍ وَمَا بِالْفَتَى إِلَّا شِمَاتَةٌ أَعْدَاهُ⁽⁶⁾

وقد ذكر النجم بن فهد أن ابن عبدالقوي جزع حين كف بصره ، لكنه سلم أمره لله محتسباً الأجر عنده ، إذ يقول : "أضر بأخرة وجزع في أول أمره جزعاً كبيراً ، ثم صبر واحتسب"⁽⁷⁾ .

توفي — يرحمه الله — في منتصف ذي الحجة من سنة 852هـ بمكة .⁽⁸⁾

(1) انظر : المصدر نفسه 624/1 .

(2) انظر : المصدر نفسه 1200/2-1207 .

(3) انظر : المصدر نفسه 1544/3 ، 1545 .

(4) الضوء اللامع 71/8 .

(5) التبر المسبوك ، ص 249 .

(6) غاية المرام ؛ عبدالعزيز بن فهد 462/2 .

(7) معجم الشيوخ ، ص 234 .

(8) انظر ترجمته في : الدر الكمين ، عمر بن فهد 165/1-171 ؛ معجم الشيوخ ، عمر

بن فهد ، ص 233 ، 234 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 71/8-73 ، 302/4 ، 303 ؛

التبر المسبوك ، السخاوي ، ص 249 ، 250 ؛ نيل الابتهاج ، التنبكتي ، ص 529 ؛

شذرات الذهب ، ابن العماد 402/9 ، وفيه أنه "توفي في ذي الحجة وقد جاوز

التسعين" وهو تصحيف ؛ إذ إنه جاوز السبعين ؛ معجم المؤلفين ، عمر كحالة

-2-

ولم يجمع شعره في ديوان يضم شتاته ، وإنما خَلَّف قصائد ومقطوعات وأبياتاً مفرقة في بعض كتب التاريخ والتراجم وبعض المصادر الأخرى (1) . وقد جمع تلميذه النجم بن فهد شيئاً منه في مجلد قد يكون ضمن كتابه المفقود (الإشعار بما أنشدت من الأشعار) (2) ، يقول ابن فهد : "سمعت منه ، وأنشدني كثيراً من نظمه ، وجمعت منه ما وجدته ؛ فجاء في مجلد" (3) .

وأهم الأغراض التي تناولها في شعره : المديح والرثاء والهجاء ، وله مقطعات وأبيات في الوصف والفخر والغزل والشكوى والحنين والوعظ ، لكنها قليلة . وأغلب مدائحه في الشريف بركات بن حسن بن عجلان ، كما أنه مدح والده الشريف حسن ابن عجلان وكذلك الشريف علي بن حسن بن عجلان ، وله مدائح في بعض العلماء ، كالقاضي جلال الدين أبي السعادات بن ظهيرة ، والشيخ محمد بن فهد وغيرهما .

وهو ممن جعلوا من قصيدة المدح وسيلة للاستعطاف وطلب النوال

من الممدوح . يقول من قصيدة مدح بها الشريف حسن بن عجلان :

فَلَقَدْ عَلِمْتُ لِعُظْمِ قَدْرِكَ أَنَّهُ أَعَيْتَ مَدَائِحُكَ الْبَلِيغَ الْمَقُولَا
لَكِنِّي لَمَّا عَلِمْتُكَ رَاضِيَاً وَافَيْتُ بِالْمِيسُورِ مِنْهُ لِيُقْبَلَا
تَبْقَى لِمَنْ يَرْجُو نَوَالَكَ مُنْعَاً وَلِمَنْ يُعَانِي قَرْعَ بَابِكَ مَوْئَلَا (4)

ومن ذلك قوله من قصيدة أخرى في الممدوح نفسه :

وَإِذَا الزَّمَانُ كَسَاكَ حُلَّةَ مُعْدِمٍ فَالْبَسْ لَهَا حُلَّ الْغَرِيبِ النَّائِي
وَاحْلُلْ بِسَاحَةِ خَيْرٍ مَنْ أَوْلَى وَأَجَلْ مَوْلَى مِنْ بَنِي الزَّهْرَاءِ
تُظْفَرُ بِكُلِّ كَرِيمَةٍ وَكَرَامَةٍ وَتَفْرُ بِكُلِّ غَنِيمَةٍ وَغَنَاءِ (5)

=

185/10 ؛ التاريخ والمؤرخون بمكة ، الهيلة ، ص 129 ، 130 .

- (1) انظر : الفصل الثاني من هذه الدراسة (مصادر الشعر) .
- (2) هو كتاب مخطوط ، لم أستطع العثور عليه ، ولم أجد أحداً من المهتمين الذين تناولوا آثاره قد أشار إلى وجوده في أي مكان .
- (3) الدر الكمين 167/1 .
- (4) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 376/2 ، 377 .
- (5) المصدر نفسه 377/2 .

وقد جاءت أغلب قصائده المدحية تهنئة لمدوحيه ببعض المناسبات الحافزة لمثله على القول وإظهار الفرحة للمدوح ؛ فقد مدح الشريف حسن بن عجلان - حينما ولي مكة بعد عزل ابن أخيه رميثة بن محمد بن عجلان في سنة 819هـ - بقصيدة هناؤها فيها ، مديعاً السرور بعودة الممدوح إلى إمارته ، إذ يقول في أولها :

وَأَفْتُ بِدَوْلَتِكَ السَّعَادَةَ لِلْمَلَا وَالْيَوْمَ نَالَ مُؤَمِّلٌ مَا أَمَلَا
مَنْ كَانَ مِنْهُ مُذْ نَأَيْتَ مُحْسِبِلَا فَالْيَوْمَ يَتْرُكُهُ السَّرُورُ مُحْمَدِلَا⁽¹⁾

وحينما ولي علي بن حسن بن عجلان مكة ؛ نظم ابن عبدالقوي قصيدة في تهنئته ، بث فيها مشاعر الحب ، مظهرأ مكانته والفرحة التي عمت كل شيء حين قدم مكة ، قال في مطلعها :

تَغُورُ الْهَنَاءُ لَمَّا قَدِمْتَ بَوَاسِمُ سُرُوراً وَكُلُّ الْكَائِنَاتِ مَبَاسِمُ⁽²⁾

وأبان في شعره مكانة العلماء ؛ حيث نجد مبادرته إلى التهنئة في بعض المناسبات ، كالتعبير عن الفرحة حين قدم الشيخ جلال الدين أبو السعادات بن ظهيرة من القاهرة متوجأً بمنصب القضاء في مكة ؛ حيث أذاع ابن عبدالقوي فرحة أهلها بذلك والسرور الذي عم أرجاءها حينذاك ، إذ يقول :

نَعَمْ فَلَنَا الْبُشْرَى بِلُقْيَاكَ وَالْهَنَاءُ وَلِلَّهِ مَا يَرْضَى مِنَ الْحَمْدِ وَالثَّنَا
قَدِمْتَ إِلَى أُمِّ الْقُرَى فَازْدَهَى بِهَا قَدُومُ تَرَاهُ بِالسَّعَادَاتِ مُؤَدِّنَا
فَلَوْ أَمَكْنَ الْأَطْلَالُ تَهْتَزُّ فَرْحَةً لَكَانَتْ مِنَ الْأَغْصَانِ فِي الْمَيْلِ
وَلَوْ أَنَّ فِي وَسْعِ الْجَمَادَاتِ مَنْطِقاً لَكَانَتْ جَمِيعاً بِالتَّرْحُبِ أَلْسِنَا⁽³⁾

وقد جاءت معاني المدح مناسبة لمدوحيه ؛ فإذا مدح أميراً جاءت قصائده منوهة بشجاعته وكرمه وعدله وإشاعته الأمن في البلاد ، وهو بذلك لم يخرج عن معاني الأقدمين ، بل إنه ليتابعهم أيضاً في الحديث عن إشراقه وجه الممدوح ، فيقول مخاطباً الشريف حسن بن عجلان :

لِكِنَّكَ الْبَذْرُ الْمُنِيرُ رَقِيتَ فِي رُتَبِ الْكَمَالِ فَحَزْنَتَهَا مُتَنَقِّلَا

(1) المصدر نفسه 374/2 .

(2) المصدر نفسه 491/2 .

(3) إتحاف الوري ، عمر بن فهد 108/4 .

رُدَّتْ إِلَى أَمِّ الْقُرَى أَيَّامَهَا فِيهَا بَعْدُكَ يَصْحَبُ الذَّنْبُ الطَّلَا (1)

ولما كان الممدوحون من الأمراء الأشراف ؛ ركز على عراقه
نسبهم وتفوقهم على غيرهم ، حتى حينما يتحدث عن شجاعة أحدهم وتقاه
، يومئ إلى أنه ورثها من ذلك النسب العريق . يقول من قصيدة مدح بها
الشريف حسن بن عجلان :

مِنْ جَدِّهِ وَرِثَ الشَّجَاعَةَ وَالتَّقَى مَا أَشْبَهَ النَّجْبَاءَ بِالنَّجْبَاءِ (2)

ويتحدث في هذه القصيدة عن كرم الممدوح وثاقب نظره ، حتى إنه
ليعلي من منزلته ، فينفي أن يكون له شبيه من نظرائه ، إذ يقول :

يَا حَاتِمَ الْخُلَفَاءِ يَا مَهْدِيَهُمْ أَنْتَ الرَّشِيدُ وَرَاشِدُ الْأَرَاءِ

شَأْنُ الْخِلَافَةِ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا لَكَ مُشَبَّهٌ مِنْ سَائِرِ النَّظَرَاءِ (3)

ولأنه كذلك ؛ كان جديراً بتولي شأن الإمارة في المدينتين الكريمتين

:

وَاخْتَارَكَ اللَّهُ الْكَرِيمُ خَلِيفَةً فِي مَكَّةَ وَبَطْيِيَةَ الْغُرَاءِ

وُخْصِصَتْ مِنْ بَيْنِ الْمُلُوكِ عَنَايَةً بِأَعَزِّ بَيْتٍ طَاهِرِ الْأَرْجَاءِ (4)

وحينما يمدح عالماً ، يتحدث عن منزلته العلمية ومكانته في النفوس
وفضل العلم ، وقد يركز على جانب من جوانب تفوق العالم ، كقوله في
مديحه الشيخ تقي الدين محمد بن فهد :

شَيْخُ الْحَدِيثِ بِمَكَّةَ وَعِمَادُهَا وَسَدِيدُهَا وَسَعِيدُهَا وَعَمِيدُهَا

صَانُ الرِّوَايَةِ مُتَقَبِّاً لِفَنُونِهَا وَبِحِفْظِهِ مَجْمُوعَهَا وَفَرِيدُهَا

فَهُوَ ابْنُ بَجْدَتِهَا وَحَامِلُ عِلْمِهَا وَمُفِيدُهَا وَمُجِيدُهَا وَمُعِيدُهَا (5)

وكذلك كان في رثائه ؛ يؤبن العالم ، منوهاً بمآثره وما خلفه من
فراغ لم يستطع أحد أن يملأه ، كما فعل في رثائه لأبي الفرج الدمشقي ،
حيث يقول :

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 375/2 .

(2) المصدر نفسه 379/2 .

(3) المصدر نفسه 380/2 .

(4) المصدر السابق 381/2 ، 382 .

(5) الدر الكمين ، عمر بن فهد 169/1 . ويلاحظ الإقواء في القافية .

فَيَا بْنَ سُلَيْمَانَ الْإِمَامَةَ عَظِلْتَ لِفَقْدِكَ وَالتَّذْرِيْسُ حُلَّ نِظَامُهُ
وَبَعْدَكَ لَا الْفَضْلُ الْمُنِيفُ وَلَا لِعِلْمٍ وَلَا الْإِقْرَاءُ سِيَمٍ سَوَامُهُ
وَلَا الْوَعْظُ فِي دَارٍ يَقَرُّ قَرَارُهُ وَلَا مِصْرُ تُؤْوِيهِ وَلَا الشَّامُ
زَهْدَتْ تَوَرَّعْتَ اعْتَزَلْتَ عَنِ وَأَنْتَ لِهَذَا الشَّانِ طَرًّا خِتَامُهُ
غَدَا كُنَّا لَمَّا تَوَارَيْتَ وَالْهَاءُ فَطَبْتُ فَقِيدًا لَا يُضَاعُ دِمَامُهُ

(1)

وهو شاعر هجاء ، بل "باقعة في الهجاء ، ممن يخشى لسانه ويتقى" (2) ، ذكر النجم بن فهد أنه "تعانى النظم ، فنظم نظماً سافلاً أولاً ، ثم أكثر من ذلك حتى انصقل قليلاً ونظم نظماً وسطاً ، ثم نظم الشعر الجيد ، وأقبل على ثلبه الأعراض وتمزيقها بالهجو القذيع" (3) .

وعلى الرغم مما قيل عنه في هذا الجانب ، فإننا لا نكاد نتبين ذلك فيما بين أيدينا من شعره ؛ إذ إن المصادر لم تذكر إلا مقطوعات محدودة يظهر من خلالها جرأته في الجهر برأيه ، وعدم تورعه عن الشتيمة وإن كان المعني فاضلاً ، من ذلك ما حصل حينما جدد سعد الدين بن يوسف (ناظر جدة) جامعها في سنة 830هـ وجعل إمام المسجد محمد بن هوا بسعاية القاضي أبي البقاء بن الضياء الحنفي ، حيث قال ابن عبدالقوي :

جَدَّدَ سَعْدُ الدِّينِ فِي جُدَّةَ مَسْجِدَهَا الْجَامِعَ يَرْجُو الثَّوَابَ
وَقَرَّرَ الْعِزَّ إِمَاماً بِهِ ابْنُ هَوَا مَا كَانَ ذَا فِي حِسَابِ
فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى ابْنِ الضِّيَا مَا دَامَ يُخْطِئُ وَجْهَ الصَّوَابِ (4)

وإذا كان الحديث عن سلاطة لسانه الذي يتردد في المصادر غير جلي فيما وقع في أيدينا من شعره ، فإن ذلك – على ما يبدو – بسبب أن المصادر لم تكن تحفل بهذا اللون من الشعر ، بل إنه غير بعيد أن يكون قد جمع شعره الهجائي في كراسة فقدت مع الأيام ، وربما أنها وقعت في يد ألفتها عامدة ؛ ذلك أن لسانه قد نال من عدد غير قليل من أهل مكة ، ذكر السخاوي – نقلاً عن المقرئزي – أن ابن عبدالقوي "هجاء بذيء

(1) السحب الوابلة ، ابن حميد 493/2 .

(2) الضوء اللامع ، السخاوي 71/8 . العبارة في التبر المسبوك للمؤلف نفسه ، ص 32 ، هكذا : "نابغة في الهجاء ، ممن يخشى لسانه ويتقى كلامه" .

(3) معجم الشيوخ ، ص 234 .

(4) إتحاف الوري ، عمر بن فهد 638/3 .

اللسان ، قل من يسلم من أهل مكة من هجوه ، وهو فيه أطبع ، وكثر بين
المكيين تناشدهم له" (1) .

-3-

والحديث عن جرأته في الهجاء يقودنا إلى تناول الصدق في أداء
المعنى ، بوصفه الطابع المميز لشعر ابن عبدالقوي ؛ فهو – كما سلف –
لا يتردد في الإفصاح عما يجول في فكره ، مبدئياً رأيه في بعض الأحداث
السياسية ، كما فعل حينما قبض قائد جند الشراكسة على الشريف علي بن
حسن بن عجلان (أمير مكة) وأخيه إبراهيم سنة 846هـ ؛ حيث أنكر
فعلته ، معبراً عن نظرة المجتمع المكي آنذاك بأبيات خاطب بها القائد ،
معنفاً عليه فعلته ، بدأها بقوله :

مَا جَاءَنَا قَطُّ وَلَمْ يَأْتِنَا مِثْلَكَ يَا تَمْرَازُ فِي الْفَتَكِ (2)

وهو صادق في مواعظه النابعة من أعماق نفسه الشاعرة ، المتأمل
في أحوال الناس ، نلمح ذلك من خلال النظرة الواقعية الواضحة في مثل
قوله :

يَا غَافِلًا عَنِ نَفْسِهِ أَخَذْتَ أَلْسِنَةَ الْوَرَى
السَّهْلُ أَهْوَنُ مَسْأَلًا فَدَعَ الطَّرِيقَ الْأَوْعَرَ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا تَقْلُ فِي النَّاسِ قَالُوا أَكْثَرَ (3)

والحديث عن صدقه في أداء المعنى لا يتنافى مع ما أشير إليه سلفاً
من أنه قد اتخذ من بعض قصائد المدح وسيلة لاستعطاف الممدوح وطلب
نواله ؛ لأنه كان واقعياً في ذلك أيّاً كان مطلوبه ، فهو لم يتخذ من ذلك
الأمر غاية يكيل من أجلها الصفات الجوفاء جزافاً ، متذلاً بالسؤال على
نحو ما كان يصنعه بعض الشعراء المتكسبين ، أمثال النابغة الذبياني
والأعشى وغيرهما .

والحق أن شاعرنا مدح الأمراء الأشراف وأعلى من مكانتهم ،
مشيداً بفضائلهم ، مسبغاً عليهم من خصال المجد والشرف الملائمة لتلك
المنزلة الرفيعة التي كانوا يتبوءونها ، وإن بالغ في شيء من ذلك ؛ فإنها
أبيات قليلة لا تؤثر في الحكم على صدقه .

(1) الضوء اللامع 72/8 .

(2) انظر : الشعر السياسي في (الفصل الثالث من هذه الدراسة) .

(3) الضوء اللامع ، السخاوي 73/8 .

وهو صادق في رثائه ، وإن وجدنا أبياتاً قليلة مال فيها إلى المبالغة ؛
 بغية إظهار مكانة المرثي وأثر فقده ، كقوله في رثاء الشيخ محمد بن
 موسى :

تَكْدَرْتُ بَعْدَكَ الدُّنْيَا وَسَاكِنُهَا جَوَى عَلَيْكَ فَمَا فِي الْعَيْشِ مِنْ
 غَيَّبَتْ عَنَّا فَكَادَ اللَّحْدُ مِنْ أَسْفٍ يَبْكِي لَطُوفَانِ نُوحٍ نُوحٍ مُنْتَحِبِ
 بَلَغْتَ يَا أَرْضُ بَحْرًا مَالَهُ طَرْفٌ فَأَقْلَعِي يَا سَمَاءُ الْفُضْلِ

والسمو سمة ظاهرة في مضمون القصيدة عنده ، ولا شك أن للبيئة
 الدينية التي عاش فيها الشاعر الأثر الكبير في ذلك . بل إننا لنجد أصداء
 الحياة الدينية المحيطة به في أغراض شعره المختلفة ؛ فإذا عبر عن
 حنينه حدثنا بواقعية عفوية عن تلك الأجواء التي عاش فيها بمثل قوله :
 أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَطُوفُ بِكَعْبَةٍ وَذَاكَ مَكَانٌ لِلإِلَهِ جَمِيلٌ
 ... وَهَلْ أَرَدَنْ مِنْ مَاءٍ زَمَزَمَ شَرْبَةً فَكَمْ قَدْ شَفِي بِالرِّيِّ مِنْهُ

وإذا مدح برزت ثقافته الدينية ، كقوله في مديح الشريف بركات بن
 حسن بن عجلان :

سَبَطَ أَهْلُ الْكِسَا مِلَادَ الْبَرَائِيَا شَرَفَ الْعَالَمِينَ وَالْأَكْوَانِ
 نَطَقَ الْوَحْيُ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ هَاوُمُ اقْرَؤُوهُ فِي الْقُرْآنِ
 ... أَنْتَ فَوْقَ الثَّنَا وَحَسْبُكَ مَدْحٌ جَاءَ فِي (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ)
 بَيْدَ أَنِّي اقْتَدَيْتُ كَعْبًا وَكَعْبًا فِينِكَ وَاسْتَرَدْتُ مِنْ حَسَّانِ (3)

ويشير إلى حديث الرسول ع في إحدى إخوانياته قائلاً :
 وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ هَدِيَّةً تُهْدَى لَكُمْ إِلَّا الدُّعَاءُ الصَّالِحُ
 أَوْ جَرَعَةً مِنْ مَاءٍ زَمَزَمَ شَرْبَهَا يَشْفِي الضَّنَّ وَلَهَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ
 مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْخَلْقِ أَفْضَلِ مُرْسَلٍ وَاللَّهُ بِالْخَيْرِ الْمُنِيرِ الْفَاتِحُ (4)

(1) لحظ الألاحظ ، محمد بن فهد ، ص 279 .

(2) الدر الكمين ، عمر بن فهد 170/1 .

(3) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 465/2 ، 466 .

(4) الدر الكمين ، عمر بن فهد 171/1 .

وهذا إيماء إلى قول الرسول ع : «ماء زمزم لما شرب له» (1) .
 وشعر ابن عبدالقوي لا يخلو من الهجاء المقذع البعيد عن هذه السمة
 – أعني السمو – لكنه نادر فيما بين أيدينا ، كما أننا نجد بعض الأفكار
 التي لا يمكن أن توصف بالنبل ، ولكنها قليلة جداً وتكاد تنحصر فيما
 خالط العقيدة في ذلك العصر من شوائب ، كالحلف بالنبي وآله في قوله :
 بَرَكَاتُ يَا بَنَ الْمُصْطَفَى وَوَصِيَّهِ هَذِي يَمِينِي بِالنَّبِيِّ وَآلِهِ
 مَا حِلْتُ عَنْ حُبِّي مُحْيَاكَ الَّذِي أَضْحَى الْوُجُودُ مُبْرَقَعاً بِجَمَالِهِ

وكقوله مخاطباً الشريف بركات بن حسن بن عجلان :
 فَأَعَزَّمْ عَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ مُدْرِعاً سِتْراً مِنْ اللَّهِ مَسْبُولاً مِنْ
 وَأَقْصِدْ زِيَارَةَ قَبْرِ الْمُصْطَفَى فِيهِ تَنَالُ كُلَّ الَّذِي تَرْجُو مِنْ
 وهذا مخالف لقول المصطفى ع : «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة
 مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى» (4) .
 وحين ننظر في بناء القصيدة عنده نجده قد افتتح عدداً قليلاً من
 قصائد المديح بالغزل ، كما أن ثمة قصيدة افتتحها بالوصف (5) ، والمقدمة
 عنده ذات صلة بالغرض (6) .

وعلى الرغم من أن مطلع القصيدة لم يكن محلقاً فيما بين أيدينا من
 شعره ، فإنه قد حرص على ملاءمة المطلع لغرض القصيدة ، من ذلك
 قصيدته التي كتبها للشريف بركات بن حسن بن عجلان حينما طلبه
 السلطان الحضور إلى مصر ، حيث عزم على السفر ولم يسافر ، فنظم
 ابن عبدالقوي قصيدة قال في مطلعها :
 يَا بَا زُهَيْرِ اسْتَعِنْ بِاللَّهِ فِي الطَّلَبِ فَإِنَّ مَنْ يَسْتَعِنُ بِاللَّهِ لَمْ يَخِبْ (7)

كما أنه لم يخرج في خاتمة القصيدة عما كان عليه شعراء مكة

- (1) سنن ابن ماجه ، ص 443 .
- (2) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 459/2 .
- (3) المصدر نفسه 419/2 .
- (4) صحيح مسلم 976/2 ، وينظر الحديث في صحيح البخاري 56/2 .
- (5) هذا الحكم مبني على ما تم الحصول عليه من نتاجه ، ولننظر في هذه المقدمات يمكن
 الرجوع إلى غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 377/2 ، 458 ، 462 ، 463 .
- (6) انظر : الحديث عن مقدمة القصيدة في مبحث (بناء القصيدة) في الفصل الرابع من
 هذه الدراسة .
- (7) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 418/2 .

والمدينة - آنذاك - حيث الصلاة على النبي ﷺ أو الدعاء لمن وجهت إليه القصيدة (1).

وأغلب قصائد ابن عبد القوي متوسطة الطول (تتراوح بين عشرين وخمسين بيتاً) ، أما أطول قصائده فقد زادت على 162 بيت (2) ، وله بعض القصائد القصيرة التي تقل عن عشرين بيتاً وتزيد على الستة ، كما أن ثمة مقطوعات تتراوح بين خمسة وثلاثة أبيات ، وبعض النثف المتفرقة في بعض كتب التراجم وبعض المصادر التاريخية (3).

وإذا ما نظرنا إلى لغة الشاعر ، ألفيناها واضحة ؛ ذات مفردات بعيدة عن الغرابة ، أما التراكيب فأغلبها محكمة خالية من التكلف ، لكننا قد نجد في بعض أبياته ضعفاً في النسج وركاكة في الأسلوب ، مثل قوله :

سَلْ سَبِيلاً إِلَى سَبِيلِ ابْنِ فَهْدٍ وَاشْرَبْ مِنْهُ سَابِغاً سَلْسَبِيلاً
وَسَلِّ اللَّهُ لِلْمُسَبِّلِ عَفْواً وَجَزَاهُ الْإِلَهُ أَعْظَمَ سُؤلاً
وَاحْمَدِ اللَّهَ ثُمَّ صَلِّ عَلَى مَنْ جَاءَ بِالْوَحْيِ مُنْذِراً وَرَسُولاً (4)

ولا يخفى ما للتكرار الملفوظ في البيتين الأولين من أثر في ركاكة الأسلوب ؛ إذ لا نجد لهذه اللفظية المتكلفة ذلك الإيحاء الشعوري والبعد الجمالي الذي نجده في كثير من نماذج التكرار ذات الارتباط الوثيق بالمعنى الذي أراد الشاعر أن ييوح به .

بل انظر إلى قوله :

مَوْسِمُنَا فِيهِ قَدْ ظَفَرْنَا بِالْحَجِّ وَالْعَفْوِ وَالْإِنَابَةِ
وَرَزَقْنَا الْمَقْسُومَ وَلَمْ يَفْتِنَا عَلَيْهِ مِنْ خَزَائِهِ كِتَابَهُ (5)

(1) انظر : الحديث عن الخاتمة في مبحث (بناء القصيدة) في الفصل الرابع .

(2) أشار إلى ذلك ابن فهد في غاية المرام 377/2 ، وهي قصيدة في مديح الشريف حسن بن عجلان ، ذكر منها في هذا المصدر (51 بيتاً) ، ولم أجدها كاملة في مصدر آخر .

(3) انظر : الفصل الثاني (مصادر الشعر) ؛ إذ تم توثيق شعره من خلال الرجوع إلى مظانه .

(4) الدر الكمين ، عمر بن فهد 395/1 . وقد جاء عجز البيت الأخير في المصدر هكذا : "جاء بالوحي للناس منذراً ورسولاً" ، وقد رجعت إلى الأصل المخطوط (ورقة 64/ب) فألفيته قد وضع (للناس) فوق (بالوحي) بوصفها رواية أخرى للبيت ، لكن المحقق نقلها غير ملتفت إلى أن ذلك يخل بوزن البيت .

(5) الدر الكمين ، عمر بن فهد 171/1 .

تجده أقرب إلى العامية منه إلى لغة الشعر .
ويبدو أن ذلك من آثار اللهجة الدارجة التي أثرت في كثير من شعراء مكة والمدينة ، ومنهم ابن عبدالقوي الذي وجدناه قد وقع تحت تأثيرها أيضاً ؛ فلجأ إلى تسهيل المهموز وقصر الممدود في مواضع كثيرة سواء في حشو البيت أو في القافية ، ومنه قوله :

أَلَمْتُ بِنَا أَوْصَافُكُمْ فَاُمْتَلَا الْفَضَا عَيْبِرَا وَكَادَ الْجَوُّ أَنْ يَتَأَلَّقَا
إِذَا كَانَ هَذَا عِنْدَنَا مِنْ سَمَاعِهَا فَكَيْفَ بِهَا إِنْ يَسَّرَ اللَّهُ بِالِّقَا (1)

وأسلوب الشرط سمة ظاهرة في شعره ، وبخاصة المقطوعات والنتف الموزعة في بعض كتب التراجم والتاريخ ، ويبدو أنه يبتغي بذلك استيفاء المعنى وبيان علتة في أقل قدر من الأبيات ، فقد يبكي فراق الأحبة ؛ فيبث شكواه ويظهر حنينه وما تكنه نفسه من شجى ، موضحاً سببه من خلال هذا الأسلوب على نحو قوله:

فِيَا نَفْسُ عَنْ كَمْ زَفْرَةٍ تَتَنَفَّسِي وَمِنْ طَيْبَةِ الْجَزْعَاءِ كَمْ
أَرَاكِ إِذَا مَا الْوُرْقُ بِالْجَزْعِ بِتَذَكَّارِهَا عَهْدَ الْمَحَبَّةِ تَجْزَعِي
وَإِنْ نَاحَ مَصْدُوعُ الْفُؤَادِ مِنْ ظَلَلْتُ لَهُ مِمَّا شَكَا تَتَصَدَّعِي
وَيُشْجِيكَ إِنْ غَنَى أَخُو الشَّوْقِ حَمَامَةَ جَزْعَا حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ
وَإِنْ حَنَّ الْفُؤَادُ أَوْ تَأَلَّقَ بَارِقُ بُكَيْتِ عَلَى سُكَّانِ نَجْدٍ بِأَدْمَعِ (2)

وغالباً ما يحمل هذا الأسلوب حكمة أو نصيحة في بيتين أو ثلاثة ، يذكر علتها على نحو قوله :

إِذَا مَا ظَفِرْتَ بِذِي نَخْوَةٍ فَكَفِّهِ مِنْ فَضْلِهِ مَا يُطِيقُ
فَإِنَّ ذَا النِّخْوَةِ مُسْتَمْسِكُ مِنْ صَاحِبِ الْعَرْشِ بِحَبْلِ وَثِيقِ (3)

وقد استعان شاعرنا بوسائل عديدة شكلت صورته كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل والمجاز العقلي ، واتكأ على التشخيص في كثير منها ، لكن الملمح الأبرز في تصويره هو الارتباط

(1) التبر المسبوك ، السخاوي ، ص250 .

(2) الضوء اللامع ، السخاوي 72/8 .

(3) الدر الكمين ، عمر بن فهد 170/1 ، 171 . والبيت الثاني يختلف وزنه عن وزن البيت الذي قبله ؛ فالثاني من السريع والأول من المتقارب .

بالمكان واستدعاء الشخصيات التراثية لإيضاح ما يريد نقله من أفكار ؛
 فإظهار الفرحة في بعض المناسبات غاية يريد أن يعبر عنها الشاعر
 ويوصلها إلى متلقيه ، مبتغياً إثارتها وتفاعله معه ، وكانت الصورة مطيته
 في هذه السبيل ، حيث يحيل الموجودات حوله أشياء حية ، تعيش البهجة
 ؛ فتنتطق سروراً ، نجد ذلك في مثل قوله في ولاية علي بن حسن بن
 عجلان ودخوله مكة محرماً :

تُغَوِّرُ الْهَنَا لَمَّا قَدِمْتَ بَوَاسِمُ سُرُوراً وَكُلُّ الْكَائِنَاتِ مَبَاسِمُ
 وَلَمَّا تَرَأَيْتُكَ الْمَشَاعِرُ مُحْرِمًا أَشَارَتْ بِتَسْلِيمٍ عَلَيْكَ الْمَحَارِمُ
 وَلَمَّا رَأَى الْبَيْتَ أَقْبَلَتْ هَزَّهُ إِلَيْكَ اشْتِيَاقٌ إِنَّهُ بِكَ عَالِمُ
 كَذَاكَ الْمُصَلَّى وَالْحَطِيمُ وَزَمَزَمُ وَقَدْ سَجَعَتْ مِنْ حَوْلِهِنَّ
 ...وَكَادَ الصَّافَا يَخْتَالُ لَمَّا صَعَدَتْهُ وَمَاسَتْ سُرُوراً مَذْرَأَتُكَ
 ...كَأَنَّكَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ وَقَدْ أَتَى إِلَى الرُّكْنِ فِي بُرْدِيهِ حِينَ⁽¹⁾

وقد مضى في رسم صورة مثالية للممدوح ، مصوراً مناقبه ،
 محاولاً إيضاح صورته باستدعاء شخصية الإمام علي بن أبي طالب –
 رضي الله عنه – متخذاً من الكناية وسيلة فنية لذلك ، حيث يقول :
 أَبَا حَسَنِ يَا بْنَ النَّبِيِّ وَمَنْ عَدَتْ مَنَاقِبُهُ لِلْمَكْرَمَاتِ دَعَائِمُ
 إِذَا مَا عَلَيٌّ بَيْنَ جَنْبَيْكَ فِي الْوَعَى فَأَهْوَنُ مَا يَلْقَاكَ فِيهِ الضَّرَاعِمُ⁽²⁾

فالشاعر أراد أن ينسب صفتي الشرف والشجاعة الكائنتين في
 الصحابي الجليل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – إلى الممدوح ،
 فعدل عن نسبتهما إليه مباشرة ونسبهما إلى ماله اتصال وثيق به قائلاً :
 (بين جنبيك) . وفي ذلك زيادة تأكيد ؛ لإثبات تمثله شخصية الإمام علي
 بن أبي طالب .

وهو في كثير من تصويره لا يكتفي بمشبه به واحد ، بل يجمع في
 البيت أكثر من مشبه به ، وهذا الأسلوب وإن قلل من جودة السبك ، فإنه
 يحقق مبتغى الشاعر الذي يحاول أن يجعل صفات الكمال في الشخصيات
 التي يستدعيها كامنة في ممدوحه ، يقول في مديح الشريف علي بن حسن

(1) غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 491/2 ، 492 .

(2) المصدر نفسه 493/2 .

بن عجلان :

فَضُلْتُ الْوَرَى مَجْدًا وَفَخْرًا فَلَا رَيْبَ حَطَّتْ عَنْ غُلَاكَ النَّعَائِمُ
فَهَا أَنْتَ مَهْدِيٌّ وَهَادٍ وَوَائِقٌ أَمِينٌ وَمَأْمُونٌ مُطِيعٌ وَقَائِمٌ (1)

وأجود من ذلك قوله مخاطباً الشريف حسن بن عجلان :

يَا حَاتِمَ الْخُلَفَاءِ يَا مَهْدِيَّهُمْ أَنْتَ الرَّشِيدُ وَرَاشِدُ الْآرَاءِ (2)

وإذا نظرنا إلى الأوزان التي نظم عليها شعره ؛ وجدنا أكثرها البحر الطويل ثم البسيط ، يليهما الكامل ثم السريع ومجزوء الكامل ، فالمتقارب

والواضح أنه اعتمد على الأوزان الطويلة ، وهي ما يتناسب مع معاني المديح والثناء وغيرهما من الأغراض التي تناولها ؛ حيث إن تلك الأوزان الطويلة قد ساعدت على استيعاب الصفات العديدة التي كان يتمتع بها الممدوحون والمرثيون ، كما أن بث حالات النفس في بعض المواقع بحاجة إلى بحر ذي إيقاع بطيء يتأتى من خلاله نقل التجربة . والقافية المقيدة نادرة في شعره ، إذ اعتمد – كسائر الشعراء العرب – على الإطلاق في القافية في أغلب قصائده .

(1) المصدر السابق 492/2 ، 493 .

(2) المصدر نفسه 380/2 .

-1-

هو شهاب الدين أحمد بن الحسين بن محمد بن الحسين بن عيسى بن محمد بن أحمد بن مسلم ، ويعرف - كأبيه - بابن العُليْف .
ولد في سنة 851هـ بمكة المكرمة ، ونشأ بها فحفظ القرآن الكريم والألفية النحوية والأربعين النووية ، وأخذ في دراسة علوم اللغة والفقه وغيرهما . ومن أشهر أساتذته تقي الدين بن فهد وابنه نجم الدين ، وأبو الفضل المرجاني ، ويحيى بن أحمد العَلَمِيّ . وقد لازم نور الدين الفاكهاني في كثير من دروسه الفقهية والنحوية ، ورحل في طلب العلم إلى القاهرة مراراً ، فسمع من محمد بن عبدالمعزم الجوزي ومن محمد ابن محمد الخيضري وغيرهما . وقد ذكر السخاوي ⁽¹⁾ أن العليْف أخذ عنه بالقاهرة والحرمين ، وكذا عن السمهودي بالمدينة العروص وغيره ، كما أشار إلى أنه اشتغل بالعربية ، وعلوم الأدب ، كالعروض والمعاني والبيان وغيرها على غير واحد ، وأكثر من مطالعة دواوين القدماء ، وتكسب بالنسخة ، وكان جيد الخط ، بارعاً في الحساب ، معروفاً برجاحة العقل ودمائة الأخلاق .

وهو من أسرة عريقة في العلم والأدب ؛ فجده جمال الدين محمد بن الحسين بن عيسى عالم شاعر ، ولد في حلي بن يعقوب ثم رحل إلى مكة وانقطع إلى الشريف حسن بن عجلان ومدحه بقصائد كثيرة . وقد توفي بمكة في سنة 815هـ . وكذلك عمه علي بن محمد ، ووالده بدرالدين الحسين بن محمد ، الذي عني علماء عصره بشعره ونثره ، وذاع شعره حتى لقب بشاعر البطحاء .

تزوج أحمد العليْف مرتين ، وخلف ولداً وبنتين ، وابنه محمد معروف بكنيته أبي الفضل ، وبلقبه كمال الدين ، وهو فقيه شاعر كأبيه ، لكن شعره لا يرقى إلى مستوى شعر والده الذي كان ينعت بشيخ الأدباء في ذلك العصر ومتنبي زمانه ، والذي كان يلقب بشاعر البطحاء (لقب

(1) التحفة اللطيفة 176/1 ، 177 . وقد توهم صاحب النور السافر فذكر أن السخاوي ممن تتلمذ على ابن العليْف ، وتابعه في ذلك ابن العماد الحنبلي ومحمد بن الحبيب الهيلة .

- انظر : النور السافر ، العيدروس ، ص180 ؛ شذرات الذهب 15/10 ؛ والتاريخ والمؤرخون بمكة ، ص180 .

والده الحسين) .

ومن مؤلفات أحمد العليف : درر الأفراد في معرفة الأعداد ، والشهاب الهاوي على منشئ الكاوي ، وهو دفاع عن شيخه السخاوي بعد أن ألف السيوطي كتابه (الكاوي لدماغ السخاوي) ، كما هاجم السيوطي بكتاب آخر عنوانه (المنتقد اللوذعي على المجتهد المدعي) ، وألف للسلطان العثماني بايزيد (الدر المنظوم في مناقب سلطان الروم)⁽¹⁾ ؛ حيث مدحه فيه ومدح بعض أقرانه العثمانيين .

وقد عاش العليف شطراً من حياته في المدينة ، لكنه عاد إلى مكة ، وتوفي فيها في شهر ذي الحجة من سنة 926 هـ⁽²⁾ .

-2-

وللعليف ديوان مخطوط⁽³⁾ في 88 ورقة ، يتكون من 91 قصيدة ، و33 مقطوعة ، و30 ننتفة ، وثلاثة أبيات يتيمة . وقد بلغت أبيات الديوان 3739 بيت . وهناك قصائد وأبيات عديدة مبثوثة في بعض المصادر التاريخية وبعض كتب التراجم⁽⁴⁾ .

وأهم الأغراض الواردة في شعره : المديح ، والشعر الديني ، والغزل ، والرثاء ، والهجاء ، والحنين والشكوى ، وله بعض الإخوانيات ، وشيء من الحكمة .

وقد افتتح ديوانه بالمديح النبوي ، وله فيه ثلاث قصائد ، أظهر فيها محبته للنبي ﷺ وشوقه إليه ، مشيراً إلى منزلته بين الأنبياء ، وتناول شيئاً

(1) ذكر النهر والي في الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص274 : أن اسم هذا الكتاب (الدر المنظوم في مناقب السلطان بايزيد ملك الروم) .

(2) انظر ترجمته في : التحفة اللطيفة ، السخاوي 176/1-178 ؛ الضوء اللامع ، السخاوي 290/1 ؛ نيل المنى ، جار الله بن فهد 297/1 ، 298 ، 301 ، 320 ؛ النور السافر ، العيدروس ، ص180 ، 181 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 195/10 ، 196 ؛ إتحاف فضلاء الزمن ، الطبري 368/1 ، 369 ؛ البدر الطالع ، الشوكاني 54/1-56 ؛ المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص107 ؛ أعلام العرب في العلوم والفنون ، الدجيلي 30-28/3 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 208/1 ؛ معالم الأدب العربي في العصر الحديث ، عمر فروخ 219/1 ؛ التاريخ والمؤرخون بمكة ، الهيلة ، ص179-182 . وقد ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون 735/1 : أن وفاة أحمد العليف في سنة 922 هـ ، وهو خطأ ، وكذلك البغدادي في إيضاح المكنون 464/1 .

(3) سبق الحديث عن هذا الديوان في الفصل الثاني (مصادر الشعر) .

(4) سبق ذكر المصادر التي ضمت شيئاً من نتاجه ، وتوثيق ذلك في الفصل الثاني (مصادر الشعر) .

من سيرته المباركة ، منوهاً بشمائله الجمّة وصفاته الفريدة ومعجزاته التي أكرمه الله بها ؛ يقول في إحداها :

أَتَاهُ فِي يَوْمٍ بَذَرَ مَا يُسَرُّ بِهِ وَنَالَ فِي لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ مَا طَلَّبَا
أَسْرِي بِهِ فَدَنَا مِنْ رَبِّهِ وَجَنَى مِنْ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى فِي لَيْلِهِ رُطْبَا
...مُبَشِّرٌ نَشَرَتْ آيَاتُهُ وَطَوَتْ مَنْشُورَ نُوحٍ وَمَنْ فِي فَلَكِهِ رَكْبَا
وَنَاسِخٌ نُسِخَتْ صُحُفُ الْخَلِيلِ بِهِ وَكُلُّ مَا قَدَّمْتَهُ الْأَنْبِيَا حَقْبَا
إِمَامٌ مَدْرَسَةِ التَّنْزِيلِ عَالِمُهَا وَمَا قَرَأَ كُتُباً مِنْهَا وَلَا كَتَبَا
أَمِّي عِلْمُهُ الْبَارِي وَأَدَبُهُ فَعَلَّمَ الْعَالَمِينَ الْعِلْمَ وَالْأَدْبَا (1)

وللمديح القسط الأكبر من شعر العفيف ، بل إنه استغرق أكثر قصائده الطوال ، حتى ليكاد يقترب من ثلاثة أرباع ما خلفه من شعر .
وجل مدائحه في الشريف بركات بن محمد بن بركات ؛ حيث سجل أعماله ، وأظهر إعجابه بشخصيته في مناسبات عديدة ، فنال حظوة عنده وأجزل له العطاء . يقول محمد السمرقندي (جامع ديوان العفيف) في مقدمته : "وقد أغناه بجوائزه عن مدح غيره ، كما نقلته من خط المؤلف"

ولإعجابه بالشخصية الحربية للشريف بركات ؛ ردد الحديث عن شجاعته وصدق عزيمته وعلو همته ، وكان شعره سجلاً للأحداث التي خاضها الشريف بركات (2) .

وقد أظهر أن من دوافع إعجابه بشخصية الشريف بركات أنه :
ذُو عَزْمَةٍ كَغَرَارِ السَّيْفِ مَاضِيَةٍ وَهَمَّةٍ فِي الْعُلَا تَسْمُو عَلَى رُحْلٍ
يَرَى الْعَوَاقِبَ فِي مِرَاةِ فِكْرَتِهِ غَيْباً وَيَقْضِي بِحُسْنِ الرَّأْيِ فِي
وَهُوَ أَيْضاً :

فَتَى الْحَرْبِ لَا تَنْتِيهِ خَوْذٌ عَنْ رَدَاحٍ وَلَا تُصْبِيهِ دُعْجُ رَكَارِكُ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَنَامَ وَلَمْ تَقُمْ بِأَرْضِ الْعَدَا بِالصَّافِنَاتِ الْمَعَارِكُ

(1) ديوان أحمد العفيف ، ورقة 1/2 .
(2) في الدراسة الموضوعية نماذج من ذلك .
(3) سمط النجوم العوالي ، العصامي 320/4 .

أَبِي غَيْرَ ظِلِّ الرُّمَحِ أَوْ يُدْرِكُ فَلَمَّا انْقَضَى حَنْتَ إِلَيْهِ الْأَرَائِكُ⁽¹⁾

ولم يقصر العليف مديحه على الشريف بركات ؛ بل مدح ابنه الشريف أبا نمي ، والسلطان قانصوه الغوري ، والسلطان قايتباي بن محمد ، والسلطان بايزيد ، كما مدح بعض العلماء ، كقاضي العسكر في بلاد الروم عبدالرحمن بن المؤيد ، والقاضي أبي السعود بن ظهيرة ، وحسين بن عبدالرحيم السمهودي .

والمديح أهم الأغراض التي تتجلى فيها خصائص شعره ، وهو في كثير منه يحتفظ بالمقدمة الغزلية وما يتصل بها من التشبيب والنسيب ، ولم يفرد للغزل إلا قصائد ومقطوعات قليلة . وقد بدا في غزله شاعراً مقلداً ، لا نشعر من خلاله بحرارة الحب أو جوى القلب . وهو من الشعراء الذين تناولوا سويغات الوصل بأسلوب مكشوف ، كما أنه ممن تغزلوا بالمذكر (2) .

ومراثي العليف لا تقل عن مدائحه جودة ، لكنها قليلة ؛ إذ لا نجد في ديوانه إلا خمس مرات لأربعة من العلماء وخامس اسمه محمد لم تتضح شخصيته . والعلماء هم : شمس الدين السخاوي ، ونجم الدين بن فهد ، وعبدالكريم السمهودي ، وعلي بن أبي الليث .

وإننا لنستغرب أن ولي نعمته الشريف بركات بن محمد لم يظفر منه بقصيدة رثاء ، على الرغم من أنه مدحه في ديوانه بأكثر من خمس وعشرين قصيدة ! فهل هناك شعر للعليف لم يصل إلينا؟ قد يكون ذلك ؛ لأن شاعراً مثله لا يمكن أن يعرض عن رثاء الشريف بركات ، وخاصة أن الذي تولى الإمارة بعده ابنه أبو نمي . وهذا يعني أنه ليس للحالة السياسية أثر في ذلك ؛ فالأمير الجديد ليس خصماً لسابقه ، نازعه فتولى السلطة ؛ فخشي الشاعر من سطوته .

وجاء شعره الحماسي مصاحباً لبعض قصائد المديح ، وهو من جزيل شعره . ويعد العليف في حضيرة الشعراء الحماسيين في ذلك العصر ؛ حيث برع في وصف أعمال البطولة وإلهاب حماسة مدوحيه في افتتاحيات بعض القصائد ، مؤكداً في أكثر من قصيدة أن العز الذي لا تفرع مروتته في تجريد السيوف وحصد الأعداء ، وأن بلوغ المجد لن

(1) ديوان أحمد العليف ورقة 12/ب .

(2) انظر : الفصل الثالث (شعر الغزل) .

يتحقق إلا بالعزيمة الصادقة وخوض الغمرات ، من ذلك قوله في مقدمة قصيدة مدح بها الشريف بركات بن محمد :

ذَرَى الْعِزَّ مَا قَامَتْ عَلَيْهِ الْمَمَالِكُ وَمَا شَيْدَتْهُ الْمُرْهَقَاتُ الْبَوَاتِكُ
وَمَا اعْتَنَقَتْ فِيهِ الْفَوَارِسُ فِي وَمَا صَافَحَتْ فِيهِ الصِّفَاحُ
وَقَتْلُ الْعِدَا صَبْرًا كَمَا شَاءَتْ وَنَيْلُ الْمُنَى وَالْفَائِزُ الْمُتَدَارِكُ
وَمَا الْمَجْدُ إِلَّا مَا وَتَرَتْ بِهِ الْعِدَا فَدَارَتْ بِهِمْ رِيحُ الْحِمَامِ
وَعَزْمٌ يُبِيدُ الْخَيْلَ وَالْعِيسَى تُكَلِّ بِهٍ أَخْفَاهَا وَالسَّنَابِكُ (1)

والعليف قصائد ومقطوعات خالصة للهجاء ، فضلاً عن الهجاء الموجّه لخصوم الممدوحين ، المصاحب لقصيدة المدح في بعض الأحيان . وعلى الرغم من أنه أكثر شعراء مكة والمدينة إقذاً في الهجاء ، فإن ذلك لم يكن كثيراً في شعره ؛ إذ إنه في أغلب هجائه أكثر ترفعاً عن الفاحش من القول ، بل إنه لم يكن حريصاً على ذكر المهجوين ؛ لأن غايته من ذلك التنديد بالمسلك الخاطئ على نحو قوله :

قَبَّحَ اللَّهُ مَعْشَرًا قَدْ عَرَفْنَا نَكْرَهُمْ فِي قَدِيمِهِمُ وَالْحَدِيثِ (2)

فهو يذكر المعوجّ من السلوك ، لكنه لا يصرح بصاحبه ؛ لأن مقصده الأساس تقويم ذلك المعوج وغمز صاحبه من طرف خفي ، نجد ذلك في مثل قوله :

لَعَمْرُكَ مَا فُلَانُ الدِّينِ إِلَّا أَتَى مِنْ جَهْلِهِ أَمْرًا فَضِيْعًا
فَتَى يَغْشَى مَحَارِمَهُ وَيَغْشُو إِلَى جَارَاتِهِ عَشْوًا سَرِيْعًا (3)

وله شعر في الحنين والشكوى والعتاب . وهو — كما مر — قد عاش شطراً من حياته في المدينة ؛ فأحبها ، وكان لا يسلو إذا فارقها ، يقول في إحدى قصائده :

عَلَى الرَّبْعِ مِنْ دَارِ الْحَبِيبِ سَلَامِي وَأَسْنَى تَحِيَّاتٍ عَلَيْهِ نَوَامِ

(1) سمط النجوم العوالي ، العصامي 306/4 . وبداية المطلع في الديوان (ورقة 12/أ) : أَرَى الْعِزَّ ...

(2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 71/ب .

(3) المصدر نفسه ، ورقة 80/ب .

...رُبُوعٌ صَحِبْتُ الْعُمْرَ فِيهِنَّ رِيْقاً
سَقَاهُنَّ مِنْ دَمْعِ الْمَشُوقِ عَمَامَةً
وَلَا زَالَ فِيهَا لِلْمُحِبِّينَ رَوْضَةٌ
مَحِلٌّ بِهِ يُحْمَى النَّزِيلُ وَمَعْهَدٌ
أَعْلَلَ نَفْسِي بِالْمَقَامِ بغيرِهِ
إِلَى أَنْ كَسَا وَخُطَّ الْمَشِيبُ
تَجُودٌ بِمَخْلُولِ النَّطَاقِ سِجَامُ
تَمُرٌّ عَلَيْهَا السُّحْبُ غَيْرَ جَهَامِ
تَجَدَّدَ شَوْقِي نَحْوَهُ وَهِيَامِي
فَيَجْذِبُنِي وَجْدِي لَهُ وَغَرَامِي (1)

وقد أظهر شوقه إلى المدينة ، مشيراً إلى أنه فضل المقام بها على مكة التي ولد فيها ونشأ . ويبدو أنه عاد في آخر حياته إلى مكة قاصداً الشريف بركات ، بعد أن أثقل كاهله الدين الذي أجبره على بيع داره في المدينة كما ذكر جار الله بن فهد (2) . يقول بعد الأبيات السابقة :

فِيَا دَارُ هَلَّا تُسْعِدِينَ بِنَظَرَةٍ
تَرَحَّلْتُ عَنْهَا لَا سُلُوٌّ وَلَا قَلِي
وَلَا اخْتَرْتُ عَنْهَا بَلَدَةً كَانَ
مَسَاحِبُ أَذْيَالِي قَدِيمًا وَمَالْفِي
وَلَكِنْ هَوَى يَغْتَادُنِي وَصَبَابَةٌ
إِلَى مَلِكٍ سَامِي الْجَنَانِ هُمَامِ (3)

والواضح أنه حقق مأربه ، حيث أكرمه الشريف بركات ، وأحله مكانة مرموقة ، فظل في كنفه عزيزاً ، وأخذ ينوه بهذه المكرمة ، معترفاً بالفضل ، حيث يقول :

فَمَنْ (مُبْلَغٌ) أَهْلِي وَصَحْبِي بِأَنِّي
حَطَّطْتُ رِحَالِي عِنْدَهُ فَكَأَنَّمَا
وَوَافِيَّتُهُ صِفَرَ الْيَدَيْنِ فَأَوْمَضَتْ
أَقَمْتُ عَزِيزاً تَحْتَ ظِلِّ جَنَابِهِ
وَصِرْتُ لَدَيْهِ فِي أَعَزِّ مَكَانَةٍ
لَدَيْهِ بِأَهْنَأِ عَيْشَةٍ وَمَنَامِ
نَزَلْتُ بِأَهْلِي فِي أَعَزِّ مَقَامِ
لَدَيْهِ بِرُوقِي وَاسْتَهَلَّ عَمَامِي
أَرَى الدَّهْرَ عَبْدِي وَالزَّمَانَ
سُعِيداً عَزِيزَ النَّفْسِ غَيْرَ مُضَامِ (4)

(1) المصدر نفسه ، ورقة 37/ب .

(2) التحفة اللطيفة ، السخاوي 177/1 .

(3) ديوان أحمد العليف ، ورقة 37/ب .

(4) المصدر نفسه ، ورقة 38/ب ، 39/أ . ولفظة (مبلغ) في صدر البيت الأول في

والحنين إلى مكة قليل في شعره ، ومنه قوله :
لَقَدْ هَرْنِي شَوْقٌ إِلَى طَيْبِ مَنْزِلٍ بِمَكَّةَ فِيهِ مُنْيَةُ النَّفْسِ قَائِمَةٌ
أَحْنٌ إِلَى مَرَأَى زُبَيْدَةَ وَاللِّقَا وَيَجْذِبُنِي شَوْقٌ إِلَى وَصْلِ فَاطِمَةَ

وقد ردّد في شعره الشكوى من الدهر (2) ، ورأى أقواماً أقل منه شأناً قد علت أصواتهم ؛ فتكاثف همه ، وباح بمشاعره في قصائد عديدة ، متبرماً من الزمان الذي رأى أنه قعد به عن تبوء المنزلة التي يستحقها . وقد نسب إليه تبدل الأحوال ، إذ يقول:

فَقُبْحاً وَشَيْكاً لِلزَّمانِ الَّذِي بِهِ قَدْ اسْتَأْسَدَ الِيزْبُوعُ وَاسْتَسَرَّ
أَيُّهُوَ ذَبَابُ الْجَوِّ نَحْوِي وَقَدْ كَانَتِ الْأَسَادُ تَنْفِرُ مِنْ شَرِّي (3)

ولا شك أن الشاعر قد انتابته بعض المواقف في فترات من حياته ؛ أفرزت مثل هذه الأبيات . والحقيقة أن الشكوى التي نجدها في ثنايا بعض القصائد قد كشفت بعض الجوانب في شخصيته ؛ حيث برزت ذاته ، وبان اعتداده بنفسه ، وظهر في كثير منها شاعراً تحدوه آمال عريضة لكنه - كما يبدو - قد صدم بواقع مرير كان عاجزاً بينه وبين ما تطمح إليه نفسه .

وللعليف بعض الإخوانيات (4) ، وحكم مبنوثة في ثنايا قصائده ، كما أن من حكمه ما جاء مقدمة لبعض القصائد . وقد وردت في أبيات متتالية ، مرتبطة بسياقها ؛ حيث جاءت مقدمة لأغراض تقتضيها ، كأبيات الحكمة التي جاءت مقدمة لقصيدته في مواساة القاضي أبي السعود بن ظهيرة بعد أن غضب عليه الشريف بركات بن محمد (5) . وقد وردت الحكمة في سياق الحماسة في بعض قصائده التي وجهها إلى الشريف بركات ، كالحكم التي حشدها في مستهل قصيدته التي تكلم فيها على خروج الشريف بركات بن محمد لقتال بني إبراهيم - في سنة 912 هـ -

المصدر (يبلغ) ، والتعديل ؛ لإقامة الوزن .

- (1) المصدر نفسه ، ورقة 55/ب .
- (2) انظر : الفصل الثالث (شعر الحنين والشكوى) .
- (3) ديوان أحمد العليف ، ورقة 86/ب .
- (4) انظر : الفصل الثالث (شعر الإخوانيات) .
- (5) انظر : منائح الكرم ، السنجاري 118/3 ، 119 .

الذين نهبوا دور مكة وعاثوا في الحرم (1) .

ومن ذلك قصيدته التي مطلعها :

السَّيْفُ يُعْرِبُ عَمَّا أَعْجَمَ الْقَلَمُ فَجَوْدِ الْكَلَمِ إِنْ لَمْ يَنْجِعِ الْكَلِمُ (2)

وهي إحدى مدائحه في الشريف بركات بن محمد ، بدأها بمقدمة منها قوله :

لَا خَيْرَ فِي الْحِلْمِ إِنْ كَانَتْ عَوَاقِبُهُ تَجَرُّ جَهْلًا وَعُقْبَى شَأْنِهِ نَدَمٌ

... وَالْحِلْمُ إِنْ كَانَ عَوْنًا لِلْعَدُوِّ عَلَى نَفْسِ الْفَتَى عَزَّ مَنْ بِالْجَهْلِ يَرْتَسِمُ

وعلى الرغم من أن الحكمة ليست كثيرة في شعره ؛ فإنه يعد أكثر شعراء مكة والمدينة تناولا لها .

-3-

والعفيف شاعر عاش بين القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، والشعر آنذاك في حالة ركود وضعف بعد تألقه في العصور العباسية . وقد اتجه الشعراء إلى سابقهم ينهلون من معانيهم ، متابعين خطاهم ، والعفيف أحد الشعراء الذين حذوا حذو سابقهم ؛ حيث تأثر بهم ، ولا سيما المتنبي . وأغلب المعاني التي تناولها العفيف تقليدية مكرورة عبر العصور ، كالممدح بالكرم والشجاعة وغيرهما ، وتعداد مناقب المرثي والبكاء على فقده ، ورمي المهجو ببعض الصفات التي تنقص من قدره . وهذا التقليد في المعاني العامة أمر مقبول ، فهي مكرورة منذ العصر الجاهلي ، يقول كعب بن زهير :

مَا أَرَانَا نَقُولُ إِلَّا رَجِيعًا وَمُعَادَا مِنْ قَوْلِنَا مَكْرُورًا (4)

والعفيف كما يبدو في شعره قارئ جيد للتراث ، حيث درسه وحفظ منه الشيء الكثير ، كما درس بعض العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية على علماء عصره – كما سلف – ومال نحو الأدب يعبر عن تجاربه من خلال ممارسة النظم ومعاينة الشعر . وقد يظهر لقارئ شعره أثر شخصية المتنبي في اعتداده بذاته وثنائه على شعره وشكواه من الدهر ، كما كان يحذو حذو المتنبي في حماسته وفي مديحه لسيف الدولة ، يتضح

(1) انظر : ديوان أحمد العفيف ، ورقة 35/ب ، 36/أ .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 22/أ .

(3) المصدر نفسه ، ورقة 22/أ .

(4) ديوان كعب بن زهير ، ص 123 .

ذلك في المدائح التي كان يصنعها للشریف بركات بن محمد ، فهو – مثلاً – يصوّر الممدوح في المعركة ثابت الجنان والرؤوس تتطاير من حوله ، والموت يحدق من كل مكان كما كان يفعل المتنبي في مديح سيف الدولة ، ويأنف العليف من الشعراء الذين يزاحمون على مائدة الشریف بركات بن محمد ويحتقرهم على شاكلة المتنبي الذي لا يرى أن بمقدور أحد من الشعراء مجاراته ، إذ يقول في إحدى مدائحه لسيف الدولة :

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضَبْنِي شُويعِرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِنُنِي قَصِيرٌ يُطَاوِلُ (1)

ويقول العليف مخاطباً الشریف بركات بن محمد :

مَدِيحُ ذَاتِكَ يَخْلُو لِي تَكْرُرُهُ كَمَا حَلَا لِمُحِبِّ بَارِدِ الشَّنْبِ
وَلَا يَلِدْ لِقَلْبِي أَنْ يُزَاحِمَنِي شُويعِرٌ فِي اشْتِيَارِ الشَّهْدِ
وَيَقْتَفِينِي أَنَاسٌ مَالَهُمْ أَدَبٌ مَثَلِي وَلَا ذَنْبَ لِي فِيهِمْ سِوَى (2)

ويقول من قصيدة أخرى مخاطباً الشریف بركات :

كَذَا فَلْيَكُنْ عِزُّ الْكَرِيمِ وَإِنَّمَا عَلَى قَدْرِ عِزِّمَاتِ الْكَرَامِ الْمَدَارِكُ
...خُذِ الْمَدْحَ مِنِّي يَا هُمَامُ فَإِنَّمَا بِقَدْرِ بِنَاءِ الْبَيْتِ تَسْمُو الْمَدَامِكُ
وَدَعْ مَا سِوَايَ يَا كَرِيمُ فَإِنِّي أَنَا الشَّاعِرُ الْمَحْكِيُّ وَالْغَيْرُ حَائِكُ (3)

ولا يخفى أنه سلك سبيل المتنبي في مديح سيف الدولة حينما قال :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعِزِّ تَأْتِي الْعِزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكَرَامِ الْمَكَارِمُ (4)

وفي قوله أيضاً من قصيدة أخرى مخاطباً سيف الدولة :

وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنِّي أَنَا الصَّائِحُ الْمَحْكِيُّ وَالْآخِرُ (5)

والناظر في شعر العليف يلحظ روح المتنبي في كثير من قصائده .

(1) ديوان أبي الطيب المتنبي 117/3 .

(2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 26/أ .

(3) سمط النجوم العوالي ، العصامي 309/4 . وقد ورد البيت الأخير في مدحة أخرى للشریف بركات هكذا :

خُذْ ثَنَائِي أَبَا زُهَيْرٍ وَدَعْ عَنَّا كَ (سَوَائِي) فَمَدَحَتِي لَنْ تَبِيدَا

- ديوان أحمد العليف ، ورقة 29/أ . و(سوائي) في المصدر : سواي .

(4) ديوان أبي الطيب المتنبي 338/3 .

(5) المصدر نفسه 291/1 .

وعلى الرغم من أنه لم يقترب من شأوه ؛ فإن ذلك كان جيداً بالنسبة لعصره ، كما نلمح في بعض قصائده طرفاً من عمق أبي تمام دون فلسفته ، وبخاصة في حماسته ، بل إن من يقرأ قصائد العليف يجد أن من أبياتها ما يذكره ببيت للنابغة الذبياني ، ومنها ما يذكره بمعنى للحطيئة أو الفرزدق ، وربما انساق الذهن إلى قصيدة من قصائد أبي فراس ، وقد يلمح معنى قريباً من معنى أتى به ابن خفاجة ، حتى إن القصيدة الواحدة قد تتضمن فكراً لأكثر من شاعر ، ففي قوله – مثلاً – يستنجز الشريف بركات وعداً :

وَقَدْ تَرَكْتُ أَطِيفَالِي عَلَى مَضَضٍ مِنْ الْجَوَى مِثْلَ أَفْخَاخٍ وَأَوْكَارِ
حُمُرِ الْحَوَاصِلِ لَا عُشْبٌ وَلَا نَهْلٌ لَوْلَا الظَّعِينَةُ فِيهَا بَعْضُ مِذْرَارِ
لَا يَنْظُرُونَ إِلَى غَيْرِي بِرِيشِهِمْ مَعَ الْإِحَاطَةِ إِلَّا الْخَالِقَ الْبَارِي⁽¹⁾
نجد أنه نظر إلى الحطيئة في قوله مستعظفاً عمر بن الخطاب ع :
مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرَحٍ حُمُرِ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرُ
غَيَّبَتْ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ⁽²⁾

ويقول العليف في القصيدة نفسها :

وَأَمْنُنْ فَحَسْبُكَ مِنِّي أَنَّنِي رَجُلٌ لَمْ تَبَقْ إِلَّا رَوَايَاتِي وَأَخْبَارِي⁽³⁾

وهو من قول المتنبي :

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً أَنَّنِي رَجُلٌ لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرْنِي⁽⁴⁾

ويبدو أن العليف يقرأ لأولئك الشعراء ، حتى أصبح نتاجهم جزءاً من مخزونه الثقافي ، وظهر أثرهم أكثر من غيرهم ، ولكن لم نجد أن أحداً منهم يساوي أو يقترب من تأثير المتنبي الذي وجد فيه الشاعر مثلاً

- (1) ديوان أحمد العليف ، ورقة 30/أ .
- (2) ديوان الحطيئة ، ص 191 ، 192 . وانظر هامش الصفحتين ؛ ففيهما روايات أخرى لبعض المفردات .
- (3) ديوان أحمد العليف ، ورقة 29/ب .
- (4) ديوان أبي الطيب المتنبي 186/4 .

رائعاً ؛ لذلك حاكاه في قصائد عديدة ، وخاصة في مدائحه للشريف بركات بن محمد ، حيث كان شعر العفيف سجلاً لمدة حكمه التي شهدت وقائع عديدة ، وصفها الشاعر مشيداً بالانتصارات ، جاعلاً القوة المتمثلة في السيف هي العز . وقد كرر هذا المعنى في قصائده على نحو ما كان يصنع المتنبي الذي انتهى في آخر حياته إلى نتيجة تتمثل في أن المجد للسيف ، حيث قال :

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي الْمَجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ

والعفيف في مدائحه نزاع إلى القوة ، وخاصة في مقدماته الحماسية ، حيث يرى أن العز في سن الرمح وحد السيف ؛ إذ إن الملك لا يدوم إلا بالفتك بالخصوم والخارجين على الطاعة . يقول في إحدى قصائده :

فَلَا عِزَّ إِلَّا بِالْأَسِنَّةِ وَالظَّبَا يَدُومُ وَلَا مُلْكٌ يَدُومُ بِلَا فَتْكَ (2)

وهناك تلازم بين هذا المعنى وبين أسلوب القصر ، يسوقه الشاعر تأكيداً لهذه الفكرة التي ردها بنبرة عالية ونغمة حاسمة :

إِنَّمَا الْعِزُّ فِي صُدُورِ الْعَوَالِي وَالظَّبَا وَالْإِسْرَاجِ وَالْإِلْجَامِ (3)

وقد كرر في مدائحه طلب النوال ، مشيراً إلى همومه وقلة حيلته . والاستجداء سمة تغلب على أسلوبه في قصائده التي يتناول فيها هذه الأفكار التي قد تغطي على أبيات المدح ؛ فأحدى القصائد التي مدح بها الشريف بركات بن محمد بلغت (32 بيتاً) منها (16 بيتاً) تتحدث عن حاجته إلى الممدوح ، مما يوحي أنه أنشد القصيدة لهذه الغاية ، حيث شكا من الديون التي أثقلت كاهله ، مومناً إلى قلة ذات اليد ، واصفاً الحالة التي آل إليها ، إذ لا مال له ولا دار ؛ فهو يخاطب الممدوح راجياً أن ينظر إليه بعين العطف ، محتسباً الأجر عند الله ، حيث يقول :

يَا سَيِّدِي يَا أَبَا عَجَلَانَ دَعْوَةٌ مِّنْ أَضْحَى بِطَيْبَةٍ لَا مَالٌ وَلَا دَارُ

...إِبْنُ الْعَلِيفِ وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قِدَمِ يَا بَنَ الرَّسُولِ وَإِنَّ الْحُرَّ مِنْ ذِكَارِ

عَبْدٌ مُّقِيمٌ عَلَى الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَإِنْ شَطَّ الْمَزَارُ بِهِ وَالذَّارُ وَالْجَارُ

...يَشْكُو إِلَيْكَ دُيُونًا بَاتَ يَطْرُقُهُ مِنْهَا هُمُومٌ وَأَوْهَامٌ وَأَفْكَارُ

(1) المصدر السابق 159/4 .

(2) ديوان أحمد العفيف ، ورقة 12/أ .

(3) المصدر نفسه ، ورقة 13/ب .

قَدْ سَدَّدَتْ نَحْوَهُ الْأَيَّامُ أَسْهَمَهَا كَأَنَّهَا طَالِبٌ مِنْ عِنْدِهِ ثَارُ
فَانْظُرْ إِلَيَّ رَعَاكَ اللَّهُ نَظْرَةً مَنْ يُخَيِّ الْمَوَاتَ فَإِنَّ الْحَرَ نَظَارُ
...فِي جُودِ كَفِّكَ مَا يَغْنَى الْعَدِيمُ بِهِ وَفِي جَنَابِكَ لِلْعَافِينَ أَمْطَارُ
فَافْعَلْ جَزَاكَ اللَّهُ فِعْلَ مُحْتَسِبٍ فَأَنْتَ أَهْلٌ لِمَا يَرْجُو وَيَخْتَارُ (1)

وتكرار المعنى ظاهرة في شعر العفيف ، حيث يعتمد إلى إعادة المعنى في بعض المواقف المتشابهة ، من ذلك قوله من قصيدة مدح بها الشريف بركات بن محمد :

فَإِنْ كَانَ حِلْمُ الْمَرْءِ يُغْرِئُ عَدُوَّهُ فَخَيْرٌ مِنَ الْحِلْمِ الْجَهَالَةُ (2)

وقوله من قصيدة أخرى في الممدوح نفسه :

وَالْحِلْمُ إِنْ كَانَ عَوْنًا لِلْعَدُوِّ عَلَى نَفْسِ الْفَتَى عَزَّ مَنْ بِالْجَهْلِ يَرْتَسِمُ (3)

وهو من الشعراء المتكسبين بشعرهم ، قد يعيد المعنى لأكثر من ممدوح ، يقول في مديح قاضي العسكر ببلاد الروم عبدالرحمن بن المؤيد :

لَكَ الْعِزَّةُ الْقَعَسَاءُ وَالرُّتْبَةُ الَّتِي إِلَيْكَ تَنَاهَى مَجْدُهَا وَاحْتِشَامُهَا (4)

ويقول في مديحه السلطان بايزيد :

لَكَ الْعِزَّةُ الْقَعَسَاءُ وَالْمَنْصِبُ قَوَاعِدُهُ تَعْلُو عَلَى مَنْكِبِ النَّسْرِ (5)

وكان العفيف قد صنف تاريخاً للسلطان بايزيد سماه (الدر المنظوم في مناقب بايزيد ملك الروم) وامتدحه بقصيدة منها البيت السابق "فأمر للعفيف بعد وصولها إليه وفرحه بها بألف دينار ذهباً جائزة ، ورتب له في دفتر الصر لكل عام مئة دينار ذهباً ، فصارت بعده لأولاده" (6) . يقول العفيف من هذه القصيدة :

تَحَنَّنْ إِلَى جَدِّوَاكَ نَفْسٌ كَسِيرَةٌ تُعَلِّلُهَا آمَالُهَا فِيكَ بِالْخَيْرِ

(1) المصدر السابق ، ورقة 24/ب ، 25/أ .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 16/أ .

(3) المصدر نفسه ، ورقة 22/أ .

(4) المصدر نفسه ، ورقة 60/أ .

(5) المصدر نفسه ، ورقة 62/ب .

(6) سمط النجوم العوالي ، العصامي 69/4 .

لَعَلَّ نَوَالاً مِنْكَ يَجْبُرُ صَدْعَهَا وَيُعْتَقَهَا مِنْ رِبْقَةِ الْعُسْرِ بِالْيُسْرِ
عَزِيزٌ عَلَيْهَا الْمَدْحُ فِي غَيْرِ ذَاتِكُمْ وَمَنْ وَرَدَ الْبَحْرَ اسْتَقَامَ عَنْ
فَقَابِلٍ رَعَاكَ اللَّهُ شُكْرِي بِمِثْلِهِ فَأَنْتَ لِلْمَغْرُوفِ مِنْ أَكْرَمِ
وأثر المتنبي واضح في البيت الثالث ، حينما قال مادحاً كافور الإخشيدي :

قَوَاصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكُ غَيْرِهِ وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقَلَّ
بل إن هذه الفكرة التي تحملها الأبيات قد قيلت في مدائحه للشريف بركات . وما دام مقصده العطاء ؛ فإنه لا يقيم لهذا الأمر وزناً ، وهو بذلك على نهج المتنبي الذي قال البيت السابق في كافور ، فلما سمعه سيف الدولة قال : "له الويل جعلني ساقية وجعل الأسود بحراً" (3) .
وما دام هدفه العطاء ؛ فإنه لا يأبه بهجاء الممدوح حينما يخيب أمله ، كما فعل المتنبي مع كافور الإخشيدي . يقول العليّ عن أحد ممدوحيه الذين أخلفوا ظنه :

نَظَّمْتُ لَهُ مِنْ دُرِّ لَفْظِي قِلَادَةً تَشْرِفُهُ بَعْدَ الْمَمَاتِ وَفِي الْمَحْيَا
وَالْبَسْتُهُ تَاجَ الْمَدِيحِ مُؤَمَّلاً نَدَاهُ فَلَا سَقِيّاً لِمَدْحِي وَلَا رَعِيّاً
وَأَمَلْتُ مِنْ جَدْوَى مَكَارِمِهِ الْغَنَى فَأَخْطَأْتُ فِيهَا الظَّنَّ وَالْوَهْمَ
فَكُنْتُ كَمَنْ يَرْجُو مِيَاهاً مِنْ وَكُنْتُ كَمَنْ يَمْشِي عَلَى خُطَّةٍ
نُهِضْتُ لَهُ سَعِيّاً أَرْجِي نَوَالَهُ فَأَخْلَفَ ظَنِّي فِيهِ بَلْ خَيَّبَ السَّعِيّاً
فَرَحْتُ بِهِ صَفَرَ الْيَدَيْنِ كَأَنَّمَا أَحَاوِلُ مَالاً دُونَهُ غَايَةَ قَصِيّاً (4)

ثم سلقه بلسان حاد ، وأظهر ندمه على مديحه بأبيات ، منها :
فِيَا ضَيْعَةَ الْمَدْحِ الَّذِي سَارَ ذِكْرُهُ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ غِيْظِي بِهِ أَوْثَرُ
نَدِمْتُ لَعَمْرُ اللَّهِ فِي مَدْحَتِي لَهُ كَمَا نَدِمَ (الْكُسَعِيُّ) إِذْ قَدَّرَ الرَّمْيَا

(1) ديوان أحمد العليّ ، ورقة 63/أ .

(2) ديوان أبي الطيب المتنبي 287/4 .

(3) المصدر نفسه 287/4 .

(4) ديوان أحمد العليّ ، ورقة 74/أ .

فَلَوْ كَانَ مَدْحِي فِي وَضِيعٍ لَجَادَ عَلَى خَشْيَةٍ فِيهِ وَلَيْسَتْ لَهُ دُنْيَا

والواضح من خلال متابعة مدائحه أنه سلك سبيل من قبله في تناول بعض الصور الحسية في تشبيه الممدوح ، غير أنه بالغ في ذلك حتى أصبح ممدوحه يفوق البحر عطاءً والبدر ضياءً والغيث جوداً والسيف مضاءً ، سالكاً في ذلك سبيل المدح بما يشبه الذم ؛ نجد ذلك في قوله في مدح السلطان بايزيد :

هُوَ الْبَحْرُ إِلَّا أَنَّهُ دَائِمُ الْعَطَا وَذَلِكَ لَا يَخْلُو مِنَ الْمَدِّ وَالْجَزْرِ

هُوَ الْبَدْرُ إِلَّا أَنَّهُ كَامِلُ الضِّيَا وَذَلِكَ حَلِيفُ النِّقْصِ فِي مُعْظَمِ

هُوَ الْغَيْثُ إِلَّا أَنَّ لِلْغَيْثِ مِسْكَةً وَذَا لَا يَزَالُ الدَّهْرُ يَنْهَلُ بِالْقَطْرِ

هُوَ السَّيْفُ إِلَّا أَنَّ لِلْسَّيْفِ نَبَوَّةً وَقَلًّا وَذَا مَاضِي الْعَزِيمَةِ فِي

والشاعر في هذه الأبيات ليس بعيداً عن ابن المقرب العيوني في مدحه ابن عمه الأمير محمد بن أبي الحسين حينما قال :

هُوَ الْبَحْرُ لَكِنْ مَدُّهُ غَيْرُ جَارٍ هُوَ الْبَدْرُ إِلَّا أَنَّهُ الدَّهْرُ كَامِلٌ

هُوَ الشَّمْسُ فِي جَوْ السَّمَاءِ عَلَى كُلِّ مَنْ فَوْقَ الْبَسِيطَةِ شَامِلٌ

هُوَ الْمَزْنُ إِلَّا أَنَّهُ فَوْقَ سَابِحٍ وَفِي كُلِّ أَرْضٍ مِنْهُ سَحٌّ وَوَابِلٌ

هُوَ اللَّيْثُ إِلَّا أَنَّ عَرِيسَةَ الْقَنَا وَصِيدَاتِهِ الصَّيْدُ الْمُلُوكُ الْعَبَاهِلُ

هُوَ النَّصْلُ لَكِنْ لَا يَحْسُ غَرَارَهُ بَنَانٌ وَبِالْأَيْدِي تَحَسُّ الْمَنَاصِلُ

وتبدو ذاتية العليف في بعض قصائد المديح حينما يثني على شعره ، ملتفتاً إلى نفسه . وهو وإن كان متأثراً بالمتنبي في ذلك ، فإنه لم يبلغ

(1) المصدر السابق ، ورقة 74/ب . وقد جاء عجز البيت الثاني في المصدر هكذا : (كما ندم الكعسي إذا قدر الرميا) . والشاعر يعني الكُسَعِي الذي يضرب به المثل في الندامة ، وهو رجل رام ، رمى بعدما أسدف الليل عيراً ، فأصابه ، وظن أنه أخطأ ، فكسر قوسه ، وقيل : وقطع إصبعه ، ثم ندم من الغد حين نظر إلى العير مقتولاً وسهمه فيه ؛ فصار مثلاً لكل نادم على فعل يفعله ، وإياه عنى الفرزدق بقوله :
نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسَعِيِّ لَمَّا غَدَتُ مِنِّْي مُطْلَقَةً نَوَارُ

- لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (كسع) .

(2) سمط النجوم العوالي ، العصامي 69/4 .

(3) ديوان ابن المقرب ، ص 350 .

مبلغه في تضخم الشعور بالذات ؛ فالمتنبي يجعل القصيدة في بعض الأحيان قسمة بينه وبين ممدوحه ، معبراً من خلال ذلك عن آماله وطموحاته الكبيرة ، أما العفيف فإن غاية ما يرمي إليه كسب رضا الممدوح وإسكات المنافسين من الشعراء ؛ ليضمن عدم مقاسمتهم إياه العطاء . يقول مخاطباً الشريف بركات بن محمد :

وَدُونُكَ مِنِّي نَظْمٌ دُرٌّ يَزِينُهُ حَلَاكٌ وَيَبْقَى ذِكْرُهُ وَيَطُولُ
عَرُوساً تَهْدَاهَا الرُّوَاةُ عَلَى وَتَشِدُّهَا الْأَيَّامُ كَيْفَ تَحُولُ
تُفَوِّقُ مَقَالَ ابْنِ الْحُسَيْنِ لِسَيْفِهِ (لِيَالِي بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ)
وَدَعْ عَنْكَ شِعْراً مِنْ أَنَاسٍ كَانَتْهَا جَبَاجِبُ رِيحِ جَوْقَةٍ وَطَبُولُ
يَنْوُطُونَ بِي ذاماً وَإِنِّي مُهَذَّبٌ عَلَى الْفَضْلِ مَجْبُولُ الطَّبَاعِ نَبِيلُ
إِذَا سَمِعُوا شِعْرِي يَرْوُقُ وَيَصْغُرُ مَا قَالُوهُ حَيْثُ أَقُولُ (1)

ولم يجنح العفيف إلى الغموض في شعره ، بل جاءت معانيه واضحة لا تستغل على ذهن متلقيها ، ومنها ما يمكن أن يوسم بالتطويل (الزيادة من غير فائدة) ، كما أن الشاعر في عدد منها ذو قدرة على تكثيف المعنى بأقل صورة (2) ، وربما جاء بالمعنى مكثفاً في بيت واحد ، فيصير حكمة تدل على تجربة عميقة ، كقوله :

لَا تَحْمِلِ الضَّيْمَ نَفْسُ الْحَرِّ لَوْ مِنْهَا اللَّيَالِي بِأَمْرِ غَيْرٍ مُحْتَمَلِ
وقوله : (3)

يَهُونُ الْفَتَى حَيًّا وَإِنْ جَلَّ قَدْرُهُ وَيَعْظُمُ إِذْ قَامَتْ عَلَيْهِ النَّوَادِبُ (4)

والسمو سمة غالبية على أفكاره ، وقد يؤخذ عليه — في المديح النبوي (5) — ميله إلى نهج المتصوفة الذين كانوا يتشفعون بالرسول ع بعد موته ، ويشكون إليه همومهم ، طالبين منه دفع الكربات . بل إنه قد يقسم بالرسول ع على نحو قوله :

- (1) ديوان أحمد العفيف ، ورقة 35/أ .
- (2) انظر : الحديث عن تكثيف المعنى في (الفصل الرابع) .
- (3) ديوان أحمد العفيف ، ورقة 35/ب .
- (4) المصدر نفسه ، ورقة 64/أ . و(إذ) في عجز البيت في المصدر (إذا) .

- (5) انظر : المصدر السابق ، ورقة 7/أ ، 7/ب ، 8/أ ، 83/ب .

أَقْسِمُ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَأَحْمَدِ الْمُخْتَارِ مِنْ كُلِّ آلٍ (1)

وهذا من القسم بغير الله ، وهو من الشرك به - جل وعلا - حتى لو كان المقسم به أفضل الخلق - عليه الصلاة والسلام - .

والعفيف ممن صَوَّروا في غزلهم ساعات اللقاء بمن يعشقون بأسلوب مكشوف ، يذكِّرنا ببعض أصحاب الغزل الصريح في الأدب العربي ، كابن أبي ربيعة وأبي نواس ومسلم بن الوليد ، كما أنه أقذع في بعض هجائه . ولكن مثل هذه الأفكار قليلة في شعره .

وإذا نظرنا في بناء القصيدة عنده ؛ نجد أنه افتتح قصائد المديح بالغزل والشكوى والحماسة المصحوبة بالحكمة ، ولم يعمد إلى المقدمات في غير المدح ؛ لأنها عنده جزء من القصيدة المدحية ، فالعفيف غالباً ما يفصح عن حالته وينبئك عن ملامح قصيدته من خلال المقدمة ، فهو شاكٍ دائماً ، لم ينل أربه ، وقد كشفت مقدماته الغزلية عن نفسيته التي قلَّ أن نجدها فرحة مستبشرة ؛ فمحبوبته دائماً ما تعلله بالوصل والهجر دونه ، وتطمعه بالوعد لكنها لا تفي ، وهكذا هو في دنياه لا يقنع ، حيث شغل نفسه كما فعل المتنبي حين شغله طموحه عن صفو العيش .

وكانت مقدمات العفيف الحماسية مصاحبة للمدائح في أثناء الحروب وعقب الانتصارات ، وهو أكثر شعراء مكة والمدينة تناولاً للمقدمة الحماسية (2) ، وتدور مثل هذه المقدمات حول تمجيد الشجاعة والإقدام ، والحث على الصدق في العزم ، والتغني بالمفاخر والأمجاد .

وقد اتضح في أثناء الحديث عن بناء القصيدة لدى شعراء مكة والمدينة أنه ممن يحسنون التخلّص إلى الغرض (3) .

أما مطالع قصائده فإنها شاهد على مقدرته على حسن الابتداء ، حيث إنها كانت ملائمة للأغراض المسوقة لها ، كما كانت تمتاز بحسن اختيار المفردات وجودة سبك العبارات . والعفيف يتفوق في مطالعه على سائر شعراء مكة والمدينة ؛ حيث نجد في كثير من مطالعه روح أبي تمام والمتنبي في مطالعهما التي أصبح أكثرها حكماً تردد وأمثالاً يستشهد بها (4) . وقد جاءت بعض مطالعه قريبة من مطالع بعض الشعراء الكبار ،

(1) المصدر نفسه ، ورقة 82/أ .

(2) انظر : الحديث عن بناء القصيدة (المقدمة) في الفصل الرابع من هذه الدراسة .

(3) في الحديث عن (المقدمة) في الفصل الرابع من الشواهد ما يغني عن التكرار .

(4) انظر : الحديث عن (المطلع) في الفصل الرابع من هذه الدراسة .

كقوله — مثلاً — في رثاء شيخه العلامة شمس الدين السخاوي :
تَعَزَّ فَإِنَّ الْأَجَرَ لِلصَّبْرِ صَاحِبٌ وَسَلِّمْ إِذَا ضَاقَتْ (عَلَيْكَ)

إذ إنه يذكر بقول أبي فراس الحمداني في مطلع إحدى قصائده :
أَبَيْتُ كَأَنِّي لِلصَّبَابَةِ صَاحِبٌ وَلِلنَّوْمِ مُذْ بَانَ الْخَلِيطُ مُجَابِبٌ

ودأب العليّ على ختام قصائده بالصلاة على النبي ع ، كما أنه ختم قليلاً منها بالدعاء للممدوح أو المرثي (3) .

وكثر القصائد القصيرة في ديوانه ؛ حيث بلغت (37 قصيدة) ، أما المتوسطة فعدتها (27 قصيدة) ، وهي تتساوى مع القصائد الطويلة البالغة أيضاً (27 قصيدة) ، هذا عدا المقطوعات العديدة والنتف .

ويتميز الشاعر بطول النفس ؛ حيث إن عدداً من قصائده الطويلة تتجاوز الثمانين بيتاً (83 بيتاً ، 85 بيتاً ، 93 بيتاً ، 102 بيت ، 110 بيت ، 114 بيت ، 136 بيت) . وقد بلغت أطول قصائده (148 بيت) (4) .

والطول عنده مصاحب لكثير من قصائد المدح . وغني عن البيان أن الطول وحده ليس مقياس تميز ، ما لم يكن ثمة جودة في بناء القصيدة . ولو نظرنا إلى كثير من قصائد العليّ ؛ لوجدنا أنها من القصائد الجيدة في ميزان عصرها ، كبعض مدائحه وخاصة مدائحه للشريف بركات وما كان يصاحبها من حماسة كانت تلهب عاطفة الممدوح وتشد من عزيمته (5) . وكان الشاعر في تلك المواقف صادقاً في إحساسه ، متقناً صنعته .

واتضحت حرارة العاطفة في شكواه وحنينه وفي قصيدة الرثاء ، كما تبين توافر الوحدة الموضوعية في قصائده عدا بعض مدائحه التي كانت تحوي مقدمات أفقدتها وحدة الموضوع ، وإن كانت لا تخلو من وحدة الجو النفسي الذي أشاعه الشاعر (6) .

(1) ديوان أحمد العليّ ، ورقة 64/أ .

(2) ديوان أبي فراس ، ص 35 .

(3) انظر: ديوان أحمد العليّ ، ورقة : 13/ب ، 15/ب ، 18/ب ، 19/ب ، 22/أ ، 23/أ ، 24/ب ، 25/أ ، 26/ب ، 28/أ ، 29/أ ، 30/أ ، 30/ب ، 32/ب ، 35/أ ، 35/ب ، 37/ب ، 39/أ ، 43/ب ، 48/أ ، 48/ب ، 49/أ ، 58/ب ، 73/أ ، 81/ب ، 82/ب .

(4) انظر : سمط النجوم العوالي ، العصامي 325-319/4 .

(5) انظر : الحديث عن هذا الغرض في (الفصل الثالث من هذه الدراسة) .

(6) انظر : الحديث عن (المقدمة والتخلص) في مبحث بناء القصيدة في (الفصل الرابع من هذه الدراسة) .

ولغة العليّفة سهلة مأنوسة ؛ فألفاظه بعيدة عن الغرابة المستكرهة ، ملائمة للمعاني المسوقة لها ، كما أن تراكيبه قد بنيت وفق ترتيب المعاني في الذهن ؛ فكان لذلك أثره في جلاء المعنى .

وهو يلبس لكل حالة لبوسها ؛ ففي حالات الحرب ووصف الجيوش ، نجد قصائده تعج بالألفاظ الجزلة الموحية بالقوة ، كما نجد ذلك في مدائحه للأمراء والسلاطين الذين كانت لهم القيادة في تلك الوقائع ، وكذلك في فخره ، وتتضح الجزالة في حماسته ؛ حيث تأتي الألفاظ موحية ، تفرع الأذن ، يصبها في تراكيب فخمة شديدة الأسر ، يشدّ بها الهمم على نحو قوله :

أَنْتُمْ بَنُو الْحَرْبِ تَدْعُوكُمْ وَتَنْهَضُكُمْ أَحْسَابُكُمْ لَا قِتَحَامَ الْحَادِثِ الْجَلَلِ
شُدُّوا إِلَى حَوْمَةِ الْهَيْجَا مَازَرَكُمْ وَشَمِّرُوا لِطِلَابِ النَّارِ فِي عَجَلِ
إِنْ لَمْ تُدِيرُوا رَحَى الْهَيْجَاءِ فَمَا يُفِيدُ صَهِيلُ الْخَيْلِ فِي الشَّكْلِ
عُيُشُوا عَلَى الْعِزِّ أَوْ مُوتُوا عَلَى مَوْتِ الْكِرَامِ وَخَلُّوا الدَّارَ عَنْ حَوْلِ (1)

ولا يخفى ما للأساليب الإنشائية من أثر في إشاعة هذا الجو من الجزالة في الأبيات .

وأسلوبه بصفة عامة يميل إلى الجزالة ؛ لكثرة الأغراض التي تتطلب ذلك ، على أننا نجد الأسلوب الرقيق في غزله ، وراثته ، وحنينه وشكواه ، وفي شعره الديني ، ومنه قوله باكياً على انقضاء شهر رمضان الكريم :

نَبِّئِكَ يَا شَهْرَ الصَّيَامِ بِأَدْمَعٍ تَجْرِي فَتَحْكِي فِي الْخُدُودِ سَيُولَا
أَسْفًا عَلَى أَمْسِ الَّذِي عَوَدْتَنَا وَصَنِّعَ فِعْلٍ لَا يَزَالُ جَمِيلَا
يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ نَعُودُ بِمِثْلِهِ مِنْ قَابِلٍ وَنُحْصِلَ الْمَأْمُولَا
طُوبَى لِعَبْدٍ كَانَ فِيهِ قِيَامُهُ حَسَنًا وَكَانَ صِيَامُهُ مَقْبُولَا
... لَهْفِي عَلَى أَيَّامِهِ الْغُرِّ الَّتِي كَانَتْ إِلَى طَرُقِ النَّجَاحِ دَلِيلَا

=

(1) سمط النجوم العوالي ، العصامي 324/4 .

وَعَلَى لِيَالِيهِ الْحَسَانِ لَوَائِهَا دَامَتْ عَلَى حَالَتِهِنَّ قَلِيلًا (1)

وربما لاحظ متلقي شعر العليّيف بعض الألفاظ التي لا تلائم الشعر ، والميل إلى النثرية في التعبير في قليل من نتاجه ، منه قوله عن ممدوحه :

خُذُوا مِنْ ثَنَائِي زُبْدَةَ الْمَدْحِ سِوَاهُ فَمَا يَخْفَاكُمْ الْمَخْضُ
فلفظة (زبدة) لفظة غير شاعرية ، لا تناسب المقام ، كما أن أسلوب
النفي (فما يخفاكم...) في الشطر الثاني أقرب إلى لغة الحياة اليومية منه
إلى الشعر .

ومثل ذلك قوله عن ممدوحه (الشريف أبي نمي) :
لَمْ تَرَ الْعَيُّونَ مِثْلَهُ وَهُوَ أَيْضًا مَا رَأَى مِثْلَ نَفْسِهِ مَوْجُودًا
...لَيْسَ قَصْدِي سِوَى مَدِيحِكَ لَكِنْ فَاقِدُ الْمَاءِ قَدْ يَوْمُ الصَّعِيدَا (3)

وقد تهبط لغة البيت حينما يأتي التكرار فاقداً الإيحاء ، كقوله :
أَنْتَ النَّدَا وَابْنُ النَّدَا وَأَبُو النَّدَا وَعَمُّ النَّدَا خَالُ النَّدَا حِينَ يُنْسَبُ (4)

ولا يخلو هجاؤه من بعض الكلمات التي يكره اللسان النطق بها ، وهي ألفاظ مبتذلة تبعد النص الشعري عن مستواه ، حتى لو جاءت في سياق الهجاء ، فالعليّيف في بعض أهاجيه أقحم ألفاظاً مستكرهة ، مثل أير العير ، الفرّج ، البول ، وغيرها من الألفاظ القبيحة (5) التي يترفع عنها الناس حتى في أحاديثهم اليومية .

والصورة الشعرية محور مهم من محاور النص في شعر العليّيف ، وقد تشكلت صورته من الفنون البيانية المعروفة : التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل والمجاز العقلي ، كما نجد لديه بعض الصور الذهنية ؛ حيث يرسم بالكلمات ، فيؤثر بالمتلقي على الرغم من أنه لم يتناول أي فن من الفنون البلاغية السابقة (6) .

وصوره تقليدية ، مصادرها الغالبة من الطبيعة الصامتة أو

(1) ديوان أحمد العليّيف ، ورقة 55/ب ، 56/أ .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 50/ب .

(3) المصدر نفسه ، ورقة 28/ب ، 29/أ .

(4) المصدر السابق ، ورقة 45/ب .

(5) انظر : المصدر نفسه ، ورقة 75/ب ، 80/ب ، 85/أ .

(6) انظر : دراسة الصورة في (الفصل الرابع) .

المتحركة ، حيث التشبيه بالشمس والبدر والكوكب والليث والغزال ...
إلخ ؛ فالممدوح كالأسد في الشجاعة وكالبحر في العطاء ، وفي الغزل
نجد الحسناء ذات عينين كعيني الريم وجيد كجيد الطبي ، ينوع في
الأسماء والصورة واحدة ؛ إذ إن الممدوح مرة كالأسد وثانية كالغضنفر
وثالثة كالليث ، كما أنه في الكرم كالبحر والغيث والمنهل العذب ... إلخ .
والشجاعة والكرم صفتان ملازمتان لممدوحيه من الأمراء
والسلاطين ، نجد ذلك في مثل قوله في مديح الشريف بركات بن محمد :

أَوْصَافُ مَجْدِكَ فِي بَأْسٍ وَفِي كَرَمٍ تَصَرَّفْتُ بَيْنَ طَعْمِ الصَّابِ وَالْعَسَلِ
كَالْغَيْثِ وَاللَّيْثِ فِي حَالِي نَدَى تُرْجَى وَتُخْشَى لِرِزْقٍ أَوْ عَلَى أَجَلٍ
تُرَوَّى السُّيُوفُ دِمَاءُ النَّاكِثِينَ كَمَا تُقَرَّى الضُّيُوفُ سَدِيفَ (الْكُومِ)

مِثْلُ الْغَضَنْفَرِ فِي الْهَيْجَاءِ يَوْمَ وَفِي السَّمَاحَةِ مِثْلُ الْعَارِضِ⁽¹⁾
ولا يخفى ما للطباق في هذه الأبيات من أثر في جمال الصورة التي
رسمها الشاعر لممدوحه ، فالطباق هنا ليس ترفاً لفظياً أو محسناً بديعياً
متكلفاً كما هو في كثير من شعر ذلك العصر ، بل دلالة على عمق
الصورة وجمالها ؛ فالشاعر أراد استيعاب صفات الممدوح ، فوظف هذا
الفن البديعي ، حيث صور شدة بأسه ومبلغ كرمه متخذاً من التضاد
وسيلة فنية لاستجلاء المعنى وتضخيمه ، ولذلك أثره في نقل فكرته
وتمكينها في الأذهان .

والطباق أكثر الفنون البديعية وروداً في شعره . ولم يكن العليّف
مُسرفاً في استخدام البديع ؛ لأنه ليس هدفاً ، بل إن المعنى – في الأغلب
– هو الذي يطلبه .

واتكأ العليّف على ثقافته ، متخذاً من الرمز وسيلة فنية لتنويع صورته
ومن الصور الرمزية إشارته إلى الليلة الثقيلة التي بات فيها النابغة
وصورها في شعره ، حيث أوما إليها العليّف أكثر من مرة قائلاً : "أبيت
بليل النابغي ... " (2) ، و"أبيت به في ليلة نابغة ... " (3) ، وذلك تلميح
إلى قول النابغة الذبياني :

- (1) ديوان أحمد العليّف ، ورقة 36/ب . ولفظة (الكوم) في عجز البيت الثالث في المصدر
(الكرم) ، والمثبت عن سمط النجوم العوالي 321/4 .
- (2) ديوان أحمد العليّف ، ورقة 32/أ .
- (3) المصدر نفسه ، ورقة 50/أ .

فَبِتْ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَائِلَةً ⁽¹⁾ مِنَ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السَّمَّ نَاقِعٌ
وقد يومئ إلى قصة مشهورة يُضرب بصاحبها المثل عند العرب
كقوله :

نَدِمْتُ لَعَمْرُ اللَّهِ فِي مَدْحَتِي لَهُ كَمَا نَدِمَ (الْكُسَعِيُّ) إِذْ قَدَّرَ ⁽²⁾
والْكُسَعِيُّ رجل يضرب به المثل في الندامة ، وظف الشاعر حكايته
لإيضاح ما وصل إليه من ندم على مديحه .
وعلى الرغم من أن العليف قد أجاد في أداء صورته ، ومن كونه أحد
أبرز شعراء مكة والمدينة ومن أكثرهم جمالاً في التصوير ⁽³⁾ ؛ فإننا قد
نجد في شعره بعض الصور التي لا يقبلها الذوق السليم ؛ لما تحمله من
إيحاءات غير جيدة ، كقوله – مثلاً – متحدثاً عن إقامته في جدة :
أَقَمْتُ فِيكَ عَلَى رُغْمِي بِمَضِيعَةٍ كَأَنِّي مُصْحَفٌ فِي دَارِ خَمَارٍ ⁽⁴⁾

حيث أنكره أهل تلك الدار ولم يلتفتوا إليه ؛ فشبه حالته وقد أعرضوا
عنه – وهو ذو الشرف والكرامة – بالمصحف في دار الخمار ؛
الذي يكون عادة معرضاً عن الحق ، غير مدرك القدر العظيم والمنزلة
الشريفة للمصحف .

وللشاعر مندوحة عن إقحام المصحف الذي يضم كلام الله – جل
وعلا – في مثل هذا التشبيه .

وحيثما ننظر في شعره ؛ نجد شيوع الأوزان الطويلة الملائمة لنفسه
الطويل في مدائحه الكثيرة ، ووصفه الحروب ، وورثائه ، وغيرها من
الأغراض التي جاءت عبر بحور تامة ، رصينة ، ذات إيقاع بطيء ،
يتأتى من خلاله نقل التجربة .

فقد استأثر البحر الطويل بـ 50% من نتاجه الشعري ، يليه البسيط
فالكامل فالخفيف بنسب متقاربة ، ثم السريع والوافر ، ثم تأتي بنسب قليلة
تكاد تكون متساوية أوزان الرمل والمتقارب ومجزوء الرمل ومجزوء
الكامل ومجزوء الرجز .

(1) ديوان النابغة الذبياني ، ص 54 .

(2) ديوان أحمد العليف ، ورقة 74/ب .

(3) انظر : نماذج من تصويره في مبحث الأخيلا والصور في (الفصل الرابع من هذا
البحث) .

(4) ديوان أحمد العليف ، ورقة 29/ب .

وواضح من خلال النظر في الأوزان التي نظم عليها أنه جارى الشعراء القدامى في كثرة النظم على الأوزان الطويلة (كثيرة المقاطع) كالطويل والبسيط والكامل ، وبخاصة الطويل الذي احتوى نصف شعره ، وهو بحر يستوعب كثيراً من المعاني ، ويصلح للمديح الذي أكثر منه العليّف حتى أخذ حيزاً كبيراً من ديوانه "ومما يدلّك على سعة الطويل أنه تقبل من الشعر ضرباً عدة" (1) .

ويبدو أن لمحفوظه من الشعر القديم وتأثره بكثير من نماذجه الأثر الكبير في مجيء أغلب قصائده على وزن الطويل ، ذلك أنه "جاء ما يقرب من ثلث الشعر العربي القديم من هذا الوزن" (2) . والعلّيف – كما سبق – لم يعتد النظم على الأوزان القصيرة إلا في حالات قليلة جداً تستدعيها الفكرة التي تجول في ذهنه ويرغب التغني بها ، كقوله – مثلاً –

لَوْ دَعَتْنِي ذَاتُ حُسْنٍ لَوْصَالٍ وَاجْتِمَاعٍ
أَنْفَتُ مِنْ ذَاكَ نَفْسِي لِحَيَاءٍ فِي طَبَاعِي (3)

إن لمجزوء الرمل الأثر الكبير في الترجم المصاحب لإنشاد البيتين ؛ فتفعيلاته ذات نغمة خفيفة تستريح إليها الأذان . هذا من حيث الأوزان ، أما القوافي فإن المقيدة منها نادرة في شعره ؛ إذ دأب على الإطلاق في القافية ، وهو ما يتناسب مع تجاربه التي كان يصدق بها .

وقد بنى قوافيه على أغلب الحروف الهجائية . وحروف الروي الواردة في شعره – مرتبة حسب كثرة ورودها - : ر ، ل ، م ، ب ، د ، ن ، ع ، ح ، ف ، س ، ق ، ء ، ج ، ك ، ض ، ث ، ص ، ط ، و ، ي ، هـ .

ومن خلال هذا الترتيب للحروف التي اتخذها رويّاً لقصائده ، يتضح أنه أيضاً سار على نهج الشعراء العرب القدامى في نسبة شيوعها ؛ حيث إن "وقوع الراء رويّاً كثير شائع في الشعر العربي ، في حين أن

(1) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، عبدالله الطيب 443/1 .

(2) موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس ، ص 69 .

(3) ديوان أحمد العليّف ، ورقة 86/أ .

وقوع الطاء قليل أو نادر" (1) .

وبالنظر في شعره ، اتضح أن حرف الراء قد جاء رويًا إحدى وعشرين مرة ، أما الطاء فلم يرد إلا مرتين ، كما أن اللام ورد ثمان عشرة مرة ، والميم ثلاث عشرة مرة ، والباء إحدى عشرة مرة ، والنون عشر مرات ، والدال كذلك عشر مرات . وهذه من الحروف التي يكثر ورودها رويًا في الشعر العربي (2) . وهناك حروف لم ترد عند العليّف إلا مرتين مثل : التاء والصاد والطاء والواو . وهي حروف قليلة الورد في الشعر العربي ، كما أن الحروف التي أهملها الشاعر وهي : التاء والخاء والذال والزاي ، والشين والطاء والغين - نادرة المجيء في الشعر العربي ، إلا التاء ؛ حيث إنها من الحروف التي ترد ولكنها قليلة (3) . والحروف التي أهملها سوى التاء من القوافي النفر والقوافي الحوش التي ركبها الشعراء ، فلم يجيئوا إلا بالغث (4) . وقد فطن العليّف إلى ذلك ؛ فتجنبها بذوقه المتأثر بما عند الشعراء السابقين .

وقصائده لا تخلو من بعض عيوب القافية ، كالإيطاء في مثل قوله في مديح السلطان بايزيد:

وَإِنِّي لَصَوَانٌ لِدُرِّ قَلَائِدِي عَنِ الْمَدْحِ إِلَّا فِيكَ يَا مَلِكَ الْعَصْرِ
فَقَابِلُ رِعَاكَ اللَّهُ شُكْرِي بِمِثْلِهِ فَإِنَّكَ لِلْمَعْرُوفِ مِنْ أَكْرَمِ الذَّخْرِ
وَحَقِّقْ رَجَائِي فِيكَ يَا خَيْرَ مَالِكٍ وَكُنْ عِنْدَ ظَنِّي فِيكَ يَا مَلِكَ

حيث أعاد كلمة القافية بلفظها ومعناها في بيتين لم يفصل بينهما غير بيت واحد .

ومن عيوب القافية التي نجدها في شعره الإقواء في مثل قوله :
إِذَا كُنْتُ لَا تَجْزِي عَلَى الْمَدْحِ بِالْعَطَا وَلَا تَقْتَنِي حُبُّ الْعُلَا وَالْفَضَائِلِ
فَمَالِكُ وَالْعُلْيَا تَسُومُ جَنَابَهَا فَدَعَهَا لِمَنْ تُرْجَى لَدَيْهِ
فلفظة (الفضائل) في البيت الأول مجرورة ، ولفظة (الفواضل) في

(1) موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس ، ص 275 .

(2) المرجع نفسه ، ص 275 .

(3) المرجع السابق ، ص 275 .

(4) المرشد ، عبدالله الطيب 79/1 .

(5) ديوان أحمد العليّف ، ورقة 63/أ .

(6) المصدر نفسه ، ورقة 72/أ .

البيت الثاني مرفوعة .

وعلى الرغم من ذلك كله ؛ فإن العليّف يُعدُّ من كبار الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، شاع شعره – آنذاك – ودونته كتب التاريخ والتراجم وبعض المؤلفات الأخرى . وقد أثر شعره فيمن جاء بعده من الشعراء ، حتى إن ثمة من حاول أن يسطو على أفكاره ، كالشاعر عبدالجواد المنوفي – أحد شعراء مكة في القرن الحادي عشر الهجري – حيث مدح الشريف زيد بن محسن بقصيدة يهنئه فيها بظفره بأهل غامد في جنوبي الحجاز (1) ، بدأها قائلاً :

العِزُّ تَحْتَ ظِلَالِ السُّمْرِ وَالْقُضْبِ يَوْمَ الْوَعَى وَمَسَاعِي الْبَيْضِ لَمْ

وهي مناسبة مشابهة لمناسبة قصيدة العليّف التي مدح بها الشريف بركات بن محمد مهنئاً إياه بالنصر على خصومه بني إبراهيم ، تلك القصيدة التي بدأها بقوله :

العِزُّ تَحْتَ ظِلَالِ الْبَيْضِ وَالْأَسْلِ يَوْمَ الطِّعَانِ وَسَبْقِ السَّيْفِ لِلْعَدْلِ

يقول الدكتور عائض الرادادي في أثناء حديثه عن قصيدة المنوفي : "ومما يقلل من قيمة قصيدة المنوفي أن شاعرهما لم يزد عن أن بدّل في الأسماء والقافية فقط ؛ لأنه سطا على أفكار شاعر حجازي آخر سابق له في القرن العاشر هو ابن العليّف وأخذ الأفكار أحياناً بنصّها ، وإن كان لا ينكر أن كلاهما سار على خطى أبي تمام في عموريته وعارضه ، خاصة المنوفي ، أما مناسبة قصيدة ابن العليّف فهي مثل مناسبة قصيدة المنوفي وذلك ما قرّبها له ويسّر له السطو عليها ، وقد يكون من الأسباب شيوع القصيدة في مكة في ذلك الوقت ... ومن يتتبع قصيدة المنوفي يجد أنه لم يزد على تغيير القافية أحياناً ، وأخذ بعض الأبيات بنصّها ، وبدّل في الأسماء فقط" (2) .

ثم ذكر أمثلة من القصيدة تؤكد حكمه (3) .

(1) انظر : الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر ، الرادادي 522/2-534 .

(2) انظر : المرجع نفسه 534/2 ، 535 .

(3) انظر : المرجع نفسه 535/2-538 .

3- عبدالعزيز الزمزمي :

-1-

هو عز الدين عبدالعزيز بن علي بن عبدالعزيز بن عبدالسلام بن موسى بن أبي بكر ابن أكبر علي بن أحمد بن علي بن محمد بن داود الزمزمي ، الشيرازي الأصل ، المكي المولد والمنشأ ، ويعرف بالزمزمي نسبة لبئر زمزم ؛ لأن جده علي بن محمد قدم مكة في سنة 730 هـ ، فباشـر في خدمة بئر زمزم ، ثم أعقبه في ذلك أولاده .

ولد شاعرنا في سنة 900 هـ بمكة ، ونشأ بها ، وأخذ العلم عن عدد من العلماء الأجلاء في مكة ، منهم المحدث الصوفي علي بن حسام ، الشهير بالمتقي ، والشيخ محمد ابن أبي الحسن البكري ، وقد ذكر الشلي أنه "شارك الشيخ أحمد بن حجر في أكثر مشايخه ، وكانا رضيحي لبنان وفرسي رهان" (1) .

ارتحل لطلب العلم ، وذكر أن أول رحلة ارتحلها إلى مصر لطلب العلم كانت في سنة 924 هـ (2) ، كما ارتحل إلى اليمن والشام وبلاد الروم (3) .

وكان من أجلاء عصره ، ألفه الناس وأحبته الأئدة ، وأشاد بفضله وعلمه بعض معاصريه ، ومنهم من صاغ ذلك شعراً ، كالشيخ جمال الدين بن محمد بن أبي الحسن البكري الصديقي الذي يقول عنه :

أَجَلُّ جِيرَانِ بَيْتِ اللَّهِ قَاطِبَةً عِلْماً إِذَا وَصَفُوا فِي مَكَّةَ الْعُلَمَا
(4)

وله فيه أيضاً :

أَنْتَ الَّذِي بِصِفَاتِ الْفَضْلِ أَجْمَعِهَا فِي بَلَدَةِ اللَّهِ أَوْلَى سَائِرِ الْعُلَمَا
فَلْتَهْنِ مَكَّةَ بَلِّ وَلِيَهْنِ سَاكِئَهَا وَلِيَهْنِ أَبْطَحَهَا وَالْبَيْتَ وَالْحَرَمَا
(5)

تولى التدريس في المدرسة السلیمانیة بمكة ، وكان حينذاك رئيس علمائها . ويمكن القول : إنه كان عالماً اشتهر بالفقه والحديث أولاً ، كما

(1) السنا الباهر ، ورقة 350/أ .

(2) ديوان الزمزمي ، ورقة 106/أ .

(3) انظر المصدر نفسه ، ورقة 14/ب ، 19/أ ، 26/أ ، 58/أ ، 63/ب ، 81/أ ، 84/ب ،

86/أ ، 88/ب ، 91/أ ، ب ، 96/ب ، 97/أ ، 99/ب ، 100/أ .

(4) النور السافر ، العيدروس ، ص 428 .

(5) المصدر نفسه ، ص 428 .

كان أديباً شاعراً ثانياً ؛ إذ إنه فقيه ، محدث ، تتلمذ عليه جمع من أهل العلم ، منهم : ابنه محمد الأديب العالم الذي اشتهر بفضله ونبله (1) ، والشيخ زين الدين بن عطية بن علي بن حسن السلمي ، ووجيه الدين عبدالرحمن بن علي بن عبدالرحمن باعوث (نزيل طيبة) ، وغيرهم . له مجموعة من المؤلفات في الفقه والحديث والتفسير والأدب ، منها : الفتاوى الزمزية ، وفيض الجود على حديث (شيبتي هود) ، وفتح الرداء في نشر العلم والاهتداء ، ونظم علم التفسير ، وشرح على مقامات الحريري ، وشرح قصيدة (بانة سعاد) لكعب بن زهير ، وتنبيه ذوي الهمم على مأخذ أبي الطيب من الشعر والحكم .

توفي -يرحمه الله- بمكة في سنة 976هـ (2) . وقد أرّخ الشيخ عبدالرحمن الخفاجي ذلك العام على حساب الجمل بقوله : (بجنان الخلد قد أصبح) ، ثم نظم ذلك التاريخ في بيتين ، قال فيهما :
إِنَّ مَنْ أَجْرَى الدَّمُوعَ عَلَى عِزِّ دِينِ اللَّهِ قَدْ أَفْلَحَ
قَدْ أَتَى تَارِيخَهُ ضَبْطاً (بِجَنَانِ الْخُلْدِ قَدْ أَصْبَحَ) (3)

-2-

وديوان الزمزمي مخطوط في (110 ورقة) (4) . جمعه بنفسه ،

- (1) انظر ترجمته في : نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 435 .
- (2) ذكر حاجي خليفة في (كشف الظنون 1234/2 ، 1305) أن وفاته في سنة 963هـ ، وقد تابعه في ذلك إسماعيل البغدادي في (هدية العارفين 584/1) ؛ والصحيح ما أثبتته ؛ لأنه درس في المدرسة السلمانية في سنة 976هـ (انظر: المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 259) . وانظر ترجمة الزمزمي في: النور السافر ، العيدروس ، ص 427-432 ؛ الكواكب السائرة ، الغزي 170/2 ؛ شذرات الذهب ، ابن العماد 558/10 ؛ السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 340/ب ، 341/أ ، 350-351أ ، 370/ب ، 427/ب ؛ المختصر من نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص 258 ، 259 ؛ الأعلام ، الزركلي 23/4 ؛ معالم الأدب العربي في العصر الحديث ، عمر فروخ 435-433/1 .
- (3) السنا الباهر ، الشلي ، ورقة 351/أ .

- (4) تكلمت على هذا الديوان في الفصل الثاني (مصادر الشعر) وأوضحت فيه أنني اعتمدت في دراستي هذه على نسخة مكتبة باريس الوطنية ذات الرقم (3228) =

ووضع له مقدمة بين فيها هدفه من مدائحه النبوية ومنهجه في ترتيبه .
يتكون هذا الديوان من (68 قصيدة) و(13 مقطوعة) و(4 نتف) عدة أبياتها 3064 بيت . وأغلب قصائد هذا الديوان مؤرخة .
وللزمزمي ديوان في التخميس سماه (قصب السبق في تخميس القصص الحق) ، وهو مخطوط يقع في (34 ورقة) (1) .
من بدايته حتى ورقة 12/ب تكرر للتخميس الوارد في ديوانه (2) ،
ثم خمس بردة البوصيري ، وختم هذا الديوان بتخميس لمقصورة ابن دريد .

وثمة قصائد ومقطوعات ونتف وأبيات يتيمة ضمتها بعض المصادر التاريخية وبعض كتب التراجم لم ترد في الديوانين السابقين (3) .
وأغلب نتاج الزمزمي من الشعر الديني ؛ فهو أكثر شعراء مكة والمدينة في القرنين نظماً للمدائح النبوية (4) ، كما أنه مدح الحبر بن عباس ، والإمام الشافعي متوسلاً ، وسار على نهج المتصوفة أيضاً في زيارة أضرحة العلماء والصالحين والثناء على أصحابها وطلب الحاجة منهم . وقد أفرد لذلك باباً في ديوانه ، فيه كثير من الأمور الشركية الجارية على السنة أهل التصوف ، من ذلك قوله - مثلاً -:

قَفَا عِنْدَ قَبْرِ الشَّيْخِ طَلْحَةَ عَسَاهُ يَنْفَحُنِي بِنَفْحِهِ
وَيُعْطِينِي وَيَمْنَحُنِي مُرَادِي فَكَمْ لِلشَّيْخِ إِعْطَاءٌ وَمِنْحَةٌ (5)

وسار في قصائد هذا الباب ومقطوعاته على هذا النحو من طلب الحاجة من أصحاب القبور الذين لا يملكون لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً ، بله للواقف على القبر ، الذي قاده معتقده إلى طلب النفع من غير الله .

المحفوظة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض بالرقم نفسه .

- (1) ذكرته في الفصل الثاني (مصادر الشعر) مشيراً إلى أنني اعتمدت في هذه الدراسة على نسخة مكتبة الفاتيكان ذات الرقم (1143) .
- (2) انظر ديوان الزمزمي ، ورقة 37/ب-53/أ .
- (3) سبق ذكر المصادر التي حوت شيئاً من نتاجه ، كما تم توثيق ذلك في الفصل الثاني (مصادر الشعر) .
- (4) في ديوانه 17 مدحة نبوية .
- (5) المصدر السابق ، ورقة 76/أ .

وقد اعتاد الزمزمي - في قصائده - على تعيين حاجته ، كالشكوى إلى صاحب القبر من همّ الدّين والتوسل إليه بالعون على قضائه ، من ذلك قوله في مطلع إحدى قصائده:

إِلَى الْغَمَارِي أَشْكُو مَا الْأَقِيهِ مِنْ هَمِّ دَيْنِي وَمِنْ حَمْلِي رَوَاسِيهِ

ثم يناجي من تحت الثرى بأسلوب ينحو لغة الحياة اليومية ، فيقول :
وَكُنْتُ فِي عَامِي الْمَاضِي قَصْدَتُكَ دَيْنٍ عَلَيَّ عَسَى عَلَيَّ تَوْفِيهِ
وَفَيْتُ مُعْظَمَهُ وَالْآنَ جِئْتُكَ فِي دَيْنٍ تَجَدَّدَ مُنْضَافاً لِبَاقِيهِ
وَفِ الْجَمِيعِ فَإِنِّي قَدْ لَزِمْتُكَ فِي قَضَائِهِ فَاقْضِهِ عَلَيَّ وَأَدِّيهِ
بِحَيْثُ لَا يَرَهُمْ يَبْقَى عَلَيَّ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الدَّيْنِ أَخْشَى مِنْ
عَطْفًا وَغَوْثًا فَإِنِّي عَيْلٌ مُصْطَبِرِي وَضَاقَ صَدْرِي بِمَا فِي الصَّدْرِ

وله قصائد في الحنين إلى مكة والمدينة والشوق إلى الحجاز ، ووصف البلد الحرام والبيت العتيق ، وبعض الإخوانيات . ومدائحه قليلة ؛ فهو ليس من الشعراء المداحين الذين طرّقوا أبواب الأمراء والسلاطين ، إنما قد يستجيب لبعض المناسبات (2) ، أو لطلب من أمير ، كما فعل حينما أمره الشريف أبو نمي بمعارضة قصيدة الخطيب بن داريا التي مطلعها :

هَاتِ اسْقِنِي الصَّهْبَاءَ يَا مُؤْنِسِي قَدْ فَاحَ نَشْرُ الْوَرْدِ وَالنَّرْجِسِ

حيث قال منها مخاطباً الشريف أبا نمي :

يَا مَنْ بِهِ الشَّعْرُ سَمًا ذُرْوَةً عَلَى دَرَارِي الْفَلَكَ الْأَطْلَسِ
هَآكَ قَرِيضاً أَنْتَ أَدْرَى بِمَا فِي سِلْكِهِ مِنْ جَوْهَرٍ أَنْفَسِ
أَمَرْتَنِي أَنْ أَنْظِمَ شِعْراً عَلَى (قُمْ عَاطِنِي الصَّهْبَاءَ يَا مُؤْنِسِي)
فَقَفْتُ مُرْتاحاً إِلَى نَظْمِهِ وَلَمْ أَحُلْ عَنْهُ وَلَمْ أَخْنِسْ (3)

(1) المصدر نفسه ، ورقة 69/ب ، 70/أ .

(2) أعني المناسبات التي تحفره على القول ، كقيام بعض السلطين بترميم الكعبة ، أو فرش المطاف ؛ حيث كان حريصاً على تأريخ ذلك ، وهي في الغالب مقطوعات لا تخلو من الإشادة السريعة بالسلطان والدعاء له ، وقد تقتصر على وصف العمارة والدعاء لمن أمر بها . (انظر : منائح الكرم ، السنجاري 328/3 ، 329 ، 340 ، 341 ؛ وإتحاف فضلاء الزمن ، محمد الطبري 482/1) .

(3) سمط النجوم العوالي ، العصامي 341/4 .

وأغلب مدائحه في العلماء ؛ يستجيب فيها لداعي الحب والإعجاب
بشخصية العالم . وفي مثل هذه القصائد تبرز عاطفته الدينية ، يقول من
قصيدة مدح بها الشيخ عبدالقادر الجنيدي :

يَا سَيِّدَا أَخْلَاقَهُ وَسِمَاتُهُ أَخَذْتُ بِقَلْبِي نَحْوَهُ وَبِخَاطِرِي
لِلَّهِ قَلْبِي قَدْ أَحَبَّكَ مُخْلِصاً فَأَحْسُ ذَاكَ الْحُبِّ مِلءَ ضَمَائِرِي
وَالْمَرْءُ مَعَ مَنْ قَدْ أَحَبَّ كَذَا أَتَى عَنْ صَادِقِ الْقَوْلِ النَّبِيِّ الطَّاهِرِ (1)

وديوانه خالٍ من الرثاء ، لكن صاحب النور السافر أورد له
مرثيتين ، إحداهما للوزير آصفخان الكجراتي الذي كان "رجلاً صالحاً ،
جواداً ، ممدوحاً ، شريف النفس ، عالي الهمة ، ذا تهجد وأوراد" (2) ،
والأخرى للشيخ حامد الجبرتي . وقد أطال النفس في القصيدتين ، متناولاً
منزلتهما في القلوب وما كانا يتمتعان به من صفات ، وأثر فقدهما ؛ إذ
أظهر اللفظة على فراق الوزير آصفخان ، مشيراً إلى بعض مناقبه بقوله

لَهْفِي وَلَهْفَ رِجَالِ الْعِلْمِ قَاطِبَةً عَلَى إِمَامٍ بِتَحْقِيقِ الْعُلُومِ مَلِي
عَلَى الْجَوَادِ الَّذِي فَاضَتْ مَكَارِمُهُ لِلْأَمَلِينَ بِمَا أَرْبَى عَلَى الْأَمَلِ (3)

وتدفق عاطفته صدئاً طبعي لمشاعره الصادقة تجاه ذلك الوزير
الذي تعددت مناقبه ، وألف الناس بره وغزير عطائه . يقول من هذه
القصيدة :

لَقَدْ فَقَدْنَاكَ فَقْدَانَ الرَّبِيعِ وَلَمْ نَجِدْ لَنَا عَنْكَ بَعْدَ الْفَقْدِ مِنْ بَدَلٍ
تَفْدِيكَ مِنَّا أُلُوفٌ لَوْ فَدَيْتَ بِهَا مِنْ خَيْرِنَا لَا مِنَ الدَّهْمَاءِ وَالسَّفَلِ
إِنِّي لِأَبْكِيكَ لِلْجُودِ الَّذِي فَضَحَتْ أَنْوَاؤُهُ كُلٌّ وَسَمِيٍّ وَكُلٌّ وَلِي
أَبْكِيكَ لِلْعِلْمِ وَالْعَقْلِ اللَّذَيْنِ هُمَا عِمَادُ دُنْيَا وَدِينِ الْحَازِمِ الرَّجُلِ
وَلِلْحِجَازِ وَأَهْلِيهِ إِذَا فَقَدُوا مَأْلُوفَ بَرٍّ إِلَيْهِمْ مِنْكَ مُتَّصِلِ

(1) ديوان الزمزمي ، ورقة 92/أ .

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص 325 .

(3) المصدر السابق ، ص 326 .

وَلِلصَّيَامِ وَإِحْيَاءِ الظَّلَامِ إِلَى حِينَ الْمَمَاتِ بَلَا وَهْنٍ وَلَا مَلَلٍ (1)

ونظم الزمزمي في آخر ديوانه خمسة أحاديث شريفة ، ضمّن معناها أربع مقطوعات وقصيدة قصيرة عدتها عشرة أبيات ، وقد تم تناول نماذج من هذا النظم العلمي في أثناء الحديث عن الشعر التعليمي (2) .

-3-

وأفكاره ذات صبغة دينية يغلب عليها الفكر الصوفي ، كالحديث عن الفناء في الذات الإلهية وأن الرسول ع أصل الوجود (3) . فضلاً عن الغلو في المدائح النبوية والتوجه إلى المصطفى ع في المطالب الدنيوية ؛ وجدنا الشاعر أيضاً يتوسل بأصحاب القبور من العلماء والصالحين ويزور الأضرحة ، شاكياً إلى أصحابها همه ، طالباً حاجته ، معتقداً - من خلال نهجه الصوفي - أن بركتهم تحل ، وأن حاجته ستقضى . ومن الأقوال الشركية - أيضاً - التي لا يخلو منها شعره القسم بغير الله ، كقوله في إحدى مدائحه للرسول ع :

أَقْسَمْتُ بِالْقَمَرِ الْمُنْشَقِّ أَنَّ لَهُ مِنْهُ التَّمَامَ أَتَى مِنْ بَعْدِمَا انْقَسَمَا

ومدائحه النبوية تتضمن الحديث عن نوره ع الذي ملأ الأرض ، وعن صفاته الخلقية والخلقية ، ومعجزاته ، والشوق إلى طيبة الطيبة ، لكنها لا تخلو من التوسل ، وطلب الشفاعة ، والإلحاح في سؤاله ورفع الحاجة إليه في أمور يجب صرفها إلى الله - جلّت قدرته - (5) .

وقد تأثر الزمزمي بالبوصيري - كغيره من الشعراء الذين مدحوا الرسول ع - حيث عارض البردة وخمّسها (6) ، وعارض قصيدة البوصيري (ذخر المعاد في معارضة بانة سعاد) (7) ، كما عارض همزية البوصيري المسماة (أم القرى في مدح خير الورى) بهمزية

(1) المصدر نفسه ، ص 327 .

(2) انظر : الفصل الثالث من هذه الدراسة .

(3) انظر : الحديث عن (التصوف) في مبحث الشعر الديني (في الفصل الثالث من هذه الدراسة) .

(4) ديوان الزمزمي ، ورقة 34/ب .

(5) انظر : الحديث عن (المدائح النبوية) في مبحث الشعر الديني (في الفصل الثالث من هذه الدراسة) .

(6) انظر : ديوان الزمزمي ، ورقة 32/أ-37/أ ؛ قصب السبق في تخميس القصص الحق ، ورقة 1/ب - 21/أ .

(7) انظر : ديوان الزمزمي ، ورقة 65/ب-66/ب .

سماها (الفتح المبين في مدح سيد المرسلين) (1) .
ومن المعاني التي تناولها متأثراً بالبوصيري فكرة الحقيقة المحمدية
التي تصور النور المحمدي بوصفه نوراً أزلياً ، يقول الدكتور شوقي
ضيف في حديثه عن البوصيري: "إن من يبحثون شعره يقفون طويلاً
بإزاء مدائحه النبوية ، ولا ينتبهون إلى أهم ما في هذه المدائح وهو حديث
البوصيري عن الحقيقة المحمدية التي تصور النور المحمدي مبدأ الحياة
ومركزها في العالم وروح كل ما في الوجود ، وهو نور أزلي - في رأي
البوصيري وأضرابه- ظل يظهر في صورة الأنبياء من لدن آدم حتى
ظهر في صورة الرسول - عليه السلام- وفي ذلك يقول البوصيري في
قصيدته المشهورة باسم البردة :

وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَةً لَوْلَاهُ لَمْ تَخْرُجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ
وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسُلَ الْكِرَامَ بِهَا فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمْ

وهي نظرية كان يؤمن بها المتصوفة وآمن بها البوصيري (2) .
والزمزمي لم يقصد معاني البوصيري فحسب ، بل استقى بعض
معانيه من السابقين من شعراء العربية مثل : كعب بن زهير ، والفرزدق
، والمتنبي ، والطغرائي ، وغيرهم (3) ، وضمّن شعره شيئاً من نتاجهم .
يقول في إحدى مدائحه للرسول ع:

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا إِنْ هُوَ ابْتَسَمَا (4)

وهو تضمين لبیت الفرزدق في مديح زين العابدين بن علي - رضي
الله عنهما- الذي يقول فيه :

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ (5)

والواضح أن الزمزمي قد غير في عجز البيت مراعاة للقافية ، وهو
تغيير يسير لم يمس المعنى . وقد جاء هذا التضمين مناسباً ؛ لأن الشاعر
قد استحضر هذا البيت في خضم حديثه عن حياته ع (6) .

(1) انظر : المصدر نفسه ، ورقة 2/ب-12/أ .

(2) البحث الأدبي ، ص 48 ، 49 .

(3) انظر : مبحث (المعاني) في الفصل الرابع من هذه الدراسة .

(4) ديوان الزمزمي ، ورقة 33/ب .

(5) ديوان الفرزدق 179/2 .

(6) انظر : ديوان الزمزمي ، ورقة 33/أ ، ب .

ومدائحه النبوية تركز على روح صوفية ، ويقظة شعورية دينية
يفجرها موقف من مواقف الكدر في حياته ، وكثيراً ما يفضي به مدح
خير المرسلين إلى الاستغاثة ، طامعاً أن يزول ما علق في نفسه من
أدران:

أَيَا مَنْ سَوَّحَهُ لِلْوَفْدِ رَحْبٌ أَمِينٌ لَا تَحِلُّ بِهِ الْخُطُوبُ
أَنَخْنَا فِيهِ أَضْيَافاً وَحَاشَى ضُيُوفَكَ مِنْ قَرَاكَ لَهُمْ يَخِيبُوا
أَتَيْنَا نَسْتَقِيْلَكَ مِنْ أُمُورٍ رَكِبْنَاهَا فَيَا بئْسَ الرُّكُوبُ
إِلَيْكَ هَرَبْتُ مِنْ مَرْهُوبِ ذَنْبِي فَمِنْهُ إِلَيْكَ يُنْجِنِي الْهُرُوبُ
أَعِثْنِي إِنِّي شَارَفْتُ قَبْرِي وَقَلْبِي عُوْدُ قَسْوَتِهِ صَلِيبُ
... إِلَيْكَ لَجَأْتُ فِي تَصْمِيمِ عَزْمِي وَمَنْ يَلْجَأُ إِلَيْكَ فَلَا يَخِيبُ
أَيَا أَسْفِي عَلَى زَمَنِ تَقْضَى وَعُمْرٍ مِلْءُ عَيْبَتِهِ عُيُوبُ
أَقْلَنْي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي مِنْ التَّخْلِيْطِ فِيهِ لِمُسْتَرِيبُ
وَكُنْ لِي شَافِعاً إِذْ لَا خَلِيلٌ يُرْجَى لِلشَّفَاعَةِ أَوْ قَرِيبُ (1)

ودأب في مدائحه النبوية على دعم المعاني التي يتحدث فيها عن
شخصية المصطفى ع بالاقْتِباس من كتاب الله العزيز ، فقد تحدث في
إحداها عن غبطة بني الإسلام بالنبي المصطفى الذي أصبحت به الأمة
خير أمة أخرجت للناس ، والأمة الوسط ، حيث يقول :

لَنَا يَا مَعْشَرَ الْإِسْلَامِ بُشْرَى تُسَرُّبَهَا وَتَرْتَاحُ الْقُلُوبُ
بِأَنَّ نَبِيَّنَا الْمُخْتَارَ مَافِي جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ لَهُ ضَرِيبُ
جُعَلْنَا أُمَّةً وَسَطًا خَيْرًا بِهِ وَالْخَيْرُ يَطْلُبُهُ الْأَرِيبُ (2)

ثم استقى من كتاب الله ما يدعم هذا المعنى ؛ إذ تناول رَأْفَتَهُ وَرَحْمَتَهُ
بأَمَتِهِ ، حيث يعز عليه أن يعنت أمته ويشق عليها ، وأشار الزمزمي إلى
حرص الرسول ع على هداية أبناء الأمة إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة
، إذ يقول :

- (1) المصدر السابق ، ورقة 13/ب ، 14/أ . وقد سبق التعليق على مثل هذه الأمور
الشركية في أثناء الحديث عن (المدائح النبوية) في مبحث الشعر الديني (في الفصل
الثالث من هذه الدراسة).
(2) المصدر نفسه ، ورقة 13/أ .

رُؤُوفٌ رَاحِمٌ بِهِمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَشَقَّةٌ لَهُمْ تُصِيبُ
رَسُولٌ مِنْ نَفْسِهِمْ حَرِيصٌ عَلَيْهِمْ لَا يُرِيبُهُمْ مُرِيبٌ (1)

وهو اقتباس من قول الله - سبحانه وتعالى- : [لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ] (2) .
ومن ذلك قول الزمزمي :

لَعَيْنِهِ قَدْ رَقَى مِنْ عِلْمِهِ فَرَأَى بِهَا الَّذِي أَنْدَكَ مِنْهُ الطُّورُ
وَلَمْ يَزِغْ بَصَرًا لَمَّا عَلَيْهِ غَشَى مِنْ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى مَا قَدْ غَشَى
وَبَعْدُ شَاهِدٌ مِنْ حَقِّ الْيَقِينِ سَنَاءً فَصَارَ يَشْهَدُ وَجْدَانِ الْوَرَى عَدْمًا
إِذَا ذَاكَ حِينَ رَمَى الْأَعْدَاءَ قِيلَ لَهُ وَمَا رَمَيْتَ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ رَمَى (3)

ولا يخفى أنه اقتبس من قول الباري - جل شأنه- [وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى] (4) ،
وقوله - سبحانه وتعالى- : [فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى] (5) .

وهو في كثير من مدائحه يكرر المعنى ويبالغ في أدائه ، يقول من قصيدته الهمزية مادحاً الرسول ع :

أَبْلَجٌ مُشْرِقٌ جَمِيلٌ الْمُحْيَا لَوْ تَجَلَّى لَيْلًا جَلَا الظُّلَمَاءَا (6)

ويعيد المعنى في بيتين من إحدى مدائحه للرسول ع فيقول :
حَسَنَ الْخَلْقِ جَمِيلٌ مُشْرِقٌ مَنْ رَأَى حُسْنَ مُحْيَاهُ ابْتَهَجَ
أَبْلَجٌ إِنْ لَاحَ فِي جُنْحِ الدَّجَى خَلَّتْ مِنْ لَأَلَاهِ الصُّبْحِ ابْتَلَجَ (7)

وقد يلجئه الغلو في مدائحه النبوية إلى القسم بغير الله - كما سبق -

(1) المصدر نفسه ، ورقة 13/أ ، 13/ب .

(2) سورة التوبة ، الآية 128 .

(3) ديوان الزمزمي ، ورقة 34/أ .

(4) سورة النجم ، الآيات 13-18 .

(5) سورة الأنفال ، من الآية 17 .

(6) ديوان الزمزمي ، ورقة 5/أ .

(7) المصدر نفسه ، ورقة 15/أ .

(1) وإلى منح الرسول - صلى الله عليه وسلم - صفات لا تليق إلا لله وحده (2).

-4-

والناظر في بناء القصيدة عند الزمزمي ؛ يلحظ أنه لم يحفل بالمقدمات إلا في عدد قليل من مدائحه النبوية ؛ حيث النسيب ، والشوق إلى طيبة ، ولم أجد فيما بين يدي من شعره إلا قصيدة مدحية واحدة في الشريف أبي نمي اشتملت على مقدمة غزلية (3) ؛ لأنه - كما سبق أن أشرت - لم يكن من الشعراء المداحين ، والمقدمات - في الغالب - مصاحبة لقصائد المديح .

أما المطلع فإن الزمزمي لم يوفق في أدائه ، نجد ذلك في كثير من مدائحه النبوية وفي أغراضه الأخرى (4) ؛ فقد بدأ - مثلاً - إحدى مدائحه النبوية قائلاً :

نَظْمُ شِعْرِي عَنْهُ يَقْصُرُ نَثْرِي فَازَ شِعْرِي فَلَمْ أَقْلُ لَيْتَ شِعْرِي

والتكلف واضح من خلال هذا التكرار للفظ (شعري) ، واستدعاء عبارة (ليت شعري) ، ولا أرى أن المعنى يستدعي ذلك كله . ويبدو أن حرصه على المطابقة بين شعري ونثري قد قاده إلى هذا المعنى ، بل وإلى هذا السبك الرديء لهذا البيت ، والمتلقي لا يتبين له أنه مطلع لمدحة نبوية إلا في البيت الذي يليه ، حيث يقول :

سَارَ فِي مَدْحِ أَشْرَفِ الْخَلْقِ قَدْرًا فَعَلَا قَدْرُهُ بِذَاكَ وَقَدْرِي (6)

وجاءت الخاتمة دعاءً لمن وجهت إليه القصيدة ، وإن كان مرثياً دعا للقبر بالسقيا على شاكلة الأوائل ، كما أنه قد يختم بالتاريخ الشعري ، ولكن الظاهرة البارزة في ختام القصيدة عنده هي الصلاة على النبي

(1) انظر: ص 563 ، 564 .

(2) انظر - مثلاً - : ديوان الزمزمي ، ورقة 8/ب ، 10/أ ، 13/ب ، 14/أ ، 22/ب ، 23/أ ، 23/ب ، 26/أ ، 27/أ ، 27/ب ، 28/أ ، 28/ب ، 29/أ .

(3) انظر : الحديث عن المقدمة في مبحث بناء القصيدة (في الفصل الرابع) .

(4) انظر : الحديث عن المطلع في مبحث بناء القصيدة (في الفصل الرابع) ، والحديث عن ضعف المطلع عنده لا يعني أنه حكم على جميع قصائده ، بل سمة غالبية على ما بين أيدينا من شعره .

(5) ديوان الزمزمي ، ورقة 21/أ .

(6) المصدر نفسه ، ورقة 21/أ .

الكريم ع وآله وصحبه ، وخاصة في مدائحه النبوية .
وقد تجتمع هذه الأنماط الثلاثة في الخاتمة ؛ فنتحول إلى قطعة شعرية على نحو قوله في ختام قصيدته التي رثى بها آصفخان الكجراتي :

يا مَنْ يُسألُ عَنْ تارِيخِ مَصْرَعِهِ عَنْهُ الْجَوَابُ (انْقَضَى) فَاكْفُفْ وَلَا
عَلَيْهِ وَاللَّهِ لَا أَنْفَكَ ذَا أَسْفٍ أَهْدِي إِلَيْهِ الدُّعَا مَا امْتَدَّ فِي أَجَلِي
هَمَّتْ عَلَى رَوْضِ قَبْرِ حَلَّةٍ دِيمٍ مِنْ الرِّضَا مَا هَمَى دَمْعٌ مِنَ الْمُقَلِّ
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضِرٍ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ طَهَ خَاتِمِ الرُّسُلِ
وَالْآلِ وَالصَّحْبِ مَا أَوْفَى الْحَجِيجُ بَيْتَ الْإِلَهِ وَحَيَّا الرُّكْنَ بِالْقَبْلِ (1)

والوحدة الموضوعية متوافرة في قصائد الزمزمي ، حتى حينما يلجأ إلى المقدمة الغزلية - على ندرة ذلك في قصائده - فإننا لا نعدم وحدة الجو النفسي الذي يسيطر على النص (2) .

وهو من الشعراء الذين يطيلون القصيدة ، وخاصة في مدائحه النبوية ، حيث بلغت إحداها (367 بيت) ، على أن منها ما بلغ (190 بيت) و(155 بيت) و(108 بيت) .

ويغلب على نتاجه القصائد المتوسطة التي تتراوح ما بين 20-50 بيتاً . وتكاد تتساوى نسبة القصائد الطويلة والقصيرة والمقطوعات ، أما الننف والأبيات اليتيمة فقليلة فيما بين أيدينا من نتاجه .

وقد نأى الزمزمي عن الغريب في لغته التي اكتست روح العلماء ومالت إلى التقريرية ؛ فأسلوبه عادي يجنح إلى الضعف ، ويفتقد إشراق العبارة في كثير من نماذجه ؛ لأنه لا يصدر عن طبع مُوات ، نجد ذلك في مثل قوله :

يَا زَمَنًا أَبَدَلَ النَّفُوسَا مِنْ بَعْدِ إِضْحَاكِهَا عُيُوسَا
بِالْبَيْنِ كَمْ قَدْ جَرَحَتْ قَلْبِي جِرَاحُهُ لَا تَكَادُ تُوسَى

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص 330 . (وانقضى) في تاريخ الجمل يوافق تاريخ وفاته سنة (961هـ) .

(2) انظر : الحديث عن مقدمة قصيدته التي مدح بها الشريف أبا نمي في مبحث (المقدمة والتخلص) في الفصل الرابع .

وَكَمْ خُطُوبٍ وَكَمْ هُمُومٍ مِنْهُمْ جَرَّ عَنِّي كُؤُوسًا (1)

وهو في مدائحه النبوية ذو لغة عادية يكثر فيها من سرد الصفات على نحو قوله :

الْفَاتِحُ الْخَاتِمُ الْهَادِي الدَّلِيلُ إِلَى سُبُلِ الرَّشَادِ وَنَاهِيكُمْ بِهَا سُبُلًا
مُحَمَّدٌ أَحْمَدُ الْمُحَمَّدُودُ أَحْمَدُ مَنْ لِسُورَةِ الْحَمْدِ وَالذِّكْرِ الْحَمِيدِ تَلَا
ومن يطالع ديوان الزمزمي ؛ يلحظ كثرة الألفاظ والأساليب المبتذلة التي لا تختلف عن لغة الحياة اليومية ، مثل قوله :

لَقَدْ خَاتَنِي بَغْلِي وَرَجُلَاهُ زَلَّتَا فَخَذَ بِيَدِي إِنِّي سَقَطْتُ عَلَى
وقوله :

كَانَ قَصْدِي أَزُورُكُمْ مِنْ قَرِيبٍ وَأَرَى نُورَ رَبْعِكُمْ وَانْبِلَاجَهُ (4)

وشاعت في قصائده بعض الألفاظ التي لا تستساغ في النثر الفني فضلاً عن الشعر ، مثل : خصوصاً (5) ، مدة شهرين (6) ، نيابة عني (7) ، أنفارك ، الأنفار (8) ، العيال (9) ، الخونة (10) .

على أنه في مديحه وراثته وفي حنينه وشكواه ذو لغة أكثر إشراقاً ، فهي وإن لم تكن محلقة ، فإنها سهلة خالية من الرتابة التي نجدها في كثير من شعره (11) .

ويحمد للشاعر أنه لم يكن ممن تعلقوا بالصناعة اللفظية ، بل تناول بعض الفنون البديعية ، فجاءت عفوية لا تكلف فيها ، كالمجانسة بين (سنة) و (وسنه) في قوله :

(1) ديوان الزمزمي ، ورقة 86/ب .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 56/ب .

(3) المصدر نفسه ، ورقة 26/أ .

(4) المصدر نفسه ، ورقة 87/ب .

(5) المصدر نفسه ، ورقة 14/أ .

(6) المصدر نفسه ، ورقة 31/ب .

(7) المصدر نفسه ، ورقة 59/ب .

(8) المصدر نفسه ، ورقة 62/ب .

(9) المصدر نفسه ، ورقة 67/ب ، 71/أ .

(10) المصدر نفسه ، ورقة 100/ب .

(11) انظر: بعض النماذج في أثناء الحديث عن موضوعات شعره كمديحه أبا نمي ، وراثته الوزير أصفخان الكجراتي .

وَمِيْضُ الْبَرْقِ بَعْدَ سَنَةٍ نَفَى عَنْ نَاطِرِي وَسَنَةٍ
وَذَكَّرَنِي عُھُودَ هَوَى بِهَا الْأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً (1)

ومن الفنون البديعية التي تصرف فيها الزمزمي (التورية) ، فقد كان له جارتان اسم الأولى (غزال) والأخرى (دام السرور) وقد باعهما ، فندم على ذلك ، وقال :

بِجَارِيَّتِي كُنْتُ قَرِيرَ عَيْنٍ وَأَفْقُ مَسَرَّتِي بِهِمَا مُنِيرُ
فَقَرَّ صَرْفُ أَيَّامِي غَزَالِي فَمَا دَامَتْ وَلَا دَامَ السُّرُورُ (2)

والمعنى في قوله : ولا دام السرور كما يتضح لمن يتلقى البيت : أنه فقد السعادة التي كان يعيش فيها ، ولكن الشاعر أراد (دام السرور) اسم تلك الجارية .

ولم يكن الزمزمي من شعراء الصورة ، وإذا فتشنا شعره ؛ وجدنا صوراً تقليدية تكاد تكون مقصورة على مدائحه النبوية ، وهي مكرورة لا تتعدى كونه ع ذا خلق كالنسيم ، وجبين كالقمر ، وإشراق كالبدر ، ونور كالشمس أو ضوء كالصبح ، وما أشبه هذه الصور التي تتكرر في مدائحه ، يقول في إحداها :

أَنْتَ بَذَرٌ مُشْرِقٌ إِنْ أَقْبَلْتَ ظَلَمُ الْخَطْبِ بِلَيَاتِ الْمَحَاقِ
أَنْتَ شَمْسُ الْكَوْنِ لَا يُنْكِرُهَا غَيْرُ مَعْمُوصٍ عَلَيْهِ بِالنِّفَاقِ
أَنْتَ بَحْرٌ مَالُهُ مِنْ سَاحِلِ أَبْحُرُ الدُّنْيَا لَدَيْهِ كَالسَّوَاقِي
لَكَ خُلُقٌ خَصَّكَ اللَّهُ بِهِ مَا لِمَنْ لَا يَرْتَضِيهِ مِنْ خَلَقِ
خُلُقٌ يَبْسِمُ عَنْ زَهْرِ الرُّبَا لِلْحَلَا مِنْ خُلُقِهِ طَبَقُ الْوِفَاقِ
مُسْفِرٌ عَنْ حُسْنٍ وَجْهِ بَاهِرٍ فَلَقُّ الصُّبْحِ بِضَوْءٍ وَانْفِلَاقِ (3)

وإذا ألفينا الصورة في أغراضه الأخرى ؛ كانت عادية ، لا تخلو من سذاجة في بعض الأحيان ، بل إنها أحياناً تأتي ضعيفة الارتباط بالمعنى ، من ذلك قوله حينما سمع نبأ وفاة عزيز لديه :

- (1) المصدر السابق ، ورقة 100/ب .
- (2) النور السافر ، العيدروس ، ص 432 . وقوله : (فما دامت) في المصدر : فلا دامت ، والمثبت عن معالم الأدب العربي في العصر الحديث ، عمر فروخ 433/1 .
- (3) ديوان الزمزمي ، ورقة 25/أ .

أَصَمَّ أذْنِي بِهِ النَّاعِي وَأَسْمَعَنِي أَمْرًا بِهِ صِرْتُ مِثْلَ الشَّارِبِ
والواضح من خلال هذه الصورة أنه ليس ثمة إحياء يمكن أن يقبله
الذوق في الجامع بين الحالة حينما سمع الشاعر خبر الوفاة وبين السُّكْرِ .
وقد ركب الشاعر البحور الرصينة في المقامات الجليلة التي تناسبها
، كالمديح والثناء والشكوى ؛ حيث جاءت أغلب المدائح النبوية - مثلاً -
على البحر البسيط الذي يعد أكثر الأوزان التي نظم عليها شعره عامة ،
يليه الكامل ، فالطويل والوافر ، فالخفيف ، ثم الرجز ، فالرمل والسريع
والمتقارب . وندر مجيء الأوزان القصيرة ، ومما ورد منها في شعره :
مخلع البسيط ، ومجزوء الوافر ، ومجزوء الرمل ، ومجزوء المتقارب .
وعدد هذه الأوزان القصيرة في شعره لم يتجاوز أصابع اليد الواحدة
، وقد نظم عليها في مواقف بلغ فيها انفعاله النفسي مبلغاً قاده إلى الترنم
بأبيات ذات إيقاع سريع يتطلبه المقام ، ذلك "أن النظم حين يتم في ساعة
الانفعال النفساني ؛ يميل عادة إلى تخير البحور القصيرة ، وإلى التقليل
من الأبيات" (2) .

فالزمزمي - مثلاً - كان بعيداً عن موطنه ، فلاقى ركباً قد اصطحب
معه شيئاً مما يحمل - عادةً - من مكة وجدة برّاً وبحراً ؛ فتذكر أرض
الحجاز ، وأنشد في لحظة انفعاله قصيدة من ثمانية عشر بيتاً ، جاءت
على مجزوء الوافر ، منها قوله :

مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَنْسَى	فَرُوضَ الْحُبِّ أَوْ سُنَنَهُ
وَقَلْبِي كُلَّ أَوْنَةٍ	يَجِدُّ ذِكْرَهَا حَزَنَهُ
إِلَى سُوقٍ لِأَجْيَادٍ	أَهَاجَ مِنَ الْحَشَا شَجَنَهُ
رُبُوعٌ هُنَّ لِي سَكَنٌ	وَهَلْ يَنْسَى الْفَتَى سَكَنَهُ
سَقَى اللَّهُ الْحَجَّازَ وَمَنْ	أَتَى مِنْهُ وَمَنْ سَكَنَهُ
وَجَادَ رُبُوعَهُ دِيماً	يُرَوِّي وَبَلَّهَا دِمْنَهُ (3)

(1) النور السافر ، العيدروس ، ص326 .

(2) موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس ، ص197 .

(3) ديوان الزمزمي ، ورقة 101/أ . وصدر البيت الرابع في المصدر : (ربوعٌ وهن لي
سكن) ، فحذفت الواو ؛ لإقامة الوزن . وهذا أمر هيّئ بالنسبة لما نجده في ديوانه ؛ لأن
إصلاح البيت لا يتعدى حذف حرف ، إنما الإشكال الذي لم أشأ إثارتة هو كثرة

وقد أعجب بعدد من القصائد ؛ فتناولها بالتخميس ، كبردة البوصيري وغيرها من قصائده ، ومقصورة ابن دريد ، ومنظومة أبي مدين المغربي الميمية التي يقول من تخميسها:

كَمْ لَذَّةٍ جِئْتُهَا وَالْمُزْنَ هَاطِلَةٌ

وَنِسْمَةُ الرَّوْضِ فِي الْأَغْصَانِ سَارِيَةٌ

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَالْأَمْلَاقُ سَاهِدَةٌ

(أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا كَانَ فِي مَنِ الْخِلَافِ لِعَصْرِ الشَّيْبِ

إِسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَا مَنْ قَلْبُهُ اشْتَغَلَا

بِاللَّهِو عَمَّا إِلَيْهِ الْوَفْدُ قَدْ وَصَلَا

أَجِبْ وَأَلْبِ وَقُلْ لِلَّهِ مُبْتَهِلَا

(أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مَا سَارَ الْحَجِيحُ مَعَالِمِ شَرُفَتْ بِالْحِلِّ

والقافية المطلقة هي السائدة في قصائده ، كشأن شعراء مكة والمدينة ، والشعراء العرب عامة ، أما الحروف التي اتخذها رويًا فهي : (ء ، ب ، ت ، ج ، ح ، د ، ر ، ز ، س ، ض ، ف ، ق ، ك ، ل ، م ، ن ، ي) . وليس الهدف أن نقرر أن أغلب قوافيه مطلقة أو أنه اتكأ على الحروف السابقة في بناء قوافيه ، إنما الهدف أن ننظر في هذه القوافي ومدى ملاءمتها للمعاني التي أراد الشاعر أن يصدق بها ، وهل جاءت قلقة أو متمكنة في السياق .

وحين نتتبع قوافي الزمزمي ؛ نلاحظ التكلف في كثير منها وعدم حرصه على ملاءمتها لأفكاره ، إذ جاءت بعض القوافي مقيدة في حالات البث والشكوى التي تتطلب إطلاق العنان لصوته واختيار الحروف التي تساعد على التنفيس . والتقيد في مثل هذه الحالات يحبس النفس ويحجر

=

الأخطاء العروضية في الديوان بصورة لا تخفى على المتلقي ؛ حيث إن بعض الأبيات لا يمكن إصلاحه إلا بتغيير بعض الكلمات أو حذف بعضها وإضافة كلمات أو حروف قد تحيل المعنى .

وقد لجأ إلى الضرورة كثيراً ، خاصة قصر الممدود الذي يعد ظاهرة ليس في شعره فحسب ، بل عند سائر شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .

(1) المصدر السابق ، ورقة 108/أ ، ب .

الصوت ، وإذا كان الروي حرفاً شديداً (1) زاد من صعوبة النطق وأدى إلى قلق القافية ، مثال ذلك حرف الجيم في قوله مناجياً الباري - جل شأنه :-

رَبِّ وَاجْعَلْنَا عَلَى الْعَادَةِ فِي عَامِنَا مِمَّنْ إِلَى بَيْتِكَ حَجَّ
نَحْنُ جِيرَانُكَ وَالْجَارُ لَهُ جَانِبٌ يُزْعَى عَلَى أَلْفِ عَوَجٍ
أَنْتَ أَوْ صَيِّتَ لِلْجَارِ فَلَا تَنْسَ جَاراً مَسَّهُ الضَّرُّ فَهَجٌ (2)

فتوالي الجيم الساكنة في البيت بعد البيت يصك الأذن ، ويحدث قلقاً للسامع من جراء تعاقب هذا الصوت المجهور الذي لا تستريح إليه الأذن .

والحق أن الزمزمي قد استخدم بعض الحروف التي تعد من القوافي النفر ، فجاءت مقبولة ، كالزاي حينما وصلها بالهاء الساكنة في قوله :
قَدْ وَصَلْنَا السُّهَادَ طُولَ اللَّيَالِي وَقَطَعْنَا إِلَيْكَ عُرْضَ الْمَفَازَةِ
وَأَتَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ خَيْرِ وَادٍ بِكَ قَدْ أَظْهَرَ الْإِلَهَ امْتِيَازَهُ
تَتَبَارَى بِنَا الْمَطِيِّ اشْتِيَاقاً حِينَ يُمْلِي الْجَدَا عَلَيْهَا ارْتِجَازَهُ
لكنه لم يحسن اختيار اللفظة المناسبة للمقام ، كما تعمل للقافية في بعض أبياتها مثل قوله :

كُنْ لَنَا صَاحِباً إِذَا مَا ارْتَحَلْنَا وَامْتَطَيْنَا لِلْقَبْرِ ظَهَرَ الْجَنَازَةِ
يَا رَسُولَ الْإِلَهِ دَعْوَةَ عَبْدٍ مَلَكَتْهُ الذُّنُوبُ مُلْكَ الْحَيَازَةِ (3)

ذلك أن لفظة الجنازة ذات إحياء لا يناسب هذا الخطاب -الوارد في سياق المديح- الموجه لأشرف خلق الله -عليه الصلاة والسلام- كما أن إضافة الملك إلى الحيازة من إضافة الشيء إلى نفسه ، والقافية في مثل هذا لا فائدة لها في معنى البيت .

وقد عمد الزمزمي إلى مثل ذلك في قصائد عديدة ، منها قوله :
أَهْ مِمَّا جَنَيْتُ لَوْ كَانَ يُجْدِي قَوْلُهَا مِنْ عَظِيمِ ذَنْبٍ وَوَزِرٍ (4)

(1) "معنى الشديد : أنه الحرف الذي يمنع الصوت من أن يجري فيه" .

- سر صناعة الإعراب ، ابن جني 61/1 .

(2) ديوان الزمزمي ، ورقة 15/ب .

(3) المصدر السابق ، ورقة 23/أ .

(4) المصدر نفسه ، ورقة 22/ب .

فالقافية (وزر) مستدعاة لإقامة الوزن ؛ إذ إن المعنى تم بقوله :
(ذنب) ، وليس هناك إضافة معنوية ؛ لأن الذنب والوزر سواء في المعنى

ومثل ذلك قوله :

فَهَا أَنْتَ مَهْمَا أَمْ بِابِكَ طَالِبٌ لَأَمْرٍ يَهْنُ مِنْهُ الْعَسِيرُ وَيَسْهَلُ (1)

فالقافية (يسهل) لا تضيف للمعنى جديداً ؛ لأن الهين والسهل معناهما واحد .

(1) المصدر نفسه ، ورقة 29/أ . ويلاحظ أنه للضرورة لم يجزم الفعل (يسهل) على الرغم من أنه معطوف على جواب الشرط (يهن) .

الفصل السادس

الشعر في ميزان النقد

- 1- آراء نقاد العصر .
- 2- آراء النقاد المحدثين .
- 3- نقد وتقويم .

- 1 -

هناك آراء عديدة قيلت في الشعر والشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وهي آراء انطباعية - في الأغلب - تتكرر في كثير من كتب التراجم وبعض الكتب التاريخية ، ينقلها الخلف عن السلف.

وقد اجتهدت في استخلاصها واختيار الأحكام التي أذاعها أبرز العلماء الذين كان لهم عناية بالأدب في ذلك العصر ؛ إذ إن فترة الدراسة لم تحظ بنقاد متخصصين في مكة والمدينة ، يتابعون الشعر ، ويقومون أداء الشعراء ، بل وجدنا من يتذوق الشعر ، ويستشهد به في أثناء الترجمة لهذا الشاعر أو ذاك . ومن المؤلفين من يقرض الشعر ، ولديه القدرة على تمييز جوده من رديئه ، لكنه لا يتجاوز الأحكام الانطباعية التي تتوافق مع هدفه من الاستشهاد بالأبيات ، أو القصيدة لهذا الشاعر أو ذاك ، وهي - في الأغلب - أقوال لا تخلو من المبالغة غير المسوغة .

-2-

فابن حجر العسقلاني شاعر ذو بصر بالشعر ، وذوق يميز جوده من رديئه ، يقول في حديثه عن الشاعر أحمد بن محمد الحجازي : "وكان ينشد قصائد جيدة منسجمة ، غالباً في المديح ، فما أدري أكان ينظم حقيقة أو كان ظفر بديوان شاعر من الحجازيين وكان يتصرف فيه ، وإنما ترددت فيه لوقي في بعض القصائد على إصلاح في بعض الأبيات عند المخلص ، أو اسم الممدوح ، لكونه فيه زحاف أو كسر" (1).

وكان ابن حجر يمارس في نقده التوجيه ، وهي وظيفة من أهم وظائف النقد ، إذ إن "من أهم القضايا التي يثيرها النقد الأدبي ... قضية المضمون الأدبي وعلاقته بالفكرة الخلقية وقواعد السلوك الإنساني ، أو بعبارة أخرى محاولة تقويم الأدب على أساس ما تضمن من معاني الفضائل ، وبمقدار ما أشاد بها ورغب فيها ؛ بما صورها في صورة زاهية تبعث في نفوس المتلقين إعجاباً بها ، وتقديساً لمبادئها ، وكذلك عرض الرذائل بصورة تشمئز منها النفوس ، وتحملها على النفور منها"

(1) إنباء الغمر 56/4 .

(1)

وابن حجر مؤرخ وفقه ومحدث مشهور ، شغل وظائف الإفتاء والقضاء والتدريس ، وكان له مركز الصدارة بين المحدثين والحفاظ في العالم الإسلامي منذ بداية القرن التاسع الهجري (2) ، كما أنه شاعر – كما سبق – له نظرات في نتاج عدد من الشعراء ، ولم يكن يغفل في نقده الجانب الأخلاقي أو العقدي ، ذلك أن "صاحب المعتقد الديني إنما ينظر إلى معتقده نظرة خطيرة جداً ، فيبدو له الخطأ مصحوباً بنتائج خطيرة ، ويكون موقفه من الآراء التي تمس الدين – مهما يكن من حيويتها – موقف العازف عنها ، بل هو قد يضع حداً لقراءتها على الرغم مما فيها من بهجة ومتعة" (3).

وإذا كان ابن حجر قد أعجب ببعض الشعراء ونوه بشعرهم ، فإنه كان حريصاً على التنبيه على ما يجده من انحراف فكري أو عقدي ، كقوله – مثلاً – عن الشاعر أحمد الرداد : "وكان ناظماً ، ناثراً ، ذكياً ، إلا أنه غلب عليه حب الدنيا والميل إلى تصوف الفلاسفة ، فكان داعيةً إلى هذه البدعة ... وأكثر من النظم والتصنيف في ذلك الضلال المبين إلى أن أفسد عقائد أكثر أهل زبيد إلا ما شاء الله . ونظمه وشعره ينعق بالاتحاد" (4).

وقد يظن من يتلقى قوله : (ونظمه وشعره) أن ابن حجر يفرق بين مصطلحي النظم والشعر ، أو أنه لا يعد النظم شعراً. وقد تراءى لي ذلك ؛ فتتبعت آراءه في كتابه (إنباء الغمر) حتى اتضح أنه لا يقصد شيئاً من ذلك.

ولكنه على الرغم من ذلك كله يفرق بين مستويات الشعر ، فقد يعجب بالشعر ؛ فيصفه بالرائق على نحو قوله عن أحمد بن علي الفاسي : "مهر في عدة فنون ، خصوصاً الأدب ، وقال الشعر الرائق" (5).

وقد يكون الشعر أقل من ذلك مستوى ؛ فيصفه بالحسن ، كقوله عن

(1) قضايا النقد الأدبي ، بدوي طبانة ، ص 60 .

(2) إنباء الغمر 1/ مقدمة المحقق .

(3) قضايا النقد الأدبي ، بدوي طبانة ، ص 65 .

(4) إنباء الغمر 177/3 ، 178 .

(5) المصدر السابق 104/3 .

محمد بن أبي بكر المرجاني : "وله نظم حسن ونفاذ في العربية" (1).
وأقل مستويات الشعر عنده المقبول ، كقوله عن إسماعيل الزمزمي
: "وكان يتعانى النظم ، وله نظم مقبول ومدائح نبوية" (2).

- 3 -

وتناول عمر بن فهد - في كتابيه الدر الكمين ومعجم الشيوخ - عدداً
من الشعراء ، مبدئياً بعض الآراء الدالة على بصره بالشعر ؛ حيث اتضح
من خلال حديثه عن الشعراء تنوع الأحكام والجرأة في إذاعة رأيه ، فإن
أعجبه الشعر ؛ وسمه بالبراعة أو بالشعر المفلق ، كما أنه قد يصف
الشاعر بالبراعة ، كما فعل في حديثه عن الشاعر حسين العليف ، حيث
وصفه بالأديب البارع ، ثم قال : إنه " برع في الأدب ، وقال الشعر الجيد
، ومدح أمراء مكة بالشعر المفلق ، ولا نعلم أنه هجا أحداً" (3).

وقد يتابع الشاعر في مراحل حياته ؛ فيبين عن رأيه في شعره في
كل مرحلة ، نجد ذلك في مثل قوله عن الشاعر محمد بن عبدالقوي :
"وتعانى النظم ، فنظم نظماً سافلاً أولاً ، ثم أكثر من ذلك حتى انصقل
قليلاً ، ونظم نظماً وسطاً ، ثم نظم الشعر الجيد" (4). فإن كان الشعر رديئاً
؛ صدح برأيه ، على نحو قوله عن الشاعر عبدالرحيم الأميوطي : "وله
نظم كثير إلا أنه متلاش إلى الغاية" (5) .

وربما يرى أن بعض النظم قد توافرت فيه مقومات الشعر إلى حد
يقبله المتلقي في ذلك العصر ؛ حينئذ يصفه بالمقبول. وقد أطلق هذه
الصفة على شعر عدد من الشعراء ، مثل : أبي السعادات محمد بن
ظهيرة (6) ، وعبدالرحمن الواحدي (7) ، وغيرهما .

والسجع يقوده في بعض الأحيان إلى تكلف صفات لم يقصدها ،
كقوله عن الشاعر معمر بن عبدالقوي : "وله النظم الحسن السريع ،

(1) المصدر نفسه 338/3 .

(2) المصدر نفسه 556/3 .

(3) الدر الكمين 707/1 ؛ معجم الشيوخ ، ص 110 .

(4) معجم الشيوخ ، ص 234 .

(5) الدر الكمين 841/2 ؛ معجم الشيوخ ، ص 137 .

(6) الدر الكمين 336/1 .

(7) المصدر نفسه 813/2 .

والنثر البديع" (1). فإذا سلمنا بأن له نثراً بديعاً ؛ فما معنى أن يكون النظم الحسن سريعاً ؟!

والحسن صفة أطلقها على الشعر الذي يقع بين الجودة والوسط ، وقد وسم بذلك نتاج عدد من الشعراء ، كأحمد القليوبي الذي ذكر أنه نظم الشعر الحسن ، وأنه أنشده منه كثيراً (2). ومنهم علي بن داود الكيلاني ، حيث قال عنه : "وله نظم حسن أنشدني منه كثيراً" (3).

وغني عن البيان أن ابن فهد يصنف الشعر ويطلق الأحكام العامة على الشعراء الذين بين يديه وفق ذوقه الذي يعد نتاج ذلك العصر ، فحسن البيان كما تداوله النقاد هو "الإبانة عما في النفس بعبارة بليغة بعيدة عن اللبس ؛ إذ المراد منه إخراج المعنى إلى الصورة الواضحة ، وإيصاله إلى فهم المخاطب بأسهل الطرق. وقد تكون العبارة عنه تارة من طريق الإيجاز ، وطوراً من طريق الإطناب بحسب ما يقتضيه الحال ، وهذا بعينه هو البلاغة وحقيقتها . وفي البيان الأقبح والأوسط والأحسن" (4).

ولو أردنا أن نحكم على شعر ذلك العصر بهذا المقياس ، لما قبلنا كثيراً من الأحكام التي أطلقت على شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ لأن الحسن الذي يعد منزلة متقدمة في البلاغة لا يتناسب والأبيات التي يستشهد بها للدلالة على ذلك ، وأقرب شاهد بين أيدينا حديث ابن فهد عن الشاعر إبراهيم بن أحمد الخجندي ، حيث قال : "ونظم الشعر الحسن" ، ثم قال : فمنه [أي : من شعره الحسن] ما كتب به في الاستدعاءات :

أَجَزْتُ لَهُمْ أَبْقَاهُمْ اللَّهُ كُلَّ مَا رَوَيْتُ عَنِ الْأَشْيَاخِ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ
وَمَالِي مِنْ نَثَرٍ وَنَظْمٍ بِشَرَطِهِ عَلَى رَأْيٍ مَنْ يَرْوِي الْحَدِيثَ وَمَنْ
وَأَسْأَلُ إِحْسَاناً مِنَ الْقَوْمِ دَعْوَةً تُحَقِّقُ لِي الْأَمَالَ وَالْأَمْنَ فِي
وَإِذَا كَانَ مَفْهُومُ الشَّعْرِ الْوَسْطِ أَنَّهُ أَقْلُ مِنَ الْحَسَنِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ

(1) المصدر نفسه 1204/2 .

(2) المصدر نفسه 526/1 .

(3) المصدر نفسه 1027/2 .

(4) خزانة الأدب ، ابن حجة 482/2 .

(5) معجم الشيوخ ، ص 38 .

مضطرب عند ابن فهد ، فهو - مثلاً - يشير إلى أن الشاعر إبراهيم الزمزمي قد نظم الشعر الوسط ، وأنه أنشده منه (1) ، ثم يذكر نماذج من شعره ، منها :

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَجَاوَزَتْهَا قَدْ أَغْبَتْ عَيْنِي بِمِثْلِ الدَّخَانِ
بِحَيْثُ لَا أَكْتُبُ خَطًّا وَلَا أَقْرُوهُ وَرَبِّي الْمُسْتَعَانِ
وَحُكْمُهُ فِي خَلْقِهِ نَافِذٌ لَا مَانِعَ يَمْنَعُهُ فِي أَذَانِ
تَبَارَكَ اللَّهُ إِلَهُ الْوَرَى سُبْحَانَهُ قَدَّرَ شَيْئًا وَكَانَ
وَصَلَ يَا رَبِّ عَلَى الْمُصْطَفَى وَالْآلِ وَالْأَصْحَابِ طُولَ الزَّمَانِ (2)

والناظر في هذه الأبيات وما قبلها من أبيات أدرجها ابن فهد ضمن الشعر الحسن ؛ يدرك أنها متقاربة في الضعف ، وكان ينبغي أن يحكم عليهما حكماً واحداً.

- 4 -

أما شمس الدين السخاوي فقد تناول نتاج بعض الشعراء عرضاً وتعليقاً ؛ حيث ترجم في كتابيه (الضوء اللامع ، والتحفة اللطيفة) لمجموعة من شعراء مكة والمدينة ، وذكر شيئاً من نتاجهم ، مبدئياً آراءه في الشعر والشعراء في كثير من الأحيان ، وهي في الغالب أحكام انطباعية لا تخلو من ذوق حسن ، وإن كنا نجد في عدد منها أحكاماً مقتضبة لا تحمل تعليلاً ، كقوله عن الشاعر محمد بن عبد القوي : "وتعانى الشعر ، فتميز فيه... وكان ذا نظم جيد" (3) ، وكقوله في حديثه عن الشاعر علي بن محمد الخجندي : "له النثر الحسن والنظم الكثير الجيد" (4) ، أما الشاعر معمر بن عبد القوي فإنه في نظر السخاوي "زائد البراعة في الأدب ، حسن الإنشاء نظماً ونثراً" (5) ، كما أن الشاعر محمد بن علي العبدري قد "نظم الشعر الحسن ، وتمهر في الأدب" (6). وعلى الرغم من عمومية الأحكام أو انطباعيتها ، فإن الواضح أن

(1) الدر الكمين 603/1 .

(2) المصدر نفسه 606/1 .

(3) الضوء اللامع 71/8 .

(4) التحفة اللطيفة 246/3 .

(5) الضوء اللامع 163/10 .

(6) المصدر نفسه 13/9 .

السخاوي يميز بين مستويات الشعر ، وإن كان مفهومه للشعر الحسن مختلفاً عن مدلوله النقدي الذي أشار إليه - مثلاً - ابن معصوم بقوله : "حسن البيان هو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير ، وإنما سمي هذا النوع بحسن البيان ؛ لأنه عبارة عن الإفصاح عما في النفس بألفاظ سهلة ، بليغة ، بعيدة عن اللبس ، من غير حشو مستغنى عنه يكاد يستتر وجه حسن البيان ويغطي واضح التبيان" (1).

يؤيد ما ذكرته أن الشعر الحسن عند السخاوي أقل درجة من الشعر الجيد ، نستوحي ذلك من بعض عباراته ، كقوله - مثلاً - عن الشاعر أحمد بن مسدد الكازروني : "وتعانى النظم والنثر وأتى منهما ما لعله يستحسن" (2) ، كما يقول عن الشاعر أحمد بن علي الفاسي : "وله تأليف في مسائل ونظم كثير ونثر ، ويقع له من ذلك ما يستحسن" (3).

ويبدو أن الاستحسان عنده هو أن يكون مقبولاً ، لكنه لا يصل إلى درجة الجودة التي وسم بها نتاج عدد من الشعراء ؛ ذلك أنه في حديثه عن الشاعر محمد بن أبي بكر ابن طولون قال : إنه "مهر في الأدب ، ونظم الشعر المقبول... وكان إماماً ، عالماً ، كثير التواد ، ظريف المحاضرة والمحادثة ، بارعاً في الأدب ، ذا شعر حسن" (4).

والواضح من خلال وصفه الشعر بأنه مقبول وحسن ؛ أنهما نعتان متقاربان عنده ، إن لم يكونا بمعنى واحد.

والشعر الوسط عند السخاوي هو الذي يقع بين الجيد والمقبول أو الحسن ، وهي منزلة شعرية جعل فيها مجموعة من الشعراء المكيين والمدنيين ، منهم الشاعر جلال الدين أبو السعادات بن ظهيرة ، الذي ذكر أنه "ذو نظم وسط" (5) ، وكذلك الشاعر نابت الزمزمي الذي قال عنه السخاوي : "وله نظم متوسط" (6).

وإذا بلغ الشعر من الجودة مبلغاً ؛ نعته السخاوي بالبراعة ، أو بالشعر المفلق ، أي : المعجب الذي يوصف صاحبه بالحق ، نجد ذلك في مثل قوله عن الشاعر حسين العليف : "وتقدم في فنون الأدب ، وقال

(1) أنوار الربيع 290/6 .

(2) الضوء اللامع 225/2 .

(3) التحفة اللطيفة 207/1 .

(4) المصدر السابق 533/3 .

(5) الضوء اللامع 215/9 .

(6) المصدر نفسه 195/10 .

الشعر الجيد ، ومدح أمراء مكة بالشعر المفلق" (1) ، وكذلك قوله عن الشاعر محمد بن عبد القوي أيضاً : "وتعاني الشعر ، فبرع فيه" (2).
 ووصف بعض الشعر بالرداءة ، كقوله عن شعر علي بن ناصر الحجازي : "وأكثره سفساف ، وربما لا يكون موزوناً" (3).
 وقد يتناول قصيدة ، فيظهر مواطن الجودة والإخفاق فيها ، كقوله عن قصيدة علي بن حسن بن عجلان التي منها :
 وَإِنْ نَالَ الْعُلَا قَرْمٌ بِقَوْمٍ رَقِيَتْ غُلُوْهَا فَرْدًا وَحِيدًا
 إنها "قصيدة طويلة جداً ، جزلة الألفاظ ، عذبتها ، جيدة المعاني ، ليست بعيدة عن تمكن قوافيها ، لكنها فاشية اللحن" (4).

- 5 -

وعبد القادر العيدروس عالم شاعر ، أخذ عنه كثير من أعلام عصره ، له ديوان شعر ومصنفات عديدة تدل على سعة اطلاعه . وقد أظهر استحسانه لكثير من النماذج الشعرية التي أوردها في كتابه (النور السافر) ، وبالع في إعجابه بالشعراء وشعرهم ، مطلقاً ألقاباً ، وصفات مكررة.

والواضح أنه يطلق صفة الحسن على الشعر دون تمييز بين المستحق وغيره ؛ فالشاعر عبدالعزيز بن علي الزمزمي – مثلاً – ليس من الشعراء المجيدين ، وعلى الرغم من ذلك وصف شعره بالحسن ، إذ يقول : "إنه كان أوحد الفضلاء ، وبقية العلماء ، حسن الشعر والإنشاد" (5).

ويبدو أنه يراعي السجع أكثر من حرصه على مطابقة الحكم على صاحبه ، يقول بعد ذلك : "ومن شعره الحسن [يعني الزمزمي] أبيات الفرج التي استغاث فيها بصاحب الخلق الحسن" (6) ، ثم ذكر القصيدة التي مطلعها :

-
- (1) المصدر نفسه 156/3 .
 - (2) التبر المسبوك ، ص 249 .
 - (3) الضوء اللامع 45/6 .
 - (4) المصدر السابق 211/5 .
 - (5) النور السافر ، ص 428 .
 - (6) المصدر نفسه ، ص 428 .

يَا رَسُولَ اللَّهِ عَجَلٌ بِالْفَرْجِ قَدْ تَوَالَى الْكَرْبُ وَاشْتَدَّ

وحسن النظم أعلى درجات الشعر عنده ، يؤكد ذلك قوله بعد حديثه
عن الشاعر أحمد العليف : "ومن نظمه الحسن هذه القصيدة العظيمة
المشتملة على الفصاحة التامة والأمثال العجيبة" (2) ، ثم أثبت قصيدته
التي مطلعها :

خُذْ جَانِبَ الْعُلْيَا وَدَعْ مَا يُتْرَكُ فَرِضَا الْبَرِيَّةِ غَايَةً لَا تُدْرِكُ (3)

وقد أشاد العيدروس بالشاعر عبدالمعطي باكثر ، مشيراً إلى بعض
قصائده ، ثم أثبت إحداها كاملة ، قائلاً في التقديم لها : "ومنها هذه
القصيدة الفريدة ، وقد أجاد فيها كل الإجادة ، والله دره ، ولحسنها أتيت
بها بكمالها ، فإنها مما تشهد له بالفضل العظيم والفصاحة الكاملة" (4).
والمبالغة صفة اصطبغت بأحكامه على كثير من الشعر ، حتى إن
القصائد عنده أصبح منها ما يوصف بالقصيدة العظيمة (5) ، أو المراثية
العظيمة (6) ، أو القصيدة الطنانة (7) ، وما أشبه ذلك مما مرّ آنفاً.

- 6 -

ويعد نجم الدين الغزي أحد علماء عصره ، له مؤلفات عديدة ،
وشعر أغلبه نظم جاء في مطولات. وله آراء انطباعية وأحكام عامة في
بعض الشعراء ، يسوقها في معرض حديثه عنهم في كتابه (الكواكب
السائرة) ، كقوله عن الشاعر عبداللطيف باكثر : "وكان له شعر حسن
، منه الموشح المشهور في القهوة" (8) ، ثم ذكره. والموشح الذي جعله
أنموذجاً لشعره الحسن غير جيد في سبكه ، فيه أخطاء كثيرة وضعف في
السبك (9) ، كما أنه قد يحكم على الشاعر من خلال بعض شعره ، كقوله

(1) المصدر نفسه ، ص 429 .

(2) المصدر نفسه ، ص 181 .

(3) المصدر السابق ، ص 181 .

(4) المصدر نفسه ، ص 484 . وانظر القصيدة في ص 484 ، 485 .

(5) المصدر نفسه ، ص 326 ، 484 .

(6) المصدر نفسه ، ص 364 .

(7) المصدر نفسه ، ص 472 .

(8) الكواكب السائرة 180/2 .

(9) انظر النص في المصدر نفسه 180/2 .

عن محمد بن أحمد النهروالي : "ونظم الشعر ، ونظمه في غاية الرقة ،
منه الزائفة المشهورة عنه :

أَقْبَلَ كَالْغُصْنِ حِينَ يَهْتَزُّ فِي حُلٍّ دُونَ لُطْفِهَا الْخَزْ (1)

والقصيدة تحوي أبياتاً في غاية الرقة ، لكنها جزء من نتاج الشاعر
الزائر بالقصائد الجزلة. وقد يظن من يتلقى حكمه هذا أن نظم كله في
غاية الرقة . ولو قال - مثلاً - : وله نظم في غاية الرقة ؛ لكان أجدى .
وليته علق على القصيدة دون تعميم الحكم على شعره كله ، كما فعل في
إحدى قصائد الشاعر أحمد العليف ؛ حيث أشار إلى أنه من مداحي
السلطان بايزيد ، وأنه كتب في مدحه قصيدة رنانة مطلعها :

خُذُوا مِنْ ثَنَائِي مُوجِبَ الْحَمْدِ وَمِنْ دُرِّ لَفْظِي طَيِّبَ النَّظْمِ (2)

- 7 -

وكان شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي "حسن الإنشاء نثراً ،
جميل القول شعراً" (3) ، وهو "نقادة حسن الذوق في اختيار نماذج الشعر
، ولكنه كثير الاستطراد" (4). وقد أشاد معاصروه ببلاغته ، وبالعالم المحبي
حينما قال : "إنه واحد عصره بلا خلاف ، وأقرت له علماء دهره في
حيازة سبق بالاعتراف ، فانتهدت إليه اليوم بلاغة البلغاء ، فما تظل
الخضراء ولا تقل الغبراء في زماننا أجرى منه في ميدانها ، وأحسن
تصرفاً بعنانها" (5).

والمتابع لأسلوب الخفاجي في كتابه (ريحانة الألبا) يلحظ رشاقة لغته
، وحرصه على صيغ عباراته بألوان البديع ، كالجناس والسجع
وغيرهما. وهو ابن عصره الذي شهد عناية بالغة بالمحسنات البديعية.
يقول في حديثه عن الشريف أبي نمي بن بركات : "وله شعر بليغ ،
نفحاته ذكية ، وفصاحته عليّة علويّة" (6). وقد تناول عدداً من الشعراء
المكيين والمدنيين ، ذاكراً شيئاً من نتاج الشاعر مسبوqاً بأسلوب مسجوع

(1) المصدر السابق 45/2 .

(2) المصدر نفسه 123/1 .

(3) معالم الأدب العربي في العصر الحديث ، عمر فروخ 630/2 .

(4) المرجع نفسه 631/2 .

(5) خلاصة الأثر 334/1 .

(6) ريحانة الألبا 384/1 .

يدبج به نماذجه ، كقوله — مثلاً — في حديثه عن الشاعر محمد بن أحمد النهروالي :

"فمما تهادته الركبان من شوارده ، وعُلّق في كعبة الفصاحة من نتفه وقصائده ، قوله:

أَقْبَلَ كَالْغُصْنِ حِينَ يَهْتَزُّ فِي حُلٍّ دُونَ لُطْفِهَا الْخَزْ
مُهْفَهَفُ الْقَدِّ دُوْ مُحَيَّا بَعَارِضِ الْخَدِّ قَدْ تَطَرَّرُ" (1)

وحرصه على تنميق عباراته جعل حديثه عن الشاعر مقطوعة أدبية جميلة التعبير ، من ذلك قوله عن الشاعر أحمد المدني : "درّ في حقاق الدهر يتيم ، ودوحة أدب هزها مرور النسيم ، بعذب طبع مسلسل ، وبرد فصاحة على الشعر مهلهل ، إذا نسج حلله على منوالها فهو في الطراز الأول ، فهو توعم نسيم السحر ، وشقيق الماء والزهر ، وربيب الحسن سقاه ماء الصبّا ، وخذن الخمائل عليها رسول الصبّا ، مع خلاعة ومجون ، وحديث صباية كلها شجون..." (2).

هكذا كان في تناوله الشعراء ؛ يثني على الشاعر ثناء مفرطاً ، لكنه لا يدع الإشارة إلى ما في شعره من وهن خلقي - إن وجد - . من ذلك أيضاً قوله في حديثه عن الشاعر محمد البخاري : "رأيت فرأيت منه عذب بيان بديع ، في صورة أديب خليع... وله ربيع أدب وريق ، وسلافة خلاعة نقلها قُبْلُ وريق" (3).

وقد يومئ إلى بعض القضايا اللغوية ، ويشيد ببعض الصور الجيدة في الأبيات التي يستشهد بها ، كما فعل في كلامه على شعر جمال الدين الإسفراييني ؛ حيث ذكر أن من شعره قوله :

فَنَجَانُ قَهْوَةِ ذَا الْمَلِيحِ وَعَيْنُهُ الـ كَخَلَاءِ حَارَتْ فِيهِمَا الْأَلْبَابُ

(1) المصدر نفسه 409/1 .

(2) المصدر نفسه 428/1 .

(3) المصدر نفسه 437/1 . وأبو المعالي علاء الدين محمد بن عبد الباقي البخاري المكي ، عالم ، شاعر ، عمل في القضاء ، وكان خطيباً في المدينة المنورة في أواخر القرن العاشر الهجري . من آثاره : الطراز المنقوش في محاسن الحبوش ، ألفه سنة 991هـ ، وعقد الفرائد فيما نظم من الفوائد .

- انظر ترجمته في : ريحانة الألبا ، الخفاجي 437/1 ؛ تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان 309/3 ؛ معجم المؤلفين ، كحالة 123/10 .

فَسَوَادُهَا كَسَوَادِهَا وَبَيَاضُهَا كَبَيَاضِهَا وَدُخَانُهَا الْأَهْدَابُ (1)

ثم علّق على ذلك قائلاً : "قال أبو منصور الجواليقي في كتاب (المعرب) : الفنجان معرّب ، وصوابه : فنجانة ، وفيه نظر. وتشبيهه الدخان بالأهداب تشبيه بديع" (2).

- 8 -

ويعد محمد بن أبي بكر الشلي أحد علماء القرن الحادي عشر الهجري ، له مؤلفات في علوم مختلفة. ومن يطلع على كتابه (السنا الباهر) يلحظ أنه من متذوقي الشعر ؛ إذ إنه يستشهد ببعض النماذج للمترجم له ، موضحاً رأيه في كثير من الأحيان. ويظهر من خلال النماذج الشعرية في كتابه أنه حريص على إثبات أفضل ما بين يديه من شعر الشاعر.

والمختار عنده هو الشعر الحسن ؛ فالشاعر أبو الخير محمد بن ظهيرة "له نظم حسن" (3) ، والشاعر عبداللطيف بن أحمد باكثير "كان ينظم النظم الفائق الحسن ، وينثر النثر البليغ المستحسن" (4).

والشلي قد نهج منهج النقد القديم في إطلاق صفة الحسن على ما جاد من الشعر ، فابن قتيبة أشار في حديثه عن طرفة إلى معلقته ، وقال : "وله بعدها شعر حسن" (5) ، كما ذكر أن جريراً "أنشد بعض بني أمية قصيدته التي أولها :

بَانَ الْخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا أَوْ كُلَّمَا جَدُّوَا لِبَيْنٍ تَجَزَّعُ
كَيْفَ الْعَزَاءُ وَلَمْ أَجِدْ مُذْ بِنْتُمْ قَلْبًا يَقِرُّ وَلَا شَرَابًا يَنْقَعُ

وهو يتحفز ويزحف من حسن الشعر ، حتى إذا بلغ إلى قوله :
وَتَقُولُ بَوَزَعٌ قَدْ دَبَبْتَ عَلَى هَلَّا هَزْنَتْ بَغِيرَنَا يَا بَوَزَعُ!
"قَالَ لَهُ : أفسدت شعرك بهذا الاسم ، وفتر" (6).

وكثيراً ما يشفع الشلي كلامه على الشعراء بنماذج تؤيد رأيه ، نحو

(1) ريحانة الألبا 417/1 .

(2) المصدر نفسه 418/1 .

(3) السنا الباهر ، ورقة 37/أ .

(4) المصدر نفسه ، ورقة 226/ب .

(5) الشعر والشعراء 185/1 .

(6) المصدر نفسه 70/1 .

قوله عن الشاعر جمال الدين العومني : "وكان يغلب عليه العشق مع الديانة والصيانة ، وله نظم حسن ، فمن نظمه القصيدة التي يتغنى بها أهل مكة" (1).

ثم ذكر القصيدة التي بدأها الشاعر قائلاً :
قَلْبِي بِمُوسَى الْعِشْقِ مِنْكَ كَلِيمٌ وَحَشَايَ مِنْ أَلَمِ الصَّدُودِ سَقِيمٌ
وَالْهَجْرُ أَضْرَمَ فِي فَوَادِي نَارَهُ يَا جَنَّتِي وَالْوَصْلُ مِنْكَ مُقِيمٌ
يَا مَنْ سَبَى قَلْبِي بِغُصْنِ قَوَامِهِ قَلْبِي عَلَيْهِ لَا يَزَالُ يَحُومُ
رَحَلْتُ عَنْ جَفْنِي الْقَرِيحِ مَنَامُهُ وَهَوَاكَ فِي قَلْبِي الْجَرِيحِ مُقِيمٌ⁽²⁾

ولم يكن ممن يقف عند النواحي الفنية في النماذج الشعرية التي يوردها ؛ لذلك لم يشر حتى ولو إشارة عابرة إلى الإيطاء الحاصل في هذا النص بين قافيتي البيتين الثاني والرابع ، بل اكتفى بعبارات عامة ، مثل قوله عن الشاعر أبي عبدالله الفيومي : "وله ديوان شعر حافل على طريقة المتأخرين في الشعر من المثابرة على الرقة والنكت البديعة على طريقة شيخ الأدباء ابن نباتة" (3).

وابن نباتة مشهور بين أبناء عصره بغلبة الفنون البديعية على شعره ، وبتكوين مذهب رمزي عربي خاص ، لم يعرف عند غيره من الشعراء ؛ حيث كثرت التورية في شعره كثرة غريبة ، لكنها جاءت مهذبة منسجمة مستساغة ، فهي... لم تستخدم لغرض الإبهام واللعب بالألفاظ ، وإنما غرضها الإيحاء الذي يستلهمه القارئ دون أي جهد أو تكلف. واقترن مذهب التورية بالعذوبة والحلاوة ، وتميز بالرقة والانسجام (4).
وجرى الشلي خلف السجع في تناوله الشعراء وحديثه عن آثارهم ، نجد ذلك في قوله عن الشاعر عبدالرؤوف الواعظ : "وله نظم حسن رقيق ، أقر له بالرق حر القول من جديد وعتيق" (5).
وقد يبالغ في حديثه عن بعض الشعراء ، كقوله عن الشاعر

(1) السنا الباهر ، ورقة 261 /ب.

(2) المصدر نفسه ، ورقة 261/ب .

(3) المصدر نفسه ، ورقة 17/ب .

(4) انظر : تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي) ، عمر موسى باشا ، ص 382 ، 383

(5) السنا الباهر ، ورقة 372/ب .

عبدالعزیز بن علی الزمزمي : "وحظي بالعربية والأدب ، وتميز منهما نظماً ونثراً بأعلى الرتب ، وله النظم فاق به على سحبان ، وسارت به الركبان ، ولو لم يكن له إلا الهمزية – أتى فيها بالعجب العجاب ، ودعا قصي الإجابة ، فكان المجاب – لكفته دلالة على تقديمه وما أحرزه في حديثه مضافاً إلى قديمه" (1).

وقد تأتي المبالغة من خلال بعض العبارات المسجوعة في ديباجة بعض القصائد ، كقوله - مثلاً - : "كل بيت بقصيدة ، بل كل بيت أعلى من القصور المشيدة ، وأعلى من الدرر الخريدة ، بنمط بديع ، وأسلوب فائق لا يقدر عليه كل قائل ، ولا يحظى معارضه بطائل ، يملأ الأسماع عجباً ، ويهز الأجساد طرباً" (2). ثم ذكر قصيدة الشاعر عبداللطيف بن أحمد باكثير التي يقول منها :

هَتَفَ الْفَخَّارُ بِهَا وَغَرَّدَ	أَنَا قَاعَةَ الْمَجْدِ الَّتِي
دِ وَأَزْدَرِي الصَّرْحَ الْمَمَرَّدَ	... أَسْمُو عَلَى ذَاتِ الْعَمَا
قَ وَلَا أَزْدَرِي الْإِكْلِيلَ مَقْعَدَ	وَأَطَاوِلُ السَّيْبِ الطَّبَا
نَهْرَانِ مِنْ وَرَقٍ وَعَسْجَدَ	وَبِرَوْضِ سَقْفِي قَدْ جَرَى
دَ وَأَنْبَتَا نُورَ الزَّبَرْجَدِ (3)	سَقِيَا عُرُوقَ اللَّارُورِ

- 9 -

وكذلك كان محمد بن علي الطبري ؛ إذ اتسمت آراؤه بالمبالغة ، وإطلاق الأحكام العامة التي كان حريصاً فيها على السجع ، على نحو قوله عن الشاعر أحمد العليف : "شاعر البطحاء ، المادح للخلفاء ، المانح بجواهر الكساد لياقوتة الدلفا ، الذي طالما أوفد من الذهب المخزون وبالأ ، وأورد الركائب خفافاً وأصدرها ثقلاً ، فارس ميدان الفضائل ، صاحب ذيل البلاغة على سحبان وائل ، حكى قريضه الروض الأريض ، وصار إليه فيه التفويض ، وله قصائد مطولة ، طالت رماحها ، وطابت بمسكي نفسه رياحها ، كفصاحة افتقد ذروتها ، وقرع صفاها ومروتها ، إلى أن دعي إلى اللقاء ونقله مولاه إلى دار البقاء" (4).

(1) المصدر نفسه ، ورقة 350/أ .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 229/ب .

(3) المصدر السابق ، ورقة 229/ب .

(4) إتحاف فضلاء الزمن 368/1 ، 369 .

و لا يخفى أن السجع هنا جاء مقصوداً ، حتى إن الجمل أصبحت تتلاحق طلباً للسجع.

والطبري لم يتخذ مثل هذا منهجاً ، أو أسلوباً يبيث من خلاله آراءه في الشعراء ، بل قد يأتي السجع في جملة أو جملتين على نحو قوله عن الشاعر الشريف أبي نمي : "له النثر الفائق والشعر الرائق" (1). وهو ما عمد إلى ذلك في مديحه العليّف إلا لأنه بلغ عنده ذروة الشاعرية ؛ فالسجع في الوصف في عصره – كما ذكر الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري – "دليل على رفعة شأن المسجوع له ، فلا يسجع في تلك العصور لشخص إلا إذا كان سباقاً إلى العلياء فيما اشتغل به أدباً أو علماً أو سياسة أو عطاء..." (2).

ولم تكن الأحكام التي يجهر بها الطبري نتيجة لتمرسه بالأعمال الأدبية ، بل خلاصة خبرته المتأثرة بثقافة العصر ؛ حيث نجد إطلاق حكم عام مثل قوله عن الشاعر محمد النهروالي : "وله نظم لطيف" (3) ، ثم ذكر نماذج من شعره فيها الجيد والوسط (4).

والواضح أنه يطلق الأحكام دون أداة نقدية تميز بين مستويات الشعر ؛ فهو – مثلاً – قد نعت نظم الشريف علي بن حسن بن عجلان بالركة ، ثم ذكر نموذجاً جزلاً ؛ حيث استشهد بقصيدته التي مطلعها :
وإن نال العُلا قَرَمَ بِقَوْمٍ رَقِيْتُ عُلوها فَرْدًا وَحِيدًا (5)

(1) المصدر نفسه 561/1 .

(2) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، أبو الخير ، ص22 (تصدير الكتاب) .

(3) إتحاف فضلاء الزمن 553/1 .

(4) انظر المصدر نفسه 553-559 .

(5) المصدر نفسه 241/1 .

2 - آراء النقاد المحدثين :

لا نكاد نجد ناقداً صرف جهده للتعريف بشعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين وعرض بعض نتائجهم مصحوباً بآرائه النقدية عن الشعر والشاعر - سوى الدكتور عمر فروخ في كتابه (معالم الأدب العربي في العصر الحديث) ، أما بقية النقاد المعاصرين الذين تناولوا الشعر في ذلك العصر فإنهم إما أن يكونوا قد تناولوا دراسة تلك العصور فيومئون إلى الشعر في مكة والمدينة ، كالدكتور شوقي ضيف في كتابه (تاريخ الأدب العربي - عصر الدول والإمارات) والدكتور عائض الرادادي في كتابه (الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري) ، أو أن يكونوا قد تناولوا أثراً من آثار أحد الشعراء ، فيترجمون له ، ويصدرون بعض الآراء النقدية الموجزة ، كالأستاذ عبدالقدوس الأنصاري ، والدكتور رشيد عبدالرحمن صالح ، والأستاذ عبدالله عبدالجبار ، والشيخ حمد الجاسر.

فقد أشار الدكتور شوقي ضيف إلى الشعر في المدة التي نحن بصدد الحديث عنها في معرض حديثه عن الشعر في الجزيرة العربية من سنة 334هـ إلى العصر الحديث⁽¹⁾ ، حيث ذكر أن الشعر ظل حياً يجري على الألسنة طوال هذا العصر ، وأن الحجاز - وخاصة مكة - دار كبيرة للشعر والشعراء من أهلها الذين ولدوا بها ، وأنفقوا حياتهم فيها ، مشيراً إلى أنهم كانوا يستمعون إلى من يفد عليها من الشعراء ، ويقوم فيها بين ظهرانيهم ، حيث كان ذلك غذاءً سائغاً لشاعرياتهم ، وكانوا يقرؤون دواوين الشعراء المشهورين ، وكثير منهم كانت لديه ملكة شعرية خصبة.

وقد تناول الدكتور شوقي ضيف بعض الشعراء ، مظهراً بعض الآراء النقدية التي أراني مجبراً على عدم إثباتها ؛ لأنها إما أن تكون لشعراء في المدة المدروسة ولكنهم ليسوا من مكة أو المدينة ، أو أنهم من هذه البيئة لكنهم ليسوا من شعراء القرنين التاسع أو العاشر الهجريين. أما شعراء مكة والمدينة في هذين القرنين فقد عرض لهم في أثناء حديثه عن بعض الكتب من خلال الإيماءة العابرة التي لا تصل إلى الحكم

(1) انظر كتابه: تاريخ الأدب العربي - عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية ، العراق ، إيران) ، ص 88 .

النقدي الموضوعي ؛ فهو — مثلاً — عندما تحدث عن كتاب (سلافة العصر) لابن معصوم ، أشار إلى أنه ترجم لبعض شعراء القرن العاشر ، وأن أكثر أشعارهم مدائح لأمرء مكة ، ولاحظ كثرة تصنعهم لألوان البديع ، وللتعبير عن التواريخ ، وكثرة المدائح النبوية والمناجاة الإلهية⁽¹⁾ .

أما الدكتور عمر فروخ فقد أظهر مجموعة من الأحكام النقدية على عدد من الشعراء ، قال عن الشاعر أحمد العليف : "كان متكلماً بليغاً وشاعراً مقبول الشعر"⁽²⁾ .

كما ذكر أن عبدالقادر الفاكهي كان "ناثراً وشاعراً ، وشعره الذي وصل إلينا مقطعات يغلب عليها الإيجاز... وفيها من استجماع المعاني أكثر مما فيها من طلاوة الشعر ، وهي أغراض وجدانية عارضة (آنية)"⁽³⁾ .

وتناول الشاعر عبدالمعطي باكثير قائلاً : "وكان شاعراً سهلاً الألفاظ ، واضح المعاني ، عادي الموضوعات ، وينوء شعره بشيء من الضعف ، ويغلب على شعره النفس الديني"⁽⁴⁾ .

ولمحمد بن أحمد النهرولي كما يقول الدكتور عمر فروخ : "شعر متين حيناً ورقيق حيناً آخر ، وفنون شعره الفخر والمدح والإخوانيات والغزل والخمر والأدب (الحكمة)"⁽⁵⁾ .

أما محمد الفاكهي فقد كان "شاعراً مكثراً ومطيلاً ، ولكن في شعره ضعفاً كثيراً من حيث اللغة ، ومن حيث النظم أيضاً"⁽⁶⁾ .

ويقابلنا الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري في تصديره لكتاب (المختصر من كتاب نشر النور والزهر) ببعض الآراء حول شعراء مكة الواردة تراجمهم في الكتاب. ومن هؤلاء الشعراء أحمد العليف ، حيث أشار إلى أنه من الشعراء الذين يعدون واسطة العقد في أيامهم ؛ فهو — في نظره —

(1) انظر : المرجع السابق ، ص 106 .

(2) معالم الأدب العربي في العصر الحديث 219/1 .

(3) المرجع نفسه 467/1 .

(4) المرجع نفسه 493/1 .

(5) المرجع نفسه 499/1 .

(6) المرجع السابق 521/1 .

من الشعراء الفحول في عصره ومصره (1).

وقد حقق الدكتور رشيد عبدالرحمن صالح كتاب (تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب) لعبدالرحمن بن عبدالله باكثير ، فتناول المؤلف بالدراسة ، مفرداً مبحثاً للحديث عن أدبه وشعره ، قال فيه : "أما شعره فأكاد أرى فيه أنه من المعدودين بقوة الشاعرية في عصره . ولست أبالغ إذا قلت : إن شعره يميل بطابعه إلى مكانة الشعراء العباسيين من حيث الاختيار للألفاظ ورسم الصورة الشعرية. وهو في شاعريته أمتن وأقوى من نثره ... شاعر مداح ، وصاف ، حلو الصنعة مع رقة طبعه وحلاوة ألفاظه. ويبدو من وصف بعض الذين نقلوا شيئاً من شعره في مدح أبي نمي وأبنائه – أن شعره كان يسير في الآفاق ، فيحفظه الناس" (2). ثم يذكر نماذج من شعره ويعلق عليها ؛ فقد أشار إلى أن الشاعر مدح أحمد بن أبي نمي بقصيدة رائية شاع ذكرها في الآفاق ، وهي قوله :

وَفَتْ صَبَّهَا بَعْدَ الْجَفَا غَاذَةً عَذْرَا وَمَذْ لَامَهَا قَالَتْ لَعَلَّ لَهُ عَذْرَا

أثبت مطلع القصيدة هذا ، ثم قال : "وكانت عدتها 142 بيتاً ؛ مما يدل على طول نفسه مع وفور الشاعرية في جميع أجزاء القصيدة دون أن يرى له ضعف أو تفكك" (3).

ومضى يتحدث عن الشاعر باكثير ، ويذكر نماذج من شعره ، حيث أوماً إلى أن من شعره الذي ذكره المؤرخون في المدح والتهنئة قوله في أبي نمي :

إِعْقِلَا عَيْسَنَا بِسُوحِ الْأَمَانِي وَرَدَا مِنْهُلِ النَّدَى وَالسَّامَحِ
وَدَعَانِي أَنْيُحَ رَكْبَ رَجَائِي فِي فَنَاءِ قِبْلَةِ الْمُئْنَى وَالْفَلَاحِ
ذِي الْمَعَالِي أَبِي نَمِيٍّ مَنْ تَحَلَّى بِحُلَى جَدِّهِ نَبِيِّ الْبَطَاحِ

وأثبت أبياتاً أخرى من القصيدة بعد هذه الأبيات ، قال بعدها :
"وعدتها 85 بيتاً تسير على هذا النمط من قوة السبك" (4).

كما بيّن رأيه في شعر باكثير قائلاً : "ويبدو من بعض تعبيرات

(1) انظر : المختصر ، أبو الخير ص 22 ، 23 .

(2) تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب ، ص 14 .

(3) المرجع نفسه ، ص 15 .

(4) المرجع السابق ، ص 15 .

باكثير أنه ينسج أحياناً على أنماط الشعر العباسي وغيره ، وربما اجتر بعض مسبوكاته من الألفاظ ، كما يتضح ذلك من قوله : (لعل له عذراً) ، تكراراً لقول القائل : (لعل له عذراً وأنت تلوم) ⁽¹⁾ .

وأخذ بعد ذلك يتحدث عن أخذه معاني الأقدمين وسبكها بعبارات جديدة ، وتناول أيضاً تكراره العبارات أكثر من مرة في أكثر من موضع من قصائده. وقد أثبت الناقد شواهد على كلامه من شعر باكثير ⁽²⁾ .

وختم الدكتور رشيد حديثه عن الشاعر بقوله : "والحق أن شعر هذا الرجل جيد ، وهو شعر له وزنه إذا ما قيس إلى شعراء عصره" ⁽³⁾ . وللناقد الأستاذ عبدالله عبدالجبار رأي في شعر محمد بن أحمد النهروالي أورده ضمن ترجمته في صدر كتاب (إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام) لعبدالكريم القطبي ، الذي اختصر بكتابته هذا كتاب عمه قطب الدين النهروالي (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام).

يقول الأستاذ عبدالله عبدالجبار : "وكان النهروالي مرهف الطبع ، لطيف الذوق ، يميل إلى الدعابة والظرف ، شغوفاً بالتنزه بالبساتين واجتلاء محاسن الطبيعة الجميلة ... وشعره على ما به من تصنيع يحسب من الشعر الرقيق ، ومنه قوله :

أَحِبَّةَ قَلْبِي أَنْتُمْ قَدْ وَرَدْتُمْ مَعِيَ مَنَهْلَ الذَّاتِ وَهُوَ نَمِيرٌ

(1) المرجع نفسه ، ص 15 . وهو من قول منصور النمرى (ديوانه ، ص 132) :
لَعَلَّ لَهَا عُذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ وَرُبَّ امْرِئٍ قَدْ لَامَ وَهُوَ مُلِيمٌ

وللشطر الثاني رواية أخرى ؛ قال ابن المعتز في طبقاته ، متحدثاً عن النمرى :
"وميميته في المأمون - وهو ولي عهد - عجيبة ، قد صارت مثلاً في سائر الناس ، وأولها :

لعل لها عذراً وأنت تلوم وكم لائم قد لام وهو ملِيم

- طبقات الشعراء ، ص 247 .

وذكر الدكتور إميل يعقوب رواية أخرى للبيت ، مشيراً إلى أنه نسب لدعبل الخزاعي - ولكنه لم يعثر عليه في ديوانه - حيث جاء هكذا:

تَأْنٍ وَلَا تَعْجَلْ بِلُومِكَ صَاحِبًا لَعَلَّ لَهُ عُذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ

- معجم لآلى الشعر ، ص 359 .

(2) انظر : تنبيه الأديب ، ص 15 ، 16 .

(3) المرجع السابق ، ص 17 .

وَاللّٰهُ مَا اسْتَغْنَيْتُ عَنْكُمْ بِغَيْرِكُمْ وَإِنِّي إِلَيْكُمْ مَا حَيْثُ فَقِيرٌ" (1)

والنهروالي من شعراء مكة المعدودين في عصره ، طرّق في شعره موضوعات عديدة ، وبرز في الغزل. يقول الشيخ حمد الجاسر : "وأجود شعره ما كان منه في الغزل ، وله أبيات مختارة في الحكم ، أما مديحه فمن النوع التقليدي الممجوج ، المحشو بالمبالغات" (2).

وقد عني الدكتور عائض الرادادي بدراسة الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري ، فوقف على الشعر في الفترة السابقة للعصر الذي كان بصدد دراسته ، وعرض لمحات عن مستوى الشعر في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، أبان فيها أن الشعر قد مرّ بحالة ركود في العهد المملوكي ، لكنه قد يقع ما يستوقف ، كشعر أحمد العليف وقد عزا ذلك الركود إلى أسباب من أقواها - كما ذكر - عجمة المماليك التي حالت بينهم وبين فهم الشعر وإدراك معانيه ، والأهم منه ما كان بين الأسر الحاكمة في الحجاز ، وسبب ثالث هو كساد التجارة في الحجاز وسوء الحالة الاقتصادية واستئراء الغلاء.

أما حالة الشعر في القرن العاشر فهي - كما يقول الرادادي - تختلف عنها في العصر المملوكي ، إذ وجدت حياة أدبية في هذا القرن وشعراء منهم من أظهر ألواناً أخرى من الشعر ، ومنهم من أطال قصائده ، بل إن منهم من كان أميراً كالشريف أبي نمي محمد بن بركات الذي اجتمع حوله شعراء وكان له بصر بالشعر (3).

(1) إعلام العلماء الأعلام ، ص 15 .

(2) قطب الدين النهروالي مؤرخ مكة ، حمد الجاسر (مجلة العرب : س 1 ، ج 11 ، جمادى الأولى 1387هـ) .

(3) انظر : الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري 1-63-71 .

3 - نقد وتقويم :

يتضح لمن يتابع الحالة الأدبية في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ظاهرة الشعراء العلماء ؛ فلا غرابة إذن أن نجد الأسلوب العلمي ، وأن تظهر آثار العلوم الدينية في الألفاظ والصور ، وتبرز في أفكار طائفة من الشعراء.

وطبعي والحالة هذه أن نطالع من الشعر ما يحق عليه وصف ابن قتيبة لشعر العلماء ، تعليقاً على أبيات للخليل بن أحمد ، حينما قال : "وهذا الشعر بين التكلف رديء الصنعة ، وكذلك أشعار العلماء ، ليس فيها شيء جاء عن إسماع وسهولة ، كشعر الأصمعي ، وشعر ابن المقفع ، وشعر الخليل ، خلا خلف الأحمر فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً" (1).

ومقابل ذلك الشعر الذي غلبت عليه روح العلم ، نجد نمطاً عالياً من الشعر ، ولكن الأغلب في نتاج الشعراء المستوى المتوسط من الشعر الذي لا يمكن أن يوصف بالركيك الواهي ولا الجيد العالي. والحقيقة أنه لم تكن هناك طوابع خاصة للشعر في زمن المماليك نستطيع من خلالها تمييزه عن الشعر في عهد العثمانيين - الذي بدأ في أواخر الربع الأول من القرن العاشر الهجري - كما أننا لا نجد لبيئة المدينة اختلافاً بيناً عن مكة ؛ لذلك جاءت الدراسة شاملة لم تفرد كل عصر أو كل بيئة بدراسة مستقلة.

لكننا حين ننظر فيما أنتجه شعراء مكة والمدينة في القرنين ؛ نجد أن الشعر كان تصويراً أميناً لحياة الشعراء وتجاربهم ، وصورة لواقع المجتمع في ذلك العصر ، وسجلاً لأعمال الأمراء والسلاطين. وقد تراوحت طرائق الشعراء في عرض ذلك كله بين التقرير والتصوير ، فبرزت قدرتهم على أداء رسالتهم ؛ حيث تعددت الأغراض الشعرية التي طرقتها ، محاولين من خلال ذلك النهوض بالحياة الأدبية في ظل تلك الصراعات السياسية المتعاقبة التي عاشوها .

وبرز شعراء أثروا في معاصريهم ومن جاء بعدهم. ومن هؤلاء الشعراء أحمد العليف الذي أثر في عبدالجواد المنوفي (أحد شعراء مكة في القرن الحادي عشر الهجري) في قصيدته التي مدح بها زيد بن محسن ، حيث قال في مطلعها :

(1) الشعر والشعراء 70/1 .

الْعِزُّ تَحْتَ ظِلَالِ السُّمْرِ وَالْقُضْبِ يَوْمَ الْوَعَى وَمَسَاعِي الْبَيْضِ لَمْ

على نحو قول العليّ في مديح الشريف بركات بن محمد :

الْعِزُّ تَحْتَ ظِلَالِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ يَوْمَ الطَّعَانِ وَسَبْقِ السَّيْفِ

وقد ذكر الدكتور الرادادي أن المنوفي سطا على أفكار العليّ ، وأخذ الأفكار أحياناً بنصها ، وإن كان يرى أنها سارا على خطى أبي تمام في بائيته في فتح عمورية ، خاصة المنوفي (1).

وهناك شعراء ليسوا بمستوى شعر العليّ أثروا فيمن بعدهم ، كعبدالمعطي باكثير وعبدالعزیز بن عليّ الزمزمي اللذين أخذ منهما الشاعر عبدالقادر العيدروس (الشاعر الحضرمي ، الهندي مولداً ووفاة) ؛ إذ إنه تابع الشاعر عبدالمعطي باكثير في مقطوعته التي يقول فيها:

الْوَرْدُ سُلْطَانُ الزَّهْوِ رَوْحُ سَوَاهُ الْحَاشِيَةِ

فَلَوْلُوهُ الْمُحْمَرُّ يَنْتَبِهُ سَبُّ حُسْنِ خَدِّ الْغَايَةِ

وَإِذَا تَضَوَّعَ نَشْرُهُ يُهْدِي إِلَيْكَ الْغَايَةَ (2)

ولم يزد العيدروس على هذه الأبيات إلا أن استبدل العنب بالورد ، والثمار بالزهور ، وبعض التغيرات اليسيرة التي أفسدت الأبيات (3).

كما أخذ العيدروس عن الزمزمي قصيدته التي رثى بها الشيخ حامد الجبرتي التي مطلعها :

أَيُّهَا الْغَافِلُ الْغَبِيُّ تَنَبَّهْ إِنَّ بِالنَّوْمِ يَقْظَةَ النَّاسِ أَشْبَهَ

وقد أخذ العيدروس المطلع وعدداً من الأبيات بنصها في رثائه حاتم بن أحمد الأهدل ، مع بعض التغيرات اليسيرة التي تناسب المقام ، من ذلك قوله:

قَدْ قَضَى حَاتِمٌ حَمِيداً فَمَالِي بَعْدَهُ فِي الْحَيَاةِ وَالْعَيْشِ رَغْبَةٌ

(1) انظر : الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري 534/2-538. وقد أشير إلى ذلك في أثناء الحديث عن الشاعر أحمد العليّ في الفصل الخامس ، كما أشير في الفصل الرابع (بناء القصيدة) إلى أن العليّ نظر في مطلعته هذا إلى قول المتنبي :

أَعْلَى الْمَمَالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى الْأَسَلِ وَالطَّغْنُ عِنْدَ مُحِبِّهِنَّ كَالْقَبْلِ

(2) النور السافر ، العيدروس ، ص 481 .

(3) انظر : المصدر نفسه ، ص 188 .

(4) المصدر السابق ، ص 341 .

صَاحِبِي مِنْ قَرِيبٍ عِشْرِينَ عَاماً كُلُّ يَوْمٍ يَزْدَادُ مِنِّي حُبَّهُ (1)

وهو من قول الزمزمي:

قَدْ قَضَى حَامِداً حَمِيداً فَمَالِي بَعْدَهُ فِي الْحَيَاةِ وَالْعَيْشِ رَغْبَهُ

صَاحِبِي مِنْ قَرِيبٍ خَمْسِينَ عَاماً مَا تَرَأَيْتُ لِي فِي مُحَيَّاهُ

وعلى الرغم من الحركة العلمية النشطة التي شهدتها مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وما صاحبها من نتاج شعري متنوع لشعراء يعدون بالمئات ؛ فإن ذلك لم يواكب بحركة نقدية ودراسات واعية متأنية للشعر ومستوياته في تلك البيئة الغنية بالشعر والشعراء.

والعصر الذي نحن بصدد دراسته من أقل العصور خصوبة في ميدان النقد – كما ذكر الدكتور محمد زغلول سلام – حيث أشار إلى أن النقد منذ القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري قد مر بمراحل ثلاث : الأولى خصبة عامرة بالإنتاج ، زاخرة بجهود جماعة من كبار النقاد وعلماء البلاغة المعروفين في المشرق والمغرب أمثال : الثعالبي ، وابن رشيق القيرواني ، وابن سنان الخفاجي ، وعبدالقاهر الجرجاني من رجال القرن الخامس ، ثم ضياء الدين بن الأثير والسكاكي وابن أبي الإصبع وحازم القرطاجني من رجال القرن السابع ، وهم أقل في مستواهم العام من حيث الأصالة والإبداع عن سبقهم ، ثم تأتي الفترة الثالثة فيما بعد القرن الثامن ، وهي أقلها خصوبة وأكثرها تقليداً واعتماداً على السابقين (3).

والحق أن الشعر العربي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين في فترة من عمره ، وهو كسائر العلوم والفنون التي لا تموت في مثل تلك الحقب من التاريخ "وإنما تكون في حالة كمون لا تلبث بعده أن تسترد قوتها وتستأنف نشاطها ، والإمام بها في ضعفها مثل الإمام بها في قوتها ؛ ضروري وحتمي ، ولم يقل أحد أبداً بأن تتبع مظاهر الحياة المادية والمعنوية لأية أمة يقتصر على أوقات ازدهارها ونهضتها" (4).

(1) المصدر نفسه ، ص 239 .

(2) المصدر نفسه ، ص 341 ، 342 .

(3) تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري ، ص 5 .

(4) النقد الأدبي في العصر المملوكي ، د. عبده قلقيلة ، ص 43 .

وحيثما ننظر في أسماء النقاد الذين صاحبوا نتاج الشعراء المكيين والمدنيين في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ؛ نجد أنهم من العلماء ، أهل الفكر والتأليف الذين كانت لهم عناية بالأدب ؛ حيث إن أغلبهم من الشعراء ، ولكن أحداً منهم لم يكن ناقداً لا همّ له سوى الاشتغال بالنقد الأدبي ، ولم يكن لأحد منهم كتاب مستقل في النقد الأدبي ، بل ترجموا لأولئك الشعراء ، متناولين بعض آثارهم الشعرية ، أو مجملين بعض الآراء الانطباعية ، المصطبغة بروح عصرهم ، بما فيه من أحكام عامة ومبالغات وكلام مسجوع ؛ ولذلك ترددت في أساليبهم عبارات : شيخ الأدباء وقُدوة البلغاء ، أُوحد الأدباء ، العالم الأصيل الأديب الجليل ، أُوحد عصره وأديب دهره ، الشيخ العلامة القاضي الأديب الفهامة ، الشاعر الأديب الأوحد الأريب ، أصمعي زمانه وأحد أدباء أوانه ، الأديب الأُمجد ، شيخ الأدباء ، متنبّي زمانه ، الأديب البارِع (1) .

يطلقون هذه الألقاب والأحكام دون أداة نقدية فاحصة تلقي بعض الإضاءات الفنية ، وتصل المتلقي بمسوغات هذا الحكم أو ذاك . وعلى الرغم من ذلك كله ، فإن الآراء التي أذاعها نقاد ذلك العصر قد تضافرت مع آراء النقاد المعاصرين لنا ، مكونة صورة واضحة عن مكانة الشعر ومنزلة الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، على نحو لا يختلف كثيراً عما تم عرضه من نتاج شعري ، وما تناوله البحث من آراء في عدد من الشعراء .

(1) انظر : معجم الشيوخ ، عمر بن فهد ، ص 110 ؛ غاية المرام ، عبدالعزيز بن فهد 610/2 ، 617 ؛ 154/3 ، 202 ، 252 ، 293 ؛ حسن القرى في ذكر أودية أم القرى ، جار الله بن فهد ، تحقيق حمد الجاسر (مجلة العرب : س 18 ، ج 3 ، 4 رمضان وشوال 1403هـ) ؛ تحفة اللطائف ، جار الله ابن فهد ، ص 158 ، 160 ، 162 ؛ النور السافر ، العيدروس ، ص 505 .

الخاتمة

الحمد لله الذي أكرمني بعونه على إنجاز هذا البحث ، ومنحني من الصبر والدأب على جمع متفرقه وتصنيفه ودراسته بعد أن كان أشتاتاً وأشلاء مبعثرة في مصادر مختلفة ومخطوطات ران عليها السكون في دور الكتب .

ولعل من المفيد في ختام هذه الدراسة إيجاز ما أسفرت عنه من ملامح وما توصلت إليه من نتائج :

فقد بدأت بتمهيد كشف عن أهم معالم الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية في مكة والمدينة عبر القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وضح من خلال البحث اضطراب الأحوال السياسية في المدينتين ، بسبب الصراع المرير على السلطة بين الأشراف .

وأفصحت دراسة الحياة الاجتماعية عن تنوع طبقات المجتمع سواء في مكة أو المدينة ، واختلاف أجناسهم ، وأن المجتمع عاش حالات من القحط والجوع والفقر ، وأنه كان ثمة تكاتفاً بين فئات المجتمع ؛ حيث كان من الموسرين مَنْ يواسي الفقراء ويبذل ما في وسعه لمساعدتهم على تجاوز الأحوال المعيشية العسيرة في سني الجذب . ولم تغفل الدراسة عادات المكيين والمدنيين في أفراحهم ، وما كانوا عليه من تنوع في المأكل والملبس ، كما أشارت إلى أن أهل المدينة ألطف أمزجة وأرق طبعاً من أهل مكة ، وأنه قد يكون لموقع المدينة الجميل ومجاورة الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – أكبر الأثر في ذلك .

واتضح في الحديث عن الحياة الفكرية والأدبية أن ازدهار الحركة العلمية نتيجة طبيعية لكثرة العلماء في الحرمين وتنوع ثقافتهم ونشاطهم الذي كان واضحاً من خلال الحلقات العلمية في الحرمين وفي الأربطة والمدارس التي لقيت دعماً من السلاطين والأمراء ، وكذلك من خلال المؤلفات العديدة التي نشط العلماء في تأليفها أو تقريبها لطلاب العلم.

وأومات الدراسة إلى أن هناك عوامل عديدة تضافرت للنهوض بالحياة الفكرية والأدبية من أهمها وجود الحرمين الذي أدى إلى توافد عدد من علماء الإسلام النابهين ، وبقاء بعضهم سنين عديدة في مكة والمدينة ، يُدرّسون ويؤلفون ويتداولون الكتب ويتدارسونها مع علماء الحرمين وطلبة العلم فيهما ؛ مما كان له الأثر الكبير في ازدهار الفكر والأدب في مكة والمدينة آنذاك ، وأبرزت الدراسة أثر السلاطين والأمراء الذين أحبوا العلم ؛ فأنشؤوا المدارس وبذلوا الأموال وأكرموا

العلماء وشجعوا الشعراء وقربوهم من مجالسهم ، وقد تبين أن عناية الأمراء الأشراف بأهل العلم والأدب تعود إلى أنهم كانوا على جانب من العلم وحظ من ملكة الشعر ، وتناولت الدراسة الأسر العلمية في مكة والمدينة ؛ حيث إنها تعد من المظاهر التي ساعدت في إثراء الحركة العلمية وتنشيطها ، وأشارت إلى إسهام المرأة في النشاط العلمي في مكة والمدينة آنذاك .

واختص الفصل الأول بالحديث عن المؤثرات العامة في الشعر ؛ إذ اتضح من خلال البحث والدرس أن للمجاورين أثراً كبيراً في جميع نواحي الحياة في مكة والمدينة ، وأن منهم من كان شاعراً ينشد من نظمه في بعض الحلقات والمجالس التي كانوا يتداولون فيها المطارحات الشعرية ، وثبت في الحديث عن المجاورة أن نشأة الشعراء في ظل الحرمين ذات أثر في سريان المعاني الدينية في شعرهم وفي نزاهة الشعر من الخلاعة والمجون ، وقلة شعر الهجاء في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، واتضح أثر المكان في الشعر لدى شعراء مكة والمدينة من خلال الإشارة إلى البيئات المجاورة كمصر والشام ؛ حيث أقبل الشعراء فيهما على الخمرة – مثلاً – وشغفوا بها ، فازدهر الشعر الخمري في العهدين المملوكي والعثماني ، كما أن التغزل بالمدكر في مصر والشام كان شائعاً شيوعاً لافتاً للنظر ، خلافاً لما كان عليه الشعراء في مكة والمدينة ؛ ولقداسة المكان أثر في إعراض شعراء مكة والمدينة عن كثير من الألوان الشعرية السائدة عند غيرهم ، وخلو شعرهم – إلا قليلاً – من الهجاء المقذع الذي شاع في البيئات الأخرى ، ووضح أن تلك البيئة الطاهرة قد استحوذت على أفئدة الشعراء ومنحتهم الأمل بالجوار الهنيء حتى باتوا لا يذكرون أهليهم في حنينهم إلا قليلاً .

ولحركة التأليف النشطة في مكة والمدينة أثر في تكوين شعرائهما الثقافي ، وكان للشعراء في مكة والمدينة مشاركة في التأليف في الأدب وفي مختلف العلوم . وقد نبهت الدراسة إلى أن النشاط التألفي نتاج طبعي للحركة العلمية النشطة التي سادت في بيئة الحرمين في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وأن الشعراء أفادوا من ذلك الجو العلمي ؛ حيث كانوا يتلقفون ما ينتجه علماء عصرهم ، ويتابعون ما يجد من ألوان الفكر والأدب ، كما كان المؤرخون حريصين على إيراد نماذج شعرية كثيرة في مؤلفاتهم ؛ مما أدى إلى إذاعة ما أنشأه الشعراء ، وانتعاش الحركة الأدبية . وقد وضح أن التأليف شجع الأدباء على تقديم أشعارهم

إلى المؤلفين ، كما أنه حفظ أشعاراً كثيرة ما كان لها أن تصل إلينا ، وأمد الشعراء بعلوم مختلفة وظفوها في أشعارهم ؛ فبدت متنوعة المضامين ، مختلفة الأساليب ، موافقة لذوق العصر .

وعرضت الدراسة للمدارس والأربطة والمكتبات بوصفها عاملاً من العوامل المؤثرة في الشعر ، حيث أشارت إلى العلوم التي كانت تدرس والأساتذة الذين تولوا تدريسها ، وما كان من أثر للأجناس المتعددة للعلماء وطلبة العلم الذين كانوا يُدرسون ويُدرسون ، فيلتقون في أوقات عديدة في المدارس ويأخذ بعضهم من بعض ، وينشرون علومهم في مكة والمدينة سواء في الأربطة أو في حلقات العلم في الحرمين ؛ فيفيد منها طلبة العلم والعلماء في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وينعكس أثر ذلك على شعراء المدينتين الذين عاشوا في ذلك الوسط العلمي ، واجتمعوا بكثير من طلاب العلم المقيمين في الأربطة ، كما أن منهم من تتلمذ على بعض العلماء من أهل التصوف ؛ فحملوا بعض أفكارهم وأجروها في أشعارهم . وقد تيسر للشعراء أن ينهلوا من خزائن المكتبات التي حفظت كثيراً من العلوم ، وأتاحت لهم الاطلاع على شعر الأسلاف وبعض معاصريهم ؛ فكانت بحق ذات أثر في التكوين الثقافي لشعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .

وكانت الرحلات والمواسم الدينية من العوامل المهمة المؤثرة في تطور مدارك الشعراء واتساع تجاربهم ؛ حيث رحل بعض العلماء والشعراء من مكة والمدينة آمين بعض الأقطار الإسلامية ، فأخذوا عن علمائها والتقوا بعض الشعراء هنالك ، والتقت ثقافتهم مع أولئك ؛ فكان لذلك أثره عليهم ، بل وعلى الشعراء في مكة والمدينة ؛ لأنهم نقلوا ما تلقوه من علوم أفادوا فيها قومهم ، كما أن الحج والعمرة وحلول شهر رمضان مواسم دينية ساعدت على نهضة الشعر وسريان المعاني الدينية فيه ، فالحج ملتقى للمسلمين يثير في نفوس الشعراء فيضاً من المشاعر ؛ حيث يلتقون بإخوانهم لقاءات ودية قد يتخللها بعض المطارحات الشعرية ، وشهر رمضان شهر خير يفيء بظله على الأدب ؛ إذ يجتمع فيه العلماء والأدباء يتدارسون العلم ، ولم تخل تلك المجالس الخيرة من الشعر ، كالمدائح النبوية التي كانت ختاماً لبعض الاجتماعات الرمضانية .

وتمثل الأحداث السياسية في تلك الفترة عاملاً خامساً أثر في الشعر ؛ حيث شهدت تلك البقاع الطاهرة موجة من الاضطرابات السياسية التي أشعلت فتيل المعارك الحربية . وقد حفزت تلك الأحداث الشعراء إلى

القول ، وفتقت أذهانهم ؛ حين أغرتهم الانتصارات إلى الإشادة بالقادة ، ووصف الجيوش ، وتمجيد البطولة . وظل الشعراء متحلقين حول الأمراء الأبطال يمدحونهم ويهجون أعداءهم ، وقد مرّ بنا أن من الشعراء من لازم أميراً من الأمراء ، متابعاً مسيرته ، مادحاً إياه أينما حلّ . ولمديح الأمراء والسلاطين أثره الكبير في شهرة بعض الشعراء ، وكانت الأحداث السياسية ذات أثر واضح في اتجاه الشعراء إلى المديح حتى بات أكثر الأغراض سرياناً على ألسنة الشعراء في مكة والمدينة في ذينك القرنين ، ولم نعدم هجاءً سياسياً من أصدااء تلك الأحداث ، واتضح أن أثر الأحداث السياسية لم يقف على الشعر من الناحية الموضوعية فحسب ، بل تعدى ذلك إلى خصائصه الفنية ؛ حيث كانت الأحداث مجالاً لبسط القول ، وقد كثرت الأوزان الطويلة المناسبة لتلك الموضوعات ، كما أن كثيراً من القصائد قد سبقت بمقدمات غزلية وحماسية وغيرهما . ومرّ بنا حرص الشعراء على تخير الألفاظ وانتقائها في تصويرهم للأحداث السياسية ؛ حيث توخوا أن تكون ملائمة لجو الحدث ، مما أضفى على لغة الشعر جزالة وفخامة في كثير من النماذج . وكما نبهت الدراسة إلى النواحي الإيجابية للأحداث السياسية ، أومأت إلى أنها أشغلت الشعراء عن التأمل في ذواتهم ، والالتفات إلى أحوال مجتمعهم ؛ حيث نجد من جراء ذلك قلة الشعر الاجتماعي .

ومن العوامل المؤثرة في مسيرة الشعر في مكة والمدينة تشجيع الأمراء والحكام ، حيث أوضحت الدراسة أن كثيراً منهم قد أحب الشعر ؛ إدراكاً لقيمته في الحياة وأثره في تسجيل الوقائع وتدوين المآثر ؛ لذلك قربوا الشعراء ، ووصلوهم بالعطاء ، وكان من الأمراء الأشراف من كان شاعراً متذوقاً للشعر الجيد ؛ فلا عجب أن وجدناهم قد قدّروا الشعر وكافؤوا قائله بما يستحقون ، حتى إن أعطياتهم لم تكن إجازة على المديح فحسب ، بل مكافأة للشاعرية ، وفي ذلك تشجيع للشعر الجيد وحافز للشعراء كي يحرصوا على الإجادة . وقد بيّنت الدراسة أن العناية بالشعر والشعراء لم تكن مقصورة على الأمراء الأشراف ، بل كان من السلّاطين من يجزل العطاء للشعراء ، واتضح أن السلّاطين العثمانيين كانوا أكثر حفاوة بالشعر من السلّاطين المماليك .

وآخر المؤثرات في الشعر التي تناولها الفصل الأول من هذا البحث الدوافع الذاتية والنفسية ، وقد انتهى فيه الكلام إلى أن الدافع الذاتي

لقول الشعر من العوامل المؤثرة في مستوى الإبداع ، لكن ذلك لا يكفي ما لم يكن ثمة قدرة تعبيرية لدى من يتصدى لقول الشعر .

وكان الحديث في الفصل الثاني عن مصادر الشعر ، ظهر فيه أن المادة الشعرية موزعة بين كتب التراجم والتاريخ والدواوين الشعرية وبعض المصادر الأخرى ، ككتب الأدب والبلاغة والنقد والرحلات وغيرها . وهي مصادر مخطوطة ومطبوعة ، والمطبوع منها غالبه غير مفهرس ؛ لذلك فإن جمع المادة قد استنفد وقتاً ، كانت حصيلته تكوّن مادة شعرية كشفت عن تعدد أغراض الشعر ومستوى الشعراء .

ولما كانت مصادر الشعر كثيرة ؛ تم تناول أهمها ، وقد رتبت كل مجموعة ترتيباً زمنياً حسب وفيات مؤلفيها ؛ ورد الحديث فيها عن المؤلف بصورة موجزة مع ذكر مصادر ترجمته ، ثم نبذة عن قيمة الكتاب ومنهج صاحبه ، ومادته الشعرية ، والشعراء الذين تناولهم .

وضم الفصل الثالث أغراض الشعر التي طرقها الشعراء وما تناولوه من أفكار في كل غرض منها ، جاء ذلك من خلال عرض نماذج شعرية وتحليلها تحليلاً أدبياً كشف عن تلك المعاني التي شغلت أذهان الشعراء ، مستجلياً ما فيها من طوابع خاصة .

وقد بدأ الحديث عن المديح بوصفه أكثر الأغراض التي تناولها شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وكان الحديث فيه شاملاً لمديح الأمراء الأشراف ، ومديح السلاطين ، ومديح العلماء ، مركزاً على المعاني التي أسبغها الشعراء على ممدوحهم ومدى ملاءمتها لكل فئة .

أعقب ذلك حديث عن الشعر الديني ، عَرَضَ للمدائح النبوية ، مشيراً إلى ما فيها من غلو جاوز الحد المشروع ، كما تناول شعر الإلهيات محدداً ماهيته ، وكذلك شعر الموعظة والزهد ، مبرزاً جهود الشعراء في سبيل الترغيب في الخير وحمل الناس على الحق ، واختتم هذا المبحث بحديث عن شعر التصوف ، كشف عن قلة نتاج الشعراء في هذا الجانب ، وأكثر مَنْ تناوله منهم .

ثم الكلام على شعر الرثاء من خلال ألوانه الثلاثة : التأبين والندب والعزاء ، مرتبة حسب كثرتها . وقد اتضح من خلال عرض الشواهد لجوء بعض الشعراء إلى المبالغة ، وظهر فتور العاطفة في جانب كبير من رثائهم ، غير أنها في رثاء العلماء كانت أكثر تدفقاً .

وتبين في الكلام على الشعر السياسي أن الشعراء صاحبوا الأحداث السياسية ، وبنوا آراءهم المؤيدة أو المعارضة ؛ فدون الشعر ما كان يجري بين الأمراء والسلاطين ، وصاحب الغزوات التي قام بها الأمراء لتوطيد دعائم الإمارة ، كما أنه كان وسيلة لنقل نظرة المجتمع – آنذاك – لما كان يجري من أحداث سياسية .

والإخوانيات غرض طرقة كثير من الشعراء ، تناولوا فيه عدداً من المعاني الاجتماعية ، كالشوق والتهنئة والاعتذار والعتاب والسؤال عن مسألة دينية أو علمية ، وكان ذلك من خلال مراسلاتهم أو في جلساتهم التي كانوا يتناشدون فيها الشعر . وقد تبين أنه ثمرة من ثمار العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، برزت فيه شخصيات الشعراء في سلوكهم الاجتماعي وصلاتهم الأخوية التي لم تكن مقصورة على شعراء مكة والمدينة فحسب ، أو فيما بينهم وبين المجاورين ، بل امتدت جسور التواصل والأخوة إلى أصدقائهم في بعض الأقطار الإسلامية الأخرى .

وأبان شعر الحنين والشكوى أن الشعراء رحلوا عن أهلهم وأخلّاهم مضطرين ، وأن شوقهم قد آل بهم إلى الشكوى من البين وإلى سكب الدموع . ولم تكن الشكوى مقصورة على الشعراء المغتربين عن بلادهم ؛ إذ إن ثمة غربة نفسية داخل الوطن ألجأت بعض الشعراء إلى بث شكواه ، فكان الشعر وسيلة للتسرية عن النفس مما يمر بها من تجارب تكدر صفو حياتها .

وفي الحديث عن شعر الغزل اتضح أن أغلبه جاء في مقدمات قصائد المديح ، وأن القصائد والمقطوعات الغزلية قليلة ، وهو غزل تقليدي ، سار فيه الشعراء على نهج القدماء في وصف المرأة ؛ إذ لم تختلف نظرته عن أولئك في مقومات جمالها ، فقد وصفوا أعضائها وباحوا بما في صدورهم من إحساس بالجمال ، لكننا لم نعثر على قصص العشق العميق الذي يدور بين المحبين ، وقد أظهر الشعراء عواطفهم تجاه المرأة ووصفوا مفاتنها من غير أن يفحشوا في ذكر الأعضاء أو يسفوا في تصوير سويغات اللقاء إلا ما قل من القول المسوق بأسلوب مكشوف يذكرنا ببعض أصحاب الغزل الصريح ، بل إن منهم من عمد إلى التغزل بالمذكر ، وهي – كما مرّ – نماذج قليلة لشعراء معدودين .

وتطرق الحديث في هذا الفصل إلى الفخر والحماسة ، كاشفاً عن اتجاه الشعراء إلى ذواتهم وعدم انشغالهم بتمجيد أقوامهم والإشادة

بمآثرهم ومفاخرهم ، مفضياً إلى أن سبب ذلك هو ضعف الروح القبلية وقوة الروح الدينية لدى الشعراء . وهذه الروح الدينية قادتهم إلى الانصراف عن التفاخر بأنسابهم ومفاخر أقوامهم إلى الاعتزاز بهذا الدين الحنيف ، والفخر بالعيش على أظهر بقاع الأرض ، والتشرف بالسير على نهج الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – حتى إن من الشعراء من كان أميراً شريف النسب ، لكنه لم يفاخر بذلك ، بل قَدَّم عليه الاعتزاز بالسعي في فضائل الأمور . وعلى الرغم من كثرة الشعراء العلماء ، فإننا لم نجد من يفخر بالعلم .

وشعر الفخر منبث في ثنايا بعض الأغراض ، وهو قليل في نتاج الشعراء ، كما اتضح أننا لا نكاد نجد الشعر الحماسي إلا في نتاج نفر من الشعراء ، وهو مقترن بكثير من قصائد المديح حين كان الممدوحون منشغلين بقمع الفتن وإشاعة الأمن في ديارهم . وعلى الرغم من ذلك ، فإننا لم نعدم من الشعراء من أفرد الفخر في قصيدة ، ومن نظم قصيدة غرضها الأساس الفخر والحماسة .

وشعر الهجاء قليل في نتاج شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وأكثر ألوان الهجاء شيوعاً الهجاء السياسي ، وقد جاء في طيات بعض القصائد المدحية التي أنشدها الشعراء إثر انتصارات الأمراء ، وثمة هجاء شخصي واجتماعي قليل ، كان من أهم أسباب قلته ندرة الحزازات النفسية والقبلية .

وأشار الحديث في هذا المبحث إلى أن الشعراء لم يفرّدوا قصائد للهجاء سوى أحمد العليف ؛ إذ حوى ديوانه قصائد ومقطوعات معدودة أقذع في بعضها .

وكان شعر الوصف قليلاً أيضاً ، فقد رأينا من الشعراء من يصف الرياض والمياه والزهور متأثراً بالبيئة ، كما وصف بعض الشعراء القهوة متناولين لونها وأنيتها وساقيتها .

وقد تبين أن وصف الطبيعة قد اقتصر على شعراء مكة ، وأنهم لم يتجاوزوا بيئتهم ؛ إذ لم نلاحظ – فيما توافر من مصادر – أثراً لمشاهدات الشعراء في رحلاتهم .

كما تجلّى من خلال استقراء الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين قلة شعر الحكمة ، وأن أحمد العليف أكثر الشعراء تناولاً للحكمة في شعره ، واتضح أن الحكم جاءت مناسبة للجو

العام للنصوص المسوقة فيها ، سواء أكانت في أبيات متعددة أم في بيت أم بيتين .

وانتهى هذا الفصل بدراسة الشعر التعليمي لدى شعراء مكة والمدينة في ذينك القرنين ، حيث وجدنا الشعراء ينظمون في فضل العلم وأهله ، وفي بعض المسائل الدينية وغيرها ؛ بغية تقريبها للناس وتسهيلاً للراغبين في حفظها . وقد شارك في ذلك كبار العلماء ممن ينظمون الشعر .

وقد وضح أن الشعراء - في شعرهم التعليمي - لم يقتصروا على بحر الرجز أو المزدوج منه أو من غيره من البحور ، كما أنهم لم يولوا الأسلوب عنايتهم ؛ إذ غاية ما يرمون إليه الإحاطة بجوانب الموضوع المتحدث عنه ، ثم صياغة ذلك في كلام موزون مقفى . وإذا كان هذا النهج طبعياً في مثل تلك الموضوعات ، فإن ما أخذ على بعض الشعراء هو الخلل في وزن بعض الأبيات .

واحتوى الفصل الرابع الدراسة الفنية للشعر من حيث : المعاني ، وبناء القصيدة ، والألفاظ والتراكيب ، والأخيلة والصور ، والأوزان والقوافي .

وقد استبان من إمعان الفكر في المعاني أنها تتسم بالوضوح والعمق ، والسمو ، وأنه على الرغم من أن سمة الصدق غالبية على الأفكار ، فإنها لم تخل من الغلو والتكرار في بعض الأحيان . والواضح من معاني الشعراء تأثرهم بأسلافهم وعلاقتهم الوطيدة بالتراث الشعري العربي .

وتبين في دراسة بناء القصيدة قلة المطالع المتفوقة وحرص الشعراء على كون البيت الأول مناسباً للغرض ، وأبان الحديث عن المطالع إحسان الشعراء في إيضاح المعنى ، وعنايتهم بالتصريح في جل مطالعهم ، وندرة اللجوء إلى الضرورة .

واتضح في الكلام على مقدمة القصيدة اقتصارها - فيما توافر من مادة شعرية - على قصائد المديح ، وعدم التزام الشعراء بالمقدمات التي انتهجها الجاهليون ومن تبعهم ممن اعتادوا بدء قصائدهم بالغزل التقليدي أو البكاء على الأطلال وغيرهما من المقدمات التقليدية ، بل اكتفوا بالمقدمة الغزلية ، ومنهم من تناول ألواناً من المقدمات التي جذت لدى شعراء العصر العباسي ، كالشكاية من الدهر ، والحكمة ، والحماسة

، ووصف الطبيعة ، ولكنها قليلة ، وكانت مناسبة للأغراض المتحدث عنها .

وتناول الحديث إجابة أكثر الشعراء التخلّص إلى الغرض الرئيس وندرة الاقتضاب في قصائدهم .

وبان من تتبع نتاج الشعراء ؛ ميلهم إلى المقطوعات والقصائد القصيرة ، أما الطول فكان مصاحباً للمدائح النبوية وقصائد المديح ، كما أن القصر قد شاع في شعر الموعظة والزهد والإلهيات والإخوانيات والهجاء .

واتضح أن الوحدة النفسية والوحدة الموضوعية متوافرتان في كثير من تلك القصائد .

أما خاتمة القصيدة فقد برز فيها ظاهرتان شائعتان في نتاج الشعراء ، هما : الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - والدعاء للمعني بالقصيدة ، كما أن بعض القصائد جاء مختوماً بالتأريخ الشعري . وانتهت دراسة الألفاظ والتراكيب إلى أن الوضوح سمة غالبية على لغة الشعر ، وأن المعجم الشعري حافل بكثير من الألفاظ الإسلامية في تلك البيئة الدينية ، كما أن من الشعراء من ألحوا على الصنعة اللفظية ؛ فأصبح التكلف ظاهراً في أساليبهم .

وعلى الرغم من أن طائفة من الشعراء قد أحسنوا انتقاء المفردات وأجادوا سبك العبارات ، فإن السمة الغالبة على لغة الشعر هي التقريرية في الأداء ، ومباشرة السرد ، وتراكم المفردات غير الموحية .

وفي مبحث الأخيلة والصور تعرضت الدراسة لمفهوم الخيال وأهميته ، مشيرة إلى أنه أساس الصورة الأدبية ، ثم تناولت العديد من النماذج الشعرية الحافلة بالصور الأدبية ، وضح من خلالها أن التشبيه فن بياني أكثر منه الشعراء متكئين على المدركات الحسية ، متأثرين ببيئتهم في كثير من صورهم ، وقد تبين أن من وسائل تكوين الصورة لديهم أيضاً : الاستعارة والكناية والمجاز المرسل والمجاز العقلي ، كما أن لديهم بعض الصور الذهنية التي لا تعتمد على شيء من هذه الفنون .

ورأينا أيضاً قدرة الشعراء على تجسيم المعنويات وتشخيص الجوامد والتصوير من خلال اللون .

وأبانت الدراسة عن أهمية الوزن والقافية ، ثم تناولت نتاج شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وأثبتت أنهم قد جروا في أوزانهم وقوافيهم على سنن من كان قبلهم من شعراء العربية ؛

فالطويل أكثر البحور الخليلية التي نظموا عليها ، يليه البسيط ، فالكامل ، ثم الوافر والخفيف بنسبة متقاربة . وهما متوسطا الشيوخ ، يليهما السريع ، ثم الرمل والرجز ومجزوء الكامل والمتقارب بنسبة متقاربة ، ولكن النظم عليها كان قليلاً . أما المنسرح والمجتث ومخلع البسيط ومجزوء الرمل ومجزوء الرجز فأوزان جرت في أشعارهم بصورة نادرة . وقد وفقوا في الملاءمة بين الأوزان والأغراض المنظومة عليها ، ونوعوا في القوافي ؛ فنظموا على القوافي المزدوجة ، وخمسوا بعض القصائد ، ووجد لديهم شيء من التوشيح ، والقوافي المشتركة . وعلى الرغم من عنايتهم بالقافية ، وجدت في أشعارهم بعض العيوب التي لا يخلو منها شعر في عصر من العصور . ومن تتبع القوافي ؛ تبين أنهم نظموا على ثلاثة وعشرين حرفاً ، مجارين الشعراء الأوائل في النظم على القوافي الذلل ، وأن الحروف التي أهملوها لم تلق عناية من الشعراء الأوائل ، كما اتضح شيوع القوافي المطلقة وقلة القوافي المقيدة كشأن الشعر العربي عامة . أما الموسيقى الداخلية فقد اتضح أنها لم تلق ما تستحقه من عناية ، على الرغم مما وجد في بعض القصائد من مظاهرها المؤثرة التي تبعث إعجاب المتلقي .

وعني الفصل الخامس من هذا البحث بإلقاء الضوء على ثلاثة من أعلام الشعراء في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، هم : محمد بن عبد القوي (ت852هـ) ، وأحمد العليف (ت926هـ) ، وعبد العزيز الزمزمي (ت976هـ) ؛ حيث كشفت الدراسة عن حياة كل واحد من هؤلاء مع الإشارة إلى مصادر ترجمته وشعره ، وعن الأغراض التي طرقها كل شاعر والخصائص الفنية في شعره . وكان الحديث في الفصل السادس (وهو آخر فصول هذا البحث) عن الشعر في ميزان النقد ؛ اشتمل على آراء نقاد ذلك العصر ، وآراء النقاد المحدثين ، ثم اختتم بنقد وتقويم للشعر والنقد المصاحب له . وقد تبين أن فترة الدراسة لم تحظ بنقاد متخصصين في مكة والمدينة ، يتابعون الشعر ويقومون أداء الشعراء ، بل وجدنا من يتذوق الشعر ويستشهد به في أثناء الترجمة لهذا الشاعر أو ذاك ، مصدراً آراء انطباعية تتكرر في كثير من التراجم . وعلى الرغم من كون بعض المؤلفين يقرض الشعر ، ولديه القدرة على تمييز جيده من رديئه ، فإن هؤلاء لا يتجاوزون الأحكام الجاهزة التي تتوافق مع هدفهم من

الاستشهاد بالأبيات أو القصيدة لهذا الشاعر أو ذاك ، وهي – في الأغلب – أقوال لا تخلو من المبالغة غير المسوغة .

واتضح في الحديث عن آراء النقاد المحدثين أنهم أشاروا إلى الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين في معرض دراسات عن تلك العصور ، أو عند الحديث عن أثر من آثار أحد الشعراء ، وأغلبها إشارات عابرة لا تصل إلى الحكم النقدي الموضوعي ، وقد استثنى الدكتور عمر فروخ الذي تحدث عن بعض الشعراء في كتابه (معالم الأدب العربي في العصر الحديث) ؛ حيث عرض جانباً من نتاجهم مصحوباً بآرائه النقدية المتأنية .

وكان ختام هذا الفصل نقداً وتقويماً للشعر وما صاحبه من نقد ، جاء فيه أن شيوع الأسلوب العلمي ، وظهور آثار العلوم الدينية في الألفاظ والصور ، وبروزها في أفكار طائفة من الشعراء – نتاج طبيعي لظاهرة الشعراء العلماء الذين غالباً ما يوصف شعرهم بالتكلف ورداءة الصنعة . وفي مقابل هذا الشعر الذي غلب عليه روح العلم ، وجدنا نمطاً من الشعر عالياً ، ولكن الأغلب في نتاج شعراء مكة والمدينة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين المستوى المتوسط من الشعر الذي لا يمكن أن يوصف بالركيك الواهي ولا الجيد العالي .

والحقيقة أنه لم تكن هناك طوابع خاصة للشعر في زمن المماليك نستطيع من خلالها تمييزه عن الشعر في عهد العثمانيين – الذي بدأ في أواخر الربع الأول من القرن العاشر الهجري – كما أننا لا نجد لبيئة المدينة اختلافاً بيناً عن بيئة مكة ؛ لذلك جاءت الدراسة شاملة لم تفرد كل عصر أو بيئة بدراسة مستقلة .

لكننا حين ننظر فيما أنتجه شعراء مكة والمدينة في القرنين ؛ نجد أن الشعر كان تصويراً أميناً لحياة الشعراء وتجاربهم ، وصورة لواقع المجتمع في ذلك العصر ، وسجلاً لأعمال الأمراء والسلاطين . وقد تراوحت طرائق الشعراء في عرض ذلك كله بين التقرير والتصوير ، فبرزت قدرتهم على أداء رسالتهم ؛ حيث تعددت الأغراض الشعرية التي طرقوها ، محاولين من خلال ذلك النهوض بالحياة الأدبية في ظل تلك الصراعات السياسية المتعاقبة التي عاشوها .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فإن الآراء التي أذاعها نقاد ذلك العصر قد تضافرت مع آراء النقاد المعاصرين لنا مكونة صورة واضحة عن مكانة الشعراء ومنزلة الشعر في مكة والمدينة في القرنين التاسع

والعاشر الهجريين على نحو لا يختلف كثيراً عما تم عرضه من نتاج شعري ، وما تناوله البحث من آراء في عدد من الشعراء . أرجو أن يكون هذا العمل قد أتى ثماره ؛ إذ أزاح القناع عن وجوه شعرية طمرها التاريخ وظواهر لم يلتفت إليها ، كما أبرز آراء متفرقة لعدد من النقاد في القديم والحديث . ولعله يغري دارسين آخرين لإكمال الجهد بدراسات مستقلة لبعض الظواهر أو الشعراء ، أو القيام بتحقيق بعض الدواوين ، كديوان أحمد العليف ، وديوان عبدالرحمن باكثير وغيرهما . أرجو من الباري – جل شأنه – أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم ، والحمد لله في الأولى والآخرة .

الفهارس

فهرس الشعراء المترجم لهم

الصفحة	الشاعر
64	إبراهيم بن أحمد الخجندي
57، 56	إبراهيم بن علي الزمزمي
244	أحمد بن أحمد القرشي (الشهاب دليم)
533، 532	أحمد بن الحسين العليف
212	أحمد بن سعد الخيفي
318	أحمد بن عبداللطيف اليبناوي
54، 53	أحمد بن علي البسكري
196	أحمد بن علي الفاسي
99	أحمد الفيومي (شهاب الدين)
197	أحمد بن محمد الحرازي
104	أحمد بن محمد القليوبي (ابن خبطة)
279	أحمد بن محمد المَعِيد
365، 364	أحمد المدني (الْيَتِيم)
68، 67	أحمد بن مسدد الكازروني
53	إسماعيل بن علي الزمزمي
307	أوبكر بن إسماعيل بن أبي بكر
252، 251	أوبكر بن محمد بن الجمال
202	أوبكر بن محمد بن أبي الخير
289	أوبكر بن محمد المرشدي
50	أوبكر اليتيم
303	جمال الدين بن إسماعيل العصامي (الإسفراييني)
376	حسن بن محمد المرجاني
184، 183	حسين بن محمد العليف
94	حسين المالكي
142، 141	خضر بن عطاء الله الموصلي
460	صلاح الدين القرشي
290	عبدالأول بن محمد المرشدي
298	عبدالرؤوف بن يحيى الواعظ
168، 167	عبدالرحمن بن عبدالله باكثير

الشاعر	الصفحة
عبدالرحمن بن علي الواحدي	59، 60
عبدالرزاق بن عبدالرحمن باكثير	359
عبدالعزیز بن عبدالواحد المغربي	60، 61
عبدالعزیز بن علي الزمزمي	557، 558
عبدالعزیز بن عمر بن فهد	79، 80
عبدالقادر بن أحمد الفاكهي	62
عبدالقادر بن جلال الدين الأنصاري	464
عبدالقادر بن عبدالرحمن العراقي	278
عبدالقادر بن عبداللطيف بن السراج	291
عبدالقادر بن محمد الطبري	99، 100
عبدالكريم بن عبدالرحمن بن ظهيرة	59
عبداللطيف بن أحمد باكثير	441
عبداللطيف بن سليمان باكثير	505
عبدالمعطي بن حسن باكثير	224
علي بن أحمد السلمي (ابن سلامة)	50
علي بن أحمد بن الشوائطي المقرئ	249، 250
علي بن أيوب (ابن الشيخة)	60
علي الجم (نور الدين)	192
علي بن حسن باكثير (نور الدين)	103
علي بن داود القادري	453
علي بن عبدالكبير باحميد	218
علي بن محمد الخجندي	265
علي بن محمد العليف	199
علي بن محمد الفاكهي	84
علي بن ناصر الحجازي	54
أبو القاسم بن جلال الدين الأنصاري (شرف الدين)	306
محمد بن إبراهيم الخجندي	68
محمد بن إبراهيم بن ظهيرة (جمال الدين أبو السعود)	79
محمد بن أحمد الخجندي	55
محمد بن أحمد بن الضياء (أبو البقاء)	63، 64

الصفحة	الشاعر
268	محمد بن أحمد الفاكهي
85	محمد بن أحمد النهروالي
89	محمد بن أبي بكر المراغي (أبو اليمن)
65	محمد بن أبي بكر المرجاني (نجم الدين)
67	محمد بن حسن العليف
87	محمد بن الحسين السمرقندي
184	محمد بن أبي السعود بن ظهيرة
587، 586	محمد بن عبد الباقي البخاري
185	محمد بن عبدالعزيز النويري
519-517	محمد بن عبد القوي (أبو الخير)
406	محمد بن عبد اللطيف الجامي
298	محمد بن عبدالله الطبري (جمال الدين)
52	محمد بن عبدالله بن ظهيرة (جمال الدين)
316	محمد بن عبد الوهاب اليافعي
63	محمد بن عبد الوهاب بن يعقوب (النجم أبو المعالي)
305	محمد بن علان الصديقي
194	محمد علي بن إسماعيل الطبري
262	محمد بن علي بن ظهيرة
67	محمد بن علي العبدري الشيبني
185	محمد بن عمر بن عبدالعزيز الفيومي (أبو عبدالله)
377	محمد أبو الفرج (ناصر الدين)
103	محمد بن محمد الطبري (محب الدين)
51	محمد بن محمد بن ظهيرة (جلال الدين أبو السعادات)
52	محمد بن محمد بن فهد (تقي الدين)
255	محمد بن محمد الكيلاني
239	محمد بن محمد المسوفي
255	محمد بن محمود المَعِيد
50، 49	محمد بن موسى المراكشي (ابن موسى)
90	محمد بن يعقوب المغربي (جمال الدين بن يعقوب)
290	مسعود بن محمد البخاري

الصفحة	الشاعر
228، 227	معمر بن يحيى بن عبد القوي
234	نابت بن أحمد الزمزمي
275، 274	يحيى بن عبدالرحمن بن فهد
317	يحيى بن محمد بن عبد القوي

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطات:

- 1- بهجة الجلساء في تعريف الخمسة من أهل الكساء ، خضر الموصلي ، مكتبة ابن عباس ، الطائف ، الرقم 156/4 .
- 2- الدر الكمين بذيّل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، عمر بن فهد ، المكتبة المركزية ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، رقم الفيلم 3032 ؛ المكتبة المركزية ، جامعة الملك عبدالعزيز ، جدة ، الرقم 75 .
- 3- ديوان أحمد العليف ، برلين ، الرقم 7931 .
- 4- ديوان الزمزمي (عبدالعزیز بن علي) ، مكتبة باريس الوطنية ، الرقم 3228 .
- 5- ديوان عبدالرحمن باكثير ، مكتبة عارف حكمت ، المدينة المنورة ، الرقم 228/أدب .
- 6- السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر ، محمد الشّليّ ، المكتبة المركزية ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، الرقم ف 75 .
- 7- قصب السبق في تخميس القصص الحق ، عبدالعزيز بن علي الزمزمي ، مكتبة الفاتيكان ، الرقم 1143 .
- 8- قصيدة همزية في مدح خير البرية ، عبدالعزيز بن علي الزمزمي ، المكتبة المركزية ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، الرقم 3114ز .
- 9- المقامة الغورية والتحفة المكية ، علي بن ناصر الحجازي ، جوتا (غوتا) ، ألمانيا ، الرقم 2773 .
- 10- النجمة الزاهرة في أفاضل المئة العاشرة ، عبدالوهاب الشعراني ، مكتبة الحرم المكي الشريف ، الرقم 2898/تراجع .

ثانياً: المطبوعات :

- 1- آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، د. ياسين الأيوبي ، جروس برس ، طرابلس / لبنان ، ط 1 ، 1415هـ/1995م .
- 2- إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن ، محمد بن علي الطبري ، تحقيق د. محسن محمد حسن سليم ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ، ط 1 ، 1413هـ/1993م (ج 2) ، 1416هـ/1996م (ج 1) .

- 3- إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، عمر بن فهد ، (ج1 ، 2 ، 3 تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ج4 تحقيق د. عبدالكريم باز) ، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط1 ، 1404هـ/1983-1984م (ج1 ، 2 ، 3) ، 1408هـ/1988م (ج4) .
- 4- الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، د. ريتشارد مورتل ، منشورات عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ط1 ، 1405هـ/1985م .
- 5- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، أبو الوليد محمد الأزرق ، تحقيق رشدي الصالح ملحس ، مكتبة الثقافة ، مكة المكرمة ، ط6 ، 1414هـ/1994م .
- 6- الأدب وفنونه ، د. محمد مندور ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، 1977م .
- 7- أدبيات الشاي والقهوة ، محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي ، الدار السعودية ، جدة ، ط3 ، 1404هـ/1984م .
- 8- الأرج المسكي في التاريخ المكي ، علي بن عبدالقادر الطبري ، تحقيق أشرف الجمال ، المكتبة التجارية ، مكة المكرمة ، ط1 ، 1416هـ/1996م .
- 9- أسرار البلاغة ، عبدالقاهر الجرجاني ، تعليق محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، 1401هـ/1981م .
- 10- الأسرة الطبرية المكية ، د. عائض الرادادي ، دار الرفاعي ، الرياض ، ط1 ، 1416هـ/1995م .
- 11- أسس النقد الأدبي عند العرب ، د. أحمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ط3 ، 1384هـ/1964م .
- 12- الإسلام والتصوف ، لويس ماسينيون ومصطفى عبدالرازق ، دار الشعب ، القاهرة ، 1399هـ .
- 13- أصول النقد الأدبي ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط9 ، 1405هـ/1985م .
- 14- الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط7 ، 1406هـ/1986م .

- 15- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، محمد النهروالي ، تحقيق هشام عبدالعزيز عطا ، المكتبة التجارية ، مكة المكرمة ، ط 1 ، 1416هـ/1996م .
- 16- أعلام العرب في العلوم والفنون ، عبدالصاحب الدجيلي ، مطبعة النعمان ، النجف ، ط 2 ، 1386هـ/1966م .
- 17- إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام ، عبدالكريم القطبي ، تعليق أحمد محمد جمال وعبدالعزيز الرفاعي ود. عبدالله الجبوري ، دار الرفاعي ، الرياض ، ط 2 ، 1407هـ/1987م .
- 18- الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، إعداد لجنة نشر كتاب الأغاني بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1413هـ/1992م .
- 19- إنباء الغمر بأبناء العمر ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق د. حسن حبشي ، طبعة لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ط 1 ، 1415هـ/1994م (ج 2 ، 3) ، 1418هـ/1998م (ج 1) ، 1419هـ/1998م (ج 4) .
- 20- أنوار الربيع في أنواع البديع ، علي بن معصوم المدني ، تحقيق شاکر هادي شكر ، مطبعة النعمان ، النجف ، ط 1 ، 1388هـ/1968م (ج 1) ، 1389هـ/1969م (ج 5 ، 6) .
- 21- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، إسماعيل باشا البغدادي ، مكتبة الإسلامية والجعفري تبريزي ، طهران ، ط 3 ، 1378هـ/1957م .
- 22- البحث الأدبي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 2 ، 1397هـ/1977م .
- 23- بدائع الزهور في وقائع الدهور ، محمد بن إياس ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، 1419هـ/1998م .
- 24- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، محمد بن علي الشوكاني ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، د. ت .
- 25- البرق اليماني في الفتح العثماني ، محمد النهروالي ، أشرف على طبعه حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ، ط 1 ، 1387هـ/1967م .

- 26- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ، عبدالمعتال الصعيدي ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط5 ، 1393هـ/1973م .
- 27- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1384هـ .
- 28- البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البديع) ، د. بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، ط1 ، 1407هـ/1987م .
- 29- البلاغة فنونها وأفنانها ، د. فضل حسن عباس ، دار الفرقان ، عمان ، ط1 ، 1405هـ/1985م .
- 30- بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث ، د. يوسف حسين بكار ، دار الأندلس ، بيروت ، ط2 ، 1403هـ/1982م .
- 31- تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي ، المطبعة الخيرية ، مصر ، ط1 ، 1306هـ .
- 32- تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط2 ، 1394هـ/1974م .
- 33- تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، 1334هـ/1914م .
- 34- تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط7 ، 1398هـ/1978م .
- 35- تاريخ الأدب العربي (العصر العثماني) ، د. عمر موسى باشا ، دار الفكر ، بيروت ، دمشق ، ط2 ، 1419هـ/1999م .
- 36- تاريخ الأفلاج وحضارتها ، عبدالله بن عبدالعزيز آل مفلح ، مطبعة سفير ، الرياض ، ط1 ، 1423هـ/1992م .
- 37- تاريخ أمراء البلد الحرام عبر عصور الإسلام ، عبدالفتاح حسين راوه ، مكتبة المعارف ، الطائف ، د.ت .
- 38- تاريخ أم القرى ومكانة المرأة العلمية فيها من خلال الدر الكمين لابن فهد ، إبراهيم المشيقح ، مطابع المنار بالقصيم ، ط1 ، 1408هـ/1987م .
- 39- تاريخ التعليم في مكة المكرمة ، د. عبدالرحمن صالح عبدالله ، دار الشروق ، جدة ، ط1 ، 1403هـ/1982م .

- 40- التاريخ الشامل للمدينة المنورة ، د. عبدالباسط بدر ، الناشر : المؤلف نفسه ، ط 1 ، 1414هـ/1993م .
- 41- تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، أحمد الشايب ، دار القلم ، بيروت ، د.ت .
- 42- تاريخ الشعر العربي ، محمد عبدالعزيز الكفراوي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، 1388هـ/1968م .
- 43- تاريخ المخلاف السليماني ، محمد بن أحمد العقيلي ، الناشر : المؤلف نفسه ، ط 3 ، 1410هـ/1989م .
- 44- تاريخ مكة ، أحمد السباعي ، مطبوعات نادي مكة الثقافي ، ط 7 ، 1414هـ/1994م .
- 45- تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ، محمد بن الضياء ، تحقيق عادل عبدالحميد العدوي ، المكتبة التجارية ، مكة المكرمة ، ط 1 ، 1416هـ/1996م .
- 46- تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت .
- 47- التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر ، محمد الحبيب الهيلة ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ط 1 ، 1414هـ/ 1994م .
- 48- التبر المسبوك في ذيل السلوك ، شمس الدين السخاوي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، د.ت .
- 49- التجربة الشعرية عند ابن المقرب ، د. عبده قلقيلة ، منشورات النادي الأدبي بالرياض ، ط 1 ، 1407هـ/1986م .
- 50- تحفة اللطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف ، جار الله بن فهد ، تعليق محمد سعيد كمال ومحمد منصور الشقحاء ، مطبوعات نادي الطائف الأدبي ، د.ت .
- 51- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، شمس الدين السخاوي ، عني بطبعه ونشره أسعد الحسيني ، مطبعة دار نشر الثقافة ، القاهرة ، 1399هـ/1979م (ج 1 ، 2) ، 1400هـ/1980م (ج 3) .
- 52- تحقيق النصوص ونشرها ، د. عبدالسلام هارون ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط 2 ، 1385هـ/1965م .
- 53- التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة ، د. إبراهيم هلال ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1395هـ/1975م .

- 54- التصوف الثورة الروحية في الإسلام ، د. أبو العلاء عفيفي ، دار المعارف ، القاهرة ، 1383هـ.
- 55- التصوف في الإسلام ، د. عمر فروخ ، مكتبة منيمنة ، بيروت ، 1366هـ/1947م .
- 56- التصوف المنشأ والمصادر ، إحسان إلهي ظهير ، إدارة ترجمان السنة ، لاهور ، ط1 ، 1406هـ.
- 57- التعليم في المدينة المنورة ، ناجي محمد الأنصاري ، دار المنار ، القاهرة ، ط1 ، 1414هـ/1993م .
- 58- تمثال الأمثال ، محمد بن علي العبدري ، تحقيق د. أسعد ذبيان ، دار المسيرة ، بيروت ، ط1 ، 1402هـ .
- 59- التمثيل الصوتي للمعاني ، د. حسني عبدالجليل يوسف ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، ط1 ، 1418هـ/1998م .
- 60- تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب ، عبدالرحمن بن عبدالله باكثير ، تحقيق د. رشيد عبدالرحمن صالح ، منشورات وزارة الإعلام ، بغداد ، ط1 ، 1396هـ/1976م .
- 61- التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية ، عبدالله عبدالجبار ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، 1379هـ/1959م .
- 62- جامع الترمذي ، إشراف ومراجعة صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ ، دار السلام ، الرياض ، ط1 ، 1420هـ/1999م .
- 63- الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، جار الله بن ظهيرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ط2 ، 1357هـ/1938م .
- 64- جدة في مطلع القرن العاشر الهجري ، نوال سراج ششة ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، ط1 ، 1406هـ/1986م .
- 65- الجواهر الثمينة في محاسن المدينة ، محمد كبريت بن عبدالله الحسيني ، تحقيق د. عائض الرادادي ، مطبعة سفير ، الرياض ، ط1 ، 1419هـ/1998م .
- 66- ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً ، د. محمود الربداوي ، دار قتيبة ، ط1 ، 1402هـ/1982م .
- 67- الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، د. أحمد فوزي الهيب ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1406هـ/1986م .

- 68- الحماسة ، البحتري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (طبعة مصورة) ، 1387هـ/1967م .
- 69- الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن الهجريين ، طرفة العبيكان ، مطبوعات مكتبة الملك فهد ، الرياض ، ط1 ، 1416هـ/1996م .
- 70- خزانة الأدب وغاية الأرب ، ابن حجة الحموي ، شرح عصام شعيتو ، دار الهلال ، بيروت ، ط1 ، 1407هـ/1987م .
- 71- خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب ، عبدالقادر البغدادي ، تحقيق د. عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط2 ، 1399هـ/1979م .
- 72- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، محمد المحبي ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، د.ت .
- 73- خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، أحمد زيني دحلان ، المطبعة الخيرية ، مصر ، ط1 ، 1305هـ .
- 74- الدارس في تاريخ المدارس ، عبدالقادر النعيمي ، تحقيق جعفر الحسني ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1408هـ/1988م .
- 75- درة الحجال في أسماء الرجال ، ابن القاضي (أحمد بن محمد المكناسي) ، تحقيق د. محمد الأحمد أبو النور ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ط1 ، 1391هـ .
- 76- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، أحمد بن علي المقرئ ، تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، 1416هـ/1995م .
- 77- الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، عبدالقادر الجزيري ، أعده للنشر : حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ، ط1 ، 1403هـ .
- 78- درر النحور (ديوان ابن هتيمل) ، دراسة وتحقيق د. عبدالولي الشميري ، مؤسسة الإبداع للثقافة والآداب ، ط1 ، 1418هـ/1997م .
- 79- الدر الكمين بذيّل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، عمر بن فهد ، تحقيق د. عبدالملك بن دهيش ، مكتبة النهضة الحديثة ، مكة ، ط1 ، 1421هـ/2000م .

- 80- دلائل الإعجاز ، عبدالقاهر الجرجاني ، دار المعرفة ، بيروت ، 1398هـ/1978م .
- 81- الدليل الشافي على المنهل الصافي ، ابن تغري بردي ، تحقيق فهم محمد شلتوت ، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط 1 ، 1403هـ/1983م .
- 82- ديوان البحري ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 2 ، 1397هـ/1977م .
- 83- ديوان بشار بن برد ، أعده للنشر : محمد الطاهر بن عاشور ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط 2 ، 1387هـ/1967م .
- 84- ديوان أبي تمام (بشرح الخطيب التبريزي) ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 3 ، 1403هـ/1983م .
- 85- ديوان جميل بثينة ، تحقيق د.إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 2 ، 1416هـ/1996م .
- 86- ديوان الحطيئة (برواية وشرح ابن السكيت) ، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 1 ، 1407هـ/1987م .
- 87- ديوان ابن خفاجة ، تحقيق مصطفى غازي ، دار المعارف ، مصر ، ط 1 ، 1380هـ/1960م .
- 88- ديوان ابن الرومي ، تحقيق د. حسين نصار (وشارك في التحقيق عدد من الباحثين في مركز تحقيق التراث بالقاهرة) ، لم يذكر مكان الطباعة وتاريخها ، وتاريخ الإيداع في دار الكتب 1401هـ/1981م .
- 89- ديوان صفي الدين الحلي ، دار صادر ، بيروت ، 1382هـ/1962م .
- 90- ديوان الطغرائي ، تحقيق د. علي جواد الطاهر ود. يحيى الجبوري ، دار القلم ، الكويت ، ط 2 ، 1403هـ .
- 91- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت ، (طبعة مصورة) ، د.ت .

- 92- ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي ، تحقيق أيمن ميدان ، منشورات النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، ط 1 ، 1413هـ/1992م .
- 93- ديوان أبي فراس (رواية أبي عبدالله الحسين بن خالويه) ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .
- 94- ديوان الفرزدق ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .
- 95- ديوان كعب بن زهير (صنعة أبي سعيد السكري) ، وضع هوامشه وفهارسه : د. حنا نصر الحثي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 1 ، 1414هـ/ 1994م .
- 96- ديوان ابن المقرب ، تحقيق د.عبدالفتاح الحلو ، مكتبة التعاون الثقافي ، الأحساء ، ط 1 ، 1383هـ/1963م .
- 97- ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، 1397هـ/1977م .
- 98- ديوان أبي نواس ، تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1404هـ .
- 99- الرثاء ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 4 ، 1407هـ/1987م .
- 100- الرحلة الحجازية ، محمد البتوني ، مكتبة المعارف ، الطائف ، د.ت .
- 101- رحلة الشتاء والصيف ، محمد كبريت بن عبدالله الحسيني ، تحقيق محمد سعيد الطنطاوي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط 2 ، 1385هـ .
- 102- ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ، شهاب الدين الخفاجي ، تحقيق د. عبدالفتاح الحلو ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ط 1 ، 1386هـ/1967م .
- 103- السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة ، محمد بن عبدالله بن حميد ، تحقيق د. بكر أبو زيد و د. عبدالرحمن العثيمين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 1 ، 1416هـ/1996م .
- 104- سر صناعة الإعراب ، ابن جني ، تحقيق د. حسن هندراوي ، دار القلم ، دمشق ، ط 2 ، 1413هـ/1993م .
- 105- السرقات الأدبية ، د. بدوي طبانة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط 4 ، 1395هـ/1975م .

- 106- سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر ، علي بن معصوم المدني ، نشر أحمد ناجي الجمالي ومحمد أمين الخانجي وأخيه ، القاهرة ، ط1 ، 1324هـ.
- 107- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، محمد المرادي ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط3 ، 1408هـ/1988م .
- 108- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، عبد الملك العصامي ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، د.ت .
- 109- سنن ابن ماجة ، إشراف ومراجعة : صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ ، دار السلام ، الرياض ، ط1 ، 1420هـ/1999م .
- 110- السيرة النبوية ، أبو الحسن الندوي ، دار الشروق ، جدة ، ط3 ، 1401هـ.
- 111- السيرة النبوية ، ابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، طبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط2 ، 1375هـ/1955م .
- 112- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابن العماد الحنبلي ، تحقيق محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، ط1 ، 1413-1414هـ/1993م .
- 113- شرح التلخيص في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، شرحه وخرج شواهده : محمد هاشم دويدري ، دار الجيل ، بيروت ، ط2 ، 1402هـ/1982م .
- 114- الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري ، د. عائض الرادادي ، مطابع الشريف ، ط2 ، 1413هـ/1992م .
- 115- شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ ، د. نصرت عبدالرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط1 ، 1397هـ/1977م .
- 116- الشعر الصوفي إلى مطلع القرن التاسع للهجرة ، د. محمد بن سعد بن حسين ، مطابع الفرزدق ، الرياض ، ط1 ، 1411هـ/1990م .
- 117- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، 1402هـ/1982م .
- 118- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، محمد بن أحمد الفاسي ، تحقيق لجنة من كبار العلماء والأدباء ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط1 ، 1376هـ/1956م .

- 119- الشوارد ، عبدالله بن محمد بن خميس ، دار اليمامة ، الرياض ، ط1 ، 1394هـ/ 1974م .
- 120- الصاحبى ، أحمد بن فارس ، تحقيق السيد أحمد صقر ، مطبعة عيسى البابى الحلبي ، القاهرة ، د.ت .
- 121- الصارم المنكي في الرد على السبكي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي ، صححه وعلق عليه الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري ، منشورات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، ط1 ، 1403هـ/ 1983م .
- 122- الصحاح ، إسماعيل الجوهري ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط2 ، 1399هـ/ 1979م .
- 123- صحيح البخاري ، المكتبة الإسلامية ، إستانبول ، د.ت .
- 124- صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، المكتبة الإسلامية ، إستانبول ، د.ت .
- 125- الصنائع ، أبو هلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط1 ، 1371هـ .
- 126- الصورة بين البلاغة والنقد ، د. أحمد بسام ساعي ، المنارة للطباعة والنشر ، ط1 ، 1404هـ/ 1984م .
- 127- الصورة الشعرية واستيحاء الألوان ، د. يوسف حسن نوفل ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1405هـ/ 1985م .
- 128- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د. جابر عصفور ، دار المعارف ، القاهرة ، 1400هـ/ 1980م .
- 129- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ، د. نصرت عبدالرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط2 ، 1403هـ/ 1982م .
- 130- الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد ، د. إبراهيم الغنيم ، الشركة العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 1416هـ/ 1996م .
- 131- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري - دراسة في أصولها وتطورها ، د. علي البطل ، دار الأندلس ، بيروت ، ط3 ، 1403هـ/ 1983م .

- 132- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، شمس الدين السخاوي ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، د.ت .
- 133- طبقات الشعراء ، عبدالله بن المعتز ، تحقيق عبدالستار فراج ، دار المعارف ، القاهرة ، 1388هـ/1968م .
- 134- طبقات الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (طبعة مصورة) ، 1402هـ/1982م .
- 135- الطراز ، يحيى بن حمزة العلوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1400هـ/1980م .
- 136- ظاهرة الابتذال في اللغة والنقد ، د. محمد علي رزق الخفاجي ، الدار الفنية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 1407هـ/1986م .
- 137- عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية ، العراق ، إيران) ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1403هـ/1983م .
- 138- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، د. محمود رزق سليم ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1 ، 1369هـ/1951م (ج4) ، 1385هـ/1965م (ج8).
- 139- عضوية الموسيقى في النص الشعري ، د. عبدالفتاح صالح نافع ، مكتبة المنار ، الأردن/الزرقاء ، ط1 ، 1405هـ/1985م .
- 140- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، محمد بن أحمد الفاسي ، (ج1 تحقيق محمد حامد الفقي ، الأجزاء 2 - 7 تحقيق فؤاد سيد ، ج8 تحقيق د. محمود الطناحي) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط2 ، 1406هـ/1986م .
- 141- العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، علي بن حسين السليمان ، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1393هـ/1973م .
- 142- علم البيان بين النظريات والأصول ، د. ديزيرة سقال ، دار الفكر العربي ، بيروت ، ط1 ، 1418هـ/1997م .
- 143- عمارة المدرسة في مصر والحجاز في القرن التاسع الهجري دراسة مقارنة ، عدنان محمد الحارثي ، مطبوعات معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط1 ، 1418هـ/1997م .

- 144- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، الحسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، بيروت ، د.ت .
- 145- عمر بن أبي ربيعة المخزومي وفصل في تطور الغزل والنسيب في الشعر العربي ، د. عمر فروخ ، دار لبنان للطباعة والنشر ، بيروت ، 1403هـ/1983م .
- 146- عيون المسائل من أعيان الرسائل ، عبدالقادر الطبري ، مطبعة السلام ، القاهرة ، 1316هـ .
- 147- غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ، عبدالعزيز بن عمر بن فهد ، تحقيق فهد محمد شلتوت ، مطبوعات معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط1 ، 1406هـ/1986م (ج1) ، 1409هـ/1989م (ج2، 3) .
- 148- الغزل في العصر الجاهلي ، د. أحمد الحوفي ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، 1370هـ/1950م .
- 149- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ، جمع وترتيب أحمد بن عبدالرزاق الدويش ، دار أولي النهى ، ط1 ، 1411هـ .
- 150- أبو الفتح البستي حياته وشعره ، د. محمد مرسي الخولي ، دار الأندلس ، ط1 ، 1401هـ/1980م .
- 151- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ، منشورات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، ط1 ، 1403هـ / 1983م .
- 152- فرجة النظر في تراجم رجال من بعد القرن الثالث عشر ، أحمد المعافا ، دار العلم ، جدة ، ط1 ، 1417هـ .
- 153- الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ، جرجي زيدان ، دار الهلال ، القاهرة ، 1389/1969م .
- 154- الفن والصناعة في مذهب أبي تمام ، د. محمود الربدابي ، المكتب الإسلامي 1391هـ/1971م .
- 155- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات ، عبدالحی الكتانی ، المطبعة الجديدة ، الطالعة ، 1347هـ .
- 156- في النقد الأدبي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط6 ، 1401هـ/1981م .

- 157- في النقد والأدب ، إيليّا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط5 ، 1406هـ/ 1986م .
- 158- القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، د.ت .
- 159- قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط7 ، 1403هـ/ 1983م .
- 160- قضايا النقد الأدبي ، د. بدوي طبانة ، دار المريخ ، الرياض ، ط2 ، 1404هـ/ 1984م .
- 161- القول المبين في الضرورة الشعرية عند النحويين مع دراسة تطبيقية على ألفية ابن مالك ، د. إبراهيم الحندود ، إصدار نادي القصيم الأدبي ، بريدة ، 1422هـ/ 2001م .
- 162- الكامل في التاريخ ، عز الدين بن الأثير ، تحقيق د. عمر عبدالسلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ، 1417هـ/ 1997م .
- 163- الكامل في النقد الأدبي ، كمال أبو مصلح ، المكتبة الحديثة ، بيروت ، ط5 ، 1403هـ/ 1983م .
- 164- كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، أبو إسحاق الحربي ، تحقيق حمد الجاسر ، منشورات دار اليمامة ، الرياض ، ط2 ، 1401هـ .
- 165- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، مكتبة الإسلامية والجعفري تبريزي ، طهران ، ط3 ، 1387هـ/ 1967م .
- 166- الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، نجم الدين الغزي ، تحقيق د. جبرائيل سليمان جبور ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط2 ، 1399هـ/ 1979م .
- 167- لحظ الألاحظ بذيّل طبقات الحفاظ ، محمد بن فهد ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ت .
- 168- لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .
- 169- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير ، تحقيق د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة ، منشورات دار الرفاعي ، الرياض ، ط2 ، 1403هـ/ 1983م .
- 170- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد ابن قاسم ، مكتبة النهضة الحديثة ، مكة

- المكرمة ، 1404هـ (طبع بإشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين).
- 171- محاولات جديدة في النقد الإسلامي ، د. عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، 1401هـ .
- 172- المختار المصون من أعلام القرون ، محمد بن حسن بن عطيل موسى ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ، ط1 ، 1415هـ .
- 173- المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ، الشيخ عبدالله مرداد أبو الخير ، اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي وأحمد علي ، عالم المعرفة ، جدة ، ط2 ، 1406هـ / 1986م .
- 174- المدائح النبوية بين المعتدلين والغلاة ، د. محمد بن سعد بن حسين ، مطابع الفرزدق ، الرياض ، ط1 ، 1406هـ / 1986م .
- 175- المدينة المنورة في رحلة العياشي ، دراسة وتحقيق محمد أمحزون ، دار الأرقم ، الكويت ، ط1 ، 1408هـ / 1988م .
- 176- المدينة المنورة في العصر المملوكي ، عبدالرحمن المديرس ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ط1 ، 1422هـ / 2001م .
- 177- مرآة الحرمين ، إبراهيم رفعت باشا ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط1 ، 1344هـ / 1925م .
- 178- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، د. عبدالله الطيب المجذوب ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم ، ط4 ، 1411هـ / 1991م .
- 179- المستطرف في كل فن مستظرف ، شهاب الدين الأبهسي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1406هـ / 1986م .
- 180- المستقصى في أمثال العرب ، جار الله الزمخشري ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد ، ط1 ، 1381هـ / 1962م .
- 181- مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، د. بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط4 ، 1406هـ / 1986م .
- 182- مطلع القصيدة العربية ودلالاته النفسية ، د. عبدالحليم حفني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1407هـ / 1987م .

- 183- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول ، الشيخ حافظ الحكمي ، دار المطبعة السلفية ، القاهرة ، ط 3 ، 1404هـ/1983م
- 184- المعارضات في الشعر العربي ، د. محمد بن سعد بن حسين ، دار عبدالعزيز آل حسين للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط 2 ، 1421هـ/2000م .
- 185- معالم الأدب العربي في العصر الحديث ، د. عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 1 ، 1405هـ/1985م .
- 186- معالم مكة التاريخية والأثرية ، عاتق بن غيث البلادي ، دار مكة ، مكة المكرمة ، ط 1 ، 1400هـ/1980م .
- 187- معجم الأبيات الشهيرة ، حسن نمر دندشي ، جروس برس ، طرابلس ، د. ت .
- 188- معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1411هـ .
- 189- المعجم الأدبي ، جبور عبدالنور ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 2 ، 1404هـ/1984م .
- 190- المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (شمال المملكة) ، حمد الجاسر ، منشورات دار اليمامة ، الرياض ، ط 1 ، 1397هـ/1977م .
- 191- معجم الشيوخ ، عمر بن فهد ، تحقيق محمد الزاهي ، دار اليمامة ، الرياض ، 1402هـ .
- 192- معجم قبائل الحجاز ، عاتق بن غيث البلادي ، دار مكة ، مكة المكرمة ، ط 1 ، 1399هـ .
- 193- معجم قبائل المملكة العربية السعودية ، حمد الجاسر ، النادي الأدبي بالرياض ، 1401هـ .
- 194- معجم لآلئ الشعر ، د. إميل يعقوب ، منشورات المجموعة ، بيروت ، ط 2 ، 1418هـ/1998م .
- 195- معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، مطبعة الترقى ، دمشق ، 1376هـ (ج 1 ، 2 ، 3) ، 1377هـ (ج 5) ، 1378هـ (ج 6 ، 8) ، 1379هـ (ج 9) ، 1380هـ (ج 10 ، 11 ، 12) .
- 196- معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، مصطفى الخطيب ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 1 ، 1416هـ/1996م .

- 197- معجم معالم الحجاز ، عاتق بن غيث البلادي ، دار مكة ، مكة المكرمة ، ط 1 ، 1400هـ/ 1980م .
- 198- المعجم المفصل في الأدب ، د. محمد التونجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1413هـ/ 1993م .
- 199- معجم المناهي اللفظية ، د. بكر أبو زيد ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، ط 1 ، 1410هـ/ 1989م .
- 200- معجم اليمامة ، عبدالله بن خميس ، مطابع الفرزدق ، الرياض ، ط 3 ، 1400هـ .
- 201- مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد) ، حمد الجاسر ، منشورات ، دار الرفاعي ، الرياض ، ط 1 ، 1404هـ/ 1984م .
- 202- ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة ، محمد بن رُشيد ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 1408هـ .
- 203- الممالك وعلاقاتهم الخارجية ، د. أحمد محمد عدوان ، دار الصحراء السعودية ، الرياض ، ط 1 ، 1405هـ/ 1985م .
- 204- منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاية الحرم ، علي السنجاري ، تحقيق د. جميل المصري ، د. ماجدة فيصل زكريا ، د. ملك محمد خياط ، مطبوعات مركز إحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط 1 ، 1419هـ/ 1988م .
- 205- المنح المكية في شرح الهمزية ، ابن حجر الهيتمي ، تحقيق بسام محمد بارود ، المجمع الثقافي ، أبوظبي ، ط 1 ، 1418هـ/ 1998م .
- 206- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 3 ، 1406هـ/ 1986م .
- 207- منهاج الطلب عن مشاهير قبائل العرب ، محمد بن عثمان القاضي ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، ط 1 ، 1406هـ .
- 208- المنهج التاريخي لمؤرخي مكة المكرمة في القرن الحادي عشر الهجري ، د. بندر ابن محمد الهمزاني ، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، 1418هـ/ 1997م .
- 209- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، ابن تغري بردي (ج 1 ، 2 تحقيق د. محمد محمد أمين ، ج 5 تحقيق د. نبيل محمد عبدالعزيز)

- ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 1 ، 1404هـ/1984م (ج 1) ،
(2) ، 1408هـ/1988م (ج 5).
- 210- الموازنة بين الشعراء ، د. زكي مبارك ، مطبعة مصطفى البابي
الحلبي ، القاهرة ، د.ت .
- 211- موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس ، دار القلم ، بيروت ، د.ت .
- 212- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ابن تغري بردي ،
تحقيق د. جمال محمد محرز وفهيم محمد شلتوت ، الهيئة المصرية
العامة للتأليف والنشر ، 1391هـ .
- 213- النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر ، د. حسن
الهويمل ، إصدار المهرجان الوطني للتراث والثقافة ، الرياض ،
1412هـ/1992م .
- 214- نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس ، العباس بن علي الموسوي ،
مكتبة المعارف ، الطائف ، د.ت .
- 215- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ، عبدالحى الحسني ،
طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد ، ط 2 ، 1393هـ .
- 216- نظم العقيان في أعيان الأعيان ، جلال الدين السيوطي ، حرره د.
فيليب حتي ، المطبعة السورية الأمريكية ، نيويورك ،
1346هـ/1927م .
- 217- نفحات الأزهار على نسيمات الأسحار في مدح النبي المختار
(شرح البديعية المزرية بالعقود الجوهريّة) ، عبدالغني النابلسي ،
طبعة بولاق ، 1299هـ .
- 218- نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، محمد المحبي ، تحقيق د.
عبدالفتاح الحلو ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط 1 ،
1389هـ/1969م .
- 219- النقد الأدبي الحديث ، د. محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر ،
القاهرة ، 1399هـ/1979م .
- 220- النقد الأدبي في العصر المملوكي ، د. عبده قلقيلة ، دار الفكر
العربي ، القاهرة ، ط 2 ، 1412هـ/1991م .
- 221- النقد التطبيقي والموازنات ، د. محمد الصادق عفيفي ، مكتبة
الخانجي ، القاهرة ، 1398هـ/1978م .
- 222- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق د. محمد عبدالمنعم خفاجي ،
مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ط 1 ، 1398هـ .

- 223-النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، عبدالقادر العيدروس ، تحقيق د. أحمد حالي ، محمود الأرناؤوط ، أكرم البوشي ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1422هـ/2001م .
- 224- نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، أحمد التنبكتي ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا ، ط1 ، 1398هـ/1989م .
- 225- نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى ، جار الله بن فهد ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، مؤسسة الفرقان ، ط1 ، 1420هـ/2000م .
- 226- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، إسماعيل باشا البغدادي ، مكتبة الإسلامية والجعفري تبريزي ، طهران ، ط3 ، 1387هـ/1967م .
- 227- هذه هي الصوفية ، عبدالرحمن الوكيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط4 (طبعة مصورة) ، 1404هـ/1984م .
- 228- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، علي السمهودي ، مطبعة الآداب ، القاهرة ، 1326هـ/1908م .
- 229- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، أبو منصور الثعالبي ، تحقيق د. مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1403هـ .

ثالثاً : الرسائل الجامعية :

- 1- الحجاز (859هـ-923هـ) ، محمد طه صلاح بكري ، رسالة ماجستير ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، 1410هـ/1990م .
- 2- الحجاز في عهد الشريف حسن بن عجلان (دراسة في الأحوال السياسية والاقتصادية) ، عائض محمد الزهراني ، قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبدالعزيز ، جدة ، 1412/1413هـ .
- 3- الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي (923-648هـ) ، خالد محسن الجابري ، رسالة ماجستير ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، 1413هـ/1993م .
- 4- الرباط في مكة المكرمة منذ البدايات حتى نهاية العصر المملوكي ، دراسة تاريخية حضارية ، حسين عبدالعزيز شافعي ، رسالة

- ماجستير ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، 1416هـ/1995م
- 5- الشعر اليميني (من سنة 569هـ إلى 1045هـ) : مصادره ، موضوعاته ، خصائصه ، أعلامه ، أحمد بن حافظ الحكمي ، رسالة دكتوراه ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، القاهرة ، 1403هـ/1983م .
- 6- علم الحديث في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي ، صالح يوسف معتوق ، رسالة دكتوراه ، كلية الدعوة وأصول الدين ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، 1407هـ .
- 7- المجاورون في مكة والمدينة في العصر المملوكي (من سنة 648هـ-922هـ) ، منى بنت حسن آل مشاري ، قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، دت .
- 8- النجم بن فهد مؤرخاً ، سعاد بنت إبراهيم الحسن ، رسالة دكتوراه ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، 1415هـ/1994م .
- رابعاً : الصحف والمجلات :**
- 1- جريدة المدينة ، جدة : (ملحق الأربعاء) ، العدد 55 ، في 1404/6/5هـ .
- 2- علامات في النقد الأدبي ، جدة : مج 1 ، ج 3 ، شعبان 1412هـ .
- 3- مجلة الدارة ، الرياض : س 14 ، ع 3 (1409هـ) .
- 4- مجلة العرب ، الرياض : س 1 ، ج 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 ، 9 ، 11 (رجب 1386هـ - جمادى الأولى 1387هـ) ؛ س 5 ، ج 6 (ذو الحجة 1390هـ) ؛ س 7 ، ج 3 (رمضان 1392هـ) ؛ س 11 ، ج 11 ، 12 (الجماديان 1397هـ) ؛ س 18 ، ج 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 (رجب - ذي الحجة 1403هـ) .
- 5- مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، المدينة المنورة : العدد 8 (محرم - ربيع الأول 1425هـ) .
- 6- مجلة المنهل ، جدة : س 7 ، مج 7 ، ج 11 ، 12 (ذو القعدة والحجة 1366هـ) ؛ س 8 ، مج 8 ، ج 1 (المحرم 1367هـ) .

المحتوى

المقدمة 8-1

التمهيد : بيئة مكة والمدينة في القرنين 43-9

- 1 - الحياة السياسية 10
- 2 - الحياة الاجتماعية 30
- 3 - الحياة الفكرية والأدبية 39

الفصل الأول : المؤثرات العامة في الشعر 105-44

- 1 - مجاورة الحرمين الشريفين 45
- 2 - التأليف 61
- 3 - المدارس والأربطة والمكتبات 72
- 4 - الرحلات والمواسم الدينية 87
- 5 - الأحداث السياسية 94
- 6 - تشجيع الأمراء والحكام 98
- 7 - الدوافع الذاتية والنفسية 102

الفصل الثاني : مصادر الشعر 180-106

- 1 - كتب التراجم 108
- 2 - المصادر التاريخية 147
- 3 - الدواوين الشعرية 163
- 4 - مصادر أخرى 172

الفصل الثالث : أغراض الشعر 378-181

- 1 - المديح 182
- 2 - الشعر الديني 231
- 3 - الرثاء 257
- 4 - الشعر السياسي 274
- 5 - الإخوانيات 289

310	6 - الحنين والشكوى
325	7 - الغزل
344	8 - الفخر والحماسة
354	9 - الهجاء
359	10 - الوصف
366	11 - الحكمة
371	12 - الشعر التعليمي

الفصل الرابع : الدراسة الفنية 514-379

380	1 - المعاني
411	2 - بناء القصيدة
438	3 - الألفاظ والتراكيب
468	4 - الأخيلة والصور
496	5 - الأوزان والقوافي

الفصل الخامس : من شعراء القرنين 574-515

517	1 - محمد بن عبدالقوي
531	2 - أحمد العليف
557	3 - عبدالعزيز الزمزمي

الفصل السادس : الشعر في ميزان النقد 602-575

576	1 - آراء نقاد العصر
592	2 - آراء النقاد المحدثين
598	3 - نقد وتقويم

الخاتمة 616-603

فهرس الشعراء المترجم لهم 623-618

ثبت المصادر والمراجع 648-624

المحتوى 652-649

